

مركز البحوث والدراسات

الإسلام لعصرنا

أ. د. جعفر شيخ إدريس

www.albayan.co.uk

الإسلام لعصرنا

تأليف

أ. د. جعفر شيخ إدريس

ح مجلة البيان، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إدريس، جعفر شيخ

الإسلام لعصرنا./ جعفر شيخ إدريس -الرياض، ١٤٣٥هـ

ص ٦٦١، ٥ ,١٧× ٢٤ سم

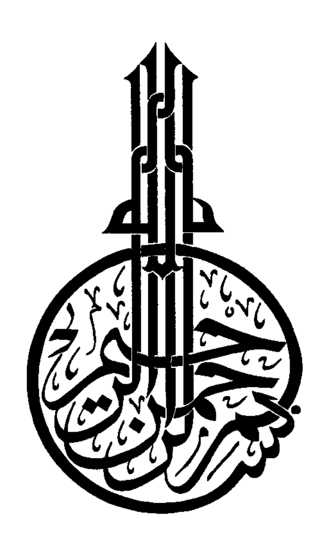
ردمك: ٦ - ٤٧ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ـ الإسلام - مقالات ومحاضرات أ. العنوان

ديوي ٨ ,٢١٠ ١٤٣٥/٢١٣٣

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢١٣٣

ردمك: ٦ - ٤٧ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.. وبعد:

فقد حظيت سلسلة المقالات الشهرية التي يكتبها فضيلة الشيخ الدكتور جعفر شيخ إدريس - حفظه الله - في زاوية (الإسلام لعصرنا)، باهتمام كبير ومتابعة دقيقة من جانب القراء الكرام، حيث استمر الشيخ بالكتابة فيها لمدة تزيد على إحدى عشرة سنة تقريباً، كانت محصلتها (١٠٧) مقالات.

ويميز هذه المقالات أنها ثمرة علم راسخ، وأفق واسع، وصفاء منهجي، وتجربة خصبة.

إضافة إلى ما تميز به الشيخ من حسن المزاوجة بين الأسلوب العربي في معالجة القضايا العامة، والأسلوب الغربي في النظر إلى شؤون العصر، ولا غرابة في ذلك، ففضيلته ذو خبرة عميقة في الثقافة العربية الأصيلة بصورة عامة وفي العلوم الشرعية على

وجه الخصوص، إلى جانب معايشته الحياة الغربية من خلال إقامته الطويلة في الولايات المتحدة الأمريكية وطوافه في قارات الدنيا، داعية ومحاضراً، وعلماً ينشر الدين ويذب عن الرسالة ويحمل هموم الإنسان المسلم، رافعاً بجدارة مشعل الهداية لأهل الأرض.

وقد شرفت مجلة البيان بنشر أربعة أجزاء متفرقة من مقالات الشيخ، وها نحن نجمعها في إصدار واحد ليسهل الوصول إليها والاستفادة منها، ونضيف عليها (١٥) مقالة أخرى نشرت في مجلة البيان ولم تنشر في الأجزاء الأربعة السابقة.

ومع الأسف الشديد فقد توقف فضيلته عن الاستمرار في الكتابة بسبب مرضه الذي أقعده، فكان آخر مقالة كتبها في العدد رقم (٣٠٠) لشهر شعبان ١٤٣٣هـ - يوليو ٢٠١٢م.

فنسأل الله أن يشفيه ويعافيه، ويجعل ما أصابه كفارة وطهارة، ويرفع درجاته في الدارين.

مجلة البيان

الإسلام لعصرنا.. لماذا وكيف؟

(البيان ١٣٧ ـ محرم ١٤٢٠هـ ـ مايو ١٩٩٩م)

الإسلام كما أنزله الله ـ تعالى ـ على محمد ﷺ ـ ومن غير تحريف ولا تبديل ـ هو الدين الذي رضيه ـ سبحانه وتعالى ـ للناس أجمعين في كل مكان وكل عصر منذ مبعث رسوله الأمين وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

فالإسلام لعصرنا كما كان للعصور قبلنا، لكن إذا كانت نصوص الشرع لا تتغير ولا تتبدل؛ فإن أحوال الناس تتغير وتتبدل؛ فماذا يفعلون؟

يقول المتذبذبون: دعوا النصوص كما هي؛ لكن أعيدوا تفسيرها وأعطوها من المعاني ما يتناسب مع ثقافة عصركم كما أعطاها من سبقكم ما يتناسب مع ثقافة عصره؛ فإن النصوص وحي إلهي لكن فهمها جهد بشري. النصوص مطلقة لكن فهمها نسبي.

يقول الثابتون على الحق: لكن نصوص القرآن نزلت بلغة عربية ذات معانٍ محددة يعقلها العارفون بهذه اللغة ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [**يوسف**: ٢] ثم جاءت السنة لتزيد المعاني اللغوية بياناً، ثم إن أصحاب رسول الله ﷺ فسروا هذه النصوص

بحسب ما فهموا من لغة القرآن والسنة التي كانت لغتهم، وبحسب ما سمعوا من رسول الله ﷺ، وبحسب ما شاهدوا من المناسبات التي نزلت بسببها الآيات، والأحوال التي ذكرت فيها الأحاديث، ثم جاءت الأجيال تلو الأجيال من أئمة المسلمين وعلمائهم لتَفْهم من نصوص الكتاب والسنة هذا الفهم نفسه كما تدل عليه مؤلفاتهم؛ فالقول بأنهم فسروا النصوص بحسب ثقافة عصورهم إنما هو مجرد وهْم تبطله الحقائق التاريخية.

يقول المتذبذب: أتعني أنهم لم يختلفوا؟

يقول الثابت: لم يختلفوا في المعاني الأساسية للنصوص إلا اختلافات يسيرة، لكن اختلفوا فيما يمكن أن يستنتج من النص ـ مثلاً ـ أو في المسائل الاجتهادية التي لا نصوص فيها، لكن المهم أن اختلافهم لم يكن بسبب اختلاف ثقافات عصورهم كما تدعي، وإنما كانت اختلافات فردية حتى في داخل العصر الواحد، وكانت اختلافات بين من التزموا بذلك المنهج الصحيح الذي بيَّنتُه لك بإيجاز وبين الذين لم يلتزموا منهجاً علمياً؛ وإنما أخذوا يفسرون النصوص بحسب أهوائهم ورغباتهم.

ـ أتعني أن لتفسير نصوص الكتاب والسنة منهجاً علمياً؟

ـ بل أعني أن لتفسير النصوص كلها سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية مناهج علمية.

ـ كيف؟

ـ أظنك تتكلم الإنجليزية.

ـ نعم.

ـ إذا قرأت قصيدة من قصائد شكسبير مثلاً، فكيف تفهمها؟

ـ أرجع إلى الكتب التي تولتْ شرحها، وبينتْ ما قصده شكسبير منها.

ـ أتعني أنك لا تفهمها بحسب ثقافة عصرك أو ثقافة بلدك العربي؟

ـ لا؛ بل لأنني أريد أن أعرف ما قصده شكسبير من كلماته.

ـ أتعني أنك تعطي كلماته المعاني التي قصدها والتي كانت شائعة في عصره حتى لو كانت تلك المعاني مخالفة للمعاني السائدة الآن في اللغة الإنجليزية؟

ـ لا شك في ذلك؛ لأن قصدي أن أعرف ما قال شكسبير، فإذا أعطيت كلماته المعاني السائدة الآن فإني أكون قد قوَّلته ما لم يقل.

ـ هل تفعل الشيء نفسه بالنسبة لنص من نصوص أرسطو ـ مثلاً ـ إذا كنت تحاول أن تكون مختصاً بفلسفته؟ أعني: هل تحاول أن تدرس لغته التي كتب بها فلسفته؟

ـ أجل، وأحاول أن لا أخلط بينها وبين اللغة اليونانية الحديثة؛ لأن قصدي أن أفهم ما قال أرسطو.

ـ هل تكتفي في فهم نصوصه إذن بدراستك للغة اليونانية التي كتب بها، أم أن هنالك وسائل أخرى تعينك على فهم كلامه؟

ـ نعم هنالك وسائل أخرى منها: أن أدرس كيف فهمه معاصروه؛ لأنهم أدرى به، ومنها: الاستعانة بالخبراء الذين سبقوني.

ـ ما أظنك إلا متبعاً منهجك هذا نفسه في دراستك لشاعر جاهلي كامرئ القيس.

ـ بلى؛ فأنا لا أعرف لهذا المنهج بديلاً في دراسة النصوص البشرية.

ـ هذا المنهج الذي اتبعته في دراستك لما أسميته بالنصوص البشرية هو المنهج العلمي الذي نريد منك اتباعه في دراستك للنصوص الإسلامية. نريد أن يكون همك هو أن تفهم مراد الله ومراد رسوله بقدر المستطاع، وأن تكون أميناً في ذلك؛ لا تُقوِّل الله أو رسوله ما لم يقولا، وأن تقرر معنى نصوصهما كما هي حتى لو رأيتها مخالفة لما هو سائد في عصرك.

ـ لكن هنالك فوارق مهمة ـ أراك قد أغفلتها ـ بين النصوص البشرية والنصوص الإلهية.

ـ ما هي؟

ـ منها: أنني أستطيع أن أفهم مراد البشر؛ لأنهم مخلوقون محدودون يخاطبونني بلغة محدودة، أما الله ـ تعالى ـ فمطلق؛ فلا يمكن أن تسع اللغة المحدودة معانيه المطلقة؛ لذلك كان من حق كل إنسان أن يفسرها بلغته المحدودة حتى تتسع معانيها فتقترب من المطلق!!

ـ دعك يا أخي من الكلام الغامض عن تفسير المطلق والمحدود؛ فإنها ألفاظ لا طائل تحتها؛ والله ـ تعالى ـ لم يسمِّ نفسه ولا سماه رسوله بالمطلق ولا وصفه بذلك. إن خلاصة ما تريد أن تنتهي إليه هو أن البشر حين يتكلمون باللغة العربية يكون لكلامهم معنى محدد يمكن معرفته بطريقة علمية، وأما إذا خاطَبَنَا اللهُ بهذه اللغة فإنه لا يكون لكلامه معنى يمكن معرفته بطريقة علمية! ألا ترى أنك جعلت الله ـ تعالى ـ عاجزاً عما جعلت البشر قادرين عليه؟ كيف يستطيع البشر حين يخاطبوننا باللغة العربية أن يوصلوا معانيهم التي قصدوها إلينا ولا يستطيع رب البشر أن يفعل ذلك، وقد قال إنه إنما خاطبنا بهذه اللغة لنفهم عنه ما يقول؟

ـ هذا بيان معقول؛ لكنَّ هنالك فارقاً آخر هو أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإذا أعطينا نصوصه المعاني ذاتها التي أعطاها إياها الصحابة ـ مثلاً، فإنا نكون قد حصرناها؛ وبذلك حصرنا الإسلام في زمان معين ومكان معين!

ـ فما البديل إذن؟

ـ البديل هو كما قلت لك: أن يفسر كل أهل عصرٍ تلك النصوص بما يتناسب مع ثقافة عصرهم.

ـ حتى لو كانت هذه التفاسير متضاربة متناقضة؟

ـ نعم؛ لأن فهم النصوص الإلهية هو ـ كما قلت لك ـ نسبي؛ فما يفهمه أهل كل عصر صحيح بالنسبة لهم حتى لو كان غير صحيح بالنسبة لغيرهم.

ـ هل هذا هو ما فهمته من مقولة: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان؟

ـ أجل، وما أراك قادراً على الإتيان بفهم غيره أو أحسن منه.

ـ إذا كانت صلاحية الكلام لكل زمان ومكان تعني أن تُغيَّر معانيه لتناسب أهواء الناس في كل زمان ومكان، فإن كل كلام حتى لو كان لأبلد الناس يمكن أن تكون له هذه الميزة.

ـ كيف؟

ـ فما على صاحبه إلا أن يقول: هذا ما أراه اليوم وفي مكاني هذا، لكنني أجيز لكل من يؤمن بمذهبي هذا وينتمي إليه أن يغير فيه ما شاء بحسب ما يعن له في زمانه ومكانه. فهل يعتقد إنسان يقدر الله حق قدره أن كلامه سبحانه يمكن أن يخضع لمثل هذا التفسير العابث؟

ـ فما معنى كون الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان إذن؟

ـ معناه أنه كما أنزله الله ـ ومن غير تحريف ولا تبديل ـ صالح لكل من يريد الهداية من الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان. والسر في هذا أنه تنزيل من حكيم عليم، علم ما هو صالح لعباده بما هم به بشر، لا بما هم به أهل هذا العصر أو ذاك، ولا بما هم به عرب أو عجم، أو أصحاب زراعة أو صناعة، أو في شرق الأرض أو غربها، أو غير ذلك من الاختلافات التي لا تؤثر في بشريتهم، فأنزل عليه كتاباً غير مقيد بشيء من هذا كله.

ـ إذن فما معنى عبارتك: «الإسلام لعصرنا»؟

ـ معناها أنه إذا كانت نصوص الكتاب والسنة لا تتغير ولا تتبدل فإن أحوال الناس تتبدل وتتغير، فيجدُّ لهم من المشكلات اللغوية والفكرية، والعملية، ما يحتاجون معه إلى أن يُعانوا على فهم دينهم الفهم الصحيح، وأن تزداد ثقتهم فيه وإيمانهم به، وذلك يكون:

بتفسير حقائقه الثابتة بلغة جديدة يفهمونها، إن كانوا عرباً، أو بترجمتها إلى لغاتهم إن لم يكونوا عرباً، وبتقويم ما يجدُّ من أفكار، والرد على ما يُثار من شبهات، وبإيجاد الحلول الإسلامية لما يجدُّ من مشكلات عملية، وبالاستفادة من الكشوف العلمية الموافقة للنصوص الإسلامية في تثبيت الإيمان والدعوة إلى الإسلام، إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تتأتى إلا بإمعان النظر في النصوص وتدبرها. إن النصوص محدودة لكن ما يُستنتج منها غير محدود، كيف لا والقرآن كتاب لا تنقضي عجائبه؟!

السلام وانتشار الإسلام

(البيان ١٢٨ - صفر ١٤٢٠هـ - يونيو ١٩٩٩م)

وقَّع رسول الله ﷺ اتفاقية صلح الحديبية مع قريش بمكة ثم قفل راجعاً مع أصحابه إلى المدينة، وبينما هم في الطريق إذ نزلت عليه ﷺ سورة الفتح: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح: ١].

سأله رجل مستغرباً: يا رسول الله، أوَ فتح هو؟

فأجابه ﷺ مؤكداً: إي، والذي نفسي بيده إنه لفتح[1].

لماذا سأل الرجل (وهو عمر) هذا السؤال مستغرباً؟

وأيَّ فتح كان فتح الحديبية؟

وهل فيه من عبرة لنا في أيامنا هذه؟

أما استغراب عمر فلأن الصلح في ظاهره لم يكن في مصلحة المسلمين؛ فهم قد مُنعوا من أداء العمرة، ولم يقاتلوا، وكان في الصلح بنود ظنها بعض الصحابة مجحفة

(١) فتح الباري، المغازي، الحديبية/ ج٧، ص٥٥٠، ط دار السلام.

بهم؛ منها: «على أنه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا»[1].

وأما نوع الفتح فيفسره قول الزهري: فما فُتِحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس. ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلَّم بعضهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[2].

قال ابن حجر مؤيداً الزهري: فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام، جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية[3].

وقال ابن هشام أيضاً مؤيداً للزهري: ويدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف[4].

نستخلص من كلام هؤلاء العلماء الثلاثة أن الفتح تمثل أساساً في كثرة عدد من دخلوا في الإسلام بسبب الصلح.

ونستخلص منه ـ أيضاً ـ أن السبب في ذلك كان السلام الذي حل محل الحرب والقتال، وأن هذا الجو السلمي أدى إلى أن يختلط الناس بعضهم ببعض من غير نكير، وإلى أن يُسمِع المسلمون المشركين دعوة الإسلام، وأن يجادلوهم ويناظروهم في جو آمن، وأن هذه الدعوة السلمية هي التي كانت سبباً في إقناع كل العقلاء بالدخول في الإسلام.

---

(١) فتح الباري، الشروط، الشروط في الجهاد، ج٥، ص ٤٢١.
(٢) فتح الباري، المغازي، الحديبية، ج٧، ص ٥٥٠.
(٣) فتح الباري، الشروط، الشروط في الجهاد، ج٥، ص ٤٢٧.
(٤) فتح الباري، المغازي، الحديبية، ج٧، ص ٥٥٠.

ما مناسبة هذا لواقعنا؟

مناسبته أن الدعاة إذا وجدوا أنفسهم في حال كهذه الحال فينبغي عليهم أن يحافظوا عليها، بل ينبغي عليهم أن يسعوا لأن تكون حالهم مع من يدعوهم مثل هذه الحال، وأن يبينوا لهم بإخلاص أن القتال والعنف ليس هدفاً من أهدافهم، بل إن كل ما يريدونه هو أن يُعْطَوْا حرية الدعوة إلى دين يرونه حقاً ويرون فيه مصلحة للمدعوين دينية ودنيوية. وهم حين يفعلون هذا سيكونون مقتفين سنة نبيهم ﷺ، انظر إلى الكلمات الرقيقة الحازمة التي خاطب بها قريشاً، والتي كانت من أسباب عقد الهدنة، قال لهم ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم؛ فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويخلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهرْ فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره»[1].

يبدو لي أن الحال في كثير من البلاد الديمقراطية ـ ولا سيما الغربية ـ شبيه إلى حد كبير بحال المسلمين مع المشركين في سَنَتَي الهدنة، فهي حال يستطيع فيها الدعاة الاختلاط بغير المسلمين، ودعوتهم ومجادلتهم؛ بل قد ثبت بالتجربة في بلد كالولايات المتحدة أن عدد الداخلين في الإسلام في ازدياد مطرد بسبب هذا الجو السلمي.

وعلى الدعاة في تلك البلاد إذن أن يحافظوا على هذا الجو السلمي حتى لو كانوا في مثل قوة النبي ﷺ وأصحابه حين عقدوا صلح الحديبية، فكيف وهم في حال ضعف؟

---

(١) البخاري، الشروط، الشروط في الجهاد.

إن أكثر ما يحرص عليه أعداء الإسلام في الغرب هو أن يصوروا المسلمين على أنهم وحوش إرهابية لا غاية لها إلا تحطيم الحضارة الغربية، وقد استغلوا وسائل الإعلام لإبــراز هــذه الصورة للمسلمين ونجحـوا في ذلك إلى حـد مـا. ولا يفرح هؤلاء بشيء فرحهم بتصريحات يطلقها إنسان أهوج يدعو فيها إلى العنف أو القتال في داخل تلك البلاد؛ لأنها تصدق دعواهم تلك، وتساعد على تنفير الناس من الدعاة المسلمين؛ لأنهم يعلمون أن الذي يرى فيك خطراً على نفسه وأهله لن يستمع إليك ولن يثق فيما تقول.

كنت في الولايات المتحدة أيام حادثة (أوكلاهوما) ولمست الذعر الذي عاشه المسلمون ـ ولا سيما رواد المساجد منهم حين طلع بعض أولئك الأعداء المُسَمَّوْن بالخبراء ليقول في بعض وسائل الإعلام: إن الفِعْلَةَ فعلة مسلمين. ورأيت كيف تنفسوا الصعداء حين تبين أن الجناة ليسوا من المسلمين.

وهذا أمر طبعي؛ فإن الأقلية المسلمة بين الكثرة الكافرة الحاكمة مستضعفة؛ فلا يناسبها أن تقاتلهم وهي تحت سلطانهم، وربما كان هذا هو السبب في نهي المسلمين عن مقاتلة الكفار حين كانوا بمكة. لقد أُمروا آنذاك بأن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة، فلما هاجروا وتميزوا وصارت لهم أرضهم أُذن لهم في القتال ثم أُمروا به.

ومما يوجب الحرص على هذا الجو السلمي المساعد على نشر الإسلام في الغرب أنه ـ في تقديري ـ لن يدوم. إن الدول الديمقراطية تبيح الحرية ما دام المخالفون أقلية لا خطر منها على العلمانية، أما إذا نما عددهم ورأوا فيه تهديداً للنظام العلماني فإنهم ـ قطعاً ـ سيضحون بالديمقراطية من أجل المحافظة على العلمانية.

إنني أعلم أن هذا موضوع حساس من السهل أن يساء فهمه، فدعوني أؤكد أنني لا أريد أن أقول ولا أن ألمح إلى أن كل معاهدة صلح فهي حديبية؛ بل إن بعضها انهزامي لا

يأتي بخير، ولا أريد كذلك أن أدعو إلى إلغاء الجهاد أو أدعو إلى سلم مطلق مهما كانت الظروف. إن الإسلام دين واقعي ليس ـ ولا يمكن أن يكون ـ استسلامياً لا مجال فيه لقتال. لكن الذي أريد أن أؤكده هو أن للقتال ظروفه كما أن للسلم ظروفه، فإذا كفى الله المؤمنين القتال بحال سلم ينتشر فيها الإسلام فمن الواجب اختيارها والمحافظة عليها والتركيز على الدعوة بالكلمة والقدوة. قال ـ تعالى ـ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [**النحل**: ١٢٥].

قال الإمام القرطبي معلقاً على هذه الآية الكريمة: وقد قيل إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة. والله أعلم.

وهذا الذي قيل هو الصواب؛ لأن الغاية الأسمى التي ينشدها الداعية المسلم هي أن يجعله الله سبباً لهداية الناس لا قتلهم؛ فها هو ﷺ ينصح علياً ـ رضي الله عنه ـ بقوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1]. قال له ﷺ ذلك وقد أعطاه الراية موجهاً إيَّاه إلى خيبر ليبيِّن أن القتال ليس شيئاً مرغوباً في ذاته؛ لكنه قد يكون وسيلة لا مندوحة عنها لرد الظلم، سواء كان ظلماً واقعاً على بشر، أو ظلماً متمثلاً في الوقوف في طريق إيصال الدعوة إلى الناس، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك؛ بل كان هنالك استعداد للاستماع والمجادلة والمناظرة فلا يلجأ إلى القتال، ولا سيما في ظروف كتلك التي يكون فيها الدعاة تحت سلطان الكفار.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

---

(١) البخاري، المناقب، ٣٤٢٥.

أخرجوهم... فإنهم مسلمون

(البيان ١٣٩ ـ ربيع الأول ١٤٢٠هـ ـ يوليو ١٩٩٩م)

كان هدف الطائفة الحاقدة من الصرب ممثلة في رئيسها الدكتاتور المغرور المستكبر الكذاب ميلوسيفتش ومن معه هو إخراج المسلمين جميعاً من كوسوفا، بل ومن أوروبا كلها إن أمكن، بل ومحوهم من على ظهر الأرض إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وكان السبب المعلن ـ على الأقل ـ لدول الناتو في قصفها ليوغسلافيا هو رد هذا البغي الصربي عن المسلمين (أو الكوسوفيين من أصل ألباني كما يسمونهم) وأن يضمنوا لهم شيئاً من الحكم الذاتي الذي يحقق لهم شيئاً من الاستقلال والمحافظة على هويتهم.

وربما كان المتوقع أن يستجيب ميلوسيفتش لمطالب الناتو بمجرد أن يرى الصواريخ تمطر على بلاده ناراً تحطم الجسور وبعض المباني، وتلحق بالبلاد بعض الأضرار الاقتصادية؛ لكن هذا لم يحدث؛ بل الذي حدث أنه بينما كان الناتو يقصف بلاده كان هو يزيد من نشاطه ضد المسلمين، فيرسل مزيداً من قواته المعتدية على المسلمين في كوسوفا لتواصل مهمتها الإجرامية في قتل الشباب، واغتصاب النساء، وتجويع الشيوخ والأطفال، وإجلائهم جميعاً عن بلادهم، ليتفرقوا أيدي سبأ في أوروبا وأمريكا، وكان

الناتو يعزو عدم قصفه للقوات الصربية في كوسوفا إلى سوء الأحوال الجوية تارة، وبأنهم مستخفُون لا تُعرف أماكنهم تارة، وبأن الأمر يحتاج إلى تدخل قوات بريَّة تارة ثالثة، وأنهم حريصون حتى الآن على عدم زج قواتهم البرية في هذه الحرب خوفاً من كثرة الضحايا التي ربما إذا رأتها الشعوب الأوروبية والأمريكية صارت معارضة للحرب كما حدث في الصومال.

فماذا بعد هذا(1)؟

قد يوافق الدكتاتور الصربي على مطالب الناتو بعد أن يضمن أن كوسوفا قد خلت من المسلمين أو كادت، فهل ترضى دول الناتو بهذا، فتوقف قصفها وتنهي حربها؟ لئن فعلت لتظهرن أمام شعوبها بأنها قد خابت في مهمتها الأساسية التي كانت قد سوغت لهم بها قصفها، وما أظن أن هذه نتيجة تقبل بها هذه الدول؛ لأنها تعلم أن لها آثاراً بالغة في نفوس شعوبها، إنها ستقلل ـ لا محالة ـ من إيمان شعوبها بإنسانية حضارتها، وتضعف من ثقتها بحكوماتها كما حدث حين إخفاقها في إنصاف المسلمين في البوسنة والهرسك.

ستحاول هذه الدول ـ إذن ـ أن تعيد الكوسوفيين المشرَّدين إلى بلادهم، ولكن هل سيرجعون طائعين؟

إذا كان الرجوع إلى بلد لا يزال تحت سلطان الصرب بأي شكل كان، فما أراهم فاعلين بعد أن ذاقوا ما ذاقوا على أيديهم من الظلم والإذلال والهوان، وإذا لم يرجعوا فإن الناتو يكون قد أخفق مهما حاول إلقاء اللوم عليهم؛ لأن دوافعهم في عدم الرجوع ستكون بادية لكل عاقل. نعم؛ إن وجود القوات الدولية ربما يطمئنهم بعض الشيء،

(1) كتب هذا في ٢١ محرم ١٤٢٠هـ الموافق ٦ إبريل ١٩٩٩م.

وربما أغرى بعضهم بالرجوع؛ لكن الكثيرين سيتساءلون ـ وهم محقون ـ: إلى متى ستبقى هذه القوات؟ إنه مهما طال أمد بقائها فإنه لا فائدة فيه في نهاية الأمر إذا كانت كوسوفا ستعود جزءاً من يوغسلافيا. قد يقال: إنها ستبقى حتى يزول الطاغية الكذاب؛ لكن هذا ـ أيضاً ـ لن يجدي كثيراً؛ لأن الطاغية وراءه أناس من نوعه هم الذين يؤيدونه الآن، وهم الذين ازداد تأييدهم له بعد حرب الناتو له؛ فما أظن إلا أنهم سيستمرون في سياسته بشاكلة من الأشكال.

وعليه؛ فإن الضمان الوحيد لرجوع الكوسوفيين واستقرارهم في بلادهم هو الانفصال الكامل عن يوغسلافيا ليختاروا بعد ذلك أن يكونوا دولة مستقلة أو أن ينضموا إلى ألبانيا، فهل توافق دول الناتو على ذلك؟

إن لم تفعل ولم يرجع المسلمون إلى ديارهم فإن المتعصبين الصرب يكونون قد حققوا هدفاً ثانياً من أهدافهم هو انسلاخ الكوسوفيين بعضهم أو أكثرهم عما تبقى لهم من هوية إسلامية؛ لأن هذا هو الذي سيحدث لا محالة إذا ما تمزقوا شذر مذر في بلاد غير إسلامية.

إن إخراج الكفرة المستكبرين للمسلمين المستضعفين من أرضهم ليس بالأمر الجديد؛ بل هو سُنَّة متبعة كما يبين القرآن الكريم. ربما ظن كثير من المسلمين أن هذا إنما يحدث للمسلمين شديدي التمسك بدينهم، وأنهم إن أظهروا عدم الالتزام بشرائع دينهم؛ فإن الكفرة المستكبرين سيتسامحون معهم. لكن هذا وَهْمٌ كبير؛ فها هي ذي تجارب عصرنا تثبت لنا أن المستكبرين من الكفار لا يقبلون من المسلمين حتى مجرد الانتساب للإسلام. لقد كان الشيوعيون أيام الاتحاد السوفييتي يضيقون حتى بمجرد الأسماء الإسلامية، ودعك عما فوقها. إن الكفرة المستكبرين لا يرضَون عن المسلمين إلا

إذا كانوا أمثالهم؛ فانسلخوا انسلاخاً كاملاً عن دينهم: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] فشرط العودة إلى الأرض هو العودة إلى الكفر.

وإذا كان هذا قد حدث لمسلمي كوسوفا؛ فهل يحدث مثله لأقليات مسلمة أو لمسلمين مستضعفين في أماكن أخرى من العالم؟ هذا أمر ينبغي أن تتدبره تلك الأقليات، وأن تفكر منذ الآن في كيفية الحفاظ على دينها وشرفها.

إنه لا مناص من مثل هذا المصير لمسلمين يختارون العيش بين ظهراني هذا النوع من الكافرين إلا أن تكون لهم قوة ذاتية أو قوة خارجية يُرهبون بها عدو الله وعدوهم.

إن أمثال هؤلاء الأعداء لا يجدي معهم منطق ولا حوار؛ لأنهم مدفوعون ـ والعياذ بالله ـ بكراهية شديدة للحق والطهر:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

إن هؤلاء الكارهين للحق والطهر مستعدون ـ بتسويل الشيطان لهم ـ أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الباطل والفساد. لكن عقاب الله لهم بالمرصاد في هذه الدنيا قبل الآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦ ٢٧].

دعاة يستحقون المساعدة

(البيان ١٤٠ - ربيع الآخر ١٤٢٠هـ - أغسطس ١٩٩٩م)

مَن الداعية؟

الذي يغلب على ظننا حين نتحدث عن الداعية أنه الإنسان العالم بدينه، ولا سيما المتخرج في مؤسسات العلوم الشرعية. ولا جدال في أن الداعية العالم هو الداعية الحق الذي لا غَناء للناس عنه؛ وذلك لأن هذا الدين دين قائم على علم ذي مصدر إلهي، لا على آراء البشر وأفكارهم وتخرصاتهم؛ فلا يكون ما يدعو إليه الداعية إسلاماً إلا إذا كان مستنداً إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. هذا، ولأن الناس يتوقعون من الداعية أن يُعلِّمهم العقيدة الصحيحة، وأن يفتيهم في الفروع الفقهية، وأن يدربهم على تقويم الأشياء بقيم الإسلام، وأن يعظهم المواعظ المرققة للقلوب، وهكذا، وكل هذا لا يتأتى إلا بالعلم، وإن كان لا يتأتى بالعلم وحده.

لكن من الخطأ الشائع الظن بأن دعوة الله - تعالى - لا يُبلِّغها إلا هذا النوع من الدعاة العلماء الذين نالوا حظاً من كل علم من العلوم الشرعية. وإنه لخطأ عظيم أن تُحصَر الدعوة إلى الله - تعالى - في قلة من المختصين، وأن يعتقد غيرهم من المسلمين أنه لا حق

لهم في نيل شيء من هذا الشرف العظيم، وإن كانوا من أحسن المثقفين. إن هذا التصور الغالط للدعاة كان من أسباب عدم انتشار العلم انتشاراً واسعاً بين جماهير الناس، وكان أيضاً من أسباب عدم وصول دعوة الإسلام إلى السواد الأعظم من غير المسلمين، وذلك لأن عدد العلماء المختصين لا يمكن أن يَسَعُوا بدعوتهم خَلْق الله أجمعين.

لكن الحق أن الدعوة إلى الله شرف عظيم، قمين بكل مسلم أن يحرص على نيل نصيبه منه، كيف لا؛ والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [**فصلت** : ٣٣]، والرسول ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية»[1]؟!

إن المهم في الداعية ـ عالماً مختصاً كان أو غير مختص ـ أن لا يدخل فيما لا يعلم؛ بل عليه أن يبلغ الآية أو الحديث الذي يعلم، فإذا سئل عما لا يعلم لم يتردد في أن يقول: لا أعلم، وأحال السائل إلى من يظن أنه يعلم.

إن المسلم بفهمه لمعنى كلمة التوحيد قد نال نصيباً من الخير الذي ذكره الرسول ﷺ في قوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2]. وهذا أمر ينبغي أن يكون بدهياً؛ لأن الذي لا خير فيه لا يدخل الجنة، فما دام كل مؤمن موعوداً بدخول الجنة فلا بد أن يكون في قلبه ولو ذرة من خير. وإذا كان في قلبه خير ففيه فقه؛ لأن الأمرين متلازمان. قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه»[3] يعني من النار.

---

(١) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو، وقال هذا حديث صحيح.
(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة من حديث معاوية بن أبي سفيان.
(٣) هذا جزء من حديث طويل، رواه مسلم في كتاب الإيمان.

وإذا كان بعض الناس قد قصَّر في هذا الأمر، وظن أن أمر الدعوة لا يعنيه فإن آخرين كثراً قد بَلوا بلاء حسناً في الدعوة إلى الله رغم قلة بضاعتهم في العلوم الشرعية. فمن هؤلاء أناس اهتموا بالرد على المذاهب المخالفة للإسلام من شيوعية ومادية ورأسمالية. وهذه ـ بلا شك ـ ثغرة كانت تحتاج إلى من يقف عليها.

لكنني مهتم اليوم بنوع آخر من الدعاة عرفتهم بالولايات المتحدة، هم الذين أدعو إلى الاهتمام بهم وعونهم.أعرف من هؤلاء رجلاً لم يهتد إلى الإسلام إلا قبل سنتين أو ثلاث، وهو لا يعرف اللغة العربية، فبضاعته في العلوم الشرعية مزجاة، لكن إيمانه ـ فيما نحسب ـ أكثر من علمه بكثير. إن عينيه لا تكادان تجفان حين يكون في مجلس علم؛ بل إن كلماته البسيطة المفعمة باليقين لتفيض لها أدمع الحاضرين. هذا الرجل من أنجح من عرفت من الدعاة. إن المهتدين عن طريقه هم بمعدل اثنين أو ثلاثة في كل أسبوع!

حدثني أحد إخواننا من الشباب السودانيين المتعاونين معه أنه يأخذهم ويسير بهم في الطرقات، فكلما لقي شخصاً ظن أنه يمكن أن يهتدي سأله قائلاً: يا أخي، هل تريد الدخول في الإسلام؟ فبعضهم لا يجيب وبعضهم يقف ويستمع، وبعضهم يقف ليجادل؛ لكنه يقول للمتعاونين معه: لا تضيعوا وقتكم مع هؤلاء المجادلين؛ فإن البلد مليء بالراغبين في الدخول في الإسلام. يتكلمون هكذا مع العشرات من الناس فيستجيب لهم بالدخول فيه من أولئك الاثنان أو الثلاثة في كل أسبوع.

ماذا يفعل بالمستجيبين؟ إنه يوجههم إلى المساجد وحلقات العلم والجماعات الإسلامية؛ لكي يزدادوا علماً؛ لكنه يرى أنهم بحاجة إلى عناية خاصة، ويود أن لو كان له من الإمكانات المادية ما يعينه على استئجار أو شراء دار يتجمعون فيها، وعلى طباعة نشرات صغيرة خاصة يوزعها عليهم، وهكذا....

فحبذا لو أن إخواننا المحسنين المهتمين بأمر الدعوة أفراداً كانوا أو جماعات خيرية أو مؤسسات رسمية شملوا أمثال هؤلاء في مفهومهم للدعاة، وأعانوهم إعانات فردية تمكنهم من التفرغ لمثل هذا العمل العظيم، وإعانات جماعية لإنشاء الدور والمساجد الصغيرة، وإصدار النشرات وشراء الكتب. إن أمثال هؤلاء الدعاة كثيراً ما يكونون أنجح من أمثالنا ـ نحن الغرباء ـ في هداية قومهم إلى الإسلام، حتى لو كنا نتحدث لغتهم ونعلم أكثر منهم. إن مهمتنا كثيراً ما تأتي بعد مهمتهم، أعني أن نتولى تعليم من سبق له أن اهتدى بهداية الله ـ تعالى ـ.

أرجو من إخواننا المهتمين بأمر الدعوة أن لا يغتروا بالأسماء اللامعة والجماعات المشهورة، فيظنوا أنها هي وحدها الجديرة بالمساعدة؛ مع أن بعضها لا يمكن أن يُعَدَّ إلا من الفِرَقِ الضالة؛ بل وإن بعضها لمن الكافرة.

لكن بالولايات المتحدة الآن عشرات من الجماعات الصغيرة، ومئات من الأفراد الذين اطمأنوا إلى منهج أهل السنة والجماعة، فهم راغبون في أن يزدادوا به علماً، حريصون على دعوة إخوانهم إليه، فلنبادر إلى مساعدتهم والتعاون معهم وشد أزرهم، راجين من الله ـ تعالى ـ حسن الثواب.

ليسوا عقلانيين.. وإنما هم أهل أهواء

(البيان ١٤١ - جمادى الأولى ١٤٢٠هـ - سبتمبر ١٩٩٩م)

شاع في عصرنا اصطلاح «العقلانيين» وصفاً لأصحاب المناهج المنحرفة عن المنهج الصحيح لفهم الدين وتفسير نصوصه واستخلاص النتائج منها. وهذا مصطلح غير سديد.

أولاً: لأن فيه اعترافاً ضمنياً بأن العقل يمكن أن يكون مخالفاً للشرع؛ هذا مع أن المستعملين لهذا الاصطلاح يؤمنون بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول. فلماذا إذن نستعمل اصطلاحاً يتضمن تقريراً لأمر ننكره؟

ثانياً: لأننا لا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ أن إنساناً ضل بسبب عقله، وإنما نجد أن الضالين هم الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ولا يتفكرون ولا ينظرون، وأن المهتدين هم أصحاب العقول وأولو الألباب: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [**الزمر**: ١٨].

ثالثاً: لأن هنالك فرقاً بين العقل والهوى؛ فالإنسان يضل بهواه لا بعقله، ولذلك كان السلف يسمون المعتزلة وأمثالهم أهل الأهواء لا العقلانيين كما يسميهم الآن بعض المعاصرين تقليداً لبعض المستشرقين.

رابعاً: ولأن هنالك فرقاً بين الرأي والعقل، فما كل رأي هو على مقتضى العقل حتى لو كان صاحبه مجرداً عن الهوى، وإنما الرأي رأيان: رأي صائب فهو موافق للعقل ضرورة، ورأي غالط فلا يمكن أن يكون من مستلزمات العقل.

خامساً: لأن وصف أمثال هؤلاء بالعقلانيين فيه فتنة لهم؛ فقد يزيد أحدهم غروراً فيذهب يقول متباهياً: أجل نحن العقلانيون، نحن المفكرون، وما أنتم إلا حشوية جامدون مرددون لما لا تفقهون.

سادساً: لأن أئمة أهل السنة من أمثال أبي سعيد الدارمي وابن تيمية لم يكتفوا بالكلام المجمل في أن المذهب الحق هو الموافق للعقل؛ بل بينوا ذلك بياناً مفصلاً شافياً، كما ساقوا البراهين العقلية الدالة على مخالفة أهل الأهواء لمقتضيات العقل، ودللوا على أن ما ادعوا بأنه عقليات إنما هو جهليات، ما أنزل الله بها من سلطان عقلي ولا شرعي.

سابعاً: لأن كل أمر من أمور الدين يمكن أن يُستدل عليه بدليل عقلي!

أكرر: (كل أمر) سواء كان في الاعتقاد أو في العبادات أو في المعاملات، وسواء كان في أصول الدين أو في الفروع الفقهية. وعليه فإن العقلانيين حقاً هم أصحاب المنهج الحق، مذهب أهل السنة والجماعة.

إن الاقتناع بالدليل العقلي يعتمد على أمرين: أولهما: أن يكون المخاطَب عاقلاً، فإذا لم يكن كذلك فلا سبيل إلى مجادلته أو إقناعه، وثانيهما: أن تكون مقدماته صحيحة مؤدية إلى النتيجة المبتغاة. لكن المقدمات منها ما هو بيِّن بنفسه يدرك العاقل صحته ببداهة عقله، ومنها ما يعتمد هو نفسه على دليل آخر. وهذا هو الذي يحدد طول دليلك أو قصره مع من تخاطب. قد يسلِّم من تخاطب بأول مقدمة من دليلك فيكون الدليل

قصيراً، وقد يحتاج إلى أن تدلل له على صحة بعض مقدماتك، إذا كان لا يسلِّم بها فيكون الدليل طويلاً. فمن الأدلة القرآنية القصيرة جداً دليل على وجود الخالق يقوم على مقدمتين بدهيتين لدى كل عاقل، ولا يماري فيهما إلا مكابر. وهما: أنه لا شيء يأتي من العدم المحض، ولا شيء يخلق نفسه: ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴾ [**الطور**: ٣٥]؛ لكن هب إنساناً زعم أن البعث أمر مستحيل كما كان بعض منكريه من العرب يدعون. ستقول له ما قرر القرآن: إن الذي خلقه أول مرة قادر على إعادته؛ لكن هذا الدليل يعتمد على تسليمه بأن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقه. فإذا أنكر ذلك احتجت لأن تبرهن له على وجود الخالق. قد تقول: هذه أمثلة بدهية واضحة؛ لكن ما كل مسائل الدين كذلك؛ بل منها ما نسلم به مجرد تسليم!

وأقول: لكن التسليم نفسه هو مقتضى العقل؛ فكيف يكون ذلك؟

وعلى أي شيء تبني تسليمك بأن المغرب ثلاث ركعات مثلاً؟ إنك تبنيه على أن هذا ما أمر به الرسول ﷺ. لكنك لو شئت لمددت حجتك فقلت: والرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى؛ فكل ما أمر به فهو من أمر الله، والله ـ تعالى ـ لا يقرر إلا حقاً، ولا يأمر إلا بخير: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** ﴾ [**الأنعام**: ١١٥]. إن كل عاقل يسمع ما تقول يدرك أن مقدماتك التي ذكرت تؤدي إلى وجوب التسليم بأن المغرب ثلاث ركعات. أقول: إذا كان عاقلاً منصفاً فسيرى هذا حتى لو لم يكن يؤمن بما تؤمن به من مقدمات. وأما إذا أراد أن يسلِّم بما سلمت به فسيسألك الدليلَ على صحة بعض مقدماتك. كأن يقول لك: ما الدليل على أن الرسول قال ما نسبتَ إليه؟ أو: ما الدليل على أن محمداً رسول الله؟ وهكذا. وكل هذه أسئلة عليها أدلة عقلية: إن علمتها ذكرتها لصاحبك، وإن لم تعلمها أحلته على من هو خبير بها.

قد تقول: لكن هب أن صاحبي قال: إنه لا يريد دليلاً يقوم على مثل هذه المقدمات الدينية؛ بل يريد دليلاً مباشراً!

فأقول: إن صاحبك لا يكون إذن عاقلاً. إن النتائج إنما تبنى على المقدمات التي تناسبها، والتي من شأنها أن تؤدي إليها، فإذا كان مسلّماً بها سلّم بالنتيجة، وإذا لم يكن مسلّماً بها كان من حقه أن يطلب الدليل على صحتها. ليس له إلا هذا.

قل لصاحبك هذا: ما الدليل على أن ٤×٥ = ٢٠؟ فإذا بدأ يقول لك إن ٤×٥ معناها ٤ + ٤ + ٤ + ٤ + ٤ فقل له: أنا لا أريد دليلاً مبنياً على الجمع، بل دليلاً مباشراً. سيقول لك: فكرة الضرب مبنية على فكرة الجمع، وإذا كنت لا تعرف الأخيرة ولا تسلم بها فلا يمكن أن أعطيك دليلاً على الأولى. وكذلك الأمر بالنسبة لعدد ركعات المغرب؛ فإن الدليل عليها مبني على التسليم بأن محمداً رسول الله ﷺ، وعلى الإيمان بالله.

ذلك هو موقفنا من العقل. فما موقف أصحاب الأهواء؟

لقد أجاب أئمة أهل السنة عن هذا السؤال بكثير من التفصيل فيما يتعلق بأصحاب الأهواء في عصرهم، وبقي علينا نحن أن نفعل الشيء نفسه بالنسبة لمن في عصرنا، ولا نكتفي بوصفهم بالعقلانيين للأسباب التي ذكرتها. وقد أبلى بعض مفكرينا المعاصرين في هذا بلاء حسناً، وكنتُ قد رددتُ في مقال سابق في هذه الزاوية على مفهوم بعضهم الغالط لقاعدة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وربما تعرضتُ في مقالات لاحقة إلى بعض دعاواهم ومبادئهم الأخرى ـ إن شاء الله تعالى، وإذا كان لبعض إخواننا القراء من اقتراحات في هذا المجال فأرجو أن لا يبخلوا علينا بها، ولهم منا الشكر، ومن الله الأجر ـ إن شاء الله ـ.

الانفراط العظيم

(البيان ١٤٢ ـ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ ـ أكتوبر ١٩٩٩م)

الانفراط العظيم: اسم كتاب جديد لعالم الاجتماع والمفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما[١] الذي كان قد ذاع صيته بعد أن أصدر كتابه: (نهاية التاريخ) الذي كان قد زعم فيه أن النظام الغربي: الليبرالي في السياسة، والرأسمالي في الاقتصاد هما وحدهما النظامان اللذان يتناسبان مع الفطرة الإنسانية؛ لأنهما اللذان يحققان ما في تلك الفطرة من نشْدَانٍ للكرامة؛ فهما يمثلان لذلك نهاية التاريخ في هذا المجال ـ أعني مجال النظم السياسية والاقتصادية ـ وأن هذا هو الذي يفسر سير العالم كله نحوهما[٢]. لكن فوكوياما كتب في هذا العام ـ بعد عشر سنوات من صدور كتابه ذاك ـ مقالاً تراجع فيه عن تلك الفكرة، وعزا تراجعه إلى أن فكرة الكتاب كانت قائمة على افتراض الثبات في الفطرة الإنسانية، وأن تتبعه للتطورات التي حدثت في علم الأحياء في هذه السنوات العشر، ولا سيما في مجال هندسة الجينات، أقنعته بأن العلم الطبيعي يمكن أن يغير الطبيعة

(1) Fukuyama, Francis. The Great Disruption: human nature and the reconstruction of social order, The Free Press, New York, 1999

والمؤلف هو الآن أستاذ السياسات العامة بجامعة جورج ميسن بولاية فرجينيا، وقد عمل قبل ذلك بوزارة الخارجية الأمريكية.

(٢) ذكر المؤلف في كتابه ذاك بأن المسلمين هم الوحيدون الذين ما يزالون يعتقدون أن عندهم بديلاً أحسن.

البشرية! وإذا كانت الطبيعة البشرية متغيرة فإن النظم السياسية والاقتصادية المناسبة لها ستكون أيضاً متغيرة. ولا يدري المرء: أيعجب أكثر من فكرة الكتاب الأولى، أم من السبب الذي دعاه للتراجع عنها؟

أما في هذا الكتاب الجديد فإن الكاتب يناقش قضية من أخطر القضايا التي لا تقتصر أهميتها على المجتمعات الغربية التي هي موضوع الكتاب؛ بل تهم أو ينبغي أن تهم كل المعنيين بقضايا القيم الخلقية، وصلتها بالفطرة، وبما يحدث في المجتمع من تغيرات تقنية. إن دعاة التغريب في بلادنا ينظرون إلى الغرب نظرة مثالية تغض الطرف عن كل ما يحدث فيه من مشكلات؛ لأنهم يخشون أن تكون معرفة تلك المشكلات صادة للناس عن السير في طريقه الذي هو مبتغاهم. وهذا - كما ترى - ليس من العقلانية، بل ولا من الأمانة في شيء. إن غاية المواطن الأمين ينبغي أن تكون السعي لمصلحة بلده. والسعي للمصلحة يدخل فيه التحذير من الطرق التي تؤدي إلى الضرر؛ لكن إذا كان المستغربون عندنا يحاولون إخفاء هذه الحقائق، فما هكذا يفعل عقلاء المفكرين الغربيين الحريصين على مصالح مجتمعاتهم وأقوامهم.

إننا في العالم الإسلامي - كما هو الحال في بقية العالم - نسير في طريق الغرب في كثير من نواحي حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، سواء بضغط من الغرب نفسه، أو بتشجيع من أولئك المستغربين المبهورين به، أو لأسباب أخرى. فالاهتمام بما يحدث في الغرب من مشكلات هو إذن اهتمام بمستقبلنا؛ لأن مشكلات الغرب الآنية هي مشكلاتنا المستقبلية إذا ظللنا نسير في طريقه غير معتبرين بمزالقه.

وإذا أردنا الاعتبار فإن مما يساعدنا عليه كثيراً هو الحقائق التي ينشرها علماء الغرب ومفكروه أنفسهم. لكن استفادتنا من الحقائق لا تعني بالضرورة قبولنا لتفسيراتهم لها،

ولا للحلول التي يقترحونها. نعم! قد نستفيد من تفسيراتهم ومن حلولهم؛ لكن يجب أن نفكر لأنفسنا فنجتهد في التفسير والحل مسترشدين بديننا ومعتبرين بما حدث لنا ولغيرنا في تاريخهم وتاريخنا، والكتاب الذي بين أيدينا من الكتب النافعة في هذا المجال.

يبدأ الكتاب بإعطائنا ملخصاً للحقائق الإحصائية لما أسماه بالانفراط العظيم في مجال القيم الخلقية فيقول:

ازدياد في الجريمة وفي تفكك النظام الاجتماعي جعل أواسط المدن في أغنى البلاد على وجه الأرض أماكن لا تكاد تُسكن. التدهور في علاقات القربى باعتبارها مؤسسة اجتماعية ظلت قائمة منذ أكثر من مئتي عام[1] ازداد زيادة كبيرة في النصف الثاني من القرن العشرين في كل البلدان الغربية الصناعية. انحط معدل الإنجاب في معظم الدول الأوروبية وفي اليابان إلى درجة من الدنو يجعلها عرضة لتناقص عدد سكانها في القرن القادم إذا لم تكن هنالك هجرة إليها، قلَّ الزواج وقلَّ الإنجاب، وتفاقمت معدلات الطلاق، بلغت نسبة الأولاد غير الشرعيين الثلث في الولايات المتحدة والنصف في الدول الاسكندنافية. وأخيراً فإن الثقة في المؤسسات ظلت تتناقص تناقصاً كبيراً لمدة أربعين عاماً. في الخمسينيات عبَّر أغلبية الناس في الولايات المتحدة وفي أوروبا عن ثقتهم في حكوماتهم وفي زملائهم؛ لكن أقلية ضئيلة هي التي عبَّرت عن مثل هذه الثقة في التسعينيات. تغيرت اهتمامات الناس بشؤون بعضهم ببعض، ومع أنه لا يوجد دليل على تناقص في الصلات بين الناس؛ إلا أن العلاقات بينهم صارت أقل دوماً، وأقل جاذبية، ومع عدد أقل من الناس[2].

---

(١) لعله يعني في الولايات المتحدة.

(٢) انظر: ص ٤ من الكتاب.

يقول الكاتب: إن هذا التدهور في العلاقات الاجتماعية في هذه البلدان الغربية الصناعية في الفترة ما بين أواسط الستينيات إلى أوائل التسعينيات كان مواكباً لانتقالٍ في هذه البلاد من العصر الصناعي إلى العصر الذي سمي بـ (ما بعد الصناعي) تارة، وبـ (عصر المعلومات) أخرى.

فهل هناك من علاقة سببية بين ذلك التدهور وهذا التطور؟

يجيب بأنه يفترض هذا، ويقول: إن تدهوراً كهذا أعقب الثورة الصناعية في الغرب.

ما الحل إذن؟ يجيب بأنه ليس في الدين كما يظن المحافظون.

فِيمَ إذن؟ هنا يعود الكاتب إلى فكرة الفطرة البشرية، فيقول: إن البشر هم بطبعهم مخلوقات اجتماعية تهديهم أعظم نوازعهم وغرائزهم أصالة إلى أن يُنشِئوا قواعد خلقية تربط بينهم فتحيلهم إلى مجتمعات. وهم كذلك عقلاء، وعقلانيتهم تجعلهم يُحْدِثون طرقاً للتعاون التلقائي بينهم.

سنكتفي الآن بهذا التلخيص لفكرة الكتاب، ثم نعود لمناقشته في حلقات قادمة بإذن الله.

لكن يحسن أن نبدأ قبل ذلك ببيان السبب الذي يدعو أمثال هؤلاء الكتاب الاجتماعيين إلى العناية بقضايا القيم الخلقية الآن. لقد كان الرأي الشائع عند أمثال هؤلاء العلماء، والذي ما زال كذلك عند عامة المثقفين الغربيين، أن القيم أمور نسبية، وأنها تختلف لذلك من ثقافة إلى أخرى، ومن زمان إلى زمان. وأن كلاً منها مقبول في إطار الثقافة التي توجد فيها، والزمان أو المكان الذي توجد فيه؛ فلا مجال إذن للحكم عليها بالخيرية أو الشرية، ولا خوف إذن من تغيرها وتبدلها. ثم إنه تبين

لبعض علماء الاجتماع والاقتصاد أن الصورة ليست كما يرسمها هذا الرأي الشائع؛ بل إن هنالك قيماً لا بد منها لكل مجتمع بشري. لماذا؟ لأن الناس إذا اجتمعوا فإنما يجتمعون ليتعاونوا على تحقيق مصالحهم؛ لكن هذا التعاون لا يتأتى إلا بالتزام المجتمع ببعض القيم الخلقية: قيم الصدق في القول، والوفاء بالعهد، وحسن تبادل المنافع، وتوفر الثقة التي يقول فوكوياما عنها: إنها بمثابة الشحم الذي يجعل عجلة التجمعات والمنظمات البشرية تجري بطريقة أكثر كفاءة؛ فالقيم هذه ليست ـ إذن ـ أموراً نسبية ولا «مجرد قيود تحكمية على الاختيارات الفردية؛ بل هي شرط سابق لأي عمل تعاوني».

إنه لا بد لكل مجتمع من نظام سياسي ونظام اقتصادي، لكن النظم السياسية والاقتصادية لا تعمل ولا تنجح إلا في مجتمع متماسك. ولكي يتماسك المجتمع فإنه بحاجة إلى تلك القيم التي صار الاقتصاديون وعلماء الاجتماع يطلقون عليها اسم: الرأسمال الاجتماعي.

الأسباب والآثار:

يبدأ الكاتب في شرحه للأسباب التي أدت إلى ذلك التمزق في المجتمعات الغربية بمقدمة منهجية معقولة هي أنه ما دامت مظاهر هذا التمزق عامة في كل الدول الغربية الصناعية، وما دامت قد حدثت مجتمعة، وفي فترة زمنية محددة، فإن هذا يدعونا لأن نبحث لها عن أسباب في أمر أو أمور مشتركة بين هذه الأقطار، لا في الأسباب الخاصة ببعضها دون بعض.

ويرى تبعاً لذلك أن السبب الأساس لها كان تحولاً ثقافياً، تحولاً قيمياً تمثل في اشتداد النزعة الفردية، وأن أعظم ما أثرت فيه هذه النزعة الفردية هو العلاقات بين الجنسين، والأسرة على وجه الخصوص. وأن مظاهر ذلك الانفراط أو التمزق نشأت كلها تقريباً عن التفكك الذي أصاب الأسرة.

لكنه يعود فيقول: إن القول بأن عزو سبب الانفراط إلى تغير في الثقافة ـ في القيم ـ مصادرة على المطلوب؛ إذ إن السؤال ما يزال باقياً: لماذا حدث هذا التغير في القيم في كل هذه البلاد المتقدمة صناعياً، وفي فترة معينة من الزمان؟

ويعترف بأن التحولات القيمية لها أسباب كثيرة؛ لكنه يرى أن أهم أسبابها في هذه الفترة التي يدرسها أمران جاء بهما التطور العلمي، هما: حبوب منع الحمل، والإجهاض الآمن.

يقول: إن حبوب منع الحمل وتوفُّر الإجهاض أَذِنا للنساء ـ لأول مرة في التاريخ ـ بأن يتعاطين الجنس بلا خوف من العواقب، وأن هذا جعل الذكور يشعرون بالتحرر من القيم التي كانت تفرض عليهم مسؤولية العناية بالنساء اللاتي حملن منهم.

ويقول: إن الذي كان يمنع النساء من استبدال زوج يناسبهن مكان الزوج الذي يعشن معه، ويكتشفن أنه لا يناسبهن هو أنهن لم يكُنَّ قادرات على الإنفاق على أنفسهن بسبب أنهن لم يكن يعملن، فلما عمل النساء وصارت دخولهن تزداد باطراد وجدن أنه بإمكانهن أن يربين أطفالهن من غير عون من الأزواج، لكن إنجاب الأطفال يقلل من فرص المرأة في العمل؛ فلكي تنجب المرأة فإما أن لا تعمل إطلاقاً، وإما أن تتوقف عن العمل لفترات، فإذا كانت حريصة على العمل فإنها ستلجأ إلى الحد

من الإنجاب، ثم إن قلة الأطفال تزيد بدورها من احتمالات الطلاق؛ لأن الأطفال هم (الرأسمال المشترك) بين الزوجين. ويقول: إن هناك دلائل تجريبية كثيرة تؤكد الصلة بين الدخول العالية للنساء وبين الطلاق والإنجاب خارج نطاق الزوجية، ثم إن ازدياد معدلات الطلاق يؤدي بدوره إلى عدم ثقة النساء باستمرار الحياة الزوجية، ويدفعهن إلى تأهيل أنفسهن للعمل، كي يضمَنَّ مستقبلهن. ثم إن التحول من العصر الصناعي إلى عصر المعلومات زاد من فرص النساء في العمل؛ وذلك لأن الأعمال ذوات الرواتب العالية لم تعد تلك التي تحتاج إلى جهد جسدي لا يقوى عليه إلا الرجال، بل تلك التي تحتاج إلى جهد عقلي، كالعمل في مجال الحاسوبات، وهو أمر ينافس فيه النساءُ الرجالَ.

الآثار:

يذكرنا الكاتب بما قال في بداية كتابه من أن الجريمة وانهيار الأسرة وتناقص الثقة هي معايير سلبية لما سمي بالرأسمال الاجتماعي (معايير سلبية بمعنى أن زيادتها تدل على نقص في رأس المال هذا)، وكيف أثر ذلك التغيير في القيم على رأس المال الاجتماعي هذا؟ وكيف أثر في مقدرة الناس على الاجتماع لتحقيق غايات تعاونية؟ وكيف أثر على مستوى الثقة بينهم؟ يذكر الكاتب آثاراً نوجزها فيما يلي:

١ ـ إن نصف السكان في أوروبا واليابان ستكون أعمارهم أكثر من خمسين عاماً في غضون العقدين القادمين، وسيؤدي هذا ـ بالإضافة إلى ما يصحبه من نقص في عدد السكان ـ إلى نقص في الدخل القومي، ثم يؤدي هذا كله إلى ضعف هذه الأقطار وقلة تأثيرها على المسرح العالمي.

٢ ـ وأن الدول الاسكندنافية التي هي الأعلى في نسبة التفكك الأسري، هي الأعلى أيضاً في نسبة التوحد؛ إذ إن خمسين بالمائة من البيوت صارت تتكون من شخص واحد، بل إنه في مدينة أوسلو (عاصمة السويد) بلغت النسبة خمساً وسبعين بالمئة!

٣ ـ أثبتت كثير من الدراسات في الولايات المتحدة أن تأثير الأسرة والأقران على أداء الطلاب أعظم مراراً من كل العوامل التي هي بيد السياسة التعليمية العامة كرواتب المدرسين، وأحجام الفصول الدراسية، والصرف على التسهيلات الطلابية؛ لكنه يرى أن النساء لسن هن المسؤولات عن هذا، وأن الحل لا يكون بعدم خروجهن إلى مكان العمل. لكنه يرى في الوقت نفسه أن قائدات الحركة النسوية قد بالغن في إطراء عمل المرأة، وغفلن عن تأثيره على الأطفال، وهو تأثير لازم وواقع، وسيستمر كذلك حتى يتطور العلم فيريحهن من عبء الحمل والإنجاب!!

٤ ـ إن ضرر الجريمة لا يقتصر على من يقع ضحية لها، بل يتعداه إلى المجتمع كله، وذلك أن انتشار الجريمة يقلل من ثقة الناس بعضهم ببعض، ويعوق أو يحول دون تعاونهم؛ بل إن الجريمة لتؤدي إلى جعل المجتمع مجتمعاً ذرياً يحصر كل إنسان فيه اهتمامه في نفسه وفي أقرب الناس إليه. من ذلك ـ مثلاً ـ أن الجيران كانوا يتعاونون جميعاً على تربية أولادهم، وأما الآن ـ وبعد أن كثر الاعتداء على الأطفال ـ فإذا رأى والد شخصاً يؤنب ولده فالاحتمال الأقرب أن يتصل بالشرطة.

ما المخرَج؟

هل كان الانفراط هذا ضربة لازب؟ هل كان أمراً حتَّمه التطور التقني، أم أنه كان بملك الناس أن يتفادوه؟ يرى الكاتب أن الوسائل الاختيارية المتاحة للناس للتأثير

في سير أحداثهم الاجتماعية تتمثل في أمرين، هما: السياسات العامة «يعني ذلك التي ترسمها وتنفذها الجهات المسؤولة»، والثقافة الشائعة بين المواطنين وما تتضمنه من قيم، ويقول: إن كوريا واليابان وبعض الدول الكاثوليكية استطاعت أن تقلل من تأثير التطور التقني بسبب اختلاف ثقافاتها عن الثقافة الشائعة في المجتمعات الغربية؛ لكنه يرى أن محاولاتهم هذه إن أخرت حصول تلك النتائج التي حصلت في البلاد الغربية، فلن تستطيع الحيلولة دون وقوعها، ثم يتساءل: هل معنى ذلك أن المجتمعات الليبرالية المعاصـــرة صائـــرة لا محالة إلى مستويات أدنى فأدنى من الانحطاط الخلقي والفوضى الاجتماعية حتى تنفجر من الداخل؟ يرى أن الأمر ليس ميئوساً منه إلى هذه الدرجة وأن هنالك حلاً. فما هو؟ نجيب عن هذا في مقالنا القادم ـ إن شاء الله ـ.

هذا أوان أن نرجع إلى الانفراط العظيم ونتساءل: ما الذي سيحدث بعد هذا؟ هل كُتب علينا أن ننحدر إلى مستويات أدنى فأدنى من الفوضى الاجتماعية والخلقية؟ أم أن هناك سبباً معقولاً يدعونا لأن نتوقع بأن هذا الانفراط حالة طارئة، وأن الولايات المتحدة والدول الأخرى التي عانت منه ستنجح في أن تكون لها قيم من جديد؟ وإذا حدثت هذه الإعادة للقيم، ففي أي صورة ستكون؟ هل ستحدث تلقائياً، أم أنها ستتطلب تدخل الدولة عـن طريـق السياسات العامة؟ أم أنه لا بـد لنا من أن ننتظر حـدوث بعث ديني لا يمكن التكهن بمداه، ولا يمكن السيطرة عليه، لنعيد القيم الاجتماعية؟

هكذا بدأ الكاتب الأمريكي فوكوياما الفصل الأخير من كتابه (الانفراط العظيم) الذي كان قد قدم له بعدة فصول استغرقت أكثر من مائة صفحة، كان قد ذكر فيها مصادر النظام الاجتماعي، وحصرها في أربعة هي: الطبيعة البشرية، والتنظيم الذاتي،

والدين، والسياسة، ثم تساءل هنا: عن أي مصدر منها سنستمد في المستقبل؟ سنذكر فيما يلي رأي الكاتب ملخصاً مع تعليقات على بعض فقراته.

هل سيستمر الانحدار؟ يجيب الكاتب بأن الانفراط العظيم الذي حدث في المدة التي حددها ليس نهاية المطاف، بل إنه ستكون عودة إلى القيم اللازمة للمجتمع. لماذا؟

لأنه قد حدث مثل هذا الانفراط من قبل في التاريخ الأوروبي والأمريكي، بل وفي اليابان؛ لكنه لم يستمر؛ بل عاد الناس بعده إلى الالتزام بالقيم الضرورية لكل مجتمع إنساني. فهل سيحدث مثل هذا الرجوع إلى تلك القيم الآن كما حدث من قبل؟ يتفاءل الكاتب بأن هذا سيحدث، بل يرى أنه بدأ يحدث فعلاً؛ فمعدلات الزيادة في الجريمة، والطلاق، والأطفال غير الشرعيين، وفقدان الثقة، بدأت تتباطأ كثيراً في التسعينيات، بل إن بعضها انعكس. كما أنه حدث تحول بقدر مائة وثمانين درجة في آراء الأكاديميين بالنسبة للقيم؛ فهم الآن يقولون: إن القيم وتركيب الأسرة تؤثر تأثيراً كبيراً في ما يحدث في المجتمع. إن فترة تعاظم الفردية قد انتهت، وبعض القيم التي محتها فترة الانفراط بدأت تعود، وبدأت أصوات مؤثرة تنادي بضرورة الانضباط في السلوك وتحمل مسؤوليات الأسرة والأطفال. وهذه الأصوات أشد ما تكون مخالفة لما كان يقوله المعالجون النفسيون للناس في الستينيات والسبعينيات. لقد كانوا ينصحونهم بمماشاة شهواتهم، وأن لا يلقوا بالاً للضوابط الاجتماعية التي تقف في طريق «نموهم الشخصي».

وهو يرى أن هذا الاتجاه سيستمر. لماذا؟ لأن الناس بطبيعتهم حيوانات اجتماعية، وهم ـ إلى ذلك ـ صناع عقلانيون للقيم الحضارية. والفطرة والعقلانية يعين كلاهما على نمو الفضائل العادية مثل: الأمانة، والثقة اللذين يكونان أساس الرأسمال الاجتماعي. ويضرب مثلاً على ذلك بالقيم المتعلقة بالأسرة. لقد حدث تغير هائل بعد الستينيات في

القيم التي تضبط سلوك الرجال والنساء فيما يتعلق بالأسرة، تغيرٌ كانت نتيجته الإضرار بمصالح الأطفال: فالرجال عزفوا عن الأسر، والنساء أنجبن بطريقة غير شرعية، والأزواج تفارقوا لأتفه الأسباب، وكثيراً ما تضاربت مصالح الآباء والأبناء؛ فالوقت الذي يُقضى في أخذ الولد إلى المدرسة أو الملعب، يكون على حساب وقت يُقضى في وظيفة، أو مع صديقة، أو في أي نشاط ترفيهي. لكن الوالدين لهم مصلحة فطرية في العناية بأطفالهم، فإذا ما بُيِّن لهم أن سلوكهم هذا يضر بأولادهم، فمن المحتمل أن يغيروا سلوكهم تغييراً يكون فيه عون للأولاد. لكن الوصول إلى مثل هذا القرار العقلاني لا يتأتى آلياً؛ ففي فترة الانفراط العظيم أفرزت الثقافة العامة صوراً إدراكية أعمت الناس عن رؤية الآثار الضارة لسلوكهم حتى على أقرب الناس إليهم؛ فقد كان علماء الاجتماع يقولون لهم: إن النشأة في أسرة مفككة ليس بأضر من النشأة في أسرة متماسكة. بينما كان المختصون في معالجة المشكلات الأسرية يطمئنونهم بأنه من الأفضل للأطفال أن يتفرق الوالدان بدلاً من أن يبقيا متشاكسَيْن. وقالوا لهم بأن سعادة أبنائكم في سعادتكم، فلا بأس عليكم من أن تقدموا مصلحتكم على مصلحتهم. هذا وكانت الثقافة العامة تصبُّ على الوالدين وابلاً من الأفكار التي تبرز الجنس بطريقة فاتنة، وتصور الحياة العائلية التقليدية بأنها مرتع للنفاق، والقهر والخبث. إن تغيير هذا كله يحتاج إلى نقاش، وحجج، بل وحروب ثقافية.

لكن الكاتب يذكرنا بأن النظام الاجتماعي لا يعاد تكوينه بجهود الأفراد وحدها، بل لا بد من أن تساعد عليه السياسة العامة للدولة، عن طريق قوات الأمن وعن طريق التعليم.

يبدو من هذا الذي ذكره الكاتب أن السبب الحقيقي للانفراط لم يكن في التطور التقني كما تقول نظريته التي بسطها في بداية كتابه، وإنما كان في بعض الأفكار الضالة التي قُدِّمت للناس باسم بعض العلوم فصدقوها. وهذا يعني أنه لو كانت قد شاعت بين الناس أفكار صحيحة فلربما لم يكن للتطور التقني تلك الآثار التي ذكرها. كان بإمكان الناس أن يستفيدوا من حبوب منع الحمل مثلاً من غير أن تشجعهم على الإباحية الجنسية.

يتساءل الكاتب: إلى أي مدى ستستمر هذه العودة إلى القيم؟ من المحتمل - فيما يرى - أن نرى تغيراً في مستويات الجريمة، ومستوى ثقة الناس بعضهم ببعض وبالمؤسسات والحكومات، أكبر مما نرى في القيم المتعلقة بالجنس، والإنجاب، والحياة الأسرية؛ لأن التطور التقني والاقتصادي جعل الرجوع إلى القيم السابقة بالنسبة لهذه الأخيرة أمراً في غاية البعد؛ لأن الخوف من الحمل قد زال بسبب الحبوب، ولأن الخوف من أن يعيش الطفل غير الشرعي حياة بائسة قد زال بسبب عمل المرأة وبسبب الإعانات الحكومية. وقلة الإنجاب لن تتغير؛ لأن الوالدين يريان أن من مصلحة أولادهم أن لا تكثر أعدادهم.

وما يقوله الكاتب هنا مبني على تصور غالط لمضار العلاقات الجنسية غير الشرعية. إن مضارها ليست محصورة فيما ذكر؛ بل إنها لتؤثر على العلاقة بين الزوجين وتتسبب في الطلاق، وفي اختلاط الأنساب، كما تؤثر على العلاقة بين الوالدين وأبنائهم، بل إن هذه الفاحشة لتؤثر تأثيراً نفسياً سيئاً على كل مرتكب لها.

والفردية التي عدها الكاتب من أسباب الانفراط لا علاقة ضرورية بينها وبين التطور التقني، بل كان بإمكان الناس أن يبقوا على أريحيتهم وهم يتطورون تقنياً.

لكن الذي يرجوه الكاتب هو أن تتغير القيم المتعلقة بعمل المرأة. إن القيم السائدة الآن ـ ولا سيما في البلاد الاسكندنافية ـ تعلي من قدر المرأة التي تعمل، وتنظر باحتقار إلى التي تبقى في البيت. فإذا ما تبين أن عدم بقاء الأم مع أطفالها الصغار ضار بهم فإن هذه القيمة الشائعة الآن قد تتغير فيما يرى. وقد يساعد عصر المعلومات في حل إشكال عمل المرأة بأن يمكنها من أن تعمل من داخل بيتها.

وكما كان للدين تأثير في إعادة بناء المجتمع في الماضي فيتوقع أن يكون له تأثير الآن، لكن الرجوع إلى الدين هذه المرة لن يكون رجوعاً إلى التصديق بالوحي، بل سيكون رجوعاً إليه بسبب تأثيره الحسن على الحياة الاجتماعية.

يبدو أن الكاتب ليس رجلاً متديناً؛ لكنه مع ذلك يعترف في كتابه بما للدين من تأثير فيما سمي بالرأسمال الاجتماعي. فالدين في رأيه هو الذي جعل القيم قيماً إنسانية عالمية، لا قيماً فردية أو أسرية أو قبلية. لكنه يعتقد ـ كما رأينا ـ بأنه من غير المحتمل أن ترجع المجتمعات الحديثة إلى التصديق بحقائق الدين. لكن قيم الدين مبنية على الإيمان بحقائقه؛ فهي تابعة لهذا الاعتقاد ومنبثقة عنه، فإذا ضعف أو انعدم الإيمان بحقائقه ضعف أو انعدم الإيمان بالقيم الخلقية المتصلة به. إن مشكلة الغربيين أنهم يفترضون أن كل ما يصدق على الدين الذي عرفوه يصدق على الأديان الأخرى، فكأن الأديان كلها عندهم دين واحد هو الدين النصراني. ومن البداهة أن هذا ليس بصحيح، وإذن فإن التطور العلمي والعقلاني الذي أدى إلى ضعف الإيمان بالنصرانية لن يؤدي بالضرورة إلى ضعف الإيمان بالإسلام، بل المتوقع أن يؤدي إلى الإيمان به، لما يجده فيه من يعرفه من عدم التناقض مع مقتضيات العقل، أو المخالفة لحقائق العلم. فلماذا لا يكون الرجوع إلى القيم اللازمة للمجتمعات عن طريق هذا الدين الذي لا يجد الشخص المعاصر مشكلة

في الإيمان بحقائقه؟ هذا الذي نتوقع أن يحدث: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

يختم المؤلف كتابه بتخوفه على المجتمعات الليبرالية السائدة في الغرب الآن؛ وذلك لسببين:

أولهما: القيم الخلقية الوحيدة التي تقدمها الليبرالية للمجتمع هي قيم التسامح والاحترام المتبادل. لكن حين تتحول هذه القيم إلى عودة إلى التعدد الثقافي بدلاً من التسامح معه، وحين تصل النسبية الخلقية إلى غايتها، فإن الليبرالية تكون قد بدأت تتسبب في انهيار الأرض التي تقف عليها.

وثانيهما: أن التطور قد يجعل الالتزام ببعض القيم عسيراً مع أنها لازمة للمجتمع، فإذا ما تسارع هذا التطور لم يعط الناس فرصة للتكيف، فتكون النتيجة تأثيراً سيئاً على المجتمعات.

ونختم نحن تعليقنا بتكرار القول بأن في الحقائق التي ذكرها الكاتب ما يؤكد أن علة العلل بالنسبة للمجتمعات الغربية ليست في التطور التقني متسارعاً كان أم متباطئاً، وإنما هي في بعدهم عن الدين الحق الذي يمدهم بالقيم الفاضلة، واستعاضتهم عنه بأفكار قد ثبت الآن بطلانها وعقمها الخلقي. وعليه فلا حل لمشكلة التدهور الخلقي الذي صحب التطور العلمي والتقني إلا في الاستمساك بدين لا تتناقض مقرراته مع الحقائق العلمية ولا تتنافى مع القوانين المنطقية.

والله الهادي إلى سواء السبيل

آيات الصيام.. والدعوة إلى الإسلام

(البيان ١٤٥ ـ رمضان ١٤٢٠هـ ـ ديسمبر ـ يناير ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠م)

الإسلام دعوة ومنهاج: دعوة إلى الله، ومنهاج لتبليغ هذه الدعوة، سواءً كان التبليغ لأناس مؤمنين، أو لأناس لم يؤمنوا بعد، ومنهاج البلاغ هذا ليس مبيناً بالوصف فقط كما في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، بل وبالمثال أيضاً. والمثال يكون بالطريقة التي يدعو بها الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ عباده ـ كما سنرى في آيات الصيام ـ وبالطريقة التي يدعو بها الرسلُ أقوامهم، كما في مثل قوله ـ تعالى ـ عن نوح: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ... ﴾ [هود: ٢٥ – ٣٤] والتي يدعو بها الذين ساروا على سنتهم من الإنس كما في مثل قوله ـ تعالى ـ عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ... ﴾ [غافر: ٢٨ – ٣٤]، بل ومن الجن كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا... ﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣٢].

ومثل الدعوة في هذا كمثل الصلاة والصيام والحج؛ فكما أننا نعرف الصلاة والصيام والحج معرفة علمية نظرية، ثم نصلي كما عَلِمْنا كيف كان الرسول ﷺ يصلي، ونأخذ عنه مناسك حجنا، فكذلك نعرف طرق الدعوة معرفة نظرية علمية، ثم نعرفها معرفة عملية بمعرفتنا للطرق التي دعا بها أنبياء الله تعالى، ودعا بها سائر عباده الصالحين الذين قص الله ـ تعالى ـ علينا قصصهم في هذا المجال. لكن المسائل التي بُينت لنا طرقُها العملية نوعان: نوع لا يتأتى فعله إلا من العباد كالصلاة والزكاة، ونوع نسترشد فيه إلى جانب ذلك بالطريقة التي يعامل الله ـ تعالى ـ بها عباده، كطريقة الدعوة إليه، وآياتُ الصيام التي هي موضوعنا في هذا المقال خيرُ مثال على هذا النوع الأخير.

إن الغاية من هذه الآيات هي أمر المسلمين بصيام شهر رمضان، ولو شاء الله ـ تعالى ـ لأمرنا بها أمراً مجرداً لا استعطاف فيه ولا تعليل؛ فهو الرب ونحن عبيده، ومن حقه أن يأمرنا بما شاء، ومن واجبنا أن نطيعه بغير سؤال ولا مراء. لكن الله ـ تعالى ـ أعلم بطبيعة النفوس التي خلقها، وبأحسن الطرق إلى هدايتها وعطفها على قبول الحق والعمل به. لذلك نراه ـ سبحانه ـ لا يأمر عباده بالصيام أمراً مجرداً بل يسوق كل الحقائق التي من شأنها أن تعطف قلوبهم إلى الخير الذي يأمرهم به.

يقول ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ . . . ﴾ [البقرة: ١٨٣ – ١٨٧] فيخاطبهم بأحب أوصافهم إليهم. وهذا الخطاب وإن كان خطاباً عاماً إلا أنه يجعل المستمع الفرد يُؤَمِّل في الدخول في سلك هؤلاء الذين شهد الله ـ تعالى ـ لهم بالإيمان. وهل بعد الشهادة الإلهية من شهادة؟ وإذا كان يرجو أن يكون مؤمناً حقاً بعمله بما كتب الله عليه، فما أقل الصيام من ثمن لهذا الإكرام!

﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾: بما أن الإنسان قد يتردد في الإقدام على أمر يراه صعباً ولا يرى له فيه سلفاً، فإذا تبين له أن الأمر قد جربه أناس قبله، فأغلب الظن أنه سيقول لنفسه: إذا كان الصيام قد كتب على من قبلنا فصاموا، فما الذي يمنعنا نحن من أن نصوم؟ وإذا لم نكن أول من جرب الصيام بل جربه أناس قبلنا ونجحوا في التجربة، فما الذي يمنعنا نحن من أن ننجح كما نجحوا؟

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: فالغاية من الصيام ليست تعذيب الإنسان بمنعه من الطعام والشراب والنكاح، وإنما أتى هذا المنع وسيلة ضرورية لغاية شريفة هي التقوى، والتقوى هي سبيل النجاة من عذاب الله؛ وهي من ثَمَّ سبيل الفوز بجزائه ومرضاته، ولهذا كانت التقوى هي الغاية التي تحققها كل عبادة من العبادات التي أمرنا الله ـ تعالى ـ بها.

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾: لم يكلفنا الله ـ تعالى ـ بصيام السنة كلها ولا بأكثرها، وإنما هي ثلاثون يوماً من أيام العام التي تبلغ أكثر من ثلاثمائة وخمسين يوماً. وكلمة ﴿ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ تعبِّر عن قلة هذه الأيام. والمؤمن يقول لنفسه: ولماذا لا أصوم أياماً معدودات وأكسب التقوى التي وعد الله بمنحها لمن يصومها؟

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ : ولأن الغرض من الصيام هو التقوى لا مجرد تعذيب البدن؛ فإن الله ـ تعالى ـ قد أعفى من صيام هذه الأيام المعدودات من كان مريضاً أو على سفر؛ لما قد تسببه هاتان الحالتان من مشقة زائدة على الأمر العادي.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾: والأيام المعدودات التي أمرنا الله بصيامها هي أيام شهر لا كسائر الشهور، إنه شهر رمضان الذي شرفه

الله ـ تعالى ـ بأن أنزل فيه القرآن، وذلك أنــه كمــا أن الله ـ تعالى ـ أعلم حيث يجعل رسالته بالنسبة للبشر، فهو ـ سبحانه ـ أعلم حيث ينزل رسالته بالنسبة للأزمنة؛ لأنه كما أن بعض البشر أفضل من بعض فإن بعض الأزمنة والأمكنة أفضل من بعض ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. ولهذه المناسبة القوية بين القرآن وشهر رمضان، فإن النبي ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل في كل رمضان، ثم إنه عرضه عليه مرتين في العام الذي توفي فيه ﷺ. ولهذه المناسبة أيضاً فإنه يستحب لنا الإكثار من تلاوة القرآن ولا سيما في صلاة التراويح.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ هذه أهم خصائص القرآن، الكتاب الذي أنزلـه الله في شهر رمضـــان. إنــه هدى للناس، وإنــه بينات، بينات من الهدى ومن الفرقان.

﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ إنها لحكمة بالغة أن تنزل هذه الآية الكريمة ضمن آيات الصيام. إن في الصيام شيئاً من المشقة، ما في ذلك من شك؛ لكن الآية تؤكد لنا أن هذه المشقة ليست مرادة لذاتها، وإنما هي مشقة قليلة محتملة تجلب تيسيراً روحياً كبيراً، هو نيل التقوى؛ فهي إذن ثمن قليل يدفعه الصائم لنيل عوض كبير. ولما كان المراد من أوامر الله ونواهيه كلها هو اليسر لا العسر؛ فقد أذن ـ تعالى ـ بالفطر لمن كان في حال يكون الصيام فيه عليه عسيراً.

لكن اليسر ليس شيئاً متروكاً لأهواء الناس الذين لا يحيط علمهم بكل عواقب الأعمال والتروك، وإنما ينظرون إلى بعض جوانبها دون بعض، وإلا فلو ترك أمر اليسر لتقديرات الناس لقال أكثرهم: إن الصيام عسر لا يسر، وما دام الأمر كذلك وما دامت

أوامر الله ـ تعالى ـ ونواهيه مبنية كلها على اليسر، فإن المنهج الصحيح للاختيار بين آراء المجتهدين هو أن يختار ما دل الدليل على أنه أقرب للحق؛ لأن ما كان أقرب إلى الحق فهو الأقرب إلى اليسر. أعني أنه لا ينبغي للعالم أن يجعل ما يعتقده يسراً هو المعيار الذي يفضل به اجتهاداً على اجتهاد؛ لأن ما يظنه يسراً قد يكون في الحقيقة عسراً، بل عليه أن يبذل جهده في النظر في أدلة المجتهدين ليفضل ما كان منها أقرب للحق موقناً بأن ما كان أقرب للحق؛ فهو الأقرب إلى اليسر.

أعاننا الله وإياكم على صيام شهر رمضان، وجعلنا وإياكم من خير الدعاة إلى الإسلام.

الدعوة.. ووسائل الاتصال الحديثة

(البيان ١٤٦ ـ شوال ١٤٢٠هـ ـ يناير ـ فبراير ٢٠٠٠م)

إن وسائل الاتصال الحديثة آية دالة على صدق النبوة المحمدية، وهي فرصة كبيرة لنشر الرسالة المحمدية، لكنها أيضاً أكبر تحدٍّ يواجه الدعاة إلى هذه الرسالة.

أما كونها آية فلأنها جعلت بلدان العالم كلها بمثابة البلد الواحد الذي كان يرسل إليه كل نبي قبل محمد ﷺ، وفي هذا دلالة على أن الذي أرسل محمداً رسولاً للناس كافة لا لقومه خاصة هو الخالق ـ سبحانه ـ الذي كان يعلم أن العالم كله سيصير بمثابة القرية الواحدة، فلا يحتاج إلى تعدد المرسلين، ولا يحتاج إلى رسول بعد الرسول الذي تعم دعوته شعوب العالم أجمعين. لقد كان هذا التقارب بين بلاد العالم قد بدأ مع مبعث النبي الخاتم ﷺ، لكنه ظل يزداد ويزداد مع تطور وسائل المواصلات والاتصالات، حتى وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا، وربما تشهد العصور التي تلينا تقارباً أكبر، بسبب تطور أكثر في مجال الاتصالات. فمَنْ غيرُ الخالق ـ سبحانه ـ كان يعلم آنذاك أن هذا سيكون؟ إن الترابط بين شعوب العالم الذي أحدثه هذا التطور الكبير في وسائل

الاتصال ليس إذن مجرد أمر دنيوي بالنسبة للمسلم، وإنما هو أمر يتصل بصميم عقيدته؛ لأن فيه دليلاً يضاف إلى الأدلة المشيرة إلى صدق رسوله ﷺ.

وأما كونها فرصة لنشر الدعوة فأمر لا يكاد يحتاج إلى بيان. إن الكتب تطبع الآن بأسرع مما كانت تطبع به في الماضي، وتنتشر على نطاق أوسع مما كانت تنتشر به، والكلمات لم تعد تقتصر كتابتها بحبر على ورق، وإنما صارت الملايين منها تكتب في أقراص مدمجة يسهل حملها، ويسهل الوصول إلى المادة المكتوبة فيها. والكلمة المنطوقة لم يعد ينتهي صوتها بانتهاء النطق بها، وإنما صارت تسجل على أشرطة مسموعة وأخرى مرئية مسموعة، والرسائل لم تعد تحتاج إلى بريد بالجمال أو بالسيارة أو الطائرة أو القطار، وإنما صارت ترسل في لحظات عبر الفاكس والبريد الإلكتروني. ثم الشبكة العالمية (الإنترنت) التي تجمع لك هذا كله، أعني: الكتابة والصوت والصورة والإرسال السريع والحفظ. وقد استفاد الدعاة بحمد الله ـ تعالى ـ من كل هذه الوسائل، فسُجِّل كتاب ربنا بأصوات عدد من كبار قرائنا، وسجلت بعض أحاديث الرسول ﷺ، وها نحن اليوم نستمع إلى دروس كبار شيوخنا ومحاضراتهم حتى بعد وفاتهم، وأما الشبكة العالمية فقد استفادوا منها هي الأخرى أيما فائدة، وما تزال المواقع الإسلامية تفتح فيها يوماً بعد يوم، وما تزال المادة الإسلامية المعروضة فيها في ازدياد مطرد. وقد سمعت عن أناس ورأيت أناساً هداهم الله ـ تعالى ـ عن طريق هذه الوسيلة.

وقد كان المسلمون في البلاد الغربية يشكون من أن الصحف والمجلات لا تفتح لهم مجالاً للنشر فيها حتى حينما يكون المقال رداً على افتراء على الإسلام، فإذا هم اليوم يكتبون ما يشاؤون على صفحات هذه الشبكة. لكنني ما زلت أرجو أن يزداد اهتمامنا بها واستفادتنا منها، وأرجو أن يأتي يوم قريب تكون فيه كل المراجع الإسلامية متيسرة

فيها، وأرجو أن أرى فيها مقررات في شتى الفنون الإسلامية تأخذ بيد الراغب من المستوى الابتدائي وتتدرج به حتى توصله إلى المستوى الجامعي. وأرجو أن يأتي يوم تتحول فيه جامعتنا الأمريكية المفتوحة، وأختها كلية لندن المفتوحة، إلى جامعة إسلامية عالمية تضاهي الجامعات المفتوحة الكبرى كالجامعة البريطانية التي يبلغ عدد طلابها أكثر من مئتي ألف، أرجو أن يدرك المحسنون، وأن تدرك المنظمات الإسلامية في عالمنا الإسلامي أهمية مثل هذا التعليم الذي يسمى بـ (التعليم عن بعد)، والذي يصفه بعض رجال التربية الغربيين بأنه نظام المستقبل، فيولونه عنايتهم ودعمهم حتى تكون الدراسة في جامعته مجاناً، وحتى يوفر العلم الشرعي للراغبين فيه أنَّى كانوا على وجه الكرة الأرضية.

وأما كونها تحدياً عظيماً:

فأولاً: لأنها كما يسرت لنا إيصال دعوة الإسلام إلى غير المسلمين، فقد سهلت لغير المسلمين ـ ولا سيما الغربيين ـ إيصال دعوتهم إلينا، وبما أن إمكاناتهم المادية هي اليوم أكبر من إمكاناتنا، وبما أن إدراكهم لأهمية هذه الوسائل الحديثة أكبر من إدراكنا فإن ما يوصلونه إلينا يفوق كثيراً ما نوصله إليهم، بل إنهم لا يحتاجون إلى الاقتصار على الخطاب المباشر من الغرب إلى الشرق الإسلامي؛ لأن لهم عملاء في بلادنا هم من بني جلدتنا ويعربون بألسنتنا، ويكتبون في صحفنا، ويتكلمون في إذاعاتنا ويظهرون في قنواتنا، ولا همَّ لهم إلا دعوتنا للسير في ركاب الغرب، في نظمنا السياسية، وأوضاعنا الاقتصادية، وقيمنا الخلقية، ونظرياتنا التربوية، وأساليبنا الأدبية، ونظرتنا التاريخية، بل وتصوراتنا الدينية، يعطون الكلمات العربية والمصطلحات الإسلامية ـ مثل الأصولية ـ معاني كلمات غربية ثم يكررونها ـ بذلك المعنى الغربي ـ على مسامعنا ليل نهار، واصفين

بها كل مستمسك بدينه من الأفراد والدول والجماعات ليُدخلوا في رُوع الناس أن مسلك هؤلاء وطريقهم هو الطريق الشاذ، وأن المسلم المعتدل إنما هو ذلك الشخص الذي يأخذ دينه مأخذ الغربي الليبرالي ـ أو حتى العلماني ـ للدين.

وثانياً: لأنها لا تفتأ تذكِّر المسلم بأن أكثر الناس على وجه الأرض ليسوا مسلمين، وأن أقوى دول الأرض سلاحاً واقتصاداً وأكثرها لذلك تأثيراً ليست دولاً مسلمة، بل وأن معظم الدول الإسلامية قد نهجت نهجها العلماني في نظمها السياسية وقوانينها، وكثير من نواحي حياتها الأخرى. وفي البشر ضعف يجعل من الشاق عليهم مخالفة الأمر الشائع حتى لو كان في نطاق قرية، أو مجموعة محدودة من الناس كما كان الأمر في الماضي، فكيف إذا أصبح مخالفة لأكثر سكان العالم وأكثر دوله؟ إن هذا الضعف قد يصل بالإنسان إلى مجاراة الأكثرية في إنكار أمر هو موقن بأنه حقيقة لا ريب فيها؛ ألم يقل الله ـ تعالى ـ لرسوله موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]، والإنسان قد يدفعه هذا الضعف إلى الضيق بما يعلم أنه الحق إذا رأى الناس يعترضون عليه باعتراضات مهما كانت واهية. ألم يقل الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، إن الله ـ تعالى ـ لا يرسل رسولاً تصده أهواء الناس عمَّا أوحى إليه ربه، أو تحمله اعتراضاتهم على الكف عن تبليغ بعض ما أنزل الله إليه، لكن في تذكير الرسل بعد الوقوع في مثل هذا النوع من الضعف دليل على أنه يقع من غيرهم، حتى لو كان من أتباعهم، وإذا كان الله ـ تعالى ـ يذكِّر رسله بعدم الاستسلام لمثل هذا الضعف فإن غيرهم أوْلى بأن يُذكَّر ويُذكِّر.

لكن حتى هذه الجوانب التي تبدو ضارة في وسائل الاتصالات الحديثة لا تخلو من نفع فيما يبدو لي، بل يمكن أن يُسْتغَل كثير منها استغلالاً حسناً لمصلحة الدعوة إلى الإسلام، وأرجو أن أبين هذا في مقال قادم بإذن الله وتوفيقه.

وسائل الاتصال .. وعلاقتنا بالثقافات الأخرى

(البيان ١٤٨ ـ ذو الحجة ١٤٢٠هـ ـ مارس ٢٠٠٠م)

قلت في مقال شهر شوال: إن وسائل الاتصال الحديثة كما أنها فرصة كبيرة لتبليغ الرسالة المحمدية، فهي أيضاً وسيلة يتخذها غير المسلمين ـ ولا سيما الغربيين ـ لنشر معتقداتهم وتصوراتهم المخالفة لتلك الرسالة. وهـذه فتنة، لكن لا حيلة لنا الآن في ردها؛ فماذا نفعل؟ وهل وصول هذه الثقافات شر كله على المسلمين، أو أنه قد ينطوي على بعض الخير؟

لا شك أن في وصولها بعض الخير. ومن هذا الخير:

أولاً: أن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ولمجادلتهم؛ لأن الدعوة تكون أوقع في نفس المدعو إذا كانت مرتبطة بمحيطه الثقافي، ناقدة ومقوِّمة له. نعم! إن في ما يقوله ويعتقده غير المسلم ما هو قبيح ومؤذٍ للمسلم، لكن معرفته مع ذلك مهمة. وهذا كتاب ربنا مليء بحكاية أقوالهم القبيحة، والرد عليها، وتسلية الرسل والمسلمين الذين يتعرضون لسماعها.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾

[مريم: ٨٨ – ٩٥].

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٨ ٧٩].

ثانياً: إن في العالم الآن مئات المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، وكلها تتلقى أسئلة عن الإسلام كما تتلقى نقداً له، أو شبهات تثار حوله، وكل هذا يعطي الدعاة فرصاً ثمينة لتبليغ الدعوة الإسلامية، وقد اهتدى ـ بحمد الله تعالى ـ عن هذا الطريق، وما تزال تهتدي أعداد كبيرة من الناس في شتى بقاع العالم.

ثالثاً: إن أخبار المهتدين هؤلاء سواء كانت هدايتهم عن طريق الشبكة أو عن طريق آخر مما يسرُّ المسلم ويزيده إيماناً بدينه وثقة به، ولا سيما حين يستمع إلى الأسباب التي أخذت بأيديهم للدخول في الإسلام وتفضيله على ما كانوا ينتمون إليه من معتقدات وقيم وثقافات، والتحول الكبير الذي حدث في نفوسهم وسلوكهم بعد اعتناقهم الإسلام.

رابعاً: بل إن الاطلاع على الحضارة الغربية، ومعرفة حقيقتها كان سبباً في عودة بعض المسلمين إلى دينهم، بعد أن كانوا مغترين ببريق تلك الحضارة، ومبتعدين عن الإسلام. سألت أحدهم ـ وكان سودانياً بمدينة لندن ـ عن سبب عودته، فقال: إنه قال لنفسه كلاماً فحواه: أنه إذا كان هـذا الذي يـراه هـو نهاية مـطاف الحضـارة الغربية فإنه مصير لا يريده لنفسه ولا لبلده. وحدثني آخر ـ وكان شاباً من بنغلاديش التقيت به في كاليفورنيا ـ فقال: إنه اكتشف أنه كان مخدوعاً في هذه الحضارة، وأنه كان يتصورها على غير حقيقتها التي اكتشفها في أمريكا، وأنه كان قبل مجيئه إلى الولايات المتحدة يسخر من تقاليد بلده ولا سيما في الزي ويقلد الزي ويقلد كل ما هو أمريكي، لكنه الآن غيَّر رأيه.

والآن ما أكثر المسلمين الذين يريدون الفرار من أمريكا أو أوروبا إلى أي بلد مسلم، خوفاً على أخلاق أبنائهم وعلى دينهم! هذا مع أن الذين لا يعرفون الغرب معرفة هؤلاء يكون أكبر همهم أن يهاجروا إليه، وأن يربوا أبناءهم في مدارسه.

خامساً: لكن الثقافات الأخرى ـ مهما كانت ـ لا تخلو من بعض الخير، فمعرفتها على حقيقتها تصحح الصورة القاتمة التي يرسمها لها بعض المتدينين عندنا من الذين لم يطلعوا عليها. وجوانب الخير هذه التي يكاد ألا يخلو منها مجتمع بشري هي من بقايا الفطرة الخيِّرة التي فطر الله عليها العباد، وهي التي تمكنهم من رؤية الحق حين يعرض

عليهم، وتساعدهم على قبوله حين يعرفونه، وإلا لو كان كل الناس من غير المسلمين لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً لما اهتدى أحد منهم إلى الإسلام ولا عرف قيمته؛ فكما أن الصورة المثالية للحضارة الغربية تفتن بعض الناس فإن الصورة المشوهة لها قد تيئس بعض الناس من هدايتهم.

سادساً: لكن وجود هذا الخير في حضارة كالحضارة الغربية شيء، وتصويرها على أنها المثال الذي ينبغي أن يحتذى في هذا العصر شيء آخر. أذكر أنني نقلت لمجموعة من الأمريكان في أحد المؤتمرات العلمية ما يقوله بعض المفكرين العرب عنهم، وكان مما قلت لهم: إنهم يقولون إنكم تختارون ناخبيكم على أسس علمية موضوعية، وعلى أساس البرامج التي يقدمونها لكم، فضحكوا حتى ضجت بهم القاعة، كأنني أسمعتهم نكتة من أظرف النكات. وذلك لأنه في الوقت الذي كان يقول فيه بعض المفكرين العرب ما ذكرت، كان هنالك معلق سياسي أمريكي مشهور يقول عن الانتخابات: إنها موسم ترويح أو تسلية. والمعروف أن من بين أسباب اختيار الرئيس: شكله، ونكاته، وجمال زوجه، ولذلك كان أنصار كلينتون يقولون للناخبين ما يقول أصحاب البضائع: اشترِ واحداً وخذ اثنين.

لكن مما لا شك فيه أن لدخول الثقافات الأخرى إلى بلادنا أضراراً كثيرة؛ وذلك أن ما ذكرنا من خيرات الاطلاع عليها ومعرفتها لا يشمل كل مطَّلع عليها من المسلمين، بل قد يكون تأثيرها ضاراً على أغلبهم، ولا سيما صغار السن وقليلي العلم منهم. ومما يساعد على تأثيرها الضار كونها هي الآن الحضارة القوية اقتصادياً وتقنياً، وعسكرياً، والناس ـ كما قيل ـ مولعون بتقليد الغالب. ومما يساعد على التأثير كون إعلامها القوي المتطور يعرضها بصورة جذابة تغري بها.

كيف العمل؟ هذا سؤال كبير، لكن نختصر الإجابة عنه فيما يلي:

يجب أولاً أن نعمل ما استطعنا للتقليل من فرص وصول جوانبها الضارة إلينا، وهي الجوانب المتمثلة في كثير من الأفلام والقصص، والجرائد والمجلات، كما يجب أن نسعى للتقليل من شرها بنقد أباطيلها والرد عليها مقتدين في ذلك بكتاب ربنا كما رأينا في الآيات التي أوردناها. والرد يكون رداً مباشراً على أباطيل معينة، كما يكون - وذلك هو المهم - بتزويد الناس بقواعد وأصول وأدوات وسائل الإعلام العامة. وأما الرد المباشر فيجب أن يكون عملاً يومياً تقوم به المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، كما تشارك فيه الصحف والمجلات التي تروي لنا أخبار الغرب وأقواله. وتكون الوقاية منها أيضاً بتقديم البديل الذي يغني عنها: ﴿ **وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾ [**الفرقان** : ٣٣].

حقائق العلوم التجريبية.. حقائق شرعية!

(البيان ١٤٩ - المحرم ١٤٢١هـ - أبريل ٢٠٠٠م)

شاع على ألسنة كثير من إخواننا المتدينين القول بأن الحقائق العلمية (ويعنون بذلك حقائق العلوم الطبيعية) حقائق متغيرة، فما يثبته العلم اليوم ينفيه غداً، وما ينفيه اليوم يثبته غداً. لذلك يجب أن لا يكون لها اعتبار في فهم الحقائق الدينية الواردة في الكتاب والسنة، وأن لا تستخدم دليلاً على الإعجاز العلمي.

لكن إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض؛ وذلك لأن العلوم الطبيعية ـ كما هو معروف ـ منها ما هو حقائق جزئية تقوم عليها أدلة حسية أو عقلية قاطعة، ومنها ما هو حقائق جزئية، أو قوانين عامة تقوم عليها أدلة راجحة لا قاطعة، ومنها ما هو نظريات هي المعرَّضة للتغير، ولا سيما ما كان ذا دليل غير قوي.

فحقائق العلوم التجريبية كلها ـ الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية ـ التي شهد لها الحس أو العقل شهادة قاطعة هي حقائق شرعية. بل إن ما قام عليه منها دليل راجح وإن كان غير قاطع، هي مما يعد ـ بميزان شرعنا ـ علماً يعمل به. فما دليلنا على ذلك؟

دليلنا أولاً أن الشرع قضى بأن كل الحقائق ـ دينية كانت أم دنيوية ـ إنما يكتسبها الإنسان بحسه وعقله. قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [**النحل**: ٧٨].

فإذا كانت الحقائق إنما تكتسب بالحس والعقل، فمن البديهي أن يقال: إن كل ما شهد له الحس والعقل فهو حقيقة، وما لم يشهد له فليس بحقيقة. ولذلك فإن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ ذم الكفار المنكرين للحقائق المحسوسة ووبخهم. قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [**الأنعام**: ٧].

ونحن نعلم أن أحاديث الآحاد تعتبر علماً مع أن ثبوتها ليس قطعياً كثبوت الأحاديث المتواترة. ومما استُدِلَّ به على أن الظن الراجح يعد علماً قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ** ﴾ [**الممتحنة**: ١٠].

وذلك لأن علم البشر علماً مباشراً بإيمان شخص لا يكون إلا ظنياً. لكن الامتحان يرجح هذا الظن نفياً أو إثباتاً، ولذلك يبنى عليه هذا الحكم المهم المذكور في الآية الكريمة.

ومعنى ذلك أننا نأخذ ـ كما يأخذ غيرنا ـ بالنظريات العلمية إذا كان ثبوتها راجحاً ولم يكن قطعياً ما دامت لا تتعارض مع نصوص شرعية قطعية.

قد يستغرب بعض القراء قولي بأن ما لم يشهد له الحس والعقل، أو قل: ما لم يأت عن طريق الحس والعقل فلا يعد علماً، ويقولون: أين الوحي إذن؟ وأقول: إن سبب هذا الاعتراض هو خلط يقع فيه كثير من الناس، وقد نبَّهت عليه في كثير من كتاباتي

وأحاديثي. الخلط هو عدم التفرقة بين وسائل اكتساب العلم، وهي الحس والعقل، ومصادر العلم، وهي الوحي والخلق؛ فالوحي مصدر للعلم؛ لكننا إنما نعرف أنه وحي بالحس والعقل، وإلا لم يكن لنا معيار نميز به بين النبي الصادق ومدعي النبوة، ولا بين ما هو كلام الله حقاً، وما هو من القول على الله ـ تعالى ـ بغير علم.

أعود إذن إلى قولي بأن حقائق العلوم التجريبية التي تقوم عليها أدلة قطعية ـ حسية كانت أم عقلية ـ هي حقائق ثابتة لا تتغير. تُرى: هل سيأتي يوم يقول فيه العلماء إنهم كانوا مخطئين في زعمهم بأن الأرض كروية بعدما استطاعوا أن يروها كرة، وأن يصوروها لمن لم يرها؟ هل سيأتي عليهم زمان يكتشفون فيه أن الماء لا يتكون من الهايدروجين والأوكسجين كما يزعمون الآن؟ وهل يجوز لإنسان عاقل أن يكابر في وجود شيء بعدما رأى دليله الحسي؟ إن مثل هذه المكابرة أمر مذموم شرعاً كما أنه مذموم عقلاً، بل إن كل ما هو مذموم عقلاً فهو مذموم شرعاً.

إن إنكار الحقائق الحسية سواء منها ما يشاهده الشخص العادي، أو تثبته العلوم التجريبية ـ طبيعية كانت أم اجتماعية أم نفسية أم غير ذلك ـ هو هدم للشرع؛ لأنه هدم للبراهين الدالة على صحته، واللازمة للعمل به، والفارقة بينه وبين الدعاوى الباطلة.

إن كتاب الله ـ تعالى ـ مليء بتوجيه الناس إلى التفكر في خلقه، والاستدلال به على كثير من أصول الدين، كوجود الخالق سبحانه، ومعرفة صفاته، وبعثه لعباده، ومصير المكذبين لرسله.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ١٩١].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين ربط بين مظاهر طبيعية وبين الإيمان، وهو ربط لا يتسنى إلا لمن يشاهد هذه الظواهر ويوقن بوجودها، ثم يكون إنساناً ذا عقل، وتفكُّر؛ فأولو الألباب هم الذين ينتقلون من المشاهدة إلى التفكر إلى الإيمان. وانظر إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [**الأنعام**: ٩٥ – ٩٩].

في الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة ربط بين حقائق طبيعية وبين الإيمان لا ينكره إلا المأفوكون. وفي الآية الثانية ربط بين حقائق طبيعية وبين صفتين من صفات الله تعالى. وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة ربط بين حقائق طبيعية وبين العلم والفقه والإيمان؛ فلا يكون عالماً ولا فقيهاً ولا مؤمناً من ينكر هذه الحقائق بعد رؤيتها.

لا يقولن لي معترض بأننا إنما آمنا بهذه الحقائق الطبيعية؛ لأن الله ـ تعالى ـ قررها. كلاَّ! فإن العلم بها سابق للإيمان بالقرآن الكريم ومستقل عنه؛ فهو أمر مشترك بين المسلمين وغير المسلمين. والقرآن الكريم جعل علمنا هذا بها دليلاً على قدرته وحسن صفاته. فلو كان علمنا بها مبنياً على تصديقنا بالقرآن لما صلحت دليلاً، ولكان في الكلام دور.

وأنت تجد في الآية الآتية مثل هذا الربط الذي ذكرناه بين الحقائق المشاهدة والبعث، وبينها وبين تصديق الرسول ﷺ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

والحقائق الحسية لها تعلق آخر مهم بأصول الدين؛ وذلك من حيث كونها معياراً للتفريق بين الصدق والكذب؛ لأن القول الصادق إنما هو الذي يوافق الواقع ولا يخالفه، فإذا كان الواقع المتحدَّث عنه واقعاً محسوساً، وكان القول مخالفاً له علمنا أن القول كذب. هذه قاعدة بدهية يعرفها كل عاقل. ولذلك فعندما ألَّف الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) كتابه المشهور عن العلوم الطبيعية والتوراة والإنجيل والقرآن ذكر في مقدمته كلاماً فحواه أنه قال لنفسه: ما دام الله ـ تعالى ـ هو خالق الكون فلا يمكن أن يوحي إلى بشر بكلام يخالف الواقع الذي خلقه ويعلمه، ولذلك فإنني سأحاكم هذه الكتب الثلاثة بمعيار الحقائق القطعية التي أثبتتها العلوم الطبيعية، فما وجدته منها مخالفاً لشيء منها علمت أنه ليس من عند الله تعالى. وكانت النتيجة أنه وجد في كتابَي اليهود والنصارى مثل هذه المخالفات، ولم يجد منها شيئاً في القرآن الكريم، بل وجد أن القرآن الكريم سبق العلوم المعاصرة بتقرير بعض الحقائق، ثم جاءت هي مؤيدة لها. فهل نقول لمثل هذا العالم: إن منهجك غير صحيح؛ لأن حقائق العلوم الطبيعية حقائق متغيرة؟

وبمثل هذا المنهج انتقد النصارى الليبراليون إخوانهم الأصوليين. فالليبراليون يقولون: إن كتابهم المقدس لا يمكن أن يكون كله كلام الله كما يزعم الأصوليون، ويستدلون على ذلك بمواضع فيه جاءت مخالفة لحقائق محسوسة أثبتتها العلوم التجريبية.

ومن غريب ما سمعت في عدم اعتبار الحقائق المحسوسة استدلال بعضهم على هذا الزعم بحديث: «وكذب بطن أخيك». والحديث كما رواه البخاري في كتاب الطب من صحيحه عن قتادة عن أبي سعيد: «أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ. فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً. ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً. ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً. ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. فقال: صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلاً. فَسَقَاهُ فَبَرَأَ»[1].

استدل الزاعم بأن الحقائق المحسوسة لا اعتبار لها في النصوص الإلهية، بقول الرسول ﷺ لهذا الرجل: (صدق الله وكذب بطن أخيك) فكأنه يريد أن يقول: إنه مهما كانت الوقائع مخالفة للوحي فلا اعتبار لها، بل يجب على المؤمن الصادق أن يؤمن بكلام الله ـ تعالى ـ مهما رآه مخالفاً للواقع المحسوس؛ لأن كلام الله ـ تعالى ـ هو الصدق، والواقع ـ كبطن أخ السائل ـ هو الكذب. فكأن هذا القائل يفترض إمكانية مخالفة الوحي للحس أو العقل، وهو افتراض باطل، بل هو طعن في الشرع؛ لأن صدق الكلام إنما يعرف ـ كما ذكرنا ـ بموافقته للواقع، فالمخالف للواقع كذب لا محالة. والرجل إنما جاء للرسول ﷺ طالباً شفاء أخيه من الإسهال، والشفاء أمر محسوس، فلما رأى أن أخاه لم يُشْفَ عاد فسأل. لكن الرسول ﷺ كان موقناً بأن كلام الله حق ـ أي إن العسل لا بد أن يشفيه، وإن بدا الأمر أولاً على غير ذلك. وصدَّق الله كتابَه ورسولَه فشُفي الرجل، أي إن الحقيقة الحسية جاءت في النهاية موافقة للآية القرآنية. لكن مقتضى كلام أخينا المشكك في الحقائق المحسوسة، أن الرجل لو سقي عسلاً مائة مرة فلم يزده شربه إلا إسهالاً، ولو أن كل مريض شرب عسلاً لم يزده شربه إلا مرضاً، فلا بد أن يؤمن الناس بأن في العسل شفاءً؛ بل الحقيقة أنه لو حدث هذا لكان فيه أكبر

(١) رواه البخاري، ح/ ٥٢٥٢.

دليل على أن القول بأن في العسل شفاءً لا يمكن أن يكون قولاً للخالق سبحانه. فانظر كيف تؤدي الحجج الباطلة بصاحبها إلى الطعن في الدين من حيث يريد هو الانتصار له.

هنالك حديث طريف يدل على أن الرسول ﷺ كان يستدل بالحقائق الواقعية في تقرير المسائل الشرعية. روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ الأَسَدِيَّةِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلا يَضُرُّ أَوْلادَهُمْ»(١).

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: «وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي الْمُرَاد بِالْغِيلَة فِي هَذَا الْحَدِيث وَهِيَ الْغَيْل، فَقَالَ مَالِك فِي الْمُوَطَّأ وَالأَصْمَعِيّ وَغَيْره مِنْ أَهْل اللُّغَة: أَنْ يُجَامِع اِمْرَأَته وَهِيَ مُرْضِع. يُقَال مِنْهُ: أَغَالَ الرَّجُل وَأَغْيَلَ، إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ. وَقَالَ اِبْن السِّكِّيت: هُوَ أَنْ تُرْضِع الْمَرْأَة وَهِيَ حَامِل. يُقَال مِنْهُ: غَالَتْ وَأَغْيَلَت. قَالَ الْعُلَمَاء: سَبَب هَمّه ﷺ بِالنَّهْيِ عَنْهَا أَنَّهُ يَخَاف مِنْهُ ضَرَر الْوَلَد الرَّضِيع. قَالُوا: وَالأَطِبَّاء يَقُولُونَ: إِنَّ ذَلِكَ اللَّبَن دَاء وَالْعَرَب تَكْرَههُ وَتَتَّقِيه. وَفِي الْحَدِيث جَوَاز الْغِيلَة فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْهَ عَنْهَا، وَبَيَّنَ سَبَب تَرْك النَّهْي. وَفِيهِ جَوَاز الاجْتِهَاد لِرَسُولِ اللَّه ﷺ، وبه قَالَ جُمْهُور أَهْل الأُصُول. وَقِيلَ: لا يَجُوز لِتَمَكُّنِهِ مِنْ الْوَحْي. وَالصَّوَاب الأَوَّل».

فالحديث يدل على أن سبب ترك النهـي هـو التجربة، تجربة أمم غير العرب، كانـوا يفعلون شيئاً لا تفعله العرب، ولم يضرهم فعله؛ فتجربتهم هذه دليل على أن هذا الفعل لا ضرر فيه، فلا ينهى عنه.

بقي أن نقول: إن الحقائق التجريبية التي يقرها الشرع نوعان: نوع يقره إقراراً عاماً ولا يبني عليه أمراً من أمور العبادات. ونوع يقره ويبني عليه بعض العبادات، فهو

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٢٦١٢.

شرعي بمعنى خاص. مثال ذلك: أننا نعلم الآن أن ضوء الشمس لا يصلنا إلا بعد ثماني دقائق من مشاهدتنا لها، ونعلم أننا لا نرى الشيء إلا إذا وصلنا ضوؤه. ومعنى ذلك أننا عندما نرى الشمس تشرق أو تغرب تكون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق. هذه حقيقة لا يكذبها الشرع. لكن الشرع بنى مواقيت الصلاة على الشروق والغروب كما يظهران للناس، لا على حقيقتهما الفلكية المستقلة عن الرؤية البشرية. لكن ما بُني الشرع عليه هو أيضاً حقيقة علمية، بل هي حقيقة يحسها كل إنسان مبصر.

ومثال آخر: هو ميلاد الهلال ورؤيته. فالميلاد حقيقة علمية تجريبية قطعية كما عرف الناس منذ مئات السنين، وكما أقر بذلك كثير من علمائنا السابقين. لكن الشرع رتب الصيام على الرؤية لا على ميلاد الهلال، ولا على إمكان الرؤية، مع أنها حقائق علمية. ماذا نفعل إذا كنا نعلم أن الهلال لم يولد، ثم زعم أناس أنهم رأوه؟ القاعدة العقلية والشرعية هي أن القطعي مقدم على الظني؛ فما دمنا نعلم يقيناً أن الهلال لم يولد، فإننا نعلم يقيناً أنه لا يمكن أن يُرى، ولذلك نرد شهادة من زعم أنه رآه؛ لأنها ظنية. فالذين يرون الأخذ بالحساب في النفي هم المحقون بحسب هذه القاعدة وإلا وقعنا في ورطة الاعتقاد بأن الحقائق القطعية تتعارض؛ أو أن ما يقرره الشرع قد يخالف ما يقطع به الحس أو العقل.

دين الحق والخير والجمال

(البيان ١٥٠ - صفر ١٤٢١هـ - مايو - يونيو ٢٠٠٠م)

الإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأنه حق كله، وخير كله، وجمال كله؛ فلا باطل فيه، ولا شر فيه، ولا قبح فيه. وأما ما عداه فيختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر، والجميل بالقبيح. وهو دين الحق والخير والجمال؛ لأنه يوائم بين هذه القيم الثلاث، ويجعل كلاً منها ـ كما ينبغي أن يكون ـ معاضداً للآخر ومعيناً عليه، بينما يجعلها غيره من المذاهب والحضارات والنِّحَل متشاكسة متضاربة، يهدم بعضها بعضاً. يرون في جمال الفنون مسوِّغاً لاتخاذها وسيلة إلى قول الزور، وهدم الفضيلة؛ وفي جمال التعبير ـ شعراً كان أم رواية ـ ما يجعل من حق القائل أن يختلق الأباطيل ويروِّج للشرور، ويجاهر بالفسوق.

والإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأن المعبود الذي يدعونا إليه هو الحق، وهو فاعل الخير، وهو الجميل الذي لا يضاهي جمالَه جمالٌ.

فاللـــه ـ تعالى ـ هو الحق الأعلى الذي لا يقارِب أحقيتَه حقٌّ؛ فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الخالق لكل شيء.

وربنا ـ تعالى ـ خيرٌ مَحْضٌ؛ فالخير كله بيديه، والشر ليس إليه.

وربنا ـ تعالى ـ جميل يحب الجمال.

والرسول ﷺ الذي أرسله إلينا حـــق، نعـــرف نسبه، ومولده، ونشأته، وصفاته، بل نعـــرف عنه ما لا يعرف أحد عن بشر سواه؛ فهو ليس كأولئك الذين يعتقـــد بعض أصحاب الديانات فيهـــم، وهـــم لا يملكون دليلاً تاريخياً حتى على وجودهم، ودعك من سيرتهم.

وكان رسولنا ﷺ متصفاً بكل صفات الخير، حتى قال عنه ربنا ـ سبحانه ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وحتى قالت عنه زوجه التي عرفت مداخله ومخارجه: «كان خلقه القرآن»[١]. كان صادقاً، أميناً، وفياً، كريماً، رحيماً، شجاعاً، صبوراً، دوَّاراً مع الحق حيث دار، لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان جميل الصورة، جميل الروح، جميل الحديث. وكان لذلك رجلاً مهيباً.

والقرآن الكريم الذي أنزله ـ تعالى ـ كتاب يقول الحق، ويهدي إليه، ويأمر بالخير وينهى عن الشر، ويعبر عن كل ذلك بلغة هي الذروة العليا من الجمال:

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿ الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

---

(١) رواه أحمد، ح، ٣٣٤٦٠.

﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام: ١١٥]. (صدق في الأخبار وعدل في الأوامر والنواهي).

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

فهو ليس كالكتب الدينية التي يشك أصحابها في أصولها، وفي ترجماتها، وفي معانيها.

وبما أن هذه القيم الثلاث مجتمعة في الإله المعبود، وفي الرسول المبعوث، وفي الكتاب المنزل، فإن أحسن أحوالها أن تكون كذلك متداخلة في حياة البشر.

ولذلك نجدها متداخلة موصوفاً بعضها ببعض في كتاب ربنا وسنة رسولنا ﷺ: فمكارم الأخلاق توصف بالجمال. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج: ٥].

والقول يوصف بالحسن وهو مفهوم جمالي وبه يوصف الفعل: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولا تناقض بين الانتفاع بالشيء وتذوُّق جماله، بل إن هذا الذي ينبغي أن يكون: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥ – ٧].

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٩].

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].

وتأمل هذه الآية الكريمة التي يأمرنا الله ـ تعالى ـ فيها بالنظر إلى ثمر النبات وينعه: ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩]. والنظر إلى الثمر والينع لا ينفك عن رؤية ما فيه من بهجة وجمال. فكما أن خلقه آية، وما فيه من غذاء آية، فجماله أيضاً آية لقوم يؤمنون. وانظر كيف جمع ـ سبحانه ـ بين الأمر بالنظر إليه، والأمر بإيتاء زكاته:

﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

والمحظوظ من كانت له زوجة تجمع بين حسن الخلق وجمال المنظر: «إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[(١)].

وكما أن هذه القيم يوصف بعضها ببعض فإن ديننا يجعل بعضها وسائل لبعض.

فالدعوة إلى الخير لا تبنى إلا على الحق، ولا تكون إلا مقرونة بالحسن والجمال: فالقصص القرآني أحسن القصص محتوىً وأسلوباً، لكنه كله مبني على الحق، لا على الخيال. إنه يقرر واقعاً ولا يختلق باطلاً ليتوسل به إلى عِبَر أخلاقية أو دينية: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا

---

(١) رواه ابن ماجه، ح/ ١٨٤٧.

كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

والدعوة إنما تكون بالكلام الجميل الذي تأنس به المسامع وترتاح إليه القلوب: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

لكن بعض إخواننا ـ عفا الله عنهم ـ جعلوا الدعوة إلى أعظم حق وأفضل خير: عبادة الله وحده، والاستمساك بسنَّة نبيِّه ﷺ ـ جعلوها مرتبطة بأنواع من الجفاء والغلظة التي تنفر منها طباع الكرام. ألم يتأملوا قول الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يا لله! فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لرسوله الكريم ﷺ: إنك لو أبقيت على كل ما فيك من خصال الخير، ولو بقيت تدعو إلى ما تدعو إليه من حق، لكنك كنت مع ذلك فظاً غليظ القلب لانفض من حولك هؤلاء الذين هم الآن معك. لماذا يا ترى؟ لأنهم أناس كرماء يحترمون أنفسهم، ولا يرضون لها أن تذل حتى من رجل في مثل شخصية الرسول ﷺ. وما كل الناس كذلك؛ بل إن منهم من لا يبقى ويطيع إلا مع الإذلال والهوان. ألم يقل الله ـ تعالى ـ عن قوم فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وصدق القائل:

إذا أنت أكرمتَ الكريم ملكتَه
وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمردا

ودعوة الحق إنما يصلح لها هذا النوع من كرام الناس. إنهم هم الذين يصدقون فيها ويتحملونها بقوة وشجاعة. فليكونوا هم إذن طَلِبَتَنا حين ندعو؛ ولندعهم لذلك بطريقة تليق بهم، فتجمعهم حولنا ولا تنفرهم منا. أما اللئام الذين يرضون بالهوان فلا خير فيهم، ولا رجاء منهم.

في مقابل هؤلاء أناس تذرعوا بلين الكلام وخفض الجانب ليوقعوا الناس في مهالك الشرك والابتداع. والسعيد من وفقه الله ـ تعالى ـ للدعوة إليه بالتي هي أحسن.

الجمال إذن محمود ومرغوب فيه، وهو قرين الحق والخير. فأما حين يكون مَظِنَّةً لأن يُتَّخَذَ وسيلة لهدم المكارم فإن الإسلام يمنع الاستمتاع به. ولذلك فإنه يحرِّم النظر إلى بعض الصور الجميلة، والاستماع إلى بعض الأصوات الجميلة حين يكون ما فيها من جمال ذريعة إلى شرك أو هدم مكارم. ولهذا حرَّم النظر إلى زينة النساء لغير محرم أو زوج؛ لأن الاستمتاع بجمالهن قد يكون وسيلة إلى هدم الفضيلة. وأباحه للمحارم؛ لأن هذه العلة منتفية في حقهم، وأباحه للأزواج، بل ودعاهم إليه؛ لأنه استمتاعٌ حلال، وقد يكون وسيلة إلى الامتناع عن الحرام.

وكذلك الأصوات الجميلة قد يرتبط جمالها بخاصةٍ فيها، أو في المستمتع بها، تثير مشاعر الرذيلة، أو تكون ملهية عن فضيلة. فخضوع النساء بالقول قد يثير الطمع فيهن وإن كن أزواج نبي، ولذلك مُنِعْنَ منه: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾.

[**الأحزاب** : ٣٢].

وقل مثل ذلك عن المعازف وأنواع من الغناء. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «هو ـ والله ـ الغناء».

فالحمد لله الذي هدانا للحق، وسهَّل لنا سبل الخير، ومتعنا بجمال الكلام، وجمال الخلق، وجمال المعاني.

دين لا تكفير فيه ليس بدين

(البيان ١٥٢ - ربيع الثاني ١٤٢١هـ - يوليو ٢٠٠٠م)

في عالمنا الإسلامي ـ العربي منه وغير العربي ـ مخلوقات غريبة تريد أن تجمع بين المتناقضات ولا تريد مع ذلك أن يعترض على تناقضها معترض. يريدون أن يقولوا لإخوانهم الذين كفروا من أهل الغرب إنما نحن مثلكم ننتقد الدين كما تنتقدون، ولا نلتزم به كما أنكم لا تلتزمون، ولا نترك فرصة للسخرية منه ومن المستمسكين به إلا اهتبلناها كما تهتبلون، ونرى كما ترون أن من حق الأديب والفنان أن ينتقد قيم المجتمع ومعتقداته ويدعو إلى نبذهـا؛ لأنه لا يكـون أديبـاً أو فناناً مبدعاً إلا إذا فعل كل هذا بحرية كاملة كما تفعلون.

لكن الفرق بين مخلوقاتنا العربية الممسوخة المقلِّدة هذه وبين من هم أسوة لهم من إخوانهم الذين كفروا في الغرب، أن أولئك إذا قيل للواحد منهم: إنك كافر بالمسيحية أو اليهودية اعترف بهذا وعده من تحصيل الحاصل. لكن مخلوقنا الممسوخ يرتجف ويُوَلْول ويطلب النجدة إذا قيل عن كلام كتبه هو أو أحد من شاكلته: إنه كفر وخروج عن دين الإسلام. إنه يريد أن يكون كافراً حقاً، لكنه يرتعد حين يوصف بالكفر المعبر عن تلك

الحقيقة. يريد أن يكون كافراً لكنه يريد أن يعيش في أمن، وأن يكون ذا سمعة حسنة في المجتمع الذي يتنكر لأحسن ما فيه من معتقدات وقيم، ويريد ـ شأن كل منافق ـ أن يتخذ من انتمائه للإسلام حصناً لهدمه. وهيهات.

وهو حين يواجه هذا الخطر على نفسه وعلى سُمْعَته يتحول إلى واعظ يذكِّر من رموه بتهمة الكفر بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [**النحل**: ١٢٥]، وهي الآية التي يكاد الواحد منهم ألا يحفظ من كتاب الله ـ تعالى ـ غيرها، يحفظها ليحتمي بها بعد أن يحرِّف معناها ويؤوِّلها على غير تأويلها. نعم نحن مأمورون بأن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة! لكن الذي نحن مأمورون بالدعوة إليه هو سبيل ربنا، وهو أمر واضح المعالم، بيِّن الحدود. فنحن نفهم السبيل إلى الدعوة بالتي هي أحسن؛ لكننا لا نفهم من الدعوة بالحكمة وبالتي هي أحسن أن نميع حقائق هذا الدين، أو أن نطمس معالمه، أو نزيل الحدود التي تميزه عن غيره فيكون شيئاً هُلامياً لا يُعرف أوله من آخره، ولا يُعثر فيه على ما يميزه عن غيره، فلا يمكن لذلك أن يحكم على إنسان بأنه داخل فيه أو خارج عنه. وما هكذا يكون الدين المنزل من عند الله، بل ما هكذا يكون أي مذهب: حقاً كان أم باطلاً. لا بد لكل مذهب من معالم تحدد هويته، وتميزه عن غيره، حتى يقال عن إنسان إنه منتم إليه أو ليس بمنتم، وإنه مؤمن به أو كافر به. إن المذهب الذي ليس فيه ما يميزه عن غيره ليس بمذهب.

والإسلام دين منزل من عند الله مرتكز على مجموعة من الحقائق، من آمن بها كان مسلماً، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافراً. فإمكانية الحكم على إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين. فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين؛ لأنه لا هوية له. إذا لم

تكن للدين هوية ولم تكن له معالم فإلى أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؟ والآية الكريمة التي يستدل بها هؤلاء الممسوخون تبطل دعواهم، وتدل على تحريفهم. وذلك أنها تبدأ كما قلنا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، وسبيل الله هو مجموعة الحقائق والقيم المبينة في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ. إنها دعوة إلى توحيد الله ـ تعالى ـ وعدم الإشراك به، دعوة إلى حبه وتقديره حق قدره، دعوة إلى الإيمان برسوله وتعزيره وتوقيره، دعوة إلى الإيمان بأن ما قرره الإسلام حق لا ريب فيه، وما أمر به عدل لا ظلم فيه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [**الأنعام**: ١١٥]. فكل قول أو فعل يتناقض مع هذا فهو كفر، وكل قائل به وعامل به على بصيرة فهو كافر خارج عن ملة الإسلام، روائياً كان أم ممثلاً أم فناناً، ناطقاً بالشهادتين أو غير ناطق.

لكن المخلوقات الممسوخة تريد أن تتستر بكفرها وراء الأدب والفن، فتزعم تارة أننا لم نفهم ما قيل إنه عمل أدبي فني. هكذا قال المدافعون عن سلمان رشدي في آياته الشيطانية في البلاد الغربية، وهكذا يقول المدافعون عن حيدر حيدر في وليمته لأعشاب البحر. وإن المرء ليعجب إذا كان جماهير الناس، بل خاصتهم لا يفهمون القصص والروايات؛ فيا ليت شعري ما ذا يفهمون؟ ثم هل يعقل أن يكتب كاتبٌ قصة لا تفهمها الجماهير؟ إذن من الذي سيشتريها، ومن ذا الذي يقرؤها؟

وتزعم أخرى بأن الفنان لا يحاكم بالمعايير نفسها التي يُحاكَم بها سائر عباد الله. أي إنه من حقه ـ وليس من حق السياسي مثلاً ـ أن يظهر الكفر ويدعو إلى التهتك ما دام يعرض علينا كفره وتهتكه في صورة أدبية أو فنية، وما دام الكلام ليس صادراً منه هو مباشرة، وإنما يقال على لسان شخصيات روايته أو قصته. فهنيئاً إذن لك فاحشاً بذيئاً؛ إذ ما عليه ـ لكي ينجو من كل محاسبة ـ إلا أن يضع شتمه وبذاءته على لسان شخصية يخترعها، في قصة أو رواية قصيدة يكتبها.

ماذا يعني هذا؟ أيعني أن الأعمال الفنية إنما هي أشكال لا محتوى لها؟ وأنها إنما يحكم عليها لذلك بشكلها لا بمضمونها؟ هل هذا صحيح؟ هل هذا هو الذي يفعله النقاد في تقويمهم للأعمال الفنية؟ وهل الشكل وحده هو الذي يبتغيه متعاطو هذه الأعمال؟ وهل معنى هذا أنه إذا كان كاتب ذو مواهب فنية رائعة أنه يجوز له أن يكتب قصة فحواها الاستسلام لإسرائيل، وأنه لا يحق للفلسطينيين ولا غيرهم أن يعترضوا على ما فيها؛ لأنها عمل فني؟ أم أن المحتوى الوحيد الذي لا يجوز الاعتراض عليه هو الاستهزاء بدين الله وتنقُّص أنبياء الله؟

وإذا كان بعض الناس يضعون الجمال الفني فوق الحق وفوق القيم، فما هكذا يرى المسلم المهتدي بكتاب ربه الذي يعلي من قدر الصدق والعدل، ويذم الكذب والجور في أي شكل جاء هذا أو ذاك. ولهذا حكم على الشعر بمحتواه لا بمجرد شكله.

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

هيئة الأمم

(البيان ١٥٤ - شوال ١٤٢١هـ - سبتمبر ٢٠٠٠م)

بما أن المسلمين أمة عظيمة من الأمم التي تسكن كرتنا الأرضية، فإنه يهمها أن تعيش في سلام مع غيرها من الأمم، وأن تشاركها وتتعاون معها في الرقي بالمجتمع الإنساني، وفي البحث عن حلول للمشكلات التي تواجهنا جميعاً، طبيعيةً كانت أم سياسية أم اجتماعية. وهيئة الأمم المتحدة منبر من أحسن المنابر لتحقيق ذلك. لكننا نرى أن استمرار هذه المنظمة في أدائها لهذه المهمة العظيمة رهين بإقرارها لثقافات الشعوب المكونة لها، وقيمها وخصوصياتها، وأن تكون وسيلتها للتغيير في المسائل التي تختلف فيها الثقافات والحضارات هي الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن، وألاَّ تتحول إلى أداة تستغلها بعض الدول أو الجماعات لفرض معتقداتها وقيمها، وقمع المخالفين لها.

وعليه فإننا نود أن نؤكد ـ باعتبارنا أمة إسلامية ـ أننا لا نأخذ معتقداتنا وقيمنا من مصادر غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن هذين المصدرين الإسلاميين يمثلان قانوننا الأعلى الذي نحكم به على غيرهما، فنرفض ما يتناقض معه، ونفسر في نطاقه ما نراه



موافقاً له. وكما أن هذا الموقف مقتضى ديننا فهو أيضاً مقتضى حرية الدين التي وردت في الإعلان العالمي للحقوق الإنسانية؛ إذ إن هذه الحرية لن يكون لها معنى بالنسبة لنا إذا كان غيرنا هو الذي يفرض علينا كيف نفهم ديننا، وماذا نأخذ منه وماذا ندع، ثم يعاقبنا إذا نحن لم نلتزم بما أَمَرَنا به!

في ضوء ما سبق نقرر رفضنا القاطع لبعض ما ورد في مقررات مؤتمر بكين متعلقاً بالعلاقة الجنسية، ونرى فيه دعوة إلى الإباحية التي لن ينتج عنها إلا مزيد من التفسخ الخلقي، والتفكك الأسري، وانتشار الأمراض التناسلية، وتعزيز النزعة الفردية، وما يتبع ذلك كله من زيادة في الجريمة، وتهديد لأمن المواطنين وسلامتهم.

لكننا نقر مع ذلك أن المرأة تعاني عالمياً من ظلم يجب أن يرفع عنها، ومن فقر يجب أن يزال، وأن هذا إنما يكون بالتعاون بين الجنسين باعتبارهما مخلوقين بشريين تحركهما الحجج العلمية والدوافع الخلقية. ولن يتحقق أبداً بإثارة جنس على جنس، بل يُخشى أن تؤدي مثل هذه الإثارة إلى صراع تكون المرأة في نهايته هي الخاسرة.

ويسرنا أن نشارك غيرنا من شعوب العالم في حل هذه المشكلات مهتدين بديننا وتجاربنا وتاريخنا، ومستفيدين كذلك من فكر غيرنا وتجربته وتاريخه.

وعليه فإننا في مجال إزالة الفقر ندعو دول العالم وأفراده إلى أن يطبقوا فريضة الزكاة الإسلامية، ولو فعلوا لما بقي على وجه الأرض فقير ذكراً كان أم أنثى. كيف لا، وهي ضريبة سنوية مقدارها ٢,٥٪ من رأس المال، تؤخذ من الأغنياء وتوزع على الفقراء، وأن يطبقوا المبدأ الإسلامي الذي يجعل من حق كل إنسان أن يعيش حياة كريمة ما دام المجتمع قادراً على ذلك. ونضم صوتنا إلى المنادين بإزالة الآثار السلبية للعولمة وما ينتج عنها من زيادة فقر الفقراء، واستغلال عمل النساء. ونرى مع غيرنا أن مما يساعد على

تخفيف الفقر عن البلاد النامية أن ترفع عنها الفوائد الربوية على الديون التي تقترضها من الدول الغنية؛ فإن هذه الفوائد قد صارت عائقاً لهذه الأمم عن كل نمو اقتصادي.

وفي مجال التعليم نرى أن يشمل التربية الخلقية التي تغرس في المرأة الاعتزاز بما ميزها الله به، وترضى به، ولا تحاول أن تلهث وراء تقليد الرجال ومنافستهم فيما ميزهم الله به ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢] وأن يفهم ما يمتاز به كل من الجنسين بأنه وسيلة للتعاون بينهما، وتكميل للواحد منهما بالآخر، وعون على بناء الأسرة واستقرارها، وتحقيق لمصلحة الأولاد.

وفي مجال الموازنة بين عمل المرأة خارج بيتها وبين واجباتها الأسرية نرى أن يطبق المبدأ الإسلامي الذي يلزم الرجل بالنفقة على زوجه وأسرته، ويجعل ذلك حقاً لهم، وأن تعين الدولة كل امرأة تفضل البقاء في بيتها لتربية أولادها وإعانة زوجها. إن عمل المرأة خارج بيتها ينبغي أن يُنظَر إليه على أنه ضرورة اقتصادية لا أمر يقتضيه تكريم المرأة واحترامها.

الأمم المتحدة.. ما حدود صلاحياتها؟!

(البيان ١٥٦ - شعبان ١٤٢١هـ - نوفمبر ٢٠٠٠م)

أظهرت الجلسة الأخيرة الخاصة للأمم المتحدة قضية يجدر بالدول الأعضاء ـ ولا سيما الإسلامية منها ـ أن توليها قدراً كبيراً من العناية، لما يترتب عليها من آثار خطيرة بعيدة المدى.

سميت الجلسة بالخاصة؛ لأنها إنما عقدت لإجازة «القرارات» التي كان مؤتمر بالصين قد أجازها قبل خمس سنوات. ولذلك سميت الجلسة «بيجن/ ٥»[1] وقد أعطيت المنظمات غير الحكومية فرصة لحضور هذه المناسبة لمناقشة القرارات والتأثير على الممثلين الرسميين، وإن لم يؤذن إلا للقليل جداً منهم بحضور جلسات الجمعية نفسها.

لقد كانت مقررات «بيجن» كلها متعلقة بالمرأة، وكان فيها كثير من الاقتراحات الجيدة والمفيدة، كتلك المتعلقة برفع المعاناة عن الشعوب ولا سيما النساء فيها، وكتلك التي تتحدث عن الجوانب السلبية للعلمنة الاقتصادية. لكن المقررات تضمنت أيضاً

(١) «بيجن» أي: بكين، وهي عاصمة الصين.

دعوة إلى الإباحية الجنسية من شذوذ بين الرجال وشذوذ بين النساء، وأن البنت لها الحرية في أن تتصل بمن تشاء وأن تتزوج من تشاء من غير اعتبار لدين، ولا لرأي أسرة.

كنت فيمن شهد هذه الجلسة فرأيت فيها عجباً أثار في نفسي كثيراً من الآراء والمقترحات للجماعات الإسلامية، أرجو أن أتعرض له في مناسبات أخرى. أما الآن فيكفي أن أقول: إن معظم المنظمات غير الرسمية التي شهدت هذه الجلسة كانت من النوع المتحمس للإباحية الجنسية والداعي لها بقوة، حتى إنك تكاد ألاَّ تسمع صوتاً غير أصواتها، وقد بذلتْ جهداً كبيراً ومنظماً في التأثير على الممثلين الرسميين أصحاب القرار. ولولا لطف الله ـ تعالى ـ ثم اعتراض بعض المنظمات الإسلامية ـ وكان من أهمها رابطة العالم الإسلامي ـ والدول الإسلامية لأجيزت هذه التوصيات الإباحية.

لكن عرض هذا الموضوع على هيئة الأمم أثار في ذهني سؤالاً مهماً انتهزت فرصة وجودي في هيئة الأمم للتعبير عنه بين الجماعات الإسلامية، وللكتابة عنه في نشرات رابطة العالم الإسلامي. والموضوع هو: ما حدود صلاحيات الأمم المتحدة؟ قلت: إنه ليس من حق منظمة الأمم المتحدة أن تصدر قرارات في مسائل تتعلق بالمعتقدات والقيم التي يختلف فيها الناس اختلافاً كبيراً. وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إنه بما أن الدول المكونة للأمم المتحدة يختلف كثير منها ذلك الاختلاف الكبير في المعتقدات والقيم؛ فإنه لا يمكن لهؤلاء الأعضاء أن يستمروا متعاونين لمواجهة المشكلات التي تهمهم جميعاً إلا إذا كانوا مستعدين لأن يتعايشوا ويتحمل بعضهم بعضاً رغم هذه الخلافات. إن التغيير في هذه المسائل الجوهرية الأصولية لا يأتي إن أتى ـ وسواء كان إتيانه إلى خير أو إلى شر ـ إلا بالتدرج وبالطرق السلميَّة. لكن الذي نراه الآن هو أن بعض الجماعات الغربية تريد أن تستغل المنظمات العالمية لكي تفرض

معتقداتها وقيمها على المجتمعات الأخرى. وقلت: إنني موقن بأن بعض الدول ـ ومنها الدول الإسلامية ـ لن تنفذ هذه القرارات. وأن هذا سيؤدي إلى عدم احترام قرارات الأمم المتحدة، وربما أدى في النهاية إلى إضعاف المنظمة وعدم فعاليتها.

إننا ـ نحن المسلمين ـ مثلاً لا نأخذ معتقداتنا وقيمنا من الأمم المتحدة أو غيرها من المنظمات، ولا نعدها مصدراً مشروعاً لها، وإنما نأخذها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والغريب الذي لا يعلمه كثير من الناس أن موقف أمريكا شبيه بموقفنا الإسلامي هذا؛ فالدستور الأمريكي والقوانين الأمريكية هي عند الأمريكان فوق كل ما سواها من قرارات واتفاقات، فلا شيء من هذا يصير ملزماً قانوناً إلا إذا أجازته الهيئة التشريعية، وهي لا تملك أن تجيز أمراً مخالفاً للدستور. ولذلك فإن وزيرة الخارجية الأمريكية اعتذرت في خطابها بهيئة الأمم بهذه المناسبة بأن بلدها لم يستطع إجازة مقررات «بيجن» بسبب معارضة بعض الشيوخ!

ونحن نضع كتاب ربنا وسنَّة نبينا ﷺ فوق كل قانون وكل قرار وكل اتفاق، بل ونفسر ما نوافق عليه منها في حدود هذا القانون الأعلى، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [**الحجرات**: ١]، ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [**الحشر**: ٧].

ثانياً: إن إعلان حقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة يعطي الناس حق الحرية الدينية؛ فماذا يبقى للناس من هذه الحرية إذا أعطت الأمم المتحدة نفسها الحق في أن تفرض عليهم كيف يفهمون دينهم، وماذا يأخذون منه وماذا يدعون، وإلا كانوا معرضين للعقوبات؟ إن المسلم لا يظل مسلماً إذا هو أباح ما حرَّم الله تعالى، وإن من أشد المحرمات في دين الله جرائم الزنا وعمل قوم لوط. فكأن الأمم المتحدة تطلب من

المسلمين إذن أن يتخلوا عن دينهم!! كيف يستقيم هذا مع اعتبار الحرية الدينية حقاً من الحقوق الإنسانية التي تدافع عنها الأمم المتحدة؟

إن الدين في المفهوم الإسلامي هو منهاج الحياة الذي يختاره الناس لأنفسهم، سواء كان هذا المنهاج قائماً على أسس من دين أنزله الله تعالى، أو كان شيئاً اختاره الناس وتصالحوا عليه. فما يسمى بالعلمانية هو بهذا الاعتبار دين، وقرارات «بيجن» هي أيضاً دين. فإذا فرضتها الأمم المتحدة على الشعوب تكون قد أكرهتهم على الالتزام بدين لا يؤمنون به؛ فأين حرية الدين إذن؟!

ثالثاً: ماذا يبقى للدول من سيادة قومية إذا كانت قرارات الأمم المتحدة ستكون فوق ما تقرره الشعوب في أوطانها، حتى لو كانت قراراتها صادرة عن هيئات تشريعية كتلك التي توجد في البلاد الغربية؟ لكن الواقع أن هذا التطاول على السيادة القومية لن يمارس إلا على الشعوب الفقيرة والضعيفة. أما الشعوب الغنية والقوية فلن يجرؤ على مساءلتها أو محاسبتها ومعاقبتها أحد. وهذا يعني أن ما تقرره أو ترضى عنه الشعوب في الدول القوية هو الذي يفرض عن طريق الهيئات العالمية على الشعوب الفقيرة. هذا على افتراض أن الشعوب هي فعلاً التي تقرر. أما في الواقع الذي نراه فإن شعوب تلك البلاد هي نفسها مستغلة ومسخرة لأهواء جماعات أقلية غنية نشطة.

إذا كانت الحكومات القطرية تحدد صلاحيات الحكومة الفدرالية أو المركزية وصلاحيات حكومات الولايات أو الإمارات؛ بحيث لا يجور بعضها على بعض، أفلا يكون من العدل أن تحدد صلاحيات منظمة الأمم المتحدة، وصلاحيات الحكومات القطرية المكونة لها؟!

الحضارة الغربية
ضجة عن الحرية.. وممارسة للهيمنة الثقافية
(البيان ١٥٧ - رمضان ١٤٢١هـ - ديسمبر ٢٠٠٠م)

الحضارة الغربية حضارة يبوء كاهلها بالمتناقضات: تناقض في الأفكار، وتناقض في القيم، وتناقض في المواقف، وتناقض بين الأقوال والأفعال. لكنها رغم ذلك كله هي الحضارة السائدة التي يعدها أهلها ويعدها بقية العالم ـ إلا من رحم ربك ـ حضارة العصر، الحضارة التي يجب أن يحذو حذوها كل من يريد أن يتبوأ مكانة محترمة ومقبولة في هذا العصر، وإلا كان فيه بجسده، وخارجَه بروحه وفكره.

ولعل من أبرز أنواع التناقض بين أقوال هذه الحضارة وأفعالها تناقضها بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب، وسلوكها كل سبيل لفرض قيمها الخُلُقية، وتجربتها السياسية، ونظمها الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض، ووصم كل ما يخالفها، بل كل ما يتعارض مع مصالحها، بكونه انتهاكاً للحقوق الإنسانية، أو إضراراً بالمصالح العالمية، أو ممارسة للإرهاب، أو سبباً للتخلف، وما شئت من تهم جائرة، بل ـ وأحيانا ـ أقوال آفكة.

المتعصبون من أهل الحضارة الغربية ضد ثقافات الأمم الأخرى ـ وما كلهم كذلك ـ مصابون بنوع من المرض الثقافي الذي يجعل على بصر صاحبه غشاوة تهول له قيم ثقافته، بل وأباطيلها، حتى يراها هي القيم الإنسانية التي يجب على كل الأمم أن تؤمن بها وتطبق مقتضياتها، بل وهي المعيار الذي تقاس به إنسانية الأمم، ويحدد على أساسه استحقاقها للمصالحة والمساعدة أو المشاقَّة والإعنات. وقد عبَّر عن شيء من هذا مندوب ـ أو مندوبة ـ باكستان في جلسة الأمم المتحدة الخاصة بقضية المرأة. قالت لهم المندوبة كلاماً نقلته بعض الصحف الأمريكية فحواه: أن مشكلة المرأة في باكستان أن تشرب ماءاً نقياً، لا أن تتزوج امرأة مثلها، ولا أن تكون لها حرية الاتصال بمن شاءت من الرجال.

هذا موضوع كبير نُشرت فيه أوراق وأُلفت فيه كتب منها كتاب مشهور للأستاذ إدوارد سعيد اسمه: (الاستعمار الثقافي) لكن حديثنا اليوم عن آخر مظهرين شهدهما الكاتب لهذه الهيمنة. أولهما: الاجتماع الخاص بالنساء الذي عقد بالأمم المتحدة والذي تحدثت عنه في مقال سابق. وثانيهما: كتاب لرائدة من رواد الحركة الأنثوية feminism.

من مظاهر الهيمنة الثقافية في اجتماع الأمم المتحدة أن المنظمات غير الحكومية التي شاركت فيه كان أعلاها صوتاً ـ وربما أكثرها عدداً ـ المنظمات الآتية من البلاد الغربية. وحتى التي أتت من البلاد غير الغربية كان كثير منها ـ إن لم يكن معظمها ـ من الجماعات الدائرة في فلك المنظمات الغربية، بل ربما كان بعضها مجرد صدى لها. كان منها ـ مثلاً ـ منظمة من بلد من أكثر البلاد الإفريقية فقراً وجوعاً، لكن مستوى أدائه في الدعاية للقيم الغربية كان مضاهياً لأغنى المنظمات الغربية.

ومن مظاهرها: أن اللغة المسيطرة على الاجتماع كله كانت اللغة الإنجليزية؛ فالذي لا يعرفها لا يستطيع أن يشارك مشاركة فعالة.

ومن مظاهرها: أن كُبريات المتحدثات كن من الشخصيات الأمريكية المرموقة؛ فقد تحدثت في اجتماع المنظمات غير الحكومية سيدة أمريكا الأولى، وخاطبت الجمعية العمومية وزيرة خارجيتها، وكان معظم المتحدثين والمتحدثات غير الغربيين من أبواق الغرب، حتى إن عدد المتحدثين والمتحدثات من بلد أفريقي غير الذي ذكرت آنفاً لم يكن متناسباً قط لا مع أهميته ولا مع حجمه.

والقضايا التي أثيرت ونالت اهتماماً كبيراً كانت هي القضايا التي يهتم بها الغرب؛ إما لأنها من القضايا التي تشغل بال الناس فيه، أو لأنها مما يعترض عليه الغرب في ثقافات الآخرين. من ذلك قضية ختان البنات التي حوَّلها الكُتَّاب والساسة الغربيون وأتباعهم من المستغربين إلى قضية كبرى تكاد تكون من أهم معاييرهم للولاء والبراء.

وهذا يقودنا إلى كتاب الرائدة الأنثوية الذي أسمته: المرأة كاملة، أو المرأة بأكملها The WholeWoman، تعرضت المؤلفة فيه لقضية الختان هذه، فذكرت أنها كانت وما زالت معترضة على ختان النساء، لكنها بعد أن سافرت واتصلت بالثقافات الأخرى، تبين لها أن اهتمام الغرب به هو تعبير عن احتقاره للثقافات غير الغربية. واستدلت على ذلك بأدلة لا تخلو من طرافة:

منها: أنه لا فرق بين ختان الرجال وختان النساء؛ لكننا لا نعترض على الأول ولا نثير حوله زوبعة؛ لأنه يمارس في الغرب.

ومنها: أن النساء في الغرب يجرين عمليات جراحية تجميلية هي أشد غرابة من الختان. من ذلك العمليات التي تجريها بعضَ النساء لتصغير أثدائهن. قالت:

إنها عندما ذكرت هذا لبعض النساء السودانيات كان استغرابهن له كاستغرابنا للختان، وأنها تعلمت منهن أن الختان أنواع، وأن منه ما لا ضـــرر فيـــه، وأنـه لا يؤثر على الاستمتاع الجنسي، وأنه ليس أمراً يفرضه الرجال على النساء كما نظن في الغرب.

ومنها: أن بعض الناس في الغرب يخرقون ألسنتهم ليدخلوا فيها نوعاً من الحلق كالذي يدخل في الآذان. بل إن منهم من يفعل ذلك لعضو الرجل!

لنفترض أن الحديث كان عن أسوأ أنواع الختان، وهو مضر ما في ذلك شك؛ لكن أهو أضرُّ من هذا الذي ذكرته الكاتبة؟ أهو أضر من شرب الخمر الذي يموت بسببه المئات بل ربما الآلاف في الغرب في ليلة واحدة هي ليلة عيد الميلاد؟ أهو أضر من حمل السلاح الذي يرخص به القانون الأمريكي، والذي يُقتل بسببه عدد من الأبرياء ـ وأحيانا الأطفال ـ في كل يوم وليلة؟ أهو أضر من الجمع بين السُّكْر وحمل هذا السلاح؟ أهو أضر من السفور، وما ينتج عنه من أنواع الاغتصاب؟ أهو أضر من الزنا واللواط الذي تُحله القوانين الغربية والذي كان سبباً في مرض الإيدز وأمراض أخرى جسدية ونفسية؟ أهو أضر من التدخين الذي صار من أسباب الموت الأولى في البلاد الغربية، والذي لا مسوِّغ لإباحته إلا استفادة بعض الشركات منه، كاستفادة أخرى من إباحة حمل السلاح؟

كلا والله! ولكن الأمر كما قال ربنا: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

إن قـوة الغرب المادية صـارت فتنة تعمي الناس ـ ومنهم منتسبون إلى الإسلام ـ عن رؤية عيوبه وشروره. كما أن ضعف المسلمين صار فتنة تصد الناس عن رؤية ما عندهم من خير وعن قبوله.

﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

مفهوم العقل

(البيان ١٥٨ - شوال ١٤٢١هـ - يناير ٢٠٠١م)

العقل جزء من الشرع؛ فكما أنه لا عقل كاملاً بلا شرع، فكذلك لا شرع كاملاً بلا عقل، والشرع هو كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فما العقل؟

كان السلف يقولون: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب. فالغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية مِن فَهمْ، وإدراك، وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف إلى آخر ما سنبينه بعد إن شاء الله. هذا العقل الغريزي هو موضوع مقالنا.

العقل الغريزي هذا هو مناط التكليف؛ فمن لا عقل له لا يُكلَّف، ومن فقد بعض مقدراته العقلية؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها.

والذي أعطي عقلاً ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح، ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين، فلا يؤمن به، لكنه يحاسب على عدم فقهه؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله

الاختياري لعقله ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٠٠].

فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، الرجس في أصله اللغوي هو النتن، فكأن الآيتين الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع.

وللعقل في القرآن معان بحسب نوع المعقول ـ أعني نوع الشيء المراد عقله وفهمه ـ من هذه المعاني:

١ - فهم الكلام: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]. فبيَّن أن السبب في جعله عربياً هو أن يفهمه ويعقله أولئك المتحدثون بهذه اللغة.

٢ - عدم التناقض في القول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]، فالذي يقول: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً كأنه يقول: إن إبراهيم كان سابقاً في وجوده لليهودية والنصرانية لكنه كان أيضاً لاحقاً لهما. وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ

ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] هـذا الكـلام موجه لليهود الذين يزعمون أنهم يؤمنون بنبوة موسى؛ فكأن الآية الكريمة تقول لهم: إن من التناقض أن تقولوا: إن الله أنزل التوراة على موسى، ثم تقولوا: ما أنزل الله على بشر من شيء.

٣ - فهم الحجج والبراهين: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

٤ - موافقة القول للعمل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ولذلك قال النبي الصالح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. لكن تصحيح هذا التناقض إنما يكون بجعل العمل موافقاً للقول الصحيح لا العكس؛ فالذم في هذه الآية منصب على نسيانهم لأنفسهم لا لأمرهم بالبر؛ لأن الأمر بالبر شيء حسن، ولا يغير من حسنه كون الداعي إليه لا يلتزم به. وقد يأمر الإنسان به بإخلاص وإن لم يعمل به. فالذي يأمر أولاده بعدم التدخين أو عدم شرب الخمر مثلاً، مع فعله لذلك، خير من الذي يأمرهم بالتأسي به في فعله، بل خير من الذي لا يأمرهم ولا ينهاهم.

٥ - اختيار النافع وترك الضار سواء كان مادياً أو معنوياً: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٦ - التضحية بالمصلحة القليلة العاجلة من أجل مصلحة كبيرة آجلة: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: ٦٠]، ويؤيد هذا آيات أخرى لم يرد فيها ذكر العقل، منها قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

٧ - استخلاص العبر الصحيحة من الحوادث: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، يشير - سبحانه وتعالى - هنا إلى قرى قوم لوط التي قال عنها في آية أخرى مبيناً عدم إدراك الكفار لمغزاها بسبب إنكارهم للبعث: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

٨ - استخلاص العبر مما جرى في التاريخ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٩ - فَهْم دلالات الآيات الكونية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢].

١٠ - حسن معاملة الناس ولا سيما الأنبياء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

هذه كلها مقدرات عقلية زود الله ـ تعالى ـ بها الناس أجمعين؛ فهم جميعاً يقرون بها، ويرون من عدم العقل ترك الالتزام بها؛ لكن ما كلهم يلتزم في الواقع بها. ولذلك يكفي أن ينبه من خرقها إلى أنه أتى بفعل غير عقلي كما رأينا ذلك في آيات القرآن السابقة.

لكن ينبغي أن ننبه إلى أن بيان القرآن للمسائل العقلية وإقراره لها ليس محصوراً في الآيات التي ذكرت فيها كلمة العقل، فهنالك آيات تذكر فيها كلمات أخرى تشير إلى المقدرات العقلية بذلك المعنى العام الذي ذكرناه، بل إنه يبدو أن كل سؤال استنكاري في القرآن يدل على أن المسؤول عنه أمر بدهي ما ينبغي لذي عقل أن يماري فيه.

بل إن القرآن الكريم مليء بالآيات التي يمكن أن يتخذها المسلم موازين عقلية. ولعل هذه هي المرادة بالمعنى الثاني لمفهوم العقل، أعني كونه علوماً يهتدي بها الإنسان.

فصل الدين عن الدولة

(البيان ١٥٩ - ذو القعدة ١٤٢١هـ - فبراير ٢٠٠١م)

أصبحت قضية فصل الدين عن الدولة، أو ما يسميه الغربيون فصل الدولة عن الكنيسة، من القضايا المسلَّم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية. ودعاة فصل الدين عن الدولة قد يعترفون بأن هذا أمر حدث لظروف تاريخية خاصة بالحضارة الغربية، وبالديانة النصرانية؛ لكنهم مع ذلك يرون أنه أصبح أمراً لازماً لكل دولة حديثة، ويسوِّغون هذا بأن الأساس في الدولة الحديثة هو المواطنة، وما دام المواطنون في الدولة الواحدة لا ينتمون في الغالب إلى دين واحد، بل تتقاسمهم أديان متعددة، وقد يكون بعضهم ملحداً لا يؤمن بدين؛ ففي التزام الدولة بدين واحد من هذه الأديان افتئات على حقوق المواطنين المنتمين إلى الأديان الأخرى أو المنكرين لها كلها لأنه:

- يفرض عليهم ديناً لا يؤمنون به.
- ويحرمهم من ممارسة الدين الذي اختاروه إما كله أو بعضه.

• ويحرمهم من حقهم في شغل بعض الوظائف الكبيرة كرئاسة الدولة، وقد يكون سبباً لخلافات ونزاعات عميقة تفقد الدولة معها الاستقرار اللازم لتطورها.

ويرون لذلك أن تكون الدولة دولة علمانية محايدة لا تلتزم بالدين ولا تحاربه ولا تنكره، بل تترك أمره للمواطنين يختارون ما شاؤوا من عقائد، ويلتزمون بما يريدون من قِيَم، ويمارسون ما يروق لهم من عبادات.

هذه الصورة للعلمانية التي حرصت على أن أجعلها براقة كأشد ما يريد المدافعون عنها أن تكون، تنطوي على افتراضات هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. ومن ذلك:

أولاً: أنها تفترض أن العلمانية يمكن أن تكون محايدة بالنسبة لكل الأديان؛ لكنها لا تكون كذلك إلا إذا كان مجال الدين مختلفاً عن مجال الدولة، أي إذا كان الدين والدولة يعيشان في منطقتين مستقلتين لا تماسَّ بينهما، وأن دعاة الدولة الدينية يقحمون الدين في مجال غير مجاله، ولذلك يضرون به وبالدولة.

فهل هذا الافتراض صحيح؟ إنه لا يكون صحيحاً إلا إذا كان الدين محصوراً بطبعه في بعض المعتقدات وبعض الشعائر التعبدية، وبعض أنواع السلوك الشخصي الذي لا علاقة له بالجماعة، ولا يدخل لذلك في مجال الدولة، لكن الواقع أن هذا الوصف لا ينطبق على أي من الأديان الكبيرة المشهورة: اليهودية والنصرانية والإسلام؛ فما منها إلا وله حكم في العلاقات بين الجنسين، وفي العلاقات الأسرية، والاجتماعية، وفيما يحل أكله وشربه، وما يحرم، وهكذا. وكلها أمور تدخل بالضرورة في مجال الدولة.

كيف حل الغربيون هذا الإشكال؟ حلوه بنوع من المساومة: فهم قد أخذوا بعض القيم النصرانية وجعلوها قوانين للدولة، وهم يجعلون اعتباراً كبيراً لقيمهم الدينية في

سياستهم الخارجية، ولا سيما في معاملة الإسلام. لكنهم في الجانب الآخر تركوا أشياء من دينهم، وساعدهم على ذلك تاريخهم المليء بتحريف الدين إما في نصوصه أو في تأويله، ثم جاءت في العصور الأخيرة حركات فكرية تحررية أذاعت القول بأن ما يسمى بالكتاب المقدس ليس كلام الله تعالى، وأنه من كتابة بشر عاديين تأثروا بالجو الثقافي في المرحلة التاريخية التي عاشوا فيها، ولذلك فإن ما قرره هذا الكتاب في مسائل مثل الشذوذ الجنسي ينبغي ألا ينظر إليها إلا على أنها قيم مجتمعات سابقة. هذا كلام لا يقوله السياسيون والحكام فحسب، وإنما يقوله كثير من رجال الدين، والمختصين بدراسته، لكن حتى هؤلاء المتحررون يشعر الكثيرون منهم الآن أن العلمانية لم تعد محايدة بين الأديان، بل صارت هي نفسها ديناً يدافع عنه أصحابه ويحاربون به النصرانية، وأذكر أن أحدهم قال لي في أحد المؤتمرات ناصحاً: لا تُخدَعوا كما خُدِعنا، فتظنوا أن العلمانية موقف محايد؛ بل هي الآن دين، أو كما قال ذاك الناصح.

فكيف تُحَل هذه المشكلة بالنسبة لأناس كالمسلمين يرون أن القرآن كلام الله ـ تعالى ـ لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن ما صح من سنة رسول الله ﷺ هو أيضاً وحي الله؟

وكيف إذا كان دينهم لا يقتصر على ما ذكرنا من أمور تدخل في نطاق الدولة، بل يتعداها إلى أخرى هي من أخص خصائص الدولة؟

ماذا يفعل هؤلاء؟ لا خيار لهم بين الحكم بما أنزل الله ورفض العلمانية، أو الحكم بالعلمانية والكفر بما أنزل الله تعالى.

إن أكثر ما يتعلل به دعاة العلمانية في بلادنا هو اختلاف الأديان في البلد الواحد. يقولون: بأي حق تفرض على أناس ديناً غير دينهم، وقِيَماً ليست قيماً لهم؟ ماذا إذا لم يكن في البلد إلا مسلمون، أو كان غير المسلمين أفراداً قلائل؟ لماذا يفصل هؤلاء بين دينهم ودولتهم؟

وحتى لو كان المنتسبون إلى غير الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى يمثلون نسباً كثيرة، فإن العلمانية ليست هي الحل العادل؛ لأن أصحاب هذه الديانات إما أن يكونوا في السياسة علمانيين، وإما أن يكونوا ممن يريد للدولة أن تستمسك بعقائده وقيمه وتدافع عنها. فإذا كان من الفريق الأول يكون المسلمون قد تنازلوا عن دينهم بينما هو لم يتنازل عن شيء؛ لأن العلمانية هي مبدؤه سواء كان هنالك مسلمون أو لم يكن.

أذكر أنني قلت ذات مرة لبعض الجنوبيين المثقفين عندنا في السودان: إنكم لا تعترضون على الحكم إذا كان اشتراكياً كما كان الحال في أوائل حكم الرئيس نميري، ولا تعترضون عليه إذا أقر الرأسمالية أو الليبرالية؛ لأنكم تعتقدون أن الدين لا دخل له بهذه المسائل، فلماذا إذن تعترضون على الحكم الإسلامي؟ إن الإسلام لا يفرض عليكم ديناً بالمعنى الذي حصرتم الدين فيه، أعني العبادات والأحوال الشخصية، فلماذا لا تعاملون جانبه السياسي معاملتكم للاشتراكية والرأسمالية؛ لأنه يعطيكم أكثر مما تعطيكم إياه العلمانية؟

يقول أنصار العلمانية في الغرب وفي البلاد الإسلامية: إن هذا قد يكون صحيحاً؛ لكنكم في الحكم الإسلامي تفرقون بين الناس بسبب دينهم، فتمنعون غير المسلم من أن يكون رأس دولة، وأقول لهم دائماً: ولكن العلمانية هي الأخرى تفعل ما نفعل. إنها تشترط على الإنسان أن يكون علمانياً لكي يكون رأس دولة، تشترط عليه أن يؤدي

القسم للولاء لدستور يفصل الدين عن الدولة، أي أنها تشترط على المسلم أن يعلن كفره بجزء من دينه. وإذا فعل هذا عن اعتقاد كان كافراً خارجاً عن الإسلام، وإذن فكما أن الإسلام يشترط في رأس الدولة المسلمة أن يكون دائناً بدين الإسلام؛ فإن العلمانية تشترط في رئيس دولتها أن يكون دائناً بدينها، فما الفرق؟

يقولون: لكن العلمانية ليست ديناً. ونقول هذا في مفهومكم أنتم. أما في لغتنا العربية، وديننا الإسلامي، فإن كل ما يلتزم به الإنسان من عادات وتقاليد، ومن باب أوْلى من قيم وعقائد، هو دينه، سواء كان مبنياً على إيمان بالله أو كفر به. ألم تسمع قول الشاعر العربي عن ناقته:

إذا ما قمت أرحلها بليل
تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا شددت لها وضيني:
أهذا دينه أبداً وديني؟
أكل الدهر حل وارتحال؟
أما يبقي علي وما يقيني؟

فإذا كان دوام الحل والارتحال ديناً فما بالك باعتياد معتقدات وقيم وسلوك؟ ألم يقل الله ـ تعالى ـ عن سيدنا يوسف: ﴿ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [**يوسف** : ٧٦]. يعني ما نسميه نحن الآن بقانونه؟ العلمانية ليست إذن حلاً لبلد يكون فيه المسلمون أغلبية، بل ولا أقلية معتبرة؛ إذ إن ما تطلبه العلمانية من المسلمين إنما هو التخلي عن دينهم من أجل دين العلمانيين.

النسبية

(البيان ١٦٠ - ذو الحجة ١٤٢١هـ - مارس ٢٠٠١م)

تُطلق النسبية في لغتنا العربية المعاصرة على نوعين مختلفين من النظريات تسمى إحداهما في اللغة الإنجليزية relativity وهي نظرية آينشتاين المشهورة في الفيزياء، كما تطلق على نظرية في الفلسفة والعلوم الاجتماعية تسمى في الإنجليزية:relativism وحديثنا هنا عن الثانية لا الأولى.

النظرية هذه نظرية قديمة حديثة أول من تنسب إليه في تاريخ الفكر الغربي بروتوجراس اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد. ويقول بها مفكرون غربيون معاصرون ولا سيما المختصين منهم بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا. وفحوى هذه النظرية هو أنه ليس هنالك معيار ثابت يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر، بل إن هذه الأحكام أحكام نسبية. ولكن نسبة إلى ماذا؟ هنا يختلف القائلون بهذه النسبية؛ فالغلاة منهم ينسبونها إلى الأفراد، أي إن ما يراه زيد حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة له وإن خالفه في ذلك عمرو وغيره من الناس.

ويرى بعضهم أنها تنسب إلى ثقافة كل مجتمع. والثقافة - culture - عندهم هي منهاج حياة مجتمع من المجتمعات في فترة معينة من تاريخه، وهي تشمل معتقداته، وأنواع سلوكه، ولغته، وتشمل كذلك عاداته وتقاليده وفنونه ومخترعاته وتقنيته وتراثه؛ فما يراه أصحاب كل ثقافة حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة لثقافتهم هذه؛ لأنه ليس هنالك معيار عالمي للحق والخير متفق عليه بين الناس. يقول أحدهم: «كل ما كان من أعراف وعادات زمان ومكان معين فله ما يسوِّغه في ذلك الزمان والمكان»[١] وتقول عالمة اجتماع أخرى: «إن معظم المجتمعات البشرية تسلك طرقاً مختلفة طلباً لغايات مختلفة؛ فلا يمكن الحكم على وسيلة منها أو غاية بمقاييس مجتمع آخر؛ لأنها غير قابلة للموازنة»[٢].

فليس هنالك إذن معيار عالمي تقاس به الثقافات، فيُصَوَّب بعضٌ أو يُخَطَّأ بعضٌ، أو يفضل بعض على بعض. وعليه ـ يقولون ـ فلا يحق لأصحاب ثقافة ما أن يحكموا على الثقافات الأخرى بمعايير ثقافتهم؛ بل إن النظرة العلمية المحايدة تقتضي أن تقوَّم كل ثقافة تقويماً داخلياً بمعاييرها هي لا بمعايير أجنبية عنها. فإذا كان الإسكيمو مثلاً يرون أنه من الكرم أن يُعِير الزوج زوجته لغيره، وإذا كانت بعض المجتمعات تقتل الأولاد في المهد، أو تقتل كبار السن لأنهم لا ينتجون، فبأي معيار ننكر عليهم أعمالهم هذه؟

(1) William Graham Summer, as quoted in Harold M. Hodges, Jr. Conflict and Consensus, An Introduction to Sociology, Harper and Row, New York, etc., p. 60.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

يلاحظ على هذه النظرية ما يلى:

أولاً: كونها من النوع الذي يقال عنه إنه ينقض نفسه؛ لأنه إذا كان كل حكم بالصحة أو البطلان وبالخيرية والشرية إنما هو حكم ذاتي أو ثقافي؛ فإن القول بهذه النظرية هو نفسه حكم ذاتي، أو من إملاء ثقافة معينة، فبأي حق يقال إنه حقيقة عالمية يجب على الناس مراعاتها كما هو ظاهر قول دعاتها؟

ثانياً: أن هنالك قيماً خلقية وأنماط سلوك مشتركة بين الناس جميعاً رغم اختلاف ثقافاتهم وأزمانهم وأماكنهم، كما اكتشف ذلك بعض علماء الأنثروبولوجيا أنفسهم. ويمثلون لهذه القيم باعتبار الكذب والقتل وغشيان المحارم وعدم العدل في المعاملة من الرذائل في كل المجتمعات.

ثالثاً: أن عدم اتفاق الناس جميعاً على معايير للأخلاق وللصدق لا يعني أنه ليست هنالك معايير؛ فوجود المعيار شيء والاتفاق عليه شيء آخر.

رابعاً: أنه ما من أصحاب ثقافة إلا وهم يحاولون تسويغ قيمهم وسلوكهم بمسوِّغات مستندة إلى معايير. لا أحد منهم يقول: هذا ما نراه وهو حق أو خير لأننا نراه حقاً أو خيراً، بل يحاولون تسويغه استناداً إلى معايير قد يمكن مناقشتهم فيها وبيان خطئهم فيها استناداً إلى معايير عقلانية يشتركون فيها مع سائر الآدميين. خذ وأد البنات عند عرب الجاهلية مثلاً: لقد كانوا يفعلون هذا بحجة خشية الإملاق كما ذكر القرآن الكريم؛ وهم كانوا مع ذلك يؤمنون بالخالق سبحانه، ولذلك أُمكن أن يُناقشوا وأن يتغير موقفهم بعد أن أسلموا وحسنت بالله معرفتهم.

خامساً: أن الواقع المحسوس الذي يؤمن بشهادته كل البشر يدل على كون الشيء حقاً أو باطلاً ليس بالأمر الذي تقرره الأهواء الفردية أو الثقافية. لا يقول آدمي عاقل ـ مهما كانت ثقافته ـ: إن طلوع الشمس مثلاً أمر نسبي؛ فهي طالعة بالنسبة لبعض غائبة بالنسبة لآخرين في نفس الوقت ونفس المكان.

سادساً: حتى لو قلنا بالنسبية فلماذا تكون النسبة إلى أهواء الأفراد وإلى الثقافات؟ لماذا لا تكون إلى أمور يشترك فيها البشر: شهادة الحس، الأدلة العقلية، أو حتى بعض المسوغات الباطلة التي يمكن مناقشة الناس فيها كما ذكرنا في المسألة الرابعة؟

سابعاً: إن البشر كائنات اجتماعية، وهم لا يستطيعون أن يكونوا مجتمعاً متعاوناً مترابطاً إلا بقيم معينة مثل تلك التي ذكرناها آنفاً والتي صار بعض من علماء الاقتصاد والاجتماع يسميها لذلك بالرأسمال الاجتماعي. فالمجتمع كلما كان رأسماله منها كبيراً كان أكثر تماسكاً واستطاع أن يحقق من أهدافه الاقتصادية والسياسية ما لا يحققه مجتمع تفكك بسبب قلة نصيبه من رأس المال هذا[1].

لكن النسبية ـ برغم بطلانها هذا ـ تنتشر الآن في الغرب، وفي أوساط الشباب خاصة انتشاراً مرَضياً كما تذكر المراجع، وكما سمعنا من شبابنا الذين يدرسون معهم في جامعاتهم. لقد صاروا يعتقدون أن مسائل الأخلاق والأديان كالمسائل الذوقية التي يختلف فيها الناس اختلافاً يرجع إلى أمزجتهم؛ لأنه ليس هنالك من معيار موضوعي لها. وربما كان هذا الإيمان بالنسبية رد فعل للتعصب المقيت الذي كان وما يزال سائداً في بعض الأوساط الغربية التي تجعل من ثقافتها المعيار الوحيد الذي تقاس به أديان

(1) Francis Fukuyama, The Great Disruption: Human Nature and the Reconstitution of Social Order, The Free Press, New York, 1999, pp. 18 -19.

الآخرين وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فما اقترب منها إليهم كان أقرب إلى الحق والخير، وما بَعُدَ عنها كان عنهما أبعد. والحقيقة أن العالم الإسلامي، بل كل العالم قد عانى من أمثال هؤلاء، ولا سيما السياسيين منهم، ما لم يعانِ من القائلين بالنسبية؛ وذلك لأن القول بالنسبية ـ وإن كان باطلاً ـ ينتج عنه عادة نوع من التسامح مع المخالف.

لكن النسبية تبقى داءً من أدواء الحضارة الغربية. وقد انتقل هذا الداء، كما انتقل غيره من الأدواء، إلى كثير من مثقفينا في العالم الإسلامي، حتى الإسلاميين منهم. بل إن بعض هؤلاء الإسلاميين صاروا يبحثون للنسبية عن أصول في إرثنا الإسلامي؛ فهم تارة يذكرون قول القائلين من الأصوليين بأن كل مجتهد مصيب، وتارة يستدلون كاستدلال أولئك بقصة الصلاة في بني قريظة، تارة أخرى يذكرون قاعدة تغيُّر الأحكام بتغيُّر الزمان والمكان، ويرون أكبر دليل عليها كون الإمام الشافعي صار له مذهب جديد بعد انتقاله إلى مصر.

الحقيقة أنه ليس في شيء من هذا ما يعضد فكرة النسبية في شكلها الغربي الذي شرحناه.

أولاً: لأن المسلم، بل كل مؤمن بوجود الخالق، يعتقد أن وجود خالقه ليس أمراً نسبياً تابعاً لعقول المؤمنين، بل يعتقد أنه موجود وجوداً مستقلاً حتى عن معرفة الناس به، بل حتى عن وجودهم. أعني أن الخالق موجود حتى لو لم يكن في الوجود إنسان؛ لأن وجوده ـ سبحانه ـ سابق لوجود كل المؤمنين به. فوجوده إذن حق مطلق غير مقيد بشيء، فلا يمكن أن يكون نسبياً. والمسلم يعتقد إلى جانب ذلك أن هذا الخالق مستحق وحده للعبادة حتى لو لم يعبده من البشر عابد. فقضية استحقاقه للعبادة هي أيضاً حقيقة مطلقة غير مقيدة بعبادة العابدين. وكذلك الأمر بالنسبة للفضائل الخلقية من

صدق وعدل وأمانة ووفاء، يعتقد المسلم أن هذه فضائل سواء آمن الناس بها أو لم يؤمنوا، وسواء التزموا بها أو لم يلتزموا؛ فقيمتها هي إذن قيمة مطلقة غير منسوبة لا إلى الأفراد ولا إلى الثقافات.

ثانياً: والقائلون بأن كل مجتهد مصيب لا يقولون إن معيار الصواب هو قول المجتهد؛ لأنهم يعلمون أن القاعدة الإسلامية هي أن الحق لا يُعرَف بالرجال؛ فهم ينسبون الإصابة إلى الاجتهاد الذي هو أمر موضوعي مستند إلى أدلة. لكننا لا نستطيع رغم ذلك أن نقول إن كل مجتهد مصيب؛ فماذا لو كانت اجتهاداتهم متناقضة؟ بأن يقول هذا: إن الأمر مشروع، وذاك يقول: إنه غير مشروع؟ أو يقول هذا: إنه واجب أو مندوب، ويقول الآخر: إنه حرام أو مكروه! إن تصويب كل منهم جمعٌ بين النقيضين، وهو أمر لا يقول به عاقل. أما إذا لم تكن الاجتهادات متناقضة فقد تكون كلها صواباً وقد لا تكون.

ثالثاً: أما قصة الصلاة في بني قريظة فأظن أن كثيراً من الذين يستدلون بها على نسبية الصواب لم يفهموا قول النبي ﷺ على وجهه. نعم إن النبي ﷺ لم يخطِّئ الذين صلوا قبل الوصول إلى بني قريظة، كما أنه لم يخطئ الذين لم يصلُّوا إلا بعد الوصول إليها؛ فكأنه ﷺ قال: إن الصلاة قبل الوصول إليها مقبولة والصلاة بعد الوصول إليها مقبولة؛ وهذا أمر لا تناقض فيه، كما أنه لا تناقض بين القول بأن الصلاة في أول الوقت مقبولة وفي آخره مقبولة. لكن يبقى أمر آخر هو أن الرسول ﷺ وإن صوَّب ما فعله كل من الفريقين إلا أنه لم يصوِّب ظن كل منهما بأن ما فعله الآخر خطأ؛ فكأنه ﷺ قال لكل منهما: إنك أصبت فيما فعلت، وأخطأت في تخطئتك لفعل الفريق الآخر. نقول بعبارة أخرى: إن النبي ﷺ لم يصوِّب المذهب الكامل لأي من الفريقين، وإنما أقر ما في كل منهما من الصواب.

رابعاً: أما مذهب الشافعي الجديد فيكفي في بيان عدم علاقته بالنسبية، كون الشافعي غيَّر رأيه في مسائل لا علاقة لها بالمكان الذي انتقل إليه، فلا يمكن أن يكون المكان سبباً فيها. من ذلك أن من تحرى القبلة فصلى ثم تبين له أنه صلى إلى غير القبلة: هل تجب عليه الإعادة؟ قال في القديم: لا تجب. وقال في الجديد: بل تجب. فما علاقة هذا بكونه في مصر أو في الحجاز؟ وإذا كان الشافعي قد غيَّر رأيه في بعض المسائل فكذلك فعل غيره من الأئمة من أمثال الإمام أحمد من غير أن يرحلوا عن المكان الذي هم فيه.

بقي أن نقول: إن هنالك أموراً هي بطبيعتها نسبية، والناس متفقون على نسبيتها؛ فما ينبغي أن تختلط بنسبية الحقيقة ونسبية القيم الخلقية التي كانت موضوع هذا المقال. من النسبيات المقبولة نسبية الطول والقصر مثلاً؛ فوصف الإنسان بالطول والقصر إنما يكون بحسب أطوال غيره من البشر، بل قد يكون بحسب الطول المعهود في المكان الذي هو فيه. فالقصير في جنوب السودان قد يكون طويلاً في الصين. لكن هذه النسبية لا تسبِّب خلافاً كبيراً بين الناس؛ لأنهم في العادة يتفقون على ما يُنسب إليه الأمر. فالإنسان طويل أو قصير بالنسبة إلى البشر لا بالنسبة إلى النخل، وكذلك هو سريع أو بطيء بالنسبة للناس لا للخيول والسيارات، والصلاة خفيفة أو طويلة بالنسبة إلى صلاة النبي ﷺ، لا بالنسبة إلى ما يقدره كل إنسان.

ماذا وراء كسر الحكومة الأفغانية للأوثان؟

(البيان ١٦٢ - صفر ١٤٢٢هـ - مايو ٢٠٠١م)

ما هذا الذي أقدم على تكسيره الحكومة الأفغانية؟ إنه حجر في صورة إنسان! فلو أن الناس رأوه على حقيقته الظاهرة هذه حجراً في صورة إنسان لما حرص على تكسيره الأفغان، ولا أمر بكسره دين من الأديان. لكن الناس رأوا فيه ما ليس فيه. رأوه إلها وما هو بالإله، ورأوا أنهم يضاهون به خلق الله، ولا أحد يخلق مثل خلق الله. فكان كسره كسراً لهذا التصور المفسد لقلب الإنسان. ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

فالكسر وسيلة لإقامة الدليل القاطع على بطلان ذلك التصور الفاسد.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨ - ٦٧].

والكسر هذا ليس مختصاً بالتماثيل التي تعبد من دون الله، وإنما هو شامل للبشر الذين يرون أنفسهم آلهة من دون الله، فيصدقهم ضعاف العقول ويتخذونهم فعلاً آلهة من دون الله. وكسر البشر كسران: كسر بالحجة والبرهان، وإلا فهو كسر ككسر الأوثان.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكسر الذين ينصبون أنفسهم آلهة من دون الله هو أيضاً كسران: فكسر قدري يتولاه المولى عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٣٨ - ٤٠].

وكسر شرعي يقوم به العباد المؤمنون تنفيذاً لأمر الله عز وجل.

فكسر الأوثان ليس إذن بدعة جاء بها خاتم أنبياء الإسلام، وإنما هو سنَّة مطردة دعا إليها وطبقها كل رسل الإسلام . إنها أمر لازم للدعوة إلى إخلاص العبادة لله. إنها سنة ذات جذور عميقة في تاريخ الأديان التوحيدية. وهذا هو الإرث الذي ينبغي أن تحافظ عليه وتعتز به البشرية، لا إرث بوذا وفرعون وهامان.

وقد أشار إلى شيء من هذا كاتب أمريكي منصف في مقال له بجريدة الواشنطن بوست[1] بدأ الكاتب مقاله بنص من التوراة عن تحريق موسى ـ عليه السلام ـ لإله السامري. ثم قال: «إن ما تفعله الأفغان بالتماثيل في أفغانستان يبدو كأنه عمل تدميري لا عقل فيه، بيد أنه ذو جذور عميقة في تقاليد مشتركة بيننا وبينهم». ثم ذكر كلمة إنجليزية قال إنها كانت تعني في الأصل محطم الأوثان، لكننا صرنا نتذبذب بين تحطيم الأوثان وعبادة الأوثان. ثم ذكر أن أفلاطون كان يريد منع الفن التصويري؛ لأنه كان يعده خداعاً، وأن النصارى كسروا صور الآلهة الرومانية واليونانية في كل أنحاء الإمبراطورية، وأن المبشرين بالنصرانية فعلوا الشيء نفسه في كل أنحاء العالم. وقد كانت الدعوة الإصلاحية للوثر وكالفن إلى حد ما رد فعل لعبادة الكاثوليك لمريم والأولياء. وقد حطم البروتستانت صوراً كاثوليكية لا حصر لها. ثم قال: «إن تحطيم الأوثان أمر لا يمكن فصله عن التوحيد»، ثم انتقد تحطيم الأفغان لتمثالَيْ بوذا لكنه عاد ليقول: «إن فهم الأفغان للإسلام متصل اتصالاً مباشراً بالفهم السائد لدين موسى».

ثم ذكر ملاحظة طريفة جديرة بالتأمل والاعتبار فقال: «إن الأوثان التي حطمتها الأفغان ليست أصناماً يعبدها البوذيون؛ فالبوذية ماتت في أفغانستان منذ ألف عام. إن الأصنام التي حطموها هي أصنامنا نحن. نحن أهل الغرب العلماني قد استبدلنا ـ إلى درجة ما ـ الفن بالدين. صار الفن عندنا شيئاً مقدساً تجب المحافظة عليه، في مبان أشبه بالقلاع نحج إليه».

---

(1) Crispin Sartwell, Saturday, March 10, 2001, page A21.

ثم قال: «الفن عندنا روحي، خالد، متعال. لقد جعلنا الفن عبادة صنمها العمل الفني. ولذا فإن محطمي التماثيل المحدثين يرعبوننا كما أرعب محطمو التماثيل في العالم القديم عباد الأصنام. لقد بدا أحياناً في الأيام القليلة الماضية أن مشاعرنا يحركها الكرب الذي أصاب التماثيل أكثر من الكرب الذي أصاب شعب أفغانستان.... لكن الأفغان يعرفون جيداً كيف يخيفوننا. إنهم يعرفون ديننا، ويعرفون دينهم. إنهم يقومون بعمل هو من صميم دينهم، وفي الوقت نفسه يثيروننا إثارة قصوى بمهاجمة ديننا».

قلت: ذاك تفسير معقول للضجة التي أثارها الغربيون العلمانيون؛ فما بال بعض المسلمين يضجون مثل ضجيجهم؟ حاشاهم أن يكونوا عباداً للأصنام، وهم - حتى لو كانوا علمانيين - لم يصلوا إلى درجة تقديسهم للفن تقديس الغربيين.

ما بالهم إذن؟ أما خيارهم فلا يشكُّون في أن كسر الأصنام عمل مشروع أمر به النبي ﷺ، لكنهم يقولون إن الرسول ﷺ إنما كسر الأصنام العربية بعد أن هزم العرب المناوئين له في ساحة القتال، وبعد أن دانت له الجزيرة العربية ودخلت في الإسلام. لكننا اليوم مستضعفون نخشى أن يثير هذا العمل ثائرة بعض البوذيين فيلحقون الضرر بأرواح المسلمين أو مساجدهم، ونحن نقرأ في كتاب ربنا: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٠٨]. فهذا اعتراض يستند إلى أصل شرعي، وهو لذلك جدير بالاعتبار.

أما غيرهم فقد اتخذوا من الغرب مثالاً يحتذى؛ فحتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه. إنهم يخشون من أن يعيرهم الغرب بأنهم أناس متخلفون غير متحضرين لا يتذوقون الفن ولا يحترمون الآثار.

يقال لهؤلاء وللغربيين العلمانيين من ورائهم: إن كان الفن هو تذوق الجمال وصناعة الجمال فإنه لمقصد مشروع من مقاصد ديننا؛ فالله جميل يحب الجمال. لكن من قال إن الجمال محصور في الصور والتماثيل؟ إن الجمال يكون في السلوك ﴿ **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** ﴾ [**الحجر**: ٨٥].

ويكون في التعبير؛ بل إن جمال التعبير هو أرقى أنواع الفنون؛ ونحن أمة كتابها الهادي هو مثلها الأعلى في جمال التعبير، ونبيها رجل أوتي جوامع الكلم.

بل ويكون في الثياب: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا** ﴾ [**الأعراف**: ٢٦]، ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [**الأعراف**: ٣١]. لكن جمال الحق عندنا فوق كل جمال، وهو المعيار الذي يحكم به على كل دعوى من دعاوى الجمال. فما وافق الحق قبل وما خالفه رد، مهما كان مظهره. وما دامت الحقيقة الكبرى التي يصلح العباد بالاعتراف بها هي أن الله وحده هو المستحق للعبادة؛ فلا يتسامح مع أي فن تعبيري أو تصويري يتناقض مع هذه الحقيقة.

وجمال الخلق هو جزء من جمال الحق؛ فهو كذلك معيار لقبول دعاوى الجمال الأخرى أو ردها.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ثبت بطلان الجبرية (الجينية)

(البيان ١٦٣ - ربيع الأول ١٤٢٢هـ - يونيو ٢٠٠١م)

قبل بضع سنوات نظم المنحرفون من الرجال والنساء مظاهرة كبيرة في واشنطن تداعوا لها من بلدان العالم، بدأ على إثرها نقاش طويل عن هذه الظاهرة، فكان مما قاله بعض المبتلين بها إنهم لا يلامون عليها؛ لأنها شيء ولدوا به؛ فهو في جيناتهم الوراثية. وقلنا لإخواننا المسلمين يومذاك: إن هذه الدعوى لا يمكن أن تكون صادقة لأسباب ينبغي أن يسلِّم بها كل مؤمن بوجود الخالق معترف بصفتين من صفات كماله هما: العدل، والحكمة:

فالخالق العادل الحكيم لا يمكن أن يغرس في فطرة الإنسان سلوكاً لا مفر له منه، ثم يجعل ذلك السلوك محرماً عليه، بل يعاقب عليه أشد العقوبات.

والخالق العادل الحكيم إذا غرس شيئاً في فطرة الإنسان هداه إلى أحسن السبل لإشباع رغبته منه. فهو لما جعل الحاجة إلى الطعام في خلق الإنسان أمره بأن يأكل ويشرب ولا يسرف، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث. ولما جعل في الناس ميلاً

جنسياً هداهم إلى الزواج وحرم عليهم الزنا، بل فصَّل لهم أحسن الطرق للمعاشرة. فلما حرم فاحشة الشذوذ تحريماً مطلقاً، علمنا أنه ليس لها في الفطرة أصل، ودعك أن يكون الإنسان عليها مجبراً.

ثم إن هذه الفاحشة فاحشة إباحية لا خطام لها ولا لجام، بل إن من شأن أصحابها المستحلِّين لها (لا أقول من كان من أصحابها المؤمنين الذين يعلمون أنها ذنب كبير رغم ابتلائهم بها) أن يغصبوا الناس عليها حتى لو كانوا أطفالاً كما كان قوم لوط يقطعون السبيل ويعتدون على المسافرين، وكما أرادوا أن يعتدوا على ضيوف نبيهم حين ظنوهم بشراً. فهل يقول صاحب هذه الفاحشة إن الله ـ تعالى ـ جعل في جيناته أن يفعلها مع كل من تميل إليه شهوته من أبناء جنسه؟ إن الميل إلى الجنس الآخر ميل طبيعي، لكنه مع ذلك يمكن كبحه وضبطه، ولا يجوز العدوان فيه، فلماذا يجوز في هذا الميل المنحرف؟

والمسلم المؤمن بكتاب ربه يقرأ فيه قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [**الأعراف** : ٨٠]. ومن المعلوم أنه قد سبقهم إلى هذه الدنيا أجيال وأجيال من البشر؛ فلماذا لم تفعل الجينات في جيل أو جماعة أو حتى فرد منهم ما فعلت بهؤلاء؟ وممن ورثوها إذا لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؟

قلنا ذلك أو قريباً منه قبل بضع سنين، واليوم يأتينا علماء الأحياء بحجة تقطع دابر دعوى أولئك المنحرفين المجاهرين، وتلجم أفواه دعاتهم. لقد تبين أن الجينات لا سلطان جبرياً لها على سلوك الإنسان، بل ولا على كل ما يتعلق حتى بحياته البدنية.

أنا لست من الذين يبتهجون لعجز العلم الطبيعي عن تفسير ظاهرة من الظواهر، أو الذين يعدُّون كل إخفاق للعلم الطبيعي انتصاراً للدين. كلاَّ؛ فإن ديننا هو دين الحق،

فلا يضره، بل ينصره كل اكتشاف علمي. لكنني أبتهج حين يخذل التطور العلمي الملحدين والماديين فيثبت بطلان ما تعللوا به من دعاوى وتفاسير ونظريات ينصرون بها عقائدهم الباطلة وأهواءهم الضالة، أو ينالون بها من حقائق الدين المنزل من عند رب العالمين. فليس المقصود من هذا المقال إذن إنكار وجود الجينات أو عملها أو التهوين من أمر دراستها؛ فإنها من جملة آيات الله ـ سبحانه ـ في خلق الإنسان. لكن المقصود هو أن لا تفسر هي ولا شيء من خلق الله ـ تعالى ـ تفسيراً يتناقض مع الحقائق القاطعة المقررة في دينه، والمقصود أيضاً أن توضع هي وغيرها من الحقائق في وضعها الطبيعي وحجمها الحقيقي الذي تدل عليه الحقائق الطبيعية والتوجيهات الإلهية. وإليك الآن بعض ما نشر من حقائق في هذا الصدد بمناسبة ما سمي بفك شفرة الجينوم.

و «الجينوم البشري ذو حجم في غاية الضآلة ـ توجد نسختان منه مضغوطتان في نواة كل خلية من الخلايا البشرية، والخلية هي نفسها من الضآلة بحيث لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ـ لكنه هائل في ما يحوي من معلومات... بحيث إنها لو طبعت طباعة عادية لملأت ٧٥٤٩٠ صفحة من صفحات هذه الجريدة»[1].

كان كثير من الناس يظنون أن هذه المعلومات ـ التي هي بمثابة أوامر لصنع الأشياء الحية ـ هي التي تحتم طبيعة أجسامنا وسلوكنا. لكن الذي ثبت الآن أن الجينات ليست هي وحدها التي تؤثر في طبيعة أجسادنا وسلوكنا، ودعك أن تحتم تلك الطبيعة.

«.. يجب أن تستنتج الآن أن البيئة أهم مما كان يفترض في صياغتها للإنسان».

«إن الجينات لا تتحكم في حياتنا. لكنها مهمة».

---

(١) (عدد ١١ فبراير/ ٠١ من جريدة النيويورك تايمز).

من الحقائق الطريفة التي أظهرتها هذه الدراسة الحديثة أنه لا فرق كبير بين الإنسان وأضأل المخلوقات من حيث عدد الجينات. فجينات الإنسان تقدر الآن بثلاثين ألفاً بينما تقدر جينات الذبابة بعشرة آلاف. ولا تزيد جينات الإنسان على جينات الفأر إلا ببضع مئات. ثم إنه لا يكاد يوجد فرق يذكر بين إنسان وإنسان من حيث الجينات؛ إذ إنه لا يعدو الواحد من الألف.

ما الذي يجعل الإنسان إنساناً إذن؟ سأل أحد علماء الأحياء نفسه هذا السؤال[1]، فقال ساخراً: ما كنا نظن الإنسان إنما هو ثلاث ذبابات، أو فأر وجزء من الفأر. ثم أجاب بأن الذي يميز الإنسان إنما هو وعيه. لكنه خبط خبطاً طويلاً في تفسير كيفية نشوء الوعي من الدماغ.

أما الذي لا يشك فيه المسلم هو أن أهم ما يميز الإنسان إنما هو الروح التي نفخها الله فيه، والتي كان الوعي من آثارها أو أعمالها. لكن المسلم يقول أيضاً: إن الإنسان إن كان لا يتميز كثيراً عن الحيوانات من حيث عدد الجينات، فمما لا شك فيه أنه يتميز عنها حتى في جسده تميزاً مشهوداً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤ ٥].

وصدق الله ربنا رب العالمين.

---

(١) (انظر جريدة واشنطن بوست، صB1، تاريخ ١٨ فبراير من هذا العام).

حوار عن العلمانية الديمقراطية بين مثقفين عربيين

(البيان ١٦٦ - جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ - سبتمبر ٢٠٠١م)

قال الأول لصاحبه: إنه من حسنات البلاد الديمقراطية العلمانية أنها تعاملنا من حيث الدين معاملة أحسن من معاملتنا لها.

أجاب الأول: من أمثلة ذلك أنهم يسمحون لنا بأن نبني المساجد ونقيم فيها الصلوات، ويسمحون بحرية الدعوة إلى الإسلام بينما لا نسمح نحن لهم بشيء من ذلك في بلادنا.

قال الثاني: أطولاً: إن ما ذكرته عنا ليس بصحيح على إطلاقه؛ ففي العالم العربي والإسلامي نصارى ويهود يمارسون دينهم في كنائسهم وبيعهم في حرية كاملة. ألم تزر بلاداً كمصر والسودان؟

قال الأول: ولكن ماذا عن السعودية؟

الثاني: للسعودية وضع خاص؛ فهي جزء من الجزيرة التي أمر الرسول ﷺ أن لا يكون فيها دين غير الإسلام. وينبغي أن لا يكون هذا أمراً غريباً حتى على الدول الغربية التي أراك تدافع عنها.

الأول: ماذا تعني؟

الثاني: ألم تسمع ببلد اسمه الفاتيكان؟ هل تجد فيه من مساجد أو دور للعبادة غير دور الكاثوليك؟

الأول: كلاَّ.

الثاني: الأمر الثاني الذي كنت أود أن أنبهك إليه هو أنهم لا يسمحون لنا بما يسمحون بدافع الإحسان إلينا، أو مجاملة لنا كما يظن بعض الذين لا يعلمون، وإلا لقالوا لنا: إما أن تسمحوا لنا بما نسمح به لكم وإلا منعناكم كما تمنعوننا.

الأول: هذا ما كنت أظنهم فاعليه، وقد ازداد تقديري لهم إذ لم يفعلوه.

الثاني: إن ما يسمحون لنا به من قدر من الحرية الدينية هو أمر يسمحون به لكل صاحب معتقد مصدقاً بوجود الخالق أو منكراً لوجوده، مؤمناً كان أم مشركاً، عابد وثن أو عابد بشر. وكما يسمحون بهذا القدر من الحرية الفكرية فإنهم يسمحون بقدر مثله أو أكبر منه لدعاة الرذيلة من الشواذ والزناة وراسمي الصور الفاضحة. يفعلون كل هذا؛ لأنهم يرونه في مصلحة بلادهم بحسب تصورهم للحرية. وأما الأمر الثالث فهو أنهم يستعملون كثيراً من قوانينهم ليحدوا من هذه الحرية سواء لزائريهم من البلاد الإسلامية أو القاطنين فيها.

الأول: أوافقك. ولكن ألا ترى مع ذلك أن نظامهم خير من نظامنا من حيث إن القدر الذي يسمح به من الحرية أكبر مما نسمح به نحن؟

الثاني: كلاًّ! لست أرى ما ترى؛ لأن الحريات لا تقاس كمِّياً، وإلا لكان أحسن النظم هو الذي يترك الناس سدى لا يأمر أحدهم بشيء ولا ينهاه عن شيء ألبتة.

الأول: بِمَ تقاس إذن؟

الثاني: تقاس بمدى نفعها وضررها. فالنهي عن السرقة هو حد من الحرية، لكنه حد مفيد. أما النهي عن أكل السمك مثلاً فهو حد لا فائدة فيه، بل قد يكون ضرره بالغاً بالنسبة لبعض الناس. ولذلك وصفت النواهي الإسلامية بأنها حدود إذا تجاوزها الإنسان وقع فيما يضره. وبإمكانك أن تتصورها كالحدود التي توضع على جنبتي الجسر؛ فهي أيضاً تحد من حرية السائر أو السائق، لكنها مفيدة له؛ لأنها تمنعه من الوقوع في البحر أو الهوي في واد سحيق.

الأول: لا شك في ذلك. لكن من الذي يصدر هذه القوانين التي تحل وتحرم؟ إن النظام الديمقراطي يكل ذلك للناس؛ فهم الذين يحددون ما يصلحهم وما يضرهم في حرية كاملة. أما النظم الدينية، ومنها النظام الإسلامي، فإنها لا تعطي الناس هذه الحرية، بل تكل الأمر إلى الدين.

الثاني: أتعني أن كل قانون يحل أو يحرم إنما يصدر بإجماع الناس؟

الأول: كلاَّ؛ فأنت تعلم أن الأمر ليس كذلك، وإنما الذي يصدره هم غالبية الناس.

الثاني: لكن غالبية الناس ليست هي التي تصدر القوانين في البلاد الديمقراطية العلمانية، وإنما الذي يصدرها هو المجالس التشريعية.



الأول: نعم! لكن هذه المجالس تتكون من أفراد اختارهم الناس بالأغلبية؛ فهم يعبرون عن أفكارهم.

الثاني: تعني أنهم يعبرون عن أفكار من صوَّت لهم.

الأول: لكن يستحيل واقعاً أن يكون الأمر على غير ذلك.

الثاني: نعم! ولكنك تعلم أيضاً أنه حتى قولنا بأنهم يعبِّرون عن رأي الأغلبية التي انتخبتهم ليس بصحيح؛ لأن هذه الأغلبية لا تستشار، ولو استشيرت لما كان لأغلبيتها رأي في غالبية القوانين؛ لأنها تحتاج إلى معرفة لا تتوفر لهم.

الأول: لكن تبقى مع ذلك الحقيقة بأن هؤلاء قوم رضيهم الناس حكاماً لهم، وأوكلوا إليهم إصدار ما يرونه مناسباً من القوانين.

الثاني: إذن؛ فالناس في البلاد الديمقراطية العلمانية رضوا بأن يكون المشرعون لهم بشراً مثلهم.

الأول: أجل! وهذا ما يمتازون به.

الثاني: واشترطوا عليهم أن تكون تشريعاتهم في إطار الدستور، ولم يتركوهم أحراراً يشرعون ما شاؤوا.

الأول: نعم! لأن الاستقرار السياسي لا يتوفر إلا بشيء كهذا.

الثاني: ما الفرق بيننا وبينهم؟ نحن أيضاً يمكن أن تكون لنا مجالس تشريعية يختار الناس أعضاءها ويعطونهم حق التشريع على شرط أن لا يكون مخالفاً للقانون الأعلى للبلاد الذي يسمى دستوراً. والذي هو بالنسبة لنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الأول: لكن دستورهم هو نفسه من وضعهم، وبإمكانهم أن يغيروا فيه ما شاؤوا.

الثاني: لكن دستورهم أيضاً يتضمن مواد كتلك المتعلقة بما يسمونه حقوق الإنسان ليس لأحد - أن يغيرها.

الأول: نعم! لأن هذه حقوق لكل إنسان بما هو إنسان، فلا يجوز لأحد أن يجور عليها.

الثاني: من الذي أعطاها هذه المكانة؟ وعلى كل فأنا لا أريد أن نخرج عن موضوعنا لنتحدث عن حقوق الإنسان، فلعلنا نفعل ذلك في مناسبة أخرى. فلنعد إلى موضوعنا إذن!

الأول: حسن.

الثاني: أردت أن أقول لك إنه ليس لهم علينا فضل في كون دستورهم من اختراعهم؛ لأنه إذا كانوا هم بمحض اختيارهم رأوا أنه من مصلحتهم أن يشرِّع لهم بشر مثلهم؛ فنحن أيضاً فكَّرنا لأنفسنا ورأينا أنه من مصلحتنا أن نرضى بما شرعه لنا ربنا الذي خلقنا، والذي هو أعلم منا بما هو مفسد أو مصلح لنا، والذي هو رحيم بنا لا يأمرنا إلا بما ينفعنا، ولا ينهانا إلا عما فيه ضرر علينا. لا فرق إذن بيننا وبينهم من حيث مبدأ الاختيار. فكما أنهم اختاروا بحريتهم، فنحن كذلك اخترنا بحريتنا، ولم يجبرنا ربنا على الرضى بما شرع لنا، وإنما ترك الأمر لنا نحن البشر ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر**﴾ [**الكهف**: ٢٩]، ونحن اخترنا بتوفيق من ربنا أن نؤمن. فلا فضل لهم علينا إذن من حيث مبدأ حرية الاختيار، وإنما الفضل لنا نحن الذين أرانا الله الحق حقاً ووفقنا لاتباعه.

الأول: لكن الذي اخترتموه دين، والناس يختلفون في أديانهم، ومجتمعاتنا المعاصرة مجتمعات متعددة الأديان، ولا بد لكل مواطن فيها من أن تكون له حقوق مساوية لغيره بغض النظر عن دينه.

الثاني: فكيف حلت العلمانية هذا الإشكال؟

الأول: حلته حلاً يسيراً، هو أن تُقصَى الأديان عن الحكم حتى يكون لكل مواطن الحق في أن يتقلد أي منصب سياسي من رئاسة الدولة إلى ما دونها مهما كان دينه أو اعتقاده.

الثاني: ونحن أيضا نفعل ما فعلوا: نقصي كل الأديان ـ عدا الإسلام ـ عن الحكم، وكما...

الأول – مقاطعاً –: لكنهم أقصوها كلها ولم يستثنوا منها واحداً كما تفعلون.

الثاني: تعني أنهم أقصوها كلها ما عدا الدين العلماني.

الأول: لكن العلمانية ليست ديناً.

الثاني: أجل! إنها واللهِ لَدينٌ بمفهومنا العربي الإسلامي، لكنها شر دين.

الأول: ما ذا تعني؟

الثاني: أعني أن الدين عندنا هو كل أمر يدين به الناس ويعتادونه ويمارسونه في أي جانب من جوانب حياتهم المادية والروحية سواء كان من عند ربهم أو كان من اختراعهم. ألم تسمع قول الشاعر العربي عن ناقته التي اجهدها بكثرة الترحال:

إذا ما قمت أرحلها بليل
تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا شددت لها وضيني:
أهذا دينه أبداً وديني؟
أكل الدهر حل وارتحال؟
أما يبقي علي وما يقيني؟

الأول: لكنك تعلم أن الشاعر استعمل الدين هنا بمعنى العادة؛ فما علاقة ذلك بأنظمة الحكم؟

الثاني: لا جدال في أنه استعمله بمعنى العادة؛ ولكن ألا ترى أنه إذا كان اعتياد الحل والترحال وهو أمر واحد في حياة رجل وناقته يسمى ديناً، فمن باب أوْلى أن يسمى كذلك اعتياد ما كان أشمل نطاقاً وأكثر عدداً. ثم إن القرآن الكريم استعمل الدين بهذا المعنى العربي، ألم تسمع قول الله ـ تعالى ـ عن يوسف وأخيه: ﴿**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [**يوسف**: ٧٦]، فالمقصود بالدين هنا ما نسميه الآن بالقانون. وفي القرآن الكريم أيضاً يطلق الدين على الهدي الذي أنزله الله - تعالى - وأرسل به رسوله، كما يطلق على ما يدين به الناس في الواقع سواء كان موافقاً لذلك الدين الحق أو مخالفاً له. يبين لك ذلك بوضوح حديث الرسول ﷺ الذي ذكر فيه أن الله ـ تعالى ـ يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد لها دينها؛ فالدين الذي يجدد هو ما يدين به الناس. أما الدين النازل من السماء فلا يحتاج إلى تجديد؛ لأنه لا يَخْلَق. وتجديد ما يدين به الناس هو جعله موافقاً للدين الحق.

الأول: هذا تفسير غريب للدين، وهو مخالف لما اصطلح عليه الناس، ولا سيما في البلاد الغربية العلمانية التي هي موضوع حديثنا.

الثاني: لكن هل من الإنصاف أن يكون النقاش دائماً وفق تصوراتهم ومصطلحاتهم؟ لماذا لا نُفهمهم أن هنالك اختلافاً بيننا حتى في تصورنا للدين؟ على كلٍّ أنا لا أريد للحوار أن يتحول إلى جدل عن الألفاظ. المهم أن تتضح المعاني؛ وإذا اتضحت فلا مُشاحَّة في الألفاظ. ألا يمكن أن نترك كلمة الدين ونستعمل بدلاً عنها كلمة تنطبق على العلمانية وما يسمونه هم ديناً؟ ما رأيك في عبارة منهاج الحياة؟

الأول: لا بأس بها.

الثاني: أرجو أن يتضح لنا من استعمالها أن القول بأن النظام العلماني نظام محايد بين الأديان إنما هو خرافة راجت على كثير من الناس.

الأول: أظنني من المصدقين بهذه الخرافة؛ فهلاَّ أوضحت لنا يا سيدي المنكر للخرافات دليلك على كونها خرافة؟

الثاني: هب أننا قلنا لإنسان منصف: إن هنالك نظامين (أ) و (ع) وأعطيناه الجدول الآتي:

النظام (أ)	النظام (ع)
إنِ الحكمُ إلا الله.	إن الحكم إلا للشعب.
يباح للرجل أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع.	لا يجوز للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة.
يأخذ الورثة حقهم أوصى بذلك المورث أم لم يوصِ.	إنما يرث من أوصى له المورث ولو كان حيواناً، وإذا لم يوص فللدولة أن تتصرف في ماله.

الخمر حرام.	الخمر حلال.
لا تكون علاقة جنسية إلا بين متزوجين.	تباح العلاقة الجنسية بين كل بالغين متراضيين رجلا وامرأة أو رجلين أو امرأتين.
الربا حرام.	الربا حلال.

الأول: ما أظنه سيستطيع إذا وضع الأمر بهذه الطريقة.

الثاني: ولا طريقة غيرها. إذن فيجب على من يريد أن يكون مسلماً أن لا يخدع نفسه. إنه لا يمكن للإنسان أن يكون مؤمناً ويكون مع ذلك راضياً بالعلمانية نظاماً للحكم. فإما هذا أو ذاك.

الأول: نعم! إن منهاج الحكم العلماني يُقصي غيره من مناهج الحكم؛ لأنك لا يمكن أن تطبق منهجين مختلفين في وقت واحد كما يتضح ذلك من جدولك. لكن ميزته على المناهج الأخرى ـ ومنها المنهج الإسلامي ـ أنه يفرق بين إقصاء الأفراد وإقصاء المناهج.

الثاني: ما ذا تعني؟

الأول: أعني أنه يعامل الأفراد جميعاً معاملة متساوية باعتبارهم مواطنين من حق كل واحد منهم أن يتقلد أي منصب سياسي في الدولة إذا ارتضاه الناس.

الثاني: بشرط أن يكون حكمه وفقاً للدستور العلماني الذي يُقصي منهجه عن الحكم إذا كان مسلماً.

الأول: أجل! وأظننا قد اتفقنا على الأمر البدهي الذي يقضي باستحالة الجمع بين منهجين في الحكم مختلفين.



الثاني: لكن معنى هذا أنك تعطي المسلم الأمريكي مثلاً الحرية في أن يكون رئيساً بشرط أن يتخلى عن دينه.

الأول: كلاَّ! فبإمكانه أن يظل مسلماً يصلي ويصوم ويحج ويفعل كل ما يأمره به دينه.

الثاني: إلا في ما يتعلق بالحكم.

الأول: نعم.

الثاني: لكن المسلم المخلص لدينه العارف به لا يرضى بهذا؛ لأنه يعرف أن دينه كلٌّ لا يقبل التجزئة؛ فالذي ينكر بعضه فقد أنكره كلَّه. قال - تعالى -: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وهذا هو الذي يشترطه النظام العلماني على المسلم.

الأول: لكن النظام الإسلامي لا يعطيه حتى هذا القدر.

الثاني: النظام الإسلامي لا يمنع غير المسلم أن يكون مسلماً، وأن يتأهل بذلك أن يكون حاكماً للمسلمين. لكن الإنسان كما ذكرنا لا يكون مسلماً إلا إذا آمن بالدين كله؛ لأن نظام الحكم في الإسلام غير منفصل عن شرائعه الأخرى؛ بل إن هذا هو الحال في الديانات الأخرى، وما زال هو الذي يراه بعض اليهود وبعض النصارى الرافضين للنظام العلماني، والذين يصفون العلمانية ـ كما نصفها ـ بكونها ديناً محارباً لأديانهم.

الأول: نعم! إنهم ليفرضون عليهم هذا باعتباره الدستور الذي ارتضته الأغلبية، لكنهم بعد ذلك يسمحون لهم بما لا يتعلق من دينهم بأمر الحكم.

الثاني: ونحن أيضاً نسمح لهم بها ذكرت، بل إننا لنعطيهم أكثر مما تعطيهم العلمانية الديمقراطية.

الأول: لكنهم يرون أن نظام الحكم الذي تفرضونه عليهم هو دينكم وهم لا يرضون أن يُفرَض عليهم دين ليس بدينهم.

الثاني: نحن لا نفرضه عليهم بكونه ديناً بمعنى كونه عبادة يتقربون بها إلى الله، وإنما نفرضه عليهم باعتباره نظاماً للحكم ارتضته أغلبية المواطنين؛ ولا فرق في هذا بيننا وبين النظام العلماني الديمقراطي. فإذا كانوا وهم الأغلبية في البلاد الغربية العلمانية قد رضوا بأن يُقصوا دينهم عن الحكم، ويرضَوا بالعلمانية بديلاً؛ فما الذي يمنعهم ـ حيث يكونون أقلية في البلاد الإسلامية ـ من أن يرضوا بإقصاء دينهم عن الحكم والرضى بالحكم الإسلامي باعتباره اختيار الأغلبية في البلد الذي يعيشون فيه.

الأول: يبدو من كلامك هذا أنك تكاد ألاَّ ترى في الحياة العلمانية الغربية الديمقراطية أي حسنة.

الثاني: أنا لم أقل ذلك وإنما كنت أرد ظنك بأن نظامهم يفضُل النظام الإسلامي.

الأول: أفهم من ذلك أنك ترى في الحياة الغربية جوانب حسنة؟

الثاني: لا شك في ذلك. بل أرى أن في كل أمة من الأمم بعض الجوانب الخيرة. أقول هذا ديناً؛ لأنني أعتقد أنه لا يمكن لإنسان لا خير فيه ألبتة أن يرى الخير الذي في الدين الحق فيؤمن به. وما دام هذا الدين قد جاء للناس جميعاً، فلا بد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل فيهم من الخير ما يمكِّنهم من رؤيته حقاً.

الأول: هلاَّ ذكرتَ لي بعض هذه الجوانب الخيرة!

الثاني: الحديث في هذا قد يطول؛ فلأكتف لك بذكر أحسن ما أراه عندهم. أحسن ما عندهم هو هذا التطور الكبير في العلوم الطبيعية وما بني عليه من تقنية في شتى جوانب الحياة ومنها الجانب العسكري. وقد كنت أتمنى لو أننا ركَّزنا على هذا الجانب العلمي التقني فيما نأخذه من الغرب، لكن العلمانيين في بلادنا شغلونا بمثل هذه القضايا التي كنا نتحدث عنها الآن؛ لأنهم لسذاجتهم ظنوا أن السبب الأساس لتطور الغرب هو فصله للدين عن الدولة. وقد كان هذا التركيز على الجانب الثقافي في التجربة الغربية هو السبب الأساس لضعفنا وعدم تطورنا؛ لأنه كان السبب الأساس في النزاع بيننا؛ وأنت تعلم أن الأمم لا تستطيع أن تحقق إنجازاً كبيراً دينياً أو دنيوياً وهي منقسمة على نفسها متنازعة فيما بينها. فأسأل الله - تعالى - أن يجمعنا على الخير، وأن يوفقنا إلى الأخذ بأسباب النهضة والقوة والرفعة في كل جوانب حياتنا المادية والروحية.

الأول: آمين.

حُماة الرذيلة

(البيان ١٦٧ ـ رجب ١٤٢٢هـ ـ أكتوبر ٢٠٠١م)

يبدو أنه ما من مجتمع بشري إلا وفيه دعاة إلى نوع من الفضيلة وحماة للرذيلة، وأن حال المجتمع ومصيره رهين بغلبة أحد الفريقين. وأعني بالفضيلة أشياء مثل الصدق والعدل والأمانة والعفة وعدم الانغماس في الشهوات، والتحذير من كل ما يؤدي إلى ذلك من وسائل. هذه الأمور من الفضائل التي ركزها الله في طبيعة البشر، والتي تأتي أنوار الرسالات لتؤكدها وتشرع للناس ما يتناسب معها من عقائد وعبادات ومعاملات.

أريد أن أعطي القارئ الفاضل أمثلة من هذا لبعض ما اطلعت عليه في الغرب في الأسابيع الأخيرة من غير بحث ولا تنقيب.

قرأت قبل بضعة أسابيع مقالاً بجريدة (نيويورك تايمز) يسخر فيه صاحبه من كثير من الفضائل التي يتميز بها المجتمع السعودي، ويقول إنها تعوق فتح باب السياحة للأجانب، ويرى أن الاستفادة من هذه السياحة تتطلب التخلص من تلك الفضائل، وأن تستبدل بها الرذائل التي اعتاد عليها في بلده والتي أصبح كثير من أمثاله حتى في بلادنا يرونها ضربة لازب لكل مجتمع يريد أن يرتقي إلى مصاف الدول المتحضرة



بزعمهم. يسخر من الحجاب، ومن قتل القاتل، ومن منع اختلاط الرجال بالنساء، ومن توقف العمل لأداء الصلاة. ويقول: إن فكرة تجوال امرأة شابة غير متزوجة وهي لا ترتدي إلا... هو مما يراه السعوديون أمراً مرعباً.

لم أعرف تلك اللبسة التي ذكرها حتى سألت عنها، فإذا بها لبسة لا تغطي من جسم المرأة إلا شيئاً من صدرها، وشيئاً قليلاً مما فوق ركبتيها بكثير إلى ما تحت خاصرتها! هذا الذي يراه هذا المطموس الفطرة أمراً طبيعياً، بينما يرى الحجاب أمراً منكراً.

ثم قرأت بعد أسابيع من ذلك في جريدة (الواشنطن بوست) مقالاً يقول: إن تلك اللبسة صارت اليوم معروضة في كبرى المحلات التجارية ضمن ألبسة طالبات المدارس حتى اللائي لم يبلغن سن العاشرة! لكنه يذكر أن كثيراً من الآباء احتجوا على الدعاية لها، وأن بعض الأمهات رفضن أن يشترينها لبناتهن رغم إلحاحهن الشديد، وأن بعض مديري المدارس يفكر الآن في فرض زي معين للطالبات. فمن الذي سينجح في هذه المعركة ـ إن كانت معركة؟ أغلب ظني أنهم حماة الرذيلة.

وكنت قد ذهبت قبل أسبوعين إلى لندن للمشاركة في مؤتمر عن العولمة نظمه المنتدى الإسلامي. وأثناء وجودي بالفندق كنت أقرأ بعض الصحف اليومية وبعض المجلات، كما أشاهد التلفاز. فوجدت في تلك الأخبار العجب العجاب. سمعتهم يتحدثون عن برنامج عرضته إحدى القنوات التجارية أثار سخط الآباء والأمهات، بل سخط بعض الوزراء والوزيرات. أتدرون عما كان البرنامج؟ كان عن المبتلين بالميل الجنسي إلى الأطفال. ويبدو أنه عرضت فيه صور فاضحة وأنه سخر من الاعتراض على هذا الانحراف. لكن حماة الرذيلة وعلى رأسهم المسؤول عن القناة جاء يدافع عنه ويزعم أنه لا يرى فيه منافاة للأخلاق!

ثم قرأت في إحدى الجرائد عن فيلم سيعرض بعد أسابيع يشاهد فيه الشعب الإنجليزي لأول مرة الفاحشة تمارس على شاشات السينما. بل إن الدعاية له التي نشرتها الجريدة والتي رأيتها بعد ذلك معلقة في الأماكن العامة تتضمن شيئاً من ذلك المنكر. قالت إحدى الكاتبات في تلك الجريدة: هل نحن مقبلون على ممارسة الجنس في قارعة الطريق؟ وتذكرت ـ كما أن القارئ لا بد أن يكون قد تذكر ـ الحديث الذي رواه أبو يعلى عن رسول الله ﷺ وهو يتكلم عن آخر الزمان: «والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق؛ فيكون خيارهم يومئذ من يقول: لو واريتَها وراء هذا الحائط»[1].

لكن منتجي الفيلم، وكاتب القصة التي بني عليها ظهروا على شاشات التلفاز يدافعون عن هذا المنكر ولا يرون فيه شيئاً منافياً للأخلاق.

ثم قرأت بإحدى المجلات مقالاً طويلاً بعنوان: (عصر الانحطاط) ذكَّرني بكتاب جديد في تاريخ الثقافة الغربية عنوانه: (من الفجر إلى الانحطاط)، عرفت من صاحبة المقال أن ذينك البرنامجين المذكورين آنفاً كانا ضمن سلسلة من المنكرات التي توالت في مدى بضعة أسابيع بتلك البلاد، منها اعتراف أحد الكبار بأنه أقسم أمام القضاء كاذباً، واعتراف بعض المتزوجين لوسائل الإعلام بأنهم زنوا، ومنها كثرة العلاقات الجنسية بين أقرب المحارم. لكن هذا الكلام لم يعجب إحدى حاميات الرذيلة فكتبت في إحدى جرائد التابلويد تسخر من الكاتبة ومن المجلة التي نشرت المقال. وكان مما قالته: إن زنا المتزوجين ليس بالخطيئة الجديدة؛ فلا يعد معياراً لانحطاط الأمم. أقول: نعم! إنه ليس بالخطيئة الجديدة؛ بل قد يحدث في أكثر المجتمعات عفة. لكن هناك فرق بين أن يكون

---

(١) مسند أبي يعلى، رقم ٦١٨٣، الفردوس بمأثور الخطاب، رقم ٧٠٤٤.

حوادث شاذة متناثرة، وبين أن تعم به البلوى فيكون سمة للمجتمع. وأقول للكاتبة: ما رأيها فيما نشرته الجرائد عن مسرحية ظهر فيها أحد الممثلين عرياناً أمام الجمهور، ثم أعطاهم قفاه و... تخيلوا ماذا؟ تغوط! أترى هذا أيضاً لا يدل على الانحطاط حتى في الأذواق؟

إن الإجرام دركات؛ ففرق بين أن يرتكب الإنسان جرماً محصوراً في نفسه، وبين أن يتباهى به ويعلنه على الناس، ثم بين هذا وبين من يدعو إليه ويسعى للدفاع عنه وحماية مرتكبيه. هؤلاء هم شرار الخلق وهم سبب إنحطاط الأمم وهلاكها. وقد أعطانا ربنا صورة واضحة عنهم لنسعى جاهدين لقمعهم ودفع باطلهم. تعلمنا من كتاب ربنا أن بعض الناس لا يفعل الغواية فحسب، بل يحبها ويكره الهداية. ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [**فصلت**: ١٧]، وأن بعض الناس لا يرتكب الفاحشة فحسب بل يحب لها أن تنتشر ولا سيما بين الصالحين. ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [النور: ١٩]، وأن بعض الناس يحب الكفر والفسوق والعصيان إلى درجة تجعله مستعداً لأن يبذل كل ما في وسعه للدفاع عنها بالحجة والمال، بل بالنفس وكل رخيص وغال.

﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [**المائدة**: ٦٤].

﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٢١].

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾ [**الأنفال**: ٣٦].

﴿الّذينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشّيْطَانِ إِنّ كَيْدَ الشّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وأنت ترى في هذه الآيات الكريمة وغيرها كيف أن الله ـ تعالى ـ لا يكتفي بإخبارنا عن باطلهم، بل يحثنا على مدافعته وتغييره. فعلى المؤمنين بالحق أن لا يقفوا عند حدود الاستمساك السلبي به، بل أن يكونوا متعاونين في الدعوة إليه، والدفاع عنه، والسعي لقمع أعدائه بالحجة والبرهان، وبذل النفس والنفيس. ﴿وَالّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. إن حماة الرذيلة لا يقفون عند حد الدفاع عنها، بل يسعون لمحو معالم كل فضيلة مضادة لها. لكن الذي يمنعهم من ذلك هم جنود الحق المدافعون عنه الباذلون الجهد لإعلاء كلمة الله.

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

لا تحسبوه شراً لكم!

(البيان ١٦٨ - شعبان ١٤٢٢هـ - نوفمبر ٢٠٠١م)

ظلت وسائل الإعلام الأمريكي منذ سنين تربط الإسلام في أذهان الأمريكيين بالإرهاب، وقد نجحت إلى حد كبير في جعل الصورة النمطية للمسلم هي صورة الرجل الإرهابي الذي لا همَّ له إلا قتل الأبرياء من الغربيين وتحطيم حضارتهم. ثم جاءت حوادث يوم الثلاثاء ١١/ ٩/ ٢٠٠١م لتؤكد هذه الصورة، وليستغلها أعداء الإسلام في داخل أمريكا وخارجها أسوأ استغلال، وليردد الجاهلون والسفهاء منهم ما يقوله أئمة الضلال أولئك. وبدأ المسلمون يشعرون بالخوف الشديد حتى إن بعض المساجد ألغت صلاة الجمعة خوفاً على أرواح المسلمين. ثم بدأ الشعور بالعداء للمسلمين يتحول إلى صورة عملية من سبٍّ وشتم وتهديدٍ وضربٍ بل وقتلٍ وتخريب. لكنني وكثيرين غيري ممن خطبوا الجمعة التي تلت الحوادث حاولنا أن نذكِّر إخواننا الذين شهدوا الصلاة ـ وكانوا أقل من العدد المعهود ـ وأن ننصحهم بالدعاء واللجأ إلى الله تعالى. وكان مما قلت كلاماً فحواه أن الله ـ تعالى ـ قد يجعل من المصائب أبواباً يأتي منها خير كثير، وذكَّرتهم بقول الله ـ تعالى ـ لرسوله والمسلمين بعد حادثة الإفك: ﴿ لا

تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ١١]، وبحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ»(١).

وقلت لهم ـ كما قلت لغيرهم قبل الخطبة وبعدها ـ: إنني أرى في هذه المصيبة فرصة كبيرة للدعوة إلى الله، وتصحيح الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأمريكان. وتذكرت أنواع كيد كثيرة فتح الله بها أبواب النصر لدينه. تذكرت وقوف الكفرة على مداخل المسجد الحرام يحذِّرون الناس من الاستماع للرسول ﷺ، فإذا الدعاية ضد الرسول ﷺ تتحول إلى دعاية له ما كان المسلمون المستضعفون ليقدروا على مثلها.

ثم قلت كلاماً فحواه أنني كما نصحت المسلمين نصيحة خاصة فأريد أن أنصح الشعب الأمريكي ولا سيما قادته نصيحة عامة. قلت لهم: إنني أريد لكم أن تعرفوا الحقائق، وأن تبحثوا بحثاً موضوعياً في ما يأخذه الناس عليكم؛ فإن أعداداً هائلة من المسلمين، وإن اختلفت مع الذين قاموا بالتفجيرات في وسائلهم إلا أنهم يشاركونهم (إن صح أنهم مسلمون) في مآخذهم عليكم.

وقلت: إنكم تفاخرون كثيراً بنظامكم الديمقراطي وبما عندكم من حرية والتزام بالقانون. لكن ينبغي أن تتذكروا أن هذا ليس هو الذي يراه الناس فيكم باعتباركم قوة عالمية. بل إنكم بهذا الاعتبار تتصرفون تصرف الحكام الدكتاتوريين المحليين. فأنتم في الداخل ديمقراطيون، وعلى الصعيد العالمي دكتاتوريون يرى الناس فيكم كثيراً من خصال الدكتاتوريات المحلية؛ ففيكم كما فيهم الصلف والغرور، فأنتم لا تكفُّون عن الفخر بأنكم أقوى دولة، وأن التاريخ البشري لم ير مثلكم. لكن القرآن يذكرنا بأن أمماً

(١) مسند أحمد، ٢٣٤١٢.

قبلكم كانت هي الأخرى أقوى من غيرها في زمانها، وأنهم قالوا كما تقولون اليوم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [**فصلت**: ١٥] فجاءهم الرد الإلهي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [**فصلت**: ١٥]. وفيكم كما في الحكومات الدكتاتورية الظن بأنه بمثل هذه القوة وبالعنف تحل كل المشكلات، وفيكم كما فيهم الاعتقاد بأن قوتكم تجعلكم فوق القانون، مع أن الواجب عليكم باعتباركم قوة عالمية أن تكونوا مثالاً يحتذى في الالتزام بالقانون الدولي. وذكَّرتهم بأن العدل ليس كله أرضياً، بل هنالك عدل سماوي، وأنه إذا كان بعض الشعوب كأفغانستان لا تستطيع أن تقابل قوتكم المادية بقوة مثلها؛ فإنهم سيرفعون أيديهم إلى السماء مستجيرين بمن هو أشد منكم قوة.

ثم تتالت الأحداث وما تزال تتالى. زادت الاعتداءات على الأفراد من الرجال والنساء والأطفال، وعلى الجماعات والمنظمات والمراكز والمساجد حتى اضطر الناس لأن يغيروا مظهرهم الإسلامي، بل اضطرت بعض النساء إلى خلع الحجاب، وتوقف كثير من طلاب المدارس والجامعات عن الدراسة. ولكن صاحَبَ هذا كله اهتمام بالإسلام لم تشهد له أمريكا مثيلاً في تاريخها. توزعت وسائل الإعلام كبيرها وصغيرها على مساجد أمريكا كلها تقريباً لتستمع إلى ما يقوله الخطباء، (وقد علمت أن قناة CNN نشرت بعض ما ذكرت في خطبتي). ثم استمر الحديث عن الإسلام والاتصال بالمسلمين والتحذير من الاعتداء عليهم. لكن الأهم من ذلك كله هو إثارة الرغبة في نفوس الأمريكان لمعرفة المزيد عن الإسلام. فما زال الدعاة يدعون للحديث عن الإسلام في الكنائس والمدارس والجامعات، وما زالت المراكز توزع ما عندها من مواد دعوية حتى نفد ما عند بعضها فهرعت تطلب المزيد.

حكى لي بعض الأصدقاء أن بعض المستمعين في إحدى الكنائس قالوا له: إننا لا نعرف شيئاً عن دينكم، ونقترح عليكم أن تقفوا في الشوارع توزعون مواد تعرِّف به. وحكى الكثيرون من المسلمين أنه لأول مرة في تاريخهم يتصل بهم جيرانهم ليعبِّروا لهم عن أسفهم لما حصل للمسلمين، وعن إنكارهم الشديد له. إن المعروف أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشاراً بين الناس في هذه البلاد؛ فما يمر يوم إلا ويدخل فيه عدد منهم، يقدِّره بعضهم بأكثر من خمسين شخصاً، بل ذكر لنا أحد إخواننا الأمريكان ممن حباهم الله ـ تعالى ـ بنعمة اتخاذهم وسيلة لهداية الناس إلى دينه، أنه قد أسلم على يديه في هذه الأيام العصيبة أكثر من عشرين شخصاً.

لو كان للمسلمين قيادة واحدة، ولو كان أمرهم شورى بينهم، لما قدم أحد منهم على عمل يعرقل سير هذا الخير؛ إذ المعروف أن الدعوة مقدمة على القتال؛ لأن القتال إنما يشرع حين يكون وسيلة لازمة لها. أما حين تتيسر بدونه، فإن عاقلاً عالماً بدينه لا يلجأ إليه، فكيف إذا كان معرقلاً لها؟

ألم يقل الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في الحديث المتفق عليه ـ وهو يعطيه راية الجهاد: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1].

لكننا نرجع فنقول لإخواننا الدعاة بأمريكا: ﴿**لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [**النور**: ١١]، نقولها تفاؤلاً ورجاءً لا تحقيقاً؛ فالعلم بالعواقب عند علام الغيوب.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٣٧٠١، مسلم، رقم ٢٤٠٦.

وهذا يقودني إلى موضوع تحدثت عنه في مناسبات كثيرة خاصة وعامة، وكنت أنوي جعله موضوع مقالي لمجلة البيان هذا الشهر. وها قد شاء الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذه الحوادث أحسن مناسبة لذلك الحديث. كنت أريد أن أوجه للمحسنين من المسلمين رجاءً ملحاً أن يبذلوا أموالهم بسخاء لتوفير الآلاف المؤلفة، إن لم تكن الملايين من ترجمة كتاب الله الكريم إلى اللغة الإنجليزية. والسبب في ذلك أننا وجدنا بالتجربة، ووجد بعض إخواننا بالدراسة العلمية أن أكثر ما يُدخِل الناس في دين الله هو قراءتهم لترجمة هذا الكتاب العزيز. ولو رحت أحدثكم عمَّا سمعت أنا وحدي عن مشاعر الرضى والطمأنينة واليقين لبعض من هداهم الله ـ تعالى ـ بالاطلاع على ترجمة تنزيل رب العالمين لطال الحديث. لكنني سأكتفي ببعض ذلك عسى أن تكون فيه لنا ذكرى، وزيادة إيمان ويقين.

فهذا شاب هو الآن في صحبتنا يحدثنا أنه قرأ كتاباً لمؤلف غير مسلم عن الأديان في العالم، وكان مما كتبه عن الإسلام ترجمة لسورة الفاتحة. يقول الشاب إنني كثيراً ما كنت أتأثر تأثراً فكرياً ببعض ما أقرأ، لكنني حين قرأت ترجمة هذه السورة شعرت بالتأثير في قلبي. ذهب الشاب يبحث عن المسلمين، فأسلم ثم انتقل من بلده إلى واشنطن ليلتحق بمعهد العلوم العربية والإسلامية ليدرس اللغة العربية، وليتعلم دينه. ومن قبله فتاة قالت: إنها لأبوين لا اهتمام لهما بالدين، لكنها عثرت في بيتها على كتاب ديني قديم أثار اهتمامها فبدأت تبحث عن الأديان، فكان مما قرأته شيئاً عن الإسلام. قالت ـ وهي تسكن في مدينة نائية أشبه بالقرية ـ إنها صحبت بعض زميلاتها في الذهاب إلى سوق خارج القرية، لم تصحبهن إلا لتبحث عن ترجمة للقرآن الكريم. عثرت على طلبتها، ثم بدأت تقرأ. تقول الفتاة إنها لم تتجاوز الآية الثانية من سورة البقرة ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا**

رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] حتى وضعت المصحف المترجم، وشهدت بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم ذهبت تسأل عن المسلمين. ثم جاءت لواشنطن لإكمال دراستها بجامعة جورج واشنطن وهي محجبة حجاباً كاملاً. ومن قبلها شاب لأبوين كاثوليكيين كان يدرس الثانوية بمدرسة كاثوليكية، وكان مع ذلك يشهد دروساً دينية خاصة. لكن عقله لم يقبل أبداً القول بأن لله ولداً؛ لذلك قرر أن يبحث عن دين آخر. فكَّر في اليهودية لكنه لم يقتنع بها. ثم دخل الجامعة، وكان مما درسه مقرر في التاريخ شمل الشرق الأوسط، وكان من ضمن ما ذكر لهم المحاضر من المراجع القرآن الكريم. يقول إنه لم يكن قبل ذلك يظن أن هنالك ديناً يزعم أنه سماوي إلا اليهودية والنصرانية! ولم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام ألبتة؛ لكنه حينما بدأ يقرأ في الترجمة اهتدى.

إن هذا الكتاب هو حقاً كلام الله تعالى، يميل كل قلب مهتدٍ إلى ما يناسب حاله منه. فما علينا نحن إلا أن نوفره لهم ليتناولوا منه ما يشتهون فيهتدون. لقد وجدنا بالتجربة مصداق قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[1]، فما من أمة إلا وفيها من لا يزال قلبه ينبض بهذه الفطرة؛ ولولا ذلك لما تحركت قلوبهم عند استقبالها للحق. إن نور الفطرة الداخلي هو الذي يستجيب لنور الوحي الخارجي ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

فالذي أقترحه:

- طباعة الترجمة مجردة عن الأصل القرآني؛ وذلك لسببين أولهما: أن المدعوين لا يقرؤون العربية. ثم إننا لا ندري ماذا سيفعلون به إذا ما وزعناه على نطاق واسع؛ فقد يرميه بعضهم في أماكن غير مناسبة، وقد يقرؤه بعضهم في دورة المياه كما هي عادتهم.

(١) أخرجه البخاري، رقم ١٣٨٥، ومسلم، رقم ٢٦٥٨.

- أن تكون الغالبية العظمى منها طبعات شعبية ذات غلاف ورقي؛ لكي تقل تكلفتها ويسهل حملها وتوزيعها.
- أن توزع بكميات كبيرة على كل المساجد والمراكز بالولايات المتحدة، بل وعلى أكبر عدد من الأفراد المعروفين باهتمامهم بالدعوة.

كل هذا عمل يمكن أن يقوم به أفراد من المحسنين من غير تنسيق بينهم. لكن الوضع الأمثل أن تكون لهذا الغرض مؤسسة ـ حبذا لو كانت بالولايات المتحدة نفسها ـ تتولى هي طبع هذه المصاحف بأحجام وجَوْدات مختلفة، كما تتولى هي توزيعها على سائر المؤسسات الإسلامية وغير الإسلامية. وحبذا لو استطاعت المؤسسة أن توفر عدداً من المؤهلين للإجابة عن أسئلة من يطلعون على الترجمة ويرغبون في مزيد تفسير وتوضيح.

لكن هذه ليست دعوة لأن تحل هذه المؤسسة محل مجمع الملك فهد لطباعة القرآن، وإنما هي إضافة وتعضيد لها حتى لا يفوت عامة الناس فضل المشاركة في هذا العمل العظيم الذي تقوم به الحكومة السعودية جزاها الله كل خير. إن المجمع مهتم أساساً بطباعة المصحف الشريف نفسه، وهو عمل عظيم قد سدَّ وما يزال يسدُّ حاجة ماسة في البلاد الإسلامية ولا سيما الفقيرة منها. ثم هو مهتم بترجمة الكتاب العزيز إلى كل اللغات. أما الذي ندعو إليه فمؤسسة مختصة بالترجمة الإنجليزية.

أيها الإخوة المحسنون! إن هذا والله لعمل مبارك، وإن الثواب عليه والله لعظيم. كيف لا وقد تكون كل نسخة من ترجمة تنفق عليها سبباً في هداية إنسان إلى الإسلام. ووالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، كما أخبرنا الصادق

المصدوق. وإذا كان خيراً لك من حمر النعم فهو خير لك من كل ما تملك من مال إلا مالاً تنفقه في سبيل الله. فالبدار البدار ما دامت أبواب الدعوة إلى الإسلام قد فتحت الآن على مصاريعها. والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

العولمة وصراع الحضارات

(البيان ١٦٩ - رمضان ١٤٢٢هـ - نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠١م)

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠].

فالصراع سنة ماضية، والصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات لا بين طبقات ولا عرقيات. فأصحاب الطبقة الواحدة، والمنتمون إلى قومية واحدة بل قبيلة واحدة قد يقتل بعضهم بعضاً إذا اختلفت معتقداتهم. على هذا تدل الآية الكريمة التي تشير إلى اعتداء أناس من قبيلة هي أشرف قبائل العرب على أناس آخرين من هذه القبيلة نفسها؛ لأنهم خالفوهم في معتقدهم. وهذا هو الذي توصل إليه دارسو الحضارات من الغربيين؛ فإنهم يكادون أن يكونوا مجمعين على أن الحضارة وإن تكونت من عناصر كثيرة إلا أن أهم عنصر فيها هو العنصر الثقافي، وأن أهم عنصر في الثقافة هو الدين. ويلاحظون أن كبرى الحضارات كانت إلى حد كبير مرتكزة على أديان. فما الحضارة؟ وما الثقافة؟ وما العولمة؟ وما علاقة الصراع بين الحضارات بها؟

الحضارة والثقافة والعولمة:

كلمات الحضارة والمدنية والثقافة والعولمة وإن كانت عربية إلا أنها جعلت في استعمالنا الحديث رموزاً تدل على المعاني والمفهومات نفسها التي تدل عليها الكلمات الغربية التي جعلناها ترجمة لها. فلننظر في تلك المعاني والمفهومات كما هي عند أهلها.

وأنسب ما نبدأ به هو الأمريكي هنتنجتون أول من أشاع تعبير صراع الحضارات في مقال مشهور نشر في صيف عام ١٩٩٣م في مجلة Foreign Affairs بهذا العنوان، ثم نشر موسعاً في كتاب بالعنوان نفسه. ينقل هنتنجتون عن عدد كبير من العلماء الغربيين تعريفهم لما أطلقنا عليه كلمة المدنية أو الحضارةcivilization، والفرق بينها وبين ما نسميه ثقافة culture؛ فما الحضارة أو المدنية وما الثقافة؟ يمكن أن نلخص مجمل أقوال من نقل عنهم هنتنجتون في مفهوم الحضارة والثقافة فيما يلي:

يضع المفكرون الألمان حداً فاصلاً بين الحضارة والثقافة، فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع ومثله العليا وخاصياته الفكرية والفنية والخلقية الكبرى. لكن سائر المفكرين الغربيين خالفوا الألمان في هذا؛ فهم يرون أن الحضارة والثقافة كليهما تشيران إلى منهاج حياة أمة من الناس، وأن الحضارة إنما هي الثقافة مكبرة، وأن كليهما يشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس، وأن الدين هو أهم العناصر المكونة للحضارة، وأن الحضارة ليست متطابقة مع العرق؛ فأصحاب العرق الواحد قد ينتمون إلى حضارات مختلفة، كما أن الحضارة الواحدة ـ كالحضارة الإسلامية ـ قد تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان والأشكال. والحضارة هي أوسع وحدة ثقافية؛ فأهل قرية إيطالية مثلاً قد

يتميزون ثقافياً عن قرية إيطالية أخرى لكنهم يشتركون في ثقافة إيطالية تميزهم عن أهل القرى الألمانية. والألمان والإيطاليون ينتمون إلى ثقافة أوروبية تميزهم عن الجماعات الصينية والهندية. هذا الذي يجمع الأوروبيين هو حضارتهم التي تميزهم عن الحضارات الصينية والهندية. فالحضارة هي أعلى تجمُّع ثقافي للناس، وأوسع مستوى للهوية الثقافية لهم. وليس فوق الانتماء الحضاري للناس إلا انتماؤهم إلى الجنس البشري[1].

أما العولمة فيمكن أن نقول إنها في أساسها تصيير المحلي عالمياً؛ فهي وصف لعمل مستمر تدل عليه كلمة Globalization لكنها في الوقت نفسه وصف لبعض نتائج هذا التعولم. النتيجة النهائية المثالية للتعولم أن تكون للعالم كله لغة أو لغات مشتركة، وأن تكون التجارة فيه مفتوحة ومتيسرة بين كل بلدان العالم، وأن يسود فيه نظام اقتصادي واحد، ونظام سياسي واحد، وأن تسود فيه عقيدة واحدة، وأن تكون للناس فيه قيم مشتركة في مسائل كحقوق الإنسان والعلاقة بين الجنسين، وأن يكون هنالك أدب عالمي يتذوقه الناس كلهم، وأن يسود فيه تبعاً لذلك نظام تعليمي واحد، وهكذا. وأن تكون كل هذه الأمور التي تعولمت مناسبة للناس من حيث كونهم بشراً، ومساعدة لهم على تحقيق طموحاتهم المادية والروحية، أي تكون للعالم حضارة عالمية واحدة. هذا هو الهدف النهائي المثالي، لكن العولمة قد تكون ناقصة، وقد تكون تامة من غير أن تكون مناسبة للبشر بل مفروضة عليهم لظروف طارئة.

المهتمون بقضية العولمة متفقون تقريباً على أنه وإن كانت الكلمة جديدة إلا أن ما تصفه ليس بجديد، بل يرى بعضهم أن السير نحو هذه العالمية بدأ منذ مئات السنين.

---

(1) Samuel P. Hintington, The Clash of Civilizations, Simon & Schuster, 1997, pp. 41- 43.

فإذا كانت هذه هي العولمة فما وسائلها التي تجعلها ممكنة وتحركها؟ يذكر بعض المؤرخين أنه كان للعولمة في الماضي سببان رئيسان هما الهجرة والغزو.

ولكن لنا أن نسأل: لماذا يهاجر الناس، ولماذا تغزو بعض البلاد بعضاً؟ إنهم يفعلون ذلك؛ لأنهم يرونه ـ بحسب قيمهم ـ في مصلحتهم المادية أو الروحية. هذا إذن هو الدافع الأول المحرك للهجرة أو الغزو أو أي نوع آخر من أنواع الاتصال بين أمة وأمة. لكن الناس إنما يقررون الهجرة إلى مكان معين أو غزو أمة معينة بحسب ما يصلهم من معلومات عنها، وبحسب إمكانية الوصول إليها. هذان إذن عاملان آخران هما المعلومات ووسائل الانتقال؛ وهذان يعتمدان كثيراً على مستوى التقنية الذي تصل إليه الأمة المهاجرة أو الغازية أو الساعية لأي نوع آخر من أنواع العلاقات أو التأثير.

دوافع أمة لغزو أمة أخرى أو هجرة بعضهم إليها هي في غالبها دوافع اقتصادية، لكن بعضها قد يكون ثقافياً. والأمران متشابكان؛ فحتى الغازي لأسباب اقتصادية ينقل معه ثقافته وقد يفرضها على المهزومين إذا كان غازياً ذا إمكانات كبيرة، وقد يتأثر بثقافة من غزاهم، بل وقد يتبناها ويترك ثقافته، وقد يكون التأثر والتأثير متبادلاً. والمهاجر أو الغازي لأسباب ثقافية قد يستفيد فوائد اقتصادية، وقد يحدث لثقافته التي هاجر من أجلها ما يحدث للمهاجر.

كان غزو المسلمين للعالم مثالاً للغزو بدافع حضاري؛ فقد كانوا يعدون أنفسهم أصحاب رسالة موجهة للعالم كله كلفوا هم بتبليغها إليه بالوسائل السلمية ما أمكن، وإلا باللجوء إلى الحرب. حتى المسلمون الذين كانوا يهاجرون طلباً للرزق كانت مهمتهم الرسالية ماثلة أمامهم، فأثروا في البلاد التي هاجروا إليها تأثيراً كبيراً، فنقلوا

إليها ـ كما نقل الغزاة قبلهم ـ دينهم ولغتهم ولم يتأثروا بهم إلا في أمور لا تتعارض مع دينهم، بل قد يكون بعضها من مقتضيات الدعوة إليه، كتعلم لغتهم.

أما المسلمون الذين يهاجرون إلى البلاد الغربية في أيامنا هذه فإنهم يفعلون ذلك لأسباب في غالبيتها العظمى اقتصادية، وتجربتهم تدل على أن الغالبية العظمى منهم تفقد هويتها الثقافية ـ لغة ومظهراً وديناً ـ وتذوب في المجتمعات الغربية. لكن أكثر ما يحتفظون به ويؤثرون به في تلك المجتمعات هو طعامهم. غير أن قلة من هؤلاء الذين هاجروا لأسباب اقتصادية كانت ـ مع القلة التي تسافر لأسباب دعوية أو دراسية ـ سبباً في قبول بعض الغربيين للإسلام، وفي انتشار بعض المظاهر الإسلامية كالمساجد والمدارس والمكتبات والحجاب.

أما الغربيون الذين ذهبوا إلى العالم الإسلامي غزاة أو لأسباب اقتصادية فإن قلة قليلة منهم هي التي تأثرت بالثقافة الإسلامية أو اعتنقت الإسلام. ولذلك كان دخول بضعة آلاف من الجنود الأمريكان في الإسلام في المدة القصيرة التي قضوها في السعودية إبان حرب الخليج أمراً ملفتاً للنظر شاذاً عن القاعدة. لكن دخول غير الغربيين المهاجرين إلى العالم الإسلامي كان ولا يزال أمراً معتاداً.

أما غزو الغرب للعالم فقد كان في أساسه لأسباب اقتصادية، لكن الدافع الرسالي كان أيضاً حاضراً فيه حضوراً بيِّناً. فالغربيون كانوا يرون أن لهم رسالة هي أن يحضِّروا العالم ويجعلوه نصرانياً. وهم يرون أن حضارتهم تفوق الحضارات الأخرى لما تمتاز به من عقلانية لا توجد في غيرها، وأن هذه الميزة هي التي تؤهلها لأن تكون الحضارة العالمية. يرى أحد الأساتذة الأرجنتينيين أن أحسن من يعبر عن هذا الاعتقاد هو هيجل وينقل

عنه قوله: «إن الروح الألمانية هي روح العالم الجديد». ويقول: إن هيجل يرى أن الروح الأوروبية التي هي روح ألمانيا هي الحقيقة المطلقة التي تحقق نفسها بنفسها من غير أن تكون مدينة لأحد سواها. ويقول - أعني الكاتب -: إن هذه القضية - يعني قضية هيجل - لم تفرض نفسها على أوروبا والولايات المتحدة فحسب؛ بل على كل المجال الفكري لأطراف العالم[1]. ويقول أستاذ بجامعة ديوك الأمريكية: «إنه لأمر عجيب وإنها لحركة في غاية التعصب العنصري أن تعتقد أوروبا أن عليها منذ عام ١٥٠٠م أن تحضِّر عالماً ظلت فيه منذ قرون حضارات (مثل الحضارة الصينية والهندية والإسلامية...) قبل أن تجعل من نفسها مركزاً جديداً للعالم باسم النصرانية وأوروبا زمرة من الجماعات الهمجية الصاعدة»[2]، وأحسن من عبر عن الجمع بين الدافعين الاقتصادي والحضاري هو المؤرخ الأسباني الذي سوغ ذهابه وزملاءه لغزو الجزر الهندية بقوله: «خدمة لله ولصاحب الجلالة، ولِنَقْل النور إلى أولئك الجالسين في الظلام، ولنصير أغنياء كما أن كل إنسان يريد أن يصير»[3].

استطاعت أوروبا أن تفرض نفسها وكثيراً من جوانب حضارتها على تلك الحضارات بالغزو والاحتلال والاستعمار، ثم بوسائل الإعلام والضغوط الاقتصادية، والتهديدات العسكرية. يقول مؤرخهم المعاصر بشيء من الزهو:

---

(1) Enrique Dussel ;Beyond Eurocentrism: The World-System and the Limits of Modernity" in Fredrick Jameson and Masao Miyoshi, Editors, The Culture of Globalization, Duke University Press, London and Durham, 1998, pp. 3-4.

(2) Op cit. pp. 32-33, Walter D. Mingnola, ;Globalization, Civilization Processes and the Relocation of Languages Cultures".

(3) J. M. Roberts, The Penguin History of the World, Penguin Books, 1995, p.608.

«إن التغيير الذي حدث في تاريخ العالم بعد عام ١٥٠٠م لم يكن له سابقة. لم يحدث من قبل ذلك أبداً أن انتشرت حضارة واحدة في أرجاء الأرض كلها؛ فمنذ أقدم مسارح ما قبل التاريخ المشاهدة كان الميل دائماً نحو التنوع. أما الآن فإن التيار الثقافي بدأ يتحول. إن جوهر ما كان يحدث كان بادياً حتى منذ أواخر القرن الثامن عشر. فالأمم الأوروبية ـ بما فيها روسيا ـ كانت في ذلك الوقت قد ادعت لنفسها أكثر من نصف سطح الأرض، وكانت ـ بدرجات متفاوتة ـ قد سيطرت بالفعل على ما يقرب من ثلثه. ففي غرب الكرة الأرضية كانوا قد ازدرعوا جماعات مستوطنة تكفي بأعدادها الكبيرة لإنشاء مراكز حضارية جديدة؛ فقد خرجت أمة جديدة من المقاطعات البريطانية السابقة في أمريكا الشمالية، وفي الجنوب استطاع الأسبان أن يحطموا حضارتين ناضجتين ليغرسوا حضارتهم»[1].

ثم يذكر أنه كان هنالك في ذلك التاريخ ما يقرب من عشرين ألف هولندي في جنوب أفريقيا، وأن أستراليا كانت قد بدأت تستقبل مستوطنيها الجدد. وأن الزائر الأوروبي لشرق أفريقيا وإيران والهند وأندونيسيا كان سيجد فيها أوروبيين جاؤوا ليتاجروا ثم ليرجعوا إلى بلادهم في المدى القريب أو البعيد ليستمتعوا بالأرباح التي حققوها.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الاستعمار الغربي قد شمل أفريقيا كلها، وأحكم سيطرته على شبه القارة الهندية وبقية آسيا. وفي أوائل القرن العشرين أخضع الشرق الأوسط كله ـ عدا تركيا ـ لسيطرته المباشرة، ومع نهاية عام ١٩٢٠م كانت الإمبراطورية العثمانية قد قسمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. في غضون

(1) Ibid. p. 605.

هذا التوسع قضى الغرب قضاءً كاملاً على حضارتـــي (Meso american) و (Andean)، وأخضعــت الحضارات الهندية والإسلامية وأخضعت أفريقيا. وتوغل في الصين وجعلت تابعة للنفوذ الغربي لمدة أربعمائة عام تمثلت العلاقة بين الحضارات في خضوع المجتمعات غير الغربية للحضارة الغربية(1).

ذلك ما كان حتى عام ١٩٢٠م؛ فماذا حدث بعده؟ استمر الغرب في تفوقه التقني واستمر في تأثيره الكبير على كل مجتمعات العالم ولا سيما بعد الطفرة التي حدثت في تقنية الاتصالات والانتقال والتي زادت في إمكانية العولمة.

تتمثل هذه الهيمنة الغربية الآن ـ كما لخصها كاتب أمريكي ـ في أن الأمم الغربية:

- تملك وتدير النظام المصرفي العالمي.
- وتسيطر على كل أنواع العملة الصعبة.
- وأنها هي الزبون العالمي الأول.
- وأنها هي التي توفر للعالم معظم بضائعه الجاهزة.
- وأنها تسيطر على أسواق الرأسمال العالمية.
- وأنها تمارس قدراً كبيراً من القيادة الأدبية في كثير من المجتمعات.
- وأن لها قدرة على التدخل العسكري العظيم.
- وأنها تسيطر على المضايق البحرية.

---

(1) Huntington, op.cit. p. 51.



- وأنها تقوم بمعظم البحوث والتطوير للتقنية المتقدمة.
- وأنها المتحكمة في التعليم التقني الفائق.
- والمهيمنة على المدخل إلى الفضاء.
- وعلى صناعة الطيران.
- وعلى وسائل الاتصال العالمية.
- وعلى التقنية العالية لصناعة الأسلحة[1].

العولمة لم تكن ـ كما كان يرجى لها إذن ـ أن تسود في العالم ثقافة إنسانية تناسب كل الناس وتساعد على تعاونهم وتطورهم والاستفادة من خيرات بعضهم بعضاً. بل كادت العولمة وكاد التحديث أن يكون تغريباً بسبب هذا التفوق الغربي وعدم تسامح حضارته مع الحضارات الأخرى.

إلى متى سيستمر هذا التفوق وهذه الهيمنة الغربية؟

يرى كثير من المفكرين الغربيين أنها لن تستمر طويلاً ـ على الأقل بهذا القدر الكبير. لماذا؟ هذا موضوع كبير لا يسعنا هنا إلا أن نشير إليه مجرد إشارات، فنقول:

١ ـ لأن سبب تلك القوة لم يكن لمجرد أسباب داخلية في الحضارة الغربية، وإنما كان أيضاً لظروف خارجية مواتية. أما الآن فإن ظروفاً خارجية أخرى لا قِبَلَ للغرب بتغييرها جعلته يضعف ضعفاً نسبياً للازدياد النسبي في القوة الاقتصادية والتقنية لبلاد غير غربية.

(1) Jeffery R. Barnet, «Exclusion as National Security Policy,» Parameters, 24 (Spring1994), 54, as quoted by Huntington, op. cit. 81-

٢ ـ يزداد تقديرنا لأهمية هذا الضعف النسبي للقوة المادية للدول الغربية إذا ما تذكرنا ما يقوله كثير من مفكريها بأن السبب الأساس لسيطرتها لم يكن قيماً ولا فكراً ولا ديناً وإنما كان هذه القوة. يقرر هنتنجتون هذه الحقيقة في صراحة عجيبة إذ يقول: لم يغلب الغرب العالم بتفوق في أفكاره أو قيمه أو دينه (الذي لم تعتنقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرى) وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم. إن الغربيين كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبداً[1].

بيد أننا يمكن أن نستدرك على هنتنجتون ومن يرى رأيه بأن الغرب وإن لم يكن في نفس الأمر متفوقاً في تلك المجالات إلا أن أهله كانوا يعتقدون فيه هذا التفوق، وأن هذا الاعتقاد الباطل كان دافعهم، مع الدوافع الاقتصادية للخروج لغزو العالم كما ذكرنا سابقاً.

٣ـ أما الآن فإن هذا الضعف النسبي في القوة المادية للغرب يصحبه وربما سبقه فتور في الدافع الرسالي؛ فحماس الغربيين لدينهم المسيحي في بداية قرنهم الواحد والعشرين لم يعد كما كان في القرن الثامن عشر، ولم يطرأ هذا الفتور في الحماس الديني بسبب التأثر بالحضارات الأخرى في المكان الأول، وإنما كان في أساسه:

- بسبب دراساتهم العلمية لأصول دينهم التاريخية، تلك الدراسات التي شككت في الثبوت التاريخي لكثير من نصوصه، والتي أثبتت أن في هذه النصوص تناقضاً ومخالفة لبعض الحقائق العلمية نشأ عنه انقسامهم إلى أصوليين ـ أكثرهم من العوام ـ يؤمنون بحرفية ما في كتابهم المقدس، وليبراليين يعتقدون أنه ما كل ما فيه من عند الله، وأنه تأثر بالظروف الثقافية للزمن الذي كتب فيه.

---

(1) Ibid. p. 51.

- ثم كان التطور في مجال العلوم الطبيعية سبباً آخر؛ لأن منهج هذه العلوم يقوم على عقلانية لا وجود لها في دينهم.
- ثم زاد من ضعف الإقبال على الدين أو الاهتمام به النظام السياسي العلماني الذي يفصله عن الدولة، بل وعن الحياة العامة كلها.

٤ ـ كان كثير من المفكرين الغربيين يأملون في أن يحل العلم الطبيعي محل الدين، وينجح في حل مشاكل البشرية التي عجز الدين عن حلها. لكن تجربة الحربين العالميتين العظميين، واعتمادهما على التقنية الحربية التي وفرها العلم الطبيعي أضعفت من هذا الأمل. ثم كانت كارثة هيروشيما فاقتنع كثير من المفكرين والعوام الغربيين بأن العلم الطبيعي إنما هو سلاح يعتمد حسن استعماله أو سوؤه على قيم لا تؤخذ منه هو، فلا بد أن يكون لها مصدر آخر.

٥ ـ والشيوعية ـ التي هي نتاج غربي ـ والتي تعلق بأوهامها الآلاف المؤلفة من الناس في الشرق والغرب، باءت هي الأخرى بإخفاق ذريع.

٦ ـ لم يبق للغرب الآن مبدأ يتعلق به ويدافع عنه ويعتز به إلا الديمقراطية الليبرالية وما يصاحبها من نظام رأسمالي. لكن حتى هذين يجدان كثيراً من النقد والمراجعة لعدم وفائهما ببعض القيم الإنسانية، ولا سيما إنصاف الفقراء، ولما نتج عنهما من تعميق للروح الفردية وما يصحبها من مشكلات اجتماعية.

٧ ـ الروح السائدة في الغرب الآن ليست روحاً متفائلة، بل إن التشاؤم قد يصل بهم إلى الحد الذي عبر عنه كاتب فرنسي أزعج ذلك الشعب وأثار تشاؤمه حين كتب يقول كما نقل عنه مؤلف إنجليزي: «إن أوروبا بدأت تدخل في عصر ظلام جديد يتميز

بالأوبئة والمتسولين وانهيار المدن، وبعث الخرافة، وعودة التهديد القادم من الشرق ـ من آسيا ومن الإسلام»[1].

ولعلنا نستطيع أن نقول إنه حتى لو لم يطرأ هذا الفتور في حماس الغربيين لدينهم ولرسالتهم، فإنه ما كان لحضارتهم أن تصير حضارة عالمية إذا ما فقدت القوة المادية؛ لأنها لا تملك في نفسها مقومات العالميـــة. لكن هـذا موضوع آخر لا يسعنا الدخول في تفاصيله الآن، غير أن كثيراً من هذا القصور سيتضح إذا ما أظهرنا بعض مقومات عالمية الإسلام؛ إذ بضدها تتميز الأشياء. إلى هذا نتجه الآن وبه نختم مقالنا هذا.

ما الذي يؤهل الحضارة الإسلامية لأن تكون حضارة عالمية؟

أرى أننا ينبغي أن نميز أولاً بين الإسلام والحضارة الإسلامية؛ لأنه إذا كانت الحضارة هي في جوهرها المعتقدات والقيم والتصورات المتمثلة فعلاً ـ أو قل إلى حد كبير ـ في واقع أمة من الأمم، فما كل ما جاء به الدين المنزل من عند الله متمثلاً في الأمة التـــي تعلن إيمانها بـــه. فالدين دينان: دين منزل من عند الله لا يتغير ولا يتبدل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ودين متمثل في واقع الناس يقترب من الدين المنزل أو يبتعد عنه، ولا يطابقه إلا في الرسول الذي جاء به، والذي صدق عليه قول زوجه أم المؤمنين: «كان خلقه القرآن»[2]، أما غيره فمنهم من يقرب منه قرباً شديداً، ومنهم من يبتعد عنه بعداً كبيراً وإن كان منتسباً إليه. فالحضارة الإسلامية المتمثلة في واقع المسلمين تتأهل للعالمية بقدر قربها من الدين المنزل الذي تنتسب به. فما مقومات العالمية في هذا الدين؟ إنها مقومات كثيرة وعظيمة، لكننا نكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى بعضها:

---

(1) Ruling Brittania, pp 316 -7.

(٢) أخرجه مسلم، رقم ٧٤٦، وأحمد في المسند، رقم ٢٣٤٦٠، واللفظ له.

١ ـ أنه بينما كان الرسل من أمثال موسى وعيسى ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ يرسلون إلى أقوامهم خاصة فإن محمداً ﷺ أرسل إلى الناس كافة، أرسل رحمة للعالمين، وجعله الله خاتماً للنبيين. فحتى لو كان اليهود والنصارى المنتسبون إلى هذين الرسولين مستمسكين بدينهم الحق، لما جاز لهم أن يجعلوا منهما دينين عالميين بعد نزول الدين الخاتم؛ لأن الله ـ تعالى ـ إنما أرسل هذين الرسولين إلى قومهما خاصة وإلى فترة محدودة. فالمسلم المستمسك بدينه العارف بهذه الحقيقة يستبشر بالتطور الذي حدث في وسائل الاتصال والانتقال الذي جعل من العالم قرية واحدة كما يقولون. يستبشر به؛ لأنه يرى فيه تصديقاً لنبوة محمد ﷺ؛ فلا أحد غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان يمكن أن يعلم أن العالم سيتقارب هذا التقارب فلا يحتاج إلا إلى رسول واحد.

٢ ـ أن إمكانية تقريب المسافات أمر حاضر في حس المؤمن الذي يقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [**الإسراء**: ١] حين يذكر كيف أن المكذبين به ﷺ ضاقت أعطانهم عن أن يروا إمكان ذلك، وحسبوا أن الممكن محصور في المألوف. ويقرأ المؤمن في كتاب ربه أن رجلاً عنده علم من الكتاب استطاع أن ينقل عرشاً بأكمله في أقل من طرفة عين من اليمن إلى الشام، ثم يقرأ في كتاب ربه ما هو أعجب من ذلك أن الرسول ﷺ عُرج به إلى السماء السابعة ورجع في ليلة واحدة؛ وهي مسافة لو قطعها مخلوق بسرعة الضوء لاستغرقت منه البلايين من السنين الضوئية. ويصدق المسلم قول رسوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[١].

---

(١) أخرجه مسلم، رقم، ٢٨٨٩.

٣ ـ أن هذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ فهو يخاطبهم بوصفهم بشراً وضع اللـه في قلوبهم أساسه؛ فهو ليس بالأمر الغريب عليهم. وما أكثر الذين شعروا بهذا حين أسلموا وفاضت أعينهم مما عرفوا من الحق.

٤ ـ ومما يزيد المسلم اقتناعاً بعالمية دينه أنه أثبت في الواقع أنه ليس بالدين الذي تحده ظروف جغرافية أو مناخية، أو زمانية أو ثقافية؛ فقد اعتنق هذا الدين أناس بينهم كل أنواع تلك الاختلافات، فلم يجدوا في شيء منها ما يحول بينهم وبيـن الإيمـان به أو وجدانهم شيئاً غريباً عليهم. فالمسلمون في كل بقاع الأرض الآن أقرب إلى دينهم من النصارى أو اليهود لدينهم. فما زال المسلمون رغم كل تلك الظروف المختلفة يصلون الصلوات الخمس، ويصومون شهر رمضان، ويحجون إلى بيت الله الحرام، ويقرؤون الكتاب المنزل على رسولهم من غير تحريف ولا تبديل.

٥ ـ وإذا كان تطور العلوم الطبيعية يقف الآن حجر عثرة في طريق بعض الأديان الباطلة، فإنه يقف شاهداً على صدق هذا الدين؛ لأنه لا يجد فيه ما يخالف شيئاً من حقائقه، بل يجد فيه تقريراً لبعض تلك الحقائق قبل أن يتمكن الإنسان من اكتشافها بوسائله البشرية. ولا يجد فيه مخالفة لمنهجه العقلاني التجريبي؛ إذ يجده ديناً لا يأتي بمحالات العقول، ولا ينكر ما يشهد به الحس. فإذا ما شعر الناس بأهمية الدين ـ كما يشعر بذلك كثير منهم الآن ـ وإذا ما صدهم عما عرفوه من أديان تناقضها المنطقي، أو مخالفتها للواقع المحسوس فسيجد ديناً فيه كل ما يريد من هدى واستقامة وراحة نفسية، وهو خال من تلك النقائص. فسيكون العلم الطبيعي بإذن الله ـ تعالى ـ سبباً من أسباب دخول الناس في هذا الدين على المستوى العالمي.

٦ ـ والغرب وإن كان في مجموعه مهيمناً تلك الهيمنة التي ذكرناها سابقاً إلا أنه ليس شيئاً واحداً منسجماً متعاوناً، وإنما هو شعوب ودول وجماعات تختلف مصالحها ويثور التنافس والتحاسد بينها، ويرتاب بعضها من قوة بعضها ويخشى من سيطرتها.

إذا كانت تلك هي بعض المقومات التي تؤهل الإسلام ليكون دين القرية العالمية، ومركز حضارتها، فإن في واقع الأمة المنتمية إليه الآن ما يعرقل سيرها بدينها نحو تلك العالمية:

١ ـ أول تلك العوائق هو كون الحضارة الغربية قد نجحت في جعل بعض المنتسبين إليه عملاء لها في داخل الأوطان الإسلامية، ومكنت لهم فيها؛ فهم الذين قسموا الأمة وجعلوها متنازعة، وشغلوها بصراعات داخلية سياسية واجتماعية، فحالوا بذلك بينها وبين أن تسعى متكاتفة إلى الأخذ بأسباب التقدم المادي من علم طبيعي وتقنية وإنتاج؛ لأن وحدة الأمة ـ وإن كانت كافرة ـ شرط في هذا كما تشهد بذلك تجارب اليابان والأمم الغربية.

٢ ـ وثانيها أن هذا النزاع كان وما يزال السبب في فقدان القدر اللازم من الحرية التي هي أيضاً شرط لذلك التقدم. لكن الغربيين الذين كانوا سبباً في فقدانها يعزون هذا الفقدان الآن إلى طبيعة العرب أو طبيعة الإسلام! وقديماً قال العربي: «رمتني بدائها وانسلَّت».

٣ ـ وثالثها أن كثرة كاثرة من المنتمين إلى الإسلام قد حادوا عن جوهره التوحيدي، ففقدوا بذلك الشرط الذي علق الله ـ تعالى ـ نصره لهم عليه في مثل قوله ـ تعالى ـ: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ**

الّذينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

٤ ـ ورابعها أن الغرب يبالغ في خوفه من الإسلام، ويزيد في هذا التخويف أناس يبالغون في خطر البعث الإسلامي الجديد متخذين من هذا التخويف وسيلة لتحقيق مآرب لهم لا تمت إلى مصلحة الغرب في شيء؛ وأكثر من يعينهم على هذا ويعطيهم أدلة يفرحون بها أناس لا عقل لهم ينتمون إلى حركة البعث هذه يكثرون من التهديد والوعيد للغرب من غير أن تكون لهم مقدرة على تحقيق أدنى شيء منه. وبسبب هذا الخوف المَرَضي من الإسلام يبالغ الغرب في ضغطه على الدول الإسلامية والتدخل في شؤونها ليقضي على كل بادرة نهضة إسلامية تطل برأسها فيها، ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

٥ ـ مع كل هذا الخطر الغربي فإن بعض الدعاة عندنا يتصرفون وكأنه لا وجود للغرب نفسه؛ فلا يتتبعون أخباره ولا يهتمون بمعرفة سياساته ومخططاته، ولا يفكرون في الرد على أفكاره، وكأنهم لم يسمعوا بمثل ما قال عالم الجزيرة الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن معرفة أحوال الكفار من أعظم أبواب الجهاد». وصار هؤلاء الدعاة ـ بسبب هذه الغفلة ـ مشغولين بمحاربة أناس هم معهم في صف البعث الإسلامي. إن نقد الخطأ ـ ولا سيما ما كان في مسائل العقيدة ـ أمر واجب وعمل عظيم؛ لكن نقد أخطاء المسلمين شيء، وجعلها الشغل الشاغل عن الخطر الداهم شيء آخر.

يافوكوياما! نحن مع التحديث.. وأبعد الله التغريب

(البيان ١٧٣ ـ المحرم ١٤٢٣ هـ ـ مارس ـ إبريل ٢٠٠٢م)

إنَّ أمر بعض الكتاب الغربيين لعجب. إنهم يعترفون بأن بلادهم تعاني من مشكلات أخلاقية واجتماعية توشك أن تهوي بها في مكان سحيق؛ لكنهم يودون مع ذلك من كل عباد الله في سائر بلاد الله أن يتبنوا قيمهم التي توشك أن توردهم موارد الهلاك، وإلا كانوا أعداء للحداثة مكتوباً عليهم أن يعيشوا ويموتوا متخلفين. إن توهم اللزوم بين القيم الغربية ـ في الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع ـ الذي بدأ يشيع في عصرنا منذ زمن طويل، والذي جعل بعض المفسدين ينادي بأخذ كل شيء من الغرب حتى الديدان التي في بطونهم! إن هذا التوهم أسطورة تقوم على عدم التمييز بين الأسباب الفاعلة والملابسات العارضة، كالذي يقول لك إنك لا يمكن أن تأخذ التقنية منهم وتترك رقصهم وأغانيهم وتحريمهم الزواج بأكثر من واحدة، وينسى أو يتناسى أن هذه كانت سيرة القوم قبل أن يكون لهم عِلْم طبيعي أو تكون لهم تقنية، فلا علاقة لهذا بذاك ولا بالعصر الذي نعيش فيه.

لقد كتب فوكوياما كتاباً أسماه بـ (الانفراط العظيم) ذكر فيه ـ كما قلت في تلخيص له بهذه المجلة المباركة ـ أن الدول الصناعية كلها تعاني من تفكك اجتماعي عزا معظمه إلى تفكك في الأسرة، وذكر أن من أسباب تفكك الأسرة اختلاط النساء بالرجال في أماكن العمل، وانتشار حبوب منع الحمل، ونظريات جعلت الإباحية تحرراً، وأن هذا كله أدى إلى ازدياد في معدلات الخيانات الزوجية، ومعدلات الطلاق، وأن تفكك الأسرة أدى إلى سوء تربية الأطفال، وإلى نقص في ما يسمونه بالرأسمال الاجتماعي: نقص في الثقة في الزعماء السياسيين، ورجال الدين، وازدياد في معدلات الجريمة، وتعاطي المخدرات.

أَلِـمِثلِ هذا يدعونا فوكوياما اليوم إذ يدعونا إلى تبني القيم الغربية، وإذ يزعم أن دعوته هذه ليست ناتجة عما يسمى بالعمى الثقافي؛ وإنما لأن القيم الغربية هي القيم العصرانية الصالحة لأن تكون عالمية، وأننا إذا لم نأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا؟ إن لم يكن هذا عمى ثقافياً فلست أدري ما العمى الثقافي؟!

ولكن ماذا نقول لفوكوياما؟ نقول:

أولاً: إن التحديث في جوهره إنما هو الأخذ بكل الوسائل العلمية والتقنية والإدارية التي يتطلبها العصر والتي لا تكون الأمة بغيرها أمة قوية في اقتصادها وسلاحها وإعلامها؛ فهل وجد فوكوياما في الإسلام ما يتناقض مع شيء من هـذا؟ ألم يأخذ المسلمون في تاريخهم بكل ما تطلَّبته عصورهم المختلفة في هذه المجالات حتى صاروا ـ إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي ـ القوة العالمية الأولى في مجال التقدم العلمي والتقني والسلاح البري والبحري؟ فإذا كانوا قد حققوا كل هذا في الماضي مع استمساكهم بدينهم؛ فما الذي يمنعهم من تحقيقه تارة أخرى من غير ترك لهذا الدين؟ إن

تخلف المسلمين المعاصر في هذه المجالات إن عزي إلى أي شيء فلا يمكن أن يعزى إلى دينهم؛ إذ ما الذي يجعلهم يَعْمَوْنَ فجأة عن حقيقة دينهم فيرونه متناقضاً مع أمور كانت من أسباب قوتهم واستعلائهم؟

لكن فوكوياما ـ كأمثاله من الغربيين والمستغربين ـ يريد أن يقول لنا إن للتحديث شرطاً آخر ضرورياً يتناقض مع ديننا: إنه العلمانية، فصل الدين عن الدولة، وجعل الدين أمراً فردياً خاصاً.

ثانياً: إن فصل الدين عن الدولة في بلادكم شيء اخترتموه طائعين، لم يفرضه عليكم أحد. ونحن اخترنا غير ما اخترتم؛ فلماذا تريدون أن تفرضوا علينا ما لا نريد؟

ثالثاً: إن اختياركم كان لظروف خاصة بتاريخكم وطبيعة دينكم والحروب التي نشأت بينكم، ومنها الحرب التي تذكرونها دائماً ـ أعني حرب الثلاثين عاماً ـ ونحن أصحاب تاريخ مختلف عن تاريخكم، ودين مختلف عن دينكم ولم يحدث عندنا ما حدث عندكم.

رابعاً: إنكم تقولون إن السلم المدني لا يتأتى إلا في نظام علماني لا يكون للدين فيه نصيب. لكن تاريخكم يحدثنا بأن العلمانية لم تحقق هذا السلم على المستوى العالمي، بل إن أول حربين عالميتين في تاريخ البشرية حدثتا عندكم وبين بلاد علمانية، ونتج عنهما من الضحايا البشرية والدمار والفساد ما لم يكن له مثيل في تاريخ البشرية.

خامساً: إنه إذا كان دينكم لا يقبل العيش مع الأديان الأخرى، فإن ديننا يقبل مثل هذا التعايش ويعطي غير المسلمين من حرية العبادة وتسيير شؤونهم الخاصة ما لا تعطيه العلمانية. نعم إن هنالك مناطق مستثناة من هذا التعايش، لكن ليس من شرط التعايش

أن تُفتح أراضي المسلمين كلها لغير المسلمين. فالقول بأن «التسامح» لا يتحقق إلا في دولة علمانية دعوى لا سبب لها إلا العمى الثقافي.

سادساً: وإذن فالقول بأن مشكلة المسلمين مع الحضارة الغربية هو تسامحها الديني، أو ديمقراطيتها ليس بصحيح. لماذا يعادي المسلمون نظاماً يسمح لهم بأن يدعو إلى دينهم؟ لماذا ودينهم بسبب تلك الحرية هو أكثر الأديان نمواً في الولايات المتحدة؟ ليس المسلمون هم الذين يكرهون هذا ويريدون إيقافه، وإنما هم المتعصبون المتشنجون من بعض المتدينين وبعض الملحدين؛ فرجاءً لا تخلطوا الأوراق كما يقولون.

سابعاً: إن كثيراً من الغربيين أنفسهم يرون أن العلمانية سبب أساس إن لم تكن السبب الأول لتلك الأمراض التي ذكر فوكوياما أن المجتمعات الصناعية كلها تعاني منها، والتي سرت عدواها إلى العالم كله بما فيه عالمنا الإسلامي بسبب إصرار بعضنا على التقليد الغبي لكل ما هو غربي.

ثامناً: عجباً لأمر الغربيين الذين يقولون إن ديننا هو سبب ضعفنا وتخلفنا. أفتراهم حريصين على أن نكون أقوياء؟ كيف وهم يعدوننا العدو الأول بعد سقوط الشيوعية؟ كيف وهم يرون أن الصدام بين الحضارات قادم لا محالة؟ أفيريدون لعدوهم أن يملك من القوة ما يملكون؛ ولذلك فهم ينصحونه أن يأخذ بأسبابها التي منها إقصاء الدين؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

تاسعاً: إن فصل الدين عن الدولة لا يكون إلا بتحريف الدين أو عدم الإيمان بشيء منه. لكن الكفر بشيء مما أنزل الله هو كفر بالله؛ لكنه مع ذلك أمر مرد عليه اليهود والنصارى منذ أزمان سحيقة؛ فلا عجب أن يسهل عليهم اليوم وهم يقرؤون كتباً دلتهم دراساتهم الحديثة أنها ليست قطعاً بالكتب التي أنزلها الله على رسله، وبرهنت لهم أن فيها

أقوالاً مخالفة للحقائق التي اكتشفتها العلوم التجريبية. بل إن المتحررين منهم ـ وهم الأغلبية الآن ـ يعتقدون أنه إنما كتب هذه الكتب بشر عاديون، وأنهم تأثروا في كتابتها بالظروف الثقافية السائدة في عصورهم، وأنه ما دامت ظروفنا الثقافية اليوم مختلفة عن ظروفهم فلا يلزمنا أن نلتزم بكلام كُتِبَ في زمان غير زماننا. وهم لهذا السبب يبيحون أموراً كالشذوذ الذي تعده كتبهم من الجرائم.

لكننا ـ نحن المسلمين ـ مختلفون عنهم في هذا كله؛ فنحن موقنون بأن الكتاب الذي بين أيدينا هو كلام الله الذي أنزل على رسولنا، نقرؤه بلغته التي أُنزل بها ولا نجد فيه ـ رغم ـ تطاول الزمن ما يخالف حقيقة من ملايين الحقائق العلمية التي اكتشفت بعد نزوله. بل إننا لنرى في كل يوم مصداق ما به أخبر، والحكمة في ما عنه نهى أو به أمر؛ فلماذا نترك حقنا لباطلكم؟

أقول هذا مع أنني أعلم أن أمثال فوكوياما لا يمثلون رأي المتدينين في تلك البلاد، بل إن فيهم من يخالفه خلافاً جوهرياً في أساس منطلقاته التي لا تعطي للدين اعتباراً.

هذا، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الإنصاف في معاملة غير المسلمين

(البيان ١٧٥ ـ ربيع أول ١٤٢٣هـ ـ مايو ـ يونيو ٢٠٠٢م)

أصبح من بدهيات عصرنا أننا نعيش اليوم في عالم تشابكت فيه مصالح الأمم؛ فلم يعد من الممكن لواحدة منها بلغت من القوة ما بلغت أن تنعزل مستقلة عن غيرها مستغنية بنفسها. فنحن إذن محتاجون إلى معالم نهتدي بها في تعاملنا مع غيرنا معاملة نحقق بها مصالحنا ولا نساوم بها على ديننا. أول معلم يهدينا إليه كتاب ربنا هو أن معاملتنا لغيرنا يجب أن تؤسس على الحقائق، حقائق الدين المتلوة، وحقائق الواقع المشهودة. من أمثلة الحقائق الواقعية التي يخبرنا بها ربنا ويأمرنا أن نبني عليها تعاملنا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [**فاطر** : ٦] . أي إنه إذا كان الشيطان عدواً فيجب أن تكون معاملتك له مبنية على هذه الحقائق، لا على أمور عنه تتوهمها.

والحقائق الواقعية يمكن أن يدركها البشر إدراكاً مباشراً، كما يمكن أن يعرفوها بخبر الله ـ تعالى ـ في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ. وأخبار الله ـ تعالى ـ صادقة، والخبر

الصادق هو المطابق للواقع، وإلا فهو كاذب. فما الحقائق المشهودة التي يخبرنا بها ربنا أو نشاهدها بأنفسنا عن غير المسلمين ممن يساكنوننا هذه الأرض في عصرنا هذا؟ أول ما نتعلمه من ديننا ويؤكده لنا واقعنا أنهم وإن كانوا جميعاً غير مسلمين لكنهم ليسوا سواء في قربهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين. وإذا كانت هذه حقيقة فيجب أن لا نغفلها في تعاملنا معهم. يجب أن نعامل كل فرد أو جماعة منهم بحسب ما نعرفه من حالهم؛ وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب لكنه أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد. لكننا كثيراً ما نجنح إلى التعميم حيث يكون التمييز هو الأنسب، وكثيراً ما نذكر آيات تدل على هذا العموم ونغفل الآيات التي تخصصه أو تقيده.

من القريب منا ومن البعيد من اليهود والنصارى وسائر المشركين؟ سيسارع بعضنا إلى تذكيرنا بمثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [**البقرة**: ١٢٠]، ويريد أن يستدل بهذا على أن ما قاله ربنا ـ سبحانه ـ ينطبق على كل فرد منهم، وأن معاملتنا لهم يجب إذن أن تكون كلها مرتكزة على هذه الحقيقة. لكن كتاب ربنا نفسه يدلنا على خطأ هذا الفهم. إن صيغة الآية صيغة عموم ما في ذلك شك، لكنها مخصوصة بآيات أخرى، وبواقع نشاهده. فكتاب ربنا يخبرنا أن بعض النصارى يسلمون: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ [**المائدة**: ٨٣].

فهؤلاء نصارى لكنهم لم يكونوا من النوع الذي لا يرضى عنا إلا إذا اتبعنا ملتهم، بل اعترف بأن ملتنا هي الحق، وهداه ربه إلى قبول هذا الحق. وما أخبرنا به ربنا في

القرآن الكريم ما نزال نشاهده في أفراد من النصارى يسلمون ويبكون حين يسلمون. وما يقال عن النصارى يقال أيضاً عن اليهود؛ فإن منهم أيضاً من هداه الله ـ تعالى ـ إلى الإسلام من أمثال الصحابي الجليل عبد الله بن سلام الذي شهد له الرسول ﷺ بأنه من أهل الجنة.

وما يقال عن تلك الآية يقال أيضاً عن آيات أخرى عمومها الظاهري مخصوص. من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ**﴾ [**التوبة**: ٣٠].

كنت أفهم هذه الآية الكريمة على عمومها الظاهري هذا، فكتبت كتيباً باللغة الإنجليزية منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً استدللت فيه بها على أن اليهود يؤلهون عزيراً كما يؤله النصارى عيسى. فعجبت عندما أخبرني الإخوة الناشرون بأنه جاءتهم احتجاجات من بعض اليهود على ما نسبته إليهم، وطالبوني بالدليل. ولم يكن لدي من دليل غير القرآن الكريم. لكن أحد إخواننا السودانيين ـ الدكتور إبراهيم الحاردلو ـ ممن درسوا العبرية وتاريخ اليهودية، أخبرني أن أستاذه اليهودي نفسه كان قد استغرب مما ذكره القرآن الكريم، لكنه ذهب وراجع كتب تاريخهم، ثم جاء ليقول للأخ إنه كان بالفعل هنالك جماعة من اليهود في المدينة في ذلك الوقت يؤمنون بأن عزيراً ابن الله. وعندما راجعت كتب التفسير وجدت ما فيها مطابقاً لما قال. فابن كثير مثلاً يقول بعدما ذكر عن السدي قصة طويلة عن عزير: «فقال بعض جهلتهم إنما صنع ذلك؛ لأنه ابن الله». ويقول صاحب التحرير والتنوير: «والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة وتبعهم كثير من عامتهم».

كل هذا يدلك على أنه من الخطأ أن تفهم الآية الكريمة على عمومها الظاهري فيظن أنها تنطبق على كل فرد ينتسب إلى اليهودية؛ لأن من اليهود المحدَثين من لا يعلم أن بعضاً من سلفه كان يقول هذا؛ فكيف ينسب إليه قولهم؟ وقد أعجبني في هذا الصدد إنصاف شيخ الإسلام ابن تيمية حين فرق بين من حرَّف ومن لم يحرِّف من أهل الكتاب فقال: «وعلى هذا؛ فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب، وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك فهم مجتهدون في اتباع ما جاء به الرسول، لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد»[١]. بل إن في واقعنا اليوم ما هو أغرب من هذا؛ فهنالك اليوم آلاف مؤلفة ممن ينتسبون إلى النصرانية في أمريكا لكنهم لا يؤمنون بأن عيسى ابن الله!

أسوق كل هذا لأقول إننا يجب أن نعامل الناس بحسب الحقائق التي نعرفها عنهم، ولا نلزمهم باعتقادٍ ينكرونه مستدلين على ذلك بالقرآن الكريم. كيف أفعل مع إنسان يزعم أنه نصراني لكنه يصرح بأنه لا يعتقد بأن المسيح ابن الله؟ هل أقول له: ما دمت نصرانياً فلا بد أن تؤمن بأنه ابن الله؛ لأنه هكذا أخبرنا كتاب ربنا؟ في مقابل هذا إذا وجدت من يزعم أنه يهودي أو نصراني لكنه لا يؤمن بضرورة الذبح مثلاً فلن آكل طعامه؛ لأن طعامه إنما أحل لنا بسبب أنهم يذبحون. أما الذي نعلم أنه لا يذبح فطعامه حرام حتى لو كان مسلماً؛ فكيف إذا كان يهودياً أو نصرانياً؟ وبمثل هذا السبب لم يعامِل المسلمون نصارى بني تغلب معاملة النصارى؛ لأنهم كما قال عنهم أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ : «لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر»[٢].

---

(١) الجواب الصحيح، ج ٢، ص ٢٩٥.

(٢) تفسير الطبري.

نعم إذا وجدت فرداً أو جماعة من اليهود أو النصارى يتصفون بمثل صفات اليهود والنصارى الذين قال الله ـ تعالى ـ عنهم إنهم لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم، أو أنهم شديدو العدواة لنا، فلن أصدق إنكارهم لهذا؛ لأن هذه حالات قلبية يمكن أن يكونوا فيها كاذبين؛ بل لا بد أن يكونوا كاذبين إذا كان حالهم الظاهري يشبه حال الذين تحدث عنهم القرآن الكريم.

إذا أردنا أن نعامل غيرنا معاملة منصفة، والمعاملة المنصفة هي دائماً في مصلحتنا، فلا بد لنا من معرفة مثل هذه الحقائق وتذكرها والالتزام بها في معاملتنا لهم ولا سيما في القضايا الكبيرة مثل قضية فلسطين. إن بعض اليهود ـ وإن كانوا قلة ـ هم معنا في عداوتهم للحركة الصهيونية، بل وفي إنكارهم لقيام دولة إسرائيل؛ فهل من الإنصاف لهم، وهل من مصلحتنا أن نقول لهم إننا لا نفرق بين يهودي وصهيوني في حربهم لنا؟ إن من الأمريكان ومن الأوروبيين من يهودهم ونصاراهم ومشركيهم من هم مع الحق الفلسطيني وضد الاعتداء الصهيوني، وهم لا يستخفون باعتقادهم هذا، بل يستعلنون به كلاماً وكتابة ومواقف عملية. أفليس من حقهم علينا أن نشكرهم على هذا، بل ونكافئهم إن استطعنا؟ ثم أليس من مصلحتنا أن تنشق صفوف المعتدين ويكثر عدد المنصفين؟ كيف إذا سمع أمثال هؤلاء أن بعض المتدينين منا هم الذين لا يقدرون لهم هذا المعروف، وهم الذين لا يميزون بين معتد ومنكر للاعتداء ومحايد لا هو معنا ولا ضدنا. أليس في هذا فتنة لهم؟ ما هكذا كان يفعل رسولنا الكريم ﷺ. ألم يقل يوم بدر عن أسارى المشركين: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له» كان سيفعل هذا مكافأة له؛ لأنه كما قال الحافظ ابن حجر: «كان من أشد من

قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصروهم في الشِّعْب»[1].

إن الذي ينبغي أن نتذكره نحن ـ المسلمين ـ أن ديننا يخبرنا بأن كل إنسان يولد حين يولد على الفطرة، وأن الشر الذي يتلبسه طارئ عليه. والشر الطارئ يختلف قوة وضعفاً من إنسان لإنسان. وقلَّ أن تجد إنساناً فقد كل الخير الذي فطره الله عليه، فعاد لا يرى المعروف إلا منكراً والمنكر إلا معروفاً. كلاَّ؛ فعامة الناس فيهم شيء من نبض الفطرة؛ ولذلك يُسْلِمُ بعضهم حين تتبين له الحقيقة. ولذلك تجد فيهم الكريم والمنصف والشجاع في قول الحق. فعلينا أن نستثمر هذه الصفـــات الحسنة في الناس ونجازيهم عليها؛ فذلك خير لنا، وهـو من سنة نبينا ﷺ.

(١) الفتح، ج ٧، ص ٣٢٥.

الاعتبار بمآلات معاصي الكفار

(البيان ١٧٧ - جمادى الأولى ١٤٢٣هـ - يوليو - أغسطس ٢٠٠٢م)

خلق الله الإنسان روحاً وجسداً، ذكراً وأنثى، فرداً وجماعة. وكما جعل لجسده تركيباً معيناً ذا خصائص معينة لا يصلح لها إلا نوع خاص من الطعام والشراب والهواء ودرجات الحرارة وغير ذلك، جعل لروحه أيضاً تركيباً خاصاً لا يصلح له إلا نوع معين من المعتقدات والأحوال والأقوال والأعمال. ثم جعل بين الجسد والروح علاقة تبادل وتكامل، وكذلك بين الذكر والأنثى والفرد والجماعة. ثم جعل بين كل هذه الصور الإنسانية علاقات، ثم جعل بينها وبين عالم الملائكة والجن والطبيعة علاقات معينة لا يعلمها على حقيقتها وبكل تفاصيلها إلا هو - سبحانه -: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٢٣٢].

فالله يخبرنا أن بعض أعمالنا تؤثر في الطبيعة: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ [**الروم**: ٤١]، والفساد المقصود هنا هو الفساد الطبيعي المادي لا الفساد الخلقي، بل هو ناتج عن الفساد الخلقي المشار إليه بقوله - تعالى -: ﴿**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ [**الروم**: ٤١]. ولأعمالنا تأثير على الملائكة لأنها - كما يخبرنا الرسول ﷺ -: «إن

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[1] ولأنها لا تدخل بيتاً فيه صورة كما يخبرنا الرسول ﷺ أيضاً. ولأعمالنا أيضاً تأثير على الجن، ولأعمال الأفراد منا تأثير على المجتمع؛ ولذلك حرم الله أشياء مثل السرقة والظلم والبغي. ولتصرفات الرجال تأثير على النساء كما لتصرفات النساء تأثير على الرجال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»[2].

ثم أرسل رسله بشرع يحقق للناس مصالحهم الروحية والجسدية، الدنيوية والأخروية؛ لأنه شرع قائم على علم المشرِّع الخالق ـ سبحانه ـ علماً محيطاً بكل تلك الخصائص والعلاقات، وما يصلح لها وما لا يصلح من تصرفات الناس الاختيارية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. والذين يستمسكون بشرع الله تعالى ـ وإن لم يعلموا تفاصيل الأسس التي بناها الله تعالى عليها ـ يجدون في تجربتهم مصداق ما وعد الله به من الآثار الحميدة لهذا الشرع في حياتهم، حتى إن قائلهم ليقول: لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وكما يعرف المؤمن بتجربته الآثار الطيبة للطاعة فإنه يعرف بتجربته أيضاً كثيراً من الآثار السيئة للمعاصي التي لا يبرأ منها أحد، وإن اختلفوا فيما يقترفون منها صغراً وكبراً، كيف و «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[3].

لكن الآثار العظيمة للمعاصي كبيرها وصغيرها إنما تظهر في المجتمعات الكافرة الغافلة غفلة كاملة عن شرع الله عقيدة وعبادة وخلقاً وسلوكاً وحياة اجتماعية وسياسية واقتصادية. وكلما كثرت المعاصي وكلما طال أمد مقارفتها والجهر بها واعتيادها كان

---

(١) أخرجه مسلم، رقم ٨٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي، رقم ١٠٩١.

(٣) أخرجه الترمذي، رقم ٢٤٢٣.

ظهور آثارها السيئة أكبر وأبين. وإنه لمما يزيد إيمان المؤمن بصدق الرسالة النبوية وتحقيقها للمصالح البشرية أن يرى هذه الآثار السيئة لمخالفتها.

إن الاعتبار بالواقع طبيعياً كان أم اجتماعياً منهج إسلامي أصيل ترشد إليه كثير من نصوص الكتاب والسنة في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [**الأنعام**: ١١]، ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [**النمل**: ٦٩]. وذلك أن المصالح التي وضعت الشريعة لتحقيقها والمفاسد التي وضعت للتحذير منها ما هو أمر ظاهر يمكن مشاهدته، ويسهل لذلك الاعتبار به. ولذلك ندب الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين إلى الاعتبار بأحوال الكفار ومصائرهم.

ونحن نعيش في عصر عمت فيه بلوى البعد عن شرع الله في مجتمعات كاملة كالمجتمعات الغربية؛ لذلك أرى أنه من واجبنا وخدمة لديننا وتحقيقاً لمصالحنا أن نُعنى بمآلات معاصيهم وندرسها ونتدبرها وننشرها بين الناس مسلمين وغير مسلمين، بل أن نجعل هذا الاعتبار بتجارب الغربيين الكفار علماً قائماً بذاته نحشد له جهودنا جمعاً لمواده وتصنيفاً، وتفسيراً علمياً لها، ودعوة إلى الاتعاظ والاعتبار بها. ونحن لا نحتاج لتحقيق ذلك أن نقوم بإجراء بحوث ميدانية في المجتمعات الغربية؛ فقد كفونا هم مؤونة ذلك. فمن حسنات منهجهم العلمي في مجال الدراسات الاجتماعية أنهم يبحثون في الآثار المترتبة على أعمالهم، ويحاول علماؤهم أن يكونوا في ذلك محايدين لا تصدهم آراؤهم الشخصية عن نشر نتائج ما وصلوا إليه من دراسة وتجارب. فحياة الغربيين التي يمارَس فيها ما حرم الله ـ تعالى ـ ينبغي أن تكون بالنسبة لنا ـ كما ذكرت في مناسبة سابقة ـ كالتجربة التي يسميها العلماء الطبيعيون التجربة الحاكمة (control experiment).

ما أكثر المادة العلمية المتعلقة بتأثير المعاصي على حياة الغربيين، معاصي الزنا والشذوذ وشرب الخمر وتعاطي المخدرات واختلاط الرجال بالنساء والسفور، بل وحتى تولي المرأة لعمل الرجال، وتولي الرجال لأعمال النساء.

ولكي يفي هذا العلم المقترح بشروط العلم فينبغي أن يكون اعتماده على الحقائق التي اكتشفها الغربيون بالوسائل العلمية، وأن توثق هذه الحقائق بذكر مراجعها، وأن لا يخلط بينها وبين الآراء التي يعبر عنها بعض الغربيين لمجرد أنها موافقة لديننا؛ لأن الرأي ليس له سلطان الحقيقة العلمية. والحقائق العلمية التي أعنيها تشمل كل أنواع العلوم الطبيعية والاجتماعية والنفسية. ولذلك فإنه لا بد من أن تتضافر على جمعها جهود كل المختصين أو المهتمين بهذه العلوم. وهذا يقتضي أن يكون هنالك مركز ترسل إليه هذه الحقائق لجمعها وتصنيفها ثم نشرها. ولما كانت هذه الاكتشافات مستمرة فلا بد أن يكون جمعها وتصنيفها ونشرها أيضاً مستمراً. ولهذا ربما كان الأنسب لنشرها هو المجلات، أو الكتيبات الشهرية.

قد يثير هذا الاقتراح سؤالين:

أولهما: إن ما تدعو إليه ليس بالأمر الجديد؛ فما أكثر ما كتب الإسلاميون في مقالاتهم وكتبهم عن الآثار التي ترتبت على ما شاع في البلاد الغربية من معاص وانحرافات. ونقول هذا صحيح. وقد كنت أنا نفسي لخصت لمجلة البيان كتاباً لفوكوياما: (الانفراط أو التفكك الحاصل في المجتمعات الغربية) وعزوه أسباب ذلك إلى تفكك الأسرة الذي كان بدوره ناتجاً عن تفشي العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية. وقد كتب صديقنا أستاذ علم النفس الدكتور مالك بدري كتاباً كاملاً عن العلاقة بين مرض الإيدز والقيم

المصاحبة للحداثة. لكن الذي ندعو إليه هو أن يولى هذا الأمر عناية أكبر، وأن يشارك في جمع معلوماته عدد أكبر، وأن يوضع له منهج وضوابط تجعل منه علماً معترفاً به.

وثاني السؤالين هو: لماذا يُحصَر هذا العلم في ممارسات الدول الغربية؛ مع أن الواقع هو أن كثيراً من تلك الممارسات شاعت في العالم كله بما فيه العالم الإسلامي؟ ونقول أيضاً: إن هذا صحيح؛ لكن الغرب كان أسبق إليها، وقد داوم عليها لمدة أطول، وصار يستعلن بها، ويدافع عنها، ويدعو إليها، بل يحاول ـ عن طريق الأمم المتحدة ـ أن يفرضها على بقية شعوب العالم. ولكن مع هذا لا بأس من تعزيز النتائج التي حدثت في الغرب بمثيلات لها في بقية بلدان العالم.

الحرية والعبودية

(البيان ١٨٣ ـ ذو القعدة ١٤٢٢هـ ـ يناير ٢٠٠٢م)

الفكر الغربي الشائع اليوم فكر إلحادي؛ لأنه كان في أصله رد فعل على الكنيسة ثم على الدين؛ فكان لذلك محاولة لإيجاد أسس فلسفية غير دينية يستند إليها الفكر العلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي وغير ذلك. وكونه كذلك لا يعني أن كل ما فيه من تفاصيل باطلة، لكنه يعني أنه يستند في مجمله على أساس واهٍ.

لكننا كثيراً ما نأخذ هذا الفكر معزولاً عن بيئته تلك الفكرية الإلحادية، فنعده فكراً إنسانياً صالحاً لكل زمان ومكان، بل كثيراً ما ندعي لذلك أن ديننا يقول به أو أنه ـ على الأقل ـ لا يعارضه، وويل لمن يقول غير ذلك من أمثالي. أضرب في هذا المقال مثلاً بمفهوم واحد هو مفهوم الحرية الذي يكاد أن يكون أمراً مسلَّماً به عند جيمع الناس في عصرنا، فأقول:

إن الحر حرية كاملة هو الذي لا قيود على تصرفه ألبتة ـ هو الذي يفعل كل ما يريد. لكن الفعل يحتاج إلى علم وإلى إرادة وقدرة. فالحر حرية كاملة يجب أن يكون ذا علم كامل وقدرة كاملة وإرادة نافذة. ولا يمكن أن يكون للفاعل علم كامل وقدرة كاملة

وإرادة نافذة إلا إذا كان مستغنياً عن غيره استغناء كاملاً لا يحتاج إلى أن يتعلم منه شيئاً، ولا أن يكتسب منه مقدرة؛ لأن الحاجة إلى علم الغير أو مقدرته قيد يتنافى مع كمال الحرية.

فما يقوله المدافعون عن الديمقراطية من أن الإنسان لا يكون حراً إذا هو أطاع قانوناً ليس من صنعه كلام صحيح. لكنهم معترفون بأن الإنسان لا بد له من أن يعيش في جماعة، وأن العيش في الجماعة يتطلب وجود سلطة تأمر وتنهى وتعاقب، وأن القوانين التي بمقتضاها تفعل هذا لا يمكن أن تكون كلها من صنع كل الأفراد الذين يكوِّنون المجتمع، وأن مشاركة الأفراد وإن كانت في النظام الديمقراطي أكثر منها في غيره، إلا أن صنع القوانين حتى في هذا النظام هو في النهاية من صنع قلة من أفراد المجتمع متمثلة في أعضاء المجالس التشريعية. وعليه فإذا كانت المشاركة في وضع القوانين هي معيار الحرية؛ فإن الناس ليسوا أحراراً إلا بقدر يسير حتى في الديمقراطية. بل نقول إنه حتى صنع القوانين ليس ضماناً للحرية حتى لو كان الفرد يتصرف كيف شاء. لماذا؟ لأنه قد يُتبِع نفسه هواها، فيفعل كل ما تأمره وتريده شهواته من إسراف في الأكل، وشرب للخمر، وتعاط للمخدرات، وارتكاب للفواحش، وهكذا. مثل هذا الإنسان ـ ومثله اليوم كثير في الغرب ـ ليس حراً. نعم إنه ليس عبداً لبشر مثله! ولكنه عبد لهواه.

ما المخرج إذن من هذه العبودية؟

لا أمل للإنسان في حرية مثل تلك التي تريدها الفلسفات الغربيـة؛ وذلك أن كل النـاس ـ بما فيهـم منكـرو وجـود الخالـق ـ سبحانه ـ مقرون بأن الإنسان ليس هو الذي أوجد نفسه، ولا هو الذي يبقيها، وأن علمه مكتسب، وهو علم ناقص، وأنه يعتمد في

استمرار حياته على ظروف لا قِبَل له بالسيطرة عليها. فالضياء يأتيه من الشمس، والماء من المطر، والزرع من الأرض، وهكذا. فأنى يكون حراً؟ وأنى يكون مستقلاً بقراره؟

والمؤمنون بوجود الخالق مقرُّون بأن الله هو وحده ذو العلم الكامل، والقدرة الكاملة، والاستغناء الكامل، فهو وحده الفعال لما يريد. أما الإنسان فهو مخلوق، وبما أنه مخلوق فهو مملوك لخالقه، والمملوك عبد. فالصفة التي تدل على حقيقة الإنسان هي كونه عبداً لا حراً، لكنه عبد لخالقه لا لمخلوقات مثله. وعبوديته لخالقه تتمثل في كونه ـ شاء أم أبى ـ محكوماً في كل تصرفاته بمشيئة خالقه. نعم إن للإنسان مشيئة! ونعم إن له قدرة! لكن خالقه هو الذي شاء أن يجعله شائياً، وهو الذي شاء أن يجعل له قدرة. فمشيئته ليست مطلقة، بل هي مقيدة بمشيئة خالقه. فإذا كان الخالق فعالاً لما يريد، فإن الإنسان يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد.

لكن الخالق الذي جعل لخلقه قوانين كونية قهرية لا اختيار لهم في طاعتها، قد جعل للبشر قوانين شرعية لا تتم سعادتهم الدنيوية والأخروية إلا بها، لكنه جعلها قوانين اختيارية من شاء منهم أن يلتزم بها فعل، ومن لم يشأ لم يفعل. إذا فعل كان عبداً لله باختياره كما هو عبد له باضطراره. وإذا لم يفعل كان عبداً لهوى نفسه أو هوى غيره من البشر. فالوسيلة الوحيدة لتحقيق ما يريده دعاة الديمقراطية ـ أعني التحرر من العبودية للبشر ـ لا تكون ـ كما رأينا ـ بأن يسن كل فرد لنفسه ما شاء من قوانين. إنها لا تكون إلا بإخلاص العبودية لله بطاعة ما شرع في كل مجالات الحياة. لا مجال إذن للتخلص من العبودية للبشر إلا بالعبودية لخالق البشر. فالإنسان ليس إذن مخيراً بأن يكون حراً أو يكون عبداً، بل هو مخير بين عبوديتين.

ولهذا كانت الدعوة إلى أن تكون للإنسان حرية التشريع مرتبطة دائماً بالدعوة إلى التمرد على شرع الله؛ لأنها في حقيقتها دعوة إلى أن يكون المخلوق العبد المملوك ـ فرداً أو جماعة ـ إلهاً مشرعاً لنفسه أو لغيره. وكان الرد الإلهي دائماً أن الإنسان المخلوق ليس من حقه أن يضع من القوانين ما شاء فيحل ويحرم ويأمر وينهى، حتى لو كانت القوانين خاصة بشخصه، وأن الخالق هو الذي من حقه ـ حقاً لا ينازعه فيه غيره ـ أن يشرع وأن يطاع.

المتخذون من دون الله آلهة من الأهواء يقولون: ﴿ **أَصلاتُك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** ﴾ [**هود** : ٨٧].

﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [**غافر** : ٢٩].

لكن الرب الخالق يقول: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ [**الأنعام** : ٩١].

﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ [**القيامة** : ٣٦].

(يترك سدى أي يُهمَل فلا يؤمر ولا يُنهى ولا يُبعث ولا يُحاسَب).

ويقول: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾ [**يونس** : ٥٩] .

ولكن بما أن للإنسان إرادة مهما كانت محدودة، وبما أن له قدرة مهما كانت أيضاً محدودة، فإن له حرية في حدود قدرته وإرادته. لكنه قد يفقد قدراً من هذه الحرية العادية المحدودة حين يُستَرَقُّ فيكون عبداً يملكه ويبيعه ويشتريه بشر مثله. فإذا ما أُعتق قلنا

إنــه قــد صار حــراً، أي رجع إلى الحريـة المعتادة التي وهبها الله ـ تعالى ـ لكل الناس. وقد يحبس ويعتقل فتحد من حريته؛ فإذا ما خرج من الحبس قلنا إنه قد أطلق سراحه. وقد تتسلط أمة على أمة أخرى فتحكمها، فإذا ما تخلصت منها قلنا إنها قد نالت حريتها، وقد يتسلط حاكم ظالم على أمة فيفرض عليها أحكاماً بهواه كما كان فرعون يقول لشعبه: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. وقد يمنعهم من بعض ما أباح الله أو أوجب من الكلام والحركة والاجتماع، فإذا ما تخلصوا منه قلنا إنهم صاروا أحراراً. لكن أسوأ أنواع العبودية أن يكون الإنسان باختياره عبداً لمخلوق مثله، عبداً له يدعوه ويرجوه ويتوكل عليه ويستغيث به، أو يرضى له بحق التشريع والطاعة فيجعله في مقام المولى سبحانه. ولا فرق في هذا بين أن يكون الحكم دكتاتورية أو وصائية أو ديمقراطية ما دام حكمَ بشر مخالفاً لحكم الله تعالى. بل إن الإنسان لَيكون عبداً حتى لو كان هو المشرع لنفسه؛ لأنه يكون حينئذ متبعاً لهواه متخذاً إياه إلهاً ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾ [**الجاثية**: ٢٣]، وذلك أنه إما أن يكون الإنسان عبداً لله أو عبداً لهواه ولا واسطة بين الأمرين ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [**القصص**: ٥٠]. وعليه فلا سبيل إلى التحرر من العبودية للبشر إلا بإخلاص العبودية لخالق البشر.

فالقول بأن الإنسان حر أو أنه ينبغي أن يكون حراً ـ بالمعنى الغربي الشائع ـ كلام يكذبه الواقع، ثم إنه مخالف للإيمان بأن الإنسان عبد لله يأتمر بأوامره، وقد أدرك هذا بعض الكتاب النصارى، منهم كاتبهم الإنجليزي المشهور لويس الذي قال كلاماً فحواه: إنني لم أولد لأكون حراً، وإنما ولدت لأسمع وأطيع.

هل نداوي بالتي كانت هي الداء؟

(البيان ١٨٤ ـ ذو الحجة ١٤٢٣هـ ـ فبراير ٢٠٠٣م)

في خطابه الأخير عن مشروع العلاقات الجديدة بين الولايات المتحدة والعالم العربي ذكر وزير الخارجية الأمريكي حقائق عن وضع العالم العربي الاقتصادي والتقني كان كثير من المثقفين العرب يعرفونها، ويندى جبينهم لها حين يسمعونها.

فنقول: إذن إن معظم ما ذكره وزير الخارجية في هذا الجانب هو حقائق نحن معترفون بها، ولا مجال لإنكارها.

ونقول ثانياً: إنه مهما كانت لهذا التخلف المزري من أسباب خارجية فإننا نحن المسؤولون أولاً عن أسبابه الداخلية.

لكننا نقول ثالثاً: إن علاجها ليس في ما اقترحه علينا باول، بل إن في ما اقترحه ما يزيد طينتنا بلَّة، بل هو نذير شؤم يذكِّرنا بالمنطق الذي استعملته الحضارة الغربية لاستعمار بلدان العالم. لقد كانوا يسوِّغون غزوهم واحتلالهم وتسخيرهم للشعوب بأنه إنقاذ لها من وهدة التخلف وسوقهم قسراً إلى يفاع التحضر. أليس هذا هو الذي تعنيه كلمة الاستعمار في أصلها اللغوي؟

لقد ظل الغربيون كُتَّاباً وساسة يدندنون حول فكرة سخيفة باطلة هي أنه لن تتقدم أمة تقدمهم المادي إلا إذا سلكت طريقهم الراهن حذو القُذة بالقُذة. أي إلا إذا صار نظامها السياسي مثل نظامهم، وموقفها من دينها مثل موقفهم من دينهم يحرفونه كما شاؤوا، ويخضعونه لأهواء عصرهم، ويفصلون بينه وبين دولتهم، وإلا إذا صارت حياتهم الجنسية مثل حياتهم اختلاطاً بغير ضابط بين الرجال والنساء، وإباحة لكل علاقة جنسية بين كل بالغين متراضيين رجلين كانا أو امرأتين أو رجل وامرأة، بل إلا إذا كانوا مع ذلك موالين للغرب خاضعين له خادمين لمصالحه.

ونحن نعلم من كتاب ربنا ومن تجارب عصرنا والعصور التي سبقتنا أن كل هذه أباطيل لا علاقة لها بالتقدم المادي.

الديمقراطية مهما كان فيها من حسنات ليست بشرط ضروري للتقدم الاقتصادي والعلمي والتقني. فهذا الاتحاد السوفييتي كان قد تقدم مثل هذا التقدم، بل كان سابقاً للغرب الديمقراطي في بعض المجالات رغم شنيع دكتاتوريته، وها هي الصين، وها هي كوريا الشمالية تتقدمان في هذه المجالات تقدماً يزعج الغرب أيما إزعاج.

وحياة الإباحية التي نُدعَى إليها الآن ليست من أسباب تقدم الأمم بل من أسباب هلاكها. لقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة العصر حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي، وكانت سابقة في كل مجال من مجالات العلم والتقنية كما يعترف بذلك الغربيون ولم تكن تبيح ما نُدعى الآن إلى إباحته. والحضارة الغربية نفسها لم تكن في بداية تقدمها المادي والعلمي تبيح ما تبيحه الآن؛ فلم تكن هذه الإباحية من أسباب تقدمها، بل هي من علامات تدهورها كما يعترف بذلك كثير من عقلائها.

وفصل الدين عن الدولة ليس شرطاً في هذا التقدم كما يشهد بذلك تاريخ الحضارة الإسلامية التي كان الدين جوهرها وكان السبب الأساس لقوتها. نعم! إن الدين يكون عائقاً حين يكون ديناً يحول دون الأخذ بالأسباب الموضوعية للتقدم المادي. وكما يكون الدين عائقاً يمكن أن يكون غيره من الأفكار والمعتقدات عائقاً أيضاً.

ولكن إذا لم يكن الدين الحق عائقاً فهو أيضاً ليس شرطاً ضرورياً للتقدم المادي! ولو كان الأمر كذلك لما تقدمت مثل هذا التقدم دولة كافرة. لكننا نشاهد في واقعنا، ونعرف من تاريخ عالمنا، ونقرأ في كتاب ربنا ما يدلنا على غير ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾

[الفجر: ٦ – ١٠].

بل إن العدل ليس شرطاً في مثل هذا التقدم؛ فالحضارة الفرعونية ازدهرت بتسخيرها لبني إسرائيل حتى أنقذهم منها نبي الله موسى عليه السلام.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٤٧].

والدول الأوروبية استعانت على تقدمها المادي باستعمار الشعوب واستغلال خيراتها، والولايات المتحدة استعانت على ذلك باصطياد البشر من أفريقيا واستعبادهم وتسخيرهم.

وما يقال عن الديمقراطية يقال عن حرية التعبير، وإنصاف المرأة. إن كل هذه وغيرها أمور حسنة في نفسها ومساعدة على الحياة الطيبة لكنها ليست شرطاً في الازدهار المادي كما يشهد بذلك تاريخ الدول الغربية نفسها. لقد بدأت ثورتها الصناعية ولم تكن

تعطي المرأة ما تعدُّه الآن من حقوق لها لازمة للتقدم وللحداثة؛ فلم يكن لها حتى حق الانتخاب.

إن للتقدم المادي ـ كما لكل أمر حسي ـ أسباباً من أخذ بها آتته أُكُلَها براً كان أو فاجراً، عادلاً كان أم ظالماً. فمن أكل الطعام المناسب شبع حتى لو كان طعامه مسروقاً، ومن جامع امرأة قد ينجب حتى لو كان جماعاً سفاحاً، ومن زرع فقد يحصد حتى لو كان في أرض مغصوبة. إن الله ـ تعالى ـ لم يجعل الاستقامة شرطاً في التمتع بخيرات الدنيا:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [**البقرة**: ١٢٦].

أراد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يحصر الرزق بثمرات البلد الحرام في المؤمنين؛ لكن الله ـ تعالى ـ أخبره أنه ينعم بها حتى على الكافرين؛ ثم يذيقهم العذاب الأليم؛ ويؤكد هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [**الأعراف**: ٣٢].

فالطيبات من الرزق هي للمؤمن والكافر في هذه الحياة الدنيا، ولا تكون خالصة ممحضة للمؤمنين إلا في الدار الآخرة.

قلت: إن للتقدم المادي أسباباً، وأقول: إن من أول ما يذكر من هذه الأسباب الاستقرار السياسي؛ فإذا لم تكن الأمة مجتمعة، ولم تكن مستقرة فأنى لها أن تنجح في إقامة مشروعات تعليمية واقتصادية طويلة المدى؟ والعالم العربي لم يذق طعم الاستقرار

السياسي إلا في فترات متباعدة هنا وهناك. وكان من أهم أسباب ذلك أن كثيراً من أبناء الطبقة المثقفة المؤهلة للحكم فيه كانت طبقة قد ابتعدت عن دينها وتقمصت قيم الحضارة الغربية، وظنت كما ظن أصحاب تلك الحضارة أن التقدم لا يكون إلا بتقليد الغرب، فراحوا يقلدونه ـ بل ويفرضون على الأمة تقليده ـ في فكره العلماني، وفي عاداته وتقاليده الاجتماعية، وجعلوا هذا وما يزالون يجعلونه رسالتهم الكبرى التي يصالحون عليها ويعادون. وكان ممن عادوا إخوانهم المستمسكين بدينهم الذين يرون ـ على العكس منهم ـ أن نهضتنا لا تكون إلا على أساس من ديننا. بهذا انقسم المجتمع وفقد الاستقرار السياسي اللازم للتطور المادي. فالعلمانيون كانوا إذن هم سبب تمزق العالم العربي، ومن ثم سبب تخلفه المادي. وكان الغرب وراءهم وعوناً لهم بدعايته وماله وقوته في كل ما يدعون إليه. واليوم تريد أمريكا أن تعاد المعركة بين الفريقين، وبشكل أشرس؛ إذ المطلوب من العلمانيين هذه المرة ليس فصل الإسلام عن الدولة فحسب، بل إعادة تفسيره بحيث يكون متناسباً مع الفكر الغربي، والمصالح الغربية. أليس هذا علاجاً بالتي كانت هي الداء؟

وإذا كان الاستقرار السياسي شرطاً ضرورياً لنيل القوة المادية فإنه ليس بالشرط الكافي، بل لا بد أن تتحقق معه شروط أخرى. لا بد للأمة التي تريد أن تخطو في طريق هذا التقدم المادي أن تعرف معالم هذا الطريق فلا تؤفَك عنه بمظاهر كاذبة لا علاقة لها به. وقد كان من أسباب تقدم الاتحاد السوفييتي إدراكه لهذه الحقيقة. عرف ـ في ضوء معتقداته ـ ماذا يأخذ من الغرب الرأسمالي وماذا يدع. كان يركز على ترجمة العلوم، وعلى تبادل التقنيات، وكان يبتعد كل البعد عن آداب الغرب الرأسمالي وفلسفاته ونظرياته السياسية والاقتصادية وفنونه وأفلامه ومسارحه وموسيقاه وأنواع رقصه. أذكر أننا

زرنا دولة تشيكوسلوفاكيا ونحن طلاب بجامعة الخرطوم فوجدنا بعض الناس هنالك مستعدين لأن يعطوك ما شئت من مبالغ مقابل أسطوانة فيها موسيقى الروك آند رول التي كانت ذائعة الصيت آنذاك. لكن كل هذا الذي كان ممنوعاً في البلاد الشيوعية كان متوفراً في بلادنا ولم يساعد على تقدمنا.

قلت: إن الدين ليس بشرط في التقدم المادي، لكنني أبادر فأقول: إنه وإن لم يكن شرطاً ضرورياً إلا أنه ـ بلا ريب ـ شرط كاف. أعني أن الأمة قد تكون قوية وإن لم تكن على دين صحيح، لكنها تكون حتماً قوية ومنتصرة إذا كانت على دين صحيح.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وأبادر فأقول ثانياً: إن الدين إذا لم يكن شرطاً ضرورياً في نيل القوة المادية فإنه شرط ضروري لبقائها ودوامها. فالنعمة لا تدوم على مجتمع كافر إذا هو لم يرجع إلى الحق. فإرمُ لم ينفعها عمادها، وثمودُ لم ينفعها جَوْبها الصخر بالواد، وفرعون لم تنفعه أوتاده؛ حين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، بل صب عليهم ربك سوط عذاب، وهو ـ سبحانه ـ صابه على كل أمة ترتكب ما ارتكبوا.

والنعمة لا تدوم حتى لمجتمع مسلم إذا هو استحدث نوعاً من الجحود، بل إن سلبها منه يكون بقدر جحوده. وهذا يعني أن الله ـ تعالى ـ قد يعطي مجتمعاً كافراً لم يمتحن من أسباب القوة المادية ما لا يعطي مجتمعاً مسلماً امتُحن فسقط سقوطاً كاملاً بالنكوص إلى الكفر، أو سقوطاً جزئياً بترك بعض ما يعلم أن الله افترض عليه.

ولكن حتى حين يعطي الله ـ تعالى ـ المجتمع الكافر ـ بل والفرد الكافر ـ من النعم المادية ما يعطيه، فإنه يحرمه من كمال الاستمتاع بها؛ لأن كمال الاستمتاع بها لا يتأتى إلا مع شكر المنعم بها. وأما بغير هذا الشكر فهي قمينة بأن تصاحبها منغصات لا يطيب العيش معها.

وعليه: فإذا أردنا أن نحقق لمجتمعاتنا تقدماً اقتصادياً وعلمياً وتقنياً، فلنكن صفاً واحداً يجمعه الاستمساك بالدين الحق، ثم بكل ما في تراثنا وتجاربنا وتجارب غيرنا من حق. وإذا كنا صفاً واحداً متماسكاً فلن يعجزنا التواصي على نظام سياسي يحقق لنا الاستقرار؛ وإذا ما تحقق الاستقرار، فآنذاك نبدأ في الأخذ بالأسباب التي تحقق القوة والأسباب التي تديمها. لا بد من الأمرين معاً. إن التقدم الحق لا يقوم إلا على هذين الجناحين.

وما أقوله ليس دعوة إلى البداية من الصفر؛ فقد سارت كثير من دولنا رغم العقبات في هذا الطريق؛ فنحن إنما نؤكد هنا ضرورة السير في الطريق الصحيح، وندعم السائرين فيه، وندعو غيرهم إلى سلوك طريقهم.

سياسة التناقضات المستعلنة

(البيان ١٨٦ ـ صفر ١٤٢٤هـ ـ إبريل ٢٠٠٢م)

ما جريمة العراق التي ستعاقبه عليها الولايات المتحدة بحرب ربما أزهقت آلاف النفوس من العراقيين، وشردت آلافاً أخرى، وأعاقت آلافاً غيرها، وخربت البلاد، وكلفت الولايات المتحدة بلايين الدولارات، وذهب ضحيتها العشرات إن لم تكن الآلاف من الجنود الأمريكان، ثم ربما كان من آثارها تلويث للأجواء يتضرر منه البشر من كان منهم قريباً من العراق ومن كان قاصياً عنه؟

ما الجريمة التي تستدعي هذا العقاب البالغ التكاليف؟ إنها تهمة امتلاكه لما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. العراق ينفي هذه التهمة. لكن الدولة التي تريد أن تخوض تلك الحرب الضروس تملك من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي كما يقولون لتحطيم الكرة الأرضية كلها.

وحليفتها في تلك الحرب ـ بريطانيا ـ تملك منها الشيء الكثير، ومحرضتها على الحرب ـ إسرائيل ـ تملك عدداً من القنابل النووية؛ فما الذي جعل امتلاكهم لها حلالاً وللعراق وغيرها من الدول العربية حراماً وإجراماً؟

وإذا كانت العراق تنفي امتلاكها لمثل تلك الأسلحة، فإن دولاً أخرى وصفت بأنها من محور الشر تعترف بأنها تملكها، بل وأنها ستطورها. وإذا كانت العراق قد سمحت لمفتشي الأمم المتحدة بدخول أراضيها، وولوج كل مرفق فيها، فإن كوريا الشمالية قد طردتهم شر طردة، وأعلنت ذلك على الملأ؛ فما الذي جعل العراق خطراً داهماً ولم يجعل كوريا كذلك؟

وإذا كانت جريمة العراق أنها لم تنصع لقرارات الأمم المتحدة، فإن الدولة التي تريد معاقبتها على ذلك تقدم قرارات مجالسها التشريعية على كل قرارات الهيئات الدولية، وتحول دون معاقبة إسرائيل حين تخرج على تلك القرارات. بل إن الدولة التي تريد معاقبة العراق على عدم انصياعها لأوامر الأمم المتحدة، تعلن أنها ستخوض حربها مع العراق رضيت الأمم المتحدة أم غضبت. والمسؤولون فيها يتكلمون عن الأمم المتحدة بكثير من التعالي، ويأمرونها بأن تفعل كذا وكذا، وإلا كانت قد فشلت في أداء مهمتها؛ حتى إنك لا تدري: أعن الأمم المتحدة يتحدثون، أم عن مدرسة ثانوية في قرية من قراهم؟

وإذا كانت أسلحة الدمار الشامل أول ما تكون خطراً على الدول المجاورة لها، لا على بريطانيا وأمريكا التي تسعى لحربها وعقابها، والتي تبعد آلاف الأميال عنها، فإن هذه الدول المجاورة مجمعة على رفضها للحرب؛ فلماذا لا يستمع لرأيها؟

وإذا كان الغرض من الحرب هو تخليص الشعب العراقي من دكتاتورية غاشمة؛ فما دكتاتوريته بالدكتاتورية الوحيدة في العالم؛ فلماذا كانت هي الوحيدة التي تستحق أن تحارب؟



حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا حكومات ديمقراطية، والديمقراطية هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم من تختاره أغلبية من شاركوا في الانتخابات ممن تحق لهم المشاركة. لكن الذين يعترضون على الحرب الآن في كل من الدولتين هم ـ بحسب الاستطلاعات ـ أكثر عدداً من الذين صوَّتوا لكل من الزعيمين الأمريكي والبريطاني ومكنوهما من حكم بلادهم. لكن كلاً من الزعيمين الآن يضرب برأي هذه الأغلبية عرض الحائط، ويمضي لا يلوي على شيء في طريقه إلى الحرب. وكذلك تفعل الدول الديمقراطية المؤيدة للحرب؛ حتى إن مراسلاً لمحطة الـ (بي. بي. سي) قال إنه تجول في شوارع بلدان أوروبا الوسطى فالتقى بالكبار والصغار والرجال والنساء باحثاً عن شخص واحد مؤيد للحرب فلم يجده! بل وجد الناس معارضين للحرب قائلين إنها حرب من أجل البترول. لكن حكومات هذه الشعوب كانت من أول من أعلن تأييده للولايات المتحدة.

وأيضاً إذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب، فلماذا لا يُستَمَع إلى الشعوب العربية التي يهمها أمر العراق أكثر مما يهم غيرها؟ وقد قالت هذه الشعوب وقال حكامها إنهم لا يريدون الحرب، وأنهم يعدونها اعتداء، وأن آثارها ستكون ضارة ضرراً بليغاً بالمنطقة كلها. ولماذا لا يستمع إلى رأي الشعوب الأوروبية والأسترالية والنيوزيلندية وغيرها من شعوب العالم التي خرجت في مظاهرات تقدر بالملايين معترضة على خوض مغامرة الحرب، خائفة من نتائجها؟ أم أن الديمقراطية إنما يُلتزَم بها إذا كانت موافقة لمعتقدات الحاكم؛ فإذا هي خالفتها تحولت إلى دكتاتورية لا تلقي لآراء الشعوب بالاً مهما كثر عددهم، ومهما كان الأمر مهماً لهم؟

ومع هذا الخروج على مبدأ الديمقراطية تزعم لنا الدول التي توقد نار الحرب أنها إنما تفعل هذا لنشر الديمقراطية وتحقيق الحرية!

إن الباطل لجلج؛ وهذا التناقض يدل على أن الأهداف المعلنة لحرب العراق ما هي بالأهداف الحقيقية.

ما الذي يدعو الحكومات الغربية المصرة على الحرب للوقوع في مثل هذا التناقض؟ ما الذي يدعوها لأن تخالف رأي شعوبها وتخسر من كانوا يعدون من أصدقائها؟ ما الذي يدعوها لأن تصرف الأموال الباهظة وتضحي بالنفوس الغالية؟ إنه لا يمكن أن يكون مجرد حرص على إزاحة دكتاتور عن كرسي حكمه، ولا يمكن أن يكون هلعاً من أسلحة دمار شامل ـ على فرض وجودها ـ لا تأثير كبير لها على الدول الغربية. لا بد أن يكون إذن شيئاً تراه هذه الحكومات أمراً جللاً مهدداً لاستمرار ثقافتها وحضارتها الغربية، لكنه مع ذلك أمر لا تستطيع أن تصرح به؛ لأنه من الصعب عليها أن تقنع شعوبها به، ولأنه ربما كان منطلقاً من موقف اعتقادي لا تشاركها جماهيرها فيه، ولأنه يتناقض مع قيم طالما رُبِّيَ الناس في الغرب الحديث عليها، ولا سيما في أيام الحرب الباردة، لإظهار تفوق الحضارة الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية على الأيديولوجية الشيوعية. كيف تتخلى هذه الجماهير عن قيم قيل لها إنها لب حضارتها وسر تفوقها الخلقي؟

ما هذا الأمر الجلل الذي يدعو حكام الدول الغربية وبعض مناصريهم من قادة فكرهم إلى الخروج على هذه القيم التي عاشوا عليها سنين طويلة من حياتهم الحديثة التي أعقبت الحركة الاستعمارية؟

لا بد أن يكون الذي سبب كل هذا الخوف وسوغ تلك التناقضات والتضحيات أمراً لا تقاومه أو تقف في طريقه قوة السلاح المادي مهما عظمت. إنه أمر يُخشى أن يدخل في قلوب كثير من الأفراد فيجعل منهـــم أفـــراداً آخـــرين لا صلة لهم بالحضارة الغربية كما عرفت حتى الآن.

فما هو يا ترى هذا الشيء؟

أترك أمر تحديده لفطنة القراء الكرام.

يريدوننا غنماً.. هم رعاتها.. وهيهات

(البيان ١٨٧ ـ ربيع أول ١٤٢٤هـ ـ مايو ٢٠٠٣م)

«سنوفر لكم الطعام والشراب والدواء. ستنعمون بعائدات نفطكم. ستكونون أحراراً في بلادكم. ستكون هنالك ديمقراطية ... ...».

هذا الذي يبشر به أئمة الاحتلال شعب العراق، ومن ورائه كل شعب عربي وغير عربي يريدون تسخيره لما يسمونه بمصلحتهم الوطنية.

ما العيب ـ قد يقال ـ في أن ينعم الناس بالطعام والشراب والكساء والدواء؟ لا عيب إلا إذا كان هذا على حساب كرامتهم. وقديماً قال الشاعر في بيت عده بعضهم أهجى بيت في الشعر العربي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد؛ فإنك أنت الطاعم الكاسي

فأئمة البغي والاحتلال يريدون لشعب العراق ولكل شعب عربي أن يكون قطيعاً من الغنم يأكل ويشرب ويداوى؛ لكنه لا يحمل عصا ولا يصد عدواً. إنما الذي يحمل

العصا هو سيده؛ فبها يهش عليه ويسخِّره، وبها يحد له الحمى الذي لا يتجاوزه. في حدود هذا الحمى تتمتع الغنم بحرية الأكل والشرب والثغاء والنزو والتوالد. نعم! سيترك لها راعيها شيئاً من حليبها لترضع به أولادها وليصرف منه على طعامها وشرابها، وليأخذ سيدها النصيب الأكبر منه ليصرفه على طعامه هو وشرابه وسائر ملذاته، بل وسلاحه الذي به يسوقها ويستعبدها.

ربما صدق المحتلون في توفير ما وعدوا بتوفيره، وربما زادوا عليه فاستجلبوا للعراق كل ما في بلادهم من أنواع الملذات: أسواق كبرى يعرض فيها كل ما أنتجته مصانعهم، وشركات لكل أنواع السيارات وسائر المراكب، دور سينما، حانات ومراقص ونواد ليلية، قنوات لكل أنواع اللهو من أفلام قذرة وأغان خليعة ودعايات رخيصة وتسويق للفكر الغربي والحضارة الغربية. لكن الذي لن يفعلوه، والذي عدوه خطيئة صدام الكبرى هو أن تكون بلادهم قادرة على أن تتطور صناعياً ولا سيما في مجال الأسلحة. إنهم لا يريدون أن تخلو العراق ـ ويخلو كل بلد عربي وغير غربي ـ مما أسموه بأسلحة الدمار الشامل، بل إنهم لحريصون أن يخلو حتى من المقدرة على إنتاج السلاح مدمراً تدميراً شاملاً او غير شامل. ولكي يخلو من هذه المقدرة فلا بد أن يخلو من العلماء الذين يملكون هذه المقدرة. سيخلو العراق كما سترون من هؤلاء العلماء، ربما بقتل بعضهم أو سجنه، ولكن يقيناً بإغراء آخرين بالمال الوفير لكي يهاجروا إلى أرض محرريهم، ويشاركوا في صناعة الأسلحة لهم، كما فعلوا مع كثير من علماء الاتحاد السوفييتي.

لماذا اختاروا أرض العراق ليجعلوا من شعبها أول قطيع من أغنامهم (أهم أول قطيع؟)؟ اختاروها أولاً: لأنها أرض لبون لا بقاء لهم بغير حليبها. وهذا أمر قد أصبح

من البدهيات؛ فلا نقضي فيه وقتاً. وأما ثانياً: فلأن في حكمها ضعفاً يجعل ذريعة استعباده باسم التحرر ذريعة مقبولة لشعبهم ولمن هو على شاكلتهم من غير شعبهم. لا زلت أذكر منظراً شاهدته على التلفاز آلمني رغم أن الضحية فيه كانت حيواناً. رأيت وحشاً يشتد جرياً وراء قطيع من الغزلان، وهي تعدو منه هرباً؛ لكنه رأى في إحداها عرجاً أبطأ من جريها فركز عليها وترك بقية القطيع حتى أدركها فقتلها ومزقها. وقد كان في النظام العراقي عرج بيِّن كان هو السبب الأساس في سرعة انهياره. كان نظاماً مبنياً على جرف هار، هو شخص صدام؛ فلما انهار الجرف انهار البناء كله. إن الأمة التي ترضى لنفسها أن تكون قطيعاً من الأنعام يسوقه واحد منها، لا تستعصي على أن يكون سائقها واحداً من غيرها. ومعاذ الله ان يكون شعب العراق كله كذلك. لكن داء هذه التبعية أصاب الجميع، من كان راضياً به ومن لم يكن راضياً. فأول درس ينبغي لنا أن نعيه هو أن لا نكون قطيعاً ولا شبه قطيع لواحد منا. إنه لا بد لكل مجتمع، مسلماً كان أو كافراً، ديمقراطياً كان أو غير ديمقراطي، لا بد له من ولاة أمر يكونون مسؤولين عن إدارة شؤونه. لكن أن يكون الواحد منا مسؤولاً عن إدارة شؤوننا شيء، وأن يجعل منا قطعاناً يقضى أمرها وهي غائبة شيء آخر. هذا درس جعله ربنا أصلاً من أصول ديننا؛ فنحن لا نحكم برأي فلان وعلان وإن كثر عددهم، وإنما نحكم بكتاب ربنا الذي يخضع له حاكمنا كما نخضع له نحن المحكومين. وحاكمنا الذي يحكمنا بكتاب ربنا لا يستبد بالأمر من دوننا؛ لأن صفة التشاور في أمورنا من الخصائص المميزة لنا لا يكتمل بغيرها إسلامنا، مثلها في ذلك مثل الإيمان بالله والتوكل عليه وغيرها من الصفات التي تبينها الآية الكريمة:

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٩].

تذكرت وأنا أشاهد على التلفاز كثرة صور الرئيس صدام وتماثيله، وأنا أسمع الناس يهتفون في كل مكان: بالروح بالدم نفديك يا صدام! تذكرت قول الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]. ومع أنه لا دين إلا باتباع الرسول ﷺ لأنه: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، ومع أن حياة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتربية جيل كالذي رباه، ومع أن حياة المسلمين بعده لم تكن مثلها في حياته، إلا أن الله ـ سبحانه ـ أراد أن يعلِّم المؤمنين أن كل هذا لا يعني ارتباط الدين بحياته ﷺ. ولم يكتف ـ سبحانه ـ بتقرير حقيقة موت الرسول هذه، بل أكدها بدرس عملي؛ وذلك أنه شاع يوم أحد أن النبي ﷺ قتل، بل إن أحد المشركين ـ واسمه ابن قميئة ـ بشَّر إخوانه الكفار بأنه هو الذي قتله، وإنما كان في الحقيقة قد ضربه فشجه. فلما شاع هذا الخبر الأليم ضعف بعض المسلمين، فأنزل الله ـ تعالى ـ على رسوله ﷺ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكل فَقْدٍ بعد فَقْدِ الرسول ﷺ يهون، ويمضي المسلمون في طريقهم يتقون ربهم حق تقاته ما استطاعوا. بهذا ينبغي أن يُذكَّر الناس، وعليه ينبغي أن يربوا، فلا يربطوا

تمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل إعلاء كلمة ربهم بموت أحد ولا حياته، بل عليهم أن يسدوا كل الذرائع المؤدية إلى تعلق الدين بحياة الأشخاص مهما عظموا علماً وورعاً، أو حكماً عدلاً، أو شجاعة وبسالة.

وإنه لمن مقتضيات تمسكنا بديننا، وكوننا أمة ذات رسالة، أن نكون أمة قوية مرهوبة الجانب، لا نأكل ونتمتع كما تأكل الأنعام، ولا نكون غنماً تهش عليها وتوجهها أنى شاءت عصا الكافرين. لكن القوة المادية لها ثمن ينبغي أن نكون مستعدين لدفعه. يجب أن نربى على التضحية بكثير من الملذات، بل يجب أن نتربى على الاقتناع بالكفاف، ثم نرصد ما تبقى من دخلنا القومي للأخذ بأسباب القوة المادية، من تأهيل علمي ولا سيما للنابغين من أبنائنا، ومن طَرْق لأبواب الصناعة الثقيلة، ولا سيما صناعة الأسلحة. كيف تدافع عن نفسك، أم كيف لا تكون فتنة لعدوك، وأنت تعتمد عليه في أسلحتك التي بها تدافع عن نفسك؟ هذه هي الخطوة الأولى للسير في طريق القوة: عزمة نجتمع عليها حكاماً ومحكومين. أما تفاصيلها وكيفية تحقيقها، فيترك للمختصين منا، ولن تعجزنا بإذن الله تعالى. ومن سار على الدرب وصل.

لكن ينبغي أن لا يغيب عن بالنا أننا نريد أن نفعل كل هذا باعتبارنا مسلمين. وعليه فكما نسعى لامتلاك القوة المادية، فعلينا أن نجتهد في امتلاك القوة المعنوية: قوة العلم بالدين الحق، والاستمساك به، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهذا هو سر قوتنا، وسبب دوام بقائنا، فإننا بفضل الله أمة لا تموت: كتابها محفوظ ذكراً، لا حفظاً متحفياً، ذكراً بحفظ لغته، وحفظ سنة نبيه، وحفظ العلماء العارفين به، المجددين له، الداعين إليه، المجاهدين في سبيله. أما الأمم الكافرة فإنها تنتفش وتنتفش

ثم لا تلبث أن تُخرق وتسقط مهما كان لها من قوة مادية، تخرقها وتسقطها ما ترتكب من فواحش وظلم واعتداء، وما يملأ صدورها من غرور وحمية الجاهلية:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤].

أديمقراطية هذه.. أم أمريطانية؟

(البيان ١٨٩ ـ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ ـ يوليو ٢٠٠٣م)

الديمقراطية ـ وتُنطق بالإنجليزية: دموكراسي ـ يقول مؤرخوها الغربيون إنها تتكون من كلمتين يونانيتين هما «ديموس» أي الشعب، و «كراتوس» أي الحكم. أما الرئيس القذافي فله رأي آخر.. الديمقراطية في رأيه تتكون من كلمتين عربيتين هما: ديمة، وكرسي؛ أي إن الديمقراطية هي النظام الذي يكون فيه الحاكم دائماً على الكرسي.

أما الأمريطانية ـ ونسميها بالإنجليزية أميريتانسي ـ فلك أن تفسرها تفسيراً غربياً؛ فتقول إنها تتكون من ثلاث كلمات هي: أمريكا، وبريطانيا، والحكم. أو تفسرها تفسيراً قذافياً فتقول إنها تتكون من ثلاث كلمات هي: أمريكا، وبريطانيا، والكرسي. أي إن أمريكا أولاً ثم بريطانيا تريدان أن تكونا دائماً على كرسي الحكم. يتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الديمقراطية التي تقولان إنهما تريدانها للعراقيين.. وكذلك الحرية.

فالإدارة الأمريكية، وأحياناً المسؤولون البريطانيون، يصرحون، وأحياناً يعبِّرون بلسان الحال عن أنه بعد أن تخلَّص العراقيون من حكم صدَّام الدكتاتوري قد صاروا

أحراراً يختارون لبلدهم ما يشاؤون بالطرق الديمقراطية؛ فلهم أن يختاروا الدستور الذي يرتضونه لبلادهم، لكنه يجب أن يكون دستوراً يفصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الدستور الأمريكي، بل يجب أن يكون العراقيون وسائر العرب والمسلمين أكثر تطوراً من الغرب في مجال العلمانية، فدستور الولايات المتحدة مثلاً قد اكتفى بفصل الدين عن الدولة؛ بمعنى أنه ليس للدولة أن تؤسس أو تتبنى ديناً من الأديان، ولا أن ترعى المؤسسات الدينية، لكنه لا يمنع من أن تكون الدوافع السياسية دينية، كما هو الحال في الموقف من (إسرائيل). أما العراقيون ـ وسائر العرب والمسلمين ـ فيجب أن يذهبوا أبعد من ذلك، يجب أن يمنعوا حتى الدوافع الدينية، ويعاقبوا كل مسؤول أو حزب يُظهر مثل هذه الدوافع في أقواله أو أعماله، ويجب أن لا يكتفوا ـ كما اكتفت أمريكا ـ بعدم تبني المؤسسات الدينية وتركها حرة تتصرف كيف شاءت في حدود القانون، بل يجب أن تتأكد من أنها لا تعمل عملاً ينمي مثل تلك الدوافع الدينية التي تقود في النهاية إلى العمليات الإرهابية ولا سيما ضد (إسرائيل).

ويجب تبعاً لذلك أن لا تكون الحكومة حكومة دينية، ولا أن يسيطر عليها أو يؤثر فيها رجال الدين.

للعراقيين أن يسنُّوا من القوانين ما شاؤوا، لكن بما أنهم عاشوا زماناً تحت وطأة قوانين غير ديمقراطية؛ فستتولى نحن لهم سن قوانين تتيح لهم الحرية ولا سيما حرية المارسات الجنسية، فلا يُمنع مسلم، ذكراً كان أم أنثى، من أن يختار الصديق أو الزوج الذي يناسبه سواء كان من جنسه أو من الجنس الآخر، وسواء كان من دينه أو من دين آخر، بل لا تُمنع المارسات الجنسية بين المتراضين، متزوجين كانوا أم غير متزوجين كما هو الحال عندنا.

سننشئ للعراق قضاء عادلاً يضمن رعاية كل هذه الحريات، ويتولى كذلك محاكمة من ساموا العراقيين الخسف إبان حكم صدَّام.

وللعراقيين أن يختاروا حكومتهم بالطريقة الديمقراطية شريطة أن يكون الحاكم الأعلى للبلاد رجلاً (أو امرأة) تختاره الولايات المتحدة ليعلمهم، ويتدرج بهم في سُلّم ممارسة الديمقراطية التي غابوا عنها سنين طويلة. كيف لا يكون للولايات المتحدة هذا الحق وهي التي أنفقت أموالها وضحَّت برجالها في سبيل تحرير الشعب العراقي من الحكم الصدَّامي الاستبدادي؟

والعراقيون أحرار في أن يقيموا من العلاقات الدولية ما شاؤوا، لكن دولتهم يجب أن تكون دولة موالية للولايات المتحدة، كما يجب أن لا تكون معادية للدولة الإسرائيلية، كيف لا وقد كان من دوافع شن الحرب على العراق الخوف من أن يكون نظامه مهدِّداً لإسرائيل؟ أليس هذا بعض ما يقتضيه رد الجميل الذي أسدته أمريكا للعراق؟

ولهم أن يتصرفوا في ثروتهم البترولية كيف شاؤوا، لكن الولايات المتحدة قد تعاقدت قبل اختيارهم لحكومتهم مع بعض الشركات الأمريكية، وأوكلت إليها الإشراف على إنتاج البترول العراقي وتسويقه، فيجب أن يقروا ما اختاره لهم محرروهم.

ولهم أن يشرفوا على إعادة تعمير بلادهم التي اقتضت حرب تحريرهم تدميرها، ولكن الولايات المتحدة قد اختارت لهم حتى قبل بدء الحرب شركات أمريكية مؤتمنة على أداء هذه المهمة، فيجب أن تستمر هي الأخرى في أداء عملها حتى بعد أن يختار العراقيون حكومتهم الديمقراطية.

وسيكون العراقيون أحراراً في اختيار المناهج التربوية التي يرونها مناسبة وصالحة لأولادهم، كما ستكون لهم حرية اختيار الفلسفة التربوية التي تناسبهم، لكن الولايات المتحدة قد كفتهم مؤونة هذا التعب، وستتولى هي إعداد هذه المناهج كما فعلت بالنسبة لأفغانستان، وستضمن لها أن تكون مبنية على فلسفة تزرع العلمانية في قلوب الدارسين، وتقيهم شر الفتن الطائفية والاختلافات الدينية، وستضمن لهم أن يتخرجوا بقلوب لا كراهية فيها ولا غضب على الغرب ولا على (إسرائيل) فإن الكراهية - حتى لمن تعده عدواً لها - هي شر ما تبتلى به أمة، اللهم إلا إذا كانت كراهية لدينها وتاريخها وتقاليدها التي كانت كلها سبباً في تأخرها.

ما أروع أن نرى الآلاف من العراقيين يتظاهرون في الشوارع في حرية كاملة لم تكن مكفولة لهم إبان الحكم الدكتاتوري، نعم! إن الكثيرين منهم يهتفون ضد الاحتلال، لكنهم ما كانوا ليستطيعوا أن يهتفوا مثل هذا الهتاف لولا ما أسموه بالاحتلال، ولذلك فسنعمل على استمرار هذا الذي هتفوا ضده ليتمكنوا من مثل هذا الهتاف.

ستكون الدولة العراقية الديمقراطية مثالاً يحتذى لبقية الدول العربية؛ لأنها ستنفق أموالها على رفاهية شعبها فتعطي الأولوية لتوفير المواد الاستهلاكية، ولا تبعثر ثروة البلاد في إعداد علماء، ولا في إقامة صناعات، ولا في امتلاك أسلحة تدمير شامل أو غير شامل، إلا ما كان ضرورياً لمحاربة الإرهابيين الإسلاميين. وستكون بذلك دولة محبوبة لا خطر منها على جيرانها ولا على من كانوا بالأمس القريب أعداء لها. نعم! إن (إسرائيل) تملك أسلحة يمكن تصنيفها بأسلحة دمار شامل، لكنها محقة في امتلاك مثل هذه الأسلحة؛ لأنها تعيش بين قوم أشرار، ودول مارقة لا تألو جهداً في تهديدها، أما هي فدولة متحضرة مسالمة، ولا تملك على كل حال إلا أكثر من مئة قنبلة نووية.

مرحى مرحى للديمقراطية وللحرية! وما أروعهما حين يكونان تحت سيطرة أمريكية بريطانية!

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٩ ١٠].

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢].

الحوار مجادلة جادة لا مداهنة

(البيان ١٩٠ ـ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ ـ أغسطس ٢٠٠٣م)

في العالم اليوم دعوات كثيرة إلى الحوار: حوار بين الديانات ولا سيما النصرانية والإسلام، أو النصرانية واليهودية، وحوار بين أهل الديانات والمنكرين لها، وحوار بين الفرق الدينية داخل الدين الواحد، وحوار خاص بين المنتمين إلى الوطن الواحد من كل تلك الأنواع.

والحوارات تتعدد بتعدد أغراضها؛ فمنها ما يكون هدف المحاور إقناع الآخر بأن اعتقاده أو رأيه أو موقفه هو الأحق بأن يتبع، ومنها ما يكون هدفه مجرد معرفة ما عنده كي لا يكون هنالك سوء تفاهم بأن ينسب إليه ما لا يرى أو يعتقد، ومنها ما يكون الغرض منه إمكانية الوصول إلى آراء أو أهداف مشتركة تساعد على التعايش والتعاون، وهكذا.

والمسلم يرى كل هذه أهدافاً مشروعة ولا يتردد في المشاركة فيها ما لم يتصل بها ما يجعل ضررها أكبر من نفعها.

لكن الحوار لا يكون ناجحاً ولا يحقق شيئاً من تلك الأهداف التي وصفناها بالمشروعة إلا إذا توفرت فيه بعض الشروط، وإلا إذا خلا من بعض المفسدات.

فشرطه الأول أن يكون المتحاورون صادقين مخلصين في الوصول إلى ما أعلنوا من أهداف، لا أن يكون الحوار مجرد وسيلة إلى أغراض أخرى يضمرها أحد المتحاورين أو جميعهم. من ذلك أن بعض إخواننا المسلمين اعترضوا على حوارات كانت تقام بين المسلمين وجماعات من الكاثوليك قُدِّر لي أن اشترك في واحدة منها أقيمت بأسبانيا. فلما سألناهم عن سر اعتراضهم أجابونا بأن الكاثوليك يستغلونها لأغراض تبشيرية بين بعض عوام المسلمين في بعض البلاد الإسلامية النائية، فيطلعونهم على صور علماء المسلمين جالسين معهم، مبتسمين لهم، ليقولوا لهم إنه لا خلاف بيننا وبين المسلمين.

هنالك مشكلة في الحوار مع العلمانيين في العالم الإسلامي. العلمانيون، بل الملحدون في أوروبا يعلنون عن آرائهم بصراحة ويدافعون عنها. وإخوانهم في العالم الإسلامي يودون أن لو استطاعوا أن يفعلوا ذلك، لكنهم لا يستطيعون؛ لأن المجتمع لا يقبل مثل هذا التصريح بالكفر، وربما تعرض قائله للأذى. فماذا يفعلون؟ يلجؤون إلى النفاق: يتظاهر أحدهم بأنه مسلم ولو لم تكن في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ويحاول أن يجد لكفره سنداً من الدين ـ وهيهات ـ فتأتي حججه المعلنة واهية لا تنطلي إلا على بعض الجهلاء أو ضعيفي الإيمان، لكن هؤلاء لا يفيدونه بشيء. أما طلاب العلم وصادقو الإيمان فيرون نفاقه في فلتات لسانه ويجزمون به ﴿**فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [**محمد**: ٣٠]. قبل سنين تزيد عن الثلاثين أقامت منظمة باكستانية في لندن ليلة عن الرسول ﷺ دعوا إليها عدداً من الأفراد والمنظمات، وكنت من ضيوف الشرف فيها. جلست أستمع إلى المتحدثين؛ لأن مهمتي كانت أن أختم بالتعليق على ما

سمعت. تكلم أحدهم فشممت منه رائحة نتنة (هذا تعبير استعمله الأستاذ سيد قطب ـ عليه رحمة الله ـ حين استمع لأول مرة وفي منزله لكلمات من القصيمي). فلما جاء دوري علقت على كلامه، فكأنما طعنته بسهم في قلبه. وقف محتجاً لكنه أُسكت. فلما انتهت الجلسة جاء يجادلني وحولنا عدد من الشباب، وبدأت الرائحة تزداد نتانة كلما توغلنا في النقاش حتى قال لي في النهاية: ما برهانك على وجود الله؟ قلت: عندي والله برهان لكنني لن أذكره لك؛ لأنك جبان تظاهرت بالإسلام وجئت لتتحدث في ليلة عن الرسول ﷺ، ولو أنك قلت لي منذ البداية إنك ملحد لكنت جادلتك على هذا الأساس.

الحوار العلني مع العلمانيين من منكري الدين لا فائدة إذن فيه إلا إذا كان القصد منه كشفهم وإحراجهم بإخراج مكنون معتقدهم. أما إذا كان القصد هدايتهم فالأحسن أن يدعوا إلى حوارات خاصة يستطيعون أن يصرحوا فيها بحقيقة ما يعتقدون. لقد جربنا هذا حتى مع الملحدين، وجربه من سبقنا من علماء المسلمين. فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً يذكر أنه كان يأتيه جماعة من أهل الأهواء ويطلبون منه مجادلتهم بهذه الطريقة، يشترطون عليه أن لا يستند في جداله معهم على النصوص، بل يحاجّهم بالعقل وحده. وعلل الشيخ قبوله لشرطهم بأنهم قوم سلَّموا بأصول ظنوها عقلية؛ فمهما أتيتهم بحجج نقلية تخالفها لم يقتنعوا؛ لأنهم ـ وهم صادقون في إيمانهم بالإسلام ـ ينزهون الله ـ تعالى ـ أن يقول كلاماً مخالفاً للعقل. يرى ابن تيمية أن هذا الاعتقاد بمثابة المرض، فيجب أن تشفيهم منه أولاً بالأدلة العقلية على بطلانه فيتهيؤون بعد ذلك لقبول النصوص.

فشرط الحوار الثاني إذن أن يستند إلى معايير يؤمن بها الطرفان؛ فإذا كان حواراً بين مؤمنين وملحدين كان المعيار هو العقل والحقائق العلمية المتفق على التسليم بها،

وإذا كان بين مؤمنين بوجود الخالق أضيف هذا إلى تلك المعايير، وأضيف إليه أيضاً المحاكمة إلى حقائق دينية يؤمن بها كل من الفريقين. وإذا كان بين منتسبين إلى دين واحد كالإسلام مثلاً كانت المعايير مراجع دينهم الذي به يؤمنون.

هذا هو الحوار كما يعرفه ويدعو إليه كل العقلاء من المفكرين من أهل الأديان وغير الأديان. لكن بعض الناس في بلادنا يتصور الحوار على غير هذه الصورة العقلانية المثمرة. يراه بعضهم مداهنة، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ [**القلم**: ٩]. وكلمة يدهن كلمة معبرة جداً في تصوير هذا الموقف؛ لأنها مأخوذة من الدهن، فهي عكس الثبات والاستمساك. يظنون ـ بل يعتقدون ـ أن من شرط الحوار مع الآخر أن تعترف بأنه على حق أيضاً. قال لي أحدهم هذا فقلت له: لمَ أحاوره إذن؟ ألكي أزحزحه عن الحق وأجره إلى الباطل؟ إنك لا تحاور إنساناً إلا إذا كنت معه مختلفاً. هذا هو الأمر الطبيعي حتى بين المنتسبين إلى الدين الواحد. قال ـ تعالى ـ: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [**النساء**: ٥٩].

فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إنما يكون في حال التنازع؛ أما إذا لم يتنازعوا فلا يحتاجون إلى هذا الرد، بل إن عدم تنازع علماء المسلمين دليل على أنهم على حق. ولذلك استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على حجية الإجماع.

ومن أشكال المداهنة أيضاً اللجوء إلى دعوى نسبية الحق. فخصمك المخالف لك على حق من وجهة نظره، وأنت على حق من وجهة نظرك؛ فلا داعي إذن لأن تخطِّئه أو تجهِّله. هذه دعوى باطلة، وهي فوق ذلك مضرة بالمجتمع غاية الضرر. ثم هي بعد ذلك مما لا يمكن لأحد أن يلتزم به. سمعت أحدهم قريباً في ندوة تلفازية يقول إنه

إذا قال لي أحد: أريد أن أبين لك الحق، أقول له: لا داعي للحوار إذن. هيأت نفسي للاتصال لأقول له: لكنك أنت الآن بقولك هذا تريد أن تبين لنا ما تراه حقاً بالنسبة للحوار؛ وإلا فلماذا قلت ما قلت؟

وقد وجدت شبهة نسبية الحق هذه مؤثرة حتى في بعض الشباب المتدينين. قال لي أحدهم: إذا كنا نحن نرى أنفسنا على حق فهم أيضاً يرون أنهم على حق. قلت له: وماذا في هذا؟ إن الحق واحد، سواء كان حقاً متعلقاً بدين أو بدنيا؛ لأنه وصف لواقع، ولا يمكن أن يكون الواقع على صفتين متضادتين. فإذا اختلفنا اختلاف تضاد، فيستحيل أن يكون كلانا على حق. هب أن إنساناً قال إنه ما يزال يرى أن الأرض مسطحة وأنت تعتقد أنها مكورة. ماذا تقول له؟ هل تقول له: أنت على حق من وجهة نظرك، وأنا على حق من وجهة نظري؟ إن الاختلاف في الحق لا يعني نسبيته. إن صاحب الحق لا بد أن يكون لديه دليل على صحة دعواه؛ فمن حقه أن يقول لمخالفه إنني لا أطلب منك إلا أن تكون عاقلاً تخضع للدليل إذا تبين لك. ما أجمل وأصدق ما قاله الإمام الشاطبي في موافقاته: «الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك. ولا يصلح فيها غير ذلك. والدليل على ذلك أمور»[1].

ومن أشكال المداهنة أن يكون الحوار بين أبناء الوطن الواحد دعوة إلى العلمانية. كيف؟ يقولون: إذا كنا جميعاً أبناء وطن واحد فيجب أن تكون العلاقة الأساس بيننا هي علاقة المواطنة التي تفترض أن كل مواطن مخلص في حرصه على مصلحة وطنه، وعليه يكون الحوار بيننا حواراً بين مواطنين متساوين؛ لا العلاقة الدينية التي تميز بين المواطنين. وهذه مغالطة سخيفة؛ لأن تصور الإنسان لما يعده مصلحة له أو لبلده تؤثر

---

(١) ص ٥٩ من الجزء الخامس، تحقيق أبي عبيدة، دار ابن عفان، ١٤١٧هـ.

فيه معتقداته دينية كانت أم غير دينية. فإذا كان المواطن شيوعياً مثلاً فقد يكون مخلصاً في اعتقاده بأن النظام الشيوعي هو الذي يحقق مصلحة بلده، ولذلك يرى أن الذين يقفون في طريق تحقيقها هم أعداء للوطن. وكذلك قل عمن يعتقد في العلمانية الغربية، أو من يعتقد في الإسلام. إنهم جميعاً مواطنون لكن معتقداتهم مختلفة إلى درجة أن ما يراه أحدهم مصلحة في بعض جوانب الحياة يراه الآخر أكبر خطر على الوطن. رأيت أحد إخواننا يستغرب آسفاً لموقف ينم عن شيء من خيانة وقفه بعض العرب من قضية عربية كبيرة، فقلت له: هوِّن عليك ولا تستغربن. إن غزوة بدر الكبرى لم تكن بين عرب ويونان، إنما كانت بين عرب أقحاح أقارب ينتمون إلى أشرف قبيلة عربية، ولم يكن اختلافهم في أن بعضهم كان محباً لوطنه والآخر كاره له، إنما كان الخلاف بينهم في الحق والباطل والخير والشر. وكذلك سيظل إلى يوم القيامة، سواء كان الناس أبناء وطن واحد أو أوطان مختلفة.

المفهوم الغربي للوهابية

(البيان ١٩١، رجب ١٤٢٤ هـ ـ سبتمبر ٢٠٠٣م)

إذا كنت تظن أن الوهابية التي يتحدث عنها السياسيون والكتاب الغربيون محصورة فيما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه وأحاديثه ودروسه، أو أن الوهابيين هم فقط أولئك الذين وافقوا الشيخ فيما دعا إليه، فأنت مخطئ. الوهابية عند هؤلاء هي وصف لكل أخذ لدين الإسلام مأخذ الجد؛ حتى لو كان الآخذ إنساناً لم يقرأ للشيخ حرفاً واحداً ولم يتسَمَّ باسمه ولا كان موافقاً له في بعض ما قال؛ بل إنها وصف لكل من يأخذ بجد بعض ما أجمع عليه المسلمون حتى لو كان ممارساً لبعض البدع، أو مؤمناً ببعض الخرافات. الوهابية عند هؤلاء مرادفة للأصولية التي هي الإيمان بأن القرآن كله كلام الله تعالى، وأن الالتزام به واجب على كل مسلم. الوهابي هو المسلم الذي يواظب على الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة ويحج إن استطاع إلى بيت الله الحرام. إنه المسلم الذي لا يشرب خمراً ولا يتناول رِباً ولا يرى اختلاط الرجال بالنساء، ولا يؤمن بقيم الحضارة الغربية المخالفة للإسلام. المسلم الوهابي هو الذي يرى أن دينه

هو الحق وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام. الوهابي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعاليم دينه حتى لو كان يعيش في البلاد الغربية.

ويبدو أن الذي اقترح على السياسيين هذه التسمية لكل مسلم ملتزم بدينه بعض المختصين في الدراسات الإسلامية. وربما كان اقتراحهم لها لأسباب سياسية. ربما يكون قد قال لهم إنكم ستستفزون مشاعر المسلمين إذا صرحتم لهم بأنكم لا تريدونهم أن يلتزموا بكتاب ربهم ولا بسنة نبيهم، ولا أن يأخذوا شيئاً من دينهم بقوة؛ فامكروا عليهم بالحديث عن الوهابية بدلاً من الحديث عن الإسلام أو الكتاب والسنة؛ لأن في العالم الإسلامي أناساً كثراً لهم مشكلة مع الوهابية، ولأنهم قد أثاروا حولها تهماً، وألصقوا بها تعاليم نحن نعلم أنه لا علاقة لكثير منها بها. ومع أننا لا نتفق مع هؤلاء في كل الأسباب التي دعتهم إلى معاداة الوهابية؛ فإن موقفهم المعادي لها مما يمكن أن يساعد على تحقيق مآربنا وخدمة مصالحنا.

مَنِ المسلمُ غير الوهابي إذن؟ هو المسلم الذي يفهم القرآن فهمهم لكتبهم، ويطبق دينه تطبيقهم لدينهم، ولا يعترض على شيء من ثقافتهم، ولا يدعو إلى مناهضة شيء من سياستهم حتى لو كان يراها ظالمة وضارة ببلده، ولا ينبس ببنت شفة عن كلمة اسمها الجهاد. إن كل من يفعل هذا عدو لهم؛ لأنه يعرقل ما يعدونه مصلحة وطنية لهم.

ما معنى أن يفهم دينه فهمهم لدينهم؟ لعل أحسن جواب على هذا السؤال كلمة قالها رجل تابع للكنيسة الأبسكوبيلية (وهي كنيسة أمريكية تابعة للكنيسة الإنجليزية). هذا قس اسمه (روبنسون) يستعلن بشذوذه الجنسي، بل يأتي إلى بعض الاجتماعات الدينية إلى جنب «صاحبه» الذي يفجر به والإعاذة بالله. لم ترَ الكنيسة رغم هذا كله بأساً من انتخابه لمنصب عال فيها هو منصب الأسقف. انتخبته أعلى هيئة فيها بأغلبية ستين

عضواً إلى أربعين تقريباً. في مؤتمر صحفي بعد فوزه اعترف هذا الأسقف بأن معارضي انتخابه كانوا على حق في قولهم بأن الشذوذ الجنسي أمر مخالف لتعاليم الكنيسة، ثم مضى يقول:

(أن تقول ببساطة إنه مخالف للتقاليد ولتعاليم الكنيسة وللكتاب المقدس لا يعني بالضرورة أنه خطأ. إننا نعبد إلهاً حياً، وهذا الإله هو الذي يقودنا إلى الحقيقة).

ذكَّرت إخواننا المصلين في خطبة جمعة خطبتها بعد هذا الخبر[1]، بحديث الرسول ﷺ:

«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

قصدت بهذا أن لا نستغرب إذا جاءنا ممن يدعي الإسلام من يقول كلاماً مثل هذا أو قريباً منه، كأن يقول مثلاً:

إن كونَ قولٍ أو فعلٍ ما مخالف لما كان عليه المسلمون، ومخالف للأحاديث النبوية، ومخالف لآيات القرآن الكريم لا يعني بالضرورة أنه خطأ. أقول إن مثل هذا هو المسلم الذي يرضى عنه بعض هؤلاء الذين يتحدثون عن التشدد وعن الأصولية وعن الوهابية. ألم يقل الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٣].

ثم ألم يقل الله ـ تعالى ـ عن بعض اليهود والنصارى المصِّرين على كفرهم: ﴿ **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠]؟

---

(١) انظرها في موقعنا على الإنترنت jaafaridris.com.

ويبدو الآن أن اتباع ملتهم ليس محصوراً في اعتقاد ما يعتقدون، ولكنه يشمل طريقتهم في فهم الدين وتحريفه. فكل من يتبع منهجهم هذا في تحريف دين الإسلام وعدم أخذه بقوة كما أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو ممن يرضون عنه.

يظهر عدم رضاهم عمن لا يأخذ بمنهجهم في فهم الدين الإسلامي في كلام كثير منهم. ولعل من أوضح ذلك ما ذكره الرئيس السابق كلينتون في محاضرة ألقاها بجامعة مشهورة في واشنطن العاصمة هي جامعة جورج تاون، وقد كنت أشرت إليها في بعض المحاضرات، ثم ناقشت أجزاء منها بشيء من التفصيل مع بعض الشباب بمقر دار الأرقم بواشنطن.

مما قال كلينتون في تلك المحاضرة أن الخلاف الأساس بيننا وبينهم ـ يعني المسلمين أو جماعة منهم ـ هو تصورنا لطبيعة الحقيقة. فنحن نعتقد أنه لا أحد يعلم الحقيقة كلها، ولذلك نرى أن كل إنسان له اعتبار. أما هم فيرون أنهم يعرفون الحقيقة كلها، ولهذا يرون أنك إذا لم تكن مسلماً فإنك كافر، وإذا كنت مسلماً ولم توافقهم فأنت مبتدع، وأنك في الحالين هدف مشروع حتى لو كنت طفلة في السادسة من عمرها.

كان مما قلته في تلك المحاضرة[1] أنه إذا كان المقصود بالحقيقة كلها معرفة كل شيء فنحن أول من يعترف بأن هذا أمر لا يتصف به بشر؛ وإنما هو من صفات الله تعالى، وحتى إذا كان المقصود به معرفة كل شيء عن بعض الأشياء فنحن نؤمن بأن الله ـ تعالى ـ هو وحده المحيط بكل شيء علماً. إننا لا نعرف كل شيء حتى عن ربنا الذي نعبده؛ فإن من أسمائه ما استأثر هو وحده بعلمه. لكن ما نعرفه عنه ـ سبحانه وإن كان قليلاً ـ فإنه يكفي لإقناعنا بأنه هو وحده الذي يستحق أن يُعبد، وأنه هو الذي أنزل القرآن

(١) كانت المحاضرة بالإنجليزية وتجد نصها في موقعنا المشار إليه.

على محمد ﷺ. وكذلك ما نعرفه عن أمورنا الدنيوية ـ ولله المثل الأعلى ـ هو أيضاً كاف لاستفادتنا منها. فنحن قبل أن نعرف أن الماء مكون من هيدروجين وأكسجين كنا نعرف أنه يروي الظمأ وأنه ضروري لإنبات الزرع، وأنه ينقي من الوسخ، وهكذا. فمحدودية العلم لا تعني نسبية الحقيقة، بل إن فيما نعرفه ـ ما دام حقاً ـ البرهان القاطع على أن نقيضه باطل. وكان مما قلته أن الكفر معناه إنكار الحقيقة، أو إنكار ما يزعم أنه حقيقة. فالذي ينكر أن محمداً رسول الله مع علمه بذلك منكر لحقيقة فهو كافر، والذي ينكر أن يكون غير الله مستحقاً للعبادة هو في التعبير القرآني كافر بالطاغوت. وقلت أيضاً إن أساس علاقتنا مع من لا يؤمن بالإسلام هي دعوته إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلته بالتي هي أحسن، وأننا لا نقتل إنساناً لمجرد أنه كافر وإلا لما بقي في العالم منهم اليوم عين تطرف. ثم كيف يأمرنا ديننا بقتل كل كافر وهو يُحل لنا الزواج بالمحصنات من أهل الكتاب؟ أفنعقد عليها ثم نسلُّ سيفنا لنضرب عنقها؟ أما الأطفال فهم في حكم ديننا مسلمون؛ فلماذا نقتلهم؟

الاعتقاد في حفظ السنة

(البيان ١٩٤ ـ شوال ١٤٢٤ هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٣م)

إن قوة الإسلام التي ما تزال سبباً في سرعة انتشاره وإقبال رواد الحق إليه، إنما هي في قوة الحق الهادي الذي يرونه بادياً على محياه. وهو حق يتضافر على إبرازه الوحيان: كتاب الله المنزل، وسنة رسوله المبينة؛ ولا بقاء له بأحدهما دون الآخر. ففتنة التشكيك في السنة مقصد عظيم من مقاصد الذين يسعون جاهدين لتقويض هذا الدين وإيقاف احتلاله لقلوب كانت تعشش فيها معتقدات باطلة وهرطقات فارغة. لكن المؤسف أن الأدوات التي تستخدم لنشر هذه الفتنة هي ألسنة وعقول إسلامية قد تكون حسنة النوايا. ولذلك فإنها تلجأ في نشر فتنتها إلى استعمال حجج دينية.

فالسنة المحمدية تُنكر تارة بدعوى أنه لا حاجة إليها مع وجود القرآن الكريم، وتارة بدعوى أن كثيراً من الأحاديث ـ حتى ما شهد له جهابذة العلماء بصحة السند ـ يتنافى مع ما تقرره بعض آيات القرآن الكريم، أو ما يقتضيه العقل السليم، وتارة بأن الله ـ تعالى ـ إنما تكفل بحفظ القرآن الكريم ولم يَعِدْ بتكفله بحفظ السنة المطهرة. وحديثنا في

هذا المقال منحصر في هذه الدعوى الأخيرة؛ لأن أصحابها يقولون إنهم ليسوا ممن ينكر السنة، وإنما هم من الذين يشكُّون في ثبوتها كلها. ولذلك فإنهم يعطون أنفسهم حق النظر فيها والحكم عليها بأهوائهم (لا أقول بعقولهم)، فما رأوه موافقاً للكتاب قبلوه، وما رأوه مخالفاً له أنكروه مهما كانت قوة سنده، وسواء كان في الصحيحين أو في غيرهما.

نقول لهؤلاء وغيرهم: إن على كل من يؤمن بأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، وأنه مرسل إلى الناس كافة إلى قيام الساعة، أن يعلم أن من لوازم هذا الإيمان الاعتقاد في حفظ السنة. عليه أن يعتقد هذا سواء علم كيف حفظت أو لم يعلم، وسواء كان من العلماء أو من العامة. لماذا؟

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [**الحجر**: ٩].

ومع أن المعنى الشائع لكلمة الذكر في هذه الآية أنه القرآن الكريم؛ فقد قال بعض العلماء إنها تشمل السنة أيضاً. والذي أريد بيانه هنا أنه حتى لو لم تكن كلمة الذكر شاملة للسنة، إلا أنها تستلزمها.

كيف؟ إن كلمة الذكر تدل على أن المحفوظ ليس مجرد كلمات أو نصوص يمكن أن تبقى مصونة في متحف من المتاحف الأثرية؛ وذلك لأن حفظ الذكر يقتضي فهم المعنى؛ لأن الكلام لا يكون ذكراً إلا إذا فُهم. وهل يفهم القرآن الكريم حتى لو كان فهماً أولياً إلا إذا عرفت لغته؟ وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [**الزخرف**: ٣]. ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [**يوسف**: ٢].

فالقرآن إذن لا يُعقل معناه ولا يُفهم إلا إذا فهمت اللغة العربية؛ فحفظه يستلزم حفظها. وهذا هو الذي حدث بحمد الله ـ تعالى ـ وفضله. فاللغة العربية حُفظت كما لم

تحفظ لغة غيرها؛ فما زالت الملايين من الناس تتحدث بها وتكتب، وما زالوا يتذوقون أدبها، وما زال التعمــق فيها أمرا ميسوراً. وقد استخــدم الله ـ تعالى ـ لهذا الحفظ رجالاً حباهم بجمع ألفاظها، وحفظ نحوها وصرفها، وجمع شعرها ونثرها. لكن الكتاب المحفوظ نفسه كان أهم سبب في حفظها لقراءة المؤمنين المستمرة له ودراستهم لتفسيره وتمعنهم في بلاغته وإعجازه.

وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [**النحل**: ٤٤].

ولحكمةٍ ما استعمل الله كلمة الذكر هنا كما استعملها في الآية الكريمة التي هي موضع دراستنا. فكما أن الذكر لا يُفهم إلا بفهم لغته، فإنه لا يتبين إلا ببيان الرسول له؛ فحفظ الذكر يستلزم لا جرم حفظ بيانه.

إن واحداً من عامة عقلاء البشر لا يكتب كتاباً يقول إنه لا يُفهم فهماً كاملاً إلا بالحواشي المصاحبة له، ثم ينشر الكتاب من غير تلك الحواشي. فكيف يُظن بالحكيم العليم أن يرسل رســولاً تكون مهمته أن يبين كتابه، ثم يحفـظ الكتاب ولا يحفظ ذلك البيان؟

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يشير في أكثر من أربعين موضعاً في كتابه إلى سنَّة رسوله، فيأمر باتباعه وعدم تقديم كلام بشر على كلامه، ويبين ضرورة هذا الاتباع وفضله، وأنه أمر يقتضيه حب المؤمن لربه، ويحذر ـ سبحانه ـ من مخالفة هذه السنة. يذكر كل هذا في مثل قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [**آل عمران**: ٣١].

﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [**الأحزاب**: ٢١].

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

هل يتصور عاقل يقدر ربه حق قدره أن يشير في أمثال هذه الآيات إلى معدوم بالنسبة لمن هم في عصورنا هذه المتأخرة؟

كيف يكون الناس في عهده ﷺ بحاجة إلى سنته وهم الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم، ولا نكون نحن بحاجة إليها؟

كيف يشير إلى معدوم بالنسبة لنا وقد أرسل رسوله ﷺ للناس كافة إلى قيام الساعة وجعله خاتماً لأنبيائه؟

وإذا كان ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أن حاجتنا إليها عظيمة؛ فكيف يتصور أن لا يحفظها لنا وينعم علينا بهدايتها كما أنعم على الذين من قبلنا؟

إن القول بعدم حفظ السنة له خبيء من أبطل الباطل هو أن محمداً ﷺ إنما أرسل لمعاصريه. وخبيء آخر هو أن الكفار كانوا محقين في إنكارهم لإرسال الرسل وفي زعمهم بأن كل واحد منهم مؤهل لأن يؤتى مثل ما أوتي رسل الله.

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر: ٥٢].

كيف يشك إنسان في حفظ السنة ثم يشهد بلسانه بأن محمداً رسول الله؟ ماذا تعني هذه الشهادة بالنسبة له؟ إنه لا فرق في واقع الأمر بين إنكار السنة وإنكار حفظها؛ فكِلا الأمرين يؤدي إلى عدم الاهتداء بها.

والاعتقاد في حفظ السنة من لوازم الإيمان بالرسالة المحمدية؛ لأن المؤمن بهذه الرسالة يسأل الله ـ تعالى ـ في كل ركعة من ركعات صلاته الواجبة والنافلة في كل يوم أن يهديه إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. ومن ذا الذي يدخل في من أنعم الله عليهم إن لم يدخل فيهم جهابذة العلماء الفضلاء الأتقياء الذين أفنوا أعمارهم في جمع السنة وحفظها وتفتيشها ودراستها والعمل بها؟ كيف يدعو إنسان ربه أن يهديه إلى صراط الذين أنعم الله عليهم، ثم يعرض عن علماء السنة هؤلاء أو يتعالى عليهم ظاناً أنه أعلم منهم أو أعقل أو أذكى أو أحرص على دين الله؟ كلاَّ؛ بل إن المؤمن الصادق ليقول لنفسه: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [**الأنعام**: ٩٠].

إنه لا بديل عن سلوك صراط هؤلاء إلا سلوك طريق المغضوب عليهم من الذين عرفوا الحق وأنكروه، أو سلوك طريق الضالين الذين عبدوا الله بأهوائهم وتخرصاتهم، فلم يكونوا من الذين هداهم الله ولا من أولي الألباب.

وإنه لمن تمام حفظ الذكر العظيم أن يكون بين المسلمين دائماً علماء يستهدون بهداهم في معرفة هذا الذكر، ويسألونهم ويستفتونهم. وإنه لمن أعظم ما يتميز به هؤلاء العلماء الهداة هو معرفة سنة الرسول ﷺ.

قال ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون[1].

«إن بداية عموم الضلال أن يذهب من على وجه الارض أمثال هؤلاء العلماء، فيذهب بذهابهم العلم بكتاب الله ـ تعالى ـ مع وجود نصوصه:

(١) البخاري، حديث ٣٣٦٨، ومسلم، حديث ٣٥٤٤.

«إن الله ـ تعالى ـ لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1].

وحين يحدث هذا لا تبقى من فائدة في وجود النص القرآني؛ لأنه لا يكون آنذاك ذِكْراً؛ ولهذا فإن الله ـ تعالى ـ يرفعه إليه، ثم يأذن بقيام الساعة.

(١) البخاري، حديث ٩٨.

الديمقراطية اسم لا حقيقة له

(البيان ١٩٦ ـ ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ـ يناير/ فبراير ٢٠٠٤م)

لم تجد الديمقراطية في تاريخها كله رواجاً مثلما وجدت في عصرنا هذا؛ لقد كان معظم المفكرين الغربيين منذ عهد اليونان كثيري النقد لها، بل ورفضها، حتى إن أحد الفلاسفة البريطانيين المعاصرين ليقول: إذا حكمنا على الديمقراطية حكماً ديمقراطياً بعدد مَنْ معها وعدد مَنْ ضدها من المفكرين لكانت هي الخاسرة[1].

أما في عصرنا فإن الدعاية الواسعة لها أعمت كثيراً من الناس ـ ولا سيما في بلادنا ـ عن عيوبها التي يعرفها منظروها الغربيون. بل إن المفتونين بها المروِّجين لها صاروا يصورونها كالبلسم الشافي لكل مشكلات المجتمع السياسية وغير السياسية. لذلك رأيت أن أشارك في تصحيح هذه الصورة الكاذبة ابتداء بهذا المقال الذي أرجو أن يكون فاتحة لكتاب كامل عن مشكلات الديمقراطية والبدائل الإسلامية.

---

(1) Ross Harrison, Democracy, Routledge, London and New York, 1995, p.3.



أول ما يؤخذ على الديمقراطية كونها اسماً لا حقيقة له؛ أعني أنه إذا وصف لك نظام سياسي بأنه دكتاتوري أو ديني مثلاً تصورت ما المقصود بهذا الوصف، وكانت صورتك الذهنية هذه مطابقة للواقع الذي يوصف بهذا الوصف. ولكن ليس كذلك الامر بالنسبة للديمقراطية؛ إذ أن الديمقراطية كما يدل عليها اسمها، وكما يعرفها كبار منظريها وساستها هي حكم الشعب. لكن الصورة الواقعية لما يسمى بالديمقراطية - مهما كانت حسناتها أو سيئاتها - ليست هي حكم الشعب:

أولاً: لأن مفهوم الشعب نفسه مفهوم غامض كما يرى بعض كبار منظّري الديمقراطية. استمع إلى الأستاذ (روبرت دال) الذي ربما كان صاحب أشمل بحث أمريكي عن الديمقراطية، وهو الذي وُصف في غلاف كتابه هذا الذي ننقل عنه بأنه «من أبرز منظري زماننا السياسيين» وأنه نال على هذا الكتاب جائزتين كبيرتين: «إن دعاة الديمقراطية - بما في ذلك الفلاسفة السياسيون - يتميزون بكونهم يفترضون مقدماً أن هنالك شعباً موجوداً فعلاً. إنهم يعدون وجوده واقعاً صنعه التاريخ. لكن هذه الواقعية أمر مشكوك فيه، كما كان مشكوكاً فيه في الولايات المتحدة عام ١٨٦١م، عندما حسم الأمر بالعنف لا بالرضى ولا بالإجماع. إن الافتراض بأن هنالك شعباً موجوداً، وما يبنى على هذا الافتراض من لوازم تصير جزءاً من النظرية الديمقراطية الخيالية»[1].

ثانياً: لأن الشعب لم يكن في يوم من الأيام ولن يكون حاكماً؛ ذلك أمر متعذر. وإليك بعض شهادات أهلها على ذلك:

---

(1) Robert A. Dahl, Democracy and its Critics, Yale University Press, 1989, pp. 3-4.

إن الديمقراطية المثالية هي ما يسمى بالديمقراطية المباشرة التي يقال إنها كانت تمارس في أثينا، أول دولة ديمقراطية نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد. تسمى بالمباشرة؛ لأن «الشعب» كان يجتمع في العام أربعين مرة ليناقش كل القضايا السياسية المهمة مناقشة مباشرة ويصدر فيها قراراته. لكنها مع ذلك لم تكن حكم الشعب:

١ ـ لأن الذين أسسوا النظام الديمقراطي كانوا فئة قليلة من الناس هم الذين قرروا من الذي يستحق أن يدخل في مسمى الشعب الحاكم ومن الذي لا يستحق، فاستثنوا النساء، والرقيق، وكل من كان من أصل غير أثيني مهما طال مكثه فيها؛ وعليه فلم يكن الذين لهم حق المشاركة السياسية إلا نسبة ضئيلة من المواطنين[1].

٢ ـ كان يكفي لاعتبار الاجتماع منعقداً أن يحضره ستة آلاف مما يقدر بست وثلاثين ألف عضو، أي إن القرارات المتخذة فيه لم تكن قرارات تلك الفئة كلها التي أعطيت حق الحكم.

٣ ـ كانت مدة الاجتماع لا تتجاوز عشر ساعات؛ فلم يكن بإمكان الناس جميعاً أن يشاركوا في المداولات، وإنما كان الذي يستأثر بالكلام بعض قادتهم، وكانت البقية تابعة لهم.

لما بعثت الديمقراطية مرة ثانية في القرن الثامن عشر في أوروبا كان من المتعذر أن تكون ديمقراطية مثل ديمقراطية أثينا بسبب الازدياد الكبير في عدد السكان، وصعوبة اجتماعهم. ولكن بدلاً من أن يقال إن الديمقراطية بمعنى حكم الشعب غير ممكنة الآن، فلنبحث عن نظام حكم آخر يتناسب مع واقعنا. تحايل بعضهم فسمى ديمقراطية أثينا بالديمقراطية المباشرة، واقترح أن تكون الديمقراطية الحديثة ديمقراطية غير مباشرة،

(1) Ibid p. 17.

أو ديمقراطية تمثيلية، أي ديمقراطية يختار فيها الشعب فئة قليلة منه تكون ممثلة له وحاكمة باسمه. كان هذا التحايل ضرورياً؛ لأنه كانت هنالك أزمة سيادة: من هو الجدير بأن يكون السيد الآمر الناهي الذي لا معقِّب لحكمه؟ كانت هذه السيادة للملوك، وكانوا يعدون هذا الحق حقاً إلهياً أعطاهموه الله تعالى؛ لأن الناس كانوا قبل ذلك مؤمنين يعتقدون أن مثل هذه السيادة لا تكون إلا لله أو لمن أعطاها الله له. لكن الناس لم يعودوا يؤمنون بهذا بعد الثورة الفكرية الكبيرة التي حدثت في قرنهم الثامن عشر، والتي كانت في مجملها دعوة للانسلاخ من حكم الدين في كل مجال من مجالات الحياة. لم يكن هنالك من بديل لحكم الله أو لحق الملوك المقدس في الحكم، إلا أن يقال إن الحكم للشعب كله؛ فهو صاحب الكلمة الأخيرة فيما ينبغي أن يكون أو لا يكون. لكن الديمقراطية التمثيلية أو النيابية كانت بالضرورة أبعد من الديمقراطية المباشرة عن أن تكون حكماً للشعب؛ وذلك:

١ ـ لأن الحكم له معنيان: حكم تشريعي، وحكم تنفيذي. فبأي معنى يَحْكُم الشعب؟ لا يمكن أن يَحْكُم بالمعنى الثاني؛ لأن الشعب لا يمكن أن يكون كله رأس دولة أو مجلس وزراء أو قائد جيش، وكان الفيلسوف الفرنسي روسو أول من سخر من الديمقراطية بمعنى الحكم التنفيذي، فقال:

«إذا أخذنا العبارة ـ يعني كلمة الديمقراطية ـ بمعناها الدقيق؛ فإنه لم تكن هنالك قطُّ ديمقراطية حقيقية، ولن تكون. إنه من المخالف للنظام الطبيعي أن تكون الأغلبية حاكمة والأقلية محكومة. إنه لا يتصور أن يكون الشعب مجتمعاً دائماً لقضاء وقته في تصريف الشؤون العامة. ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون لجاناً لهذا الغرض إلا بتغيير شكل النظام الإداري»[1].

---

(١) العقد الاجتماعي، الكتاب الثالث، الفصل الرابع، ص ٢٣٩.

٢ ـ لم يبق إذن إلا الحكم بمعنى التشريع؛ لكن الشعب ليس هو المشرِّع في الديمقراطية النيابية، وإنما هو الذي ينتخب من يشرع. ومرة أخرى نستمع إلى روسو ساخراً من هذا:

«إن الأمة الإنجليزية تعتبر نفسها حرة؛ لكنها مخطئة خطأ فادحاً؛ إنها حرة إبَّان فترة انتخابات أعضاء البرلمان؛ وبمجرد أن ينتخبوا؛ فإن العبودية تسيطر عليها، فلا تكون شيئاً. وكيفية استفادتها من لحظات الحرية القصيرة التي تستمتع بها تدل حقاً على أنها تستحق أن تفقدها»[١].

٣ ـ لأن نواب الشعب ليسوا هم الشعب حتى لو كان اختياره لهم بالإجماع. ربما كان هذا معقولاً لو أن النواب يجتمعون للبت في قضية واحدة يعرف كل منهم رأي ممثليه فيها، أما والقضايا كثيرة ومعقدة وبحاجة إلى علم لا يتأتى لعامة الناس؛ فإن الحكم لا يكون حكم الشعب. نعم! إن كل نائب منهم يتجنب المشاركة في تشريع يعلم أن أكثر الناس في دائرته الانتخابية لا توافق عليه، وأنه إن شارك فيه فربما يفقد مقعده في الانتخابات التالية. لكن هذا قليل جداً من كثير.

٤ ـ والمنتخَبون لا يكونون في الواقع منتخَبين بالإجماع الذي يقتضيه وصف الحكم بأنه حكم الشعب، وإنما ينتخَبون بالأغلبية، والأغلبية ليست هي الكل، وما ترتضيه الأغلبية في دائرة معينة قد لا ترتضيه الأغلبيـــة في دائـــرة أخـــرى، أو قد لا ترتضيه أغلبية الشعب لو كان انتخابه مباشراً، لكنه مع ذلك يعد ممثلاً للشعب وحاكماً باسمه.

٥ ـ ثم إن الأغلبية لم تكن في بداية الديمقراطية هي أغلبية الشعب كله؛ فقد استثنوا منها النساء، واستثنوا بعض الفقراء، واستثنى الأمريكان الأرقَّاء، فلم يدخل النساء في

(١) المصدر نفسه، الفصل ١٥، ص ٢٦٦.

مفهوم الشعب الحاكم الذي يحق له أن يصوِّت إلا في عام ١٩١٨م في بريطانيا، وعام ١٩٢٠م في الولايات المتحدة، ولم يُعطَ السود هذا الحق إلا بتعديل للدستور الأمريكي في عام ١٨٨٦م؛ ولكن حتى بعد شمول مفهوم الشعب الحاكم لكل المواطنين باستثناء الأطفال، ظلت بعض الفئات محرومة من حق المشاركة في الانتخابات. استمع إلى ما يقول هذا المؤلف الأمريكي في كتاب له حديث عن الديمقراطية: «ملايين من الناس يبقون فاقدين حق التصويت كلياً أو جزئياً، مئات الألوف من المواطنين الذين يعيشون في واشنطن العاصمة، مليون ونصف مليون ممن ارتكبوا جنحاً وعوقبوا على ارتكابها؛ لكن ولاياتهم تحرمهم رغم ذلك من التصويت. عدة ملايين من الذين يعيشون في بورتوريكو وأقاليم فيدرالية أخرى، والملايين غير المحددة في أمريكا كلها الذين تضيع أوراق تصويتهم، أو تحسب خطأ، أو تحطم في كل انتخاب»[1].

٦ ـ وبما أن الانتخابات في أمريكا إنما يشارك فيها من سجل اسمه للمشاركة فيها قبل بدئها، وبما أن كثيراً من الناس لا يسجلون أسماءهم؛ فإن الأغلبية إنما تكون أغلبية من صوتوا ممن سجلوا ممن يحق لهم أن يصوتوا. وقد كانت هذه النسبة في انتخابات عام ٢٠٠٠م كالآتي كما جاء في تقرير حكومي رسمي:

من مجموع عدد الناس البالغ ٢٠٣ ملايين والذين كانت أعمارهم ١٨ عاماً أو أكثر، ١٨٦ مليوناً منهم مواطنون، سجل منهم للانتخابات ١٣٠ مليوناً، وصوَّت منهم ١١١ مليوناً، وعليه فقد كانت معدلات تصويت السكان الذين أعمارهم ١٨ عاماً أو أكثر ٥٥٪ من مجموع السكان، و ٦٠٪ من المواطنين، و ٨٦٪ من المسجلين[2].

---

(1) Jamin B. Raskin, Overruling Democracy, Routeledge, 2003, p.9.

(2) Source: U.S. census bureau.

الديمقراطية الليبرالية:

هنالك أمر لا يتفطن إليه كثير من الناس هو أن الديمقراطية في البلاد الغربية ليست ديمقراطية خالصة مطلقة وإنما هي ديمقراطية مقيدة بالليبرالية. ما معنى هذا؟ الليبرالية نظرية سياسية فحواها أن المجتمع يتكون أساساً من أفراد ـ لا من طبقات ولا من أسر ولا من أي تجمعات أخرى. وبما أن الفرد هو أساس المجتمع، وبما أن له ـ بوصفه فرداً ـ حقوقاً أهمها حريته؛ فإنه لا يجوز للحكومة ولا لفئة من الشعب، بل ولا لأغلبية الشعب أن تتغول على حريته. ولذلك فإنهم يدعون إلى ما يسمونه بالحد الأدنى من الحكومة، أي إن الأساس هو أن يترك الأفراد أحراراً يختارون ما شاؤوا؛ فعلى الدولة أن لا تتدخل إلا تدخلاً اضطرارياً الغرض منه حفظ حقوق الأفراد التي قد يتغول عليها بعضهم. ويحذرون لذلك مما يسمونه بدكتاتورية الأغلبية. كنت أنوي الاستدلال على ذلك بكتابات عدد من الساسة والمنظِّرين الغربيين ولا سيما الأمريكيين منهم، لكن أغناني عن كل ذلك كلام وجدته لواحد منهم معروف اسمه (ليبمان) قال عنه مقدمو الكتاب الذي نشروا فيه مجموعة من مقالاته، والذي ننقل منه النصوص التالية: «إنه ربما كان أعظم مفكر سياسي أمريكي في القرن العشرين»[1] فإليك بعض ما قال مما نحن بصدده:

«يجب في رأيي أن نرفض القول بأن مبادئ الحرية والعدالة والحكم الصالح إنما تتمثل في حكم الأغلبية.

(1) Clinton Rossiter & James Lane, editors, The Essential Lippman: A Political Philosophy for Liberal Democracy, Harvard University Press, 1982, p. xi.



هنا يكمن أصل المسألة. لقد كان الرئيس (واشنطن) يعتقد أن الشعب يجب أن يحكم، لكنه لم يكن يعتقد أنه بسبب حكم الشعب تتحقق الحرية ويتحقق العدل والحكم الصالح. كان يعتقد أن الشعب ذا السيادة لا يؤتمن ـ كما لم يؤتمن الملك ذو السيادة الذي كان هو خلفاً له ـ على السلطة المطلقة.

إنه لم يخدع نفسه... إنه لم يكن يؤمن بما صار الآن الأديولوجية الديمقراطية السائدة: أن كل ما رأت جماهير الناس أنها تريده فيجب أن يُقبل على أنه الحقيقة.

لقد كان يعلم أنه لا ضمان من أن يتحول حكم الشعب إلى حكم قهري، تعسفي، فاسد، ظالم وغير حكيم. إن الشعب أيضاً يجب أن يكبح جماحه. إنه كغيره يجب أن يحاسب. إنهم كغيرهم يجب أن يعلموا. إنهم كغيرهم يجب أن يرفعوا فوق مستوى سلوكهم المعتاد»[1].

سيقول الديمقراطي الملتزم بمبدئه: لكنكم بهذا تضعون سلطة فوق سلطة الشعب؛ والمبدأ الديمقراطي هو أن السلطة للشعب، فلا أنت إذن يا ليبمان ولا واشنطن من قبلك بديمقراطيين. سيرد ليبمان بأنكم تحاجوننا بالديمقراطية الخالصة التي تؤمن بسيادة الشعب إيماناً مطلقاً، لكن الديمقراطية التي أتحدث عنها وأدعو إليها هي الديمقراطية الليبرالية التي تحد من هذه السلطة.

سيذهب بعض الليبراليين الذين جاؤوا من بعد واشنطن بعقود إلى أبعد مما ذهب إليه فيؤكدون أن الليبرالية عندهم هي الأساس، وأنه إذا حدث تعارض بينها وبين الديمقراطية فينبغي التضحية بهذه لا بتلك. فهذا هو المفكر الليبرالي هايك يقول بعد أن دافع عن الديمقراطية دفاعاً قوياً، وبعد أن بين ضرورة الليبرالية لها في كتاب له نال شهرة واسعة قبل خمسين عاماً:

(1) Ibid pp. 4-5.

«لا أريد أن أجعل من الديمقراطية وثناً يُعبد؛ فربما يكون حقاً أن جيلنا يتحدث ويفكر أكثر مما يجب عن الديمقراطية، وأقل مما يجب عن القيم التي تخدمها... إن الديمقراطية في جوهرها وسيلة. إنها أداة عملية لضمان الأمن الداخلي والحرية الشخصية؛ فليست هي بهذه المثابة معصومة ولا مضمونة. كما يجب أن لا ننسى أنه كثيراً ما تحقق قدر من الحرية الثقافية والروحية في ظل حكم مطلق أكثر مما تحقق في بعض الديمقراطيات»[1].

موقفنا من النظم التي تسمى بالديمقراطية:

النظم السياسية التي تسمى بالديمقراطية ليست هي إذن ديمقراطية بمعنى أن الحكم فيها للشعب، وإنما هي نظم سياسية مختلفة وإن كان بينها خصائص مهمة مشتركة. فمن الخطأ إذن تعريف الديمقراطية بأنها نظام الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة أو فرنسا أو غيرها من الدول الغربية. وعليه فإذا كان من حق هذه الدول أن تجتهد وتختار لنفسها ما تراه مناسباً لها من تفاصيل المؤسسات والقيم السياسية، مع أنها جميعاً تتسمى بالديمقراطية؛ أفلا يكون من حقنا أيضاً أن نختار من المبادئ والقيم السياسية ما نراه مناسباً لهويتنا وواقعنا ووسيلة أحسن لتحقيق أهدافنا، سواء كان فيه ما يشابه النظم الديمقراطية أو يخالفها؟ بلى! بل إن هذا هو المسلك الطبيعي لكل أمة تقضي بعقلها وتحترم نفسها وتعتز بهويتها وأصالتها.

وعليه فإذا أرادت دولة من دولنا أن تختار لنفسها نظاماً تراه معبراً عن هويتها ومناسباً لعصرها، فيجب أن تبدأ بتقرير المبادئ والقيم التي تريد للدولة أن تلتزم بها،

---

(1) F.A. Hayek, The Road to Serfdom, University of Chicago Press, 1994, p. 78.



ثم تبحث بعد ذلك عن المؤسسات المناسبة لعصرها وظروفها التي يمَكن أن تحمل تلك القيم وتعبر عنها. يمكنها مثلاً أن تقول إنها تريد لدولتها أن تتميز بخصائص منها اختيار الأمة لحاكمها، وسيادة حكم القانون، وحرية الرأي، وأن يكون كل هذا في نطاق ما تؤمن به من منهج في الحياة لا يلزم أن يكون مماثلاً لمناهج الحياة الغربية. فإذا كانت أمة مسلمة جعلت كل ذلك في نطاق هدي الكتاب والسنة، وأضافت إليه أموراً مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على الدين والدفاع عنه، وهكذا. إنه لا يلزم من موافقة الديمقراطية الليبرالية الغربية في بعض الجزئيات أن يأخذ الموافق سائر ما فيها، أو أن يتبنى فلسفتها، أو يتسمى باسمها. ثم إن ما في الديمقراطية من حسنات ليس خاصاً بها ولا مرتبطاً بها، بل يمكن أن تخلو هي منه كما يمكن أن يوجد في غيرها، بل قد وجد الكثير منه حتى في حياة جاهليتنا العربية؛ لكن المجال الآن ليس مجال التوسع في هذا الأمر.

سـهام بوش ضد الإرهاب
(البيان ١٩٨ ـ صفر ١٤٢٥ هـ ـ مارس/ إبريل ٢٠٠٤م)

أعني بالروح هنا ما يشعر به فرد أو جماعة أو شعب بأكمله من اعتزاز بسبب ما يراه من فضل يتميز به عمن سواه؛ فضل في خصال أو علم أو مال أو قوة أو غير ذلك، سواء كان محقاً في شعوره هذا أو واهماً، والإنسان يصاب في هذه الروح حين يفقد ما كان يعتز به، أو حين يتبين له أنه ليس كما تصوره، أو حين يظهر له أنه ليس وحده الذي يتميز به، وهكذا.

فما الروح الأمريكية بهذا التعريف، وكيف أصيبت؟

تتمثل الروح الأمريكية في أمرين: القوة المادية، والقيم السياسية.

لا يكاد الأمريكان يكفُّون عن ترديد القول ـ بكثير من الفخر والزهو ـ بأنهم أعظم قوة على وجه الأرض، بل أعظم قوة في تاريخ البشرية، وأنه لن تستطيع لذلك أية قوة بشرية أخرى أن تهزمهم، وأنهم سيعيشون لذلك آمنين لا يخافون من أن تُشن عليهم حرب أو يغلبهم عدو؛ فمخزونهم من أسلحة الدمار الشامل وغيرها لا مثيل له، ولا



مثيل لقواتهم العسكرية في عددها وعدتها وتدريب أفرادها. وهي ما تزال تطور كل هذا وتنفق عليه ما لا تنفق دولة أخرى على وزارة دفاعها؛ فميزانية البنتاجون تساوي الآن مجموع ميزانيات الخمس وعشرين دولة التي تلي الولايات المتحدة في القوة العسكرية، ويقال إنها ستكون بعد بضعة أعوام أكثر من ميزانيات كل وزارات الدفاع في العالم مجتمعة. وهذا يعني أن هذه القوة العسكرية الهائلة وراءها اقتصاد قوي، بل يقال إنه أقوى اقتصاد في العالم.

ثم وقعت حوادث نيويورك (١١/ ٩/ ٢٠٠١م) وضُربت أمريكا لأول مرة في تاريخها في عقر دارها. وقد كانت الواقعة وحدها كافية لتبدد شيئاً من ذلك الشعور بالأمن، لكن إدارة بوش أرادت استغلالها ـ كما يقول كثير من الأمريكان أنفسهم ـ لتنفيذ أجندة كانت قد أعدت سابقاً، فصارت ـ في سبيل ما تسميه بمحاربة الإرهاب ـ تهوّل من الأمر وتذكّر المواطنين في كل مرة بأن هنالك خطراً ماثلاً ارتفعت درجته اليوم إلى كذا، انخفضت إلى كذا، ارتفعت مرة أخرى إلى كذا، وهكذا. تحول ذلك الشعور بالأمن إلى خوف دائم، كان سهماً في المقوم الأول من مقومات الروح الأمريكية، ومما زاد من الخوف بل والهلع أن بعض المختصين يرون أن حكومة بوش لم تقم بما يجب من المحافظة على أمن البلاد؛ فهذا أحدهم يقول في مقال له: «إن الرئيس جورج بوش قد أفرد الهجوم الإرهابي النووي على الولايات المتحدة بأنه التهديد الحقيقي الذي ستواجهه الأمة في المستقبل المنظور. في مواجهته لهذا الخطر أكد بأن «الأسبقية العليا للأمريكان هي أن يحُولوا بين الإرهابيين وامتلاك أسلحة دمار شامل»، لكن كلماته لم يتبعها حتى الآن عمل[1].

(1) Foreign Affairs, http//www.foreignaffairs.org,March/April.2004.

وإذا كان الرئيس بوش قد عجز عن أن يتبع قوله بعمل يراه هذا الكاتب لازماً؛ فإنه قد قام بأعمال أخرى رأى أنها هي التي ستساعد على تسديد ضربات موجعة للإرهابيين، لكن تبين أنها سهام تصيب في الوقت نفسه المقوم الثاني من مقومات الروح الأمريكية. وذلك أن الأمريكان يعتقدون أن نظمهم السياسية والقضائية هي أحسن النظم وأعدلها[1]، وأن دستورهم الذي كُتب في القرن الثامن عشر هو أحسن وثيقة كتبها بشر (بل يبالغ بعضهم فيزعم أنها كانت إلهاماً من الله تعالى!). ومما زادهم فخراً بهذا وفتنة به أنهم رأوا الناس في العالم كله تقريباً يثنون على نظمهم هذه ويعدونها المثال الذي يجب أن تحذو الدول الأخرى حذوها. وكان الأمريكي إذا خرج سائحاً قوبل بالترحاب والاحترام في دول العالم كله تقريباً. ثم انقلب كل شيء بفضل سياسة بوش في محاربة ما يسميه بالإرهاب التي هي في حقيقتها محاربة ـ باسم الدين المسيحي ـ للإسلام.

ماذا بقي للولايات المتحدة لتفخر به: أبرئيس يتهمونه كما لم يتهموا رئيساً قبله بكثرة الكذب؛ حتى إنهم لَيؤلفون الكتب في هذا، ويتخذون له مواقع على الشبكة؟ أبحكومة تبيّن لهم أنها خدعتهم وغشتهم حين سوغت هجومها الظالم على العراق بحجة امتلاكه لأسلحة دمار شامل؟ (كيف يكون الحكم باسم الشعب إذا كان من يختاره الشعب يخدعه ويفعل ما لا تريد أغلبيته؟) أباحتجاز المئات من الشباب المسلم (بل بعض الأطفال بتعريف قانونهم) في جزيرة نائية بتهمة الإرهاب وعدم تقديمهم لمحاكمة وعدم السماح

---

(١) بل يعتقدون أن سجونهم أحسن سجون في العالم، قلت ذات مرة لأحد مسؤولي السجون إن النظام في السعودية أكثر إنسانية من نظامكم؛ لأنه يسمح للمسجون أن يخلو بزوجته. فاستغرب وقال: كيف يكون إذن مسجوناً، هذا جزء من عقابه؟ قلت: لكنكم بهذا تعاقبون زوجته أيضاً وربما اضطررتموها لأن تنحرف، وإذا كنتم تمنعونه من هذه الحاجة البشرية؛ فامنعوه أيضاً من الأكل أو الشرب أو النوم!

لهم بمحامين؟ أبسنّ قوانين جديدة تتعارض مع كل ما كان يعتز به الأمريكان من قيم الحرية والعدالة؟ أباكتشافهم بأنهم أصبحوا دولة بل شعباً مكروهاً يستحيي الواحد منهم الآن أن يصرح إذا ذهب إلى الخارج بأنه أمريكي؟ أبما يعرفه الكثير منهم الآن من قصص في معاملة المتهمين من المسلمين حتى في داخل الولايات المتحدة؟

قبل بضعة أيام عقد أحد المحامين الذين كانت الدولة قد عينتهم (بحكم قوانين سابقة) للدفاع عن متهمين مسلمين فقراء لا يملكون ما يستأجرون به محامياً. عقد هذا الرجل مؤتمره بعد أن كان من دافع عنهم قد أُدينوا، قال الرجل كلاماً فحواه أنه سيقال لكم إن هؤلاء الشباب إرهابيون وإنهم مجرمون. ثم قال إنه لم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام ولا المسلمين حتى كان اتصاله بهؤلاء الشباب، فأثنى على ما وجد فيهم من خلق مثالي، وضرب لذلك مثلاً بواحد منهم، قال إنه حصلت مساومة بينه وبين متهميه (من المخابرات) بأن يعترف ببعض الجرائم في مقابل إسقاط بقيتها عنه، وأن عقاب ما يعترف به لن يزيد على سنتين، مع أن عقابها كلها يصل إلى أكثر من ١٠٠ سنة، يقول إنه وافق، لكنه عندما رأى الورقة التي طُلب منه أن يوقّع عليها، قال: إن هذه كلها أكاذيب، فأنا لا أستطيع أن أحلف بالله على شيء أعلم أنه كذب مهما كانت النتيجة. قال المحامي: من منا يفعل هذا؟ وقال: إنني لا أقول فقط إن هذا الشاب لا يكذب، بل أقول: ما أظنه يعرف حتى كيف يكذب!

ونقول نحن: إنه إذا كان من شأن الأكاذيب والاعتداءات الظالمة والاتهامات الباطلة أن تفت من روح الأمة الأمريكية؛ فإنها بحمد الله ـ تعالى ـ تقوّي من روح المسلمين منهم، وتزيدهم ثقة بدينهم واعتزازاً به.

وقد كانت السهام الموجهة إلى المقوم الثاني من مقومات الروح الأمريكية أكثر إيلاماً وأشد تأثيراً؛ تجد التعبير عنه في كثرة ما قيل ويقال عنه في وسائل الإعلام مسموعة ومشهودة ومقروءة؛ فهم الآن يناقشون أموراً كانوا يعدُّونها من مسلَّمات حضارتهم، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ** ﴾ [**فاطر** : ٤٣].

تم.. تم.. تم.. أسلوب جديد ركيك

(البيان ١٩٩ . ربيع الأول ١٤٢٥ هـ ـ إبريل/ مايو ٢٠٠٤م)

هذا مقال في اللغة العربية لم يشرُف صاحبه بأن يكون من علمائها المختصين بها؛ غير أنه من محبي هذه اللغة الشريفة لغة الكتاب العزيز، يسرني ما سرها ويسوؤني ما ساءها. وإنه لمما يسيء إليها أن يستبدل أهلها بعباراتها الفصيحة عبارات ركيكة فرضوها عليها تقليداً للغات أجنبية لم تبلغ من شَأْوِ الفصاحة مبلغها، ثم أشاعوها حتى صارت على لسان الصغير والكبير والعالم والجاهل.

انتبهت إلى مشكلة (تمّ) هذه قبل أكثر من عشر سنوات حين قدم أحد إخواننا السودانيين ـ الدكتور عثمان أبو زيد ـ رسالة للدكتوراه في الإعلام من جامعة الإمام، كانت عن لغة الصحافة العربية. وجد الدكتور أن كلمة (تمّ) هي من أكثر ـ إن لم يقل أكثر ـ الكلمات تكراراً في صحفنا. تعجبت لذلك، ثم بدأت أرصد لغتنا الحديثة، فوجدت أن الأمر ليس قاصراً على الصحافة، بل هو شائع في كتبنا وأحاديثنا ومحاضراتنا.

نظرت في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فوجدت أن كلمة تمّ لم ترد في القرآن كله إلا مرة واحدة، وأن كلمة تمت وردت ثلاث مرات، وأما الصيغ الاخرى: أتم، يتم، أتمم، تماماً، متمّ ـ التي ليست موضوع حديثنا ـ فلم ترد كلها إلا أربعاً وعشرين مرة.

ثم بدأت ألقي بالاً لورود هذه الكلمة فيما أقرأ من كتب الأقدمين وأشعارهم، فوجدت أن نسبة ورودها فيها قليلة جداً ربما كانت كنسبة ورودها في كتاب الله تعالى. قلت في نفسي: ما الذي اكتشفناه نحن في قرننا المتأخر هذا في هذه الكلمة مما لم يكن يعرفه أهل هذه اللغة؟ هل وجدناها هي المعبرة عن معنى جديد هو من لوازم عصرنا؟ أم ماذا؟ ثم وجدت الإجابة أمراً مؤسفاً. وجدت أننا صرنا نستعملها ـ في أكثر الأحيان ـ بدلاً عن صيغة نائب الفاعل المعروفة؛ فبدلاً من أن نقول: فُعل الشيء صرنا نقول تم فعله. من أمثلة ذلك ما تسمعه او تقرؤه في بعض الصحف والقنوات من مثل قولهم: تم إغلاق مكتب الحزب، تم اكتشاف دواء جديد، تم تعيين فلان للمنصب الفلاني، تمت ترقية فلان، لم يتم العثور على أسلحة الدمار الشامل، وهكذا.

كان الاستعمال الغالب لهذه الكلمة بمعنى إكمال الشيء الناقص، ولذلك لم تكن تستعمل إلا مع الأسماء. من أمثلة ذلك في كتاب الله:

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ [القصص: ٢٧].

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾[البقرة: ٢٣٣].

ومما جاء في الحديث:

«فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا».

ومما جاء في الشعر الجاهلي قول النابغة:

إنـي أتمـم أيســاري وأمنحهـــم

مثنى الأيـادي وأكسو الجفنة الأدما

قال ابن فارس: «تتميم الأيسار أن تطعمهـــم فـوز قدحـك فلا تنتقص منه شيئاً».

أما الاستعمال الحديث الركيك فلا علاقة له بإتمام شيء ناقص، وإنما صارت الكلمة تستعمل للتعبير عن فعل لم يسم فاعله. كنت أظن أن كل هذا التغيير حدث خطأ وغفلة، غير أن بعض الشباب بالجامعة أخبرني آنذاك أن أستاذ الإعلام في البلد التي جاء منها كان ينهاهم عن استعمال صيغة نائب الفاعل ويصفها بأنها سخيفة. وينصحهم بدلاً من ذلك بأن يستعملوا صيغة تم فعله. قلت له: إن أستاذكم هذا لأحمق؛ لأنه لم يفعل شيئاً غير أن طوّل العبارة. فإذا كانت الصيغة التي استسخفها لا تسمي الفاعل فصيغته أيضاً لا تسميه. كل ما هنالك أنها تستبدل بالكلمة الواحدة ثلاث كلمات. فبدلاً من أن تقول مثلاً: فهم المقال، وبيعت السلعة، وعوقب المجرم، تقول تم فهم المقال، وتم بيع السلعة، وتمت عقوبة المجرم. بل قال لي أحدهم إنها تقليد للصيغة الإنجليزية التي يوصف الفعل فيها بأنــه كامــل أو تام. فيبدو أن أحــد عباقرة المقلــدة قال: لماذا لا يكون لنا كما لهم فعل تام، فاقترح أن تضاف كلمة تم للتعبير عن هذا التمام، مع أن كلمة تام لا تستعمل في العبارة الإنجليزية، وإنما يوصف بها الفعل في كتب النحو.

إذا أردت أن ترى ركاكة هذا الأسلوب أو التركيب الجديد فانظر ما يحدث لو أنك عبرت به عن معاني الآيات التالية:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١ - ١٣].

كنت ستقول ـ حماني الله وإياك:

إذا الشمس تم تكويرها، وإذا النجوم تم انكدارها، وإذا الجبال تم تسييرها، وإذا العشار تم تعطيلها، وإذا الوحوش تم حشرها، وإذا البحار تم تسجيرها، وإذا النفوس تم تزويجها، وإذا الموؤودة تم سؤالها بأي ذنب تم قتلها، وإذا الصحف تم نشرها، وإذا السماء تم كشطها، وإذا الجحيم تم تسعيرها، وإذا الجنة تم إزلافها.

فهل يقول مثل هذا إنسان بقيت له أثارة من حس جمالي، أو سليقة عربية؟ كلاَّ. ولذلك فإن أكثر الناس استعمالاً لكلمة تم بهذا المعنى لا يلتزم بها في كل حال، بل يجد نفسه مضطراً للجوء إلى الصيغة الفصيحة[1].

---

(١) هذا يذكرني بصيغة استغربت لها في اللغة الملاوية. كنا في مؤتمر إسلامي بالعاصمة الماليزية، وكانت بعض الأوراق تتلى فيه بلغة القوم، وكنت من الذين يجلسون ويستمعون مع أنني لا أفهم شيئاً. غير أنني لاحظت أنهم يكررون بعض الكلمات مرتين، فيقول أحدهم مثلاً: كتاب كتاب، رسول رسول، ملك ملك. فلما سألتهم عن ذلك أخبروني بأن هذه هي صيغة الجمع عندهم. قلت: أفكلما أردتم جمع اسم كررتم مفرده هكذا مرتين؟ قالوا: نعم! قلت: كيف إذن تترجمون قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فضحكوا وقالوا: هذه ندعها كما هي.

كيف إذن نصحح هذا الخطأ الذي رسخ في أذهاننا سنين عدة؟ إن أول خطوة هي أن نكون مقتنعين بخطئه وقبحه، ثم إذا كان الواحد منا كاتباً فعليه أن يراجع ما كتب ليحذف منه كل ورود لكلمة تم بهذا المعنى الغالط، وإذا كان مصححاً في صحيفة أو دار نشر فعليه أن يفعل مثل ذلك. ثم على الأساتذة ولا سيما مدرسي اللغة العربية أن ينبهوا طلابهم إلى هذا حتى لو كانوا هم أنفسهم من الذين يرتكبون هذا الخطأ.

أكرر أخيراً أن هذا ليس إنكاراً مني لعربية الكلمة كما ظن ذلك بعض من سمعوا اعتراضي على هــذا الاســتعمال لها؛ إذ لا ينكر عربيتها من له أدنى إلمام بكتاب الله تعالى، لكننا إنما ننكر وضعها في غير موضعها. وقديماً قال سيبويه:

«فليس لك في هذه الأشياء إلا ان تجريها على ما أجروها، ولا يجوز لك أن تريد بالحرف [يعني الكلمة] غير ما أرادوا».

ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي

(البيان ٢٠٠ ـ ربيع الثاني ١٤٢٥ هـ ـ مايو/ يونية ٢٠٠٤م)

الدول الغربية ـ ولا سيما الولايات المتحدة ـ حريصة كل الحرص على أن يدوم لها تفوقها المادي (الاقتصادي والعسكري) وتفوقها الثقافي. وهي لا تكتفي لتحقيق هذا باتخاذ برامج داخلية تضمن لها استمرار التفوق، لكنها تلجأ أيضاً إلى سياسات خارجية تحاول بها عرقلة تقدم أي بلد ترى فيه خطراً على تفوقها في هذين المجالين أو أحدهما. وإذا كانت ترى في الصين واليابان أمارات لمثل هذا التقدم الذي قد يمثل خطراً على تفوقها الاقتصادي؛ فإنها لا ترى شيئاً كهذا في البلاد الإسلامية ولا سيما العربية منها. إنهم يقولون إن الدخل القومي للبلاد العربية مجتمعة لا يساوي دخل أسبانيا. وقال أحدهم: إذا استثنينا البترول فإن صادرات هذه البلاد لن تساوي صادرات بلد أوروبي صغير كفنلندا. ولكن إذا كانوا يأمنون الآن جانب هذه البلاد من ناحية القوة المادية، فإنهم لا يضمنون دوامه بغير تدخل منهم، ولذلك تجدهم يخططون لاستمرار هذا التخلف بوسائل كثيرة ليست هي موضوع حديثنا في هذا المقال.



موضوعنا اليوم هو مخططاتهم لمواجهة الخطر الديني الإسلامي؛ وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية. إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشاراً حتى في البلاد الغربية. بل أقول إنه أكثر انتشاراً لا بالنسبة للأديان فحسب بل بالنسبة لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى، وليس في البلاد الغربية فحسب بل في سائر بلدان العالم. هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بد من إعداد الخطط للمكر به.

إن تفاصيل مكرهم هذا أمر يطول وصفه؛ لكننا سنركز حديثنا اليوم على تقرير لمركز البحوث الأمريكي المسمى راند Rand والذي تنشر البيان ملخصاً له[1].

لم أكتف بقراءة هذا الملخص بل اطلعت على التقرير كله في أصله الإنجليزي، فخطرت ببالي خواطر كثيرة عنه، منها:

أولاً: أن الخطط التي يوصي بها هي خطط ظل الغرب يتبعها منذ زمن؛ فالدراسة لم تأت في رأيي بشيء جديد لكنها صرحت بما كان متبعاً وعبرت عنه تعبيراً مفصلاً. إن الإسلام الذي يراه الغرب خطراً عليه هو الإسلام الحق الذي يستمسك به بعض المسلمين بصدق وجد ويحاولون الدعوة إليه، وهو الإسلام الذي يحبه ويؤمن به إذا عرفه كثير من الناس في الغرب، إنه إسلام القرآن والسنة. ولذلك تجد أن أكثر من دخل في الإسلام ـ في الولايات المتحدة على الأقل ـ إنما دخلوا فيه بعد قراءتهم لترجمة من ترجمات هذا الكتاب العزيز.

---

(١) انظر (ص ١٠٠) من العدد (٢٠٠) مجلة البيان.

ثانياً: ولأن التقرير كان صريحاً؛ فإنه لا يحاول مخادعة المسلمين، كما يفعل السياسيون من أمثال بوش أو بلير حين يقولون إن مشكلتنا ليست مع الإسلام؛ فهو دين سلام ومحبة وتسامح، وإنما هي مع أقلية من المنتسبين إليه من الإرهابيين أو المتطرفين.

ثالثاً: واضح من الدراسة أن المسلمين مدعوون لا إلى فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الغرب، ولكنهم مدعوون إلى فصل الإسلام وإبعاده عن الحياة كلها. والتقرير يعترف بأن هذا أمر صعب، لكنه أمر لا مفر منه فيما يبدو. «إنه ليس بالأمر السهل» يقول التقرير: «أن تبدل ديناً عالمياً كبيراً كالإسلام. إنه إذا كان (بناء الأمة) عملاً مرعباً، فإن (بناء الدين) أشد خطورة وتعقيداً» .ومما يدلك على جدهم في محاولة التبديل هذه أن بهذا التقرير فصلاً كاملاً عن الحديث النبوي يقول فيه عن الحديث: «إنه في أحسن أحواله أمر مريب متناقض لا يمكن الاعتماد عليه في فض النزاع في أي قضية؛ لأن كلاًّ من المتنازعين يمكن ان يجد فيه ما يؤيد وجهة نظره». ولذلك فإن التقرير ينصح بإصدار كتيبات تتضمن أحاديث تؤيد وجهات نظر الحداثيين والعلمانيين، حتى لا يبقى عامة المسلمين ضحية للأحاديث والتفسيرات التي ينشرها بينهم العلماء التقليديون والأصوليون. يعتمد التقرير في هذا على كتابات أقوام معروفين بالزندقة وإنكار السنة.

رابعاً: استغربت حين قرأت هذا التقرير عن أي عالم إسلامي يتحدث؟ أين في العالم الإسلامي أولئك الحداثيون أو العلمانيون الذين لا تتاح لهم فرص النشر، أو الذين ليست لهم منابر عامة يخاطبون منها الجماهير، أو الذين لا تؤثر آراؤهم في المقررات المدرسية؟ أليست هذه الأمور كلها في أيدي العلمانيين في بلدان العالم الإسلامي كله إلا ما ندر؟ أليست أنظمة الحكم في كل بلدان العالم الإسلامي - إلا ما ندر - أنظمة لا تخفي علمانيتها؟ عبرت عن استغرابي هذا لأحد إخواننا السعوديين فابتسم وقال: إن

هذا التقرير إنما يتحدث عن السعودية. فكرت في محتويات التقرير مرة اخرى فأيقنت أن سهامه موجهة فعلاً نحو السعودية.

خامساً: قلت في نفسي: أخشى أن يظن بعض من يقرؤون هذا التقرير ممن لا يزالون يحسنون الظن بأمثال هذه المؤسسات الغربية أن الديمقراطية التي يدعو العالم الإسلامي إليها هي الديمقراطية بمعنى الرضى بحكم الشعب. أقول لهؤلاء: هَبُوا أن دولة كالسعودية قالت للغربيين: تريدون ديمقراطية؟ حسناً! فلنفعل كما فعلتم أنتم معاشر الأمريكان. لندع ممثلين للشعب من كافة مناطقهم الجغرافية، ولنقل لهم: صوغوا لبلدكم دستوراً كما فعل الأمريكان؛ ولنفترض أن هؤلاء الممثلين اجتمعوا فكان أول ما ذكَّروا به أنفسهم واجتمعت عليه كلمتهم أنهم ليسوا سعوديين فقط لكنهم مسلمون أيضاً، وأن إسلامهم هذا هو جوهر هويتهم، ومعتمد جماعتهم، ومصدر عزهم وكرامتهم، وسبب تقدير الأمة الإسلامية لهم، وأنهم يؤمنون لذلك بأن دستورهم الأعلى الذي يحكم حياتهم ويهيمن على كل ما يصدرون من وثائق هو نصوص الكتاب وصحيح السنة، وأنه ينبغي لذلك أن لا يكون ـ قرروا ـ في نظام حكمنا ولا في قوانيننا، ولا في مناهجنا الدراسية، ولا في سياستنا الخارجية، ولا في أي جانب من جوانب حياتنا ما هو مخالف لما في هذين المصدرين. هب أنهم جلسوا بعد ذلك وتداولوا لعدة أسابيع خلصوا في نهايتها إلى صياغة دستور، ثم عرضوه على شعبهم في استفتاء عام، شهد عليه مراقبون محايدون من هيئة الأمم، فكانت النييجة أن أجازته الأغلبية الساحقة من المواطنين. هل يرتاب أحد بعد هذا في أن هذا الدستور جاء بطريقة ديمقراطية، وأن على من كان يؤمن بالديمقراطية أن يرضى به للشعب السعودي مهما خالفهم الرأي؟ كلاًّ. ولكن هل تظنون أن الغرب سيرضى أو ترضى أمريكا بذلك؟ كلاًّ ثم كلاًّ.

لا تنسوا أنهم لا يتكلمون عن الديمقراطية بهذه الصفة العامة التي ذكرناها، إنهم لا يتحدثون عن ديمقراطية تكون فيها الكلمة للأمة مهما كانت تلك الكلمة. إنهم يريدون نظاماً أشبه ما يكون بنظامهم، وقيماً أشبه ما تكون بقيمهم ولا سيما في الموقف من الدين ومن العلاقة بين الجنسين. هذه في رأيهم هي الديمقراطية الليبرالية التي لا ديمقراطية حقيقية غيرها. ألا تذكرون ما قال (بريمر) للعراقيين من أن هنالك خطوطاً حمراء يجب أن لا يتخطاها مجلس الحكم في وضعه لمسودة الدستور، وأن من هذه الخطوط فصل الدين عن الدولة. وأن الديمقراطية التي يريدونها للعراق هي ديمقراطية على المنوال الأمريكي أو الغربي؟ إن شعارهم هو: كونوا أحراراً، لكنكم لن تكونوا في حكمنا أحراراً إلا إذا اخترتم لأنفسكم ما اخترنا نحن لأنفسنا، إلا إذا كانت طريقة حياتكم كطريقتنا، إلا إذا لم يكن في ما اخترتموه ما نرى فيه مهدداً لقيمنا وثقافتنا ومصالحنا. فيما عدا ذلك فأنتم أحرار جد أحرار.

سادساً: مما يدلك على هذا أنهم ليسوا راضين حتى عمَّن كان من العلمانيين منا غير معجب بهم. يقول التقرير إنه بما أن العلمانيين يؤمنون مثلنا بفصل الكنيسة عن الدولة «فقد كان المفروض أن يكونوا الحلفاء الطبيعيين لنا في العالم الإسلامي. لكن المشكلة كانت وما تزال أن كثيراً من العلمانيين المهمين في العالم الإسلامي لا يوادُّوننا، بل قد يكونون شديدي العداوة لنا لأسباب أخرى».

سابعاً: ما الثقافة التي يدعوننا إليها؟ إنها ليست العلوم التي كانت من أسباب تقدمهم المادي، وإنما هي الكفر والعري والزنا والشذوذ والمخدرات والفردية التي هي من علامات تدهور حضارتهم لا من أسباب قوتها. لذلك تجد بعضهم يقول إنه

لا خوف على حضارتنا من حضارة أخرى معاصرة، وإنما الخوف عليها من الانتحار الذي بدأت تمارسه ويشيرون إلى مثل أنواع السلوك تلك.

ماذا نفعل؟ هل نستجيب ونخنع؟ فوالله لن يزيدهم هذا إلا احتقاراً لنا، وتمادياً في إذلالانا، ودأباً على الوقوف في طريق تقدمنا الاقتصادي والتقني والعسكري.

فلنقل لهم: لقد رضينا بأن نعيش معكم في سلام، وأن من يعتدي على الأبرياء منكم ومنا لا يمثلنا ولا يعبر عن رأينا. لكنا لن نرضى بأن يكون هذا التعايش تعايشاً بين سادة وعبيد، أو محتلين ومواطنين، أو منتجين ومستغلين ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج: ٤٠].

أمـريـكا المـريضـة

(البيان ٢٠١ - جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ - يونيو/ يوليو ٢٠٠٤م)

الولايات المتحدة صاحبة أكبر قوة اقتصادية، وأكبر ترسانة حربية، وأوسع إمكانات إعلامية، لكنها مع ذلك مصابة بداء عُضال لا تجدي معه كل هذه القوى وغيرها من إنجاء الأمة مما يصيبها من الهلاك، داء يعلم به ويعترف به كثير من أهلها ويسمونه بالانتحار، وهو اسم مناسب؛ لأن قوة المنتحر لا تعصمه من الانتحار بل قد تعينه عليه. إنه الداء الذي فضحه سجن أبي غريب، داء التدهور الخلقي الجنسي المتسارع. لقد حاول المسؤولون الأمريكان ومن شايعهم من غيرهم أن يبرئوا الشعب الأمريكي مما حدث، وأن ينكروا أن يكون ذلك الاستمتاع الحيواني بتعذيب المسجونين تعذيباً مرتبطاً كله بالجنس معبراً عما أسموه بالقيم الأمريكية. لكن الحقيقة أن ما حدث لا يمكن أن ينفك عن ذلك الداء العضال الذي تعاني منه الحضارة الغربية كلها، والذي تعمل على نشره في أنحاء العالم كله بما في ذلك العالم الإسلامي.

من أين يا ترى أتى أولئك الفتيان والفتيات الذين ارتكبوا تلك الجرائم الفاحشة، وما نوع التربية التي تلقوها؟ يجب أن لا ننسى أنهم تخرجوا جميعاً في مدارس أمريكية

لا ذكر فيها لدين ـ أياً كان ـ ولا خلق، ولا فصل فيها بين فتيان وفتيات، ولا إلزام فيها بلباس إلا منع العري الكامل؛ مدارس يتعلم فيها هؤلاء المساكين أن الزنا ليس فاحشة، والشذوذ ليس شذوذاً؛ وإنما هو ميل فطري، وأن الممارسات الجنسية أياً كانت ليس فيها ما يستحيى منه، بل إنما هي نوع من التحرر، وإنهم أبناء بيئة يكاد أمر الجنس يستغرق فيها حياتهم كلها؛ فهو الغالب على الأفلام التي يشاهدون، والقصص التي يقرؤون، والأحاديث التي بها يتلهون، والنكات التي منها يضحكون، والموسيقى والأغاني التي لها يطربون، ومواقع الشبكة التي فيها يصولون ويجولون، والدعايات التي لها في كل حين يتعرضون. ويجب أن لا ننسى كذلك أنه ليس فيما ارتكبه أولئك الفتية ما تنكره قيم بلادهم سوى أنهم أكرهوا المسجونين عليه. أعني انه ليس في قيم الحضارة الغربية ما ينكر أي نوع من الممارسات الجنسية بكل أنواعها حتى مع الأقارب إذا كان عن رضى، وإنما الجريمة أن يمارس بغير رضى حتى مع زوجة. ولعلكم تذكرون أنهم لم يجدوا شيئاً يأخذونه قانوناً على رئيسهم السابق فيما فعله مع تلك الفتاة سوى أنه كذب عليهم.

لكن الله ـ تعالى ـ لم يحرم ما حرم من الفواحش عبثاً، وإنما حرمها لما ينتج عنها من آثار ضارة بل مدمرة لكل أمة تصر على الاستمرار فيها. وكثير من علماء الاجتماع الغربيين يعرفون بعض هذه الآثار ويحصونها، لكن الكثيرين منهم يظلون إزاءها حائرين بائرين لا يدرون ما يصنعون. وقد كنت كتبت في هذه المجلة المباركة مقالين لخصت فيهما كتاباً للمؤلف الأمريكي الشهير (فوكوياما) أرجع فيه أسباب التفكك الاجتماعي الذي تعاني منه الدول الصناعية كلها إلى تفكك الأسرة، وأرجع تفككها إلى الخيانات الزوجية التي أدت إليها أسباب ثلاثة:

١ ـ فكر شاع في الثمانينيات يشجع الممارسات الجنسية غير المقيدة باعتبارها نوعاً من الحرية.

٢ ـ حبوب منع الحمل.

٣ ـ اختلاط الرجال بالنساء في أماكن العمل.

لكنه نسي شيئاً أهم من هذا كله هو ضَعف الوازع الديني الذي أدى إليه تغلغل العلمانية. وإذا كان (فوكوياما) إنما يكتب باعتباره عالم اجتماع يسجل ولا يميل إلى النقد أو التوجيه؛ فإن بعض المتدينين والحادبين على الأخلاق يعبرون عن سخطهم الشديد لما آل إليه أمر بلادهم. فهذا هو أحدهم يقول: «إن معظم العالم اليوم يتأمرك بسرعة؛ لكن عبارة (تأمرك) صارت تعني يمارس الزنا واللواط ومنع الحمل والإجهاض والقتل الطبي»[1]. وإذا كان هذا الفيلسوف الكاثوليكي يعبر عن أسفه لما آل إليه أمر بلاده، فإن الطبيبة (مج ميكر) المختصة بالمراهقين تنادي أمتها بحقائق مقلقة؛ ولكن لا حياة - فيما يبدو - لمن تنادي. تعلن هذه الطبيبة على غلاف كتابها المسمى: (الوباء)[2]، أن الأمراض المنتقلة عن طريق الممارسات الجنسية تصيب ثمانية آلاف مراهق في كل يوم (وهي تتحدث عن أمريكا وحدها)، وتذكر من تفاصيل هذه الممارسات وسعة انتشارها وسيطرتها على حياة هؤلاء المساكين ما يثير الغثيان. وهي لا تقصر دراستها على الأمراض الجسدية، بل تتعرض لما تسببه من أمراض نفسية. وتخلُص من دراستها إلى أنه

---

(1) Peter Kreeft, Ecumenical Jihad: Ecumenism and the Culture War, Ignatius, San Francisco,1994, p. 11.

(2) Meg Meeker, M.D. Epidemic: How Teen Sex is Killing our Kids, life Line Press, Washington, 2002.



لا وقاية من هذه الأمراض إلا بالكف عن الممارسات الجنسية مع غير الزوجة. لكنها تشكو خلال كتابها من أنه مع ظهور ما ذكرت من حقائق علمية فإن الثقافة السائدة ـ بل وتوجيهات المسؤولين التربويين ـ تغري الشباب بهذه الممارسات غير المنضبطة. وتوافقها على هذه الشكوى امراة مشهورة هي الدكتورة (لورا اشلسنجر) إذ تقول في تقريظها لهذا الكتاب: «إن أولادنا يسمعون من شخصيات مرجعية مثل الأطباء والمعلمين ورجال الدين أن لهم الحق في تعبيراتهم وتجاربهم الجنسية. يقال لهم: إن أنواع السلوك هذه مفيدة لهم، وأنها لا تؤذيهم. لكن نفسياً وروحياً وطبياً فإن كل هذه أكاذيب» ثم تنصح الوالدين بقراءة هذا الكتاب لينقذوا أولادهم.

ويزداد فهمنا لخطر هذه الإباحية حين ندرك أن سنن الله الاجتماعية تربط بين كل أنواع الشرور؛ فكأنها كلها آخذ بعضها برقاب بعض كلما دُعِيَتْ واحدة منها أتت ومعها بعض أخواتها. ولهذا فإن ربنا يصف عباد الرحمن بأنهم: ﴿ **لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ [**الفرقان**: ٦٨].

فطلاب المدارس والجامعات في أمريكا لا يمارسون تلك الأنواع من الانحرافات الجنسية فحسب، بل يتعاطون معها المخدرات، ولا يبالي كثير منهم بإلحاق الأذى الجسدي بزملائه ـ بل وأساتذته ـ من الذكور والإناث؛ حتى إن الأساتذة لا يدخلون الفصول في بعض المدارس إلا وهم مسلحون! وأنت لا تستغرب هذا حين تقرأ في كتاب ربك أن قوم لوط لم يكونوا يأتون في ناديهم المنكر فحسب، بل كانوا يقطعون السبيل، وكانوا يُخرِجون من قريتهم كل أناس يتطهرون.

قل لي بربك: أي الفريقين أَوْلى ـ مع هذا ـ بإعادة النظر في مناهجه الدراسية وفلسفته التربوية؟



قد يحتج قائل بأن ما ذكرناه ليس قاصراً على أمريكا؛ بل إن بعضه يوجد في غيرها ولا سيما إسرائيل. ونقول: نعم! وقد يقولون: إن شيئاً منه يوجد حتى بين شباب المسلمين. ونقول أيضاً: نعم! بل نقول: إن هذه الانحرافات هي من نتائج الثقافة الجاهلية، وأن الشـــياطين توحـــي بها إلى أوليائها وحياً مباشـــراً، ولا تُحْوِجُهم إلى أن يقلدوا فيها غيرهم. ألم يقل الله ـ تعالى ـ محذراً عباده: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا** ﴾ [**الأعراف** : ٢٧]؛ فهذا هو السبب الأساس للميل للتعري في كل الثقافات الجاهلية. لكن مشكلة الغرب أن شياطين الإنس فيه انضموا إلى شياطين الجن في دعوتهم الناس إلى هذه الفواحش وتصويرها على أنها من مقتضيات العصر التي لا يكتمل تحضر أمة إلا بها. لذلك قد تجد نساء عفيفات يُخدَعن بهذه الحجة فيكشفن شعورهن وصدورهن، وما علمن أنهن بهذا يبدأن الخطوة الأولى في الانحدار إلى نوع تلك الهاوية التي ينحدر إليها الغرب.

الإسلام السياسي

(البيان ٢٠٢ ـ جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ ـ يوليو/ أغسطس ٢٠٠٤م)

عبارة (الإسلام السياسي) كأختها (الأصولية) صناعة غربية استوردها مستهلكو قبائح الفكر الغربي إلى بلادنا وفرحوا بها، وجعلوها حيلة يحتالون بها على إنكارهم للدين والصد عنه. فما المقصود بالإسلام السياسي عند الغربيين؟ كان المقصود به أولاً الجماعات الإسلامية التي انتشرت في العالم العربي وفي باكستان والهند وأندونيسيا وماليزيا وغيرها تدعو إلى أن تكون دولهم إسلامية تحكم بما أنزل الله تعالى.

ما الذي يأخذه خصوم الإسلام السياسي عليه؟

أما الغربيون فاعتبروه أولاً ظاهرة غريبة بعد سني الحكم الاستعماري الذي ظنوا أنه وطَّد الحكم العلماني على المنهاج الغربي، ووضع أسساً متينة للتبعية وضمان المحافظة على المصالح الغربية. فشق عليهم أن تنبت في بلاد المسلمين نابتة تعارض هذه العلمانية التي يرونها تعم العالم بأسره. كيف تنشأ جماعات تسير عكس هذا التيار العالمي، وتدعو إلى الرجوع إلى حكم ديني إسلامي؟

وثانياً: لأن الرأي السائد بينهم ـ لا أقول الذي يعتقده كل واحد منهم ـ هو أن الدين ينبغي أن يكون شأناً فردياً بين العبد وربه، لا مدخل له في الحياة العامة ولا سيما السياسية منها التي يرون أن تكون متروكة لما يراه الناس، وأن تكون مبنية على المساواة الكاملة بين المواطنين بغض النظر عن معتقداتهم.

وثالثاً: لأن الرأي الشائع بينهم أن النصوص الدينية محدودة بزمانها ومكانها الذي ظهرت فيه، وأنها لذلك ينبغي أن لا تفهم على ظاهرها، بل يجب أن تؤوَّل تأويلاً يجعلها متناسبة مع ثقافة العصر.

ورابعاً: لأن منهم من ظن أن الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ ظاهرة جديدة لم تكن في الإسلام من قبل؛ فلذلك ناسب أن توصف بالإسلام السياسي تمييزاً له عن الإسلام الديني.

وخامساً: لأنهم رأوا فيها صورة من صور استغلال الدين للمآرب السياسية.

لهذه الأسباب وأمثالها كانوا وما يزالون شديدي العداوة الفكرية والعملية للجماعات التي تتسم بما أسموه بالإسلام السياسي، يحرشون الحكومات عليها، ويدعونها لكبتها حتى لو كان ذلك على حساب الديمقراطية التي كانت سائدة آنذاك في العالم الإسلامي، والتي استفادت منها تلك الجماعات. ويكتبون الكتب والمقالات، ويسخرون سائر وسائل الإعلام لحربها. ينصرهم في هذه الحرب أذنابهم المنافقون في بلاد المسلمين الذين يقتاتون على فضلات فكرهم ودعاياتهم. وقد امتدت حربهم في أيامنا هذه للدول التي تؤمن بمبدأ تطبيق الشريعة.

ولما كان الغربيون يرون أن ما هم عليه من دين أو فكر أو ثقافة أو حتى عادات في المأكل والملبس والجد واللعب، بل وما كان لهم من تاريخ وما مارسوه من تجارب،

وسائر ما ألفوا من جوانب الحياة، هو الأمر الطبيعي، وأن ما خالفه هو الشذوذ الذي يحتاج إلى تفسير؛ فقد اجتهد بعضهم في أن يجد تفسيراً لهذه (الظاهرة). فكان مما سلُّوا به أنفسهم أنها نتيجة لظروف طارئة هي الحكم القهري والتخلف الاقتصادي والضعف العسكري الذي ابتليت به البلاد التي ظهرت فيها هذه الحركات ولا سيما العالم العربي، وأن علاجها لذلك هو الضغط على تلك الحكومات لتكون أكثر انفتاحاً وديمقراطية، ومساعدتهم على شيء من النمو الاقتصادي يحسن من أوضاع الشباب المتذمرين؛ فإذا ما حدثت هذه الإصلاحات، وزالت الأوضاع القديمة زالت بزوالها نتائجها التي من أهمها ظاهرة الإسلام السياسي.

ونقول إن ما ذكروه من أسباب ربما كان فعلاً من عوامل تشجيع ما يسمونه بظاهرة الإسلام السياسي، لكن مما لا شك فيه أنه ليس منشأها. فكل من له أدنى معرفة بدين المسلمين وتاريخهم يعلم أن قضية الالتزام بما أنزل الله في شؤون السياسة والحكم هي أمر عريق فيه: في نصوص كتابه، وسنة نبيه، وأقوال علمائه. وأن تصديق ذلك في واقعه التاريخي الذي لم يعرف شيئاً اسمه الحكم العلماني، وأن هذا الحكم إنما فرض عليه من خارجه يوم استولت جيوش الغرب على بلاده. وحتى هذه العلمانية الدخيلة لم تبلغ مبلغ علمانيتهم في مدى بُعدها عن الدين، حتى إن الكثيرين منهم لينفون أن تكون حكومة من حكومات العالم الإسلامي علمانية، ويرون أنه من الخطأ لذلك أن توضع الإسلامية (بمعنى النشاط السياسي للحركات الإسلامية) في مقابل العلمانية[1].

---

(١) انظر مثلاً:

International Crisis Group, Middle East and North Africa, Briefing, Islamism in North Africa1: the Legacies of History, p.5, www.crisisweb.org

وإذن فالقول بأنها مجرد استغلال للدين لتحقيق أهداف سياسية ليس بصحيح أيضاً: أولاً: لأن من أعظم من دعا إلى الحكم بما أنزل الله وبيَّن أنه جزءٌ لا يتجزأ عن دين الإسلام علماء أعلام لم تكن لهم أطماع سياسية، ولا كانت لهم في يوم من الأيام علاقة بالأحزاب الإسلامية السياسية؛ علماء من أمثال: الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبد العزيز بن باز.

هل استغل بعض الأفراد وبعض الجماعات الدينَ لتحقيق أهداف دنيوية سياسية أو غير سياسية؟ نعم! وقد ظل كثير منهم يفعل ذلك على مر التاريخ، ومع كل رسالات السماء. ولا أعرف كتاباً تطرَّق لهذه المشكلة وبيَّن أسبابها وأنواع مرتكبيها ونتائجها وحذر منها مثل كتاب الله تعالى. فعلى الذين يتحدثون عن هذه المشكلة أن يعلموا أنهم لم يأتوا بجديد. إن هؤلاء يدعوننا لأن نترك ديننا؛ لأن بعض الناس استغله لأسباب سياسية. ولو تابعنا منطقهم هذا لتركنا بناء المساجد؛ لأن بعض المنافقين استغل بناءها لأسباب سياسية، فاتخذها: ﴿**ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ**﴾ [**التوبة**: ١٠٧].

وكانوا مع ذلك يحلفون بأنهم ما أرادوا إلا الحسنى: ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى**﴾ [**التوبة**: ١٠٧].

ولو اتبعناه لتركنا الإنفاق في سبيل الله؛ لأن بعض الناس يتخذ ما ينفق مغرماً (أي غرامة) ويتربص بنا الدوائر، ولقررنا أن لا يكون لنا علماء؛ لأن بعض علماء السوء يستغل علمه لأغراض دنيوية: ﴿**وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ**

اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩٨ – ١٠٠].

وكما أن بعض الناس يستغل الدين لتحقيق أهداف سياسية فيكون انحرافه بسبب سوء قصده، فإن آخرين ينحرفون بسبب سوء فهمهم وقلة علمهم، فيحاولون تحقيق بعض الأهداف السياسية بوسائل وطرق مخالفة لدين الله وتحريفاً له وفتنة للناس عنه؛ فهل نترك العمل السياسي على أساس ديني؛ لأن بعض الناس يسيء فهم الدين؟

يقول بعض الغربيين: (لكن المشكلة أن كل إنسان يمكن أن يدّعي أن فهمه هو الفهم الصحيح للتوراة أو الإنجيل أو القرآن، بل يزعم بعضهم أنه [يعني القرآن] كالكتاب المقدس: العهد القديم والعهد الجديد ـ بإمكانك أن تجد فيه أياً ما تريد لتسوّغ به كل ما تريد تقريباً)[1]، نقول: فرق بين أن يدّعي مدّع أن ما استدل به من قول يدل على ما يريد وأن يكون دالاً فعلاً على ما يريد. أما القرآن فنحن نعلم أنه ـ وهو كتاب الله ـ لا يمكن أن يدل على الشيء ونقيضه ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

يقول بعضهم: «إذا سلّمنا بهذا فتبقى مشكلة هي أن النص بحسب معناه الذي تدل عليه ألفاظه ويدل عليه سياقه لا يتناسب مع ثقافة العصر؛ فلا بد إذن من تأويله لجعله مناسباً معها. لكن أليست هذه دعوة إلى خداع النفس؟ أنت تقرأ نصاً تقول: إنه كلام الله، وتفهمه على وجهه الصحيح، ثم تقول: إن هذا الذي فهمته لا يتناسب مع ما أريد،

(1) Graham Fuller, The Future of Political Islam, Carneigie Council on Ethics and international Relations, www.ccia.org., p. 4.

لذلك يجب أن أغيِّره لكي أجعله مناسباً مع ما أهوى، ثم تقول: إن هذا الذي هويت هو ما عناه الله ـ تعالى ـ بكلامه. هل يقول هذا إنسان مؤمن؟ بل هل يقول هذا إنسان أمين يحترم نفسه؟ إنك إما أن تعتقد أن ما يقوله الله هو الحق كما قاله، وإما أن تعتقد أنه ليس بالحق أو ليس بالعدل، فتقول: إنه لا يمكن أن يكون كلام الله، فتكفر بالكتاب الذي كنت تظن أنه كلام الله. أما أن تجمع بين الفهم الصحيح والتحريف فلا. وهذا الأمر المنكر خُلُقاً وديناً هو الذي حذرنا الله ـ تعالى ـ من الاطمئنان إلى ممارسيه: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٥].

تأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي إنهم فهموا ما قال الله ـ تعالى ـ وتصوروه على وجهه الصحيح، ثم عمدوا إلى تحريفه وهم يعلمون أنهم محرفون له.

ثم نقول: إن الدين الحق إنما جاء لنفع الناس في دنياهم وآخرتهم، فلا يمكن أن يكون فيه ما يمنع من الأخذ بشيء هو من ضرورات العصر، أما أهواء العصر وما يشيع فيه من قيم وأفكار وعادات وتقاليد فإن الدين لم يأت لموافقتها، بل جاء لإقرار ما فيها من حق وإنكار ما فيها من باطل؛ فالمعيار هو كلام الله لا أهواء البشر.

ثم إن كثيراً مما يسمى بثقافة العصر مما يخالف الدين الحق ليس هو في حقيقته بالأمر الجديد الذي يقال إنه مما امتاز به عصرنا، وإنما هو الثقافة التي اتسمت بها الجاهلية على مر العصور. خذ مثلاً استبشاعهم للحدود ـ ولا سيما حد الزنا ـ ودعوتهم إلى تغييره. هذا الحد موجود في التوراة، لكن اليهود غيروه حتى قبل مجيء النبي محمد ﷺ، وكان

الذي دعــاهــم إلى ذلك هــو فُشُوُّ الزنا بينهــم ولا سيما في أشرافهم. وهذا هو عين السبب الذي يدعو الغربيين وأمثالهم إلى استبشاع هذا الحد. إن الناس إذا فشت فيهم الفاحشة واعتادوها مات فيهم الشعور بأنها فاحشة، ودعك أن تكون جريمة تستحق هذا العقاب الأليم!

الدين دينان: منزل من السماء.. ومتخذ في الأرض

(البيان ٢٠٣ ـ رجب ١٤٢٥ هـ ـ أغسطس / سبتمبر ٢٠٠٤م)

الدين دينان ينبغي أن لا نخلط بينهما فنحكم بأحدهما على الآخر، أو نستنتج من أحدهما نتائج ونسحبها على الآخر، أو نبني سياسة عملية على أحدهما حقها أن تبنى على الآخر.

الدين بالمعنى الأول هو الدين المنزل من السماء، المبلَّغ للناس عن طريق رسل الله. والدين بالمعنى الثاني هو ما يدين به الناس في الواقع فيما يعتقدون من عقائد، أو يلتزمون به من قيم، أو يمارسون من سلوك.

الدين بالمعنى الأول هو الحق كله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأما الثاني فيكون حقاً بقدر مطابقته للأول وباطلاً بقدر مخالفته له. وما يترتب عليه من نتائج يكون بقدر تلك الموافقة أو المخالفة.

هذا الدين هو المشار إليه في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾.

[آل عمران: ١٩].

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وأما الدين بالمعنى الثاني فهو أيضاً أنواع:

نوع هو الممارسة البشرية للدين الحق المنزل من السماء، وهو المشار إليه في مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٤].

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

المثل الأعلى لهذا الدين هو ما كان يدين به الرسول ﷺ الذي كانت حياته المباركة ـ بأبي هو وأمي ـ كلها ترجمة عملية للدين الحق. مَنْ غير الرسول ﷺ يمكن أن يقال عنه: (كان خلقه القرآن)؟ الرسول هو الذي شهد الله له بأنه على صراط مستقيم، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وأن من أطاعه اهتدى، ومن عصاه غوى.

وأما غيره ﷺ فيقتربون من هذا المثل الأعلى، ويبتعدون بقدر ما آتاهم الله من علم بالدين الحق، وصدق في القصد. وقد يؤدي الجهل ببعضهم إلى أن يتركوا من الدين جزئيات لا يعلمون أنها منه، أو لا يقوون على ممارستها، وقد يزيدون عليه جزئيات يظنون أنها منه، لكنه نقصان وزيادة لا تخرجهم عن أصل الدين، أو تجعلهم من الكفار أو المبتدعين. والمثل الأعلى لهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ، ثم من سار على نهجهم، واستن بسنتهم من أئمة أهل السنة والجماعة.

ونوع هو خليط من الدين الحق والدين الباطل: ولعله هو المشار إليه في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقّ** ﴾.

[النساء: ١٧١].

﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ [البقرة: ٨٥].

هؤلاء أقوام ينتسبون إلى كتب الله المنزلة، إلى الدين الحق، لكنهم يزيدون عليه أموراً من اختراعهم أو اختراع غيرهم. فإذا كانت من النوع الذي ينقض ما جاءت به رسل الله أخرجتهم عن الدين الحق مهما كان القدر الذي استمسكوا به منه. يدخل في هذا النوع اليهود والنصارى الذين كذبوا رسول الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ونسبوا إلى الله الولد، وغير ذلك. ولكن يدخل فيه أيضاً كل من انتسب إلى الإسلام، وسلك مسلكهم باعتقادات، أو أعمال هي من نواقض الإيمان.

ونوع من الدين لا علاقة له بالدين المنزل من السماء البتة، وإنما هو من اختراع الناس، وهو المشار إليه في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾.

[الكافرون: ٦].

﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ** ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى: ٢١].

يدخل في هذا أديان المشركين من العرب، كما يدخل فيه من أهل زماننا أصحاب كل ما يسمى بالأيديولوجيات التي هي من اختراع البشر كالشيوعية والعلمانية. ولا تستغربن تسميتنا لها بالدين؛ لأن الدين في لغة العرب وحكم القرآن هو كل منهاج للحياة يجعله الإنسان ديدناً له مهما كان نوعه.

ما الذي نستفيده ـ نحن المسلمين ـ في عصرنا هذا من التمييز بين الدين المنزل من السماء، والدين الذي نمارسه في واقعنا ونسميه إسلاماً؟

مما نستفيده أولاً: إدراك صحيح لمفهوم تجديد الدين، فندرك أن الدين الذي يجدَّد هو الدين الذي نمارسه لا الدين الذي أنزله الله تعالى؛ لأن الدين الذي يَبلى ويحتاج إلى تجديد هو الدين الممارَس في الواقع لا الدين المنزل من السماء. وتجديد الدين الممارَس إنما يكون بجعله ـ بقدر اجتهاد المجتهدين وقبول المخاطَبين ـ موافقاً للدين الحق المنزل من السماء. لكن بعض الناس في زماننا يجنحون إلى عكس ذلك تماماً، فيحرِّفون الدين المنزل من السماء ليوافق ممارسات المسلمين، بل وممارسات الكافرين؛ بحجة جعل الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان. ينسى هؤلاء أن ما يميز الإسلام المنزل من السماء هو صلاحيته كما هو لكل زمان ومكان. ولو أن هذه الصلاحية كانت لا تتأتى إلا بزيادة عليه ونقصان منه لما كان له فضل على غيره من مذاهب الحياة والأديان؛ لأن كل دين وكل مذهب في الحياة يمكن أن يغير فيه، ويبدل لكي يكون موافقاً للأهواء الشائعة في عصر من العصور. فالدين الحق صالح لكل زمان ومكان لا بمعنى موافقته لما يشيع في العصر من أهواء، بل لموافقته لما يُصلِح الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ في كل زمان ومكان؛ لأنه وإن كان قد نزل على رسول الله في زمان معين ومكان معين إلا أنه ليس مرتبطاً بذلك الزمان وذلك المكان. كيف لا، والرسول النبي الخاتم ﷺ إنما أرسل للناس كافة رحمة للعالمين؟

ومما نستفيده ثانياً: أن نحلل واقعنا تحليلاً صحيحاً، نعزو به النتائج إلى أسبابها الحقيقية المتمثلة في الدين الواقعي الذي تدين به مجتمعاتنا، بكل ما فيه من شرك وبدع وانحرافات، فلا نبني هذه التحليلات على افتراض أن ما تدين به هذه المجتمعات مطابق للدين الذي أنزله الله؛ لأنها تسمى بالمجتمعات الإسلامية. هنا أيضاً ضل بعض الناس بسبب هذا الافتراض سواء كان عن جهل أو عن غرض، فصاروا ينسبون إلى الدين الحق كل ما تعانيه الأمة من أمراض في التخلف الاقتصادي والصناعي، بل والفكري. قاد هذا التحليل المضلل جماعة من المفكرين الغربيين، ثم تبعهم فيه جماعة من المقلدين لهم من أبناء العالم الإسلامي.

إليك مثلاً ما قاله بعضهم عن ظاهرة الحكم الاستبدادي وعدم الديمقراطية في العالم العربي.

كتب أحدهم في مجلة تعد من المجلات الفكرية الرصينة عندهم يقول: إن السبب في أن المرشح للرئاسة يجب أن يكون شخصاً واحداً، وأنه يجب أن يحصل على أكثر من تسعين بالمئة من الأصوات هو إيمان المسلمين بمبدأ الإجماع!

وقال آخر إن السبب في عدم معارضة المسلمين للحكام المستبدين هو أن دينهم قائم على فكرة الاستسلام لله!

وقال ثالث: إن السبب في هذا هو أن هنالك علاقة قوية بين الديمقراطية والعلمانية التي تقتضي تقديم العقل على النص، لكن الدين الإسلامي لا مجال فيه لهذا. هذا مع أن فقهاء المسلمين ما زالوا يكررون أنه إذا كان النص صحيحاً فلن يخالف عقلاً حتى نضطر لتقديمه عليه؛ لأن المخالف للحق هو بالضرورة باطل. وكلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كل هذه التفسيرات بالإضافة إلى سخفها قائمة على افتراض باطل هو أن المسلمين الذين عانوا من ويلات الاستعمار، ويعانون من أمراض التخلف الاقتصادي والتقني، ويرزحون تحت حكم دكتاتوري هم أناس عالمون بدينهم الذي جاء به رسولهم، مخلصون في الاستمساك به، وأن أولئك المستبدين إنما صاروا كذلك؛ لأنهم يعتقدون أن هذا مما يأمرهم به دينهم الذي هم حريصون على تطبيقه في دولهم.

مما نستفيده ثالثاً: أمر يتعلق بتطبيق الشريعة. إن كثيراً من إخواننا الذين نحسبهم صالحين يفترضون في مناداتهم بتطبيق الشريعة أن مجتمعاتهم مجتمعات كاملة في إسلاميتها، وأنه يمكن لذلك أن يطبق عليها كل ما تقتضيه الشريعة من أحكام كما كان الأمر في زمان الخلافة الراشدة. لو كان هذا الافتراض صحيحاً لما زال الحكم الإسلامي أصلاً، ولما اضطررنا للمناداة بالعودة إليه. فعلينا إذن أن نتعاون مع من نحسبه مخلصاً من حكامنا في العودة بنا إلى الالتزام بما أنزل الله تعالى؛ بأن نعترف بأن في الأمة أمراضاً وانحرافات وجهلاً، فنتدرج في العودة بها إلى الدين الصحيح مقدمين الأهم على المهم. أنا أعلم أن بعض المنافقين اتخذوا من مبدأ التدرج ذريعة إلى الدعوة إلى الإعراض عن الدين؛ مع أن التدرج ـ كما يدل عليه لفظ الكلمة ـ إنما هو رقي الدرج؛ فمن وقف بعيداً عن الدرج لا يعد متدرجاً. لا بد إذن من البداية ومن الرقي بحسب حال المجتمع الذي يراد له أن يحكم بشرع الله. فالمجتمعات الإسلامية تختلف اختلافاً كبيراً في قربها وبعدها من الدين الصحيح. فكلما كان المجتمع إلى هذا الحق أقرب كان الرقي به أسهل وأسرع.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

عبر من فتنة دارفور

(البيان ٢٠٤ ـ شعبان ١٤٢٥ هـ ـ سبتمبر ـ أكتوبر ٢٠٠٤م)

كثيراً ما نردد القول بأن الإسلام منهاج حياة متكامل، وهو قول صحيح، لكننا قلما نهتدي بهذا الدين في شؤون حياتنا كلها، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالحياة الاجتماعية والسياسية. إننا كثيراً ما نتصرف في هذا الجانب من حياتنا وكأن الإسلام لا قول له فيها ولا هدي، بل كثيراً ما نقتدي فيه بما هو شائع في عصرنا من فكر ولا سيما الفكر الغربي. ولو أننا اهتدينا في هذا المجال بهدي ربنا وعددناه أمراً لازماً لنا باعتبارنا مسلمين، لتجنبنا كثيراً من المشكلات، ولكانت حياتنا أحسن وأسعد.

خطر ببالي هذا وأنا أتأمل فتنة دارفور التي صار السودان لا يُعرف إلا بها. تأملت بعض ما حدث فخطر ببالي:

أولاً: أننا كثيراً ما ننسى أمر الله ـ تعالى ـ لنا بالشورى، وأن لا يستبد أحد أو أفراد منا بالبت في أمر يهم غيرهم كما يهمهم. كان الخلفاء الراشدون من أكثر الحكام استشارة للناس وكانوا ـ كما ثبت عنهم ـ أكثر استشارة لهم في أمر الحروب؛ وذلك لأن الحرب

شأن يهم كل إنسان لما له من تأثير قد يكون كبيراً على حياته. لكن إخواننا من أبناء دارفور الذين أشعلوا نار الفتنة هذه لم يروا أن من حق أهليهم عليهم أن يستشيروهم قبل إقدامهم على أي عمل عسكري. ماذا يفعل أهلهم هؤلاء الذين لم يستشاروا، والذين قد لا يرون ما رأوا؟ هل يدخلون في حرب معهم أم هل يرضون بأن يستبدوا بالأمر دونهم؟

ثانياً: لو أنهم ـ وهم المسلمون ـ اهتدوا بهدي دينهم لعلموا أن رسولهم ﷺ نصحهم بأنه ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه، ولبدؤوا لذلك بسلوك طرق الرفق في محاولتهم لما يريدون من رفع ظلم يرونه واقعاً على منطقتهم.

ثالثاً: ولو كانوا يهتدون بهدي دينهم لعلموا أن من أكثر ما حذر منه الرسول ﷺ وأئمة السنة من بعده هو الخروج المسلح على السلطة المسلمة الحاكمة. ولم يحذر الرسول من هذا إعانةً للحكام الظلمة ـ حاشاه ـ وإنما حذر منه لعلمه ﷺ بأن ما ينتج عن مثل هذا الخروج من مفاسد هو أضعاف ما يرجو الخارج تحقيقه من مصالح. لكن إخواننا الذين أقدموا على هذا الخروج إنما تأسوا فيه بسنة قرنق. قولوا لي بربكم: ماذا حقق قرنق؟ نعم لقد اضطرت الحكومة لمصالحته، بل لأن يكون نائباً أول لرئيس الجمهورية. لكن ما الثمن الذي دفعه أهل السودان جنوباً وشمالاً في مقابل ذلك؟ هلاك مليونين أو أكثر، وتشريد الجنوبيين أيدي سبأ، حتى إن عددهم بشمال السودان صار أكثر منه بجنوبه؟ أهذا عمل يُقدم عليه إنسان في قلبه رحمة لأبناء بلده، أو حرص على مصلحتهم؟ وماذا حقق الخارجون من أبناء دارفور؟ موت المئات، وتشريد الآلاف، وحرق القرى وضياع الأموال، ثم التهديد بالوباء؟ هب أن الضغوط اشتدت على الحكومة وأنها اضطرت لمصالحتهم وإعطاء قادتهم ما أعطي قرنق؛ أذلك ثمن يدفعونه للحصول على هذه

الجائزة؟ وعلى فرض أن الحكومة كانت مسؤولة عن الضر الذي سوَّغوا به الخروج عليها؛ فهل كان ذلك الضر أكبر من هذا الذي وقع بسبب فتنة الخروج؟

رابعاً: ألا يحزن إخواننا الذين تسببوا في هذه الفتنة على التشويه الذي أصاب سمعة بلد كان أجدادهم ولا يزال معاصروهم من صُنَّاعه والمدافعين عن أرضه ودينه؟ أيحسبون أن هذا التشويه لسمعة بلادهم لا يصيبهم كما أصاب غيرهم؟ أليس من ضيق الأفق أن يظن أن هذا كله أمر لا يشين إلا سمعة حكومة هم أعداؤها؟

خامساً: وإذا كانوا قد رأوا أن من حقهم أن يثوروا ثورة مسلحة على حكومة بلادهم؛ فكان ينبغي أن يتوقعوا أن يهبَّ لمساعدتها خصومهم المناصرون لها. لكننا نبادر فنقول: إنه إذا كان من حق هؤلاء الخصوم أن يدافعوا عن حكومة مشروعة، فليس من حقهم أن يتجاوزوا الشرع في دفاعهم عنها. ليس من حقهم أن يحرقوا القرى، ولا أن يعتدوا بالقتل على الأبرياء، ولا يجلوا المسالمين من الرجال والنساء والولدان. وإذا صح أنهم تجاوزوا ذلك بالاعتداء الجنسي على نساء مسلمات فليعلموا أن هذا ظلم لا يجوز ارتكابه حتى في حق الأعداء من الكفار. وعلى الدولة أن تعاقب كل من ثبت ارتكابه لمثل هذه الفظائع.

سادساً: نقول كل هذا على افتراض أن ما حدث من خروج كان بدوافع الغيرة والحرص على مصلحة الأهل ورفع الظلم عنهم. أما إذا صح ما يقال من أن كل هذا إنما كان لتحقيق مآرب سياسية حزبية ولإحراج حكومة هم من خصومها أو أعدائها او ضد توجهها الإسلامي؛ فإن الأمر يكون أفظع والجريمة تكون أكبر.

سابعاً: أرأيتم كيف فرح أعداء المسلمين بهذه الفتنة (التي يقال إنهم من صناعها) وكيف تداعوا إلى استغلالها، وكيف صوروها بغير صورتها من أنها تطهير عرقي،



وأنها حرب بين العرب والأفارقة، وأنها من صنع حكومة عربية إسلامية لا تراعي في أعدائها الأفارقة ديناً ولا إلاًّ ولا ذمة، وأنهم إنما تداعوا للدفاع عن هؤلاء المظلومين، والانتقام لهم من حكومتهم الظالمة بالضغط عليها وتهديدها، وربما باتخاذ هذا ذريعة لغزو السودان وإعادة استعماره، ولكن باسم بعض الأسماء من أبناء وطنه كما حصل في أفغانستان والعراق؟

أحديث عن تطهير عرقي في بلد عقد صلحاً مع قرنق ليكون نائباً أول وهو رجل ليس فيه قطرة من دم عربي؟ أحديث عن عرب وأفارقة في وصف قوم يصنفون جميعاً ـ عند الأمريكان ـ بأنهم سود؟ أحديث عن دولة تعتدي على فئة من مواطنيها وهي فئة يزخر بها جيشها وتزخر بها عاصمتها، وتشارك في حكومتها وحزبها؟ ما بالهم لم ينبسوا ببنت شفة حين حركت حكومة كلينتون قواتها عام ١٩٩٣م لتحاصر فئة من أبناء بلدها في مدينة واكوا بتكساس كانت عصت أمر الحكومة بتسليم أحد أعضائها، فكان عقابها أن قطعت تلك القوات الماء والكهرباء عن القاعة التي كانوا معتصمين بها، ثم نفخت فيها غازاً التهب فأحرق كل من كان فيها من الرجال والنساء والأطفال البالغ عددهم أربعة وسبعين نسمة. وقد قيل إن حادثة أوكلاهوما إنما كانت انتقاماً لهؤلاء المساكين. وما بالهم لا يعترضون على الآلاف من مواطني العراق الذين تعتدي عليهم قوات اجنبية أمريكية أو بريطانية؟ السبب هو أننا قوم ضعفاء سلاحاً واقتصاداً، وأن هؤلاء قوم لا يحترمون إلا من كان قوياً. ألا تراهم إذا توجهوا إلى السودان قالوا في استكبار إنهم ذاهبون ليضغطوا على الحكومة؟ أتراهم قائلين ذلك لو كانوا ذاهبين إلى الصين؟

ثامناً: مهما يكن من أمــر فلا بد من إسكان هذه الفتنــة بوفــاق وســـلام؛ فالله ـ تعالى ـ يأمرنا إذا تقاتل فئتان منا أن نصلح بينهما، ويأمرنا باللجوء إلى الصلح حتى بعد

قتال الفئة التي تصر على البغي. إن الوفاق هو الذي يهدئ الخواطر ويعين على اجتثاث الحقد من القلوب. وأما بغير صلح ووئام فتبقى البغضاء دفينة في النفوس، ويوشك أن يستعر أُوارها لأدنى شرارة تقترب منها.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْـمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩].

والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

الإســلام الهيولاني

(البيان ٢٠٦ - شوال ١٤٢٥ هـ - نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٤م)

الإسلام الهيولاني(١) ليس إسلاماً لله تعالى، وإنما هو إسلام لأهواء كل من يدعي الانتساب إليه. إنه إسلام لا صورة له ولا محتوى، ولا يمكن أن يُعرَّف أو يوصف؛ لأنه دائم التغير والتشكل بأشكال تلك الأهواء التي لا تستقر على حال.

وهو قابل لهذا التشكل المستمر؛ لأن القرآن في نظر الهيولانيين وإن كان نصاً مقدساً إلا أن فهمه هو دائماً فهمٌ بشري، والفهم البشري يتغير، بل يجب أن يتغير بحسب ظروف القارئ للقرآن زماناً ومكاناً وثقافة ومزاجاً. وإذا كانت الفهوم كلها بشرية فكلها متساوية في كونها فهماً للقرآن الكريم. كيف بغير هذا يكون الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان؟

ما الإسلام إذن؟ من حق كل منتسب إلى الإسلام أن يجيب عن هذا السؤال بالطريقة التي يريدها، وليس من حق مخالفه أن يعترض عليه أو يصمه بالكفر أو الابتداع أو حتى

---

(١) الهيولاني نسبة إلى هيولى - بفتح الهاء - وهي في فلسفة ارسطاليس مادة ليس لها شكل ولا صورة ثابتة وإنما هي قابلة لأن تأخذ صوراً وأشكالاً مختلفة.



الخطأ؛ لأن الحقيقة ليست ملكاً لأحد، وإنما هي أمر نسبي تابع لرؤى الناس وظروفهم. لا فرق إذن بين شيعة وسنة، ولا بين سني وأشعري ومعتزلي وخارجي، ولا بين معترف بالسنة ومنكر لها، ولا بين سلفي وصوفي حتى لو كان الصوفي من النوع الذي يعتقد الولاية في من قال:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا

وما الله إلا راهب في كنيسةِ

كل هؤلاء متساوون، ولكل منهم من الحقوق ما لغيره في الوطن المسلم الذي يعيشون فيه.

فالإسلام اشتراكي إذا كان هوى المنتسب اشتراكياً، وأبو ذر هو الاشتراكي الأول، وخديجة أم الاشتراكية [هذه أسماء كتب ظهرت في الخمسينيات] وهو رأسمالي إذا كان هواه مع الرأسمالية؛ لأن الله أحل البيع، أما الربا الذي حرمه فليس ربا البنوك الذي هو من ضرورات الاقتصاد الحديث، وإنما هو ربا العرب الجاهليين الذي كان يؤخذ أضعافاً مضاعفة استغلالاً لحجة المساكين.

والإسلام ديمقراطي؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ [**الشورى**: ٣٨] إذ ما ذا تكون الشورى غير الديمقراطية؟ ولكنه أيضاً دكتاتوري؛ لأنه يامر بطاعة الحاكم وعدم الخروج عليه.

والإسلام دين الجَمال فهو لا يعترض على شيء من الفنون الجميلة رسماً ونحتاً ولا على ما يرسم أو ينحت مكسواً كان أم عارياً، متحركاً كان أم ساكناً، ما دام الغرض منه تذوُّق الجمال، وإدخال البهجة على النفوس.



والإسلام دين المتع البريئة؛ فلا اعتراض فيه على غناء أو موسيقى، ولا على رقص بين رجال ونساء؛ كيف يحرم الغناء والموسيقى من خلق الطيور المغردة ذات الأصوات الشجية؟

والإسلام دين السلام فلا مكان فيه لحرب ولا قتال؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النساء : ٧٧] وأما الجهاد فإن المقصود منه جهاد النفس، وجهاد الكلمة والبيان؛ لأن الدعوة إلى الله لا تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة. كيف يكون في الإسلام قتال وهو الدين الوحيد الذي يعترف بالآخر ولا سيما إذا كان منتمياً إلى دين إبراهيمي؟ فالدين عند الله الإسلام، وكل الأنبياء مسلمون، وكل ما جاؤوا به من دين فهو إسلام؛ فكل من انتسب إلى دين من تلك الأديان فهو مسلم لا فرق بينه وبيننا نحن المنتسبين إلى الدين المحمدي. فإذا كنا نعتقد أنه لا معبود بحق إلا الله؛ فإن نصارى اليوم يعتقدون أنه لا نجاة إلا بعبادة المسيح ابن الله، واليهود يعتقدون أنه لا نجاة إلا لمن كان من الشعب الذي اختاره الله. لندع الخلق إذن لخالقها هو الذي يحكم بينها.

والإسلام دين الحرية؛ إذ لا إكراه في الدين؛ فمن شاء أن يدخل فيه دخل، ومن شاء أن يخرج منه خرج، ولا تثريب على داخل فيه أو خارج منه، فلا كلام في عصرنا عن ردة ومرتد. إن عصرنا هو عصر حرية التعبير؛ فدعوا كل إنسان يقول ما شاء كيف شاء، ويدعو إليه ويدافع عنه. دعوا الأفكار تتصارع ولا تحكموا على واحد منها بالحرمان من الدخول في حلبة المصارعة.

وإذا أراد المسلم أن يهاجر إلى بلد غير إسلامي ويعيش بين ظهراني أهله، فله أن يفعل ذلك؛ لأن الأرض كلها لله، والإسلام دين الله. ولكن عليه إذا اختار تلك الهجرة

أن يعطي ولاءه الكامل لحكومة البلد الذي اختار الهجرة إليه، ولدستورها ولا سيما إذا كان دستوراً ديمقراطياً. فعلى من يعيش في الولايات المتحدة مثلاً أن يقرأ الدستور الأمريكي في أذن مولوده كما ينادي بالأذان في الأذن الأخرى[1]. وعليه أن يحتفل بما يحتفلون به من أعياد عامة كعيد الشكر، وأن يذبح البط كما يذبحون. ثم عليه أن يهنئهم بما يختصون به من أعياد دينية نصرانية كانت أم يهودية.

إعفاء اللحية من العادات التي لا علاقة لها بالعبادات؛ فإذا كان الناس يرون في الماضي أن اللحية زينة للرجال، وأنها تميز بينهم وبين النساء، فإن ثقافة اليوم تريد أن تقرب بين الرجال والنساء، وأن تمحو الفوارق بينهم؛ فلا بأس على المسلم لذلك أن يحلق لحيته وشاربه، وإن قيل إنه بذلك يشابه امرأته.

نظم الحكم وأمور السياسة والاقتصاد هي من أمر الدنيا الذي قال الرسول ﷺ عنه: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» فلا بأس على المسلمين اليوم ان يتخذوا من أنظمة الحكم ما يرونه مناسباً لعصرهم ومحققاً لمطامحهم. وما دام الاتجاه الآن إلى مساواة النساء بالرجال في كل شيء فيجب أن نغير أحكام الميراث فلا يكون فيها فرق بين ذكور وإناث. ويجب أن يكون من حق المرأة أن تزاحم لتحتل مكانها في الصفوف الأمامية من المسجد، وان تخطب المصلين وتؤمهم في صلاة الجمعة كما يؤمهم الرجال. كما يجب أن تنال حقها في الاختلاط بالرجال ومزاحمتهم في أماكن العمل وفصول الدراسة وقاعاتها، وأن ترتدي من الملابس ما شاءت وكيف شاءت ما دام اللبس مما يعتبر في عصرها محتشماً؛ لأن الحشمة مسألة نسبية تختلف باختلاف الثقافات والعادات والتقاليد.

---

(١) هذا والله ما نصح به أحدهم المصلين في خطبة الجمعة في مسجد من مساجد أمريكا.

لماذا يُضطهد أناس خلق الله فيهم ميلاً طبيعياً إلى جنسهم رجالاً كانوا أم نساء؟ يجب أن نعطيهم حقوقهم في بلادنا الإسلامية كما تفعل الدول الراقية. أما قصة قوم لوط وعقاب الله لهم بجعل عالي أرضهم سافلها؛ فنحن مع أوليري ـ أحد مذيعي محطة فوكس الأمريكية ـ في أنها قصة رمزية لا حقيقة تاريخية، وإلا فلماذا لم يقلب الله مدينة سان فرانسيسكو رأساً على عقب؟ كما قال هذا المذيع.

وإذا كان من حق هؤلاء أن يقضوا شهوتهم بالطريقة التي تفرضها عليهم (جيناتهم)؛ فكذلك ينبغي أن يعامل بقية الرجال والنساء فيعطوا من الحرية ما أعطي هؤلاء متزوجين كانوا أم عزاباً ما داموا راشدين وما داموا متراضين. هكذا تفعل الدول الراقية، وهكذا ينبغي أن يفعل المسلمون إذا أرادوا أن يعيشوا عصرهم. أما ما كان يقال من اختلاط الأنساب؛ فقد وفرت لنا حبوب منع الحمل علاجاً شافياً له.

وإذا أخذنا بهذا فإنه يغنينا عن مسألة تعدد الزوجات ومشكلاتها. إنه من الواضح لنا أن القرآن لا يقر هذا التعدد؛ لأنه بناه على شرط ذكر لنا أن توفره مستحيل، فقال ـ تعالى ـ في آية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

هذا الدين الهيولاني المطواع هو الإسلام الذي تريده أمريكا وترضى عنه، وما عداه وخالفه فإنما هو إسلام المتشددين من الوهابيين وأمثال الوهابيين الذين ما يزالون يعتقدون أن القرآن كله كلام الله، وأنه يجب الالتزام بكل ما صح عن رسول الله ﷺ، كما يجب الحكم بما أنزل الله.

قضية العلمانية والدين في البلاد الغربية

(البيان ٢٠٨ ـ ذو الحجة ١٤٢٥ هـ ـ يناير ـ فبراير ٢٠٠٥م)

إذا استمعت إلى ما يقوله بعض العلمانيين في بلادنا خيّل إليك أن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية، وأن القوم هناك قد اتفقوا جميعاً المؤمنون منهم بالأديان وغير المؤمنين على أن الدولة يجب أن تكون علمانية وأن الدين لا دخل له بالشؤون العامة، بل يجب أن يكون محصوراً في الحياة الخاصة. لكنك إذا تتبعت ما يقوله الغربيون أنفسهم، ولا سيما في الولايات المتحدة تبين لك أن الأمر على غير ما صور لك أولئك العلمانيون في بلدك، وتبين لك أن هذه القضية ما زالت تثير عند أولئك القوم معارك حامية الوطيس، وما يزال كثير من الناس فيها يتجادلون، وعنها يكتبون ويخطبون، وبسببها يتحزبون، وعلى أساس منها يصوتون. بل إذا تُرجمت لك معاركهم الكلامية في هذه المسألة، وأُخفي عنك المكان الذي دارت فيه فلربما تخيلت أنها تدور في بلد إسلامي. وإليك أمثلة على ذلك:

التقيت منذ سنين في مؤتمر عالمي برجل أمريكي نصراني عرف أنني مستمسك بديني، فقال لي ناصحاً: لا تُخدعوا كما خُدعنا بالعلمانية، كنا نظنها نظاماً محايداً بين الأديان؛ فإذا

بها دين مُعادٍ للأديان. استغربت كما لا بد أن يكون بعض القراء قد استغربوا في أن يأتي مثل هذا الكلام من رجل غربي. لكن هذا الشعور بخطر العلمانية على النصرانية بدأ الآن يزداد، حتى إن أستاذ فلسفة كاثولوكي نشر كتاباً في عام ١٩٩٦م نصح فيه إخوانه النصارى قائلاً: من أهم مسائل هذا الكتاب أننا بحاجة إلى أن نعيد النظر في تصنيفاتنا الحالية وصفوفنا الحالية. إننا بحاجة إلى أن ندرك أولاً: أننا في حالة حرب، وثانياً: أن الأطراف قد تغيرت تغيراً جذرياً. كثيرون ممن كانوا أعداءنا (المسلمون مثلاً) هم الآن أصدقاؤنا، وبعض من كانوا أصدقاءنا الإنسيون (humanists) مثلاً هم الآن أعداؤنا[1].

لكن الحملة النصرانية ضد العلمانية ازدادت ضراوة إبّان الانتخابات الأمريكية التي صوَّر المحافظون فيها الحزب الديمقراطي بأنه حزب العلمانية والليبرالية، والحزب الجمهوري بأنه الحزب المناصر للدين والقيم الخلقية.

فهذا أحدهم يكتب مقالاً بعنوان: الدين في مواجهة العلمانية[2] يبدؤه بقوله: لقد أصبح الدين واحداً من أعظم العوامل التي تحدد لك كيف تصوِّت. إن الذين يكثرون من الصلاة يميلون إلى أن يصوتوا للحزب الجمهوري، والذين لا يفعلون هذا يميلون للتصويت للحزب الديمقراطي. لقد أظهر آخر استطلاع أن ٦٣٪ من الذين يشهدون مناسبات دينية أكثر من مرتين في الأسبوع يقولون: إنهم سيصوتون للجمهوريين، بينما يقول ٦٢٪ من الذين لا يشهدون مثل هذه المناسبات أو لا يشهدونها إلا نادراً:

---

(1) Peter Kreeft, Ecumenical Jihad: Ecumenism and the Culture War, Ignatius Press, San Francisco, 1994, p. 9.

(2) Face to Face: Religion vs. Secularism in Politics By Paul Strand,Washington Sr. Correspondent, CNB.com.

إنهم سيصوتون للديمقراطيين. لقد صار غير المتدينين هؤلاء قوة كبيرة في داخل الحزب الديمقراطي؛ يُخشى أن يحولوه إلى حزب علماني.

ثم يشكو من كون الإعلام يركز على سيطرة المحافظين الجدد والنصارى المتعصبين من أمثال (فولويل). لكنه ـ أي الإعلام ـ نادراً ما يقول شيئاً عن سيطرة غير المتدينين على الحزب الديمقراطي. وينقل عمن وصفهما بـ (عالِـمَي اجتماع) واهتمامهما بهذه القضية قولهما: إنه منذ عام ١٩٩٢م درج من سبعين إلى ثمانين بالمئة من العلمانيين الليبراليين على التصويت للمرشح الديمقراطي، بينما درج ما يقارب ثلثي المتدينين المحافظين على التصويت للمرشح الجمهوري. وينقل عن امرأة محافظة قولها عن الطريقة التي يصوت بها الناخبون: «إنها في الحقيقة فاصل على خط ديني بين من يعتقدون في حلول بشرية لمشكلاتنا وبين من يعتقدون في حلول مبنية على الإيمان». وهو يفسر موقف الإعلاميين ذاك بقوله: «ربما لأن الصحفيين الذين ينتجون معظم الأخبار في أمريكا هم من المناصرين مناصرة كاملة لأعداء المؤمنين». وينقل عن بعض الإحصاءات أن ما يقرب من ثلث هؤلاء الإعلاميين يعتقدون أن المسيحيين المنصِّرين خطر على الديمقراطية، وأن نصفهم يرى أن هؤلاء لهم قوة سياسية زائدة عن الحد. إن ما يقرب من نصف هؤلاء الإعلاميين يصرحون بأنهم لا دين لهم، وما يقرب من ثمانين بالمئة منهم لا يكادون يذهبون إلى الكنيسة.

من أبرز ما ظهر بهذا الصدد في الأشهر الأخيرة من انتخابات الرئاسة كتاب لمؤلف مسيحي مشهور عنوانه: الاضطهاد، كيف أن الليبراليين يشنون حرباً على المسيحية[1].

---

(1) David Limbaugh, Persecution: How Liberals are Waging War Against Christianiy, Parrenial, 2004.



ظل هذا الكتاب لمدة خمسة أسابيع على رأس قائمة جريدة (النيويورك تايمز) لأكثر الكتب شراء. كان مما قاله هذا المؤلف في مناسبة دينية دعي لها: نحن في أتون حرب ثقافية - يعنون بالثقافة هنا المعتقدات والقيم في هذا البلد -. أعتقد أن المسيحيين هم الهدف الأساس للعلمانيين الإنسيين (secular humanists) النشطين في حرب الثقافة هذه. إن نظرتنا المسيحية العالمية كلها محاصرة. لقد صارت القيم العلمانية هي المسيطرة في بلدنا، وهذا أمر يجب أن يحظى باهتمامنا.

وذكر أن من وسائل العلمانيين في محاربة المسيحية إبعادها من المجال العام، وأنهم يعتمدون في هذا على تفسير غير صحيح للمادة الدستورية المتعلقة بما عرف بفصل الدين عن الدولة. إنهم يفسرونها بالفصل الكامل بين المعتقدات الدينية والحياة العامة، لكنه - وهو رجل قانون - يقول: إن هذا لم يكن مقصود الآباء المؤسسين، هكذا يسمون واضعي دستورهم؛ لقد كان مقصودهم في نظره هو حماية الحرية الدينية بمنع الكونغرس والحكومة الفدرالية من إنشاء كنيسة قومية.

إن في الولايات المتحدة ظاهرة يسمونها بالحرب الثقافية (حرب الاعتقادات والقيم) ما تزال تزداد مع مرور الأيام استعاراً. لقد كُتبت فيها وفي أسبابها ومخاطرها وطرق علاجها كتب وبحوث كثيرة، وما يزال المحافظون والليبراليون يتهم بعضهم بعضاً بأنهم السبب في زيادة حدة هذه الحرب. ينقل صاحب هذا المقال عن بعضهم قوله: إن الديمقراطيين هم السبب في هذا؛ لأنهم هم الذين جروا الحزب الديمقراطي إلى اليسار. إن كثيراً من العلمانيين والليبراليين ومن يمكن تسميتهم بأعداء المتدينين هم الآن ديمقراطيون لدرجة أن بعضهم صار يسمي الحزب الديمقراطي بالحزب الذي لا مكان فيه لله.

ومع أن أوروبا هي الآن أقلّ بلاد الدنيا تديناً إلا أنه مما أثار حنق الكثيرين من المتدينين فيها، ولا سيما رجال الكنيسة الكاثولوكية أن الدستور الجديد للاتحاد الأوروبي جاء علمانياً خالصاً لا ذكر فيه للنصرانية، حتى باعتبارها من المكونات التاريخية للثقافة الغربية.

في أكتوبر من عام ٢٠٠٤م قال الكاردينال راتزنجر ـ وهو كما يقال أحد المرشحين لمنصب البابوية ـ في إحدى المناظرات مبدياً قلقه من تزايد العلمانية بالاتحاد الأوروبي: إن العلمانية تقوم على مذهب وضعي يؤدي إلى اعتناق النسبية، وإنه إذا صارت النسبية مطلقة فإنها ستكون متناقضة مع نفسها، وتؤدي إلى تدمير العمل البشري. وقال: إن من الأسباب التي سُوِّغ بها إغفال ذكر النصرانية أن ذكرها كان سيؤدي إلى إثارة حفيظة المسلمين، لكن الحقيقة كما يقول: هي أن الذي يغضب الإسلام: هو الإساءة إلى الذات الإلهية، والغطرسة العقلانية اللتان تنتجان الأصولية الدينية[1]. إن العلمانية كما يقول هذا الكاردينال: عقيدة جزئية لا يمكن أن تستجيب لكل التحديات البشرية. العقل بالعكس ـ كما يقول ـ ليس عدواً للإيمان، لكن المشكلة تنشأ عندما يكون هنالك احتقار للخالق وللمقدسات. وقال عن الحرية: إنها تفهم اليوم فهماً فردياً مع الناس أنهم إنما خلقوا ليتعايشوا. إن هنالك حرية مشتركة تضمن الحرية للجميع، وتمنع جعل الحرية مطلقة[2].

لقد صارت العلمانية في نظر بعض المتدينين الغربيين أيديولوجية تحدُّ من الحرية. وفي هذا الصدد يقول رئيس رابطة أطباء كاتالونيا المسيحيين بإسبانيا

---

(١) عني أن الأصولية تأتي رد فعل لهذا التطرف العلماني.

(2) Rome, Oct. 27, 2004 (Zenit.org.)



لـــوقع Zenit.org النصراني: إنه إذا كنا قد تحدثنا في الماضي عن أيديولوجيات هدامة: كالفاشية، والماركسية؛ فإننا نشاهد في العلمانية اليوم تقليصاً لحرية التعبير، ولممارسة التدين. ضرب بعض الأطباء الكاثوليك أمثلة على ذلك بأنه يكاد يكون من المستحيل اليوم أن تحصل على لقب طبيب نساء(gynecologist) إذا لم تكن قد أجريت عملية إجهاض، وأنهم في فرنسا يمنعون من وضع لافتات تعلن عن مؤتمراتهم بحجة أن هذا مظهر ديني لافت للنظر[1].

(1) Madrid, Spain, 22 November, 2004 (Zenit.org)



الإسلامفوبيا

(البيان ٢١٠ ـ صفر ١٤٢٦ هـ ـ مارس ـ إبريل ٢٠٠٥م)

يتحدث الناس في الغرب عن مرض نفسي يسمونه الإسلامفوبيا يحسبونه جديداً وهو قديم قدم الرسالات السماوية. يتمثل المرض في كراهية أو خوف من الإسلام لا مسوغ له.

يدفع هذا المرض المصابين به إلى اتخاذ مواقف عدائية من الدين الإسلامي وأهله تتمثل في مظاهر كثيرة يذكرون منها: الكلام غير اللائق عن النبي ﷺ والافتراء عليه، الاستشهاد بآيات من القرآن أو نصوص من السنَّة وبترها عن سياقها، تصوير ما يتهم به بعض المسلمين من أعمال إرهابية بأنه ليس عملاً معزولاً يقوم به أفراد وإنما هو واجب ديني يأمرهم به الإسلام، الادعاء بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين؛ لأنه مضاد للعلوم الطبيعية وللتقنية ولكل ما هو من ضرورات الحياة المعاصرة، اتهام الإسلام بأنه هو السبب في انتشار الحكم الدكتاتوري ولا سيما في البلاد العربية، القول بأن الإسلام لا يحترم المرأة بل يدعو إلى معاملتها معاملة الرقيق.

وكان من نتائج هذه الدعايات أن كثيراً من المسلمين صاروا لا يعامَلون معاملة المواطن العادي في البلاد الغربية، حتى من كان منهم من مواطنيها، وحتى الطلاب لم يعودوا يلقون من زملائهم الترحيب العادي الذي يكون بين الشباب.

ما السبب في هذا؟

من أسبابه جهل بعض الناس بالإسلام ومن ثَمَّ تأثرهم بمثل تلك الدعايات. فالإسلام الذي يمقتونه أو يخافون منه ليس هو الدين الذي أنزل على محمد ﷺ، وإنما هو الدين الذي صوَّرته لهم وسائل إعلامهم، وحدثهم عنه سادتهم وزعماؤهم.

ومنها أخطاء أو جرائم يرتكبها بعض المسلمين فتُعزى إلى دينهم.

لكن السبب الاعظم هو كراهية بعض الناس للإسلام؛ لأنهم يكرهون الحق. هذا هو الداء العضال الذي وجد في الناس منذ أن وجدت رسالات السماء الداعية إلى الحق المبين ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ [**الذاريات**: ٥٢ ٥٣].

فأقوالهم هي ثمرة مرض الطغيان هذا الذي في قلوبهم؛ فهم لم يتواصوا به ولم يكونوا محتاجين إلى مثل هذا التواصي، بل إن كلاً منهم أصيل في الشر أصالة من سبقه؛ فأمرهم هو كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [**البقرة**: ١١٨].

هذا هو القانون الجامع لهم. لكن القرآن الكريم كما أعطانا هذا القانون أعطانا أيضاً أمثلة للأفراد والأمم التي انطبق عليها.

فهذا نوح يقول لقومه: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨]. وهؤلاء ثمود الذين هداهم الله ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] .

وهؤلاء أعداء محمد ﷺ من العرب الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٩ ٧٠].

كيف العمل مع أولئك وهؤلاء؟

نعالج كل فئة بحسب السبب الذي أدى إلى مرضها. فأما الجاهلون ـ ولعلهم الأكثرية ـ فمن حقهم علينا أن نعينهم على الفهم الصحيح، وأن نصبر عليهم ونستمع إلى حججهم واعتراضاتهم، وأن نجادلهم بالتي هي أحسن.

وأما من كان سبب كراهيته أخطاء وقع فيها بعض المسلمين أو جرائم ارتكبوها؛ فمن حقهم وحق الإسلام علينا أن نعترف بتلك الأخطاء ونصرح بأنها أخطاء ونبرئ ديننا منها. هذا هو المنهج الذي يدعونا إليه ديننا. فعندما قتل بعض المسلمين بعض المشركين في الشهر الحرام، واستغل بعض المشركين هذا لتشويه سمعة المسلمين قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢١٧] فقرر الله ـ تعالى ـ في بداية هذه الآية أن ما فعله اولئك النفر المخلصون من المسلمين كان خطأً كبيراً. وعندما اتهم بعض المنتسبين إلى الإسلام رجلاً يهودياً بالسرقة أنزل الله ـ تعالى ـ في تبرئته اثنتي عشرة آية من سورة النساء تبدأ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥]

أي لا تكن مدافعاً عنهم. من هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** ﴾ [**النساء**: ١١٢].

هذا؛ لأن مهمتنا هي الدفاع عن الحق لا عن الخلق، ولأن العدل عندنا واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [**المائدة**: ٨] ﴿ **فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** ﴾ [**الأنعام**: ١٥٢].

وأما من كان مصاباً بداء الكراهية للحق فلن يرضى إلا إذا كفرنا بهذا الحق بعد معرفتنا له وإيماننا به، ووافقناهم على باطلهم ديناً يهودياً او نصرانياً محرفاً، أو علمانية تنكر رسالات السماء، أو غير ذلك من سبل أهل الأهواء. هؤلاء الكارهون للحق قد يبذلون كل ما في وسعهم من مال ووقت وعلم، بل وقد يبذلون أرواحهم في محاربته؛ فما العمل معهم؟ هل نستجيب لهم فنكفر كما كفروا؟ كلا؛ والله! بل لن يزيدنا خلافهم وكراهيتهم إلا استمساكاً بالحق ودعوة إليه قائلين لهم: موتوا بغيظكم؛ موقنين بأن كل جهودهم ستبوء بالإخفاق: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ [**الأنفال**: ٣٦].

﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [**الصف**: ٨] ومع كراهيتنا لما يقولون عن دين الحق، ومع ما نلقاه منهم من عنت، إلا أننا نستبشر بهذه الحملة الظالمة على الإسلام، ونرى فيها دليلاً على أننا صرنا أمة حية، وأن دعوتنا بدأت تؤتي أُكُلَها. إن الأمة الميتة التي لا رسالة لها ولا نشاط لها لا يؤبه لها، ولا ينشغل الناس بها؛ لأنه لا تأثير لها عليهم. فهذا الانشغال بمحاربة الإسلام والخوف منه واعتباره العدو الأول بعد سقوط الشيوعية دليل على حيوية في هذه الأمة؛ فالحمد لله الذي جعل منا من يكون من أسباب حياتها ونشر رسالتها وإدخال الرعب في قلوب أعدائها.

ونستبشر بها أيضاً؛ لأننا نعلم أنها من الوسائل التي يسخرها الله ـ تعالى ـ لنصرة دينه وإعزازه. ففي أول موسم للحج بعد إعلان الدعوة المحمدية المباركة خشي أعداؤه بمكة من أن يؤثر في الحجيج، فتفرقوا في كل سبل الحج يحذرون الناس منه ﷺ، لكن ذلك كان من أسباب انتشار ذكره؛ فما رجع حاج إلى قومه إلا وهو ينقل لهم خبر الفتى القرشي الذي قال إن الله ـ تعالى ـ بعثه رسولاً. وهذا ما يحدث في أيامنا هذه؛ فما أكثر الذين لم يكونوا يعرفون عن الإسلام شيئاً ولا يفكرون في معرفة شيء عنه حتى جاء هذا الهجوم الظالم عليه، فأثار حب استطلاعهم، فذهبوا يسألون عن الإسلام ويقرؤون عنه، فكان هذا من أسباب هداية الكثيرين منهم.

وإنا لنستبشر به؛ لأن الدعاوى الباطلة المثارة ضد ديننا تعطينا فرصة الرد عليها، وإبلاغ صوتنا إلى أقوام ما كانوا ليستمعوا إلينا ولا يهمهم أمرنا؛ وفي هؤلاء عقلاء يميزون بين الحق الأبلج والباطل اللجلج.

ونستبشر به؛ لأن الخوض فيه كان على حساب أعظم ما يعتز به الغرب من قِيَم: إذ أن الحرب على الإسلام كانت على حساب دعاوى الحرية، وعلى حساب التسامح الديني، وعلى حساب حكم القانون. لقد تبين للكثيرين حتى من الغربيين أنفسهم أن قيمهم هذه إنما كانت مبنية على شفير هار، فانهارت في أول مواجهة لها مع الدين الحق.

ونستبشر به؛ لأنه مما جعله الله وسائل لتنقية صفوف المسلمين، ونفي الخبث عنها. إن بعض من ينتسب إلى الإسلام سيتردد وسيجامل وسينحرف، بل إن بعضهم سيرتد بعد إيمانه كافراً. فماذا نفعل مع هؤلاء؟ هل نبكي وننوح ونستسلم للأحزان؟ كلاَّ، بل



نقول: يا عباد الله! فاثبتوا؛ فإن الله مستبدلٌ لكم بهم من هو خير منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

المواطنة والهوية

(البيان ٢١١ - ربيع الأول ١٤٢٦ هـ - إبريل - مايو ٢٠٠٥م)

المواطنة انتساب جغرافي، والهوية انتساب ثقافي. المواطنة انتساب إلى أرض معينة، والهوية انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة.

فما العلاقة بينهما؟ نذكر فيما يلي أمثلة للعلاقات بينهما، وللمشكلات التي تثيرها هذه العلاقات، فنقول:

- الهوية لازمة للمواطنة؛ لأن المواطنين لا بد لهم من نظام سياسي، وعلاقات اقتصادية واجتماعية، وقوانين تضبط هذه العلاقات. وكل هذا إنما يبنى على معتقدات وقيم ومعايير؛ أي على هوية معينة.

- ليس الوطن الذي ينتسب إليه المواطنون هو الذي يحدد لهم نوع الهوية التي إليها ينتسبون. فالوطن الواحد قد تتعاقب عليه نظم مختلفة بل ومتناقضة. فالروس كانوا مواطنين روساً، حين كانوا ينتمون إلى الاتحاد السوفييتي، وحين كان نظامهم الاقتصادي اشتراكياً، وكان نظام حكمهم دكتاتورياً، وهم الآن مواطنون روس بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، وبعد حلول الرأسمالية محل الاشتراكية، والديمقراطية محل الدكتاتورية.



- فالهوية إذن هي النظَّارة التي يرى من خلالها المواطنون ما هو مناسب أو غير مناسب، صالح أو غير صالح لوطنهم. فإذا اختلفت النظارات اختلف تقويم الناظرين إلى ما ينظرون إليه، وإن اتفقوا على الحقائق الحسية.

- وإذا صح هذا فإن المواطنين مهما كان إخلاصهم لوطنهم وحرصهم على مصلحته لا يمكن أن ينظروا إلى تلك المصلحة باعتبارهم مواطنين فقط، بل لا بد أن ينظروا إليها بحسب هوياتهم. لكن بعض الناس يتوهمون أنه بإمكان المواطنين في بلد ما أن يحلـوا مشكلاتهم بمجـرد انتمائهم الوطني. فيقـولون مثلاً: لماذا لا نجلس باعتبارنا سودانيين فقط أو سوريين فقط، أو يمنيين، أو خليجيين، أو مصريين، وننسى انتماءاتنا الدينية والأيديولوجية لنحل مشكلة من مشكلاتنا الاقتصادية؟ نعم! هنالك مشكلات يمكن أن يحلها الناس حتى باعتبارهم بشراً، ودعك من أن يكونوا مواطني دولة من الدول، ولكن ما كل المشكلات كذلك، وإلا لما انتمى الناس أصلاً إلى ثقافة من الثقافات، بل نظروا إلى كل مشكلة باعتبارهم بشراً لا غير.

خذ مثلاً مشكلة (مرض الإيدز): إن الناس سيتفقون باعتبارهم بشراً وبغض النظر عن انتماءاتهم الوطنية بأنه شيء ضار؛ لأنه خطر على حياتهم وحياة أولادهم، وهم باعتبارهم بشراً حريصون على الحياة. هل يتفقون على طريقة معالجته؟ ليس بالضرورة؛ فقد يقول المتدينون - مسلمين كانوا أو يهوداً أو نصارى - إن العلاج الحاسم إنما يكون بالكف عن أية ممارسة جنسية قبل الزواج. وقد يذهب المسلم إلى القول: إن هذا يستدعي فصل الرجال عن النساء، وإلزامهن بزي معين لا يكون مثيراً للرجال. ولكن أناساً من غير المتدينين قد يرون في مثل هذه الاقتراحات حداً من الحرية، وهي في نظرهم أمر ضروري ضرورة العفة التي ينشـدهـا المتدينون؛ ولذلك يرون الاكتفاء بالبحث عن علاج طبي لا سلوكي.

وخذ قضية أخرى يواجهها كل البشر: (كيف تكون العلاقة الجنسية بينهم؟) هل تكون إباحية يقضي كل فرد منهم حاجته مع من شاء كيف شاء؟ هل يتزوجون؟ وهل يكون الزواج بواحدة أم أكثر؟ وهل هنالك حد لهذا الأكثر؟ هذه قضايا لا يحلها الناس بمجرد انتمائهم الوطني؛ لأنه ليس في هذا الانتماء ما يهديهم إلى خيار من هذه الخيارات، أو يفرضه عليهم.

لا بد للمواطنين إذن من هوية، من ثقافة تكون هي المنظار الذي ينظرون به إلى الواقع، والمعيار الذي يقترحون به الحلول لمشكلاتهم.

ولكن ماذا إذا كان المواطنون في البلد الواحد منقسمين إلى ثقافات، وهويات مختلفة؟ هنالك عدة احتمالات:

ـ أحسنها من حيث الاستقرار وعدم التنازع: هو أن تكون إحدى هوياتهم هذه هي الغالبة من حيث عدد المنتسبين إليها. قيّدتُ الحسن بالاستقرار السياسي، وعدم التنازع ولم أقُلِ التطور العلمي، أو الاقتصادي، أو العسكري؛ لأن الهوية التي استقر أمرهم عليها قد لا تكون بطبيعتها مساعدة على ذلك.

ـ وإذا لم تكن هنالك هوية غالبة بهذا المعنى فقد يكون المنتمون إلى إحدى الهويات أقوى من غيرهم؛ فيفرضون على البلد هويتهم، وينظمون أمره على أساسها. هذا سيكون بالطبع على حساب بعض الحريات، لكن هذه الأيدلجية المفروضة بالقوة قد تكون مساعدة على تطور البلاد اقتصادياً وعلمياً وعسكرياً، كما كان الحال في الاتحاد السوفييتي، وكما هو الآن في الصين، وكوريا الشمالية.

ـ وإذا لم يحدث هذا ولا ذاك، وكانت الهويات والثقافات المتعددة متساوية في قوتها فأمام مواطنيها خيارات:

- فإما أن يحلُّوا نزاعهم بتقسيم وطنهم، كما حدث للهند حين خرجت منها باكستان، ثم خرجت بنجلادش من باكستان، وكما خرجت أرتيريا من أثيوبيا، وكما انقسمت شيكوسلوفاكيا، ويوشك أن تنقسم الآن أكرانيا.

- وإما أن يبحثوا عن صيغة يتعايشون بها رغم اختلافاتهم؛ فماذا يا ترى يمكن أن تكون هذه الصيغة؟

يرى بعضهم أن أحسن طريقة لتعايش مثل هذه الهويات المختلفة: هو أن تختار نظاماً علمانياً محايداً بينها، وديمقراطياً يعطي كل واحد منها حق الوصول إلى السلطة، إذا ما اختارته الأغلبية.

لكن المشكلة أنه لا يوجد نظام للحكم محايد بين هويات مختلفة اختلافاً أساسياً، ويستحيل عقلاً أن يوجد. لا يمكن أن يكون النظام الاقتصادي في البلد الواحد رأسمالياً واشتراكياً، ولا يمكن أن يكون اقتصاد السوق رأسمالياً يبيح الربا، وإسلامياً يحرمه ويفرض الزكاة، لا يمكن أن يكون النظام السياسي إسلامياً يلتزم بشرع الله باعتبار أن الحكم التشريعي له سبحانه، وديمقراطياً يعطي هذا الحق للبشر يشرعون ما شاؤوا؛ فالعلمانية هي نفسها إذن هوية من الهويات، فأنّى تكون محايدة بينها؟

ومن المتفق عليه بين منظِّري الديمقراطية من الغربيين - ودعك من عوام السياسيين من أمثال بوش - أن الديمقراطية لا تصلح ولا تكون سبباً للاستقرار إلا في إطار متفق عليه بين معظم المواطنين، ثم تكون خلافاتهم الثقافية خلافات فرعية داخل هذا الإطار العام الجامع. وأما إذا كانت الخلافات أساسية، وحول الإطار نفسه فإن الديمقراطية لن تحل إشكالاً، ولن تحقق استقراراً؛ لأنه لا أحد من المتنازعين سيقبل حلاً لمجرد أن الأغلبية التي يختلف معها قالت به.

ما الحل إذن؟ الحل في مثل هذه الحال: هو أن يجتمع المختلفون، ويبدؤوا بتقرير المبدأ الذي هم متفقون عليه: أنه من مصلحتهم جميعاً أن يبقوا في وطن واحد، ثم ينظروا إلى الكيفية التي يحققون بها هذا الهدف، من غير تقيد سابق بديمقراطية، ولا علمانية، ولا غير ذلك من النظم والأيديولوجيات الشائعة، بل يقولون: هذه أوضاعنا، وهذه خلافاتنا؛ فلنبحث عن حل أصيل لها ومتناسب معها، وهو حل يستلزم ـ ولا بد ـ قدراً من التنازلات والمساومات، وقد يكون شيئاً جديداً يستفيد من الدين ومن التجربة الديمقراطية، أو العلمانية، أو غيرها، ولا يأخذ أياً منها بكامله. هذا ما حاول فعله واضعو الدستور الأمريكي؛ فبالرغم من أن الولايات المتحدة تعد اليوم مثالاً للديمقراطية؛ إلا أن الذين وضعوا دستورها لم يكونوا ملتزمين بتجربة ديمقراطية معينة، ولا بمبادئ ديمقراطية معينة، بل كان بعضهم يخشى مما أسموه بدكتاتورية الأغلبية التي قد تؤدي إليها الديمقراطية. ولذلك جاء دستورهم شيئاً جديداً لا يمكن أن يوصف بالديمقراطي إذا ما قيس بالمبادئ الديمقراطية الصارمة. من ذلك أنه من الممكن ـ بل حدث ـ أن يكون الرئيس الفائز في الانتخابات أقل أصواتاً من منافسه. ومنها فكرة الكليات الانتخابية التي لا تقيد أعضاءها برأي ولايتهم، بل تجيز لكل واحد منهم أن يصوِّت لمن يراه صالحاً من المرشحين للرئاسة بغض النظر عن الأصوات التي نالها في الولاية.

لكن حتى هذا لم يحل الإشكال حلاً كاملاً؛ فما زال الشعب الأمريكي منقسماً في قضية العلاقة بين الدين والدولة، وما زالت الكتب فيها تكتب، والبحوث تُنشر، والقضايا ترفع، وهذا يعني أن التعددية ليست شيئاً حسناً في ذاته وبإطلاق. التعددية تكون حسنة إذا ما كانت إيجابية، وهي لا تكون كذلك إلا إذا كانت ضمن إطار ثقافي

جامع؛ أي ضمن هوية جامعة. فتعددية الهويات المختلفة المتناقضة: هي مشكلة يجب أن تعالج وليست واقعاً يحافظ عليه، أو يتباهى به، كما يفعل كثير من الناس الآن في السودان وغيره؛ وذلك لأنه لا يسهل مع مثل هذه التعددية تحقيق استقرار سياسي، ولا يسهل معها من ثَمَّ تطور اقتصادي، أو علمي أو تقني. هذا هو المتوقع عقلاً، وهو الذي تدل عليه تجارب الأمم قديمها وحديثها.

قد يقال: لكن هذه هي الولايات المتحدة تتباهى بأنها أمة واحدة رغم أنها تكونت من مواطنين من أجناس متعددة، وديانات متباينة، ولغات مختلفة، وثقافات متناقضة. نعم! لكنها لم تصر أمة واحدة إلا حين صهرت هذه المكونات كلها في بوتقة، وأخرجت منها شيئاً واحداً متجانساً. يمكن لذلك أن نقول: إن التعدديات نوعان: تعددية صحن السَّلَطة الذي يحتفظ كل مكون من مكوناته بلونه وطعمه وملمسه: فهذا طماطم، وهذا جرجير، وهذا عجور، وهكذا. وتعددية القِدر الذي توضع فيه كل المكونات: من لحم، وخضار، وملح، وبهارات لتطبخ إداماً واحداً ذا طعم واحد، وربما لون واحد. هذا الأخير هو الذي يقال: إن الولايات االمتحدة فعلته، إنها كما يحلو لهم أن يقولوا بوتقة melting pot جعلت من مكوناتها أمة أمريكية واحدة. يقول كاتب أمريكي: لقد كانت الأمركة عملية انسجام قسري كانت الولايات المتحدة فيها بمثابة البوتقة لا النسيج ذي الألوان والصور المختلفة. لم يكن ينظر إلى المجتمع الأمريكي على أنه قطعة من روسيا؛ قطعة من إيطاليا، وقطعة من بولندا مزج بعضها ببعض، كلا! بل إن القوميات المختلفة جُعلت أمريكية كما ينقى المعدن الخام ليصير ذهباً خالصاً. الأمركة نقتهم وأزالت خبثهم. إن أصحاب موكب حركة البوتقة لم يكونوا يحتفلون بالتسامح، ولكن بالخضوع لمفهوم ضيق للقومية الأمريكية، بتصوير الأجانب بأناس

في أزياء غريبة، ينغمسون في قدر كبير، ويخرجون منه نقيين بهندام جميل، ولهجة أمريكية خالصة، ومنظر أمريكي؛ أي أمريكان إنجليز[1].

كيف يقال: إن أمريكا تؤمن بالتعددية، وهي زعيمة الغرب الذي ما زال يسعى لقتل الثقافات الأخرى، ولأن تكون ثقافته هي المهيمنة على العالم؟ اقــرؤوا في هذا ـ إن شئتم ـ كتاب (إدوارد سعيد) الاستعمار الثقافي (Cultural Imperialism)، بل إنهم ليعدون ثقافتهم جزءاً من قوتهم التي يسمونها بالقوة الناعمة أو اللينة soft power في تقرير جديد للجنة استشارية من لجان الكونغرس فيه تقويم لسياسة الحكومة الأمريكية، ونقد لها جاء قولهم:

كنا نتحدث حتى الآن على افتراض أن الهوية شأن داخلي في وطن من الأوطان، لكن الواقع ليس كذلك. فالعلاقة بين الوطن والهوية لا تكاد تكون علاقة مطابقة. وهذا يسبب مشكلات كثيرة منها:

ـ أنه كما أن تعدد الهويات في الوطن الواحد قد يؤدي إلى تمزيقه؛ فإن اتحاد الهويات في أوطان متعددة قد يؤدي إلى توسيع للحدود الوطنية، بضمّ بعض الأقطار إلى بعض، أو بالتعاون الوثيق بينها الذي يجعلها كالوطن الواحد، كما هو الحال الآن في الاتحاد الأوروبي.

ـ لكن هذا التوحيد أو التمزيق لا يحدث في الغالب إلا بطريقة عنيفة. وفي هذا يقول المؤرخ الإنجليزي (لويس نامير) كلمته التي كنا قد نقلناها في مقال سابق: «إن الدول لا تتوحد أو تُحطم، والحدود لا تُمحى أو يعاد رسمها بالحجج وصوت الأغلبية. إن الأمم تحرر وتتوحد أو تمزق بالحديد والدم، لا بالتطبيق الكريم لمبدأ الحرية».

(1) The Atlantic Monthly; May 1995; Volume 275, No. 5; pages 57-67.

ـ بما أن مصالح المواطنين في أرض معينة لا تكاد تكون محصورة في حدود أرضهم، ولا سيما في عصرنا هذا الذي تشابكت فيه المصالح بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم؛ فإن مفهوم الدولة الوطنية بدأ يتضاءل، وتحل محله تحالفات أو اتحادات بين دول متعددة. ولكن هذه التحالفات لا تنجح إلا إذا كانت مبنية على هويات مشتركة. خير مثال على ذلك (الاتحاد الأوروبي) الذي لم يجد مشكلة في ضم كل قطر ذي هوية أوروبية نوعاً ما، لكنه يتلكأ في قبول (تركيا) ذات الهوية المختلفة، بالرغم من أنها دولة علمانية، وبالرغم من أنها غيرت في كثير من قوانينها لتوافق البلاد الأوروبية.

ـ بما أن التطور الهائل في وسائل الاتصال جعل من كرتنا الأرضية ما يشبه الوطن الواحد فقد ازداد حجم المشكلات التي تهم الناس باعتبارهم بشراً، وبغض النظر عن أوطانهم وهوياتهم. من أوضح الأمثلة على ذلك مشكلة (الخروق) التي بدأت تحدث في طبقة الأوزون، والتي تسببت في ارتفاع درجة الحرارة في الكرة الأرضية. وقد كان من نتائج كثرة ازدياد المشكلات المشتركة بين الناس أن كثرت المنظمات العالمية كثرة ليس لها مثيل في تاريخ البشرية.

ـ لكن بعض الدول القوية صارت تحاول إخضاع البشرية كلها إلى قيم نابعة من هويتها، أو خادمة لمصالحها؛ بحجة أنها قضايا إنسانية عامة لا ثقافية خاصة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما سمي بـ (الإعلان العام لحقوق الإنسان) الذي يقول كثير من نقاده حتى من الغربيين: إن كثيراً من بنوده لا ينطبق عليه وصف الحق الإنساني، والذي يرى بعضهم أن كثيراً منه تعبير عن ثقافة معينة هي الثقافة الغربية. بل إن بعض الجهات المؤثرة صارت تستغل الأمم المتحدة نفسها لإلزام الأمم كلها بقرارات نابعة من قيمها، ومنها قضية المرأة.

نخلُص من هذا كله إلى أنه على المسلمين في بلد: كالسودان أن لا يُخدَعوا بما يقول لهم مثلاً الزعيم (قرنق) من أن علينا جميعاً أن نجتمع باعتبارنا سودانيين فحسب، وأن نجعل الدين أمراً شخصياً؛ لأن الأديان تفرقنا والوطن يجمعنا. إن قرنق لا يتحدث هنا باعتباره سودانياً فحسب، بل ولا باعتباره جنوبياً فحسب، وإنما يتحدث باسم الحضارة الغربية وقيمها.

إن تخلّي المسلمين عن دينهم في حياتهم العامة ليس استمساكاً بـوطنية لا هوية فيها كما يدعي (قرنق)، وإنما هو إحلال للهوية الغربية محل الهوية الإسلامية.

القسطية لا الديمقراطية

(البيان ٢١٢ - ربيع الثاني ١٤٢٦ هـ - مايو - يونيو ٢٠٠٥م)

الديمقراطية هي الفتنة الجديدة التي ابتلي بها المسلمون، بل الناس عامة. وزاد من الافتتان بها أن الولايات المتحدة، ولا سيما في عهد رئيسها الحالي، جعلت نشرها من أكبر أهدافها التي تنفق في سبيلها الأموال الطائلة وتقيم الحروب الطاحنة، وجعلت الالتزام بها هو معيار تقدم الأمة واستحقاقها لصداقة الولايات المتحدة، أو هكذا يزعمون.

ومما جعل مناقشتها مع مؤيديها والدعاة إليها والراضين بها من المسلمين أمراً صعباً أنه لم يعد لها معنى واحداً عند الداعين إليها. بل صارت تشير إلى معان عدة يختار كل واحد منهم ما شاء منها، ولا يدري أن صاحبه يشير بالكلمة إلى معنى غير المعنى الذي يقصده هو.

هذا الاختلاف في مفهوم الديمقراطية أمر يشكو منه كبار منظِّريها وفلاسفتها المعاصرين؛ فهذا أحدهم يقول ما ترجمته:

هنالك ميل إلى وصف النظام بالديمقراطي فقط لأننا نوافق عليه، ولكننا عندما نفعل ذلك إنما نتحدث عن آرائنا لا عن النظام.

ويقول: المعتقد عموماً أن «الديمقراطية» عبارة صارت تستعمل استعمالاً واسعاً جعلها كلمة غامضة، بل كلمة لا معنى لها. إن كل شكل من أشكال التنظيمات في المجال السياسي (بل وغير السياسي) أصبح يوصف بالديمقراطية أو الديمقراطي[1].

سنحاول فيما يلي مناقشة صلة الديمقراطية بالإسلام بحسب المعاني المختلفة التي يقصدها أنصارها من المسلمين؛ لأن الإنسان إنما يُسأل عن المعنى الذي قصده من عبارته، حتى لو كان استعماله للعبارة خطأً.

وقد أدرنا الحوار في مسائل الديمقراطية هذه بين مسلمَيْن يدعو أحدهما إلى نظام سياسي إسلامي خالص يسميه القِسْطِيَّة، وآخر من دعاة الديمقراطية.

يبدأ القِسْطي الحوار بقوله:

دعونا نتفق أولاً على ما نعنيه بالقسطية، وما نعنيه بالديمقراطية. أما القسطية فهي كما يدل عليها لفظها الحكم بالقِسْط. والحكم بالقسط هو الحكم بما أنزل الله تعالى. وما أنزل الله يشمل الأحكام الجزئية التي تدل عليها الأدلة التفصيلية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويشمل المبادئ الأساسية التي يسميها الفقهاء بكليات الشريعة التي تقرر فيما تقرر أن كل ما حقق القسط فهو من شرع الله، فتفتح الباب واسعاً للاستفادة من كل تجربة بشرية نافعة أياً كان مصدرها.

وإذا كانت القسطية هي الحكم بما أنزل الله؛ فإن الديمقراطية هي الحكم بما يراه الشعب. هذا هو معناها الذي يدل عليه لفظها، وهو المعنى المتفق عليه بين منظِّريها. حكم الشعب معناه أن الشعب صاحب السيادة العليا في المسائل التشريعية، وأنه

(1) Barry Holden, Understanding Liberal Democracy, Philip Allan, Londeon, 1988, p. 2.

لا سلطة فوق سلطته التشريعية، وعليه فإن كل ما حكم به فيجب أن يكون هو القانون الذي يخضع له كل مواطن من مواطني القطر الذي اختار الديمقراطية نظاماً سياسياً له.

لا يمكن لإنسان يدعي الإسلام ويعرف معناه أن يؤمن بالديمقراطية بهذا المعنى؛ لأنه إيمان يتناقض تناقضاً بيناً مع أصل من أصول الإيمان التي جاء بها دينه، والتي تؤكدها كثير من آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ. من ذلك قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩ ٥٠].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ ٦١].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

ما ذا تعني أنت بالإسلام، وما ذا تعني بالديمقراطية؟

ـ الديمقراطي: أما الإسلام فأظننا متفقون على معناه، وأما الديمقراطية؛ فأنا لا أعني بها ما ذكرت. هل تتوقع من إنسان مسلم أن يقول إن من حق الناس أن يشرعوا تشريعات لم ياذن بها الله؟

ماذا تعني بها إذن؟

ـ لقد عانت الشعوب العربية كثيراً من الحكم الفردي الدكتاتوري. فالذي أريده هو أن يستبدل بهذا الحكم حكم ديمقراطي يكون من حق الشعب فيه أن يختار حكامه في انتخابات حرة نزيهة، وأن يحاسبهم، وأريده ان يكون حكماً يلتزم بما يسمى بحكم القانون فلا يفرق بين الناس في المعاملة، وأن يكون حكماً يستمتع الناس فيه بحقهم في الحرية، حرية التعبير، وحرية الحركة، وحرية تكوين الأحزاب والجماعات، وأن يكون حكماً يتميز بتداول السلطة، وأن يكون حكماً شفافاً لا تحاك الأمور فيه في الظلام بل تُعرض على الناس ليقولوا فيها رأيهم. فحكم الشعب في رأيي ليس المقصود به المقابلة بين ما يراه الشعب وما يحكم به الخالق سبحانه، وإنما المقصود به حكم الشعب في مقابلة حكم الفرد.

ـ الاستعمال الصحيح للكلمات هو أن يقصد بها المعنى المتفق عليه بين مستعمليها، ولا سيما المختصين منهم بالأمر. فاستعمالك لكلمة الديمقراطية بهذا المعنى المحدود هو استعمال غالط؛ لأنه إذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب، لزم عن ذلك منطقاً أن كل ما ليس بحكم للشعب فليس بحكم ديمقراطي، سواء كان الحاكم به فرداً أو مجموعة من الأفراد، وحتى لو كان هو الخالق سبحانه.

لكنني تمشياً مع المبدأ الذي ذكرته ساناقشك في الديمقراطية بحسب فهمك الغالط هذا لها، فاقول لك: إن كل هذا الذي ذكرته هو من مبادئ الحكم التي اختارها الغربيون، فصارت الديمقراطية في نظرك ليست حكم الشعب، ومنهم شعب بلدك، وإنما هي حكم الشعب الأمريكي أو الإنجليزي.

لقد تداول مفكرو الشعب الأمريكي وممثلوه مثلاً الرأي في نوع الحكم الذي يرونه صالحاً لبلادهم، وتأثروا في اختيار ما اختاروه بكبار الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين، كما تأثروا بتاريخهم وقيمهم الدينية وغير الدينية، ثم اتفقوا بأغلبيتهم على وضع دستور يضمن تلك المبادئ. أما أنت فلا تريد لأمتك أن تفكر كما فكروا، بل تريد لها أن تكون أمة مقلدة تأخذ ما توصل إليه اولئك الأصلاء وتطبقه على بلدك مهما كان الاختلاف بينكم وبينهم.

ـ أنا لا أقول بما قلتُ؛ لأن الغربيين قالوا به، وإنما أقول به لأن تلك المبادئ الديمقراطية التي ذكرتها مبادئ إنسانية تصلح لكل البشر في كل زمان ومكان.

ـ هذا أولاً ليس بصحيح؛ فقد كان معظم المفكرين الغربيين ضدها، ولم تلقَ هذا القبول والشعبية إلا بعد الحرب العالمية الثانية؛ فهل تقول: إن الناس لم يكتشفوا شيئاً هو من لوازم بشريتهم إلا قبل مئة عام؟ ثم إن المبادئ التي ذكرتها ليست من لوازم الديمقراطية بمعنى حكم الشعب، وليست من المتفق عليه بين كل الشعوب التي اخذت بالنظام الديمقراطي.

ـ هل تتكرم بذكر أمثلة لما ترى أنه ليس من لوازم الديمقراطية؟

ـ قد تستغرب إذا قلت لك إن النظام الحزبي ليس من لوازم الديمقراطية، وأن بعض من يسميهم الأمريكان بالآباء الذين صاغوا دستورهم كانوا ضدها وكانوا يعدُّونها مما يُذْكي الخلاف بين الناس ومما يؤدي إلى الفساد. ولذلك لا تجد لها ذكراً في دستورهم. وقد يزيد استغرابك إذا قلت لك إنه حتى الانتخابات ليست من لوازم الديمقراطية. إن كل ما تتطلبه الديمقراطية هو أن يختار الناس من يحكمهم. أما أن يكون الاختيار بهذه الطريقة المعينة؛ فليس من لوازم الديمقراطية.

ـ كيف يكون الاختيار إذن؟

ـ لقد كان الأثينيون يختارون المسؤولين بالاقتراع. ويرى بعض المفكرين الماركسيين اليوم أن طريقة الاقتراع أقرب إلى فكرة الديمقراطية التي تساوي بين الناس وتفترض أن كل واحد منهم من حقه أن يكون حاكماً، وهم يرون أن الانتخابات لا تحقق هذه المساواة؛ لأنها تفتح الباب لتأثير المال وتأثير الإعلام والدعايات، ويستدلون على عدم المساواة هذه بالنسبة الكبيرة للرجال في مقابل النساء، وبالنسبة الكبيرة لمن له مال، أو لمن تخرَّج في الجامعات في مقابل طبقات العمال والمزارعين والعامة. ولو كنت ممن يؤمن بالدمقراطية لاتفقت معهم.

ـ ننتقل إلى موضوع آخر. ألا ترى في الديمقراطية ما يتوافق مع الإسلام؟

ـ بلى فيها الكثير مما يتوافق مع الإسلام.

ـ فلماذا إذن لا نقول إن الديمقراطية التي نريدها هي هذه المبادئ الديمقراطية التي تتوافق مع ديننا؟

ـ لأنني لا أريد أن أنسب إلى الديمقراطية فضلاً ليس لها. فإذا كان ديني هو السابق إلى تلك المبادئ الحسنة؛ فلماذا أنسبها إلى الديمقراطية؟

ـ تنسبها إليها فقط؛ لأنها تتوافق معها.

ـ إن في النصرانية واليهودية الكثير مما يتوافق مع الإسلام مما هو أهم من تلك المبادئ السياسية التي ذكرناها؛ فهل نقول إن الإسلام نصراني أو يهودي؟

ـ هل تعني أن علينا أن لا نستفيد من تجارب غيرنا، وأن نغلق الباب دون كل فكر حديث وتجربة حديثة؟

ـ أنا لم أقل هذا، بل قلت لك: إن مثل هذه الاستفادة هي من لوازم الحكم بالقسط. لكنَّ هنالك فرقاً بين أن ألتزم بديني، ثم أستفيد من تجارب الآخرين فأضع كل جزئية استفدتها في إطاري الإسلامي، وبين أن أستبدل بإطاري الإسلامي إطاراً آخر، ثم أضع فيه ما يناسبه مما هو في ديني. وهذا الأخير هو ما تدعوننا إليه أنتم معاشر الداعين إلى الديمقراطية.

ـ نسيت أن أسألك: ما المبادئ الديمقراطية التي ترى انها تتوافق مع الإسلام؟

ـ منها: مبدأ حق الأمة في اختيار حكامها؛ فيكفيك فيه هذه القصة التي أوردها الإمام البخاري في صحيحه والتي سنجتزئ كلمات منها لضيق المجال. قال عبد الرحمن بن عوف لابن عباس وهم في مِنى: «لو رأيت رجلاً أتى أميرَ المؤمنين اليوم، فقال: يا أمير المؤمنين! هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً؟ ...... فغضب عمر، ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشيةَ في الناس فمحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم[1] .... من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تَغِرَّة[2] أن يُقْتَلا»[3].

ومنها مبدأ المسمى بحكم القانون، فيكفيك فيه قول الله ـ تعالى ـ: {**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**} [**المائدة**: ٨]، وقوله ـ تعالى ـ: {**فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**} [**الأنعام**: ١٥٢].

---

(١) قال الإمام ابن حجر: «والمراد أنهم يثبون على الأمر بغير عهد ولا مشاورة. وقد وقع ذلك بعد على وفق ما حذره عمر رضي الله عنه».

(٢) تَغِرة: فسرها الإمام ابن حجر بقوله: أي حذراً من القتل... والمعنى: أن من فعل ذلك فقد غرَّر بنفسه وبصاحبه وعرَّضهما للقتل.

(٣) كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت.

وقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس! إنما ضل مَنْ كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[1].

ومنها مبدا الإباحة الذي يسمى الآن بالحرية؛ فإن المبدأ الإسلامي يقول: إن الأصل في الأشياء الدنيوية هو الإباحة. فالإنسان يتحرك ويتكلم، ويأكل ويشرب، ويبيع ويشتري حتى يقول له الدين: لا تفعل كذا أو كذا. وإذا كان الإسلام قد جعل الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ أعظم مهمة يقوم بها بشر، وإذا كان قد جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الصفات المميزة للمسلم؛ فكيف لا يبيح له أن يعبر عن نفسه؟ لكنها حرية في إطار القِيَم والأحكام الإسلامية كما أن الحرية في البلاد الغربية الديمقراطية هي في إطار قيمهم وقوانينهم.

ومنها ما صار يسمى بالشفافية. هل رأيت دليلاً عليها أصدق من أننا ما نزال نعرف كل ما دار من كلام بين المسلمين في الشؤون العامة في عهد النبي ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين، بل نعرف كثيراً مما دار حتى بعد تلك العهود؟ ألسنا نعرف ما دار في اجتماع المسلمين لاختيار خليفة للرسول ﷺ؟ ألسنا نعرف ما دار بينهم في أمر قتال المرتدين؟ ألسنا نعرف كيفية اختيارهم للخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه؟

ـ إذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا تخلَّف المسلمون في عصورنا هذه في هذه الأمور؟ ولماذا عمت بلادهم إلا قليلاً الحكومات الاستبدادية؟

ـ هذه قصة طويلة لعلنا نناقشها في مناسبة أخرى. أما الآن فيكفي أن أذكِّركم بأن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود من صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها.

الدين إنما هو هداية وتوجيه، وأوامر ونواهٍ؛ فليس فيه هو نفسه ما يجبر الناس على تطبيق ما يؤمرون به. فإذا كان هنالك من خطأ فهو في الناس وليس في دين الله. ثم إذا كان الناس لم يلتزموا بهذه المبادئ وهم يعلمون أنها من دين الله؛ فهل تظن أنهم سيلتزمون بها لأنها أتتهم من الغرب؟ إنه لا بد من عمل لإصلاح الأمة لتتقبل هذه المبادئ وتضحي في سبيلها.

ـ نحن ندعو إلى الديمقراطية؛ لأن فيها من الآليات ما يحول دون هذا الانحراف؟

ـ كلاَّ، ليس فيها شيء مما تتوهم، بل إن مفكريها يعترفون بأن النظم لا تصلح إلا بصلاح الأمم. وما يقال عن الإسلام يقال أسوأ منه عن الديمقراطية؛ فليس فيها ما يجبر الناس على الالتزام بكل مقتضياتها، ولذلك فإن أسوأ دكتاتور عرفه الغرب إنما جاء بانتخابات حرة، أعني هتلر، كما أن كثيراً من الحكومات المنتخبة كانت حكومات فاسدة. بل إن أكبر القرارات والسياسات الظالمة كانت في عصرنا هذا نتيجة قرارات ديمقراطية لا شك في ديمقراطيتها. فاستعمار الغربيين لكثير من بلدان العالم بما فيها البلدان الإسلامية كان نتيجة قرارات ديمقراطية، وغزو أفغانستان ثم العراق وقتل الآلاف المؤلفة من الأبرياء وتخريب البلاد كان نتيجة قرارات ديمقراطية لا يرتاب أحد في ديمقراطيتها. فإذا كان ما حدث في العالم الإسلامي إنما يعزى إلى البشر لا إلى الدين؛ فإن كثيراً مما حدث في البلاد الغربية إنما كان شيئاً يأذن به المبدأ السياسي الذي يدينون به.

ـ كل هذا صحيح لا يماري فيه منصف. لكن أظنك تسلِّم معي بأنَّ هنالك شيئاً يُعزى إلى الدين نفسه.

ـ ما هو؟

ـ إن الإسلام يقر مبدأ اختيار الأمة لحاكمها، ولكنه لم يلزم المسلمين بطريقة معينة لاختيار الحاكم.

ـ وكذلك الامر في الديمقراطية. إنها إنما تقول إن الحكم للشعب، وهذا يقتضي أن يكون الشعب هو الذي يختار حكامه. لكن ليس فيها ما يقول إن الحكام أو النواب يجب أن يُختاروا بالطريقة الفلانية. ولذلك فإنهم يختلفون في ما ينهجون من وسائل لاختيار حكامهم.

ـ لكنها كلها تقوم على مبدأ الانتخابات.

ـ نعم! لكن هذه هي الطريقة التي رأى الغربيون أنها مناسبة لهم في عصرهم هذا وفي ظروفهم هذه، وليست الطريقة التي تلزمهم بها الديمقراطية. والمسلمون يستطيعون أن يختاروا لأنفسهم من الوسائل ما يحقق مبدأ اختيارهم لحكامهم ذاكرين أن الحاكم في الإسلام إنما يُختار ليحكم بما أنزل الله لا برأي من انتخبوه، ملتزمين في ذلك بمبدأ الشورى كما أشار إلى ذلك الإمام ابن حجر في كلمته التي نقلناها آنفاً.

إن عدم تحديد الإسلام للطريقة التي يُختار بها الحاكم هي من محاسنه لا من نواقصه؛ لأن هذه الطرق تتأثر بالظروف والملابسات التي تتغير بتغير الزمان والمكان. ولذلك فإن الغربيين حتى مع اتفاقهم على مبدأ الانتخابات وجدوا أن للانتخابات صوراً شتى تختلف نتائج كل واحدة منها عن الأخرى، ولذلك اختلفوا في ما يتبنون منها. ولا داعي للدخول في تفاصيلها؛ فهي أمور معروفة.

يريدون ليطفئوا نور الله

(البيان ٢١٤ ـ جمادى الثاني ١٤٢٦ هـ ـ يوليو ـ أغسطس ٢٠٠٥م)

كنا إلى وقت قريب نُجهد أنفسنا لنعرف حقيقة الموقف الأمريكي من الإسلام، وكنا نستنتج من مجموع سياساتهم أنهم ليسوا ضد هذه الجماعة أو تلك، او هذه الدولة أو تلك، أو هؤلاء الإرهابيين أو أولئك، وإنما هم ضد الإسلام باعتباره الأيديولوجية التي تمثل فيما يرون الخطر الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية.

لكن أمريكا أراحتنا الآن من عناء الاستنتاج وما يؤدي إليه من اختلاف بين من يقرؤون وينظرون ويستنتجون. أراحونا من عناء الاستنتاج؛ لأنهم صرحوا الآن بما كنا نستنتج وكتبوه وإن لم ينشروه. لكن عدم نشره لم يحل دون معرفته وإذاعة سره؛ فقد نشرت أسبوعية أمريكية مرموقة[1] مقالاً تناقلته كثير من وسائل الإعلام في أمريكا وخارجها، لا لأهمية الصحيفة والكاتب فحسب، ولكن لأهمية الموضوع نفسه.

---

(1) David Kaplan,Hearts, Minds and Dollars, U.S. and World Report, 4.25.05,. http://www.usnews.com/usnews/news/articles/050425/25roots_10.htm



نشر (كابلان) بحثه تحت عنوان: (القلوب والعقول والدولارات) ذكر فيه أنه قضى أربعة أشهر يجمع معلومات عن مشروع جديد سري للإدارة الأمريكية اسمه (البلوغ إلى العالم الإسلامي)، وأنه التقى ببعض من اطلعوا على المشروع.

هذا المشروع يعبر عن سياسة جديدة هي التصريح بأن هدف الولايات المتحدة الذي تراه محققاً لمصلحتها الوطنية هو تغيير وجه الإسلام. وافق الرئيس بوش على المشروع، ووزعت نسخ منه لكل أذرع الحكومة الأمريكية.

نلخص فيما يلي بعض الوسائل التي ذكرت في الورقة لتنفيذ هذه الخطة:

- رُصدت للمشروع ملايين الدولارات.

- سيكون المشروع عبارة عن حملة من الحرب السياسية كتلك التي بلغت أوجَها في أيام الحرب الباردة.

- جُنِّد لها مختصون في العمليات الحربية النفسية.

- وعملاء سريون من السي آي إي.

- وخصصت لها مراكز بحوث.

- ووسائل إعلام تمولها الولايات المتحدة.

- سيُعنى المشروع بنشر القيم الأمريكية، قيم الديمقراطية، والتسامح، وحرية المرأة. وبالدعاية لطريقة الحياة الغربية.

- الوقيعة بين المعتدلين والمتطرفين من الجماعات الإسلامية، والتعامل مع المعتدلين لمحاربة المتطرفين.

ـ يقوم عملاء السي آي إي، بتشويه سمعة الجماعات الإسلامية والزعماء الدينيين الذين لا يتبعون الخط.

ـ تغيير مناهج المدارس والمعاهد الإسلامية ليُحذف منها ما يرونه سبباً للتطرف وعدم التسامح. ويقول المقال إن الأمر بلغ بهم أن يمولوا إنشاء مدارس إسلامية بهذه المواصفات.

تآمُرُ أعداء الله على دين الله، ومحاولتهم إطفاء نور الله ليس بالأمر الجديد. وليس بالغريب أيضاً أن يجدوا مِنْ بين مَنْ ينتسبون إلى الإسلام من يعينهم على تحقيق مآربهم أو يضعف أمام إغراءاتهم أو تهديداتهم: ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٢].

لكننا نريد أن نعلق تعليقات يسيرة على بعض الوسائل التي ذكروها رجاء أن لا ينخدع بها بعض إخواننا المخلصين.

أولاً: قضية الديمقراطية: ما الذي تستفيده أمريكا أو يستفيده الغرب من أن تسود الديمقراطية في العالم الإسلامي إذا كان المقصود بالديمقراطية كما يفهمها معظم الناس عندنا إنما هو الانتخابات وتداول السلطة، والشفافية وحكم القانون وغير ذلك من أمور لا يعترض عليها المسلمون من حيث المبدأ؟ كيف تكون الديمقراطية بهذا المعنى وسيلة لتحقيق هدفهم بتغيير وجه الإسلام؟ إنها لا تكون، لكن الذي يكون هو الديمقراطية بالمعنى الذي يريدونه هم: الديمقراطية بمعنى حكم الشعب، بمعنى ان ينتشر الاعتقاد بين المسلمين بأن الشعب هو السلطة التشريعية العليا التي يحق لها أن تُحِلَّ ما شاءت وتُحرِّم ما شاءت. والديمقراطية بمعنى النموذج الأمريكي، أي أن يفهم

الناس من الديمقراطية التشبه بالولايات المتحدة في ما تتبع من مبادئ وما تصدر من قوانين، وما يرى الغرب أنه حق إنساني.

ثانياً: قضية المرأة: أيضاً نتساءل: ما ذا يستفيد الغرب من حرية المرأة أو من إعطائها حقوقها؟ لا يستفيد شيئاً إلا إذا فُهمت حرية المرأة بفهمهم هم لها، حريتها في أن تلبس كيف شاءت، وأن تتزوج من شاءت من المسلمين وغير المسلمين. وأهم من ذلك أن تخرج من بيتها لتكون موظفة، وأن يعد هذا الخروج شرفاً لها بينما يعد عمل البيت وتربية الأطفال إهانة لها. كيف يخدم هذا الخروج هدفهم؟ لقد وجدوا بالتجربة أن المرأة إذا عملت قلَّ إنجابها أو انعدم؛ لدرجة أن أكبر مشكلة تهدد المجتمعات الغربية بل والصناعية بوجه عام بما في ذلك اليابان هي انخفاض عدد المواليد حتى وصفوا هذا بأنه انتحار. وهم يرون أن المسلمين ما زالوا يتوالدون، وأن نسبة الشباب بينهم أعظم بكثير من نسبتها في المجتمعات الغربية، وأن هؤلاء الشباب هم جنود الإرهاب والتطرف فلا بد من العمل على الحد من تكاثرهم.

القضية الثالثة هي قضية التسامح والذي يعنون به أن يعتقد المسلم أن ما عنده من دين هو الحق الذي لا ريب فيه، وأن كل ما خالفه فهو باطل، أي أن لا يؤمن بمثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ** ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [القصص: ٥٠].

بل عليه أن يؤمن بالآخر، بمعنى أن يعتقد في نسبية الحقيقة، فيقول: إذا كان من حقي أن أرى أن ديني هو الحق؛ فلماذا لا يكون من حقه هو أيضاً أن يرى أن ما هو عليه حق وليس مجرد تزيين شيطاني كما يصفه القرآن في مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٨].

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ١٠٤].

ليس هنالك إذن حق مطلق، وعلى فرض وجوده؛ فلماذا يكون هو ما أعتقـــده أنا لا ما يعتقده الآخر؟

كتب أحدهم قريباً مقالاً بمناسبة المظاهرات التي خرجت في العالم الإسلامي محتجة على تدنيس المسؤولين الأمريكان للمصحف الشريف، كتب يقول: إن مثل هذه المظاهرات هي من أسباب عدم احترام الناس للمسلمين. وقال إنه لم يحدث أبداً أن اليهود أو النصارى أو البوذيين قاموا بمظاهرات عنيفة كهذه في المرات التي عُرِّضت فيها دياناتهم للإساءة. ما عَلِمَ المغفل أن هذا نفسه مما يدل على يقين المسلمين بأن كتابهم الذي بين أيديهم هو كلام الله تعالى، وأنه ليس لأهل الديانات التي ذكرها يقين مثل هذا بالنسبة لكتبهم.

القضية الرابعة هي قضية الدعاية لنمط الحياة الغربية: تقوم هذه الدعاية على خديعتين:

أولاهما: أن ما هم عليه ليس نمطاً أو ثقافة غربية خاصة بأناس معينين فيكون لغيرهم أن يختاروا من الأنماط والثقافات ما شاؤوا، وإنما هو قيمة إنسانية صالحة للناس أجمعين، وأن من لا يأخذ بها يكون بذلك ناقصاً من الناحية الإنسانية.

والخديعة الثانية: هي أن نمط حياتهم ولا سيما ما يسمونه بـ (المديرنتي) هو وحده الصالح لعصرنا، وأن من لا يأخذ به من الأمم يكون بالضرورة متخلفاً، وأن هذا هو

سبب تخلف العالم العربي بالذات. انظر كيف أن هذه الخديعة تقوم على افتراض يتناقض مع الخديعة التي قبلها؛ فبينما تقول تلك إنه ليس هناك حق مطلق، وأن لكل فرد ولكل أمة أن تعتقد ما شاءت، تقول هذه: كلاَّ؛ إن نمط الحياة الغربية هو النمط الإنساني والعصراني الذي لا يناسب البشر في عصرنا غيره. ولكن لا عجب فالباطل دائماً لجلج متناقض لا يؤثر إلا في من هو أصلاً مأفوك:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : ٧ - ٩] .

لكننا نقول: إن الحذر من مؤامرات الأعداء شيء، والوسوسة شيء آخر.

علينا أن نحذر مؤامرات الأعداء، لكن علينا أيضاً أن نكون عقلاء؛ فلا نترك شيئاً نعلم أن فيه خيراً لنا دينياً أو دنيوياً لمجرد أن الأعداء يستغلونه. علينا أن لا نبالغ كما يفعل بعض الناس في الاعتقاد بأن كل ما يحيكه الأعداء وكل ما يخططون له ينفذ كما يريدون؛ فالله ـ تعالى ـ يؤكد لنا عكس ذلك:

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] .

فعلينا أن نتذكر إذن مع أخذنا بالأسباب أن سلاحنا الذي لا يُفَلُّ هو إيماننا، وأنه كلما قوي إيماننا وازداد يقيننا تحقق وعد الله بالدفاع عنا.

الأخلاق والنظم

(البيان ٢١٥ ـ رجب ١٤٢٦ هـ ـ أغسطس ٢٠٠٥م)

أعني بالنُّظُم كل ما يتعلق بالترتيبات الظاهرية لعلاقات الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها في مجتمع من المجتمعات. وأعني بالأخلاق مكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعدل وغيرها. ما العلاقة بين هذين؟ إن التجربة تدل على أنه لا قيام لنظام سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو حتى أسري، إلا بقدر من هذه الفضائل. تصور لو أن معظم الناس في مجتمع من المجتمعات صاروا كذابين، وخونة ولصوصاً: التاجر يكذب، والعالم يزوِّر، والقاضي يحابي، والسياسي يسرق، ورجل الأمن يرتشي، والزوج يخون!

ليس هذا فحسب، بل إن النظام نفسه مهما كان نوعه لا يتأتى إلا بقدر من هذه القيم. كيف تكون ديمقراطية مثلاً إذا كانت الانتخابات تزور؟ وكيف يكون نظام إسلامي إذا كان الحاكم يستغل الدين ليأكل أموال الناس بالباطل؟ ألم يقل الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]؟

إذا كانت مكارم الأخلاق هذه ضرورية لتلك النظم الخارجية؛ فمن أين تأتي بها، وكيف تحافظ عليها؟

غلت النظرية الماركسية فزعمت أن الأخلاق إنما هي نتيجة النُّظُم، ولذلك عزت كل ما اتصف به الناس من مساوئ الأخلاق كالسرقة والكذب والأنانية إلى النظام الرأسمالي، وكانت ترى أنه بحلول النظام الاشتراكي أو الشيوعي فإن كل هذه المساوئ ستتحول إلى حسنات، فتحل الأريحية محل الأنانية، والصدق محل الكذب، والأمانة محل الخيانة، وهكذا. لكن التجربة قد أثبتت بطلان هذه النظرية الماركسية؛ فقد بني النظام الاشتراكي في كثير من البلاد لكن الناس ظلوا كما كانوا يخونون ويكذبون ويسرقون. هذه نظرية كان يمكن أن يعرف بطلانها قبل التجربة وبمجرد النظر. إن الذين دعوا إلى الاشتراكية كانوا هم أنفسهم من نتاج المجتمع الرأسمالي؛ فما الذي جعلهم يذمون تلك المساوئ حتى قبل حلول الاشتراكية؟ وما الذي جعلهم يفكرون في نظام يقضي عليها لولا أنهم كانوا منذ البداية مؤمنين بأن القضاء عليها شيء حسن تقتضيه مكارم الأخلاق؟

لا تذهب النظريات الغربية من ديمقراطية وليبرالية ورأسمالية مذهب الماركسية، لكن الغريب فيها كلها أنها تكاد تهمل هذا الأمر إهمالاً كاملاً في تقعيدها النظري. إنها تفترض في الناس أن يكونوا أمناء، وتفرض عقوبات على أنواع من الجرائم الخلقية كالسرقة والخيانة. ما مصدر هذه الأخلاق؟ وما الذي يدعو الناس إلى الالتزام بمحاسنها، أو يغريهم باللجوء إلى مساوئها؟ ليس في هذه النظريات حتى محاولة للإجابة عن مثل هذه الأسئلة، بل ربما عدت الكلام فيها أمراً خارجاً عن نطاق النظم السياسية أو الاجتماعية.

أما الإسلام فيولي هذا الأمر أهمية قصوى. فهو يخبرنا بأن أصل هذه المكارم في فطرة الإنسان. فالرسول ﷺ يخبرنا بأن «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[1]. والفطرة هي كل ما في الإنسان من فضائل وعلى رأسها اعترافه بعبوديته لله تعالى. ويؤكد هذا قوله ﷺ في حديث أبي هريرة في الصحيحين: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال. ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»[2]، والجذر هو الأصل.

إن في وجود هذه المحاسن في كل مجتمع من المجتمعات دليلاً على صدق هذا الذي يقرره الإسلام.

لكن كونها مما فطر الله الناس عليه لا يعني أن فطرتهم تُلزمهم بها؛ لأن الفطرة إنما هي بمثابة الصوت الداخلي الذي يقول للإنسان: يا عبد الله! هذا خير فاتبعه! لكن الإنسان مخير بين أن يستمع إلى هذا الصوت أو يعرض عنه، كما أنه مخير بين أن يستمع إلى صوت الهداية الخارجي أو يعرض عنه.

بعد الفطرة يأتي الدين الحق الذي هو دين تلك الفطرة، فيقوى داعي هذه المكارم في قلوب المؤمنين. إن الإيمان بالله هو الأساس والمحور الذي تدور حوله كل الفضائل التي فطر الله الناس عليها، فبقوته تزداد قوتها، وبضعفه يزداد ضعفها. إن الإيمان بالله وحبه يثمر في القلب ضرورة حب كل ما يحبه الله من الفضائل. ثم يأتي الإيمان بالحياة بعد الموت ليؤكد للملتزم بالمكارم أنه إذا كان يخسر خسارة مادية مؤقتة في هذه الحياة الدنيا القصيرة لالتزامه بصدق أو أمانة؛ فإنه هو الرابح في الحياة الآخرة الدائمة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجنائز، رقم ١٢٧٠، ومسلم، كتاب القدر، رقم ٤٨٠٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، رقم ٦٠١٦، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم ٢٠٦.

إذا كان الإيمان بالله ـ تعالى ـ وبالدار الآخرة يجعل اعتقاد الإنسان متوافقاً مع صوت فطرته الداعي إلى مكارم الأخلاق؛ فما هكذا تكون سائر المعتقدات. إن الذي ينكر وجود الخالق، ومن ثم وجود حياة بعد الموت، يجد في نفسه نزاعاً بين داعي فطرته، ومقتضيات فكرته. إذا عُرضت عليه حالةٌ تغريه بنوع من الظلم، خيانة أو سرقة أو كذباً، أو اعتداء في سبيل مكسب مادي، فلن يجد في فكرته أو معتقده ما يقول له: إن هذا خطأ فلا ترتكبه، بل سيجد فيها ما يسوِّغ له ارتكابه. سيقول لنفسه مثلاً: إذا كانت هذه الحياة هي الحياة الوحيدة التي لا حياة بعدها؛ فلماذا أضحي بهذه المكاسب؟ ما الذي أكسبه من التضحية بها؟ لكنه باعتباره إنساناً سيجد في قلبه ما يقول له: إن هذا خطأ؛ إنه أمر لا يليق؛ إنه وإنه. فإما أن يستمع إلى صوت فطرته، أو يتصرف بحسب فكرته.

أما المؤمن فإنه حين يلتزم بالعدل حتى لو كان عليه فإنه يفعل ذلك تلبية لداعي فطرته الإنسانية، وتمشياً مع مقتضيات إيمانه الذي يقول له: إنك في الحقيقة تكسب حين تضحي هذه التضحية؛ لأن الله ـ تعالى ـ سيعطيك في حياتك الآخرة ـ وهي الحياة الدائمة ـ أكثر مما خسرت في هذه الحياة الدنيا الفانية.

إن مكارم الأخلاق أمر ضروري لكل مجتمع، لكن الإلحاد يجعلها متنافية مع العقل؛ إذ يجعلها تضحية مطلقة لا مكسب من ورائها، والإنسان العاقل لا يعمل عملاً لا ثمرة له، ولا يضحي تضحية مطلقة لا مكسب من ورائها.

إن مثل هذا التصور يجعل الحياة الدنيوية كلها حياة متناقضة؛ فأكثر الناس نفعاً للمجتمع هم أكثر الناس خسارة. وفي هذا يقول ربنا: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ [**القلم**: ٣٥ – ٣٦].

فالحياة الدنيا تكون حياة ناقصة ومتناقضة من الناحية الخلقية، ولا تكتمل وتتسق إلا بوجود دار آخرة يثاب فيها المحسنون ويعاقب المجرمون.

الإيمان بالله ـ تعالى ـ يجعل الالتزام بتلك الفضائل هو السلوك الذي يقتضيه العقل، فربنا الذي غرس محاسن الأخلاق في قلوبنا جعل الاعتقاد بالثواب عليها من مقتضياتها؛ أعني أن الثواب على عمل الخير هو مما يقتضيه الخير؛ ولذلك فإن الله ـ سبحانه ـ يجزي عليها، ويسألنا سؤالاً استنكارياً: ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [**الرحمن**: ٦٠].

ويقول ـ تعالى ـ تعليقاً على قول عيسى: ﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ** ﴾ [**المائدة**: ١١٧]: ﴿ **هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** ﴾ [**المائدة**: ١١٩].

إذا كانت مكارم الأخلاق ضرورية لقيام النظم؛ فإن من النظم ما يساعد الناس على الالتزام بها، ومنها ما يجعل هذا الالتزام أمراً عسيراً عليهم.

ولولا هذه الصلة بين ما في الباطن من قيم، وما في الظاهر من نظم، لما جعل الله دينه شاملاً لهذه النظم، بل لجعله أمراً خاصاً بأحوال القلوب كما يريد له بعض الناس أن يكون. لكن الله ـ تعالى ـ العليم بخلقه شرع للناس شرائع تتعلق بحياتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأسرية، شرائع تعينهم على الاستمساك بكل ما فطرهم عليه وشرعه لهم من فضائل إيمانية وخلقية.

وقد تميزت هذه الشرائع الإسلامية النظمية باهتمام بمكارم الأخلاق لا نظير له في نظام من النظم البشرية.

ففي مجال السياسة مثلاً يقول الله ـ تعالى ـ عن مهمة الحاكم: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [**الحج**: ٤١].

ويقول عن هذه الصلاة: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥].

فالمهمة الأولى لمن يعطيه الله قوة يسوس بها الناس هي أن يعينهم على أمر لا تقوم الحياة الفاضلة إلا به، وهو عبادة الله وما تثمره هذه العبادة من نهي عن مساوئ الأخلاق.

وإذا كان المعنى الواسع للصلاة هو كل صلة بين العبد وربه، فإن المعنى الواسع للزكاة هو الإحسان إلى الناس، ولذلك كانت هذه هي المهمة الثانية لمن يعطيه الله السلطة. أما المهمة الثالثة فهي مهمة عامة يدخل فيها هاتان المهمتان وغيرهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه أمور لم يعد مألوفاً جعلها من مهام رجال السياسة بحسب التصور الغربي اللاديني الذي صار مع الأسف هو التصور السائد في العالم بما في ذلك العالم الإسلامي.

لكن عدم جعلها من مهام رجال السياسة لم يُنْجِ السياسيين من محاسبة الناس لهم بمعاييرها؛ ولذلك تجد أن أكثر ما ينتقد به الناس حكامهم هو نقد خلقي: أنهم لا يعدلون، لا يوفون بوعودهم، يكذبون، يعملون لمجدهم الشخصي، وهكذا.

هذا موضوع كبير وعظيم أرجو أن نعود إليه مرة أخرى.

معايير العقلاء (١)

(البيان ٢١٦ ـ شعبان ١٤٢٦ هـ ـ سبتمبر ٢٠٠٥م)

كما أن هنالك خصائص بدنية تميز الناس باعتبارهم بشراً رغم اختلاف أزمانهم وأماكنهم وبيئاتهم، فهنالك أيضاً خصائص روحية تميزهم باعتبارهم بشراً رغم كل تلك الاختلافات الزمانية والمكانية والبيئية. فالناس ليسوا إذن كما تصورهم بعض النظريات الغربية سجناء في خلايا ثقافية هي التي تحتم عليهم كيف يفكرون وماذا يختارون. كلاَّ؛ بل إن ثقافات الناس المختلفة التي تشمل بالمعنى الحديث عقائدهم وتصوراتهم وقيمهم أشبه ما تكون بالمدن الحديثة، فكل مدينة لها خصائصها وطابعها، لكنها مرتبطة بالمدن الأخرى بشوارع معبدة وهواتف وغير ذلك من وسائل المواصلات والاتصالات. لو أن الناس كانوا كما تُصَوِّرهم أمثال هذه النظريات لما استطاعوا أن يتفاهموا ولا أن يغيروا من عقائدهم أو تصوراتهم التي أورثتهم إياها ثقافاتهم.

إن هذا ما كان ليمكن لولا وجود تلك الخصائص الروحية المشتركة والتي من أهمها ما يمكن تسميته بـ (المعايير العقلانية) التي يقر بها كل الناس باعتبارها معايير صحيحة وإن لم يلتزموا باستعمالها أو قبول نتائجها في كل وقت.

بعض الناس ينظر إلى خلافات الناس فيصيبه اليأس والقنوط: هذا مؤمن وذاك ملحد. هذا مسلم وذاك نصراني أو يهودي أو بوذي. هذا سني وذاك شيعي. هذا من جماعة كذا وحزب كذا وذاك من جماعة أخرى وحزب آخر. لو أن هذا اليائس البائس تذكر أن له عقلاً وأن له معايير يقيس بها ما يقبل وما يرفض لما أصابه هذا اليأس.

نذكر فيما يلي على وجه الاختصار شيئاً من هذه المعايير، ونبين أنها كلها مما افترض القرآن في الناس معرفته، ولذلك حاكمهم إليه، وهذا من أقوى الأدلة على أن هذا الدين هو بلا شك دين الفطرة التي تخاطب الناس باعتبارهم بشراً لا باعتبارهم أصحاب ثقافة محدودة بزمان أو مكان معين.

من هذه المعايير المشتركة بين جميع العقلاء من البشر:

١ - القوانين المنطقية:

أعني القوانين التي ننتقل بها من المقدمات إلى نتائجها اللازمة عنها، والتي نعرف بها أن كل كلام يخالفها لا بد أن يكون كلاماً باطلاً. من هذه القوانين؛ بل أهمها وجوهرها ما يسمى بـ(قانون الاتساق) أو (عدم التناقض)، فكل الناس بل حتى الأطفال يدركون أن الكلام المتناقض كلام باطل، فحتى الطفل يدرك أن قولك له: «لقد جئتك اليوم بهدية جميلة، لكنني لم آتك اليوم بهدية» كلام لا معنى له. وكل إنسان حتى الأطفال يدركون أن قولك اشتريت سيارة غداً أو سأشتري سيارة بالأمس؛ كلام متناقض لا معنى له. لكن ما كل الكلام المتناقض يكون بهذه البساطة والوضوح، بل قد يكون غامضاً يحتاج إلى نظر وتدقيق. من ذلك مثلاً أن المعتزلة كانوا يقولون إن الإنسان خالق أفعاله. لكن هذا معناه أن بعض الأشياء لا يخلقها الله تعالى، وهذا يعني أن الله ليس بخالق

لكل شيء وهذا معناه تكذيب القرآن الذي يقرر ﴿اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وتكذيب القرآن كفر. فهل نقول لكل من قال ذلك القول إنك كافر؟ كلاَّ؛ فقد كان من إنصاف أهل السنة قولهم إنَّ لازم القول ليس بقول، أي إن القول الذي يلزم منطقاً وعقلاً عن كلام تقوله لا ينسب إليك قوله؛ لأنك قد تكون جاهلاً بلزومه عن قولك. لكن بيان هذا اللزوم من أحسن الوسائل التي يبين بها بطلان الكلام. من أمثلة ذلك في كتاب الله أن اليهود عندما أرادوا أن ينكروا رسالة النبي ﷺ جعلوا إنكارهم هذا تحت قاعدة عامة هي قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، لكن الذي يلزم عن هذه القاعدة العامة أن الله ـ تعالى ـ لم ينزل التوراة على موسى عليه السلام. لكن اليهود يؤمنون بأن التوراة كلام الله؛ ولذلك سألهم القرآن الكريم سؤالاً استنكارياً، فقال ـ تعالى ـ: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام: ٩١]؟

لعل أعظم موضع استعمل فيه القرآن الكريم هذا المعيار هو في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾.

[النساء: ٨٢].

فهذه الآية لا تقول فقط إن القرآن الكريم لا تناقُض فيه، بل تجعل عدم هذا التناقض دليلاً على كونه من عند الله تعالى؛ لأنه لا يمكن لمخلوق أن يكتب كتاباً في حجم القرآن الكريم وتعدد موضوعاته وخطورتها والمدة الطويلة التي نزل فيها، ثم لا يكون فيما قال تناقض. ولكي تعرف مصداق ذلك انظر في أي كلام كتبه بشر على مدى بعض الأعوام فستجده هو نفسه يعترف لك بأن ما قاله في سنة كذا أو شهر كذا ينقض ما قاله بعد ذلك في سنة كذا وشهر كذا. وانظر أيضاً إلى النظريات البشرية كالديمقراطية

والرأسمالية والاشتراكية وغيرها تجد فيها من التناقض ما الله به عليم. وقد كان وجود مثل هذا التناقض السبب المهم والأساس في إنكار بعض النصارى ـ النصارى المسمون بالليبراليين ـ أن يكون ما يسمونه بالكتاب المقدس هو كله من عند الله تعالى. وكان أيضاً سبباً في إنكار الكثيرين منهم لهذا الدين.

ولأن هذا المعيار مما فطر الله ـ تعالى ـ عليه البشر قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن علم المنطق اليوناني: إنه علم لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه البليد. ولو أن الشيخ قال: لا يحتاج إليه العاقل لكان أحسن؛ لأن الإنسان مهما كانت درجته في البلادة لا بد أن يكون له إلمام بهذا المعيار، ولا بد له من استعماله في حياته اليومية.

ولذلك فإنني كنت أعجب من قول بعض الغربيين: إن المنطق شيء خاص بثقافتهم، وأن أمماً أخرى لا تعرفه. بل إن أحد المستشرقين المشاهير تلقَّف هذا القول الظاهر بطلانه فزعم أنه يصدق على العرب، فقال متحدثاً باسمهم.

والذي ينتج عن هذا أننا إذا اكتشفنا شيئاً من التناقض في القرآن؛ فإن هذا يكون دليلاً على غناه وتجاوزه المثمر للفكر التجريدي المجدب. يمكن الاحتفاظ بعبارتين متناقضتين؛ لأن كل واحدة منهما تكشف جانباً من الحقيقة تهمله الأخرى، وعليه؛ فإن العبارتين وإن لم يمكن الجمع بينهما منطقياً تعطياننا معاً صورة أكمل للحقيقة[1].

أقول بل إن العرب شأنهم في ذلك شأن سائر البشر لا بد لهم من إدراك بطلان الكلام المتناقض، وفي كلامهم من الشهود على ذلك ما لا يحصى. وعليه؛ فكما أن هذه

(١) انظر إن شئت الرد على هذا في مقال لنا قديم منشور ضمن بحوث لآخرين في كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الجزء الأول، الرياض ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص ١٤٢ـ ٢٤١.



المعايير ليست من خصائص الأوروبيين فهي كذلك ليست من خصائص العرب. يدلك على ذلك أن كل أمة من الناس لا بد لها من لغة يتفاهم بها أفرادها، ولا بد أن يكون في هذه اللغة نفي وإثبات، ولا بد للمتكلمين بها من أن يعرفوا أن الشيء لا يمكن أن يثبت وينفى في وقت واحد؛ وهذا هو قانون الاتساق.

وهذا يدلك على خطأ الذين قالوا بتعدد الحق من الأصوليين إذا عنوا به أن يكون الأمر الواحد مُثْبَتاً ومنفياً، أو حلالاً وحراماً، أو جائزاً وممنوعاً. ما أروع ما قال الإمام الشاطبي: الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك لا يصلح فيها غير ذلك؛ والدليل عليه أمور...»[١].

لكن ما زال بعض الناس يستدلون على وجود مثل هذا التعدد المتناقض بقصة اختلاف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في فهمهم لقول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلِّيَنَّ العصر إلا في بني قريظة». فيزعمون أن الرسول ﷺ أقر الفريقين رغم تناقض موقفيهما، وحاشاه ﷺ أن يفعل، إنه ﷺ إنما أقر كل فريق على ما فعل، وهذا يتضمن عدم إقراره له على ما أنكر، فالذين صلوا قبل بلوغ بني قريظة كانوا يرون أن تأخيرها خطأ، والذين أخّروها كانوا يرون أن تأجيلها خطأ. فالرسول ﷺ بيَّن لهم أن كِلا الأمرين جائز وهما أمران لا تناقض بينهما؛ فكما أنه لا تناقض بين أن تقول لإنسان: إن الصلاة في أول الوقت جائزة وفي آخره جائزة، فكذلك لا تناقض في أن تكون الصلاة قبل بلوغ بني قريظة جائزة وبعد بلوغها جائزة.

وللحديث بقية.

(١) الموافقات في أصول الشريعة، كتاب الاجتهاد، المسألة الثالثة.

معايير العقلاء «شهادة الحس» (٢)

(البيان ٢١٧ ـ رمضان ١٤٢٦ هـ ـ أكتوبر ٢٠٠٥م)

تحدث الكاتب في الحلقة الأولى عن أحد المعايير المشتركة بين جمع العقلاء من البشر بادئاً بالقوانين المنطقية. ويكمل في هذه الحلقة بقية الموضوع.

شهادة الحس:

١ ـ كل الناس في معظم أحوالهم يؤمنون بشهادة الحس، يؤمنون بأن ما رأوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، أو أحسوه بجلودهم، أو شموه بأنوفهم، أو ذاقوه بألسنتهم هو كما شهدت به هذه الحواس. لكنهم قد ينكرون هذا في بعض الأحيان؛ لأنهم ـ لسبب من الأسباب ـ لا يريدون الاعتراف بالحقيقة التي شهدت بها. هذا الإنكار مسلك مخالف للعقل؛ ولذلك فإن القرآن الكريم يذم أصحابه في مثل قوله ـ تعالى ـ: **﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾** [الأنعام: ٧].

لكن قلة من المفكرين من المسلمين وغير المسلمين يصرحون بأقوال فيها تشكيك في شهادة الحس. فهذا أبو حامد الغـزالي ـ رحمه الله ـ يقول في أول كتابه (المنقد من الضلال):

«فأقبلتُ بجدٍّ بليغ أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها، فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً، وأخذت تتسع للشك فيها، وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر؟ وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم ـ بالتجربة والمشاهدة ـ بعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة (واحدة) بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبـه حاكم العقل ويخونـه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته.

فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً».

على كلام أبي حامد هذا استدراكات:

أولاً: أنه لو كانت الثقة بالمحسوسات باطلة بطلاناً مطلقاً لكان ينبغي أن ما قال له بصره إنه ظِلٌّ ليس بِظل، وما قال إنه كوكب ليس بكوكب.

ثانياً: كيف اكتشف أن الظل ليس ساكناً كما قال له بصره؟ يقول: «بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة» وهل تكون تجربة ومشاهدة إلا بالحس؟ ألا يعني هذا أن الحس هو الذي صحح ظنه بأن الظل لا يتحرك؟

ثالثاً: إن شهادة الحس داخلة في الدليل على أن الكوكب أكبر مما ظن؛ وذلك أن الناس يعرفون بالتجربة الحسية أنه كلما كان الشيء أبعد بدا أصغر. ثم وجدوا أن هنالك نسبة بين مسافة البعد وحجم الشيء المرئي.

رابعاً: قد تقول: لكن هذا إنما عرف بالعقل. ونقول: أجل! وهل تعمل الحواس إلا بمعونة العقل؟ وهل يعمل العقل إلا بمعونة الحواس؟

٢ - إن شهادة الحواس بالنسبة للمسلم أمر يقتضيه دينه كما يقتضيه عقله؛ وذلك أن في الإسلام أصولاً لا يكتمل الإيمان ولا العمل بها إلا بالاعتراف بشهادة الحواس. القرآن الكريم كتاب لا يمكن الاطلاع عليه إلا بالنظر أو بالسماع، وهما أمران حسيان. وما يقال عن القرآن الكريم يقال عن سائر العلوم. الصلاة والصيام والحج كلها تعتمد في معرفة مواقيتها على شهادة الحس. هذه مجرد أمثلة.

وهذا يدلك على أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر من الحقائق العلمية ما شهد الحس بصدقه. أقول الحقائق كالقول بأن شكل الأرض كروي، ولا أقول النظريات كنظرية (دارْوِن).

٣ - لكن ينبغي الاعتراف بأن حواسنا لا تعطينا علماً محيطاً بما نشاهد، إنما تعطينا جانباً منه. وهذا الذي تعطيناه وإن كان جزئياً إلا أنه حق وهو كافٍ لنا في معاملاتنا الدينية والدنيوية. مثال ذلك أننا نعرف الآن بسبب الآلات التي تزيد من قوة حواسنا أن ما يبدو لنا صلباً من الأجسام ليس هو بالصلابة التي نراها، وإنما هو مكون من ذرات بينها فراغات. وقل مثل ذلك عما نراه سائلاً. ونحن حين نرى الشمس قد غربت أو أشرقت تكون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق من رؤيتنا لها تشرق أو تغرب. بل يقولون إن كثيراً مما نراه من نجوم السماء يكون قد انفجر وتبدد منذ آلاف السنين. ولكن بما أننا لا نرى الشيء إلا حين ينعكس الضوء منه على أعيننا وبما أن هذه الأجرام

تبعد عنا ملايين الملايين من الأميال؛ فإن ضوءها لا يصلنا إلا بعد آلاف من السنين تكون هي في أثنائها قد ماتت؛ فما نراه منها إنما هو تاريخها لا حاضرها.

لكننا في معاملاتنا اليومية وفي ديننا إنما نتعامل مع الأشياء بحسب ما تبدو لنا؛ فأوقات الصلاة والصيام والحج لا تعتمد على الحقائق الفلكية التي يتحدث عنها علماء الفلك، وإنما تعتمد على ما يظهر لنا منها. ذكر لي بعض الشباب في أحد المؤتمرات ببريطانيا ذات مرة أن رجلاً زعم أن في الإسلام ما يخالف الحقائق العلمية وضرب لذلك مثلاً بافتراضنا أن الشمس تتحرك والأرض ثابتة؛ لأننا نقول مثلاً: إن وقت الظهر يحين عندما تصير الشمس في كبد السماء. قلت له: ألستَ تجد في جرائدكم اليومية مواقيت طلوع الشمس وغروبها؟ فلو أن الناس التزموا بالحقائق الفلكية وحدها لما جاز لهم الحديث عن شروق وغروب؛ لأنه إذا كانت الشمس ثابتة بالنسبة للأرض، فكيف يقال إنها شرقت أو غربت؟ لكنني ذكَّرته بأن العلماء أنفسهم يسمون هذا بالحركة الظاهرية للشمس، وهي الحركة التي نعتمدها في حياتنا اليومية.

٤ ـ مما يتصل بهذا ـ أعني بعدم رؤيتنا للحقائق المحسوسة كما هي في حقيقتها ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يفعل ذلك رحمة بنا. من ذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ [**الأنفال**: ٤٣ – ٤٤].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ [**آل عمران**: ١٣].

٥ ـ يتعلل بعضهم في عدم إيمانه بوجود الخالق ـ سبحانه ـ أنه لا يؤمن إلا بما يرى ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]. ويدعي بعضهم في عصرنا بأن هذا أمر يقتضيه المنهج العلمي. وكذبوا؛ فإنهم لو كانوا صادقين في عدم تصديقهم بما لا تراه أعينهم للزمهم أن لا يؤمنوا بحوادث التاريخ، وللزمهم أن لا يصدقوا بوجود شيء في الأماكن التي تبعد عنهم بُعداً لا ترى ما فيها أعينهم، بل للزمهم أن يذهبوا مذهب بعض الفلاسفة الذين كانوا يقولون: إنهم إنما يؤمنون بما يرون ما داموا يرونه، ويقولون: من يدرينا أنه ما زال موجوداً حين نغمض عنه أعيننا أو نلفت عنه أنظارنا؟

وظنَّ بعضهم أن الحواس لا تدرك إلا ما كان ذا طبيعة مادية (كما نقول بلغتنا الحديثة)، ولذلك أنكروا إمكانية رؤية الخالق ـ سبحانه ـ؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ فكيف تراه الأعين التي لا ترى إلا ما كان من نوع تلك المخلوقات؟ هؤلاء أخطؤوا عدة أخطاء:

فأولاً: إن كون المخلوقات تُرى لا ينهض دليلاً على أن ما كان من طبيعة غير طبيعتها لا يُرى. فرقٌ بين أن تقول: إن المخلوقات التي هي من النوع الفلاني تُرى، وبين أن تقول: إنها هي وحدها التي تُرى.

ثانياً: نحن نعلم الآن أن هنالك موجودات لا تراها حواسنا المجردة لكنها تُرى بوساطة الآلات التي تساعد تلك الحواس، فنحن نرى بالتلسكوب من الأشياء البعيدة ما لا يمكن للعين المجردة أن تراه، ونرى بالميكروسكوب من الأشياء الدقيقة ما لا يمكن لها أن تراه، ولو أننا حكمنا على الأشياء بمنطق هؤلاء لقلنا: إنها لا يمكن أن تُرى إطلاقاً؛ لأن الذي يُرى إنما هو الذي يمكن للعين المجردة أن تراه.

ثالثاً: نعم! إننا لا نرى ربنا ـ سبحانه ـ في هذه الحياة الدنيا؛ ولذلك عندما دعا نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [**الأعراف**: ١٤٣] قال له الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [**الأعراف**: ١٤٣].

لكن الله ـ تعالى ـ قال عن المؤمنين في الدار الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [**القيامة**: ٢٢ – ٢٣].

فدل ذلك على أن العلة في عدم رؤيتنا لخالقنا في هذه الحياة هي طبيعة أعيننا لا ذات خالقنا سبحانه. فذاته ـ سبحانه ـ لا تتغير وإنما الذي تغير هو طبيعة حواسنا، فكما أن عدم رؤيتنا للكائنات البعيدة والدقيقة لم يكن سببه طبيعة تلك الكائنات وإنما كان سببه طبيعة أعيننا، فلما ساعدتها الآلات على الرؤية رأت ما لم تكن ترى؛ فكذلك فإنه عندما تتغير طبيعة الناس في الجنة فيكونون مخلوقات تأكل ولا تخرج منها فضلات، وتتحرك ولا تتعب ولا تنام، فكذلك تتغير طبيعة حواسهم فترى ما لم تكن تستطيع رؤيته في دنياها.

٧ ـ يقول بعض الفلاسفة المعاصرين كلاماً كان أئمة أهل السنَّة يقولونه قبلهم منذ سنين يقولون: إن ما لا تمكن مشاهدته بحال من الأحوال فليس بموجود. ولذلك فإن أهل السنة الذين كانوا يقولون ذلك كانوا يقولون للجهمية ومن ذهب مذهبهم في صفات الله ـ تعالى ـ: إنكم تعبدون عَدَماً. وقد كان هذا التصور العدمي لصفات الخالق ـ سبحانه ـ من أكبر الأسباب التي تعلق بها بعض الملحدين في الغرب. كانوا يقولون لزملائهم المؤمنين: عن أي شيء تتحدثون؟ شيء لا يمكن أن تراه الأعين ولا أن تسمعه الآذان ولا يُحس ولا يُشَم ولا يُذاق؟

وقد ذكر الإمام أحمد في أول كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية كلاماً نفيساً في تفسير السبب الذي أدى بالجهمية إلى هذا التصور التعطيلي لصفات الخـالق. قال ـ رضي الله عنه ـ:

فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام، وكان أكثر كلامه في الله ـ تعالى ـ، فلقي أناساً من المشركين يقال لهم السُّمنية، فعرفوا الجهم، فقالوا له: نكلمك؛ فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك؛ فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألستَ تزعم أن لك إلهاً؟ قال الجهم: نعم! فقالوا له: فهل رأيتَ إلهك؟ قال: لا. قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا. قالوا: فشممتَ له رائحة؟ قال: لا. قالوا: فوجدتَ له حساً؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له مجساً؟ قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهم فلم يدرِ من يعبد أربعين يوماً، ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى...... فقال للسُّمني: ألست تزعم أن فيك روحاً؟ قال: نعم! فقال: هل رأيت روحك؟ قال: لا. قال: فسمعت كلامه؟ قال: لا. قال فوجدتَ له حساً أو مجساً؟ قال: لا. قال: فكذلك الله لا يُرى له وجه ولا يُسمع له صوت ولا يُشَمُّ له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان...... فإذا سألهم الناس عن قول الله: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى: ١١] يقولون ليس كمثله شيء من الأشيـاء وهو تحـت الأرضـين السبـع كمـا هـو على العرش، ولا يخـلو مـنه مكـان ولا يكـون فـي مكـان دون مكان، ولم يتكلم ولا يتكلم، ولا ينظر إليه أحد في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة، ولا يفعـل، ولا له غاية ولا له منتهى، ولا يدرَك بعقل، وهو وجه كله، وهو علم كله، وهو سمع كله، وهو بصر كله، وهو نور كله، وهو قدرة

كله، ولا يكون فيه شيئان، ولا يوصف بوصفين مختلفين، وليس له أعلى ولا أسفل، ولا نواحي ولا جوانب، ولا يمين ولا شمال، ولا هو خفيف ولا ثقيل، ولا له لون، ولا له جسم، وليس هو بمعمول ولا معقول، وكلما خطر على قلبك أنه شيء تعرفه فهو على خلافه.

قال أحمد:

وقلنا: هو شيء؟ فقالوا: هو شيء لا كالأشياء. فقلنا: إن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه لا شيء.

معايير العقلاء «السنن الكونية» (٣)

(البيان ٢١٨ - شوال ١٤٢٦ هـ - نوفمبر ٢٠٠٥م)

عقلاء الناس في كل زمان ومكان يؤمنون بأن الحوادث لا تحدث خبط عشواء، بل يعتقدون أولاً أن لكل حادث منها سبباً، ويعتقدون ثانياً أن الأسباب المتماثلة تؤدي إلى نتائج متماثلة سواء في عالم الطبيعة، أو عالم المجتمعات، أو عالم النفس. ويعلمون أنه لولا هذا الاطِّراد في الأسباب والمسبَّبات وجريانها على نسق واحد لما أمكن أن تكون هنالك علوم طبيعية ولا اجتماعية ولا نفسية، ولما استفاد الناس من دراستهم للتاريخ، ولما استفاد بعضهم من تجارب بعض ولا اتعظوا بها، بل ولما استطاعوا أن يتعاملوا مع الطبيعة والناس من حولهم، بل ولا مع أنفسهم. كيف يمكن هذا إذا كان من الممكن للحادث أن يحدث من فراغ، أو إذا كان السبب الواحد يؤدي إلى مسببات مختلفة بل متضادة بحسب الزمان والمكان؟ كيف إذا كان الماء الذي رشّ على النار فأخمدها بالأمس يُرَشّ عليها اليوم فيزيدها اشتعالاً؟

لكن الإيمان بالقاعدة لا يعصم الناس من الخطأ في تطبيقها، ولا يلزمهم بعزو المسببات إلى أسبابها الحقيقية التي يعلمونها، بل يعزونها زوراً إلى أسباب يعلمون أنها



ليست أسباباً لها. فالناس يظلون مخيرين: من شاء اعترف بالحق، ومن شاء كذَّبه. لكن أولي الألباب منهم لا يكتفون بالإيمان بصدق القاعدة، بل ينظرون في دعاوى الربط بين المسبَّبات المعينة وأسبابها المدَّعاة: هل قام دليل على صدقها أم لا؟ ولولا ذلك لما كذَّب الناسُ السحرةَ والدجالين والمخرفين، ولما عرفوا الفرق بين النبي المرسل ومدعي النبوة. لكن الصدق لا يعصم من الخطأ. فقد يظن الإنسان صادقاً أن هنالك رابطاً بين نتيجة معينة وسبب معين، ويكون مخطئاً في ظنه. يحدث هذا حتى في أكثر العلوم الدنيوية انضباطاً كعلم الفيزياء أو الكيمياء، ودعك من علم الطب وعلم النفس والاجتماع!

وبما أن الإسلام إنما يخاطب العقلاء من الناس فإنه يستعمل هذه الحجة التي يسلِّمون بها، فيدعوهم تارة إلى الاعتراف بالنتائج التي عرفوها، ويذكِّرهم تارة بأن السبب الذي رأوه أدى إلى نتيجة معينة لا بد أن يؤدي إلى النتيجة نفسها في حالة أخرى، ويعرِّفهم تارة بأسباب يجهلونها، ويخطِّئ ظنهم في أسباب ظنوها أسباباً لمسببات معينة وما هي بأسبابها الحقيقية. وإليك أمثلة على ذلك وهي قليل من كثير:

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاّ سُنّتَ الأَوّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنّتِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنّتِ اللّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿ لَئِن لّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنّكَ بِهِمْ ثُمّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاّ قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنّةَ اللّهِ فِي الّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٢ - ٢٣].

الملاحظ أن السنن التي وصفها القرآن الكريم في هذه الآيات وغيرها بأنها لا تتغير ولا تتبدل إنما هي ما يمكن تسميته بالسنن الاجتماعية. أما السنن الطبيعية فلم يرد في كتاب الله وصفها بهذه الصفات؛ والسبب واضح وهو أنها يمكن أن تُخرَق، أعني: أن السنن التي يعرفها الناس والتي تسمى الآن بالقوانين الطبيعية كقانون الجاذبية يمكن أن تُخرَق؛ فالنار لم تحرق سيدنا إبراهيم، والبحر انفلق لسيدنا موسى، والقمر انشق لسيدنا محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. لكن بما أن الخوارق أمر نادر فيمكن أن يقال: إنها هي الأخرى ثابتة لا تتغير. ثم إن الخرق إنما هو خرق للسنَّة التي اعتادها الناس، وليس خرقاً لقانون السببية؛ ذلك لأن الخرق نفسه يكون بأسباب أخرى ليست معهودة للناس.

وهذه أمثلة لم تُذكر فيها كلمة السنَّة، لكن ذكر فيها معناها وهو التذكير بأن الأسباب المتماثلة تؤدي إلى نتائج متماثلة:

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣].

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر: ٥١].

وكما يذكِّرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بسنَّة تكرار النتائج إذا ما تكررت الأسباب؛ فإنه يرشدنا أحياناً إلى أسباب لم نكن نعلمها، من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ

الّذِينَ مِن قَبْلِهِم مّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيّنّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

[البقرة : ١١٨].

في هذه الآية الكريمة دليل على أن هنالك علاقة سببية بين الأقوال اللسانية والأحوال القلبية، فإذا ما تشابهت القلوب تشابهت الأقوال، ولا يلزم لذلك أن يأخذ اللاحق من السابق، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الّذِينَ مِن قَبْلِهِم مّن رّسُولٍ إِلاّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾.

[الذاريات : ٥٢ – ٥٣].

أتواصَوْا به؟ كلاَّ؛ فهم لم يَلْقَ بعضهم بعضاً، ولكن سبب التشابه في الأقوال هو الطغيان الذي في القلوب.

وبسبب هذا التلازم بين الأحوال القلبية والعبارات اللسانية كان من المتعذر على المنافق أن يخفي نفاقه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٠].

بل إن القرآن الكريم ليدلنا على أن هذه العلاقة بين الظاهر والباطن سُنَّة عامة: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدّوا لَهُ عُدّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦].

في هذه الآية دليل على أن هنالك تلازماً بين الإرادة والعمل؛ فمن ادعى أنه يريد عملاً معيناً وكان قادراً على أن يأتي به أو بشيء منه ثم لم يفعل ذلك علمنا أنه كاذب في دعواه.

يذكِّرنا الإمام الشاطبي بأن هنالك علاقة لزوم بين معرفة الدين الحق واطِّراد السنن، أي: أنه لو لم تكن السنن الكونية مطَّردة لما أمكن أن تعرف حقيقة الدين؛ لأنه إنما يعرف بالمعجزة التي تخرق العادة؛ فإذا لم تكن هنالك عادة مستمرة لم يكن هنالك ما يخرق.

ويذكِّرنا ـ رحمه الله ـ بأن اطراد التشريع مبني على اطراد السنن الكونية. أعني: أنه لو كان خلق الناس وخلق الكون من حولهم في تغير مستمر لما أمكن أن يكون لهم تشريع ثابت لا يتغير.

فثبات التشريع وعدم تغيره من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان دليل على أن من شرع لهم لا تتغير فطرهم وطبائعهم التي بني عليها التشريع، وإن تغيرت بعض أحوالهم التي لا علاقة لها به[1].

بقي من هذا الكلام سؤال نختم به هذا الحديث الموجز عن السنن الكونية: ما علاقة الأسباب بالخالق سبحانه وتعالى؟

افترق الناس في هذا إلى طرفين غالطين ووسط أصاب الصواب. وقف أصحاب الطرف الأول عند حدود الأسباب، واعتقدوا أنها هي التي تفعل بنفسها؛ فلا حاجة إلى افتراض خالق لها، وغفلوا عن حقيقة ماثلة أمامهم تقول: إنه لا يوجد في العالم سبب مستقل بفعل؛ فما من شيء ندعوه سبباً إلا وهو معتمد في فاعليته على أسباب أو شروط أخرى، تعتمد هي الأخرى على أسباب وشروط، فأنَّى يكون مستقلاً؟ وغلط مؤمنون

(١) انظر في تفصيل كل هذا: كتابه (الموافقات)، كتاب المقاصد، النوع الرابع، المسائل الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة. وقد عزا ـ رحمه الله ـ أول هذين الدليلين إلى الإمام الرازي يرحمه الله، ووصفه بأنه من أنبل الأدلة.

فظنوا أن فاعلية الأسباب تتناقض مع خلق الله، فكأنهم ظنوا أنه إذا عُزي الفعل إلى السبب فلا يمكن أن يعزى إلى الخالق، ولذلك قالوا عن اطِّراد السنن التي يرونها ماثلة أمامهم: بأن الله ـ تعالى ـ يخلق عندها لا بها، أي: إذا رأيت الورقة أُلقيت في النار فاحترقت فلا تقل: إن النار أحرقتها، ولكن قل: إن الله أحرقها عند ملاقاتها للنار. قال أهل الحق: إن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلق الأسباب وجعلها أسباباً؛ ففاعليتها لا تدل على الاستغناء عنه، كما أنها لا تتناقض مع خلقه لها، بل إن من عادته ـ سبحانه ـ أن يخلق بالأسباب، ولذلك استعملت باء السببية في وصف كثير من الحوادث الطبيعية:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وكما استُعملت في القرآن باء السببية فقد استُعملت كذلك عبارات أخرى كثيرة تدل على السببية، لكن المجال ليس مجال تفصيل لهذا الأمر.

نكتفي بهذا الآن، ونستأنف الحديث بإذن الله ـ تعالى ـ في معايير أخرى من معايير العقلاء.

معايير العقلاء «النفع والضر» (٤)

(البيان ٢١٩ ـ ذو القعدة ١٤٢٦ هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٥م)

أذكِّر القارئ الفاضل بأننا نتحدث في هذه السلسلة عن المعايير التي يقرُّ بها ويزن بها الأمور عقلاء الناس، أو كل إنسان في الحال التي يكون فيها عاقلاً. وهي معايير فطر الله الناس عليها؛ فهم عالمون بها قبل ورود الشرع، والشرع يأتي مقراً بها ومؤكداً لها ومستعملاً لها في دعوته الناس إلى الحق، وفي الحِجَاج معهم. واستعمال هذه المعايير في مجادلة الناس مهم؛ لأن الناس وإن كانوا يعترفون بها، بل ويلتزمون بها في كثير من شؤون حياتهم، إلا أنهم كثيراً ما يتناقضون فيأبون الالتزام بلوازمها لأسباب غير عقلانية.

معيار النفع والضرر هو أحد هذه المعايير، وهو معيار يقر به الناس ويستعملونه في حياتهم اليومية: في الأمور المادية، والمسائل الفكرية. فالناس يختارون من الأشياء والأفعال والتصرفات ما يرون فيه نفعاً لهم، ويفضلون ما كان أكثر نفعاً على ما كان أقل منفعة، ويجتنبون ما يضرهم، ويرتكبون أخف الضررين حين لا تكون لهم خِيَرة. يستعملون معيار النفع والضرر هذا فيما يختارون من مطاعم ومشارب وملابس

ومراكب وأدوية وآلات وغيرها. إن من أكبر الأدلة على التزام الناس بهذا المعـيار أنك لا تجد أحداً يدعو إلى فكرة أو إلى آلة فيقول للناس إنها ضارة بهم، أو أنه لا نفع فيها لهم.

لكن كون الشيء نافعاً أو ضاراً أمر يحتاج إلى علم. ولذلك فإن الإنسان مع التزامه بمعيار النفع والضرر قد يخطئ فيختار بسبب جهله ما هو ضار أو أكثر ضرراً، ويترك ما هو نافع أو أكثر نفعاً. وكثيراً ما يفعل هذا بسبب الدعاية التي يدعوه بها الكذابون والغشاشون من التجار والمشعوذين والسياسيين.

يأتي الدين الحق ليقر هذا المعيار الذي فطر الله الناس عليه، وليستعمله في دعوتهم إلى قبول الحق الذي يهديهم إليه. فإذا كانت دعامة الدين الأولى هي الإيمان بالله، فإنه يذكِّرهم بأن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقهم وهو الذي يرزقهم، وهو الذي خلق لهم من الأشياء ما فيه منفعة لهم كالحديد والفلك والأنعام، وهو الذي يميتهم ويحييهم، وهو المتصف بصفات الكمال من علم بكل شيء، ومقدرة على كل شيء، ورحمة وسعت كل شيء. ولذلك كان من الخير لهم أن يعبدوه فيخضعوا له ويطيعوا أمره فيما أمرهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢].

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ١ – ٥].

ولذلك كان من عدم العقل أن تعبدوا ما لا يملك لكم نفعاً ولا ضراً، ولا يصرف عنكم سوءاً، ولا يمنع عنكم شراً؛ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

والإنسان العاقل يُؤْثِرُ النفع الآجل الأكثر على النفع الحاضر الأقل. هكذا يفعل الإنسان حين يدخر، وهكذا يفعل التاجر حين يكف عن البيع العاجل إذا توقع ربحاً آجلاً أكثر. والقرآن الكريم يستعمل هذه الحجة في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٠ - ٢٥].

وإذا كان الله ـ تعالى ـ هو القادر على أن يعطيكم ما تعلمون أن فيه منفعة لكم، وهو القادر على أن يقيكم مما تعلمون أن فيه ضرراً بكم؛ فإنه هو أيضاً الذي يدلكم على ما لا تعلمون من أنواع المنافع والمضار؛ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإذا كان في بعض الأشياء نفع وضرر فإنه أعلم منكم بمقدار نفعها وضررها، وأعدل منكم في الحكم لها أو عليها؛ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

الجمال:

وهل الجمال معيار؟ أجل! والله إنه لمعيار من أهم المعايير المتفق عليها بين العقلاء. كيف أقول هذا والناس دائماً يرددون القول: بأن الجمال من الأمور التي تختلف فيها الأذواق؟ أقول: لكنهم لا يختلفون في تفضيل ما يرونه جميلاً على ما يرونه قبيحاً، ولا يختلفون في جمال كثير من الأشياء وقبح أضدادها. والجمال المتفق عليه بينهم يشمل: جمال المناظر، وجمال الأصوات، وجمال الأقوال، وجمال الروائح.

هل رأيت من بشر يبتهجون لمنظر أكوام الزبالة ويكتئبون حين يشاهدون باقات الزهور؟ وهل رأيت من بشر يَطرَبون لنهيق الحمير ويشمئزون حين يسمعون تغريد البلابل والطيور؟ وهل رأيت من بشر يصغون لثرثرة الجهلاء ويصدون عن شعر الشعراء ونثر الأدباء؟ وهل رأيت من بشر يستمتعون بالروائح المنبعثة من مداخن المصانع ويتأذون من عبير العطور؟

بين الناس إذن اتفاق على ما هو جميل وما هو قبيح وإن اختلفوا في بعض التفاصيل. وفي القرآن الكريم ما يدلك على هذا الاتفاق، ألم يقل الله عن بقرة بني إسرائيل: إنها تسر الناظرين، فعمم الناظرين ولم يخصهم بناظري بني إسرائيل؟ وألم يقل ـ سبحانه ـ في معرض المن على عباده بما خلق لهم من بعض الحيوانات: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ – ٨]؟

فجمع ـ سبحانه ـ في هذه الآيات بين نعمة المنفعة من دفء وأكل وحمل وركوب، وبين نعمة الجمال ونعمة الزينة.

وقال ـ تعالى ـ عن الحدائق: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

ففي هذه الآية الكريمة ذكر نعمة البهجة فقط، ولم يذكر نعمة المنفعة.

فالجمال كما تدلك هذه الآيات ليس قاصراً على جمال المناظر.. فكما توصف النساء بالجمال فكذلك توصف به مكارم الأخلاق؛ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٨] ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]. وكما يوصفن بالحسن؛ فبه أيضاً توصف الأعمال؛ فالأعمال منها ما هو حسنات يحبها الله، ومنها ما هو سيئات لا يحبها. وكل ما يحدث للناس من أنواع النعم فهو حسنات، وكل ما يصيبهم من أنواع النقم فهو سيئات.

وأعظم الحسن وأجله وأعلاه هو حسن الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أوصافه الحسنى هذه كونه جميلاً ومحباً للجمال.

معايير العقلاء «القيم الخلقية» (٥)

(البيان ٢٢٠، ذو الحجة ١٤٢٦ هـ - يناير ٢٠٠٦م)

ربّما كان معيار القيم الخُلُقية أكثر المعايير دوَراناً على ألسنة الناس في تقويمهم للأشخاص والتصرفات؛ فهم ما يزالون يحكمون على هذا بأنه سياسي كذاب، وذاك بأنه رجلُ دينٍ منافق، وعلى تلك بأنها امرأة شريفة، وعلى هؤلاء بأنهم موظفون أُمناء وهكذا...

فنحن لسنا - إذن - بحاجة إلى أن نقيم دليلاً على أن هذه القيم من المعايير التي يلجأ إليها العقلاء، أو سائر الناس في حال تقويمهم العقلي.

أما المسألة التي تحتاج إلى شيء من البيان بسبب ما أُثير حولها، ولا سيما في الفكر الغربي من شبهات، فهي مسألة علاقة القيم الخلقية بالأوامر والنواهي الإلهية.

زعم بعض المنتسبين إلى الأديان - حتى من المسلمين - أنّ قِيَم الصدق والأمانة والوفاء وسائر المكارم الخلقية إنما تُعرف بالدين ولا معنى لها قبل ورود الشرع، وزعم آخرون أن الإيمان وحده هو الذي يدفع الإنسان للالتزام بهذه القيم، وأن من لا إيمان له لا خُلُقَ له.

قال المعترضون: لكننا نعرف ـ بالحس والتجربة ـ أناساً صادقين أو أُمناء مع أنه لا علاقة لهم بِدِينٍ.

بل زعم بعض الفلاسفة أن التزام المتدين بمكارم ـ كالصدق والأمانة ـ ليس التزاماً بمكارم خُلُقية، وإنما هو تصرُّف تاجر يريد أجراً على فعله، وأن الملتزم بمكارمَ مثل هذه ـ باعتبارها مكارمَ خُلُقية ـ لا يفعل هذا رجاءَ ثواب أو خوفاً من عقاب، وإنما يفعله؛ لأنه عملٌ حَسَنٌ في نفسه.

فما وجه الحق في هذه المسائل؟ نقول:

أولاً: أما معرفة الناس بحسن أصول المكارم الخُلُقية ـ من صدق وأمانة وعدل ووفاء وغيرها قبل ورود الشرع بها أو أمره بها ـ فمسألة لا شك فيها، بل هي من لوازم الدين التي لا يعرف الناس حقيقة الدين إلا بها.

إذاً؛ لم يكن الناس قادرين على التمييز بين الصدق والكذب، أو بين حُسْن الأول وقُبح الثاني؛ فكيف يميزون إذن بين نبي صادق ومدّعٍ للنبوة كاذب؟ وكيف يميزون بين كلام الله وافتراءات الدجالين؟

إن الشكر هو لُبّ العبادة، وما أنواع العبادات من صلاة وصوم وحج وذِكْر إلا وسائل يعبر بها العبد عن شكره لله تعالى؛ فإذا لم يكن يعرف معنى الشكر ولا حُسْنه قبل ورود الشرع به؛ فكيف إذن يستجيب للدعوة إلى عبادة الله؟

قال ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

فالدعوة إلى عبادة الله في هذه الآيات الكريمات وأمثالها دعوة إلى شكره على نعمه التي أنعم بها على الإنسان.

وكذلك الدعوة إلى القراءة باسمه ـ تعالى ـ في أول سورة طرقت أسماع العباد هي دعوة إلى شكره على نعمة الخَلْق ونعمة العِلْم، وأن الذي لا يستجيب إلى هذه الدعوة فيشكر الله ـ تعالى ـ عليها هو الذي أصابه من الغرور ما جعله يعتقد أنه مستغنٍ عن الخالق سبحانه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [**العلق**: ١ – ٧].

ثانياً: إذا كان الخطاب الشرعي مبنياً على حقيقة أن الناس عارفون بحسن الصدق والأمانة والعدل والوفاء وغيرها؛ فمن الخطأ أن يُعرّف الإحسان بأنه ما أمر الله به، أو يُعرّف الشر بأنه ما نهى الله ـ تعالى ـ عنه. فرقٌ بين أن تقول: إن الله يأمر بالعدل، وأن تقول: إن العدل هو ما أمر الله به. فالعبارة الأولى تعني أن الإحسان كان إحساناً قبل أن يأمر الله به، والشر كان شراً قبل أن ينهى الله عنه. أما الثانية ـ إذا قصد بها تعريف الخير والشر ـ فإنها تعني أن ما أمر الله به لم يكن إحساناً أو خيراً قبل الأمر به، وما نهى عنه لم يكن شراً قبل النهي عنه. لكن هذا تلزم عنه شنائع كما بيّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية؛ إذ قال كلاماً فحواه أن هذا القول يفرغ بعض الآيات من معانيها ويجعلها تحصيل حاصل، وذكر على ذلك مثلاً قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [**النحل**: ٩٠].

فإذا قلت: إن العدل هو ما أمر الله به، كان معنى الآية: إن الله يأمر بما يأمر به. أما بالقول الثاني فيكون في الآية ثناء على الله ـ تعالى ـ أنه يأمر بالعدل الذي يعرف الناس أنه عدل وأنه شيء حسن، يتضح لك هذا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [**الأعراف**: ٢٨ – ٢٩].

فالله ـ تعالى ـ ينزِّه نفسه عن أن يأمر بالفحشاء، وأنه إنما يأمر بالقسط، فإذا فسرت الفحش بأنه ما نهى الله عنه والقسط أنه ما أمر الله به؛ صار معنى الآية: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وإنما يأمر بما يأمر به.

ثالثاً: لماذا يلتزم المسلم بمكارم الأخلاق؟ لأسباب ثلاثة:

أولها: أنه كغيره من عباد الله من ذوي الفطرة المستمرة على استقامتها: يصدق، أو يفي، أو يعدل؛ لأنه يحب هذه الخصال ويبغض أضدادها، ويرى في الالتزام بها إكراماً لنفسه، وفي الخروج عليها تدنيساً لها.

ثانيها: أن إيمانه بربه وحبه لما يحب يقوّي هذا الشعور الفطري فيه.

ثالثها: أنه يرجو ثواب ربه ولا سيما حين يقتضي الفعلُ الحَسَنُ قدْراً من التضحية. وهو في كل هذا سائر على مقتضى المعايير التي يلتزم بها العقلاء. أما غيره فإنه حين يسلك هذا السلوك الحسن يضطر لأن يخرج على بعض تلك المعايير. إن كل إنسان يرى أنه من أكبر العبث أن يُقْدِم على فعل لا يرجو منه نفعاً ألبتة كما بيّنا في المقال السابق. فما الذي يجعل مكارم الأخلاق مستثناة من هذه القاعدة؟ إنه حتى الذي لا يؤمن بالله

ولا بآخرة لا يلتزم بها التزاماً لا يجد له نفعاً في هذه الحياة الدنيا. بل إنه قد يُحْسِنُ لِـمَا يجد للإحسان من أثر طيب على نفسه، أو لأن الناس يحمدونه عليه، كما كانوا يفعلون مع مشاهير الكرماء من أمثال حاتم الطائي. فما الذي يجعل العمل من أجل مثل هذا الثواب خيراً من رجاء الثواب عند الله تعالى؟

حين كنت أفكر في كلام هؤلاء الفلاسفة أيام الشباب لفتت نظري هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

قلت: إذا كان الصدق رأس المكارم الخُلُقية ومع ذلك ينتفع به صاحبه نفعاً خاصاً؛ فلا منافاة إذن بين أن يكون العمل من مكارم الأخلاق وبين أن ينتفع به صاحبه.

ثم لفت نظري قوله ـ سبحانه ـ الذي وجدت فيه الرد على شبهتهم: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فكأن الآية تقول لهؤلاء: إن الذي ظننتموه متناقضاً مع مكارم الأخلاق هو منها ومن مقتضياتها.

بعض الفلاسفة الذين أثاروا هذه الشبهة ذكروا ـ هم أنفسهم ـ في مقابلها شبهة تنقضها، فهذا زعيمهم الفيلسوف الألماني «كانْت» الذي اشتهر بنظرية تسمى: (الواجب المطلق categorical imperative)، والتي فحواها: أن الإنسان يجب أن يلتزم بمكارم الأخلاق لا لأيِّ سبب نفسي أو خارجي، بل أداءً للواجب الذي يعبّر عنه هذا الأمر المطلق المسمى بـ «القانون الخُلُقي». هذا ـ كما ترون ـ مجرد تحكم، لكنه قول صار عند الغربيين من النظريات الخُلُقية التي ما تزال تُدرس وتُنشر.

لكن «كانْت» هذا قال في مكان آخر قولاً ينقض دعواه هذه.

في مناقشته لأدلة وجود الخالق انتهى إلى أن أحسن دليل هو الدليل الخُلُقي الذي فحواه أن القانون الخُلُقي يقتضي العدل، أي: أن تكون سعادة الإنسان متناسبة مع التزامه بالفضيلة، وهذا أمر لا يضمنه إلا الخالق، لكنه لم يضمنه في هذه الدنيا فلا بد إذن من دار أخرى يتحقق فيها.

والقارئ المسلم يعلم أن ما يُسمى بالدليل الخُلُقي مصرّحٌ به في كثير من آيات الكتاب العزيز، من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [القلم: ٣٤ ـ ٣٦].

خبط عشواء.. أم تقديرُ حكيم؟

(البيان ٢٢١ ـ المحرم ١٤٢٧ هـ ـ فبراير ٢٠٠٦م)

في العشرين من ديسمبر من السنة الماضية أصدر قاضٍ أمريكي بولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة حكماً بأن تدريس النظرية المسماة (التصميم الذكي)(١) في المدارس الحكومية (وهي نظرية معارضة لنظرية التطور) أمر مخالف للدستور. وكان السبب الذي علل به حكمه هو أن النظرية نظرية دينية لا علمية؛ لأنها تشير إلى الخالق.

ماذا تقول هذه النظرية؟ وعلامَ يدل هذا الحكم؟ ثم ما العلاقة بين الداروينية والمعتقدات الدينية؟

هذا ما سنعرض له بإيجاز في هذا المقال.

أما النظرية فإن أكثر من اشتهر بها من علماء الأحياء في الأيام الأخيرة، ودافع عنها دفاعاً علمياً أقر به خصومه، هو (Michael Behe) الأستاذ في

(١) ترجمة لعبارة (intelligent design)، وهي ترجمة غير صحيحة؛ لأن كلمة ذكي العربية لا يوصف بها الله تعالى، لكنه يوصف بكلمة (intelligent) في اللغة الإنجليزية؛ لأن الكلمة لا تعني الذكاء فقط ،بل تعني المقدرة على العلم. لذلك أرى أن تترجم بعبارة تصميم خبير أو حكيم.

علم الأحياء الكيماوية في كتاب له صدر في عام ٩٦ بعنوان (صندوق دارْوِن الأسود: التحدي الأحيائي الكيماوي للتطور)[1].

قال المؤلف في كتابه هذا: إن الأحياء الدقيقة مثل الخلية كانت بالنسبة لدارْوِن أمراً مجهولاً؛ صندوقاً أسود لا تعرف محتوياته، وأن نظريته لا تفسر أشياء مهمة مثل الخلية التي هي أساس الكائنات الحية. وكانت حجته الجوهرية أن تركيب هذه الكائنات يدل على أنها لا يمكن أن تكون قد تطورت، وأنها صممت منذ البداية لتؤدي وظيفتها، وأنه لا بد أن يكون قد صمَّمها مصمِّم حكيم[2].

وذكر في كتابه بأن دارْوِن نفسه كان قد قال: إنه إذا أمكن أن يقام دليل على وجود كائن حي مركب ما كان من الممكن أن يتكون من تغيرات كثيرة طفيفة متتالية؛ فإن نظريتي ستنهار انهياراً كاملاً[3]. ما طبيعة هذا الكائن الأحيائي الذي تنطبق عليه هذه الصفات؟ يقول المؤلف بإيجاز: إنه النظام المكون من أجزاء متفاعلة متوائمة يسهم كل منها في الوظيفة الأساسية للنظام، بحيث إنه لو أزيل واحد منها توقف النظام عن العمل. إذا وجد نظام أحيائي بهذه المثابة فإنه سيمثل تحدياً عظيماً للداروينية؛ لأن الاختيار الطبيعي إنما يعمل على كائنات فاعلة، ومثل هذا الكائن لا يفعل، لا يؤدي وظيفته إلا إذا اكتمل تركيب أجزائه كلها.

---

(1) Michael J. Behe, Darwin›s Black Box: The Biological Challenge to Evolution, The Free Press, 1996.

(٢) استعمل هو كلمة (intelligent)، وهي كلمة لها معان منها ذكي، ولكننا لا نصف الله ـ تعالى ـ بهذه الصفة، وإنما نصف بها البشر، وأما الله ـ تعالى ـ فيوصف بالحكمة. لذلك أرى أن الترجمة العربية المناسبة للعبارة هي التقدير المحكم، أو تقدير حكيم.

(٣) ص ٣٩.



وأعطى في مقدمة كتابه فكرة مبسطة لمفهوم التركيب المعقد الذي ليست له أجزاء بسيطة. ضرب المؤلف مثلاً لنوع هذا التركيب بشَرَك اصطياد الفئران. هذا الشَّرَك مركب من خمسة أجزاء لا يعد أي منها شركاً في مرحلة بدائية؛ فالقاعدة الخشبية مثلاً لا تؤدي وحدها أي وظيفة من وظائف الشرك، وكذلك الحال بالنسبة للزنبرك وسائر الأجزاء. إن هذه الأجزاء لا تكون شَرَكاً إلا بتركيبها هذا التركيب المعين الذي قصد منه أن يجعل منها شركاً.

أما الكائنات التي يمكن أن تتطور والتي اعتمد عليها دارون في نظريته؛ فإن كل مكون من مكوناتها يمثل طوراً من أطوار تطورها، ويؤدي شيئاً من وظيفتها وإن كان بدائياً. ومهمة النظرية الداروينية هي أن تفسر لنا الطريقة التي ينتقل بها هذا الكائن من طور إلى طور بما أسماه الانتخاب أو الاصطفاء الطبيعي.

فالكائنات التي يمكن أن تصلح لتفسيرها نظرية دارون هي كائنات من هذا النوع الذي يمكن أن يتطور. أما الذي لا تنطبق عليه هذه الصفة، والذي لا تكون أجزاؤه مرحلة من مراحل نموه كالشَّرَك؛ فإن النظرية لا يمكن أن تفسره، بل إن تركيبه ليدل على أنه جاء نتيجة تقدير لموجد حكيم.

لم يكتف المؤلف بهذا، بل أضاف أن مما يثبت قوله بأن نظرية دارون لا تستطيع تفسير مثل هذه الكائنات الجزيئية أن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يفسرها بها. فمن بين آلاف البحوث التي كتبت في موضوع الكيمياء الحيوية لم تكتب إلا ثلاثة بحوث في هذا الموضوع، ولم ينجح واحد منها في تطبيق الداروينية عليها.

يبدو من هذا الكلام أن صاحب نظرية التصميم الذكي قد زعم أنه يعتمد في دعواه على حقائق حسية، واستنتاج عقلاني. فعلى الذين يخالفونه أن يبينوا زيف ما قال بحجج مماثلة. وقد حاول بعضهم أن يفعل هذا.

وقد استمع القاضي إلى شهود من أمثال هؤلاء انتقدوا النظرية على أساس علمي. لكن القاضي لم يعتمد في حكمه على مثل هذه الشهادة، بل اعتمد على أيدلوجية مادية إلحادية شاعت في عصرنا حتى صارت جزءاً من مفهوم العلم. فحوى هذه الأيدلوجية أن الكون الطبيعي كون مكتفٍ بنفسه؛ فالتفسير العلمي لما يحدث فيه يجب أن يكون بأسباب من داخله، وأن كل إشارة إلى سبب فوق الطبيعة؛ كتعليل الحوادث بقدرة الله ـ تعالى ـ تعليل غير علمي. وقد عبر أحد الشهود ـ وهو أستاذ مختص بفلسفة العلوم ـ عن هذا الرأي؛ إذ قرر أنه بما أن القضية الأساس لنظرية التصميم هي أن معالم العالم الطبيعي أحدثها كائن متعالٍ غير مادي وغير طبيعي؛ فإن نظرية التصميم هي قضية دينية بغض النظر عن كونها سميت بهذا أو لم تسمَّ[1].

أنا لم أستغرب حجة القاضي هذه؛ لأن هذا هو المفهوم الشائع للعلم، وهو مفهوم فلسفي واعتقادي غالط لا علاقة له بالعلوم، كما كان بعضنا قد قال ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وبنوا عليه الدعوة إلى ما سمي آنذاك بأسلمة العلوم. ولم يكن القصد من الدعوة إلى الأسلمة أن نغير الحقائق العلمية كما ظن بعض من اعترضوا على الفكرة؛ لأن ديننا يقوم على الحق، فلا يحتاج إلى تغيير حقيقة مهما كان نوعها. هو أن توضع الحقائق كلها الطبيعية والاجتماعية والنفسية في إطار إيماني بدلاً من الإطار المادي الإلحادي الذي توضع فيه الآن، والذي يؤدي إلى جعل الدين بالضرورة أمراً مخالفاً للعلم الطبيعي.

الداروينية ووجود الخالق:

لو أن كل الوقائع التي اعتمد عليها دارون في نظريته كانت صحيحة، ولو أن كل

---

(1) Ruling on Pdf p 31.

العلاقات السببية الطبيعية التي فسر بها تطور الكائنات الحية كانت أيضاً صحيحة؛ لم يكن في هذا كله ما يدل على عدم وجود الخالق، أو الاستغناء عنه. فالقول بالإلحاد ـ هو كما قلت ـ اعتقاد لا علاقة له بالعلم، ويمكن لذلك أن يضاف إلى كل نظرية علمية. فكلما اكتشف العلماء سبباً طبيعياً لظاهرة من الظواهر الكونية عزوا سببها إلى ذلك السبب الطبيعي، وزعموا أنه يغني عن القول بوجود خالق، هذا اعتقاد قديم وليس من العلم الحديث في شيء. فالذين روى الله لنا قولهم: ﴿ **نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ** ﴾ [**الجاثية**: ٢٤] كانوا يعتقدون مثل هذا الاعتقاد، والذين فسروا التاريخ بقولهم: ﴿ **قَدْ مَسّ آبَاءَنَا الضَّرّاءُ وَالسَّرّاءُ** ﴾ [**الأعراف**: ٩٥] كانوا أيضاً منكرين لوجود الخالق معتقدين أنه ليس وراء حوادث الكون مدبر وأنها تقع خبط عشواء.

أما المؤمنون فإنهم لا ينكرون فاعلية الأسباب الطبيعية، أو المقدرات البشرية. هل رأيت مؤمناً ينكر أن الطعام يغذي، والماء يروي، والدواء يشفي؟ لكنهم مع اعتقادهم بفاعلية الأسباب إلا أنهم مؤمنون بأن لها خالقاً هو الذي جعلها أسباباً، وأنه لا تنافي بين فاعلية الله وفاعلية الأسباب الطبيعية أو فاعلية الإرادة البشرية؛ لأن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلق الأسباب وجعلها أسباباً، ولأنه ـ سبحانه ـ من عادته أن يفعل بالأسباب كما كان علماؤنا يقولون.

نعود إلى نظرية دارون فنقول:

١ ـ إنها تبدأ بالتسليم بحقائق لا تفسرها، لكنها تعتمد عليها. فهي تبدأ بأن هنالك كائنات حية، وأن هذه الكائنات تتكاثر بالتناسل، وأن المولود يرث بعض خصائص الآباء، وأنه لا يوجد كائنان حيان متماثلان تماثلاً كاملاً في صفاتهما. وإذا كانت لا تفسر وجود هذه الحقائق فأنى لها أن تنفي أن لها خالقاً؟

٢ ـ تفترض النظرية أن للكائنات الحية كلها أصلاً واحداً تكاثرت عنه.

٣ ـ مهمة النظرية أن تفسر هذا التكاثر، أي: أن تبحث عن الأسباب الطبيعية التي تجعله ممكناً وبهذه المثابة التي نشاهدها.

٤ ـ تقرر النظرية حقيقة مشهودة هي أن الموارد الطبيعية التي تعتمد عليها الكائنات الحية في وجودها محدودة، ولذلك لا يمكن أن تتكاثر تكاثراً لا يحده شيء، بل لا بد أن ينقرض بعضها ويبقى بعضها.

٥ ـ تقول النظرية إن «الميكانزم» الذي يجعل هذا ممكناً هو ما أسماه دارون بالانتخاب الطبيعي، أي: أن الطبيعة تنتخب بعض الكائنات للبقاء، وتحكم على بعضها بالفناء. لكن عبارة الانتخاب الطبيعي ليست عبارة علمية؛ إذ إنها تعني أن هنالك شيئاً اسمه الطبيعة هو الذي ينتخب، والانتخاب فعل إرادي؛ ولذلك قال دارون: إن غيره أسمى هذه العملية بالبقاء للأصلح، ولم يعترض عليه.

٦ ـ فحوى الفكرة التي سميت خطأ بالانتخاب الطبيعي أن هنالك علاقة بين الكائنات الحية والبيئة التي تعيش فيها. والمقصود بالبيئة كل سبب خارجي يؤثر في حياتها؛ فهي تشمل وجود حيوانات أخرى، كما تشمل المناطق الجغرافية والأحوال المناخية، وغير ذلك. وبما أن الكائنات الحية حتى التي تنتمي إلى مجموعة واحدة كالكلاب مثلاً أو الأرانب، لها صفات مختلفة، فإن ما كانت صفاته مُعِينةً له على العيش في البيئة المعينة التي وجد فيها، كانت فرصته في البقاء أحسن من فرصة من كانت بعض صفاته غير مناسبة مع بيئته. فالحيوانات والنباتات تختلف في ألوانها مثلاً؛ فقد يكون لونٌ ما كالبياض مثلاً مناسباً مع بيئة معينة وغير مناسب مع بيئة أخرى، أعني من حيث فرص البقاء أو الفناء. ضرب أحدهم مثلاً بأنه إذا كانت هنالك أرانب برية في الأسكيمو وكان

بعضها أبيض اللون وبعضها بنياً، وكان هنالك مصطادون للأرانب، فإنه سيكون من السهل عليهم رؤية الأرانب البنية، وعليه؛ فإن عددها سيقل وربما انقرض إذا استمر الصيد.

إن إنساناً مؤمناً قد يوافق دارون على كل هذا، ويرى فيه تفسيراً طبيعياً لظاهرة بقاء بعض الحيوانات وانقراض بعضها، بل ولتطورها، ولا يرى فيه ما يتناقض مع إيمانه بالخالق، بل يقول: إنه كما أن الله ـ تعالى ـ جعل النار وسيلة للإحراق، والماء وسيلة للإنبات، فقد جعل هذه أسباباً لتطور الحيوانات.

٧ ـ حتى القول بأن للحيوان كله أصلاً واحداً نما عنه وتكاثر، ليس فيه ـ سواء كان حقاً أو باطلاً ـ ما يتناقض مع وجود الخالق وفاعليته.

٨ ـ إن فكرة التطور التي رأى فيها بعض أهل الأديان غير الإسلامية ما يتناقض مع تصورهم للخلق؛ لا تتناقض مع التصور الإسلامي له، وذلك لأن الخلق عندنا ليس أمراً يحدث مرة واحدة كما صورته تلك المعتقدات، إن الخلق في التصور الإسلامي أمر مستمر؛ فما من حادث يحدث في الكون إلا بمشيئة الله ـ تعالى ـ وقدرته، فالله ـ تعالى ـ خالق كل شيء، فكل مرحلة من مراحل تطور الجنين في بطن أمه مثلاً هي من خلق الله تعالى.

٩ ـ الذي يتناقض مع الإسلام في الداروينية هو القول بأن البشر تطوروا عن حيوانات قبلهم. إن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يفعل هذا، لكنه أخبرنا بأنه كرم الإنسان فخلقه خلقاً خاصاً، ولم يجعله متطوراً عن حيوان قبله. وقد اعترف بعض من يسمون بالداروينيين الجدد بأن هنالك خطاً فاصلاً بين الإنسان وما سبقه من حيوان، وأن هنالك خصائص إنسانية لا يمكن ردها إلى أصول حيوانية سابقة للإنسان.

لكن القول بخصوصية الإنسان لا يعني أنه مختلف في كل شيء عن سائر الحيوان، ولا يعني اتفاقه معها في بعض الخصائص أنه تطور عنها. بل إن الذي خلقه هو خالق الحيوانات قبله، وهو الذي جعل بينها وبينه شبهاً. ألا ترى أن صانع السيارات ـ ولله المثل الأعلى ـ يمكن أن يصنع سيارة تمتاز عما سبقها من سيارات، لكنها تشابهها في بعض صفاتها؟

دلالة التصميم على وجود الخالق:

الأدلة على أن للكون خالقاً كثيرة؛ لكن من أشهرها ما يسمى بالدليل الكوني ودليل العناية. أما الدليل الكوني ففحواه أن الشيء الحادث لا يمكن أن يخلق نفسه ولا أن يأتي من العدم، بل لا بد أن يكون له صانع من غير نفسه، وأن هذا الصانع لا بد أن يكون غير حادث. المنكرون لوجود الخالق لا يستطيعون أن يفسروا وجود الكائنات الحادثة إلا بأن يقعوا في أحد الخيارين المستحيلين: إما أن يقولوا إن الشيء خلق نفسه، أو يقولوا إنه جاء من العدم.

أما دليل العناية الذي اعتمد عليه صاحب كتاب (الصندوق الأسود) فدليل قديم ومعروف، فحواه أن في الكون تصميماً يدل على أنه لا يمكن أن يكون خبط عشواء وإنما هو تقدير خالق حكيم. هذا التصميم أمر يدركه كل متفكر في الكون وليس قاصراً على الأمثلة التي استدل بها صاحب الكتاب. إن هنالك شمساً، وهنالك بحراً، وهنالك سحاباً، وهنالك أرضاً، وهنالك بشراً، وهنالك حيوانات يقول لك الدليل الكوني: إنه لا بد أن يكون لها خالق أزلي، ويقول لك دليل العناية: إن هذه المخلوقات منسقة بحيث تؤدي إلى غايات لا يمكن أن تكون قد جاءت بالمصادفة. فالشمس تسطع

على البحر فيرتفع منه بخار يتحول إلى ماء تسوقه رياح ينزل على أرض خصيبة تنبت نباتاً يأكله بشر وتأكله حيوانات يكون بعضها غذاء لبعض. المنكرون لوجود الخالق من أمثال بعض الداروينيين يعترفون بهذا لكنهم يصرون على أنه جاء مصادفة ولم يأت عن تدبير، ويغلو بعضهم في هذا إلى درجة سخيفة، من ذلك أن عالم دين نصراني اسمه (بالـي) كـان قد كتـب كتـاباً نقـد فيـه فـكرة المصـادفة وقال: إن وجود هذا التصميم في الكون بالمصادفة كساعة يصنعها صانع أعمى، فكتب رجل من أكبر دعاة الإلحاد الدارويني في أيامنا كتاباً أسماه (صانع الساعات الأعمى) يدافع فيه عن فكرة المصـادفة ويـزعم فيـه أنـه وإن كـان الكـون مصمماً كالساعة فإن تصميمه جاء بالمصادفة فهو كساعة صنعها صانع أعمى!

كتاب الله ـ تعالى ـ مليء بتوجيه الأنظار إلى هذا التصميم الذي يشهد لصانعه بالحكمة والإرادة بل والرحمة بعباده. في مثل هذا التذكير لا يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى عجيب صنعه في المخلوق الواحد، وإنما يدعو إلى النظر في العلاقة بين عدة مخلوقات، وكيف أنها علاقة تؤدي إلى نتائج معينة هي في مصلحة الإنسان. من ذلك قوله ـ تعالى ـ: **﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾** [البقرة: ١٦٤].

سخافة التعلل بحرية التعبير

(البيان ٢٢٣ - ربيع الأول ١٤٢٧ هـ - مارس ٢٠٠٦م)

رد الفعل الإسلامي العنيف ضد الرسومات الدانماركية المسيئة لنبيهم أثارت عدة قضايا بيننا وبين الثقافة الغربية العَلْمانية الليبرالية، من هذه القضايا:

أولاً: قضية الحرية:

لم يجد الغربيون الموافقون على نشر تلك الرسومات المسيئة ما يتعللون به إلا حرية التعبير، فهم يقولون لنا بلسان الحال بل والمقال أحياناً: إننا قوم متحضرون، حرية التعبير عندنا أمر أساس، وهذا شيء لا تفهمونه أنتم ولا تقدرونه.

نقول: لو أن حرية التعبير كانت عندكم حرية مطلقة، تبيحون لكل إنسان أن يقول ما شاء كيف شاء؛ فلربما فهمنا تعللكم بها، وإن لم نوافقكم على الفعل الذي عللتموه بها. أما وأنكم تقيدون هذه الحرية، فتجعلون بعض التعبير جريمة يعاقب عليها القانون، كتجريمكم لمن يفشي سراً للدولة اؤتمن عليه، أو من يُقْسِم كاذباً أمام قاضٍ، أو من يصيح في مكان مزدحم بالناس: الحريقَ الحريقَ، فيضطرب أمر الناس فيموت بعض

ويصاب آخرون، نقول: أما وأنكم تستثنون أشياء من التعبير فلا تبيحونها بل تجرِّمون من يُقْدِم عليها، فإن حجتكم لا تكون مقبولة؛ لأن الخلاف بيننا وبينكم لم يكن في مبدأ حرية التعبير. إننا لم نحتج ونتظاهر ونقاطع احتجاجاً على مبدأ حرية التعبير، وإنما فعلنا ما فعلنا؛ لأنكم أبحتم شيئاً كان أوْلى بالمنع من تلك الأشياء التي منعتموها.

إن تحويل القضية إلى قضية عن حرية التعبير هو إذن وضعٌ لها في غير موضعها. إنه لا يوجد مجتمع بشري - ولا يمكن أن يوجد - تكون فيه حرية التعبير مطلقة، مهما بلغ من الليبرالية والديمقراطية؛ لأنه يتحول بهذا - لا محالة - إلى فوضى لا يكون معها مجتمعاً. ولا يوجد مجتمع بشري - ولا يمكن أن يوجد - يكون فيه التعبير ممنوعاً منعاً مطلقاً، مهما بلغ من الدكتاتورية والاستبداد.

الخلاف بين المجتمعات ليس إذن في مبدأ حرية التعبير وإنما هو في مداها، وفي نوع ما يباح من التعبير وما يُمنع. والتفاضل بينها ليس في القدر أو المدى، وإلا كان أفضل المجتمعات مجتمع لا قانون فيه؛ لأن كل قانون هو بالضرورة قيد على الحرية. وإنما تتفاضل المجتمعات في نوع ما تبيحه وما تمنعه؛ ففي المجتمعات الغربية الديمقراطية الليبرالية قدر من الحرية السياسية لا يوجد في غيرها، وهذا قد يكون شيئاً حسناً، لكن فيها أيضاً من حرية البذاءة وسوء الخلق ما ليس في غيرها. وهذا أمر سيئ حتى بشهادة كثير من الغربيين ولا سيما المتدينين منهم.

إننا لم نقل ولا نستطيع أن نقول للناس كلهم: لا تنتقدوا ديننا، وإنما قلنا: لا تسبوا نبينا؛ وفرق كبير بين النقد والسب. إننا مأمورون بأن نجادل من لا يؤمن بديننا، والمجادلة إنما تكون بالاستماع إليه والرد على اعتراضاته وشبهاته. لكن الآية الكريمة التي أمرت بالمجادلة فرقت بين مجادل ظالم ومجادل غير ظالم، قال الله - تعالى -:

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦]، ثم استثنى من ذلك من كان ظالماً، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت : ٤٦].

ثانياً: ما الحل؟

رأى بعضهم ـ حتى من غير المسلمين ـ أن يُسَنَّ قانون عالمي يجعل للأديان قدسية. نقول: إذا كان المقصود بالقدسية أن يُمنع نقد الدين أياً كان؛ فهذا أمر يستحيل تطبيقه؛ لأنه لا يكاد يوجد دين إلا وهو ينتقد غيره من الأديان. وهذا كتاب ربنا مليء بنقد النصرانية واليهودية المعاصرتين، ومليء بنقد الشرك والإلحاد والمادية؛ فهل تحذف أمثال هذه الآيات الناقدة، أم ماذا؟

الذي أراه هو أمرٌ دعا إليه القرآن يمكن تعميمه وجعله قانوناً عالمياً. قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فالآية تأمرنا بأن لا نسبَّ ما يعبدون من دون الله، وتعلل هذا بعلتين، أولاهما: أنهم سيسبون الله ـ تعالى ـ فنكون نحن الذين تسببنا في سبهم له سبحانه. وثانيهما: أن الله ـ تعالى ـ زين لكل أمة عملها فجعلها تراه حسناً. إن كثيراً من الذين يدعون إلى التسامح في البلاد الغربية يعللون دعوتهم إليه باللجوء إلى القول بنسبية الحقيقة. فيقولون: إنه يجب على كل من يرى رأياً أو يعتقد اعتقاداً أن يكون متسامحاً مع مخالفه؛ لأن ما تعتقد أنت أنه هو الحقيقة، إنما هو الحقيقة كما تراها أنت، وما يعتقده هو إنما هو الحقيقة كما يراها هو، وليس هنالك حقيقة مطلقة غير مضافة إلى من يراها. لكن الآية القرآنية تقول: إنهم فعلاً يرون أن ما يؤمنون به شيء حسن؛ لذلك يجب أن نعاملهم بالتي

هي أحسن، لكنها لا تقول إن ما يرونه حسناً هو حسن في الأمر نفسه؛ لذلك يجب أن نجادلهم بالتي هي أحسن كي نبين لهم الحق ونعينهم على أن يروه ـ كما هو ـ حقاً، وأن يروا الباطل ـ كما هو في الحقيقة ـ باطلاً.

ثالثاً: المقاطعة:

المقاطعة سلاح يُلجَأ إليه متى كان ذا تأثير في إلحاق الأذى بمن يقاطَع. أما إذا لم يكن له تأثير، أو كان ضرره على من يقاطِع أكثر من ضرره على مرتكب الجرم؛ فليس من العقل اللجوء إليه. وبمثل ما قلنا في المقاطعة قال علماؤنا في هجر الأشخاص؛ فإذا كان مرتكب المخالفة في مجتمع غالبيته من الصالحين، فإن الهجر يؤذيه فيكون سلاحاً مؤثراً. أما إذا كانت الأغلبية من مرتكبي تلك المخالفة، فإن هجر الرجل الصالح لهم يكون مضراً به لا بهم، ولذلك لا يُلجَأ إليه.

ثم إن الإنصاف يدعونا أن نفرق في هذه القضية بين معاملتنا للدنمارك ولغيرها من الدول التي أعادت بعض صحفها نشر الرسومات. فالدنمارك هي التي بدأت الأمر وتولت كبره. والأمر في الدنمارك لم يكن أمر صحيفة فقط، بل إن معاملة رئيس الوزراء لوفد سفراء الدول الإسلامية، وموقف الملكة، حوَّلا الأمر إلى موقف شبه رسمي من الإسلام تقف وراءه الدولة، لذلك كانت مقاطعتها رد فعل مناسب، وكان بحمد الله مؤثراً تأثيراً موجعاً.

أما أمر الدول الغربية الأخرى فمختلف. فالصحيفة الفرنسية التي كانت أول من أعاد نشر الصور عوقب محررها بالفصل، وتبرأ من عملها رئيس الدولة. وأما الدول الأخرى التي أعاد بعض صحفها نشر الصور؛ فإن حكوماتها إن لم تعتذر فهي لم تظهر

موافقة لصحفها. ونحن لا نستطيع أن نقاطع كل دولة أساءت بعض صحفها إلينا، لكننا نستطيع أن نحتج على فعلها بالطرق المناسبة.

رابعاً: بل هو خير:

ثم إننا نقول في هذه الحادثة كما قلنا فيما حدث بعد حوادث سبتمبر: لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير. فما أكثر الخير الذي ساقه الله ـ تعالى ـ إلى دينه وإلى عباده بسبب هذا الفعل الظالم.

فقد أظهر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من حبهم العظيم لنبيهم وإجلالهم له، ومن سخطهم وإنكارهم على من سب نبيهم ما أذهل العالم، وهذا خير لهم يرجون به حُسن الثواب من ربهم، بل هو عمل صالح نرجو أن يكون خيراً للعالمين كلهم.

وقد كان سبباً في تذكير المسلمين بسيرة نبيهم العطرة وخُلُقِهِ العظيم؛ فما من خطبة جمعة أعقبت اطلاع المسلمين على نبأ تلك الصور إلا كانت عن حبيبهم المصطفى ﷺ.

وكانت أيضاً سبباً في تعريف المسلمين للناس في الدول الغربية بسيرة نبيهم المصطفى ﷺ.

وكانت سبباً في إثارة فضول الكثيرين من غير المسلمين ليعرفوا شيئاً عن هذا الرجل الذي رأوا من حب الناس له وتضحيتهم في سبيله ما يثيرهم لمعرفة شيء من سيرته.

كل هذا من بركات المصطفى ﷺ التي تستمر متتالية حتى بعد مماته ولحوقه بالرفيق الأعلى.

فاللهم صلِّ عليه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلِّمْ تسليماً كثيراً.

الاعتراف بالآخر!

(البيان ٢٢٤ ـ ربيع الآخر ١٤٢٧ هـ ـ مايو ٢٠٠٦م)

قال العَلْماني لصاحبه الإسلامي: أتعترف بوجود الآخر؟

قال صاحبه الإسلامي: كيف لا؟ أتظن أنني أعتقد أنني الإنسان الوحيد الموجود في هذا العالم؟

قال العَلْماني: ليس عن هذا أسألك؛ فمن البديهي أنك تعترف بالوجود الحسي لغيرك من البشر.

قال الإسلامي: عَمَّ تسألني إذن؟

العَلْماني: أسألك عن مدى اعترافك بوجوده الاعتقادي والفكري.

الإسلامي: أنا مؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله؛ فأنا أبذل جهدي في الاهتداء به في حياتي كلها. وأنا معترف بأن في العالم أناساً أمثالك لا يؤمنون بما أومن به. وأنا أعلم أن لي أفكاراً وتصورات ليست مشتركة بيني وبين كثير من الناس. أعن هذا تسألني؟

العَلْماني: كلاَّ؛ وإنما أسألك عن مدى اعترافك بأن ما يراه مخالفوك هؤلاء هو الحق؛ كما أنك ترى أن ما تراه أنت هو الحق.

الإسلامي: إذا كنت أرى أن ما يرونه مما يناقض قولي هو الحق؛ لا أكون إنساناً عاقلاً.

العَلْماني: لماذا؟

الإسلامي: لأنني أكون قد اعتقدت أن القول ونقيضه كلاهما حق. هل يقول إنسان عاقل: إن للكون خالقاً هو وحده المستحق للعبادة؛ فإذا قال له مخالفه: بل إن غيره أيضاً يستحق أن يُعْبَد، قال له: صدقت؛ فإنك على حق؛ كما أنني على حق؟

ثم إذا كنت أراه على حق كما أرى نفسي على حق؛ فكيف يكون بالنسبة لي آخر؟ إن الآخر هو الذي يخالفك. أما الذي يوافقك فهو ليس آخر بالنسبة لك، أعني ليس آخر بالمعنى الفكري الاعتقادي الذي نتحدث عنه الآن.

العلْماني: هل تعتقد أنك دائماً على حق، وأن كل من خالفك على باطل؟

الإسلامي: كلاَّ؛ وأنا لم أقل هذا. كيف أقوله إذا كان هنالك من هو أعلم مني بدين الله (كالإمام الشافعي) من يقول عن اجتهاداته إنه يراها حقاً يحتمل الخطأ، ويرى اجتهادات مخالفيه خطأ يحتمل الصواب. إذا كان هذا في قضايا الدين؛ فما بالك بالقضايا الدنيوية التي يكثر فيها الخلاف بين الناس وتتسع فيها دائرة الخطأ والصواب؟

العَلْماني: فأنت ترى إذن أن كل قول لك تخالف فيه غيرك يمكن أن يكون خطأ ويكون رأي صاحبك فيه صواباً. هذا هو الذي أعنيه بالاعتراف بالآخر، وهذا هو السبب الداعي للاعتراف به.

الإسلامي: أنا لم أقل، ولم يكن لإنسان عاقل مسلماً كان أو غير مسلم أن يقول إن كل اعتقاد ورأي له يمكن أن يكون مخالفاً للصواب، وأن كل اعتقاد ورأي لغيره يمكن أن يكون موافقاً للحق؟

العَلْماني: ماذا تقول إذن؟

الإسلامي: أقول إن عندي ما أجزم بأنه صواب لا يحتمل خطأ، وأن كل من خالفني فيه فقوله المخالف باطل لا يحتمل الصواب.

العلماني: هذه هي المشكلة. إن أمثالك ممن يعتقدون مثل هذا الاعتقاد هم الذين يفرقون بين المواطنين ويرون أن لبعضهم حقوقاً ليست للآخرين؛ إنهم هم الذين لا يعترفون بالتعددية.

الإسلامي: إذا كان هذا هو تصورك للاعتراف بالتعددية فلا أحد يعترف بها؛ لأنه ما من أحد عاقل إلا ويرى أنه على حق لا ريب فيه في بعض الأمور، وأن مخالفه على باطل لا ريب فيه. وهذا يصدق عليك أنت نفسك.

العلماني: كيف؟

الإسلامي: أَلَسْتَ تراني الآن مخطئاً فيما قلت لك؟ ألست تحاول أن تقنعني برأيك؟ إذن فأنت ترى نفسك على حق وتراني على باطل.

العلماني: كيف إذن نحل هذا الإشكال ونحن رغم اختلافاتنا مواطنو بلد واحد؟ كيف نعطي المواطنين جميعاً في الوطن الواحد الحق في أن تكون لمعتقداتهم وتصوراتهم كلها حقوق متساوية في تسيير أمر بلادهم؟

الإسلامي: إذا كانت معتقداتهم مختلفة اختلاف تناقض فهذا أمر مستحيل. إنك لا يمكن أن تكتب لبلدك قانوناً، أو ترسم لها سياسة تتكون من عناصر متناقضة، فتقول عن الشيء الواحد: إنه جائز وغير جائز، أو واجب وغير واجب، أو ضار ونافع، أو ينبغي أن يُفعَل وينبغي أن لا يُفْعَل.

العلماني: كيف إذن حلت الدول الديمقراطية هذا الإشكال؟ أليس بإعطائها لكل المختلفين الحق في أن يسيِّروا بلادهم حسب معتقداتهم وتصوراتهم؟

الإسلامي: كلاَّ؛ فهذا شيء مستحيل عقلاً كما قلت لك. والمستحيل عقلاً لا يمكن أن يصير واقعاً لا في دولة ديمقراطية تعددية ولا في غيرها؟

العَلْماني: ماذا فعلوا إذن؟

الإسلامي: خذ أمريكا مثلاً: اجتمع ممثلون للشعب الأمريكي في القرن الثامن عشر، وكتبوا دستوراً أجيزت بنوده بأغلبية الأصوات لا بإجماعها. ثم جعلوا هذا الدستور أساساً لقوانين تجيزها مجالسهم التشريعية بالأغلبية، وعدّوا كل قانون مخالف للدستور قانوناً باطلاً؛ وعينوا محكمة عليا لتقرر في هذا الأمر، وأجازوا للمجالس تعديل الدستور؛ لكنهم جعلوه أمراً عسيراً، وأجازوا تكوين أحزاب تعبر عن معتقدات وسياسات مختلفة؛ فمن فاز منها في الانتخابات نفذ سياسته هو لا سياسة مخالفيه. ألست ترى كثرة المعارضين منهم الآن لسياسة رئيسهم بوش؟ أتعتقد أن كل الشعب الأمريكي مؤيد لمن يسمون بالمحافظين المتطرفين؟

العلماني: لكنهم أباحوا للمخالفين أن يعبروا عن آرائهم ويدعوا إلى معتقداتهم حتى لو كانت مخالفة لما ورد في دستورهم.



الإسلامي: أَجَلْ! إنهم فعلوا بعض ذلك. لكنني أقول لك أولاً: إن نقاشنا لم يكن عن إتاحة الفرصة للمخالف أن يعبر عن رأيه، وإنما كان عن إمكانية أن تجد الآراء والمعتقدات المتناقضة كلها طريقها إلى التنفيذ. وثانياً: حتى التعبير عن الرأي ليس على إطلاقه؛ فهنالك أمور يُعدّ التعبير عنها جريمة يعاقب عليها القانون. ألم يأتك نبأ المؤرخ الذي حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات؛ لأنه أنكر حدوث المحرقة اليهودية (والإنكار قول لا فعل)؟ وألم تعلم أنه لم يُجْدِهِ شيئاً كونه اعترف بأنه كان مخطئاً فيما قال وأنه غيّر رأيه؟ ثم ألم تعلم بأن أخانا الدكتور علي التميمي الأمريكي الجنسية بالميلاد حكم عليه بالسجن مدى الحياة؛ لأنه اتُّهم بتحريض بعض الشباب على الذهاب إلى أفغانستان (والتحريض قول لا فعل)؟ وألم يبلغك خبر الطالبة المسلمة التي منعتها مدرستها الثانوية من ارتداء الحجاب، وأن مجلس اللوردات البريطاني قرر ـ باعتباره أكبر هيئة قضائية في بريطانيا ـ أن المدرسة كانت محقة، وأن منع الطالبة المسلمة من لبس الحجاب لا يعد انتهاكاً لحريتها في التعبير عن هويتها الدينية؟

العلماني: هذه أمور مؤسفة؛ لكنهم على كل حال يبيحون أشياء لا نبيحها، ويعطون المواطن الحق في أن يعبر عن رأيه فيها أو يمارسها.

الإسلامي: هذا صحيح؛ لكنهم أيضاً يحرمون أشياء نحن نبيحها. إن مسائل التحليل والتحريم تعتمد على نوع الأيدلوجية التي تحكم؛ فما تحله أو تحرمه يعتمد على كونها يهودية أو شيوعية أو نصرانية أو علمانية غربية أو إسلامية. فكل واحدة من هذه المعتقدات إذا كانت هي الحاكمة أباحت ما لا تبيحه الأخرى وحرمت ما لا تحرمه.

العلماني: لكن العلمانيين الغربيين يفخرون بأن حكمهم يمتاز بأنه يعطي اليهود والنصارى والمسلمين حرية دينية.

الإسلامي: لكن مواطنيهم من المفكرين الدينيين يردون عليهم قائلين: إنكم إنما تعطوننا من الحرية ما ترونه مناسباً بحسب تعريفكم العلماني للدين ومكانته في المجتمع لا بحسب تصورنا نحن لديننا. إنكم تعطوننا من الحرية ما لا ترونه متناقضاً مع العلمانية.

وأقول: ونحن أيضاً نعطي أصحاب الأديان الأخرى من المواطنين وغير المواطنين ما نراه مناسباً بحسب تصورنا الإسلامي.

من «الحرية الدينية».. إلى الدولة العَلْمانية

(البيان ٢٢٥ ـ جمادى الأولى ١٤٢٧ هـ ـ يونيو ٢٠٠٦م)

من أعظم الوسائل التي تُستعمل لتحريف نصوص الكتاب والسنة في عصرنا أن يؤخذ نص أو عبارة من نص ثم تعطى معنى من معاني الثقافة الغربية له لوازم لا تتناسب مع بقية نصوص الكتاب والسنة، ثم إما أن يلتزم المحرِّف بهذه اللوازم فيمضي في تحريفه إلى نهايته، وإما أن ينكر بعضها فيقع في التناقض والحرج، وإما أن يلجأ إلى تحريف النصوص الأخرى كما حرَّف النص الأول.

من العبارات القرآنية التي حُرفت بهذه الطريقة عبارة ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين**﴾ [**البقرة**: ٢٥٦] التي صار يُستدل بها على الحرية الدينية بالمعنى الغربي لهذه العبارة. وما دامت الحرية الدينية بهذا المعنى الغربي تقتضي أن يكون من حق الإنسان أن يدخل في الدين أو يخرج منه متى شاء حكم هؤلاء بأن تكون الردة أمراً مباحاً لا جريمة يعاقَب مرتكبها، حتى قال قائلهم في وقاحة ـ مخالفاً لقول الرسول ﷺ ـ: (لا بأس على الإنسان أن يبدل دينه).

لكن حرية الدين بالمعنى الغربي لا تقف عند حدود إباحة الردة؛ لأنك إذا أبحت للإنسان أن يخرج من الدين كله فيلزمك أن تبيح له الخروج من بعضه. وهذا هو الأمر في الغرب. فكما أن من حق الإنسان أن يخرج من اليهودية أو النصرانية أو الإسلام؛ فمن حقه أيضاً أن ينكر بعض ما في دينه ويظل رغم ذلك يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً، ولا يحق لجهة دينية أن تعترض عليه. ولا زلت أذكر مستغرباً كلمة الرجل الأمريكي الشاذ الذي انتخبته كنيسته قسيساً كبيراً لها معتذراً للذين اعترضوا على ترشيحه، قال كلاماً فحواه أنهم محقون؛ لأن انتخابه مخالف لتقاليد الكنيسة، ومخالف لنصوص الكتاب المقدس، ثم قال: «لكن هذا لا يعني أنه خطأ»!

وعليه؛ فإذا كان من حق المسلم أن يرتد عن دينه كله، فيكون من حقه أن ينكر الصلاة أو الصيام، أو يمتنع عن أداء الزكاة، أو يبيح شرب الخمر أو الزنا، أو حتى الشذوذ. وقد حدث فعلاً أن كوَّن جماعة من الشباب المنحرفين في أمريكا جمعية أسموها (جماعة الشباب الإسلاميين الشاذين).

لكن هذا يؤدي إلى نتيجة خطيرة هي أن الإسلام لا يمكن أن يكون نظاماً أو قانوناً لدولة؛ لأنه إذا كان من حق الإنسان أن يخرج على كل أمر أو نهي ديني، فيكون من حقه أن يخرج على كل أوامر الدولة وقوانينها. لكن الناس لا بد لهم من دولة تأمر وتنهى وتعاقب؛ فإذا لم تكن دينية لزم أن تكون علمانية. يقول بعضهم: يمكن أن نُلزم الناس بهذه الأوامر باعتبارهم مواطنين لا باعتبارهم مسلمين. وأقول: إن هذا يؤكد علمانية الدولة؛ لأن العلمانية لا تمنع من أين تتبنى الدولة بعض الأوامر والنواهي ذات الأصل الديني ما دامت لا تجعل الدين أساساً لمشروعيتها. ونحن نعلم أن في الدول العلمانية الغربية كثيراً من أمثال هذه القوانين.

الحرية بهذا المعنى الغربي ناتجة عن اعتقاد بدأ يشيع في الغرب بعد القرن الثامن عشر فحواه أن المعتقدات الدينية لا تقوم على أساس علمي، وإنما هي مشاعر قلبية، فلا يحق لإنسان أن يجبر الآخرين على أن تكون مشاعرهم وعواطفهم كمشاعره. والدِّين يختلف في هذا عن العلوم التجريبية التي تستند دعاواها إلى أدلة علمية حسية أو عقلية. وكثيراً ما يأخذون علينا ـ معاشرَ المسلمين ـ معاملتنا للدين معاملة هذه العلوم، فيقولون: إنكم تدَّعون أنكم تملكون الحقيقة. ونحن فعلاً نعتقد أن الحق معنا في مسائل الدين، وأن ديننا يقوم على حقائق تشهد لها أدلة حسية وعقلية، وأن الأمر ليس متروكاً فيه للأذواق الفردية؛ وهذا هو الذي يجعلنا نحكم على بعض الأقوال والتصرفات أنها مخالفة للدين أو مناقضة له مخرجة لصاحبها عن الملة الإسلامية.

ولأننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأن الحق معنا ولا سيما في أصول الدين، وأن من مصلحة الإنسان الدنيوية والأخروية أن يؤمن بهذا الحق؛ فنحن حريصون على نشره كما هو من غير زيادة أو نقص أو تحريف، وحريصون على حماية من يؤمن به من المؤثرات التي تضعف إيمانه أو تفتنه عنه.

وهذا هو السبب في عدِّ الردة جريمة يعاقب عليها القانون الإسلامي. إن الذي يعاقب عليه القانون ليس هو أن يغير الإنسان ما في قلبه؛ فهذا أمر لا يستطيع البشر الاطلاع عليه اطلاعاً مباشراً، ولا يستطيع أحد أن يجبر أحداً على اعتقاد معين حقاً كان أو باطلاً؛ ولذلك يقال للرسول ﷺ: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**القصص**: ٥٦].

ويقال له: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ [**الغاشية**: ٢١ ـ ٢٢].



فالاستدلال بمثل هذه النصوص على إباحة الردة استدلال خطأ؛ لأن هذه النصوص لا تتكلم عن حرية التعبير عن الكفر، وإنما تتحدث عن وجود الكفر في القلب. ومنع التعبير عن الكفر والتصريح به غير منع وجوده في القلب. والتفريق بين هذين أمر متفق عليه بين كل العقلاء، ولا يمكن إلا أن يراعى حتى في القوانين الوضعية، فالقانون لا يعاقب إنساناً على اعتقاده بأن إنساناً آخر سارق مثلاً، وإنما يعاقبه على إعلانه عن هذا الاعتقاد لما يترتب عليه من ضرر بالمتهم. ولو أن مسلماً رأى أخاً له يزني وتأكد من هذا الأمر فلا يجوز له أن يصرح به، بل إن تصريحه به يُعدّ ذنباً يعاقب عليه إذا لم يشهد معه ثلاثة مثل شهادته.

وكذلك الأمر بالنسبة للردة، فالمسلم إذا ارتد وكتم ردّته في قلبه بحيث لم يطلع عليه إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإن الله هو الذي يحاسبه. أما في الدنيا فيعامل معاملة المسلم. وأما إذا أعلن ردّته فإنه يعاقب؛ لما قد يترتب على ردّته من عواقب سيئة عليه وعلى غيره. من هذه العواقب:

أولاً: استعمال الردة وسيلة لمحاربة الدين، ومن ثَم الدولة التي يقوم عليها هذا الدين. قال ـ تعالى ـ عن بعض الكفار: ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [**آل عمران**: ٧٢].

ثانياً: أن الإنسان قد تخطر بباله شبهات تشككه في دينه؛ فإذا ما صرح بها وعرفها الناس عنه، ربما كان من الصعب عليه أن يتنازل عنها. وأما إذا ما كتمها في قلبه، أو بدأ يناقش بعض إخوانه فيها مناقشة علمية؛ فقد يرجع عنها. وقد جربنا هذا كثيراً.

ثالثاً: إن التصريح بالخروج من الدين لا تقف حدود ضرره على المرتد وحده، بل إن هذا قد يؤثر في كل من له صلة به ولا سيما الزوجة أو الزوج والأولاد.

فتجريم إعلان الردة هو في الحالة الأولى حماية للأمة، وفي الحالة الثانية حماية للفرد، وفي الحالة الثالثة حماية لمن حوله ممن قد يتأثر به.

أقول بعد هذا: إن الذين فسروا عبارة ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ذلك التفسير الغربي، والتزموا لوازمه كلها أو بعضها، وأباحوا الردة؛ اضطروا كلهم لأن ينكروا أو يحرفوا نصوص السنة النبوية.

يقول لك أحدهم: إنه لا ذكر لتجريم المرتد في القرآن الكريم. تقول له: بلى! قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾. [**محمد**: ٢٥ – ٢٧].

يقول لك: لكن المذكور في هذه الآية وآيات غيرها إنما هو عقاب أخروي.

تقول له: لكنه تجريم على كل حال. ثم إن تفاصيل كثير من الأحكام إنما جاءت بها السنة التي أمرنا الله ـ تعالى ـ في كتابه أن نأخذ بها، فإنكار السنة أو شيء منها إنكار للقرآن الكريم. قلت لبعضهم: إن القرآن لم ينزل عليك ولا على أبيك، وإنما نزل على محمد ﷺ؛ فإذا كنت تعتقد أنه صادق في قوله إن القرآن أنزل عليه، فيجب أن تعتقد أنه محق في بيانه للقرآن وفي قوله إنه أوتي القرآن ومثله معه. وإذا كنت لا تصدقه في هذا أو لا تأخذ بقوله فقد أبطلت الأصل الذي يقوم عليه إيمانك بأن القرآن كلام الله إن كنت حقاً مؤمناً بذلك. ثم كيف تبيح لنفسك أن تفسر القرآن وتنكر على من أُنزل عليه أن يفسره؟!

ومنهم من ينكر وجود أحاديث تجرِّم الردة وتعاقب عليها.

ومنهم من يعترف بوجود بعض الأحاديث لكنه يتعمد تحريف معانيها بشتى الوسائل. من أشهر هذه التحريفات السخيفة التي انطلت ـ مع الأسف ـ على بعض الناس قولهم: إن الرسول ﷺ إنما عنى بقوله: «من بدل دينه فاقتلوه» من جمع بين ترك الدين والخروج على الدولة. ثم يخترعون من عند أنفسهم مناسبات لهذا الحديث ما أنزل الله بها من سلطان. هذا مع أن من المناسبات الحقيقية للحديث ما يتنافى منافاة بينة مع هذا الهراء. الحديث رواه ابن عباس وذكره بمناسبة تحريق أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ لبعض الزنادقة. خرَّج البخاري في صحيحه عن عكرمة قال: أُتي علي ـ رضي الله عنه ـ بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لو كنتُ أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: «لا تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه».

وإنما قتلهم، ثم أحرقهم؛ لأنهم سجدوا له، وقالوا له: أنت خالقنا ورازقنا؛ فهل هنالك من حال هي أشد خضوعاً للحاكم وأبعد عن الخروج عليه من حال إنسان يسجد له ويقول له: أنت ربي؟

الوسطية لا التميعية

(البيان ٢٢٦ ـ جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ ـ يوليو ٢٠٠٦م)

قلت في مقال الشهر الماضي: إن بعض الناس ـ اليوم ـ يعمدون إلى ألفاظ عربية إسلامية فيفرغونها من مدلولاتها الإسلامية، ثم يحشونها بمدلولات كلمات غربية يجعلونها ترجمة لها. من هذه الكلمات: كلمة الوسطية، التي شاع في هذه الأيام استعمالها عند أمثال هؤلاء بمعنى لكلمة (moderate) نعم؛ إن المعنى اللغوي لكلمة (مودريت) قريب من معنى المعتدل وغير المتطرف، لكن ينبغي أن نتذكر أن الاعتدال والتطرف من المفاهيم النسبية التي لا يتضح المقصود منها إلا حين توضع في إطارها التصوري؛ فالله ـ تعالى ـ يدعونا لأن نأخذ ديننا بقوة، وأن نعتقد أن ما جاءنا به رسوله هو الحق الذي لا ريب فيه، وأن ما خالفه لا يكون إلا باطلاً وضلالاً. لكن المسلم (المودريت) عند الغربيين ـ ولا سيما الأمريكان ـ هو الذي لا يأخذ دينه بقوة، بل يجامل فيه ويداهن، ويغير ويبدل بحسب ما تقتضيه أهواء الثقافة الغربية، بل ومصالحها السياسية والاقتصادية. فهو إنسان لا يأخذ النصوص ـ ولاسيما نصوص السنة النبوية ـ مأخذ الجد إلا ما كان منها موافقاً لهواه، ويرى الحوار مغنياً عن جهاد القتال، فيطلب

من المسلمين أن يظلوا يحاورون، ويحاورون، ويحاورون... حتى لو كانت قنابل من يحاورونهم تتساقط على رؤوسهم، ولا يدعوهم لأن يحاوروا فحسب؛ بل يطلب منهم أن يكون حوارهم مع الآخر مبنياً على الاعتراف به؛ فهو حين يحاور يقول للكافر أو المنافق متلطفاً: هذا رأيي وهذا اعتقادي، ولا حرج عليك في أن ترى غيره، وتعتقد سواه، فنحن جميعاً طلاب حقيقة، يدرك كل منا قدراً منها، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه قد وجدها كلها.

مما يدلك على نسبية هذه المفاهيم أن بوش لم يكن يرى نفسه، ولا رآه الغربيون، بل ولا رآه عبيدهم ممن يدعون الليبرالية في بلادنا، لم يره واحد من هؤلاء متطرفاً حين ألقى قبل أيام خطاباً في غاية الحماسة، دعا فيه دفعة من الضباط من خريجي الأكاديمية العسكرية بكلية (وست بوينت) أن يستعدوا لقتال عدوهم ـ الإسلام الراديكالي ـ لأن هذه ستكون أعظم مهامهم، ولا حين قال لهم: إن أمريكا لن تنتظر حتى تُهاجَم، بل ستبادر بالهجوم على من يستعد للهجوم عليها، وتقضي عليه في الخارج لئلا تضطر لمواجهته في الداخل. حين يقول بوش هذا كله لا يكون متطرفاً، لكن إذا دعا زعيم مسلم خريجي كلية عسكرية في بلده أن يستعدوا لإعلاء كلمة الله، ومحاربة أعدائه فإنه يعد من أكبر المتطرفين، ويكون من أكبر الدعاة إلى الكراهية.

من الخطأ إذن أن تعطى الألفاظ القرآنية الدلالات الأيديولجية التي تعطى للكلمات الغربية، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بقضايا في أصول الدين، حتى لو كانت المعاني اللغوية متقاربة. وعليه؛ فإن ما تشير إليه كلمة الوسطية في إطار الهدي الإسلامي لا بد أن تكون مخالفة لما تشير إليه كلمة مقاربة لها لغوياً في إطار أيديولجية مخالفة للإسلام.

دلالة الوسطية في المفهوم الإسلامي يجب أن تلتمس في مصادرها الإسلامية، في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ. فما الذي تقول لنا عنها هذه المصادر؟

الوسطية التي وردت في كتاب الله صفة خص الله بها المسلمين من أتباع محمد ﷺ، فقال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ... ﴾ [**البقرة**: ١٤٣].

جعلهم ـ سبحانه ـ كذلك بالرسالة التي بلّغهم إياها نبيهم، فكلما كان الواحد منهم أعلم بها وأكثر عملاً بها كان أقرب إلى الوسطية، فالوسطية ليست ـ إذن ـ موقفاً يتخذه الإنسان من الدين، ولا طريقة يفهم بها الدين، فيقول مثلاً: بما أنني وسطي فأنا لا أكفر أحداً، أو بما أنني وسطي فأنا لا أرى تحريم الموسيقى. كلا إنما الوسطية صفة يكتسبها المسلم نتيجة لتمسكه بدينه، هذه الصفة هي التي تؤهله لأن يكون من الشهداء على الناس، الشهداء الذين يقبل الله شهادتهم.

ما هذه الصفة؟ قال الإمام ابن كثير: والوسط ها هنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً. ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي صلاة العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها. ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [**الحج**: ٧٨].

ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في تفسير هذه اللفظة، فوجدها لا تخرج عن قولهم: إنها الخيار أو العدل، لكنه قال: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين... وأرى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى... ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود... ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه.

وقد جمع الشيخ السعدي بين القولين جمعاً جميلاً في عبارة موجزة فقال: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر.

ومسألة أخرى مهمة هي أن الله ـ تعالى ـ أعطانا مثالاً حياً واقعياً لجماعة معينة تمثلت فيها هذه الوسطية، فقد شهد ـ سبحانه ـ كما شهد رسوله لصحابة محمد ﷺ بأنهم ممن تحققت فيهم صفة الوسطية. وإذن فكما أننا نعلم المعنى الصحيح للوسطية، فإننا نعرف جماعة معينة تمثلت هذه الصفة فيها؛ في معتقداتها، وعباداتها، وأخلاقها، ومعاملاتها، ومواقفها من غيرها، وهكذا. وعليه؛ فإن كل من كان أقرب إلى منهجها في فهمه للدين وعمله به، وكان حريصاً على التأسي بها؛ كان أقرب إلى الوسطية.

ولذلك قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن الصحابة رضوان الله عليهم:

فإن الحق لا يعدوهم و(لا) يخرج عنهم إلى من بعدهم قطعاً، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان حقاً ما سبقونا إليه[1].

الجماعة الوسط هي إذن: جماعة معتزة بدينها، متأسية بسلفها، شاهدة بالعدل على غيرها، تقول لهذا: إنك على الحق، وتقول لذاك: إنك على باطل. جماعة تعمل لإعلاء

---

(١) (إعلام الموقعين: ٤/ ١٦٦ـ ٦٧).



كلمة الله على بصيرة بحقائق دينها، وبصيرة بواقع عصرها، جماعة تدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجادل بالتي هي أحسن إلا من ظَلَم، ولكنها تؤمن في الوقت نفسه بأنه كما لا يقوم الدين إلا بالكتاب الهادي، فإنه لا يقوم إلا بالسيف الناصر. فهي إذن جماعة أبعد ما تكون عن التميّع والمداهنة، والخضوع والاستكانة.

ولكن بما أنها جماعة تؤمن بأن العدل واجب على كل أحد مع كل أحد في كل أمر، فإنها لا تُكَفِّر من لا دليل في كتاب الله ولا في سنة رسوله على تكفيره، ولا من لم تُكَفِّره الجماعة التي شهد الله لها بالوسطية ـ أصحاب رسول الله ﷺ، ومن سار على منهجهم، واقتفى أثرهم ممن جاء بعدهم من أئمة أهل السنة ـ، وكما أنها لا تُكَفِّر بلا دليل، فإنها لا تَهَابُ أن تقول لمن قام الدليل على كفره: إنه كفر وخرج عن الملة؛ لأنه إذا لم يكن من العدل أن يخرج إنسان من هذه الملة الشريفة بغير دليل، فإنه من الظلم أن يحسب منها من قام الدليل على خروجه منها، ومعاداته لها.

وهي جماعة يمنعها عدلها أن تعتدي على الأبرياء حتى لو كانوا كفاراً.

هذه أمثلة للصفات التي تتحلى بها كل جماعة تتصف بالوسطية بالمفهوم الإسلامي الصحيح لها.

الممكن والمعهود والمستحيل

(البيان ٢٢٧ ـ رجب ١٤٢٧ هـ ـ أغسطس ٢٠٠٦م)

الممكن أوسع دائرة من المعهود، وأوسع دائرة مما يمكن تفسيره في حدود معارفنا العلمية الحالية. لكن كثيراً من الناس تضيق أعطانهم عن هذا فيسارعون إلى إنكار ما لم يعهدوا، ويسارعون إلى إنكار ما لا تفسير له في حدود ما عندنا من علم، بل إن بعضهم يظن أن غير المعهود، أو غير ما يمكن تفسيره في حدود العلم المعهود مستحيل عقلاً. ويزداد الأمر عجباً حين ترى أن ضيقي الأفق هؤلاء كثيراً ما يدَّعون العقلانية، أو يدَّعون العلمية.

المعهود هو ما عرفناه وعهدناه واقعاً؛ كطلوع الشمس من جهة الشرق، وكمقدرة الناس على الكلام بألسنتهم، وكإرواء الماء للظمآن. الممكن هو ما يمكن وقوعه وإن لم يقع. فوصول الناس إلى القمر كان ممكناً قبل أن يقع، وكذلك السفر بالطائرات، والحديث بالهواتف. المستحيل ما لا يمكن أن يحدث بأي حال من الأحوال؛ كوجود الشيء الواحد نفسه في مكانين مختلفين، وكاجتماع الإيمان والإلحاد في قلب واحد، وكالكلام والصمت.

من الأمثلة التي ذُكرت في القرآن الكريم لهذه المستحيلات قوله ـ تعالى ـ رداً على الذين زعموا أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، أي: أنه من المستحيل أن يكون ولد له أب وليس له أم.

وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]؛ فليس المقصود به ولداً يلده ـ سبحانه ـ، فهذا يتناقض مع الآية السابقة، وإنما المقصود به ولد متبنَّى، بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾.

إن كون الشيء ممكناً لا يعني كونه لا بد أن يقع؛ لأن الممكن إنما يقع إذا تحققت شروط وقوعه، وإذا لم تتحقق فقد لا يقع أبداً وإن ظل وقوعه ممكناً.

المعهود نوعان: معهود طبيعي، ومعهود ثقافي. المعهود الطبيعي هو الذي يقع بحسب ما وضع الله ـ تعالى ـ في الكون من قوانين. وأما المعهود الثقافي فأعني به ما يعتاده الناس باختيارهم سواء كان حسناً أو سيئاً. وإذا كانت أعطان بعض الناس تضيق فتنكر ما لم تعهد في الطبيعة، فإن بعض الأعطان تكون أضيق من ذلك فتنكر كل ما لم تعهده في ثقافتها وعاداتها وتقاليدها وتعده منكراً.

الناس بالنسبة للممكن غير المعهود نوعان؛ نوع: يستغرب وقوعه لكنه لا يعتقد استحالته، ونوع: يعتقد أن وقوعه غير ممكن، أي: يعتقد استحالته.

إنه لأمر طبيعي أن يستغرب الإنسان ما لم يُعهد وأن يتعجب منه إذا ذكر له.

لذلك كان من الطبيعي أن يستغرب نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ أن يكون له ولد من امرأة عاقر ورجل قد بلغ من الكبر عتياً مع أن الذي أخبره بذلك هو الله الذي أرسله، ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٧ - ٩].

وكان من الطبيعي أن تستغرب مريم ابنة عمران قول المَلَكِ لها: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وكان من الطبيعي أن تسأله مستغربة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] وكان من الطبيعي أن يقول قوم مريم لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، مثل هذا الاستغراب أمر لا بد منه، وإلا استوى كون الشيء معهوداً معروفاً وكونه ليس بمعهود ولا معروف، وكان من لوازم ذلك أن يصدِّق الإنسان كل ما يقال له من غرائب. ولذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يذم زكريا ولا ذمَّ مريم على استغرابها، وإنما بيَّن لهما أن ما استغرباه أمر ممكن وأنه داخل في قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه سيقع فعلاً.

التصديق بمثل غير المعهودات التي يخبر بها الله ـ تعالى ـ أناساً لم يشهدوها هو من علامات حسن العلم به سبحانه، وقوة الإيمان به.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلَق لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله! ـ تعجباً وفزعاً ـ أبقرة تكلم؟ فقال رسول الله ﷺ: فإني أومن به وأبو بكر وعمر».

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: قال رسول الله ﷺ: «بينما راع في غنمه، عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة، فطلبه حتى استنقذها منه، فالتفت إليه الذئب فقال له: من لها يوم السبع، يوم ليس لها راع غيري؟»[1] فقال الناس: سبحان الله! فقال رسول الله ﷺ: «فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر».

وفي رواية لهذا الحديث: «وما هما ثَمَّ». يعني: لم يكونا موجودين حين ذكرهما الرسول ﷺ.

الخلط بين الممكن والمعهود والمستحيل هو أساس الحجج التي اعتمد عليها كل الذين أنكروا بعض حقائق الدين التي بلّغتهم إياها الأنبياء.

كان هو أساس حجج العرب الجاهليين ومن سبقهم ممن كفر برسل الله، ومن جاء بعدهم من الزنادقة المنافقين والملحدين إلى يومنا هذا. انظر إلى الحجج التي اعتمدوا عليها في إنكارهم للبعث:

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١].

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

[الإسراء: ٤٩ – ٥١].

فهؤلاء قوم ظنوا أنه من المستحيل على عظام أرمت وتفتت أن تدبَّ فيها الحياة من جديد. لكن القرآن الكريم أعطاهم أدلة على أن هذا أمر ممكن، بل هو أمر لازم. كان

(١) يعني: يوم يهجم عليك السبع فتفر وتتركني وإياها لا راعي لها غيري.

القرآن الكريم يخاطب أناساً يؤمنون بأن الله ـ تعالى ـ خالق كل شيء، فبين لهم أنه إذا كان ـ سبحانه ـ قد خلقهم أول مرة؛ فلماذا يستغربون أن يعيد خلقهم مرة ثانية، مع أن الإعادة أهون من البداية؟ وبيَّن لهم أن فيما يشاهدون من إحيائه الأرض بعد موتها ما يدلهم على إمكانية البعث ويقربه إليهم، ثم بيّن لهم أن هذا البعث أمر تستلزمه صفات الله تعالى. كيف يرسل الله ـ تعالى ـ رسلاً فيؤمن بعض الناس بهم ويصلحون وقد يضحون في سبيل ذلك ببعض المكاسب الدنيوية، بينما يكفر آخرون ويعيثون في الأرض فساداً، ثم يساوي بين مصير الفريقين؟ ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾.

[**القلم**: ٣٤ – ٣٦].

من أمثلة إنكار الناس لما يخالف ما عهدوه من أمور ثقافية قول العرب الجاهليين: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: ٥].

ومن أمثلته: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٢٣ – ٢٤].

لا تظنن أن هذا أمر خاص بالعرب الجاهليين، بل هو ضعف بشري عام، وهو الآن من أكبر سمات الحضارة الغربية السائدة في العالم اليوم. فالغربيون في جملتهم يعتقدون أن ما ألفوه من قيم وتقاليد في الأكل والشراب واللباس والتعامل والحكم والاقتصاد وغير ذلك هو الأمر الطبيعي الذي ينبغي أن يكون عليه الناس، بل هو المعيار الذي يقاس به مدى صلاحية ما عند الآخرين.

لقد كان من فوائد الكشوف والمخترعات العلمية الحديثة أنها وسَّعت من تصور الناس لدائرة الممكن؛ لإتيانها كشفاً أو اختراعاً بأشياء ما كان الناس سيصدقون بها لولا قيام الأدلة الحسية أو العقلية على وجودها. من كان سيصدق في شيء كالهاتف الجوال، أو الأقراص التي تحوي من الكلام ما يساوي آلاف الصفحات. وأظن أن كثيراً من الناس كانوا سيعدُّون وجود ما يسمى بالثقوب السوداء أمراً مستحيلاً؛ إذ كيف يوجد شيء حسي مادته أكثر من المادة التي في عدد من الجبال وهو مع ذلك لا يمكن أن يشاهَد بشيء من الحواس الخمس؟

ولكن مع قيام الأدلة العقلية التي جاء بها الشرع، ومع وجود هذه الغرائب التي جاء بها العلم الطبيعي، فإن بعض الناس ما زالوا ينكرون أشياء مثل عذاب القبر، ووجود يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه السلام. بل إنهم ما يزالون يجدون حرجاً في الإيمان بكل ما ليس بمعهود في الحضارة الغربية السائدة، فيُحرَجون من قضية الردة ويحاولون أن يجدوا منها مخرجاً بتحريف النصوص الدالة عليها، ويُحرَجون من كل شيء في تاريخهم السياسي لم يكن سائراً على قواعد الديمقراطية، ويودون أن يساووا بين الناس مسلمهم وكافرهم ما داموا أبناء وطن واحد، وهكذا.

نسألك اللهم عقلاً نيِّراً، وعلماً نافعاً، وفقهاً واسعاً.

عندما يكون دين خرافيّ أساساً لسياسة دولة كبرى

(البيان ٢٢٨ ـ شعبان ١٤٢٧ هـ ـ سبتمبر ٢٠٠٦م)

أعني بالدين الخرافي: الدين غير العلمي؛ بمعنى: أنه لا يقوم على حقائق واقعية، ولا يلتزم بمكارم خلقية. وعليه؛ فليس هنالك من دليل عقلي ولا علمي على دعاواه، بل في العقل والعلم ما يدل على بطلانها. وكلما كثرت مثل هذه الدعاوى في دينٍ ما أو في طائفة تنسب إليه، كان ذلك الدين أو كانت تلك الطائفة أقرب إلى الخرافة. وكلما كان اعتماد من يؤمنون بمثل هذا الدين عليه في تصرفاتهم ومعاملاتهم وسياساتهم، كان ضررهم على أنفسهم وعلى غيرهم أكبر. إن ضرر الخرافات والانحرافات الخلقية يكون أكبر حين ترتبط بالدين، حين يعتقد القائلون بها أنها مما أنزله الله ـ تعالى ـ وأمر به؛ ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ٢٨ - ٢٩].

إن السياسة ـ داخلية كانت أو خارجية ـ لا تكون مفيدة، بل تكون بالغة الضرر على من تمارَس ضدهم، ثم على من يمارسونها إذا ما أُرسيت على الأباطيل وعلى الظلم.

وهذه الآن هي أكبر مشكلة تعاني منها الولايات المتحدة، ويعاني منها العالم بسببها؛ ذلك أن ساكني بيتها الأبيض اليوم يؤمنون بخرافات دينية ويقيمون عليها سياساتهم الداخلية والخارجية. وقد خرج إلى السوق قبل أشهر كتاب اسمه (الثيوقراطية الأمريكية)[1]، بيّن فيه مؤلفه مدى تأثُّر السياسة الأمريكية الراهنة بمعتقدات دينية خرافية، ومدى خطورة هذه السياسة الدينية على الولايات المتحدة. وسأنقل فيما يلي بعض ما جاء في هذا الكتاب ليعلم من لا يعلم أن القول بالتأثير البالغ للمعتقدات الدينية في السياسة الأمريكية ليس تهمة ظالمة يلصقها بها المتطرفون من المسلمين، ولكنها حقيقة يعرفها ويخشى مخاطرها كثير من الأمريكيين.

يبدأ الكاتب الجزء الثاني من كتابه الذي جعله خاصاً بمشكلة التطرف الديني بقوله: «إنه ليس هنالك من أسئلة أهم بالنسبة لأمريكا القرن الواحد والعشرين من السؤال عما إذا كان البعث الديني الجديد وما يصحبه من غرور سياسي سيكون في صالح أمـريكا أم في ضررها؟» والكاتب يرجِّح أنه سيكون في ضررها.

البعث الذي يشير إليه الكاتب هو العمل الدؤوب الذي تقوم به جماعات دينية توصف بالمتطرفة لجعل معتقداتها أساساً للسياسة الأمريكية. من هذه المعتقدات التي ذكرها الكاتب عن بعض هذه الجماعات إيمانهم بالاتصـال المباشـر بـ (عيسى) باعتباره إلهاً. ولما كان بوش من المنتمين إلى الجماعة التي تقول بهذا فإنه كثيراً ما يصرح بأن الله (يعني: المسيح) هو الذي أمره بغزو أفغانستان، وبغزو العراق، بل ذهب إلى حد القول ـ كما روى عنه الكاتب نقلاً عن إحدى الصحف ـ في بعض الاجتماعات:

(1) Kevin Philips, American Theocracy: the Peril and Politics of Radical Religion, Oil, and Borrowed Money in the 21st Century, Penguin Viking, 2006.

«أعتقد أن الله يتكلم بوساطتي، ولولا ذلك لما استطعت أن أؤدي مهمتي». ولم ينفرد بوش بمثل هذه الدعاوى، بل إن (توم دي لاي) الذي كان رئيساً للأغلبية الجمهورية في الكونغرس قال ذات مرة: «إن الله يستعملني دائماً وفي كل مكان للدفاع عن نظرة الكتاب المقدس العالمية في كل ما أفعل وحيثما كنت. إنه هو الذي يدربني». وكان قد علق لوحة على مكتبه تقول: «قد يكون هذا هو اليوم» أي: اليوم الذي ينزل فيه عيسى.

أقول: وقد كانت مثل هذه العقائد الفاسدة هي السبب الجوهري في معاداتهم الشديدة للدين الإسلامي وللمسلمين والتصريح بهذا العداء والدعوة إلى مواقف شديدة العداء للعالم الإسلامي. يقول الكاتب: إنه عندما انهار الاتحاد السوفييتي بين عامي ١٩٨٩ و ١٩٩١م سارع المتدينون المحافظون إلى تقديم قائمة بالبدائل: الإسلام قوى الشر الكبرى، العراق بابل الشريرة، صدام حسين المسيح الدجال. هذا أمر لم يصرح به إلا عدد قليل من المسؤولين. أما المبشرون الأصوليون فإن الكثيرين منهم صرحوا به. فهذا (رتشارد سزك) نائب رئيس رابطة المبشرين القومية يقول لجريدة (النيويورك تايمز) في عام ٢٠٠٣م: «إن المبشرين قد استبدلوا الإسلام بالاتحاد السوفييتي. لقد صار المسلمون اليوم هم إمبراطورية للشر». ويقول: «إن الجماعات التبشيرية الأمريكية تكرر اليوم تجربة الجماعات التبشيرية البريطانية في عداوتها للمسلمين وحماسها للحرب ضدهم. لقد تضاعف عدد المنظمات التبشيرية في العالم الإسلامي. ويقول: «إنه بحلول عام ٢٠٠٣م لم تعد المنظمات التبشيرية مجرد مؤيدة للحرب كما كانت رصيفاتها البريطانية، بل أصبحت من المخططين لها». فبعد عام من استيلاء الجيش الأمريكي على بغداد كانت هنالك ثلاثون منظمة تبشيرية، ويقول: «إن المدير الإداري لرابطة المبشرين القومية صرح لجريدة (لوس أنجلس تايمز) أن العراق سيكون المركز الذي تنتشر منه

رسالة المسيح عيسى إلى إيران وليبيا وكل مكان في الشرق الأوسط». وقال مسؤول في منظمة أخرى: «إن الحال في العراق هي حرب من أجل الروح». ولهذا فإنه في غضون سنتين انطلقت سبع منظمات تبشيرية في بغداد وحدها.

أقول: إن عاقبة هذه المعتقدات الفاسدة لن تؤدي فقط إلى مثل هذه المواقف العدوانية على المسلمين، بل سيكون ضررها في النهاية على الولايات المتحدة نفسها كما يرى ذلك بعض العقلاء من الأمريكان. فأصحاب هذه المعتقدات لا يرون الحقائق كما هي. فما يراه عامة الناس في الغرب دَواهيَ وكوارث كاضطرابات الشرق الأوسط، وارتفاع أسعار البترول، والتسونامي؛ يرونه هم ـ كما يقول الكاتب ـ مبشرات بقرب مجيء المسيح.

وكما أنهم يستبشرون بهذه الكوارث، فإنهم لا يؤمنون بحقائق العلوم الطبيعية التي كانت السبب الأساس للتقدم المادي الذي ينعم به الغرب؛ فهم لا يصدقون بما يقوله العلماء عن الارتفاع العالمي في درجات الحرارة، ولا يلقون بالاً لما يقوله علماء الجيولوجيا من أن النفط بدأ ينضب، وهكذا. وبقولهم هذا يقول الرئيس بوش ويبني عليه مواقفه السياسية.

أقول: ولا يلقون بالاً لما توصلت إليه الدراسات العلمية الأكاديمية بأنه يستحيل أن يكون كل ما في الكتاب المقدس ـ كما يسمونه ـ من كلام الله؛ لأسباب كثيرة منها: أن به أخطاء في وصف الواقع، وهو أمر لا يمكن أن يصدر عن خالق الكون، وأن فيه تناقضاً لا يتناسب مع علم الله المحيط، وهكذا لا يلقون بالاً لمثل هذه الدراسات، بل يحتقرونها ويستمرون في اعتقادهم بأن كل ما في الكتاب المقدس كلام الله، وأنه ليس فيه من خطأ.

وهم لا يؤمنون بمبدأ فصل الدين عن الدولة، بل يريدون لأمريكا أن تكون دولة نصرانية؛ لأنهم يعتقدون أن الشعب الأمريكي هو شعب الله المختار. وهذا هو الذي دعا المؤلف أن يسمي كتابه (الثيوقراطية الأمريكية). وهو الذي يخشى كثير من الأمريكان أن يؤدي إلى انقسامات حادة في المجتمع قد تؤدي إلى العنف وحمل السلاح.

ولذلك فإن الكثيرين ممن كانوا يعدون من قادة المحافظين الفكريين والسياسيين - ومنهم مؤلف هذا الكتاب - بدؤوا يعلنون اعتراضهم على سياسة الحزب الجمهوري بعد أن استولت عليه هذه الفئة ممن يسمون بـ (المحافظين الجدد)، ويحذرون من مغبة عواقبها الوخيمة على البلاد. وقد كان من أبرز من اتخذوا هذا الموقف الكاتب الشهير (فوكوياما) في كتاب له جديد.

الغريب أن الدولة التي تسيِّرها مثل هذه المعتقدات هي التي تطلب من بعض البلاد الإسلامية أن تكون أكثر تسامحاً، وأن تنقِّي مناهجها الدراسية من مبادئ الولاء والبراء، وكل ما يرون مثيراً للكراهية.

انتشار النصرانية بالسيف

(البيان ٢٣٠، شوال ١٤٢٧ هـ - نوفمبر ٢٠٠٦م)

نقل البابا عن الإمبراطور البيزنطي كلمته الفاجرة التي قال فيها لمن زعم أنه محاوره: «دلني على شيء جاء به محمد كان جديداً، ولن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية؛ مثل أمره بأن تنشر العقيدة التي جاء بها بالسيف. إن الله لا تسره الدماء، ولا تسره التصرفات غير العقلية». فقلت: سبحان الله! رمتني بدائها وانسلت. وهل عَهِدَ الناس أهل دين هم أبعد عن العقلانية وأكثر ولوغاً في الدماء وفي ظلم العباد من المنتسبين إلى ما يسمونه بالمسيحية؟

رددت على السخافات التي جاءت في محاضرة البابا كما رد عليها كثيرون غيري من المسلمين وغير المسلمين[1]، وبيَّنَّا أن الحروب التي خاضها المسلمون كانت حروباً ضد الظلم، الظلم بكل أنواعه، ظلم المعتدين على المسلمين، وظلم الصادّين الناس عن الدين، وظلم الناقضين لعهود أبرموها مع المسلمين، ولم تكن أبداً لإدخال الإيمان كرهاً

(١) تجد كثيراً من هذه الردود في موقع النصرة :.ncsfp.com.



في قلب أحد من العالمين. وبينَّا أنهم لم يحاولوا ذلك؛ لأنهم علموا من دينهم أن الإيمان مسألة قلبية، وأنه لا مخلوق له سلطان على قلوب العباد.

لكننا في هذا المقال نود أن نقول للبابا: إنه كان يجدر به أن يتكلم عن العنف الذي استعمله قومه الغربيون على مر الزمان لإكراه الناس على قبول دينهم وثقافتهم. ولا نريد أن نفعل كما فعل هو حين استشهد على افترائه بشهادة رجل من بني دينه عدو حاقد مغلوب. لن نستشهد على زعمنا بشهادة رجال مسلمين، وإنما سنُشهِد عليه شهداء من غير المسلمين، فنقول:

أولاً: هذه هي المؤرِّخة الشهيرة (Karen Armstrong كيرن آرمسترونج) تكتب رداً على محاضرة البابا تبين فيها:

١ ـ إن زعم رجال الفاتيكان بأن غرض البابا هو «أن ينمي اتجاه احترام وحوار نحو الأديان والثقافات الأخرى، ومن البديهي نحو الإسلام» ليس أمراً واضحاً في كلماته، وتشبهه في هذا برجل دين مثله في القرن الثاني عشر وجَّه رسالة إلى المسلمين بدأها بقوله: «إنني أريد أن أواصلكم بالكلمات لا بالسلاح، وبالعقل لا بالعنف، بالحب لا بالبغض». لكنه جعل عنوان رسالته «ملخص لهرطقة العرب الشيطانية كلها». وتحدث فيها عن «قسوة الإسلام الحيوانية» وزعم أن محمداً وطَّد أمره بالسيف. «هل كان محمد نبياً حقاً»؟ تساءل ثم أجاب: «سأكون أسوأ من حمار إذا وافقت. أسوأ من الأنعام إذا أقررت».

٢ ـ تُنكِر المؤرخة أن يكون الإسلام قد انتشر بالسيف، وهي صاحبة كتاب بالإنجليزية عنوانه (موجز لتاريخ الإسلام A Short History of Islam).



٣ ـ وتذكّر البابا «بأن بعض الصليبيين الأوائل بدؤوا رحلتهم إلى الأرض المقدسة بذبح كل الجماعات اليهودية الساكنة على ضفاف نهر الراين، وأنهم أنهوا حربهم الصليبية في عام ١٠٩٩م بعد أن ذبحوا ثلاثين ألف مسلم ويهودي في القدس».

ثانياً: كتب رئيس حــركة الســلام الإســرائيلية (يوري أفنيري[1] Uri Avnery) ـ الذي وصف نفسه بأنه يهودي ملحد ـ رداً علمياً على البابا ذكر فيه من بين ما ذكر المسائل التالية:

١ ـ إن الحوار المزعوم أمر مشكوك فيه، وإن الإمبراطور لم يذكر لنا اسم الرجل الذي حاوره.

٢ ـ إن الإمبراطور عمانيويل الثاني الذي تولى الحكم في عام ١٣٩١م كان على رأس إمبراطورية تحتضر؛ إذ لم يبق لها من محافظاتها إلا القليل، وكان هذا القليل واقعاً تحت تهديد الأتراك.

٣ ـ في يوم ٢٩ من شهر مايو عام ١٤٥٣م وبعد عدة سنين من موت هذا الإمبراطور سقطت عاصمته القسطنطينية (إسطنبول) في يد الأتراك.

٤ ـ إبان حكمه تجول هذا الإمبراطور في أوروبا محاولاً أن يقنع الأوروبيين بمساعدته ضد الأتراك، وإن يبدؤوا حرباً صليبية جديدة، واعداً إياهم بأنه سيوحد الكنيسة. وإن هذه الرسالة كتبت في هذا الوقت لأسباب سياسية.

(1) Uri Avnery is an Israeli author and activist. He is the head of the Israeli peace movement, «Gush Shalom». http://zope.gush-shalom.org/home/en

٥ ـ محاضرة البابا بندكت السادس عشر كانت أيضاً خدمة للإمبراطور الجديد جورج بوش الذي يسعى لتوحيد العالم النصراني ضد محور الشر الذي هو في غالبه مسلم، وضد مجيء الأتراك إلى أوروبا.

٦ ـ إن قضية معاملة المسلمين لأهل الأديان الأخرى يجب أن يحكم عليها بسؤال بسيط: ماذا فعلوا بهم عندما كانت لهم القدرة على إكراههم على الإسلام؟ إنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا. لقد حكم المسلمون اليونان لعدة قرون؛ فهل صار اليونانيون مسلمين؟ لقد تبوأ اليونان النصارى مناصب كبيرة في الإدارة التركية. لقد عاش البلغاريون والصرب والرومانيون والهنغاريون وغيرهم من الأمم الأوروبية تحت الحكم التركي في وقت أو آخر لكن أحداً لم يكرههم على الدخول في الإسلام، فظلوا على دينهم النصراني.

٧ ـ في عام ١٠٩٩م تغلب الصليبيون على القدس وذبحوا سكانها من المسلمين والنصارى؛ في ذلك الوقت ـ وبعد ٤٠٠ عام من الحكم الإسلامي ـ كان النصارى ما زالوا أغلبية في القطر.

٨ ـ ليس هنالك من دليل ألبتة على فرض الإسلام على اليهود. وكما هو معروف؛ فإن اليهود تمتعوا تحت الحكم الإسلامي في إسبانيا بازدهار ليس له مثيل إلا فيما يقارب هذه الأيام. كانوا كُتَّاباً وشعراء ووزراء وعلماء. لقد كان ذاك هو عهدهم الذهبي؛ فكيف يمكن لهذا أن يحدث إذا كان النبي قد أمر بنشر الإسلام بالسيف؟!

٩ ـ عندما استولى الكاثوليك على إسبانيا مرة أخرى فإنهم أنشؤوا عهداً من الرعب الديني؛ إذ إنهم خيَّروا المسلمين واليهود بين أن يتنصَّروا أو يُذبحوا أو يغادروا البلاد. أين ذهب اليهود الذين فضّلوا البقاء على دينهم؟ هاجروا إلى العالم

الإسلامي، وانتشروا فيه من دولة المغرب في الغرب إلى العراق في الشرق، إلى بلغاريا (التي كانت تابعة لتركيا) في الشمال، إلى السودان في الجنوب.

١٠ - إن كل يهودي مخلص يعرف تاريخ قومه لا يملك إلا أن يشعر بالعرفان العميق للإسلام الذي حمى اليهود لمدة خمسين جيلاً، بينما كان العالم المسيحي يعذبهم ويحاول إكراههم بالسيف على التخلي عن دينهم.

ثالثاً: إن استعمال النصارى للعنف في فرض ثقافتهم على غيرهم لم ينته بنهاية القرون الوسطى، وإنما هو أمر مستمر إلى يومنا هذا. استمع إلى (هنتنجتون) وهو يقول في كتابه الشهير (صراع الحضارات) وفي صراحة عجيبة:

«لم يتغلب الغرب على العالم بتفوق في أفكاره أو قِيَمه أو دينه (الذي لم تعتنقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرى)، وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم. إن الغربيين كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبداً»[1].

رابعاً: إن غزو الغرب للعالم باستعمال ذلك العنف المنظم كان أمراً تواطأ عليه كل الناس في الغرب إلا ما ندر؛ فها هو الأستاذ (إدوارد سعيد) يحدثنا في كتابه (الاستعمار الثقافي Cultural Imperialism) أنه كان أمراً تواطأ عليه السياسيون والمفكرون والفلاسفة والشعراء وكُتَّاب القصص الشهيرة من أمثال ديكنز وغيرهم.

أقول: ونحن كثيراً ما ننسى أمراً يؤيد كلام (إدوارد سعيد) هذا: إن الحركة الإمبريالية الاحتلالية للعالم كانت بقرارات ديمقراطية في كل البلاد الأوروبية، وأن حركة استجلاب

(1) Huntington, Samuel, The Calsh of Civilizations, Simon & Schuster, 1997, p 53.



الأفـارقة مـن بـلادهم واسترقاقهم كانت أيضاً بقرارات ديمقراطية ـ بينما لم يكن تحريرهم بقرار ديمقراطي كما يحدثنا فريد زكريا في كتابه عن مستقبل الحرية ـ مما يعني أن غالبية ممثلي الأمة بمن فيهم المتدينون كانوا مؤيدين لها.

خامساً: وهذا (كيفن فيليبس Kevin Philips) يصدر كتاباً جديداً يسميه (الثيوقراطية الأمريكية)[1] يذكر فيه حقائق مذهلة عن العلاقة القوية بين الدين وسياسة أمريكا الخارجية، بل والتأثير الكبير للدين على سياسة أوروبا طوال القرون.

من هذه الحقائق:

١ ـ أن الاستعمار الأوروبي للعالم ولا سيما العالم الإسلامي كانت لـه دوافـع أو مسوغات دينية، بل كانت هنالك روابط قوية بين التوسع الإمبراطوري وبين الدعاة الدينيين «انظر إلى المبشرين الذين صارت أسماؤهم رموزاً للاستعمار: (ديفيد لفنجستون) المستكشف، (الجنرال غردون) الذي ذُبح في الخرطوم، والجنرال هنري هيفلوك» (ص ٢٥٥).

٢ ـ ينقل الكاتب عن المؤرخ آرثر ماروك قوله: «إن كبار رجال الكنيسة أقدموا بحماس على (الحرب المقدسة)» وقوله نقلاً عن قسيس كاتدرائية سنت جايلز بأدنبرة قوله: «إن الكنيسة قد صارت إلى حد مؤسف أداة في يد الدولة، وإنه في كثير من المنابر الكنسية كان الواعظ قد تقمص مهمة الرقيب العسكري المكلف بالتجنيد، وإن العلم البريطاني ارتفع على كل أماكن العبادة في طول البلاد وعرضها». (ص٢٥٥).

---

(1) Kevin Philips, American Theocracy, Viking, 2006.

٣ ـ أما الدوافع الدينية لبوش وجماعته في سياستهم الخارجية بل والداخلية فأمر لا شك فيه كما يبين الكاتب، فهو يقول إنه ثبت عن بوش قوله: «أعتقد أن الله يتكلم بوساطتي، ولولا ذلك لما استطعت أن أؤدي مهمتي». وينقل عن توم دي لاي قوله: «إن الله يستعملني دائماً وفي كل مكان للدفاع عن نظرة الكتاب المقدس العالمية في كل ما أفعل وحيثما كنت، إنه هو الذي يدربني».

٤ ـ قبيل الهجوم الأمريكي على العراق في عام ٢٠٠٣م كتبت مجلة نيوزويك مقالاً عن رحلة بوش من العربدة إلى التدين، ذكرت فيه أن الرئيس ينغمس كل صباح في قراءة مواعظ تبشيرية للواعظ الأسكتلندي المتجول أوزولد شيمبرز الذي كان قد قضى أيامه الأخيرة في وعظ الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين الذين كانوا قد حشدوا في مصر في عام ١٩١٧م تمهيداً لغزو فلسطين والاستيلاء على القدس في يوم عيد الميلاد.

٥ ـ بعد عام من استيلاء الجيش الأمريكي على بغداد كانت هنالك ثلاثون منظمة تبشيرية، كما وجدت جريدة لوس أنجلس تايمز في استطلاع لها أخبرها فيه المدير الإداري لرابطة المبشرين القومية: «أن العراق سيكون المركز الذي تنتشر منه رسالة المسيح عيسى إلى إيران وليبيا وكل مكان في الشرق الأوسط». وقال مسؤول في منظمة أخرى: إن الأحوال في العراق «حرب من أجل الأرواح». ولهذا فإنه في غضون سنتين انطلقت سبع منظمات تبشيرية في بغداد وحدها.

أقول: إن ما يحدث في العراق هو ديدن الحركة الإمبريالية منذ بداياتها، إن قواتها تكون دائماً هي الحامية للمنظمات التبشيرية. حدث هذا في السودان حين انتشرت المنظمات التبشيرية في الجنوب وكان من نتائج ذلك ما كان، وهي تنتشر الآن في دارفور.

وأقول: إذا لم يكن كل هذا نشراً للمسيحية بالسيف؛ فلست أدري ما معنى النشر بالسيف؟ لقد كنا نقلل من أهمية الدافع الديني في السياسة الخارجية الغربية، ونعتقد أن الأمر ـ كما يظهر ـ إنما هو مطامع اقتصادية ونزوات سياسية، لكن عزاءنا أنه هكذا كان يظن كثير من علماء السياسة ومنظروها من الغربيين أنفسهم كما يقول صاحب هذا الكتاب، حتى كان غلوّ بوش هو الذي نبههم إلى أن الأمر ليس كما كانوا يظنون، وأنه إذا كان بوش قد غلا في الأمر، فإنه ليس أول من بدأه، وإنما هو شيء درجت عليه السياسة الغربية ولا سيما فيما يتعلق بالعالم الإسلامي.

فماذا بعد أن انتبهنا وعرفنا الحقيقة؟

هُيام بالغرب يُعمي ويُصِم

(البيان ٢٣١ ـ ذو القعدة ١٤٢٧ هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٦م)

قبل أيام أرسل إليّ أحد الإخوان بالبريد الإلكتروني مقالاً لم أرَ مثله مصوراً لحال المتيَّمين بحبِّ الغرب حبّاً يُعمي ويصم، لذلك رأيت أن أجعل التعليق على بعض ما جاء فيه موضوعاً لمقالي هذا الشهر؛ لما قد جمع فيه صاحبه ـ وبكثير من الجُرْأة والاعتداد والتعالم ـ جملة مما تفرّق في كتابات أمثاله من الحُجج الواهية والدعايات الكاذبة والعبارات المتناقضة التي تُساق للترويج لحضارة الغرب وثقافته، والتنقّص من كل ما هو عربي أو إسلامي. الهدف الواضح من مقاله ـ وهو مقال في ظاهره عن الحوار ـ أن نعترف بأن الآخر ـ ويعني به الغرب ـ خير منا في كل شيء، فعلينا أن لا ننتقده أو نعترض عليه أو نحاربه، بل علينا أن نخضع له ونستسلم. وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية المرذولة فإنه يحشد جملة من الحُجج الواهية والأفكار المتناقضة ما لو قرأه مثقف غربي لسخر منه وأنهضه دليلاً على انحطاط الفكر العربي.

١ ـ بدأ صاحبنا المفتون هذا مقالَه بالحوار مع الآخر بمبادئ وشروط ما أنزل الله بها من سلطان، منها: أن الهدف من الحوار هو تفهّم المواقف وليس تغيير المواقف.

أقول:

مع أن الحقيقة هي أن فهم موقف الآخر شرط سابق للحوار معه؛ لأنني إذا لم أكن على علم بموقفه ففِيْمَ أحاوره؟ وفهم موقف الآخر لا يحتاج إلى حوار بل قد يكون في صيغة سؤال وجواب، فإذا عرفت موقفه فإما أن ترضى عنه فلا يكون بينك وبينه حوار لأنك صرت مثله وفي مكانه، أو تخالفه وتطمع في أن تغيّر موقفه فيكون هنالك داعٍ لحوارك معه.

٢ ـ ثم يحذرنا بقوله:

من لديه قناعة تامة بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة لا يمكنه الدخول في حوار مثمر مع أي طرف آخر؛ لأن الطرف الآخر ـ أيضاً ـ له مواقفه التي تخدم مصالحه وقناعاته التي تتماشى مع طريقته في التفكير.

والله إنني لأعجب كيف يفكر هذا الرجل! ما الذي يمنع مدّعي الحقيقة المطلقة ـ إن كان في الوجود شخص كهذا ـ من الحوار المثمر مع غيره؟! لماذا لا يكون هدفه إقناع كل من خالفه في أيٍّ شيء كان أنه جاهل وأن مخالفته له مخالفة للحقيقة المطلقة؟!

يعلّل الكاتب عدم الإمكان هذا بقوله: «لأن الطرف الآخر ...» إذا كان هذا هو السبب الذي يمنعه من الحوار مع مدّعي الحقيقة المطلقة فليمنعه من الحوار مع أيّ أحد كان؛ سواء ادّعى ملكية الحقيقة المطلقة أو لم يدّعها.

ثم ما المقصود بملكية الحقيقة المطلقة وهي عبارةٌ كثيراً ما أراها تُردّد في نقد الإسلاميين؟ أيقصد بها الادّعاء بالعلم المحيط بكل شيء؟ لكن المسلم العارف بدينه هو أبعد الناس عن مثل هذا الادّعاء؛ لأنه يعتقد أن الله ـ تعالى ـ هو وحده الذي أحاط بكل

شيء علماً، ولأن ربّه قد بيّن له أن الناس لم يُؤتوا من العلم إلا قليلاً. وأما إذا كان المقصود بها العلم اليقيني ببعض الحقائق؛ فهذا أمر مشترك بين الناس جميعاً، إذ ما منهم إلا وهو على علم يقيني ببعض الحقائق، وإن اختلفوا في نوع ما هم موقنون به.

٣ ـ ويحذرنا ـ أيضاً ـ بقوله:

الذهنية التي ترى أن قناعاتها فقط هي الصحيحة وما خالفها من القناعات خاطئة هي أقرب إلى الذهنية البدائية التي تؤمن بالمطلق وترفض التعددية.

أقول:

إذاً؛ ذهنيتك أيها الكاتب هي من هذا النوع البدائي؛ لأن مقالك كله في تخطئة مخالفيك ودعوتهم إلى الأخذ برأيك. وهل الإيمان بالمطلق قاصر على أصحاب الذهنية البدائية؟ إذاً؛ فإن عدداً من مفكّري (العالم المتحضّر) هم من هذا النوع. والتعددية لا توضع في مقابل المطلق إلا إذا كان المؤمنون بها يعتقدون أن كل ما يرونه هو حقيقة مطلقة، وما أظن أن في الوجود أناساً كهؤلاء، ولا سيما أناساً يؤمنون بمبدأ الاجتهاد وتعرّض المجتهد فيه للخطأ والصواب.

٤ ـ ويؤكد لنا شيئاً هو من أبطل الباطل فيقول:

لقد أدرك العالم المتحضّر بعد صراع طويل مع المطلق أن كل شيء مرهون بزمانه ومكانه وظروفه التاريخية والبيئية، وأن الأمور في نهاية المطاف كلها نسبية، من النسبية الرياضية التي نادى بها (أينشتاين) إلى النسبية الثقافية التي نادى بها (الأنثروبولوجيون).

أقول:

أولاً: إذا كنت ممن يرون رأي العالم المتحضّر هذا فكان عليك أن لا تكتب شيئاً ولا تناقش أحداً، بل تقول لنفسك: إن كل من خالفني في رأي أو موقف، بل كل من شتمني، فإنه إنما يقول ما أملاه عليه زمانه ومكانه، ولو كنت أنا في زمانه ومكانه لقلت ما قال ورأيت ما رأى.

ثانياً: إن القول بالنسبية ليس شيئاً جديداً على الفكر الغربي، ولم يأت بعد أيّ نوع من الصراع مع المطلق، وإنما هو شيء قديم، ويقولون إن أول من عُرف بالقول به السوفسطائي اليوناني (بروتاجوراس) في عبارة له مشهورة: «الإنسان معيار كل شيء».

ثالثاً: ينسب الكاتب القول بنسبية الحقائق إلى العالم المتحضر، فكأن الناس في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وغيرها من دول (العالم المتحضر) قد أجمعوا كلهم على هذا الرأي، أو كأنه قد أصبح الرأي الغالب عندهم، هذا مع أن القول بنسبية الحقيقة إنما هو قول لقلّة من الفلاسفة، أما جماهير الناس عندهم ـ كما الناس في كل بلاد الله ـ فلا تقول بها، خذْ مثلاً على ذلك: تقول الإحصاءات الغربية: إن معظم الناس عندهم يؤمنون بوجود الخالق، فهل تراهم يؤمنون بأن وجوده حقيقة نسبية تصح في مكان دون مكان وفي زمان دون زمان؟ والقلّة الملحدة منهم هل تقول: إن عدم وجوده أمر نسبي يصح في مكان دون مكان وزمان دون زمان؟ والنصارى المؤمنون بأن المسيح ابن الله، هل يعتقدون أن هذه حقيقة نسبية؟ وعلماء الطبيعة هل يقولون: إن كل ما اكتشف من حقائق الطبيعة هو أمر نسبي، وأنه سيأتي زمان يصح فيه القول بأن الأرض ليست كروية، وأنها أكبر حجماً من الشمس، وأنها ثابتة لا تدور؟

القول بالنسبية ليس ـ إذاً ـ أمراً مجمعاً عليه بين الغربيين، بل ولا هو رأي أغلبيتهم، بل إن القائلين بها يختلفون في معناها ومداها اختلافاً كبيراً، ولعل من غلاة القائلين



بها الفيلسوف الأمريكي المعاصر (رورتي) الذي ذهب إلى حدِّ القول بأن كلام العلماء الطبيعيين عن الواقع هو وجهة نظرٍ شأنها في ذلك شأن كلام الشعراء!

رابعاً: الدعوة إلى النسبية دعوة تحمل نقضها في أحشائها؛ لأنك إذا قلت: إن الحقيقة نسبية، فإن هذا يصدق على كلامك هذا فهو ـ أيضاً ـ نسبي، أي: إن القول بأن الحقيقة نسبية هو نفسه حقيقة نسبية.

خامساً: ولذلك فإنه يتعذر على القائلين بها أن يلتزموا بنتائجها فيما يقولون، بل إنهم يفترضون كما يفترض كاتبنا هذا أن قاعدة كل شيء نسبي لا تنطبق على ما يقول هو أو يراه.

سادساً: نسبية (أينشتاين) (لست أدري لماذا وصفها الكاتب بالرياضية مع أنها فيزيائية) وإن رأى فيها بعض عوام المثقفين في الغرب ما رأى الكاتب إلا أن كبار علمائهم وفلاسفتهم يقولون: إنه لا علاقة لها بالقول بنسبية الحقائق أو القيم إلا لفظ النسبية، ولذلك قال بعضهم: إن تسميتها بالنسبية لم تكن تسمية موفقة، وأنها لو سميت بالمطلقية لكان اسماً أقرب إلى حقيقتها. وملخص دليلهم على ذلك أنها نظرية تستند إلى حقيقتين تجريبيتين ليستا بنسبيتين، هما: عدم تغير القوانين الفيزيائة، وثبات سرعة الضوء مهما كان حال المراقب.

سابعاً: نعم؛ إن من علماء الأنثروبولوجيا من قال بهذا، لكنَّ كثيرين منهم ردّوا على زملائهم، بل إن منهم من أثبت أن هنالك قيماً مشتركة بين كل الثقافات بغضِّ النظر عن أزمانها وأماكنها، واستنتجوا من هذا أن في الثقافة ما هو إنساني يكون مع الإنسان حيث كان.

٥ ـ يقول الكاتب:

أضف إلى ذلك نظرية التطور التي تقول: إن التغير سنّة من سنن الكون الذي لا يمكن الوقوف في وجهه.

أقول:

أضيفُ ماذا إلى ماذا؟ أأضيف القول بأن هنالك سنّة ثابتة لا يمكن الوقوف في وجهها إلى القول بأن كل شيء مرهون بزمانه ومكانه؟ ماذا يتحصل عندي إذاً؟ هذا نوع من إلقاء الأقوال على عواهنها من غير تصوّر لحقائقها أو للعلاقات بينها.

٦ ـ بعد هذه العمومات الباطلة يصل الكاتب إلى بيت قصيده ليقول لنا: إنه لا جدوى من حواركم مع الغرب؛ لأنكم تريدون منه شيئاً لا يمكن أن يفعله؛ لأن من يعيش في مجتمع يحكمه القانون وتسوده العدالة وتتحقق فيه كرامة الفرد وحقوق الإنسان وحرية التعبير والتفكير لا يمكن أن يتراجع عن كل هذه المكتسبات ويعود القهقرى لينفض الغبار عن قناعات خَبرَها وكافح ليتخلّى عنها ويودّعها إلى غير رجعة.

لكن الواقع وأنفُ أمثال هؤلاء راغم أن كثيراً من الغربيين يحاوروننا ويقرؤون كتاب ربنا فيدخلون في دين الله أفواجاً، حتى إن إحصاءاتهم تقول: إن الإسلام أكثر الأديان (أقول وسائر الأيدولوجيات) سرعةً في الانتشار حتى في عواصم الدول الغربية. إنهم يقبلون عليه مثل هذا الإقبال لأنهم لا يرون فيه ما يرى المرتدون عنه دعوة إلى التخلّي عن خير مادي أو معنوي توصّلوا إليه، وإنما يرون فيه خير هادٍ لهم إلى معرفة ربهم والسعادة بعبادته واتّباع شرعه، بعد أن دلّتهم خبرتهم على أنه ليس بالتقدُّم المادي وحده يسعد الإنسان.

٧ـ لكن أمثال هذا الكاتب يرددون أباطيل قال بها منكرو الرسالات النبوية قبلهم. فإذا كان كاتبنا يقول:

إننا بينما نسمح لأنفسنا أن نستمتع وبشراهة منقطعة النظير بكل ما تنتجه مصانعه من أجهزة ومعدات فإننا في الوقت نفسه نرفض وننكر ما يقف وراء هذه المنجزات التقنية من علم وفكر.. بدلاً من تعمير هذا الكون الذي هو أعظم مسؤولية ألقاها الخالق على عاتق الإنسان وأعظم كرامة كرّمه الله بها.

فإنه إنما يردد من حيث لا يشعر حجة لجأ إليها الكفار في إنكارهم للرسالة المحمدية: **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾**.

[مريم: ٧٣ - ٧٤].

وكاتبنا هذا وأمثاله يرون في تفوّق الغرب المادي وتعميره الأرض دليلاً على تفوّق معتقداته وقيمه وأفكاره.

بماذا ينصحنا الكاتب إذاً؟ أن لا نكتفي بشراء بضائعهم بل نشتري معها شرْكهم وإلحادهم وتدهور خُلقهم وظلمهم للشعوب واحتلالهم لها وفرض ثقافتهم وقيمهم الفاسدة عليها؟! إنه مما لا ريب فيه أن التقدّم المادي الذي نشاهده في الغرب بُني على حقائق من العلوم الطبيعية، وأننا قصرنا في هذا الجانب تقصيراً كبيراً كان سبباً في إذلالنا، لكننا نعلم أنه تقصير مهما كانت أسبابه فلا علاقة له بديننا الذي كنا بسببه أئمة العالم في مجال هذه العلوم، وأنه ليس منا الآن من يرفض الحقائق الرياضية أو التجريبية، لكننا نعلم أنه ليس في معرفة هذه العلوم والاستفادة منها في المنجزات المادية ما ينهض وحده دليلاً على صحة معتقدات العالمين بها، أو حسن خُلقهم، أو صواب فكرهم

السـياسـي أو الاقتـصادي أو الاجتمـاعـي. لو كان هذا صحيحاً لكانت عقائد بناة الأهرامات صحيحة، ولكانت الكنفوشية والشيوعية التي تدين بها الصين صحيحة، ولكانت البوذية والهندوسية أيضاً صحيحة؛ لأن أصحاب كل هذه المعتقدات هم الآن متقدّمون في مجال المنجزات المادية تقدّماً يذهل له الغرب ويخشاه أشدّ خشية، لكن صاحبنا وأمثاله يريدون لنا أن نضيف إلى تخلّفنا المادي تخلّفاً روحياً فنخسر الدنيا والآخرة.

أما تعمير الكون فما هو والله بأعظم مسؤولية ولا أعظم كرامة كرّم الله بها الإنسان. أتقولون على الله مـا لا تعلمـون؟ لو كان هذا صحيحاً لكان ساكنو القصور العالية وراكبو السيارات الفارهة ومرتدو الملابس الفاخرة في أوروبا وأمريكا أقربَ إلى الله من عباده الذاكرين له وهم محبوسون معذَّبون في سجون (غوانتنامو). إن عمارة الأرض ليست غاية في ذاتها لكنها وسيلة إلى خير أو شر. إن الخالق العظيم هو الذي قال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدّ مِنْهُمْ قُوّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمّ كَانَ عَاقِبَةَ الّذِينَ أَسَاؤُوا السّوأَى أَن كَذّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ٩ – ١٠].

٨ ـ ينصحنا الكاتب قائلاً:

ولا ننسَ أن الآخر مؤهل للحوار معنا أكثر مما نحن مؤهلون للحوار معه. لماذا؟ لأننا لا نعرف عنه شيئاً بينما هو يعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا. علينا أن نعترف أن اكتشافنا لكنوز حضارتنا جاء عن طريق مدارس الاستشراق التي نبّهتنا لهذه الكنوز ونحن عنها غافلون.

أصحيح هذا؟ ألم أقل لكم: إن الرجل في حالة من الهيام الذي يعمي ويصم؟ أصحيح أننا لا نعرف عن الغرب شيئاً، نحن الذين تتكلم الآلاف منا لغات الغرب وتقرأ كتبه وصحفه وتستمع إلى إذاعاته وتتعلم في جامعاته وتزور بلاده وتساكنه فيها، بينما الذين يعرفون شيئاً من لغاتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما هم أهل الاختصاص منهم؟!

نبّهنا المستشرقون إلى كنوز لنا؟ الحمد لله، فنحن ـ إذاً ـ أمة لها كنوز يعترف بقيمتها حتى عدد من أبناء العالم المتحضر. وإذا كنا نشكر أولئك المستشرقين على اكتشاف شيء من كنوزنا فإننا نحمد الله أن جعل لنا فضل السبق إلى دين هدتهم تلك الكنوز إليه فآمن كثيرون منهم، بل يقال: آمن أكثرهم به بعد أن كانوا تائهين في ظلمات الشرك والأديان الباطلة. لقد أعطيناهم ـ إذاً ـ أحسن مما أعطونا ولله الحمد والمنّة.

٩ ـ يقول كاذباً:

... بينما نحرّم نحن على من يقيم منهم بين ظهرانينا أن يحتفل بمناسباته الدينية في بيته خلف الجدران والأبواب المغلقة.

لولا أن الكاتب يقول إنه من موريتانيا لقلت: هذا رجل لا يعيش في العالم العربي. كيف يجرؤ إنسان فيه مسكة من عقل على مثل هذا القول بينما كنائس النصارى بالنسبة لأعدادهم في بلادنا أكبر من نسبة المساجد في بلادهم بالنسبة لأعداد المسلمين فيها؟ كيف يقال هذا والنصارى يحتفلون بأعيادهم في بعض البلاد العربية حتى على شاشات القنوات الرسمية؟

١٠ ـ يقول آسفاً:

وها نحن نلعنهم في صلواتنا ونفرٌ منا يمتشقون السيوف والعبوات الناسفة ليجبروا الناس على الدخول في حظيرة الدِّين بينما هم يبنون المستشفيات ويقدمون المساعدات الإنسانية ويصلون للمنكوبين.

يا للعجب! أيقال مثل هذا الكلام عن الغرب الذي احتلَّ واسترق وانتهك الحرمات؟! أيقال هذا والأخبار تترى عن استمرار قوات الناتو في قصف القرى الأفغانية قصفاً لا يفرق بين محارب ومسالم، وصغير وكبير، ورجل وامرأة؟! أيقال مثل هذا عن الغرب وقواته مستمرة في عدوانها على شعب العراق، وإسرائيل تدمّر البلاد وتقتل الأبرياء في فلسطين بمباركة منه؟! أيقال هذا في زمان (أبو غريب وغوانتنامو)؟! ولكن لا عجب فإن التَّتيّم يعمي ويصم.

ثم إن الذين امتشقوا السيوف صرحوا بأنهم لم يمتشقوها لدعوة إنسان إلى الإسلام، وإنما فعلوا ما فعلوا بدعوى الانتقام لإخوانهم الذين عانوا من ظلم أمريكا في فلسطين. كيف يكون قصدهم أن يجبروا على الدخول في الإسلام من هم عازمون على قتله؟ أيسلم بعد أن تفارق روحه جسده؟!

١١ ـ واستمع إلى ما يقوله عن التبشير النصراني:

لا يمكننا فصل الدين عن الحضارة، فالمجتمعات المتحضرة تمارس دينها، أيّاً كان ذلك الدين، وتدعو إليه وفق أساليب متحضرة، وتقدّمه كخيار حرٍّ لمن يجد فيه ما يروي ظمأ الروح ويقود إلى طمأنينة النفس ويلبّي حاجة الوجدان ونوازع الضمير.

قارن هذه الصورة الخيالية الدعائية بالواقع الذي يرويه لنا أصحاب تلك الدول المتحضّرة. فهذا (هنتجتون) يقول ـ كما نقلت عنه في مقال سابق ـ: إن الثقافة الغربية فُرضت على الناس باستعمال العنف، وهؤلاء أئمة النصارى في أمريكا يتحدثون عن أطهر رجل عرفته البشرية بكلام بذيء لا يقال حتى عن عامة المفسدين، وهذا أحدهم يحث حكومته على دكِّ الخرطوم بالطائرات، وذاك وذاك. لكن ماذا يجدي بيان الحقائق لقوم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون؟

١٢ ـ يقول الكاتب في نهاية هذره هذا مادحاً نفسه:

هذا الحديث عن الحوار مع الآخر ليس مجرد شطحات نظرية فأنا لا أتحدث من فراغ وإنما... ليت الحديث كان شطحات نظرية إذاً فلربما كان أقل سوءاً.

الاتباع العلمي.. والتبعية الجاهلية

(البيان ٢٣٣ - المحرم ١٤٢٨ هـ - يناير ٢٠٠٧م)

«العلم إمام العمل» كما قال الإمام البخاري. فكل عمل لا ينبني على علم يقيني أو غلبة من الظن فهو عمل جاهلي. فما معنى الاتِّباع إذن؟ الاتِّباع في حقيقته إنما هو اتباع للعلم، ثم يدخل فيه اتباع من قام عندنا دليل علمي على أن له علماً؛ وهذا ما عنيته بالاتباع العلمي. وأما إذا لم يكن الاتباع مؤسساً على علم بأن المتبَع ذو علم، وكان مبنياً على غير ذلك من الأسباب الداخلة في مفهوم الهوى، فهو بالضرورة تبعية جاهلية. فنحن نتبع ما نجد في القرآن الكريم؛ لأنه قد قام عندنا دليل على أنه كلام الله تعالى؛ والله لا يقول إلا حقاً ولا يحكم إلا بعدل. واتِّباعُنا لمحمد ﷺ إنما هو لأنه قد قام الدليل العلمي عندنا على أنه رسول الله الذي أُوحي إليه ذلك الكتاب، ولأن الله - تعالى - يقول لنا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

[النساء: ٨٠].

ونتبع إجماع علماء المسلمين؛ لأنه قد قام عندنا الدليل القطعي العقلي والنقلي على أنهم لا يمكن أن يجتمعوا على ضلالة[1].

وأما ما سوى ذلك فإننا لا نتَّبع من أفراد العلماء إلا من قام عندنا دليل على صحة ما قال أو على أن قوله أقرب إلى الصواب. وقد عبر عن هذه الحقيقة الإمام مالك بقوله: «كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر» (ويشير إلى القبر الشريف). فيؤخذ ما قام الدليل على صحته أو على قربه أكثر من غيره إلى الصواب، ويترك ما لم يقم دليل على صحته أو قام دليل على بطلانه.

في كتاب الله ـ تعالى ـ أدلة كثيرة على أننا مأمورون بالاتباع العلمي ونبذ التبعية الجاهلية بتلك المعاني التي ذكرناها. فنحن ندعو الله ـ تعالى ـ بأمر منه، في كل ركعة من ركعات صلواتنا قائلين: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [**الفاتحة**: ٦ – ٧].

فالصراط المستقيم هو الطريق الذي قام الدليل العلمي على إيصاله سالكَه إلى الله تعالى. والذين أنعم الله عليهم هم الذين قام الدليل العلمي على أنهم سلكوا ذلك الطريق، فاتِّباعهم اتِّباع علمي. وأما المغضوب عليهم فاتباعهم اتباع جهلاني؛ لأنهم قوم أبَوْا أن يجعلوا عملهم تابعاً لما علموا. وأما الضالون فاتباعهم أيضاً جهلاني؛ لأنهم عملوا بغير علم. في هذه الآيات العظيمة أكبر دليل على أن الاتباع العلمي لا يكون إلا باتباع طريق من قام الدليل على أنهم ساروا في الطريق المستقيم، وإلا باجتناب من قام الدليل العلمي على سلوكهم غير ذلك الطريق.

---

(١) انظر المقدمة الثالثة من كتاب الموافقات للإمام الشاطبي.

وما ورد في أم القرآن مجملاً ورد في غيرها من سور القرآن الكريم مفصلاً. فالجدير بأن يتبع هو الذي يأتي بالحق: ﴿ **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ [**يونس**: ٣٥].

فالرسل يُتَّبعون لأنهم هم الذين يجيئون بالحق الموحى إليهم من الله ـ تعالى ـ ولأنهم أحسن الناس اتباعاً له: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ** ﴿٨٩﴾ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** ﴾.

[**الأنعام**: ٨٩ – ٩٠].

هنالك فروق عظيمة بين الاتِّباع العلمي والتبعية الجاهلية. فلما كان الاتباع العلمي هو في حقيقته اتباعاً للعلم؛ فإن المتبَع يستطيع أن يأتي بالدليل على صحة ما يدعو إليه، ولما كانت التبعية الجاهلية إنما هي اتباع لأشخاص؛ فإن المتبَع لا يستطيع أن يأتي بدليل ولا يستطيع أن يجيب عن اعتراض، بل يُغضبه أن يُعترَض عليه، ولذلك فإنه يجعل عدم السؤال أو الاعتراض شرطاً في الاتباع.

من الأدلة على هذا أن موسى ـ عليه السلام ـ لما ذهب لملاقاة العبد الصالح ورضي بأن يكون له تابعاً سوَّغ تبعيته له بقوله: ﴿ **عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ [**الكهف**: ٦٦]. ولما اشترط عليه العبد الصالح أن لا يسأله، لم يجعل ذلك شرطاً مطلقاً، وإنما قيده بقوله: ﴿ **حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ [**الكهف**: ٧٠].

ولما قال الرجل الذي آمن لقومه: ﴿ **اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [**غافر**: ٣٨] لم يكتف بهذه الدعوى بل بيّن لهم ماذا يعني بسبيل الرشاد. وأما فرعون الذي كان يريد

من الناس أن يتبعوه تبعية جاهلية فقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] فسبيل الرشاد عنده شيء تابع لرأيه وهواه لا دليل علمياً عليه. كان اتِّباع أصحاب رسول الله له اتباعاً علمياً، لذلك لم يكونوا يتحرجون من سؤاله، ولم يكونوا يرون في السؤال تنافياً مع يقينهم بأنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، ولم يكن رسول الله - بأبي هو وأمي - ينكر عليهم أن يسألوه أسئلة يستبينون بها الحق ويزدادون به يقيناً. فهذه أم المؤمنين عائشة تقول لرسول الله ﷺ: «كيف يُخسَف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟»، فأجابها بقوله: «يُخسَف بأولهم وآخرهم، ثم يُحْشَرون على نياتهم». لماذا سألت أم المؤمنين هذا السؤال؟ سؤالها يدل على أنها لم تستطع أن توفق بين قول النبي ﷺ وقاعدة عظيمة من قواعد الدين هي أن الإنسان لا يعاقَب إلا على جرم ارتكبه، وهي تعلم أن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ حق لا تناقض فيه.

ولما قال الرسول ﷺ: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة» فقال له أعرابي: «يا رسول الله! فما بال إبلي تكون في الرمل كأنها الظباء، فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها؟» فقال له الرسول ﷺ: «فمن أعدى الأول؟». ولا بد أن الأعرابي إنما سأل هذا السؤال؛ لأنه يعلم أن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ حق لا يمكن أن يخالف حقيقة تجريبية واقعية. وإجابة الرسول ﷺ تدل على أنه لم يَعْنِ بعدم العدوى انتقال المرض من شخص إلى آخر، وإنما عنى به أنها ليست السبب الأول للمرض.

وقصة عمر - رضي الله عنه - في صلح الحديبية معروفة. أذكر بهذه المناسبة أننا كنا أيام الشباب نقرأ كتب العبقريات للعقاد، وإنه كان يقول فيها: إن لشخصية كل عبقري مفتاحاً، وإنه جُعل مفتاح شخصية أبي بكر - رضي الله عنه - التسليم، وقارن في هذا بينه

وبين عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يسأل ويناقش؛ فلم يعجبني قول العقاد وقلت لبعض زملائي كلاماً فحواه أن تسليم أبي بكر كان تسليماً قائماً على علم حاجَّ به عمرَ رضي الله عنهما. والإنسان إنما يسأل ويستفسر إذا لم يعلم.

هكذا كان الاتباع في عهد النبوة والقرون الصالحة، وهكـذا كان عند أئمة أهل السنة والجماعة. فما أكثر ما روي عنـهم من نهي عن التقليد، وحث على البحث عن الدليل واتباعه. وما أكثر ما كانوا يحرصون على الفهـم والتدبـر والتفكـر. وما زال مثل هذا الاتجاه معروفاً عند السـالكين سبـيل أولئـك الأئمـة. مـا أكثـر ما سمعت شيخنا الشيخ عبد العزيز بـن بـاز ـ عليـه رحمة اللـه ـ يقـول لطـلابه: لا تحقروا أنفسكم. ثم ينصحهم بأن يبحثوا عن الدليل وأن يقولوا بما توصلوا إليه؛ فإذا تبين للواحد منهم أنه كان مخطئاً فلا بأس عليه من أن يغيِّر رأيه ويقول بما علم وهو مأجور في الأولى وفي الآخرة.

لكن الذي غلب على المسلمين في أيامهم الأخيرة هو الرجوع إلى التبعية الجاهلية، تبعية لأشخاص لا علم فيها ولا سؤال ولا مناقشـة ولا مطـالبـة بدليـل ولا برهان، بل شعارها ـ بلهجتنا السودانية ـ: «اليعترض ينطرد». وصار المثل الأعلى للمريـد أن يكـون بين يـدي شيخه كالجنازة بين يَـدَيْ غاسـلهـا، فتحـوَّل الأتبـاع ـ وما أكثـرهم ـ من قوم خلقهم الله ليعلموا ويعقلوا ويتفـكروا إلى جنائز لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر. بل حتى الذين زعموا أنهم تحرروا وصاروا علمانيين إنما كان تحررهم أن استبدلوا بالشيوخ الدينيين شيوخاً علمانيين غربيين. فكان ما كان من أمر تدهورنا في أمر الدين وما تبعه من تخلُّف في أمور الدنيا. وأنا الآن لو سُـئلت: ما سبب تخلف المسلمين؟ لأجبت بكلمتين: التبعية الجاهلية. لكن هذا موضوع أرجو أن نعود إليه في مقال قادم.

عناصر الشرك الاستكبار والفحش في القيم الغربية

(البيان ٢٢٤ - صفر ١٤٢٨ هـ - فبراير ٢٠٠٧م)

أصبح من البدهيات أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن الإسلام - الذي يصفونه بالراديكالي - هو الآن العدو الأول والخطر الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. لقد كان الاتحاد السوفييتي مضاهياً للغرب في تقدمه العلمي والتقني، وما ترتَّبَ على ذلك من قوة مادية، وكان في مبادئه وأيديولوجياته ومؤسسيه امتداداً للفكر الغربي نفسه. أما المسلمون فما الخطر الذي يمثلونه على الحضارة الغربية وهم اليوم أكثر ما يكونون تخلفاً في تلك العلوم والتقنيات بالنسبة للغرب، إذ إنهم لا يكادون يملكون من القوة المادية شيئاً، بينما تملك دولة كالولايات المتحدة من أسلحة الدمار الشامل ما يُمكِّنها - حسب زعمها - من تحطيم الكرة الأرضية كلها عدة مرات؟

فما الخطر الذي يمثله الإسلام إذاً؟ أهو الإرهاب؟ لكن الجماعات الإسلامية التي تُسمَّى بـ (الإرهابية) مهما ألحقت بالبلاد الغربية من أضرار فإنها أضرار محدودة؛ لأنها لا تملك هي الأخرى من القوة ما يُمكّنها من هزيمة الدول الغربية أو حتى إضعافها.

إن تصرفات الساسة الغربيين، ولا سيما الأمريكان منهم والبريطانيين، تدل على أنهم لا يحصرون الخطر الإسلامي على حضارتهم فيما يسمونه بالإرهاب، بل يجعلونه في الدين الإسلامي نفسه. ولهذا صاروا يصفون حربهم على الإسلام بأنها حرب قِيَم وأنها معركة لكسب القلوب والعقول. إنها معركة؛ لأن الإسلام رغم ضعف أهله المادي هو ـ كما يقولون ـ أكثر الأديان انتشاراً في بلادهم. لكننا مرة أخرى نتساءل: ما الخطر في هذا على الحضارة الغربية؟ إذا كانت هذه الحضارة قد قبلت النصرانية واليهودية وهما دينان شرقيان، وإذا كانت قد استفادت في تاريخها من نتاج الفكر الإسلامي في مجالات الدين والفلسفة والعلوم، وإذا كانت قد قبلت العلمانية بل والإلحاد وغير ذلك من أنواع الأيديولوجيات؛ فما الذي يمنعها من أن تقبل الإسلام إذا كان هذا هو ما اختاره بعض أهلها لأنفسهم طوعاً لا كرهاً؟!

إنه لا إجابة عن هذا السؤال الصعب إلا القول بأن الأمم الغربية، رغم تعددها وتفاوتها ورغم تعدد مكونات حضارتها وتنافرها، إلا أن فيها فكراً يمثل غالبيتها ويشيع بينها، ويؤثر في تصرفاتها، وأنه هو الذي يحدد موقفها من غيرها من المعتقدات والقيم ولا سيما الإسلامي منها.

لكن هذا ليس بالشيء الغريب ولا الخاص بالحضارة الغربية وأممها، بل هو سنة اجتماعية عامة قررها كتاب ربنا الذي نقرأ فيه: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٠٨].

فكل أمة صغيرة كانت أم كبيرة لها أعمال تراها حسنة؛ سواء أكانت هذه الأعمال في نفسها صالحة أم كانت فاسدة. لاحظ أن الآية الكريمة تحدثت عن تزيين العمل لا عن

الاعتقاد مع أن العمل تابع للاعتقاد! ربما لأن المقصود هو الاعتقاد الذي يؤثر في العمل ويوجهه، لا الذي يدّعيه الناس بألسنتهم.

في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن هذه السُّنّة الاجتماعية:

منها: أن ذلك العمل المزين هو الذي يجمع الأفراد وينشئ بينهم وداً يجعل منهم أمة معينة. قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴾ [**العنكبوت**: ٢٥].

قال ابن كثير: ﴿ **إِنَّمَا اتَّخَذْتُم** ﴾ هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، وهذا على قراءة من نصب: {مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} على أنه مفعول له. وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط، ثم يوم القيامة ينعكس الأمر فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآناً.

ومنها: أن الأمة إنما تتخذ مواقفها من غيرها بحسب قربه أو بعده من هذا العمل المزين الذي يجمع بينها؛ فهـي لا تتحمل ولا تتسامح مع من يخالفها فيه مخالفة كاملة ويعترض عليها، وإن كان من أبناء وطنها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ [**البقرة**: ١٢٠].

وقال: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** ﴾ [**الأعراف**: ٨٨].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومنها: أنه قد تشذُّ جماعة من الأمة فترى ما لا ترى غالبيتها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ومنها: أن العاقبة تكون لمن كان على الحق: إمَّا بغلبتهم على أعدائهم، وإمّا بانتقام الله ـ تعالى ـ من أولئك الأعداء، كما نرى ذلك في قصص كل الأنبياء مع أقوامهم المعادين لهم.

ما العمل الذي زين للغربيين؟

نعود بعد تقريرنا لهذه السُّنن الاجتماعية التي فصلها لنا كتاب ربنا إلى سؤالنا الذي بدأنا به: ما العمل الذي زينه الله ـ تعالى ـ للأمم الغربية والذي هو سبب عدائها للإسلام وأهله؟ إنك لا تجد جواباً واضحاً لهذا السؤال فيما يسمى بالنظريات أو الفلسفات أو الأيديولوجيات السياسية الغربية. فالغرب ليس ـ من حيث هذه النظريات

أو الفلسفات أو الأيدولوجيات ـ أمةً واحدةً، وإنما هو أمم مختلفة ودول حدثت بينها حروب وتفرقت أحزاباً وجماعات.

لعل الإجابة هي فيما يسمى بالقِيم الغربية التي صار الغربيون الآن يكثرون من ذكرها، ولا سيما حين يريدون بيان موقفهم من الإسلام وأهله؛ سواء في بلادهم أو في غيرها. فما القيم الغربية هذه التي تجعل من الغرب كله أمة واحدة في مقابل الأمم الأخرى، ومنها الأمة الإسلامية؟ إن الذي يكادون يجمعون عليه هو ما يعدّونه من مصادر ثقافتهم العامة أو مكوناتها؛ وهو الفكر اليوناني، والحضارة الرومانية، والديانتان: اليهودية والنصرانية، والفلسفة الليبرالية، والديمقراطية، وحركات الإصلاح والنهضة والتنوير. لم أذكر الإسلام؛ لأنه ليس من المصادر المعترف بها عند عامتهم، وإنْ كان مما يعترِف به قلة من علمائهم؛ فهذا أحد مؤرخيهم الكبار المعاصرين يقول: «إن أوروبا كانت في القرون الوسطى مَدِينَةٌ بالشيء الكثير للإسلام، وإنها لم تكن مدينة لأية مدنيّة أخرى مثلما ما كانت مدِينة للإسلام»[1].

إذا تأملنا في هذه الثقافة المعترف بها تاريخياً وجدنا فيها، أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة، لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زُين لهم. إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك.

وإليك أمثلة على ذلك:

الفكر اليوناني: يعتقد عامة الغربيين أن الفكر اليوناني هو أساس فكرهم، حتى قال أحد فلاسفتهم: إن الفلسفة الغربية كلها إنما هي حواشٍ على كتابات أفلاطون. هذا

---

(1) J.M. Roberts, History of the World, Penguin Books, 1980, p. 511

الفكر اليوناني هو أول ما لا يزالون يرجعون إليه في تأريخهم لقضية من القضايا العلمية أو الأدبية أو الفنية. لكنهم يعتقدون فوق ذلك أن الفكر اليوناني هذا هو الذي وضع أسس الفكر العقلاني المعتمد على المنطق (أليس أرسطاليس هو واضع علم المنطق؟)، وأن الأمم الأخرى ـ ومنها العرب ـ لا تعرف هذا التفكير العقلاني المنطقي. حتى قال أحد كبار المستشرقين عن العرب: إنهم لا ينكرون التناقض، بل يعدونه مما يزيد العبارة غنى. هذا مع أن العرب عندما اطّلعوا على علم المنطق لم يروا فيه شيئاً جديداً حتى قال قائلهم: إنني كنت أعلم دائماً أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد[1]. ذلك لأن الأسس التي يقوم عليها هذا العلم هي من المعايير العقلية التي فطر الله عليها البشر أيّاً كانوا، وخاطبهم بها في رسالاته. والعرب كغيرهم من البشر يعلمون بطلان الكلام المتناقض؛ ولذلك فإنهم يحتملون في لغتهم كل شيء إلا التناقض. قال سيبويه عن العرب: ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه؛ لأنه مستقيم ليس فيه نقض[2].

والحضارة اليونانية كانت ـ رغم إنجازاتها الفكرية الكبيرة ـ حضارة شرك وفحش. لم يكن شِرْكُها ـ كما كان شرك العرب ـ محصوراً في الألوهية، بل كان شركاً في الربوبية أيضاً؛ فلم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم مجرد وسائل تقرّب صاحبها إلى الله ـ تعالى ـ؛ بل كانت تحل محله سبحانه! فهذا ربّ للحب، وذاك رب للجمال، وثالث رب للحرب، وهكذا.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المجلد التاسع، كتاب المنطق، ص ٨٢.

(٢) كتاب سيبويه: أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، المجلد الأول، عالم الكتب، بيروت، ص ٣١.

وكانت حضارة فحش لا ترى بأساً بالعري، كما تدل على ذلك تماثيلهم المنحوتة، وصورهم المرسومة، وقصصهم وأشعارهم التي يشيع فيها قصص البغاء والشذوذ الجنسي الذي كان معروفاً حتى بين كبار مفكريهم وفلاسفتهم. وقد اهتم مؤرخو هذا الفكر حديثاً بهذه القضية، وكتبوا فيها كتباً يقال: إن أهمها كتابٌ نشر في عام ١٩٨٧م[1]، ثم تبعه سيل من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع.

الديانة اليهودية: إن الله ـ تعالى ـ يفضل الناس ويكرمهم بأعمالهم الصالحة الاختيارية، وقد فضل الله بني إسرائيل على غيرهم عندما كانوا آخذين برسالة موسى. لكن تحريف الدين والفهم السيِّئ له حوّل هذا التفضيل إلى مسألة عرقية؛ فصاروا يعتقدون أنهم باعتبارهم عنصراً هم شعب الله المختار، ثم انتقلت هذه الفكرة إلى الديانة البروتستانتية، ثم صارت عن طريقها ـ كما يذكر لنا صاحب كتاب (الثيوغراطية الأمريكية) ـ جزءاً من التفكير القومي للشعب الأمريكي، ومن قبله للشعب البريطاني وللأفركان الذين حكموا جنوب أفريقيا. فاعتقاد الشعب الأمريكي بأهميته القومية الذاتية ليس سراً لا في داخــل أمـريكـا، ولا في خارجها كما يقول.

لقد ظل الأمريكان منذ قرون يعتقدون أنهم شيء خاص، شعب وأمة اختارها الله لتقوم بمهمة فريدة بل خيّرة في العالم. والرؤساء المنتخبون يجنحون إلى الدعوة إلى هذه الخصوصية ويؤكدونها[2].

وما يسمونه بالكتاب المقدس مليء بقصـص من الفحـش، منسـوبة إلى أنبياء الله ـ أكرم خلق الله ـ. وقد استغل بعض الملحدين هذه الحقيقة؛ فنشروا كتباً أحصوا فيها

(1) K.J. Dover, Greek Homosexuality,1978.

(2) Kevin Philips, American Theocracy, Viking Penguin, 2006, p.125



كل النصوص التي فيها ما عدّوه نوعاً من الفحش، ثم طالبوا بأن يكون هذا الكتاب من الكتب التي تسمى بالفاحشة، التي يمنع وضعها بين أيدي الأطفال!

الديانة النصرانية: أما الديانة النصرانية فأخذت عنصر الاستكبار من العهد القديم الذي تعده جزءاً من دينها كما رأينا فيما نقلنا قبل قليل. ثم زادت عليه أنه لا نجاة لأحد من الأولين والآخرين لم يتشرف بالإيمان بربوبية عيسى - عليه السلام - واعتبار موته تكفيراً عنه، وأن هذا تكفير حاصل لا محالة لكل من اعتقد ذلك الاعتقاد مهما كانت سيئاته وجرائمه، هذا مما يزين الفحش لمن كان شخصاً عادياً ضعيفاً. لكن النصرانية زادت هذا الإغراء به في طلبها من قساوستها أمراً مخالفاً للفطرة كانت نتيجته الوقوع في الفواحش سراً والتستر عليها. وقد استغل هذا خصومهم من الملحدين والمنكرين للدين أسوأ استغلال، حتى عدّه الفيلسوف البريطاني الشهير من أسباب كونه ليس مسيحياً.

هاتان الديانتان اللتان كانتا في الأصل ديانتي توحيد مبنيتين على وحي الله - تعالى - إلى موسى ثم إلى عيسى - عليهما السلام - صارتا بعد التحريف ديانتي شرك. فاليهود أشركوا بتحريفهم لكلام الله وبرفضهم لنبي الله عيسى - عليه السلام - ثم لنبيه محمد ﷺ، مع أنهم مأمورون في كتبهم بالاعتراف بهما؛ بل باتِّباعهما عند ظهورهما. وكان الاستكبار من أسباب هذا الرفض.

حركة التنوير: توصف الحركة التي ظهرت في القرن الثامن عشر في أوروبا بحركة التنوير وبكونها كانت حركة عقلانية. لكنها هي الأخرى لم تنسَ نصيبها من الدعوة إلى الفحش وتزيينه.



الحضارة الرومانية: ورث الغرب من الحضارة الرومانية فكرة الجمهورية وفكرة الإمبراطورية التي توسعت بغزو إمبريالي فيه كثير من القسوة وإخضاع للشعوب، كما يحدِّثنا المؤرخون الغربيون. وكانت قبل أن يجعل الإمبراطور النصرانية ديانة رسمية لها تعج بديانات كلها وثنية.

حركتا الإصلاح والبعث: من أوضح مظاهر الغرور في الثقافة الغربية أنهم يرون أن هنالك نقصاً في كل حضارة أو ثقافة أو ديانة لم تمر بالتاريخ الذي مرت به حضارتهم وثقافتهم وديانتهم. فمما يأخذونه على الإسلام مثلاً: أنه لم تحدث فيه حركة إصلاح كحركتهم تعيد تفسير الدين وتفهمه فهماً جديداً يتناسب مع أهواء الثقافة الشائعة. وهم ما يزالون يأملون أن يحدث شيء من هذا حتى يقترب الإسلام من ثقافة الغرب وقيمه. وما يزال بعض المغفلين في بلاد الإسلام يغرونهم بأن هذا سيحصل، وأن الإسلام سيعود قريباً ديناً معاصراً لا خلاف بينه وبين متطلبات الحضارة الغربية.

الليبرالية: تقوم الليبرالية على فكرة هي في جوهرها صحيحة، فكرة تقول: إن لكل فرد حقوقاً لا يجوز لأحد أن يتغول عليها حاكماً كان أو أغلبية مواطنين. هذه الحقوق هي في الأصل حقوق أعطاها الله - تعالى - لعباده كما نجد ذلك في القرآن الكريم؛ فلما غلب الشرك وغلبت العلمانية على الحضارة الغربية فصلوا مفهوم هذه الحقوق عن أصله، ثم لم يجدوا لها أصلاً آخر يتفقون عليه إلا كونها وثيقة أجازتها الأمم المتحدة، أو وضعت في دستور بلد من البلاد. وبهذا صارت هذه الحقوق نفسها هي مما أعطاه بعض الناس لآخرين. ولما كان من أعطوها من المتأثرين بقيم الشرك والاستكبار والفحش؛ فقد فسروا كثيراً من هذه الحقوق بحسب أهوائهم تلك؛ فجعلوها أو أكثرها انحرافاً عن الفطرة السويّة. فسّروها بحرية الكسب الذي لا قيود عليه فكان أن أدى

إلى الرأسمالية، وكان مَثَلُهم كمثل مدين قوم شعيب الذين اعترضوا على أوامر الله في الكسب، ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

ثم زعم بعضهم ـ تمشّياً مع فكرة الغرور تلك ـ أن هذه الليبرالية مع أختها الديمقراطية (التي هي في الحقيقة متناقضة معها) هي نهاية التاريخ في مجال النُّظم السياسية والاقتصادية، وأن العالم كله سائر في الطريق الذي رسمته له وسارت فيه الحضارة الغربية. لكن يُشكر للرجل أنه استثنى في كتابه المسلمين الذين قال: إنهم ما يزالون يتصورون أن لهم بديلاً هو خير من الليبرالية ومن الديمقراطية. ويشكر له ثانياً أنه تنازل عن تلك الفكرة السخيفة حين تبين له عورها.

وكما فسروا الليبرالية تفسيراً جعلها تؤدي إلى الرأسمالية فقد غلوا في تفسير ما تدعو إليه من حرية، وجعلوا أكبر همهم فيها حرية الفحش الجنسي الذي أدى فيما أدى إليه من إضعاف للأسرة، وانحدار عظيم في معدلات الإنجاب، حتى قال قائل منهم: إننا لم نعد نحتاج إلى عدو خارجي يهزمنا؛ بل نحن الذين نهزم أنفسنا بهذا النوع من الانتحار. وحتى قال كبيرٌ من كرادلتهم: «هل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش مقدارها بليون دولار لتكون ديمقراطية حقاً؟! وهل تحتاج إلى معدل إجهاض يبلغ عشرات الملايين؟!».

قال الكاردينال الأسترالي (جورج بل) هذا الكلام في محاضرة ألقاها بالولايات المتحدة يحذر فيها الغرب من أن الإسلام قد يكون هو البديل إذا لم يعدل الغرب من ديمقراطيته التي وصفها بالفارغة والأنانية[1]. بيد أنه رغم وجود أصوات معارضة

---

(1) http://www.theage.com.au/articles/2004/11/11/1100131136231.html?oneclick=true.

http://www.theage.com.au/articles/2004/11/11/1100131136231.html?oneclick=true.

كهذه فقد صارت الحرية الجنسية من أهم الحريات التي يتحدث عنها الغرب إن لم تكن أهمها.

الديمقراطية: في النظام الديمقراطي ـ كما هو مطبق في الدول الغربية ودول أخرى كالهند ـ محاسن كثيرة ولا سيما إذا ما قورن بنظم أخرى كالنظام الذي كان سائداً في الاتحاد السوفييتي. وككثير من النظم الدكتاتورية أو شبه الدكتاتورية التي ما تزال سائدة في بعض البلاد؛ أَعْمَتْ هذه المحاسن كثيراً من الناس عن أن أصل الديمقراطية أصلٌ شركي يعطي بعض البشر حق التشريع لبشر آخرين، مع أن هذا الحق إنما هو حق لله ـ تعالى ـ. ونسوا أن ما فيها من محاسن ليس بخاص بها وأن كثيراً منها ليس من لوازمها، ونسوا أنه ليس فيها محتوى خلقـي؛ وأنها لـذلك لم تمنع المستمسكين بها من الإقدام باسمها على استعمار الشعوب واحتلالها، واسترقاق أناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

العلوم الطبيعية: من المعلوم أن أحسن ما في الحضارة الغربية هو تقدمها الهائل في مجال العلوم الطبيعية وما بني عليها من تقنية، كانت هي سبب قوتهم الاقتصادية والعسكرية، ووسيلتهم إلى احتلال كثير من بلدان العالم.

ليس في هذه العلوم نفسها ما يجعلها متناقضة مع عقيدة التوحيد أو يدعو إلى فحش أو استكبار، لكنّ الغربيين ربطوا بينها وبين كل ذلك؛ بسبب قيمهم تلك المنحرفة:

١ ـ غرتهم معرفتهم بالسنن التي أودعها الله ـ تعالى ـ فيما أسموه بالطبيعة، ومعرفتهم لذلك بأسباب كثير من المسببات؛ فصار الغالب عليهم فصل هذا العلم عن الدين، واعتبار الطبيعة كوناً مكتفياً بنفسه، تفسر ظواهره الطبيعية بظواهر أخرى طبيعية، ولا

يجوز تفسيرها بأسباب خارجة عن هذا الكون، حتى صار هذا التفسير الإلحادي جزءاً من مفهوم العلم، كما قلت ذلك في عدة مناسبات وكتابات.

٢ ـ وغلا بعضهم فصار يعتقد أنه لا حق إلا ذلك الذي يأتي عن طريق منهج هذه العلوم؛ فأغراهم هذا بإنكار كل ما جاءت به الأديان اعتماداً على الوحي الإلهي.

٣ ـ بل إن بعضهم صار يستغل هذه العلوم لتأييد الميل إلى الفواحش التي منها فاحشة الشذوذ، وقالوا: إنها عند بعض الناس شيء فطري موجود في (جيناتهم!).

٤ ـ ثم ارتبط هذا التطور العلمي بالغرور الأوروبي؛ إذ اعتقدوا أنهم إنما سبقوا غيرهم فيه بسبب عقلانيتهم التي ورثوها عن اليونان، وأن غيرهم لم ينجز ما أنجزوا؛ لأنهم ذوو تفكير خرافي.

٥ ـ وقد زاد من فتنتهم بهذا تخلفُ المسلمين في هذه المجالات، تخلفاً بدؤوا يعزونه إلى الدين الإسلامي، ويقول بمثل قولهم فيه بعض المرتدين من المنتسبين إليه.

طبيعة القيم الغربية:

كيف صارت تلك المصادر والمكونات المتنافرة شيئاً واحداً يسمى بالقيم أو الثقافة الغربية؟

١ ـ صارت كذلك أولاً لسببٍ ذكرناه سابقاً: وهو كونها كلها جزءاً من تاريخهم الذي ما يزالون يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم، والذي ما يزالون يكتبون عنه ويتأثرون به.

٢ ـ وصارت كذلك؛ لأنه ما من مكَوَّن من مكوناتها إلا وله أنصار كبار من المفكرين أو من الجماعات أو الأحزاب.

وصارت كذلك؛ لأن العلمانية ـ وهي امتداد للشرك الموجود في تلك العناصر التي ذكرناها كلها ـ قد صارت هي الثقافة الطاغية التي يعاد تفسير العناصر الأخرى ـ بما فيها العناصر الدينية ـ لموافقتها. وصارت هذه الأديان تُمدح ويُتسامح معها بقدر تصالحها مع العلمانية وخدمتها لها. فها هو الفيلسوف الألماني الشهير (هابرماس) المعروف بعلمانيته. يقول: إنّ النصرانية لا غيرها هي الأساس النهائي للحرية والضمير وحقوق الإنسان والديمقراطية، وهذه هي أهم معايير الحضارة الغربية(1).

وقبل قرن كتب عالم الاجتماع الألماني (ماكس فبر) كتابه الشهير عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية.

والنصارى بدورهم صاروا يفسرون الدين تفسيراً يتوافق مع أهواء عصرهم. فأكثر كُتّابهم اليومَ لا ينكرون الشذوذ، ويفسرون قصة قوم لوط وما حصل لمدينتهم (سدوم): إما بأنها قصة مجازية، أو أن الذين أنكروا هذا الفعل من كتاب البايبل كانوا متأثرين بثقافة عصرهم.

٣ ـ ولأن الفكر العلماني وما يستتبعه من قيم صار هو الفكر الطاغي الذي يمثل الإطار العام للثقافة الغربية وقيمها؛ فقد أضحت الخلافات خلافات في داخل هذا الإطار فلم تعد ذات خطر. ولذلك نجِدُ الملحد والنصراني أستاذين في كلية واحدة، ونجد الشاذ وغير الشاذ جنديين في جيش واحد، وصار النساء كلهن يتبعن مظهراً واحداً، وهكذا.

---

(1) http://www.cathnews.com/news/411/131.php

٤ ـ قد يقول قائل: إننا نجد أمثلة لما عزوته إلى الحضارة الغربية في كـل الأمــم بما في ذلك الأمة الإسلامية؛ فما الذي يميز القيم الغربية في هذا عن غيرها؟! نقول: إنه مما لا شك فيه أنه لا تكاد تخلو أمة حتى من فاحشة الشذوذ بعد أن سنّها قوم لوط، وأن الشعور بالكبر قد يكون أيضاً طابعاً لأمة لا تنتمي إلى الحضارة الغربية، وأن الشرك موجود حتى بين المنتسبين إلى الإسلام؛ لكننا نقول أيضاً: إن هنالك فـرقاً بـين أن يكـون الـزنى، أو الشـذوذ، أو الجهر بالسوء من القول في نظر الأمة جريمة أو ذنباً يستنكره مجتمعها ويعاقب عليه قانونها، وأن يكون أمراً مقبولاً لا يستنكره مجتمع ولا يعاقب عليه قانون، وإنْ استنكره بعض الأفراد. هذا الأخير هو ما تمتاز به القيم الغربية الآن متأثرة بتاريخها ذلك. لقد أصبح المستنكَر فيهــا ـ وربما كان المعاقَب عليه فيها ـ هو استنكار الفحش ولا سيما فاحشة الشذوذ. فهذا الكاردينال (راتزنجر) الذي صار البابا الحالي يشكو من أن أحد القساوسة البروتستانت سُجن لمدة شهر في السويد؛ لأنه أنكر الشذوذ الجنسي استناداً إلى حجج من كتابهم المقدس!

٥ ـ هذه العناصر ـ ولا سيما عنصر الكبر ـ هي التي زيّنت للغربيين احتلال الشعوب الأخرى، واسترقاق بعض أهلها. لقد كانت الحركة الاحتلالية حركة اشترك فيها، أو شجّعها، أو وافق عليها؛ قادة الثقافة الغربية كلهم إلا ما ندر. لم تكن حركة سياسية فحسب؛ وإنما كانت حركة اشترك فيها الكُتّاب والشعراء والفلاسفة ورجال الدين، كما بيّن بعض ذلك إدوارد سعيد في كتابه عن الثقافة والاستعمار.

ما العمل؟

إننا إزاء تحدٍّ كبير على ديننا وأمتنا؛ فماذا نحن فاعلون؟ ليس هذا بالسؤال الذي يختص بالإجابة عنه فرد واحد؛ لأنه سؤال للأمة كلها: علمائها، وزعمائها، وعامتها. فالإجابة التي أقترحها إنما هي جهد فرد مقلّ من أفراد هذه الأمة.

أرى:

أولاً: أن ننأى بأنفسنا عن مشاعر الحزن والضيق والأسى فإنها مشاعر سلبية لا تحل مشكلة خارجية، وإنها تنشئ مشكلات نفسية. وما أكثر ما يحذرنا كتابُ ربِّنا من أمثال هذه المشاعر السلبية! وما أكثر ما يُذكرنا علماؤنا الأفاضل بهذه المعاني القرآنية! فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في معرض تعليقه على حديث «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»: وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغيُّر كثير من أحوال الإسلام جزع وكلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب. وهو منهي عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى.

ثانياً: أن نكون على يقين بأن مداهنة أعداء الحق ومحاولة إرضائهم بالاستجابة لمطالبهم - وهي مطالب قديمة - بتغيير هذا الدين وإعادة تفسيره بما يتناسب مع أهوائهم المعاصرة، أن هذا فوق كونه خيانة علمية؛ فإنه لن يجدي شيئاً في حل المشكلة. نعم! إن الأعداء سيرضون عن كل محرف للدين بمقدار تحريفه؛ لكن هذا التحريف لن يزيدهم إلا شراً؛ إذ يرون أن المسلم المحرف يقترب منهم مع أنهم ثابتون في مكانهم؛ فيطمعون منه ثم من غيره في قرب أكثر، ويحاولون أن يجعلوا منه وسيلة للكيد من غيره من إخوانه المسلمين. لكن القاعدة هي ما قال الله - تعالى - عن كل من زين له عمله: أنه لن يرضى عنك رضى كاملاً إلا إذا اتّبعت ملّته: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٩].

ثالثاً: إن الرؤساء الغربيين يصرحون بأن الحرب على ما يسمونه بالإسلام الراديكالي حربان: حرب أيديولوجية، يقولون: إنها لكسب العقول والقلوب، وحرب سنانية تساعد على تحقيق أهداف الحرب الأيديولوجية. أما نحن فما نزال منتصرين فيما أسموه بالحرب الأيديولوجية. إن ديننا هو الذي يزحف نحوهم ويكسب كل يوم من عقولهم وقلوبهم، وإن أديانهم وقيمهم وأيديولوجياتهم هي التي تولّيه الأدبار. وهذا أمر يدعونا إلى المضيّ، لا إلى التواني في نصرة ديننا بالحجج العقلية والعلمية والمعايير الخلقية. إن مشكلتنا هي في الحرب السنانية؛ لقد فرطت أمتنا في الأخذ بالأسباب العصرية لاكتساب القوة التي دعاها ربها إلى إعدادها. لقد آن الأوان لأن نبذل جهوداً كبيرة في اكتساب العلوم الطبيعية المرتبطة بالتقنية والمساعدة على اكتساب القوة الاقتصادية والعسكرية. ويجب أن تكون هذه الجهود على مستويين: مستوى شعبي عام ينشر مبادئ هذه العلوم بين الناس ويجعلها جزءاً من ثقافتهم الشعبية، ومستوى تخصصي تتعاون فيه الدول العربية على الأقل، حتى يكون لنا علماء مبرزون مكتشفون ومخترعون ومنظرون في كل المجالات المرتبطة بالتقدم التقني.

إننا لا نريد أن نكون أقوياء لنعتدي على غيرنا، وإنما لنرهب ونردع من تحدثه نفسه بالاعتداء علينا. إننا نعلم أن السِّلم في مصلحتنا، نعلم هذا من ديننا ومن تجاربنا، فنحن حريصون عليه، واثقون بأن عاقبته خير إن شاء الله.

رابعاً: بما أن الغرب ليس كله كتلة واحدة صماء معادية للإسلام، بل فيه جاهلون بهذا الدين، وفيه مغررون، وفيه منصفون مدافعون عن حقوق الناس، وفيه عقلاء يرون أنه ليس من مصلحتهم شنّ حروب شاملة دعائية كانت أو قتالية على الثقافات الأخرى، وفيه... وفيه...؛ فيجب عند المعاملة ألّا نشمل الجميع بخطاب واحد لا يميز

بين محق ومبطل، ومتعدٍّ ومنصف. إن التفرقة بين هذه الأصناف، ومعاملة كلٍّ بحسب موقفه، أمرٌ يتطلبه العدل الذي يقوم عليه بنيان الدين الحق، ثم إنه سياسة مربحة تؤدي إلى نتائج أفضل.

خامساً: لكن التقدم الحقيقي لأمتنا لا يكتمل إلا بتقدم آخر لا يحتاج منا إلى جهد كبير. فكما نأخذ بوسائل عصرنا في التقدم العلمي التقني، فكذلك يجب أن نعتبر مقتضياته في الإصلاح السياسي. إننا لا نريد أن نكون أمة تابعة تترك الأصالة لغيرها ثم تقلده في كل ما رآه مناسباً له من مؤسسات ومبادئ وأسماء. نريد أن نكون أمة أصيلة تؤمن بأن كتاب ربها هو دستورها الأعلى، ثم تأخذ منه المبادئ السياسية العامة، ثم تنشئ لنفسها من المؤسسات ما يناسب تلك المبادئ من مؤسسات تتناسب مع عصرها. إن كل من له أدنى معرفة بالإسلام يعلم أن مبادئ مثل: حكم القانون، والشورى، واختيار الحكام، وحرية الرأي وحقوق الإنسان، التي صار الناس يربطونها بالديمقراطية، هي مبادئ إسلامية بيّنتها النصوص، وطبّقها النبي وخلفاؤه الراشدون.

وإذا كان مثل هذا الإصلاح أمراً يستوجبه ديننا وتستدعيه ظروفنا؛ فإنه أيضاً أمر لازم لتحسين صورتنا العالمية التي صارت ترتبط في أذهان الكثيرين، ولا سيما في الغرب، بالدكتاتورية والفيودلية والثيوغراطية، ويقال عن جهل أو سوء قصد: إنها من تعاليم ديننا.

مفهوم اليُسْر في الإسلام

(البيان ٢٣٥ - ربيع الأول ١٤٢٨ هـ - مارس ٢٠٠٧م)

اليُسْر مقصد من مقاصد الدِّين الكبرى، جعله الله - تعالى - أساساً لكل ما أمر به ونهى عنه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وأمرنا أن نلتزمه في فهمنا للدين والعمل به والدعوة إليه؛ فقال - تعالى -: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال ﷺ: «إن خير دينكم أَيْسره، إن خير دينكم أَيْسره، إن خير دينكم أَيْسره» وفي لفظٍ: «إنكم أمة أُريد بكم اليُسْر»[١].

ولكن ما معنى أن يكون الدِّين يسراً؟ إن آية اليُسْر نزلت تعليلاً لأمره - تعالى - بالفطر للمريض والمسافر. ولكن هل الصيام نفسه الذي وردت بمناسبته قاعدة التيسير شيء لا مشقة فيه؟ ماذا لو قال إنسان: لو كان الصيام نصف شهر لكان أيسر، ولو كان أقل من ذلك لكان أكثر يُسْراً، بل لو لم نُؤمر بالصيام لكان اليُسْر كله؟!

(١) أخرجه الإمام أحمد بسندٍ صحيح.

وما يُقال عن الصيام يُقال عن سائر ما أمر الله - تعالى - به من صلاة وصيام وحج وزكاة وجهاد بالمال والنفس؛ إنها كلها تكاليف فيها شيء من مشقة؟ فلو كان معنى التيسير: أن لا يُؤمر الناس بشيء فيه أدنى مشقة؛ لما كان هنالك تكليف بصلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد؛ لأن فعل ما لا مشقة فيه ألبتة أَيْسر - فيما يبدو لأول وَهْلَة - مما في فعله أدنى مشقة.

فما المقصود باليُسْر إذاً؟ معناه فيما يبدو لي: فعل ما يحقق الغاية بأدنى قدر من المشقة، مثلاً: إذا كان لا بد لك من وسيلة للكسب تحفظ لك ماء وجهك وتغنيك عن السؤال وتوفر لك ما تحتاج إليه من طعام ولباس وسكن وزيادة توفر بعضها وتتصدق ببعض؛ فإن خير وسيلة هي عمل يحقق لك كل هذا بأدنى قدر من المشقة. فإذا قال لك الشيطان: لكن عدم الكسب أَيْسر من أية وسيلة فيها شيء من مشقة، ولذلك فإن الأفضل لك أن لا تعمل إطلاقاً.. ستقول له - إن كنتَ عاقلاً -: هذا صحيح بادئ الرأي أيها الخبيث! لكن انظر ماذا سيترتب على البطالة، إنها ستجعل حياتي أعسر نفسياً وربما جسدياً؛ فعملي رغم ما فيه من مشقة هو في النهاية أَيْسر من البطالة التي يبدو أنه لا مشقة فيها.

وكذلك الأمر بالنسبة للدِّين؛ فما يأمرنا الله - تعالى - به هو أعمال تحقق غايات ضرورية لنا، غايات لا تكون لنا سعادة إلا بها، ولكنها باعتبارها أعمالاً فلا بد أن تتضمن شيئاً من الجهد والمشقة، لكن الله - تعالى - الخالق لكل شيء، المحيط علماً بالوسائل والغايات، الرحيم بعباده، يختار لنا أسمى الغايات، ثم يدلُّنا إلى أحسن الوسائل التي تحققها بأدنى مشقة، كما قال الله - تعالى - في أول آية علّل بها أمره بالصيام: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالغاية المطلوب الوصول إليها هي التقوى، والوسيلة إليها التي لا وسيلة غيرها لتحقيق هذا النوع من التقوى هو صيام شهر رمضان.

وعليه؛ فيمكن تقسيم الأعمال بالنسبة لغاياتها ووسائلها إلى أربعة أنواع:

أحسنها: غاية حسنة ووسيلة ميسرة، وهذا هو الذي اختاره الله ـ تعالى ـ لعباده.

وأسوؤها: غاية سيئة ووسيلة شاقة، من أمثلتها: محاربة الكفار للمسلمين، وبذلهم أموالهم وأنفسهم في سبيل ذلك. ومنها: ما يتظاهر به المنافق من صلاة وصوم وحج وزكاة وربما جهاد.

في مثل هذا العمل قالت العرب: لحم جمل غَثٌّ، على رأس جبل وَعْرٍ، لا سمين فيُشْتَهى، ولا سهل فيُرْتَقى.

وأقل منه سوءاً: غاية سيئة ووسيلة سهلة.

وأحسن من هذا: غاية حسنة ووسيلة عسرة. وهذا يشمل كل ما خالف السُّنّة من أنواع الأعمال الصالحة.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: مَا زِلْتِ عَلَى الحال الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[1].

---

(١) صحيح مسلم: ١٣ / ٢٥٨.

فالحديث يدل على أنه بالاقتداء بالنبي ﷺ في عبادته يحصل الإنسان بالعمل القليل في الوقت القصير على الأجر الكبير. فيا خسارة الذين يستبدلون بأذكار النبي ﷺ أذكاراً اخترعوها أو اخترعها لهم سادتهم، إنها في أحسن أحوالها جهد كبير وأجر قليل. ولذلك كان عدد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يقول: اقتصاد في سُنّة خير من اجتهاد في بدعة. أما إذا كانت تتضمّن شركاً أو شيئاً حراماً فإنها قد تكون من النوع الذي قال الله ـ تعالى ـ فيه: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً** ﴾ [**الغاشية**: ١ – ٤].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [**الفرقان**: ٢٣].

وإذاً؛ فالدِّين كله يُسْر بهذا المعنى الذي ذكرناه. قال سماحة الشيخ صالح بن حميد في خطبة له جامعة عن اليُسر[1]: والتيسير مقصد من مقاصد هذا الدِّين، وصفة عامة للشريعة في أحكامها وعقائدها، وأخلاقها ومعاملاتها، وأصولها وفروعها؛ فربُّنا بمنِّه وكرمه لم يكلِّف عباده بالمشاقّ، ولم يردعنا كالناس، بل أنزل دينه على قصد الرِّفق والتيسير.

شريعة الله حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، فلله الحمد والمنّة.. ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [**البقرة**: ١٨٥]، ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ [**النساء**: ٢٨]، ﴿ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [**الحج**: ٧٨].

والتيسير له معانٍ أخرى، منها: أن الله ـ تعالى ـ لا يكلِّف الناس بما يطيقون، بل بما هو في وُسْعهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وتأمَّل قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾، كيف تجد تحته أنهم في سِعَة ومنحة من تكاليفه، لا في ضيق

---

(١) اقرأها أو استمع إليها في شبكة المشكاة.

وحرج ومشقة؛ فإن الوُسْع يقتضي ذلك؛ فاقتضت الآية أن ما كلَّفهم به من غير عُسْر لهم ولا ضيق ولا حرج، بخلاف ما يقدر عليه الشخص؛ فإنه قد يكون مقدوراً له ولكن فيه ضيق وحرج عليه. وأما وُسْعه الذي هو منه في سِعَة فهو دون مدى الطاقة والمجهود، بل لنفسه فيه مجال ومتّسع)[1].

ومنها: أن العمل وإن كان فيه مشقة إلا أن الله ـ تعالى ـ يجعله سهلاً بطرائق كثيرة، منها: أنه يغير طبيعته الشاقة فيجعلها سهلة، كما ذكر الشيخ بالنسبة للقرآن الكريم ذكراً وتدبُّراً وفهماً.

ومنها: أن يجد المؤمن في العمل لذّة روحية، حتى إنه ليكاد ينسى ما فيه من مشقة.

وإذا حلّت الهداية قلباً

نشطت للعبادة الأعضاءُ

ومنها: أن يريد المؤمن تحقيق غاية يحبها لكنه يعلم أنها لا تتحقق إلا بعبادة معينة فيحرص عليها طلباً لتلك الغاية المحبوبة فتهون عليه؛ كما في قوله ـ تعالى ـ عن الصلاة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

«وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاهُ قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ! أَفَلا أَكُونُ

(١) الفتاوى: ج١٤، التفسير الجزء الأول، ص ١٣٧ـ١٣٨.



عَبْداً شَكُوراً»[1].

فحرصه ﷺ على شكر ربه ـ وهو شعور له لذّة لا تعدلها لذّة ـ هو الذي يسَّر له هذا العمل الذي يبدو شاقّاً.

ومنها: أن الله ـ تعالى ـ قد يزيل مشقات العمل حتى لا يكاد يبقى منها شيء؛ فأشق شيء على الإنسان أن يُقْتل لكن رسول الله ﷺ يقول: «ما يجد الشهيد من مسِّ القتال إلا كما يجد أحدكم من مسِّ القرصة»[2].

وعليه؛ فإذا كان الله ـ تعالى ـ قد تكفَّل بتسهيل العمل بما أنزل من أمر ونهي؛ فكذلك يجب أن نفهمه ـ نحن ـ في ممارستنا له. ولذلك قال ﷺ في الحديث الصحيح مشيراً إلى هذه الممارسة: «إن هذا الدِّين متين؛ فأوغلوا فيه برفق». وقال: «إن خير دينكم أَيْسره، إن خير دينكم أَيْسره، إن خير دينكم أَيْسره»، فعبارة «خير دينكم» هي إشارة إلى الدِّين الممارس لا الذي أنزله الله ـ تعالى ـ، فإن ذلك ميسّر في أصله لا يحتاج إلى أن ييسّره إنسان.

ومن أحسن ما قرأت تطبيقاً لهذه الأحاديث ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه قال: حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن الأزرق بن قيس قال: (كنا على شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء، فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس فصلّى وخلّى فرسه، فانطلقت الفرس، فترك صلاته وتبعها حتى أدركها، فأخذها، ثم جاء فقضى صلاته، وفينا رجل له رأي، فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ، ترك صلاته من أجل فرس، فأقبل فقال: ما عنّفني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ، وقال: إن منزلي متراخٍ، فلو صليت وتركت لم آتِ أهلي إلى الليل، وذكر أنه صحب النبي ﷺ فرأى من تيسيره).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال: حديث حسن صحيح.

لكنَّ فعل (أبي برزة) يختلف عما يفعله بعض الناس الآن في اختيارهم لما يختارون من الأقوال التي اختلف فيها العلماء. يقول أحدهم لنفسه: ما دام الدِّين يسراً فإنني سأختار ما أراه أسهل عليّ أو على الناس، ثم يبدأ ينظر في الأقوال بهذا المعيار فيقول ـ مثلاً ـ: قول الحنفية هذا صعب، لكن قول الحنابلة أصعب، أما قول المالكية فسهل، وأسهل منه قول الشافعية، وأسهل من هذا كله قول العالم الفلاني الذي خالفهم جميعاً، فأنا آخذ به.

إن المنهج الصحيح هو أن يقول الإنسان لنفسه: ما دام دين الله كله يُسْراً فسأختار ما أراه بأدلّته أقرب إلى الشرع؛ لأن الأقرب إلى الشرع هو الأقرب لتحقيق الغاية بأدنى مشقة.

قد يقول قائل: أليس هذا الذي انتقدتَ منهجه متأسياً بالنبي ﷺ في أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أَيْسرهما؟ يقال له: نعم إذا خُيِّر كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾ [**البقرة**: ١٩٦].

والتخيير معناه أن كل واحد من الأمور المخيّر فيها يؤدي الغرض المطلوب، لكن بعضها قد يكون أَيْسر على الإنسان من بعض، فيختاره. لكن ما نحن في صدده لا علاقة له بالتخيير، بل المطلوب فيه معرفة حكم الله ـ تعالى ـ في الأمر الذي اختلفت فيه الأقوال أو الاجتهادات؛ لأنها إذا تناقضت فلا يمكن أن يكون كل واحد منها صحيحاً مؤدّياً الغرض. نعم؛ إذا استوت الأدلة ولم يمكن ترجيح بعض الأقوال على بعض، فإن الأخذ بالأَيْسر يكون منهجاً صحيحاً.

لكن رغم هذا فقد يحدث التعسير في الدِّين شرعاً أو قدراً، ويكون عقاباً من الله ـ تعالى ـ لبعض الناس. مثال التعسير شرعاً: ما قال الله ـ تعالى ـ فيه: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾.

[النساء: ١٦٠].

وأما التعسير القدري فيكون بسبب سوء فهم بعض الناس للدِّين وإلزامهم أنفسهم بما لم يلزمهم به الله ـ تعالى ـ من أنواع العنت. وهذا هو الذي يحدث لأناس من هذه الأمة التي اختار الله لها الحنيفية السمحة والتي قال الله ـ تعالى ـ عن رسولها: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذا العنت القدري العقابي هو الذي يدعو المسلمُ ربَّه أن يعيذه منه: ﴿ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

المعتقدات والمصالح

(البيان ٢٣٧ - جمادى الأولى ١٤٢٨ هـ - مايو ٢٠٠٧م)

قال صحافي ومحلل سياسي عربي كبير: إن السياسة الخارجية الأمريكية تقوم على المصالح وأنها لذلك لا تتغير، وكأنه كان يعني أن أيديولوجيات الساسة الحكام لا تغير من هذه الحقيقة. كثيراً ما نسمع مثل هذا الكلام الذي يفرِّق أصحابه بين المعتقدات والمصالح، وكثيراً ما يقصدون به التقليل من قيمة المعتقدات. لكن الحقيقة أن هنالك صلة قوية بين الأمرين؛ فالمعتقدات والتصورات هي العدسات التي ينظر الناس بها إلى الأمور فيقررون ما هو مصلحة للوطن وما ليس بمصلحة؛ فالشيء الواحد قد يبدو مصلحة بمنظار اعتقادي معين ويبدو مفسدة بمنظار آخر.

هل من مصلحة أمريكا أن تنحاز لإسرائيل وتعدها كأنها ولاية من ولاياتها التي لا قيام لها بنفسها والمحتاجة دائماً إلى مساعدة يتكلفها دافع الضرائب الأمريكي؟ إذا نظرت إلى الأمر من ناحية المصلحة المادية - كما يفعل بعض الأمريكان الآن - فإنك ستقول: إن هذا الموقف ليس من مصلحتها؛ بل إن مصلحتها في أن تصادق العرب الذين هم أكثر عدداً، وأعظم سوقاً، وأكثر موارد طبيعية. لكن سياسياً كبوش وإن سلم

لك بذلك قد يقول ـ بناء على معتقده ـ: لكن أمريكا بلد نصراني ونحن نعيش في زمان أظله ظهور السيد المسيح، ونحن نعلم أنه سيظهر في هذه المنطقة؛ فمن مصلحتنا أن نهيئ الجو لظهوره. وهذا لا يكون إلا بالانحياز لإسرائيل حتى لو كان انحيازاً على حساب بعض المصالح المادية التي ذكرتها.

ولولا أن المعتقدات ذات تأثير كبير على نظرة الناس إلى المصالح لما تعددت الأحزاب والجماعات في البلد الواحد؛ فالإنجليزي أو الأمريكي الذي ما يزال يؤمن بالاشتراكية أو ببعض جوانبها يرى من مصلحة وطنه أن يتبنى سياسة تحدُّ من غلواء الرأسمالية، ويبني على ذلك تصوره لسياسات عملية تحقق هذه الفكرة. أما أنصار الفكر الرأسمالي فيرَون أنه لا طريق غيره إلى نهضة اقتصادية يستفيد منها كل المواطنين مهما أدت إلى تفاوت شاسع في نصيبهم من الثروة.

ولأن كثيراً من الناس يتصورون المصلحة تصوراً يجعلها مستقلة عن المعتقدات؛ فإنهم يفترضون أن ما يسمى بالمصلحة الوطنية هو شيء واحد يشترك في رؤيته كل المواطنين بغضِّ النظر عن معتقداتهم. فكما أن اختلافاتهم الاعتقادية لا تجعلهم يختلفون في رؤيتهم للشمس والقمر والجبال والأشجار؛ فكذلك لا تمنعهم من الاتفاق على ما هو مصلحة للوطن.

مما لا شك فيه أن هنالك مصالح ظاهرة قد يراها كل الناس رؤية واحدة بغضِّ النظر عن معتقداتهم؛ فكل الناس يتفقون الآن فيما يبدو ـ إن صح قول العلماء ـ على أن ما تنفثه المصانع والسيارات من غازات قد أثَّر على طبقة الأوزون، وأن هذا قد أدى إلى زيادة في درجات الحرارة العالمية، وأن هذا الأمر إن لم يُتدارَك فسيؤدي إلى ذوبان الجليد، ومن ثم إلى زيادة مياه البحار وما ينتج عن هذا من فيضانات ستغرق بسببها بلاد كثيرة.. أقول: إن هذا أمر قد يتفق الناس على كونه ضاراً إن حدث.

أقول (قد) لأن مؤلفاً أمريكياً[1] يقول: إن من يسميهم بغلاة النصارى ـ الذين يمثلون ما يقارب الأربعين بالمئة من أنصار بوش ـ يرون في كوارث مثل: تسونامي، وارتفاع درجات الحرارة، ومشكلات الطاقة والديون الأمريكية، والنزاع بين العرب الدولة الصهيونية، وغزو العراق، يقول: إنهم يرون في كل هذا مبشرات بقرب مجيء المسيح. فهي إذن ليست بالشيء الذي يسوؤهم أو الذي يحاولون تغييره.

لكن ما كل ما يُعَدُّ مصلحة أو مفسدة هو من هذا النوع الذي قد تراه كل النظرات الأيديولوجية رؤية واحدة.

ما النظام الاقتصادي المناسب للبلد؟ ما نوع التعليم المفيد لأبنائنا؟ ما الأقطار التي يجب أن نحسن علاقاتنا بها؟ إلى أيِّ مدى تتاح حرية التعبير، وحرية الحركة، وحرية الاعتقاد، وحرية التنظيمات والاجتماعات، وحرية العلاقات الجنسية، وحرية التجارة؟ هذه وأمثالها من الأمور التي لا يتوقع اتفاق كل المواطنين عليها إذا كانت بينهم اختلافات أصولية دينية أو مذهبية أو فلسفية؛ إذا كان بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى وبعضهم علمانيين؛ بل حتى إذا كان بعضهم شيعة وبعضهم سنة. إنه ليس في الانتماء إلى الوطن أيّاً كان نوعه، وليس في الإخلاص له مهما كان قدره، ما يحتم على المواطنين إجابة معينة عن تلك الأسئلة، بل إن أجوبتهم عليها لا بد أن تتأثر بمعتقداتهم وتصوراتهم.

إن المواطَنَة ليست مجرد انتماء شكلي إلى أرض يحدها من الشمال كذا ومن الجنوب كذا ومن الشرق كذا ومن الغرب كذا. هذا انتماء حيواني يستوي فيه البشر والبقر والوطن والزريبة. إن المواطنين بشر لا بقر؛ بشر لهم قيمهم وتصوراتهم ومعتقداتهم

(1) and in many other pages.. Kevin Philips, American Theocracy, Viking, 2006, pp 66-7.

واهتماماتهم التي تتجاوز حدود الحاجات المادية. والوطن ليس زريبة، وإنما هو مأوى قومٍ حَدَثَ بينهم قدرٌ كبير من التجانس في القيم حتى صار من الممكن وصفهم في الجملة بخصائص معينة تميزهم عن غيرهم.

غير ذلك كان يقال لنا إلى زمان قريب، وكان يظن كثير منا بسببه في سذاجة أن الديمقراطية تسوي بين المواطنين بغضِّ النظر عن أعراقهم وألوانهم ومعتقداتهم وقيمهم، بل تعدهم جميعاً مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، وتحل مشكلة اختلافاتهم في المعتقدات والقيم والفلسفات بصناديق الاقتراع. لكننا نرى اليوم كيف أن الغرب يضيق بالمواطنين المسلمين مع أنهم قلة، وكيف أنهم صاروا يطالبونهم بأن يجعلوا إسلامهم إسلاماً فرنسياً أو إنجليزياً أو أمريكياً، وكيف بدؤوا يتحدثون عن قيمهم الغربية ويعتزون بها ويدافعون عنها ويدَّعون تفوقها على القيم الإسلامية، ويطلبون ممن لا يشاركهم فيها ألاّ يشاركهم في الوطن الذي يعدونه في أساسه وطناً لأصحاب تلك القيم. والذين يعرفون الديمقراطية يعرفون أن هذا ليس بالشيء الجديد عليها، بل كانت كذلك منذ نشأتها في أثينا، ومنذ أن عادت إلى أوروبا وأمريكا. إنها لم تكن أبداً ديمقراطية لكل الناس مهما كانت الخلافات بينهم؛ إنها اليوم ديمقراطية علمانية ليبرالية لا مكان فيها لمن لا يلتزم بهذه القيم. سيقول الذين لا يعلمون: كيف وهم لا يمنعون أحداً من دخول مجالسهم التشريعية حتى لو كان مسلماً؛ كما نرى اليوم في بريطانيا والولايات المتحدة؟ نعم؛ إنهم يفتحون الباب لكل أحد ولكن بشرط أن يكون ملتزماً بتلك القيم السياسية. ولكن حتى هذا لن يدوم طويلاً إذا ما بدأ المسلمون يكثرون ويزداد تأثيرهم. لقد كانوا إلى وقت قريب يتحدثون عن المجتمع المتعدد الثقافات؛ أما اليوم فقد كثر الحديث عن ضرورة التجانس والتلاحم، ويعنون به التلاحم الثقافي. وصاروا يأخذون

بسبب ذلك على المسلمين؛ لِكون دينهم يمنعهم من مثل هذا الذوبان في مجتمع غير مسلم، ويجعلهم يعيشون في عزلة اختيارية عنه.

نعم؛ إن الوطن يكون أكثر استقراراً، وأكثر قدرة على التطور وعلى الدفاع عن نفسه كلما كان أكثر تلاحماً وكلما قلّت الخلافات الأصولية بين مواطنيه، لكن ما كل اتفاق على مبدأ أو ثقافة ـ أيّاً كانت ـ هو مما ينتج هذا التلاحم. بل إن بعض المعتقدات والثقافات من شأنها أن تحدث هي نفسها عداوة بين المنتمين إليها.

ونعم؛ إن الاتفاق على معتقد معين حتى لو كان عبادة للأوثان ينتج ما يسميه القرآن الكريم مودة بين المعتقدين، وقد يدعوهم لأنْ يتحدوا في مواجهة ما يعدونه خطراً عليهم أجمعين.

بيد أن الذي يُحدِثُ التلاحمَ الحقيقي بين الناس ويجعل منهم إخوة متحابين هو المعتقد الحق الذي لا تناقض فيه. أما المعتقدات الباطلة المتناقضة فمن شأنها أن تفرق هي نفسها بين المنتمين إليها، حتى إنك لتحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى. ولذلك قال أحد السلف (أهو مجاهد؟) مفسراً كثرة الانشقاقات بين الخوارج: «لقد كان أمر الخوارج باطلاً فاختلف، ولو كان حقاً لأْتَلَف» أو كما قال.

نحن لا ندعو إلى ما يدعو إليه الغربيون من إجبار كل الناس على الالتزام بالقيم السائدة في المجتمع؛ فقد تسامحت مجتمعاتنا الإسلامية كلها مع اليهود والنصارى وسمحت لهم أن يعيشوا بين ظهراني المسلمين. إن المهم لاستقرار المجتمع أن تكون هنالك ثقافة غالبة تبنى عليها السياسات الاقتصادية والسياسية والتربوية التعليمية والخارجية وغيرها.

ولذا؛ فإن علينا أن نرفض رفضاً باتاً ما يدعونا إليه الغربيون (مما يفعلون عكسه في بلادهم) من جعل مجتمعاتنا ممزقة بين معتقدات دينية وعلمانية متناقضة متحـاربة، لا يكون معها استقرار ولا تطور، بل تظل نهباً لكل طامع.

علاقة العلم بالدين

(البيان ٢٣٨ ـ جمادى الآخرة ١٤٢٨ هـ ـ يوليو ٢٠٠٧م)

المعاني أهم من الألفاظ. لكن المعاني لا تأتينا مجردة إنما تصل إلينا محمولة على ألفاظ؛ فإذا ما عزونا إلى الألفاظ معاني غير التي تحملها، أو غير ما تعنيه في سياق معين، حصل خلط في فهمنا للحقائق أو في تصورنا لها. لذلك كانت العناية بالألفاظ أمراً ضرورياً لحماية المعاني.

من أسوأ ما رأيت من أنواع هذا الخلط اللفظي ما حدث للفظي (العلم) و (المعرفة) في لغتنا العربية الحديثة؛ وذلك أنه عندما ظهر العلم التجريبي الطبيعي في أوروبا أرادوا تمييزه عن العلم الذي تدل عليه كلمات مثل كلمة (نولج knowledge) في اللغة الإنجليزية، فاختاروا له لفظة تدل عليه بخصوصه وتميزه عن العلم بصفة عامة هي لفظة (سيَنس science) ذات الأصل اللاتيني.

لكن المترجمين العرب فعلوا العكس تماماً، عمدوا إلى أكثر الكلمات دلالة على العلم بصفة عامة وأعطوها هذا المعنى الخاص، فصارت كلمة (علم) تعني (سيَنس). ثم أرادوا أن يميزوا بين هذا المعنى الخاص والمعنى العام فعمدوا إلى كلمة

أخرى هي كلمة (معرفة) فأعطوها المعنى العام الذي تدل عليه كلمة (نولج). هذا مع أن كلمة (معرفة) أخص من كلمة (علم). لذلك قال أهل اللغة: إن كل معرفة علم، ولكن ما كل علم معرفة. وقالوا: إنه بينما يوصف الخالق ـ سبحانه ـ بالعلم؛ فإنه لا يوصف بالمعرفة.

أدى العبث بمعاني هذه الألفاظ المهمة إلى خلط تصوُّري عظيم ولا سيما في العلاقة بين العلم والدين. إن كلمة (العلم) من أهم الكلمات القرآنية وأكثرها وروداً في الكتاب العزيز، لكنها عندما أُعطيت ذلك المعنى الخاص ـ معنى كلمة سينس ـ حدث لَبْسٌ عظيم من أمثلته: أننا صرنا نسمع بعض الناس يقولون: هذه مسألة علمية لا دينية.

بل سمعنا من يقول: إن القرآن كتاب هداية لا كتاب علم.

ثم أدى هذا إلى شنائع أخرى هي أنه في سبيل الدعاية للعلوم الطبيعية وبيان أهميتها وعدم مخالفتها للدين صار كثير من المتحمسين لها من أهلها ومن غير أهلها يستدلون على أهميتها بآيات مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٧ – ٢٨].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [المجادلة: ١١].

(علمية لا دينية) وهل يقوم الدين الحق إلا على الأدلة العلمية: على الآيات البينات، والبراهين الساطعات، والحجج القاطعات؟ وإذا كان الدين كله بمعزل عن العلم

فلا مجال لتمييز دين حق منزل من السماء عن دين باطل خرافي من اختراع البشر. وإذا كانت هذه هي النتيجة التي يريد أن ينتهي إليها أعداء الدين ولا سيما في البلاد الغربية؛ فما بال المستمسكين من المسلمين بدينهم الحق؟

(كتاب هداية لا كتاب علم) يا ليت شعري! وهل تكون الهداية إلا على أساس علمي؟ ألم يقل الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الحج: ٥٤].

فجعل الإيمان قائماً على العلم، وجعل الهداية إلى الصراط المستقيم راجعة إليه.

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٨]. أفكل من اختص بشيء من العلوم الطبيعية كان ممن يخشون الله تعالى، وكان ممن يرفعهم الله درجات؟ لعمري إن هذا من أبطل الباطل:

أولاً: لأنه مخالف للواقع المشهود، فهو بذلك كلام غير علمي حتى بمقياس الـ (سينس). كيف يكون علمياً ونحن نرى أن بعض هؤلاء العلماء الطبيعيين من أكثر الناس إنكاراً حتى لوجود الخالق سبحانه؟ من أشهر هؤلاء عالم الأحياء الإنجليزي الداروينى (دوكنز) الذي ظل منذ سنوات طويلة يكتب مدافعاً عن الإلحاد، وقد ألَّف مؤخراً كتاباً في هذا الموضوع وُصِف بأنه من أكثر الكتب انتشاراً[1].

وثانياً: لأنه ما كل علم ينتج عنه عند كل إنسان إيمان بالله وخشية له، بل إن بعض العلم قد يكون لبعض الناس فتنة تصدهم عن قبول الحق. ألم يقل الله ـ تعالى ـ: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [غافر: ٨٣]؟

(1) Richard Dawkins, The God Illusion, Bantam Press, 2006.

وقد حدث هذا لبعض علماء الطبيعة؛ إذ كان من بين ما دعاهم إلى الإلحاد أو إنكار الوحي أنهم استكبروا فظنوا أنهم هم وحدهم أصحاب الكلمة الأخيرة فيما يمكن وما لا يمكن أن يكون في الكون، فكرهوا لذلك أن يؤمنوا بإله هو خالق لهذا الكون ومتصرف فيه.

وثالثاً: لأن الأدلة سواء كانت كونية أو عقلية أو آيات منزلة لا تُلْزِم هي وحدها أحداً بقبولها أو الاعتراف بموجباتها. قال ـ تعالى ـ: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: ١٠١].

قال أكثر المفسرين: (لا يؤمنون) أي: عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون. ولكنهم لم يعنوا بذلك أن الله ـ تعالى ـ أجبرهم على عدم الإيمان أو خلقهم بحيث يكون عدم الإيمان من طبيعتهم، وإنما المقصود أنه ـ سبحانه ـ علم أنهم يصرون على عدم الإيمان. والله ـ تعالى ـ إنما يهدي من يعلم أنه يستحق الهداية.

ولذلك قال القشيري في تفسيره لهذه الآية الكريمة: الأدلة وإنْ كانت ظاهرة فما تغْنِي إذا كانت البصائر مسدودةً، كما أن الشموسَ وإن كانت طالعة فما تُغْنِي إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بمقلته

إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُلَمُ؟

من أعجب ما قرأت حديثاً عن أحد الملحدين من علماء النفس أنه اعترف بأن هنالك حقيقة أثبتها علماء الأنثروبوليا هي أنه ما من أمة من أمم العالم إلا والناس فيها يؤمنون بوجود الخالق. واستنتج من هذا باعتباره عالماً نفسياً أنه يدل على أن لهذا الاعتقاد أصلاً في النفس البشرية، واعترفَ بأن كل حال

أو اعتقاد أو سلوك له أصل في النفس البشرية (يعني: أشياء مثل الخوف أو الحب أو الميل الجنسي) لا بد أن تكون فيه فائدة للإنسان. لكنه أصر على إلحاده؛ لأنه لم يجد للإيمان بالله فائدة للإنسان[1]!!

رابعاً: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ معناه: أن الذين يخشون الله ـ تعالى ـ هم العلماء به حقاً. فالآية جعلت الخشية دلالة على العلم لا العكس. ولذلك قال قتادة ـ رضي الله عنه ـ تعليقاً على هذه الآية الكريمة: «كان يقال: كفى بالرهبة علماً». فالخشية تدل على العلم الحقيقي الذي يدخل القلب فيؤثر فيه. أما علم اللسان فقد يتصف به حتى المنافق.

وقد حدث خلط آخر في علاقة العلم بالقرآن الكريم والسنَّة المطهرة نذكره بهذه المناسبة. كثيراً ما تسمع قول بعضهم عن آية من آيات الكتاب العزيز كقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]: إن الناس لم يعرفوا معناها في زمن النبي ﷺ؛ لأن هذا المعنى إنما كشفته العلوم الطبيعية الآن.

الذين يقولون هذا يخلطون بين أمور ثلاثة هي: عَقْلُ المعنى الأوَّلي للآية، وفهم الآية، وتأويل الآية.

المعنى الأولي للآيات يعقله كل متحدث باللغة التي يرسل الله بها رسولاً من رسله؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يُنزل على رسوله كلاماً لا يمكن لأحد من المخاطَبين أن يعرف معناه. كيف؛ والحجة إنما تقوم بفهم المعنى؟ وكيف؛ والله ـ تعالى ـ يقول عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] أي: تعقلون معناه.

(1) Newyorktimes.com, Darwin›s God, March 4, 2007, Sunday. By ROBIN MARANTZ HENIG (NYT); Magazine.



هذا العقل الأولي للمعنى أمر يشترك فيه كل المخاطَبين ممن عرف لغة القرآن كفاراً كانوا أو مسلمين؛ لأن الإنسان إنما يصدِّق الكلام أو ينكره بعد أن يعرف معناه؛ ولذلك فإن الله ـ تعالى ـ إنما يرسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم. قال ـ تعالى ـ في ذم بعض الكفار: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ٧٥].

أما الفهم ـ وهو ما يمكن للإنسان أن يستنبطه من الآيات بعد أن عرف المعنى الأولي لها فأمرٌ يختلف فيه الناس اختلافاً عظيماً، وهو أمر لا يتأتى إلا بالتدبر الذي أمر الله ـ تعالى ـ به.

من الأدلة الواضحة على الفرق بين الفهم وإدراك المعنى الأولي ما جاء في صحيح الإمام البخاري من رواية أبي جُحَيفَة وهب بن عبد الله السّوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة! إلا فَهْماً يعطيه الله رجلاً في القرآن.

وأما التأويل فهو الواقع الذي يتحدث عنه النص، وهو شيء مختلف عن معناه. إذا قال لك إنسان: إن بالمكان الفلاني شجرة غريبة طولها كذا وألوان أوراقها وأحجامها كذا وكذا فإنك تعقل ما قال. وأما إذا أراك إياها فتكون قد أدركت تأويل ما قال لك. ونحن الآن نعقل معنى الآيات التي تحدثنا عن عجائب ما في الجنة وإن لم نرَ تأويله. والله ـ تعالى ـ قد يخبر المخاطَبين في زمان نزول الوحي بكلام لا يظهر تأويله إلا في المستقبل، مثل ما أخبرهم به ـ تعالى ـ من غلبة الروم على الفرس، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

والمكتشفات العلمية المؤيدة لما أخبر به الله ـ تعالى ـ كلها أو معظمها من هذا النوع. إنها لا تعلمنا معنى كلام ربنا، لكنها تُظهِر لنا بعض حقائقه التي أخبر بها. كيف تعلمنا المعنى ومعرفة المعنى شرط في معرفة موافقة الخبر العلمي له. كيف تعرف مطابقة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [**الأنعام**: ١٢٥] لما كشفه العلم إذا كنت لا تعرف المعنى اللغوي لهذه العبارة؟

نقول بعد هذا: إنه لم يكن قصدنا من هذا المقال التشكيك في العلوم الطبيعية أو التقليل من شأنها وأهميتها، وإنما كان القصد منه وضع الأمور في نصابها الصحيح.

إن العلم هو كل دعوى موافقة للواقع سواء كان هذا الواقع غيباً أو شهادة، وسواء كان حسياً أو نفسياً أو عقلياً. والعلوم وإن صدق عليها كلها هذا التعريف إلا أنها تختلف باختلاف مجالاتها وباختلاف طرقها التي تحتمها عليها تلك المجالات. والمسلم يعترف بكل حقيقة دل عليها واحد من تلك العلوم إذا ما قام عليها دليل صحيح. والعلوم الطبيعية المسماة (سِيَنس) هي من هذه العلوم، بل هي نفسها علوم مختلفة في بعض طرقها. فعلم الفلك ليس كعلم الأحياء، وعلم الكيمياء ليس كعلم الفيزياء. وهي كلها علوم مفيدة، بل إن منها ما هو ضروري للمسلمين في هذا العصر. وكما أنها مهمة في مجال الحياة الدنيوية فهي مفيدة في مجال الإيمان بالله وبرسوله؛ فقد أيّد كثير من حقائقها ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن هنا نشأ العلم الذي سمي بالإعجاز العلمي. فما قلناه عن العلوم الطبيعية ليس المقصود به إذن إنكارها أو تحقيرها أو التقليل من شأن الاهتمام بها، وإنما المقصود به وضعها في موضعها الصحيح.

المستقبل لنا

(البيان ٢٣٩ رجب ١٤٢٨هـ - يوليو ٢٠٠٧م)

لا أقول لشخص فلان وفلان، وإنما أقول لقِيَمِنا المؤسَّسة على كتاب ربنا وبيان رسولنا. ولا أقوله لأستشهد به على صدق الرسالة المحمدية؛ فإن الحق حق في نفسه آمَن به الناس أم لم يؤمنوا.

وأعلم أن المستقبل غيب لا يعلمه إلا الله، وإنما أقول ما أقول رجاءً وتوقُّعاً لِـمَا أشاهد من علامات أراها دالة عليه.

فهؤلاء السياسيون وأهل الرأي من الغربيين يصرِّحون بأنه: لم يبقَ بعد سقوط الشيوعية غير الإسلام متحدياً للحضارة الغربية، لكنهم يقولون: إن تحدِّيَه لها ليس تحدياً بسيف، وإنما هو تحدٍّ بقِيَم تغزو العقول والقلوب. وقد بدؤوا لذلك يُكثرون من الحديث عن قيمهم، ويبذلون الأموال الطائلة لنشرها في العالم الإسلامي.

لكنهم يمكرون ويمكر الله؛ والله خير الماكرين؛ فالدلائل كلها تشير إلى أن معركتهم هذه معركة خاسرة؛ لأنها دفاع عن قِيَم فاسدة وباطلة، وأن المستقبل لقِيَم الحق والخير

التي جاءت بها رسل الله ودعا إليها خاتم أنبياء الله. إنها القيم التي ستغزو القيمَ الباطلة وتُزهقها حتى في عُقْر دارها، وتضيء لأهلها أنوار الحق فتجعلهم يفيئون بإذن الله إلى دين الله أفواجاً.

ولقيم الحق هذه جنود مجندة في داخل الحضارة الغربية نفسها؛ فكل ما فيها من حقائق ومناهج علمية، وكل ما فيها من أصوات منكِرة للفساد داعية إلى مكارم الأخلاق، وكل ما فيها من إنكار لواقعها وبحث عن بديل له أسلحة مناصرة للحق فاتحة لأبواب الخير.

كان بعض الغربيين في الماضي يعتزون بدينهم ويحسبون أن لا دين خير منه؛ لأنه دين الأمم التي قادت الثورة العلمية واستفادت من تقنيتها في غزو العالم والهيمنة عليه، بل كانوا يجعلون نشر دينهم من مسوغات ذلك الغزو. لكن هذاالعلم نفسه هو الذي بدأ منذ مدة يكشف لهم أباطيل دينهم وينصر حقائق دين الإسلام.

أدت دراستهم لدينهم دراسة علمية إلى حقائق تدل على أن الكتاب الذي لديهم لا يمكن أن يكون كلام عيسى نبي الله، بل لا يمكن أن يكون حتى رواية صحيحة عنه بألفاظ الرواة؛ فانتهت خرافة أن كل ما في البايبل (هكذا يسمون كتابهم) هو كلام الله؛ فلم يعد يؤمن بهذا عالم مختص بالدراسات البايبلية، وإنما بقي المؤمنون به عوامَّ لا يعرفون شيئاً عن تلك الحقائق أو دعاةً مغرضين لا يعقلون. وتبيَّن لمن عرفوا الإسلام منهم صِدْق ما قرره من تحريف للكتاب، ثم بدؤوا يدركون مع تطور نظرتهم العقلانية إلى الدين حقيقة كبرى أخرى قررها القرآن وأكدها هي: أنه لا يمكن أن يكون عيسى - عليه السلام - ابناً لله وهو مخلوق من مخلوقاته.

ما أكثـر الذين صـاروا يصـرِّحون بإنكـارهم لهـذه العقيدة الباطلة، وما أكثر الذين ثابوا إلى الدين الحق بسبب إنكارهم لها.

ثم إن العوامَّ وأولئك المغرضين صاروا يُحرَجون غاية الحرج في أيامنا هذه مما بدأ يُنشَر من نصوص البايبل من كلام فاحش منافٍ لمكارم الأخلاق أدى ببعضهم إلى المطالبة بسحبه من مكتبات التلاميذ، وعدِّه من الأدب الفاحش الذي يُمنَع الأطفال من الاطلاع عليه.

هل نجحت الأيديولوجيات التي حلَّت محل ذلك الدين في أن تقدِّم للغربيين بديلاً يغني عن كل دين؟ يقول بعض كبار مفكريهم الآن: كلا. إن العالم الحديث الذي نسلِّم به إنما هو في أساسه نتاج ثورة القرن السابع عشر العلمية، وفترة التنوير التي تبعتها. لقد كانت هذه في حقيقتها بحثاً عن حقيقة مطلقة غير مأخوذة من أرسطاليس ولا من البايبل يمكن أن يُبنى عليها مجتمع يعامَل فيه كل المواطنين بالمساواة.

ثم يقول: إن هذا المشروع كان ناجحاً إلى الحد الذي أُفرغ فيه مفهوم (الله) من معناه. ثم يقول: لكن هذا المشروع فشل كما بيَّن (ألسدير ماكنتير Alisdair McIntyre) أحد كبار الفلاسفة المعاصرين. لقد فشلت في إيجاد ذلك الأساس العقلي المطلق كل المحاولات الثلاث المشهورة: الفاشية، والشيوعية، والرأسمالية[1].

لم تبقَ إذن إلا العلوم الطبيعية. لكن هذه العلوم التي أدت في البداية إلى غرور بعضهم واستكبارهم، واعتقادهم بأنها ستغني البشرية عن الهداية السماوية، بدأ يتبيَّن لهم من تجربتهم معها غير ذلك: اكتشفوا أنه لا بد للناس من معتقدات تقوِّي جانب الخُلُق الكريم في نفوسهم، وتجعل منهم جماعة متعاونة لا أفراداً أنانيين.

(1) Chris Morris Thinking the Unthinkable bbc book of the future 6 feb 2003.



لكنهم لا يريدون ديناً يتنافى مع المبادئ التي قام عليها العلم الطبيعي الذي رأوا من ثماره ما جعلهم يعتقدون صحة منهجه القائم على العقلانية والتجريبية؛ فلا تُقبَل فيه دعاوى لا دليل عليها، ولا يُقبَل فيه دعاوى متنافية مع المبادئ العقلية، أو منافية للحقائق الحسية.

اكتشف بعض من عرف الإسلام منهم أنه لا دين غيره تتوفر فيه هذه الشروط؛ فهو وحده الدين الثابتة نصوصه تاريخياً. حدثني بعض الشباب الأمريكيين المسلمين الذين كانوا يدرسون مقرراً في الأديان المقارنة أن أحد الأساتذة (ولم يكن مسلماً) قال للطلاب: إن كنتم تريدون ديناً ثابتاً تاريخياً فلا دين إلا الإسلام.

ثم اكتشف بعض من هداهم الله - تعالى - من علمائهم الطبيعيين أنه ليس ثابتاً تاريخياً فقط، بل هو الدين الوحيد الذي يمتاز بعدم منافاته للحقائق العلمية، بل يمتاز بأكثر من هذا، وهو سَبْقُهُ إلى تقرير حقائق علمية ما عُرفت إلا في عصورنا هذه وما كان من الممكن أن يعرفها بشر عادي في العهد المحمدي أو قبله، فكانت حقاً معجزات علمية كانت سبباً في إيمان علماء غربيين متخصصين اطلعوا عليها.

كان الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي هذه خاصاً بعلماء وُلِدوا مسلمين، لكنه بدأ الآن يجذب إلى البحث فيه علماء هُدُوا إلى الإسلام؛ فهذا أستاذ كبير في علوم الحاسوب بجامعة جورج ميسن Mason Georg بالولايات المتحدة يقول : إن هنالك برنامجاً حاسوبياً يُستعمَل في إثبات صحة نسبة النصوص وكونها لمؤلف واحد أو أكثر، ويرى أنه بالإمكان تطبيقها على النص القرآني العربي؛ لإثبات أن مصدره واحد (على عكس البايبل).

اطلعت على فكرة المشروع وكتبت تقريظاً له، وقلت: إنني لأرجو أن يصل الباحثون بهذا المنهج الحاسوبي ليس فقط إلى أن للقرآن مصدراً واحداً، بل إلى أن ذاك المصدر لا يمكن أن يكون مصدراً بشرياً.

والإسلام هو وحده الدين الذي ليس في ما يقرره في باب العقائد وسائر التشريعات ما يتناقض مع شيء من المبادئ العقلية. وقد انتصرت مناهج العلوم الطبيعية للدين الحق انتصاراً في هذا المجال هو إنكارها لِـمَا يسمونه الآن بالمادية الغليظة التي كان يقول أصحابها: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء : ١٥٣]. زاعمين أن الدليل الوحيد على دعاوى الحقائق الغيبية هو المشاهدة الحسية. جاءت العلوم الطبيعية بمناهج تعتمد الاستنتاج العقلي والانتقال به من الشاهد إلى الغائب، من الآية المشاهَدة إلى الحقيقة الغائبة التي هي آية لها.

والإسلام هو الدين الذي ليس فيه ما يتعارض مع مكارم الأخلاق. كيف وهو الدين الذي يقول نبيه إنه إنما أُرسل ليتمِّمها؟ وإنه لما يبشِّر بأن المستقبل للإسلام اكتشاف كثير من العقلاء في الغرب أن المساوئ الكثيرة التي يعانون منها ترجع إلى أسباب في فكرهم العلماني البعيد عن الدين.

وقد كنت عرضت قبل ذلك في بعض المقالات في هذا العمود كتابين لمؤلفين أمريكيين يتحدثان عن هذه المشكلة. وهذا كاردينال كاثوليكي أسترالي كنا قد أشرنا إليه في مقالات سابقة يخشى من أن يؤدي فراغ الديمقراطية الغربية وأنانيتها وفحشها إلى أن يجد الناس في الإسلام بديلاً عنها [1].

---

(1) Barney Zvartz Democrecy must change to counter Islam: Pell November 12, 2004,the age.com,au.

هؤلاء قوم عرفوا حضارتهم وعاشوا فيها واستمتعوا بما فيها من خيرات مادية ومعنوية، لكنهم حين هداهم الله إلى الإسلام؛ فعرفوا ربهم وذاقوا حلاوة الإيمان به والسعادة التي تغمر قلوبهم بعبادته، لم يعودوا يقدِّمون عليه شيئاً مما حولهم من خيرات حضارتهم، بل إن بعضهم ممن سُجِن ظلماً فضَّل البقاء في السجن على خروج منه على حساب دينه.

معجزة الاتساق التشريعي

(البيان ٢٤١ رمضان ١٤٢٨هـ - سبتمبر ٢٠٠٧م)

من الحجج التي جاءت في كتاب الله - تعالى - برهاناً على أنه لا يمكن أن يكون إلا من عنده، سبحانه، قوله - تعالى -: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وقد كان الكثيرون وأنا منهم يركِّزون على عدم التناقض القولي، أي: إنك لا تجد في كتاب الله جملة تنفيها جملة أخرى وتتناقض معها. وهذا إعجاز؛ لأنه لا يمكن لبشر أن يقول أو يكتب كلاماً في حجم كتاب الله - تعالى - ويتعرض فيه لما تعرض له الكتاب العزيز من الموضوعات، ويستغرق كلامه من الزمن ما استغرق نزول القرآن الكريم، ثم لا يناقض نفسه؛ فيقول في مكان وزمان قولاً ينفي ما قاله في مكان أو زمان آخر.

لكن الاتِّساق أو عدم الاختلاف الذي نتحدث عنه الآن هو اتساق من نوع آخر أكثر إعجازاً؛ إنه (الاتساق التشريعي). ونعني به: أن في القرآن الكريم تشريعات تشمل كل ما يحتاج إليه الإنسان من عقائد وعبادات وسلوك وعلاقات اقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها، ومع ذلك لا تجد منها تشريعاً يخالف الآخر أو ينافيه، أو يعوق

تحقيقه لهدفه، بل تجد التشريعات كلها متعاضدة متساندة يشد بعضها بعضاً؛ وهذا هو المقصود بالتشابه في الآية الكريمة: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [**الزمر** : ٢٣].

فالتشريعات منها ما هو أصل ينبثق منه وتُبنى عليه فروع، ومنها ما هو فروع تُثبت ذلك الأصل وتقوِّيه، ومنها ما هو لازم لغيره أو حامياً له، وهكذا.

فأركان الإيمان تُصْلِحُ القلبَ وتجعله مستعداً لتقبُّل الأوامر والنواهي، بل تحبِّبُها إليه: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾. [**الحجرات** : ٧].

والإسلام بأركانه الخمسة تعبير عن الإيمان بأركانه الستة، وتثبيت لها؛ فهو الذي يغذيها ويذكِّر بها، وهو الذي يسهل على العبد العمل بأوامر ربه والانتهاء عن نواهيه: ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [**العنكبوت** : ٤٥].

والسبب في هذا الاتساق هو:

أولاً: أن التشريعات الإسلامية لها مصدر واحد، بينما التشريعات الأخرى بكل أنواعها، وسواء كانت ديمقراطية أو دكتاتورية أو دينية؛ فهي متعددة المصادر.

ثانياً: أن هذا المصدر الواحد هو الخالق الأحد الصمد علاَّم الغيوب؛ فلا جَرَمَ أن تكون تشريعاته مؤتلفة غير مختلفة. أما مصادر التشريعات الأخرى، فهم البشر.

والبشرُ مهما كان إخلاصهم فهم ذوو علم ناقص، ونظر محدود، وتصورات مختلفة؛ فلا يمكن أن تصدر عنهم تشريعات متسقة في أهدافها ونتائجها، ولذلك كان عدم الاتساق لازماً لها.

ثالثاً: ثم إن هذا الخالق جعل لكل هذه التشريعات الشاملة جميع ما يحتاج إليه البشر هدفاً واحداً، وجعلها كلها وسائل لتحقيقه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [**الذاريات**: ٥٦]. هذا أمر لا يمكن أن يتحقق في تشريعات بشرية متعددة المصادر، أعني: أنه لا يمكن أن يكون لها كلها هدف واحد مهما كان نوعه.

رابعاً: ثم إنه - سبحانه - جعل كل تلك التشريعات متوافقة مع الفطرة التي فطر عليها عباده: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [**الروم**: ٣٠].

هذا مع أن العَلمانيين ما يزالون مختلفين في أمر الفطرة: هل للإنسان فطرة ثابتة، أم أن فطرته متغيرة بحسب الظروف الاقتصادية أو الثقافية التي يعيش فيها؟ وإذا كانت هنالك فطرة؛ فهل يمكن تغييرها كما يرى بعض علماء الأحياء؟ وإذا كانت هنالك فطرة ثابتة لا تتغير؛ فما علاقتها بالتشريعات والقوانين؟ وهكذا.

خامساً: جعل الله - تعالى - للتشريعات المتعلقة بالعلاقات البشرية مبدأً واحداً ضمن الإطار الذي رسمته المبادئ السابقة، وهو: الأخوة الإيمانية. قال - تعالى -: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [**الحجرات**: ١٠]. ثم علل بهذه الحقيقة كل الأوامر والنواهي المتعلقة بالعلاقات البشرية؛ فأمر بكل ما يثبِّت هذه الأخوة الإيمانية ويقويها، ونهى عن كل ما يصادمها وينافيها، فقال - مثلاً -: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [**الحجرات**: ١٠].

ونهى عن الخمر والميسر؛ لأنها يثيران العداوة والبغضاء وهما أمران منافيان للأخوة، ولأنهما يصدان عن ذكر الله وهو أمر منافٍ للإيمان: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وجعل للفقراء حقاً في أموال الأغنياء، ونهى عن الربا؛ لأنه استغلال لحاجة الفقراء وهو أمر يتنافى مع الأخوة.

وجعل للذَّكر من الميراث مثل حظ الأنثيين، لكنه كلَّفه بما لم يكلف به الأنثى: من دَفْع مَهرٍ وقيامٍ بواجبات الأسرة؛ فكان نصيبه من الميراث متسقاً مع واجباته المالية.

• • •

قلت لنفسي ذات مرة ونحن بعرفات: إن الذي فرض هذا الموقف ما كان يمكن أن يبيح شُرْب الخمر. ثم جعلت أتصور ما كان سيحدث لو أن عدداً كبيراً من هؤلاء الحجيج شربوا وثملوا: كم عدد الأرواح الذي كان سيزهق، وكم عدد جرائم الجنس التي كانت ستُرتكَب، وكم كان سيكون الحُجَّاج أبعد شيء عن ذكر الله! وتذكرت ما يقال إنه يحدث ليلة الميلاد في البلاد الغربية مع أن الناس لا يتجمعون تجمُّع الحجيج؛ لكنهم يتزاورون فيأكلون معاً ويشربون ويسكرون. ما أكثر ما تنصحهم الشرطة بأن يبيتوا حيث سكروا من كثرة ما رأوا من الحوادث التي تقع بسبب الخمر ليلة عيد الميلاد.

قارن هذا الاتساق التشريعي بتشريعات الأيديولوجيات البشرية!

فإذا كان الإسلام قائماً على الإيمان بالله؛ فإن الماركسية مبنية على إنكار وجود الخالق. وإذا كانت شرائع الإسلام تنبثق كما قدَّمنا انبثاقاً طبيعياً من هذا الإيمان، فإن التشريعات الماركسية لا علاقة لها بهذا الإلحاد. كان لي زميل دراسة مثقف ذكي، وكان شيوعياً فهداه الله - تعالى - فصرنا أصدقاء. قلت له ذات مرة بعد أن هداه الله (وكنت قد قرأت سيرة كارل ماركس): هل تعلم يا فتح الرحمن أن ماركس ألحد وعمره سبعة عشر عاماً ولأسباب خاصة بأسرته، وأن إلحاده لم يكن له علاقة بما سمي فيما بعدُ بـ(الماركسية)؟ قال لي - رحمه الله -: إنني، والله! عندما كنت شيوعياً كنت أقول في نفسي: أَمِنْ أجل أن أطالب بإنصاف العمال والفقراء (وكان هذا الذي جذبه للشيوعية) أُنكِرُ وجود الخالق؟ ما علاقة هذا بهذا؟ قال: لكنني قبلت هذا ثمناً لذاك.

فليس هنالك إذن من علاقة فكرية بين الإلحاد أو المادية وبين الشيوعية؛ فالملحد يمكن أن يكون داعية إلى الرأسمالية، والمادي يمكن أن يكون معادياً للاشتراكية من غير أن يكون متناقضاً في مواقفه.

ثم إن الماركسية شنت حرباً شعواء على الرأسمالية وانتقدتها نقداً كان في كثير منه صحيحاً، ودعت إلى استبدالها باشتراكية تحرِّم الملكية الفردية وتجعل الاقتصاد كله في يد الدولة؛ فكان أن أدى هذا إلى عبودية واستبداد شرٍّ من عبودية الرأسمالية.

والديمقراطية رأيُ أهلها أنه إذا تُرِكَ حبلها على غاربه فستؤدي إلى دكتاتورية الأغلبية، فقيَّدوها باللبرالية، لكن كثيرين من منظِّريهم يعترفون الآن بأنه قيدٌ يتنافى مع سيادة الشعب التشريعية التي هي أساس الديمقراطية. ثم إن اللبرالية أدت إلى الرأسمالية التي جعلت من الفوارق بين الناس ما يتنافى مع المبدأ الديمقراطي الذي يفترض مساواة الناس في حقوقهم وفرصهم السياسية.

ومـع هـذا كله تـرك كثير من المنتسبين إلى الإسلام كتاب ربهـم وهدي نبيهم وهذا التشريع المتسق ليقلدوا الغـرب لا في مجال العلوم والتقنية التي كانت سبب قوَّته، بل في هذه الأيديولوجيات المهلهلة؛ فنعوذ بالله من استحباب العمى على الهدى.

دين يتسع به الأفق

(البيان ٢٤٣ - ذو القعدة ١٤٢٨هـ - نوفمبر ٢٠٠٧م)

تجربة لا زِلْت أذكرها رغم طول العهد: كنت أيام الدراسة الجامعية منغمساً في مذاكرة موضوعات في الفلسفة الغربية؛ استعداداً للاختبار، فشعرت بعد طول صحبة لها بشيء من الضيق، فأبعدت ما كنت أقرأ منها عني جانباً وتناولت المصحف وبدأت أقرأ، فشعرت كما قلت لبعض زملائي آنذاك كأنَّ رأسي كان مضغوطاً ضيقاً، وأنني حين بدأت أقرأ القرآن شعرت به يتسع ويتسع، وفسَّرت ذلك لهم بأنني حين كنت مع الكتب الفلسفية كنت كأنني محبوس في نطاق ضيق، فلما بدأت أقرأ القرآن بدأ عالمي يتسع: كلام عن رب العالمين، عن ملائكته ورسله، عن الجنة والنار، عن الإيمان والعمل الصالح، عن العلاقات الإنسانية، عن العدل ومكارم الأخلاق؛ انتقال من الأرض وبحارها وأنهارها وجبالها وحيواناتها، إلى السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأفلاك... وهكذا.

ماذا لو أنني استمررت في ذلك الانغماس لمدة أشهر أو سنين؟ إذن رُبَّما كان سيحدث لي ما حكاه الكاتب الإنجليزي (ألدوس هكسلي) في كلمات حكيمة

كنت قد قرأتها أيام الدراسة أيضاً. قال ما ترجمته: إن التركيز على أمر واحد غير الأمر الأعظم - يعني: الخالق سبحانه - قد يتحول إلى نوع من الوثنية. في خطاب إلى (هوفر) كتب دارْوِن: (إنه لشرٌّ لَعِين يصيب كل إنسان ينغمس في أي موضوع كانغماسي في موضوعي). إنه لشرٌّ؛ لأن تركيزاً كهذا على شيء واحد قد يؤدي إلى اضمحلال لكل جوانب القوى العقلية غير جانب واحد. (دارون) نفسه يقرر أنه في أواخر حياته لم يعد قادراً على أن تكون له أدنى رغبة في الشِّعر أو الفن أو الدين. من الناحية الحرفية؛ وبالنسبة لموضوع تخصصه الذي اختاره؛ فإن الإنسان قد يكون ناضجاً نضوجاً كاملاً. وأما روحياً (وأحياناً خلقياً)، وبالنسبة لله ولجيرانه، فإنه لا يكاد يكون أكثر من جنين[1].

ما كان لـ (هكسلي) أن يرضى بمثل هذه الحال الدارونية وهو الرجل الذي اشتهر بسعة اهتماماته العلمية؛ فقد كان أديباً روائياً مشهوراً، وكان مع ذلك ذا صلة وثيقة بالعلوم؛ الطبيعي منها والاجتماعي، حتى إن الأستاذ (العقاد) كان يصفه بعالم الأدباء وأديب العلماء. وحين أُعلن خبر استنساخ النعجة (دولي) كان اسم (هكسلي) على كثير من الألسنة في الغرب؛ أتدرون لماذا؟ لأنه كان قد تنبَّأ بهذا الاستنساخ في رواية له مشهورة كتبها عام ١٩٣١م بعنوان (Brave New World عالم جديد جريء)، وقد تنبَّأ في تلك الرواية بكوارث أخرى، قال: إنه سيقود إليها تطور العلوم، وقانا الله شرَّها.

تلك الحال التي وصفها (هكسلي) بسبب الانغماس في تخصص واحد والانقطاع له قد يحدث شيء منها حتى لمن يختصون ببعض العلوم (الإسلامية). إن من العلوم ما هو ضروري لإثبات النصوص: كالعلوم المتصلة بالسند، ومنها ما هو ضروري لفهم النص: كعلوم اللغة العربية وعلم الأصول. وقد كان كبار علمائنا متبحِّرين فيها تبحُّر

(1) Aldous Huxley, The Perennial Philosophy, Happer Clophon Books, New York, 1944.



المختصين بها. لكن الواقع يدل على أن بعض الناس قد ينقطع لها وينغمس فيها انغماساً ينسيه الغاية منها حتى إنها لتكون سبباً لغفلته وقلة تقواه. وقد رأينا شيئاً كهذا يُصاب به حتى بعض المنغمسين في كتب الفقه الخالية من الاستشهاد بنصوص الكتاب والسُّنة التي تُلين القلوب وتذكِّر بالله واليوم الآخر. ولهذا قيل: إن العلماء ثلاثة: منهم: (عالم بأمر الله ليس بعالم بالله، الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله، عز وجل)[1]. ومما لا شك فيه أن الإنسان قد يكون أخشى لله - تعالى - من آخرَ حفظ من العلم ما لم يحفظ، فخشيته دليل على أنه بلغ من العلم الحقيقي بالله - تعالى - ما لم يبلغ صاحبه الذي حفظ ما لم يحفظ.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: (قلت لأبي: هل كان مع معروف (الكرخي) شيء من العلم؟ فقال لي: يا بني! كان معه رأس العلم: خشية الله، تعالى)[2].

وقد قيل: إن من الأسباب التي دعت الإمام الغزالي إلى تأليف كتابه الشهير وتسميته بـ: (إحياء علوم الدين) أنه أراد أن يعيد الحياة إلى الفقه بعد أن صار أصحابه كالحدادين والنجارين لا همَّ لهم إلا وصف الظواهر.

وعلى ذكر الغزالي نذكر أنه إذا كانت العلوم المتصلة بالدين قد تؤدي إلى مثل تلك النتائج؛ فما بال العلوم التي لا صلة لها به، بل التي تخالفه وتدعو إلى خلاف ما يدعو إليه؟ هذه أيضاً قد تكون دراستها وكشف أباطيلها من باب الجهاد والذبِّ عن الدين ولا سيما إذا استفحل أمرها وانتشر شرُّها. لكن دراستها يجب أن تكون أولاً بهذا الهدف، وثانياً: بعد إعداد القوة العلمية اللازمة المناسبة لكل منها.

---

(١) تفسير ابن كثير، عند تفسير قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].
(٢) الآداب الشرعية.

تفرَّغ الإمام الغزالي لدراسة الفلسفة، وعزم على أن لا يكون في علمه بها وقبل نقدها إلا كواحد من أهلها المختصين بها. وقد أجاد في نقده لكثير من جوانب تلك الفلسفة اليونانية، حتى قيل: إنه لم تقم للفلسفة قائمة بعد كتاب (تهافت الفلاسفة). لكن تلميذ الغزالي المخلص الفقيه المالكي (ابن العربي) يقول عن شيخه: إنه دخل في بطون الفلاسفة ولم يستطع أن يخرج. هذا مع أن شيئاً من هذا لم يحدث لعالم آخر اهتمَّ بالفلسفة اهتمامَ الغزالي وعرفها معرفته وجادل أهلها وعمره أربعة عشر عاماً كما يقول هو وشيخ الإسلام ابن تيمية عن نفسه؛ لماذا حدث ذلك للغزالي الرجل الذي وصفه ابن كثير بأنه كان من أذكياء العالم، وأنه لم يدخل في فنٍّ إلا بلغ فيه الغاية؟ أظن أن السبب هو ما ذكره الغزالي عن نفسه في فترة من حياته من أنه كان مُزْجَى البضاعة في الحديث؛ أقول في فترة من حياته؛ لأن الرجل تدارك هذا التقصير في أواخر عمره حتى إنه مات وعلى صدره صحيح البخاري؛ كما قيل.

العبرة التي نستفيدها من تجربة الرجلين هي أن الإنسان لا يُقْبل على قراءة الكتب الداعية إلى مخالفة أصل الدين أو إثارة الشبهات عنه؛ إلا وقد تسلَّح بسلاحين:

- سلاح المعرفة الإسلامية المناسبة للموضوع الذي يقرؤه،

- وسلاح العقل الناقد الذي يحمي صاحبه من أن يُقبِل على كتاب لبشر إقبالَ المعجَب المتهالِك.

نعود إلى ما بدأنا به حديثنا هذا: لماذا يتسع الأفق بالتديُّن بدين الإسلام، وأنه كلما كان التديُّن أعمق كان الأفق أرحب؟

لأن هذا الدين قائم على معرفة الإله الحق. ومعرفة صفات الله والتفكُّر فيها وفي أفعاله أمرٌ من شأنه أن يوسِّع أفق العارف المتفكر؛ كيف لا يتسع أفق إنسان يتفكر في صفات إلهٍ وسع كل شيء رحمةً وعلماً، وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم؟ إلهٌ لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلماته، إلهٌ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا وهي عنده في كتاب مبين، إلهٌ يحصي أعمال العباد كلها؛ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، إلهٌ متصف بكل صفة من أمثال صفات العظمة والكمال هذه.

وهي صفات من شأنها أن توسع الأفق من حيث كونها صفات تحفز العالم بها إلى الإيمان بالإله المتصف بها وإلى خشيته: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [**فاطر**: ٢٨].

وعلم الإنسان بما علم ولا سيما علم الحق والخير يزيده علماً ومن ثَمَّ يزيد عقله اتساعاً.

وكما أن العلم بالله - تعالى - يوسِّع المدارك ويحفِّز إلى عمل الخير، فكذلك يفعل العلم برسوله ﷺ وبالشرع الذي أنزله الله على هذا الرسول ﷺ؛ فهو شرع شامل لكل نواحي الحياة شمولاً يوسِّع دائرة اهتمامات المسلم ويحرِّره من الانحباس في دائرة ضيقة من دوائر الحياة.

ولأن العلم بالله - تعالى - وبرسوله ﷺ وبشرعه يقود بطبيعته إلى العمل، فإنك لا تجد العالم المسلم حقاً أكاديمياً منعزلاً عن الحياة، وإنما تجده أبداً ساعياً لتعليم الناس بما علم من الحق، مدافعاً عن هذا الحق بلسانه، بل بسنانه حين يقتضي الأمر ذلك.

ولأن العلم بالله – تعالى – وبرسوله ﷺ وبشرعه شامل هذا الشمول؛ فإنك لا تجد المسلم الذي أخذ حظَّه منه يأتي إلى علم من العلوم الدنيوية: كعلوم الطبيعة، أو الاجتماع، أو التاريخ، أو النفس، وهو خالي الوفاض، بل تجده واضعاً لحقائقها المفردة في ذلك الإطار العلمي الرحيب ورابطاً لها به، وناظراً إليها نظرة لا تتسنَّى لمن عرفها معزولة عن خالقها والرسالة التي أرسل بها رسوله ﷺ.

قلت لنفسي وأنا أحاول أن أنهي هذا المقال: لقد فتحت على نفسك باباً لا تستغرقه الآلاف من أمثال مقالاتك هذه. ثم عزَّيت نفسي بأن ما نكتب إنما هو إشارات، وأن اللبيب بالإشارة يفهم. وأحسبك قارئي العزيز من أولئك الألبَّاء.

البابا يرفض مبدأ الحوار مع المسلمين

(البيان ٢٤٤ - ذو الحجة ١٤٢٨هـ - ديسمبر ٢٠٠٧م)

أرسل عدد من الشخصيات الإسلامية البارزة من السُّنة والشيعة - بلغ عددهم ١٣٨ شخصاً - رسالة إلى البابا وكُلِّ أو معظم أكابر النصرانية في العالم، خاطبوهم فيها بأحبِّ ألقابهم الرسمية إليهم. أرسلوها ـ كما قالت الرسالة ـ بمناسبة عيد الفطر المبارك لهذا العام، وأسموها: (كلمة سواء بيننا وبينكم).

رحَّب كثير ممن أُرسِلت إليهم الرسالة بها، لكن البابا لم يردَّ عليها، بل ترك الأمر للشخص المسؤول عن موضوع الحوار بين الأديان في الفاتيكان. قال هذا الشخص (وهو: الكاردينال جون لوي تيران) لجريدة فرنسية كاثوليكية يومية في عددها الصادر يوم الجمعة ٢٦ أكتوبر (أي: بعد ثلاثة عشر يوماً من إرسال الرسالة إلى البابا) قال: «إن حواراً لاهوتياً حقيقياً مع المسلمين أمرٌ صعب؛ لأنهم ينظرون إلى القرآن على أنه كلمة الله بالمعنى الحرفي. إن المسلمين لا يقبلون أن يناقِش أحد القرآن بعمق؛ لأنهم

يقولون: إنه كُتِب بإملاء من الله. يصعب بهذا التفسير المطلق مناقشة محتويات الإيمان»[1].

هذا كلام مليء بالأباطيل والتناقضات:

أولاً: كيف تشترط للحوار مع من يخالفك أن يكون موافقاً لك؟ كيف تطلب من المسلم كي يحاورك أن يتخلى عن الاعتقاد بأن القرآن كلام الله - تعالى - وينظر إليه كما بدأتم أنتم تنظرون إلى كُتبكم الدينية على أنه كَتَبها بشرٌ مُلهَمون؟

ثانياً: إن الحوار مع من يخالفك حتى في أهم القضايا أمرٌ ممكن، بل هو الداعي إلى الحوار. هو أمر ممكن ما دام المخالف ملتزماً بالمعايير العقلية المتفق عليها بين البشر؛ فبإمكان البابا إذن أن يحاور المسلمين أو أن يرسل إليهم مَنْ يحاورهم نيابة عنه لإقناعهم، مستخدماً تلك المعايير القائلة: إن القرآن لا يمكن أن يكون كلام الله، ويستمع إلى حججهم بأنه لا يمكن إلا أن يكون كلام الله.

ثالثاً: إنه لا معنى لمفهوم الدين إلا كونه رسالة من رب العالمين، ولا سيما إذا كان ديناً يوصف بأنه سماوي. لقد كان هذا هو اعتقاد معظم النصارى ولا يزال هو اعتقاد الكثيرين منهم، أعني: أنهم يؤمنون بأن العهد الجديد هو كلمة الله، وأنه لذلك لا يمكن أن يكون فيه خطأ، وهذا هو سبب اعتقادهم فيه وتسميته بالمقدَّس ومحاولتهم الاهتداء به في حياتهم.

رابعاً: أما الاعتقاد بأن الكتب التي تُسمَّى بالمقدَّسة إنما كَتَبها بشرٌ ملهَمون؛ فأمرٌ اضطُر إليه علماء النصارى اضطراراً بسبب دراساتهم العلمية المتعلقة بتاريخ هذه الكتب

---

(1) AMP Report - October 29, 2007 Vatican rebuffs Muslim outreach: Quran cited as the main obstacle. http://www.amperspective.com/ html/vatican_ rebuffs_outreach.html

وترجماتها وما فيها من اختلافات، حتى قال أحدهم في كتاب من آخر الكتب التي صدرت في هذا الموضوع: إن عدد الاختلافات بين مصادر الكتاب المقدَّس تساوي عدد كلماته[1]، وقد كان ما فيها من دعاوى تخالف الحقائق العلمية ما جعل الكثيرين منهم يقولون (وقولهم حق): إنه لو كان كلامَ الله لما حدث فيه مثل هذا الخطأ؛ لأن الله ـ تعالى ـ هو خالق الكون فلا يمكن أن يخطئ في وصفه.

خامساً: لماذا يُطلب من المسلمين أن ينظروا إلى القرآن هذه النظرة النصرانية إلى العهدين: (القديم والجديد)، مع أن دارسي القرآن حتى من غير المسلمين، بل من بعض المختصين بدراسة كتبهم المقدَّسة؛ يقولون: إن القرآن هو الكتاب الديني التاريخي الوحيد، وأن محمداً ﷺ هو النبي التاريخي الوحيد؟ ويعنون بالتاريخي: كونه ـ على العكس من كتبهم ـ ثابتاً تاريخياً.

سادساً: إذا كانت الدراسات العلمية قد دفعت النصارى في الغرب إلى الاعتقاد بأن كُتبهم لا يمكن أن تكون كلام الله، تعالى، فإن مثل تلك الدراسات قد أكدت للمسلمين أن القرآن لا يمكن أن يكون إلا منزَّلاً من عند الله؛ لكثرة ما وجدوا فيه من تقرير لحقائق كونية ما كانت معروفة في زمن الرسول ﷺ، بل ما كان يمكن لبشر أن يعرفها إلا في عصرنا هذا.

سابعاً: لماذا يكون ما اضطُر إليه النصارى اضطراراً بالنسبة لكتبهم، هو القاعدة التي يقوم عليها بنيان الدين كله؟ لماذا يقال: إن الله ـ تعالى ـ يمكن أن يُلهِم بشراً لأنْ يقول كلاماً مقدَّساً، لكنه لا يمكن أن يوحي إلى أحد كلاماً من كلامه هو،

(1) Bart D. Ehrman Misquoting Jesus: The Story Behind Who Changed the Bible and Why.

سبحانه؟ القرآن الكريم يعلِّمنا أن الذين ينكرون أن الله ـ تعالى ـ يرسل رُسلاً وينزِّل كتباً لا يقدُرُون الله حقَّ قدْره. قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ [**الأنعام**: ٩١].

فكأن القرآن الكريم يقول لك: كيف تعتقد أن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقك وهو الذي يرزقك ويمدُّك بكل ما يحتاج إليه جسدك، لكنه لا يمدُّك بما هو أهم لك من هذا؛ وهو الهداية إلى ما يقربك منه ويرضيه عنك؟

ثامناً: ثم إذا كان الإلهام لا يعصم الكلام الملهَم من الخطأ، بل يكون قابلاً له، وقابلاً بسبب ذلك لأنْ يُقبَل أو يُرفض؛ فقد زال الفرق بينه وبين كلام أي إنسان غير مُلهَم: من المفكرين والفلاسفة والأدباء والسياسيين؛ لأن كل واحد من هؤلاء يخطئ ويصيب؛ فلماذا تُضفى القداسة على كتابات الملهَمين ويُدْعى الناس إلى تصديقها ويُبشَّر بها؟

تاسعاً: يبدو من كل ما ذكرنا أن السبب الحقيقي لرفض البابا وغيره من زعماء النصارى محاورةَ المسلمين؛ هو ضعف موقفهم واعتقادهم أنهم سيكونون هم الخاسرون في أي حوار ديني علمي.

تعليق على الرسالة:

الحوار مع غير المسلمين أمرٌ تقتضيه طبيعة الدعوة التي نحن مأمورون بها، فأنت لا تستطيع أن تدعو أحداً إلى الحق ثم إذا سألك أو استشكل ما قلت أو اعترض عليه؛ قلت له: هذا فراق بيني وبينك؛ إنك لا تستحق أن تُخاطَب.

والحوار أنواع، والمحاورون أنواع، وقد وجدْنا بالتجربة أنَّ أجدى أنواع الحوار هو الذي يكون مع عامة الناس، أعني: مع من ليسوا مفتونين بمنصب أو مال يصدُّهم عن قبول الحق. لكنه قد تكون هنالك دواعٍ لمحاورة بعض الأكابر ودعوتهم.

إن الوضوح هو أهم سمات الرسالة الموجَّهة إلى غير المسلمين، وضوحاً لا يقلل من شأنه؛ لكونه بالتي هي أحسن، لكنني وجدت هذه الرسالة مضطربة بين أمرين: بين دعوة النصارى إلى الأخذ ببعض نصوص كُتبهم وفهمها فهماً ترى الرسالة أنه يجعلها موافقة لما في القرآن الكريم، وبين افتراض أن هنالك ـ فعلاً ـ أموراً مشتركة بين المسلمين والنصارى تجعل من السهل عليهم أن يتعاونوا ولا يتحاربوا.

تقول الرسالة في فِقْرتها الثانية:

«... فوحدانية الله، وضرورة حبه - تعالى - وضرورة محبة الجار، تعتبر بالنتيجة الأرضية المشتركة بين الإسلام والمسيحية».

ثم تستدل على الوحدانية في القرآن بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ [**الإخلاص**: ١ - ٢]، لكنـها لا تُكْمل بقية السورة! هذا مع أن الواضح من السورة أنَّ كوْنَ الله ـ تعالى ـ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، هو لوازم كونه واحداً؛ فالذي ينفي شيئاً من هذه الصفات لا يكون قد وحَّد الله، سبحانه وتعالى. والنصارى يعتقدون أن لله ولداً هو كفء له.

ثم تقول الرسالة:

«... وهكذا؛ استجابة لما جاء في القرآن الكريم؛ فـإننا ـ كمسلمين ـ ندعو المسيحيين إلى التلاقي معنا على الأسس المشتركة بيننا، والتي هي أيضاً أساسية بالنسبة لديننا وممارسة حياتنا: ندعوهم إلى وصيتَي الحب».

وصيتا الحب كما بيَّنتهما الرسالة هما: حب الله ـ تعالى ـ وحب الجار. لكن حب الله ـ تعالى ـ الذي تفترض هذه الكلمات أنه مشترَك بيننا ليس هو الحب نفسه، كما يتضح من الرسالة نفسها في أماكن أخرى، وكما يمكن أن يفهمه كل متدبِّر لها من النصارى؛ فالرسالة تستدل بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [**البقرة**: ١٦٥].

فالآية لا تنفي حب غير المسلمين لله، تعالى، لكنها تؤكد أن الإيمان بالله ـ تعالى ـ يلزم عنه أن لا يُحَبَّ أحدٌ كحبِّ الله أو أشد، لكن هذا الذي حذَّرتْ منه الآية هو مما يقع فيه معظم النصارى؛ لأنهم يحبون عيسى كحبهم لله أو أشد. ولذلك؛ فإن بعض من أُرسلت إليهم الرسالة قال: إنها تقلل من شأن عيسى.

إن حُبَّ الله ـ تعالى ـ مرتبط في الإسلام بحب رسول الله ﷺ، وهذا أمر أشارت إليه الرسالة نفسها باستدلالها بالآية الكريمة: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**آل عمران**: ٣١].

وبناءً على ذلك؛ فإذا ما نظرنا إلى النصوص الإسلامية نظرة متكاملة تبيَّن لنا أنه ليس هنالك من شيء مشترك بيننا وبين النصارى في مسائل توحيد الله ـ تعالى ـ وحبه، لكن هذا لا يمنع من التعايش معهم، بل والتعاون معهم في أمور يرونها كما نراها من الخير الديني أو الدنيوي.

وهذا معناه أن الحب الحقيقي الذي يثمر عملاً يرضاه الله ـ تعالى ـ لا بد أن يكون مبنياً على اتِّباعٍ لرسولٍ أرسله الله، تعالى.

لماذا هذا الهلع الغربي من الإسلام؟

(البيان ٢٤٦ صفر ١٤٢٩هـ - فبراير ٢٠٠٨م)

عدد المنتسبين إلى الإسلام أقل بكثير من عدد غير المسلمين، بل هو كما يقولون أقل من عدد المنتسبين إلى النصرانية. وعدد الملتزمين من هؤلاء بدينهم: توحيداً وصلاة وصياماً وحجاً وزكاةً أقل بكثير من المنتسبين إليه، والمهتمون من هؤلاء بأمر الدعوة إلى الإسلام ولا سيما في البلاد الغربية، إنما هم طائفة قليلة. وقوة المسلمين الاقتصادية والعلمية والقتالية لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة لِـمَا عند الغربيين من قوة. وبين المنتسبين إلى الإسلام أعداد كبيرة صارت موالية للغرب: فكراً وسياسةً وواقعاً عملياً.

لكن الغرب على الرغم من ذلك يتحدث عن الإسلام وكأنه عدو على الأبواب، ويصفونه بأنه أكبر خطر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. ولذلك تراهم لا يزالون يقومون بالدراسات بعد الدراسات، ويعقدون المؤتمرات عقِب المؤتمرات، ويُصدرون الكتب تِلوَ الكتب والمجلات تِلوَ المجلات، ويقدمون البرامج المسموعة والمشهودة للدعاية ضد الإسلام وبيان خطر المسلمين.

هل لهذا الهلع من تفسير؟

نعم! إن الحضارات تقوم على دعامتين:

- دعامة من المعتقدات والقيم التي صارت تسمى الآن بالدعامة الثقافية.
- ودعامة من المنجزات المادية.

وإذا تحطمت المنجزات المادية أو احتلها عدو وبقي الأساس الثقافي؛ فربما استطاعت الحضارة أن تبني نفسها من جديد. وأما إذا ما تحطم الأساس الثقافي، فقد تحطمت الحضارة مهما سلِمت منجزاتها المادية.

والغربيون يعلمون أنه ليس في مقدور المسلمين اليوم ولا في نيتهم تحطيمُ الجانب المادي من حضارتهم، لكنهم يخشون على جانبها الثقافي. ولهذا الخوف أسباب كثيرة؛ فهم لا يزالون يذكرون كيف انتشرت جيوش المسلمين في العالم كله بما فيه العالم الغربي حتى وصلت إلى مشارف فرنسا، وما يزال بعضهم من أمثال (برنارد لويس) المعروف بعدائه للإسلام يذكِّر الغربيين بأن للمسلمين ذاكرة تاريخية عجيبة، وأنهم لم ينسوا أبداً ما أصابهم بعد ذلك من هزائم أمام الغربيين. وما يزالون يعترفون بأن للإسلام ـ حتى باعتباره عقائد ونظماً اجتماعية ـ ميزةً على ما يعرفون من أديان.

استمع إلى لويس هذا يقول في كتاب له أخير: «لمدة أكثر من ألف عام؛ قدَّم الإسلام المجموعة الوحيدة من القواعد والمبادئ المقبولة عالمياً لتنظيم الحياة الاجتماعية. وحتى في الفترة التي بلغ فيها النفوذ الأوروبي الغاية في البلاد التي سيطر عليها أو حكمتها القوات الأوروبية الإمــبريالية، أو تلك التي ظلت مستقلة؛ فإن الأفكار والاتجاهات

الإسلامية السياسية بقيت ذات أثر عميق وشامل»[1].

ثم إنهم بدؤوا يلاحظون أن هذا التأثير الإسلامي على ثقافتهم وقيمهم بدأ يزداد؛ فماذا يفعلون؟

إنهم في حيرة عظيمة سببها أن مِن أكثر ما يعتزون به في ثقافتهم ويجعلونه معيار فضلها على الثقافات الأخرى؛ هو قضية الحرية التي عمَّقتها الفلسفة الليبرالية: حرية التعبير، والاجتماع، والاعتقاد، والدين، وغير ذلك؛ فإذا حاربوا الإسلام بأن منعوا المسلمين من حرية التعبير أو حرية التدين، كان هذا أمراً متناقضاً مع إحدى مقومات حضارتهم التي يعتزون بها، بل ربما كان هو نفسه سبباً في إعراض بعض أهلها عنها.

إن كونهم يعتقدون أن هذه الحرية من مصلحة مجتمعاتهم أمر لا يتفطن إليه بعض إخواننا؛ فكثيراً ما يقول لي بعض الشباب: إننا لا نسمح لهم بالدعوة إلى دينهم في بعض بلادنا؛ أفليس من حقهم أن يعاملونا بالمثل فيمنعونا من الدعوة إلى الإسلام في بلادهم ومن إنشاء المساجد ومن نشر الكتب؟

فأقول لهم: إنهم لا يسمحون لنا بذلك تفضُّلاً منهم علينا، وإنما يسمحون به لأنهم يعتقدون أن هذه الحرية من مصلحتهم؛ فسماحهم لنا ليس مبنياً على معاملة بالمثل وإنما هو مبني على مبدأ يعتقدونه، أو هكذا يقولون. وأما نحن فلا نرى أن الدعوة إلى الكفر من مصلحة شعوبنا ولذلك لا نسمح بها إن استطعنا، سواء سمحوا هم أم لم يسمحوا.

---

(1) Bernard Lewis, The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror, Random House Trade Paperbacks, New York, 2004, p.13

نرجع إلى موضوعنا؛ لنقول: وأما إذا سمحوا بالدعوة إلى الإسلام حسبما تقتضيه حرية التعبير والتدين؛ فالسماح أيضاً قد يكون خطراً على حضارتهم؛ لأنه ربما أدى إلى اعتناق أعداد منهم للإسلام، أو على الأقل إلى تأثير الإسلام في قيمهم التي يؤمنون بها الآن، وهذا يعني: أنهم إن لم يسمحوا فتلك مصيبة، أو سمحوا فالمصيبة أعظم.

فماذا يفعلون إذن؟

هذا بعض ما نراهم يفعلونه الآن:

١ - أن يعاقبوا بصرامة وربما بقسوة شديدة كلَّ من يقع تحت طائلة قوانينهم المطبقة الآن: لأنه ليس في هذا خروج على مبادئهم، بل ربما كان رادعاً لآخرين ممن يسمَّون بالإرهابيين، وربما كان أيضاً من أحسن الوسائل للدعاية ضد الإسلام في داخل بلادهم وخارجها؛ فالذين يقومون بمثل هذه الأعمال لا يُضعِفون الحضارة الغربية، بل ربما كانوا من حيث لا يشعرون ممن يعطيها سبباً للدفاع عن نفسها دفاعاً مشروعاً. ولذلك؛ فإنه يبدو لي أن أمثال هؤلاء «الإرهابيين» هم من أحب المسلمين إلى الغربيين.

٢ - أن يربطوا بين هؤلاء وبين كل مسلم يُعرَف بنقده للغرب أو قوة استمساكه بدينه: حتى ينفر الناس في بلادهم منهم بسبب ما يسمونه: «الإجرام بالاقتران». ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الدعاية ضد المسلمين قد نجح إلى حد كبير؛ لأنه شوَّه صورة المسلم في أذهان عامة المواطنين وجعلهم يخافون منه.

٣ - أن يعيدوا تفسير مبادئهم وقوانينهم: ليجدوا فيها مسوِّغاً لعقوبات يفرضونها على المسلمين، أو حقوقاً يمنعونهم منها.

٤ - أن يشرِّعوا قوانين جديدة: القصدُ منها محاربة المسلمين والتضييق عليهم، لكنها كثيراً ما تكون متناقضة مع مبادئ الحرية. وما تزال أمثال هذه القوانين تثير جدلاً في الولايات المتحدة لاعتقاد بعضهم بأنه لا مسوِّغ لها، وأن الحكومات إنما تستغل رغبة الناس في الأمن لتسلبهم بعض حرياتهم لأسباب سياسية عارضة.

٥ - من أهم ما أحدثته الرغبة في درء الخطر الإسلامي الرجوعُ إلى ما يسمى بالمجتمع المتجانس: لقد كان الحديث في الغرب قبل ذلك، وبسبب طغيان الليبرالية عن التعددية ولا سيما التعددية الثقافية. لكن الكثيرين منهم بدؤوا الآن يرجعون إلى أفكار قديمة تقول إنه لا يمكن للديمقراطية أن تنجح إلا في مجتمع متجانس في قيمه؛ وبما أن المسلمين ذوو قيم غير موافقة للقيم السائدة في المجتمعات الغربية؛ لذلك كان من الواجب عليهم ليعيشوا في الغرب: إما أن يغيروا من مبادئهم، أو يفسروا الإسلام تفسيراً يتماشى مع الوطن الذي يعيشون فيه، أو يرحلوا عن الغرب.

٦ - كان من أحسن آثار خوفهم من الإسلام أن جعل بعضهم يعيد النظر في حضارتهم ليحاولوا تخليصها من الجوانب التي تضعفها وتجعل الإسلام بديلاً عنها. بعض المتدينين يذكرون أن أهم جوانب الضعف هذه هو انتشار الفحش، لكن مفكرين آخرين يذكرون شيئاً أعم وأخطر، ومن هؤلاء المفكر الأمريكي المشهور (فوكوياما) الذي يقول: «إن مشكلة هجرة المسلمين إلى أوروبا تفرض علينا أن نحدد هويتنا، لكن المشكلة هي أن رجلَ ما بعد الحداثة لم يعد يؤمن بهوية تعتمد على دين أو وطن، بل إن النسبية جعلت الناس ـ لا سيما في أوروبا ـ عاجزين عن أن يتفقوا على شيء مشترك بينهم يقولون: إنه يمثل هويتهم».

ثم يقول: «إذا أرادت مجتمعات ما بعد الحداثة أن تتحرك نحو مناقشة جادة للهوية؛ فإن عليهم أن يكشفوا عن تلك الفضائل الإيجابية التي تحدد ما معنى أن تكون عضواً في جماعة أكبر. وإذا لم يستطيعوا، فمما لا شك فيه أنه سيسيطر عليهم قوم هم على يقين من هويتهم»[1].

لكن شيئاً من هذه الجهود، سواء في البلاد الغربية أو في غيرها التي تحاول أن تطفئ نور الله ـ تعالى ـ لن يكتب لها النجاح أبداً إذا ما استمر الدعاة إلى الدين الحق (كتاباً وسُنة وتأسِّياً بالقرون الخيرة) في دعوتهم وصبروا عليها؛ ذلك لأن من سُنة الله ـ تعالى ـ ألا يضيع مثل هذا العمل هباء، بل لا بد أن يكون له تأثير في كل مكان ينتشر فيه ويُعرف. فإما أن يستجيب له المدعوون فيصلح حالهم، وإما أن يُعرِضوا عنه ويحاربوه فيعاقبهم ربهم.

قال ـ تعالى ـ عن قوم استجابوا: ﴿ **وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** ﴾ [**الصافات** : ١٤٧ – ١٤٨].

وقال عن قوم أعرضوا وحاربوا: ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾. [**فصلت** : ١٧ – ١٨].

---

(1) Francis Fukuyama, Identity, Immigration and Liberal Democracy, Journal of Democracy, April 2006, Vol 17, No. 2.



السلفيون هم العقلانيون!

(البيان ٢٤٨ - ربيع الآخر ١٤٢٩هـ - إبريل ٢٠٠٨م)

قال صاحب العالِم السلفي له وهو يحاوره: إنكم - معشرَ السلفيين - متهمون بأنكم ليسوا بعقلانيين!

قال العالم السلفي: إذا كان المقصود بالعقلانية قبول مقتضيات العقل، بأن تقبل النتائج التي تؤدي إليها الحجة العقلية الصحيحة، وبأن لا يقبل التناقض وألا تُقبَل دعوى إلا بدليل، وإذا كان المقصود به إعمال العقل والتفكر؛ فنحن أجدر من غيرنا بوصف العقلانية.

قال صاحبه: كيف تكونون أكثر عقلانية من غيركم وفيهم من يقدِّم العقل على النص؟ أليس مثل هذا أجدرَ بوصف العقلانية منكم؟

قال العالم: بل هذا من قلة عقلهم.

قال صاحبه: كيف؟

قال العالم: أليسوا مسلمين دلَّتهم عقولُهم على أن محمداً رسول الله ﷺ، وأن الكتاب الذي جاء به هو كلام الله؟

قال صاحبه: بلى!

قال العالم: فقد علموا إذن أن ما قاله الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ هو الحق الذي لا ريب فيه؟

قال صاحبه: أَجَلْ!

قال العالم: فما معنى أن تجعل العقلَ فوق كلام تعلم أنه الحق؟

قال صاحبه: فماذا تقولون أنتم معاشرَ السلفيين؟

قال العالم: نقول ما قال كثير من أئمتنا: إن ما دل عليه العقل الصريح لا بد أن يكون موافقاً لما جاء به النقل الصحيح، فإذا حدث خلاف بينهما في أمر معين؛ فلا بد أن يكون راجعاً إما إلى: خطأ في نقل النص، أو في فهمه، أو في أن ما نُسِب إلى العقل ليس في الحقيقة بعقل صريح.

قال له صاحبه: إن هؤلاء المسمين بالعقلانيين يقولون: إنكم لا يمكن أن تكونوا عقلانيين، وأنتم تبنون دينكم على التبعية لأناس لا مزية لهم إلا أنهم سلف عاشوا في الماضي؟

قال العالم السلفي: نحن أولاً لا نأخذ ديننا من الرجال سواء كانوا في الماضي أو في الحاضر. إن مصدر الدين عندنا هو كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، لا نقدم عليهما غيرهما، كما أمرنا الله – تعالى – بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [**الحجرات**: ١].

قال صاحبه: فما صلتكم بأولئك السلف إذن؟

قال العالم السلفي: دعنا أولاً نحدد ماذا نعني بالسلف. السلف عندنا هم أصحاب رسول الله ﷺ، ثم التابعون لهم، ثم تابعو أولئك التابعين. وصِلَتُنا بهم هي الاقتداء بهم في فهم الدين وتطبيقه لأسباب إذا تدبَّرها الإنسان وجدها في غاية العقلانية.

قال صاحبه: ما هذه الأسباب؟

قال العالم: منها:

أولاً: أن الله - تعالى - قد أثنى على أصحاب رسول الله ﷺ ثناءً يدل على فقههم للدين وإخلاصهم في العمل به، من ذلك قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وثانياً: أن الرسول ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». والخيرية تتضمن الفقه في الدين وحُسْن العمل به، كما قال ﷺ: «من يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقِّهْهُ في الدين».

وثالثاً: أن هذه الأجيال الثلاثة هي الأجيال التي نزل القرآن بلغتها وتكلم الرسول ﷺ بلسانها؛ فهي أجدر بأن تفقه كلام الله وكلام رسوله ﷺ من غيرها؛ ولأن الصحابة منهم عاصروا نزول الوحي، وشهدوا المناسبات التي تكلم فيها الرسول ﷺ، فتعلَّموا منه مباشرة كما تعلَّم بعضهم من بعض.

ورابعاً: أن الله - تعالى - أمرنا بأن نقتدي بكل من شهد له بأنه على الحق، كما قال - تعالى -: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قال صاحبه: لكن هذا معناه أنكم تجمدون على فَهْم قديم للدين ولا تسمحون بفهم جديد له ولا اجتهاد فيه؟

قال العالم:

أولاً: إنه لا يضير الفهم الصحيح أن يكون قديماً أو جديداً؛ فنحن ما نزال نحاول فهم الشعر الجاهلي كما فهمه من سبقنا، ولا يزال الغربيون يحاولون فهم فلسفات اليونان كما فُهمت في عصرها.

وثانياً: إن مما نتلقاه من السلف هو ما يمكن أن تسميه بالإدراك الأساس لمعاني النصوص، وهو إدراك ضروري لكل تفكُّر في النصوص واجتهاد فيها.

قال صاحبه: ماذا تعني؟

قال العالم: أعني: أنك إذا لم تدرك المعنى الأساس للكلام؛ فكيف تتأمله أو تفكر فيه؟

قال صاحبه: إذن؛ فأنتم تُعمِلون العقل حتى في النصوص؟

قال العالم: أجل! لأن ربنا يأمرنا بأن نتدبر كتابه؛ وهل يكون تدُّبرٌ إلا بإعمال العقل؟

قال صاحبه: ما الفرق إذن بينكم وبين من يسمَّوْن بالعقلانيين؟

قال العالم: نحن لا نسلِّم بأنهم هم العقلانيون، بل نرى في منهجهم تناقضاً يتنافى مع العقلانية كما ذكرت لك من قبل.

قال صاحبه: فما مجال العقل في الشرع في رأيكم؟

قال العالم: يُعمَل العقل في مجالات كثيرة بيَّنها القرآن الكريم؛ فمنها إدراك المعنى الأساس، وهو إدراك عقلي يستوي فيه المؤمن والكافر الذي يتكلم اللغة التي نزل بها كتاب الله وتحدث بها رسول الله ﷺ. قال - تعالى -: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٧٥].

إن الإنسان لا يؤمن بكلام أو ينكره، ولا يرويه على حقيقته أو يحرفه؛ إلا بعد أن يعقله.

قال صاحبه: شيء آخر مهم يتهمونكم به ويعدونه أمراً مخالفاً للعقل؛ يقولون: إنه على الرغم من أنكم تقرؤون قول الله - تعالى -: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]، إلا أنكم في الواقع تشبِّهون الله - تعالى - بمخلوقاته حين تصفونه باستواء حقيقي، ونزول حقيقي، أو تقولون: إن له عيناً حقيقية؟

قال العالم: فماذا يقولون هم؟ أيقولون إن الله - تعالى - يصف نفسه بأوصاف غير حقيقية؟

قال صاحبه: يقولون: إن هذه الصفات لا يتصف بها على حقيقتها إلا المخلوقات، ولذلك فلا بد من تأويلها حين يوصف بها الله، تعالى.

قال العالم: هذا أيضاً من قلة عقلهم وضيق عطنهم؛ وإلا فأين وجدت في العقل ما يدل على أن الصفات الحقيقية هي صفات المخلوقات؟ بل إن الذي يدل عليه العقل وتدل عليه المشاهدة؛ هو أن للصفات معانٍ تأخذ كيفيات مختلفة بحسب الموصوف بها؛ فالعين - مثلاً - لها معنىً واحد، لكن عين الإنسان غير عين الحمامة، وعين الحمامة غير

عين الجمل، وهكذا. فإذا صح هذا في المخلوقات التي بينها شبه، فلماذا لا يصح بالنسبة لله الذي ليس كمثله شيء؟

إننا نعرف معاني صفات مثل: العين، والاستواء، والنزول، والرحمة؛ لكننا لا نعرف الكيفيات التي يتخذها حين يتصف بها الخالق، سبحانه. وهذا هو معنى قول الإمام مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

ثم إنك إذا جعلتها قاعدة لك مطَّردة: أن لا تصف الله - تعالى - بصفة يتصف بعض مخلوقاته بمعنى من معانيها؛ انتهى بك الأمر إلى إنكار وجود الخالق؛ لأنك لن تستطيع حينئذٍ أن تصفه - سبحانه - حتى بأنه موجود ما دمت تصف مخلوقاته بهذه الصفة، ولن ينفعك أن تقول: (إنك تلجأ إلى التأويل)؛ لأنك حين تؤول لا بد لك من استعمال صفة الصفات، كل ما هنالك أنك تستبدل بالصفة التي جاءت في كتاب الله صفة أخرى؛ فهل تؤوِّل هذه ثم تؤوِّل التي أوَّلت بها.. وهكذا إلى ما لا نهاية؟

ناصرون للإسلام... من غير أهله

(البيان ٢٤٩ - جمادى الأولى ١٤٢٩هـ - مايو ٢٠٠٨م)

من سنن الله - تعالى - أنه كثيراً ما يؤيد دينَ الحق بأناس لا يؤمنون به، وقد حدث كثير من هذا في الأيام القليلة الماضية.

من ذلك: أنني كنت في بريطانيا للاشتراك في مؤتمر إسلامي بإحدى الجامعات، فشهدتُ الضجة الكبرى التي أثارها كلام كبير أساقفة كانتربري (وهو لقب يلقَّب به رئيس الكنيسة الإنجيلية في العالم) ورئيس الأساقفة هذا هو - بحكم منصبه - عضو في مجلس اللوردات البريطاني.

ألقى هذا الأسقف (وليامز) محاضرة أكاديمية نشرتها بنصها جريدة الجارديان البريطانية، ودعا في نهايتها إلى أن يتضمن القانون البريطاني بعضَ أحكام الشريعة الإسلامية كي يتحاكم إليها المسلمون في محاكم خاصة بهم، وذكر من بين هذه الأحكام أحكام: الزواج، والطلاق، والمواريث والمعاملات، والصلح، لكنه كان قد قدَّم لهذه المقترحات بكلام طويل عن طبيعة القانون في الدولة العَلمانية، وكان مما قاله في ذلك: إن هنالك تحدِّياً متنامياً في المجتمع؛ هو وجود جماعات من المواطنين ليست بأقل من غيرها

التزاماً بالقانون، لكنها تنتمي بحكم معتقداتها إلى شيء آخر غير القانون البريطاني. ثم سأل سؤالاً مهماً فقال: ما الذي نفهمه ونتوقعه من القانون في الدولة العَلمانية؟ وأجاب بأن هنالك خطراً ينشأ عندما يعتقد المتدين أن انتماءه لا يكون إلا إلى جماعته الدينية (الأمة أو الكنيسة)، وأن كل أنواع الانتماءات الأخرى السياسية والاجتماعية هي نوع من الخيانة لجماعته، لكنه ينشأ أيضاً عندما تحتكر الدولة العَلمانية تعريفَ الهويات السياسية والاجتماعية؛ ولذلك أكد أن القضية ليست قضية خاصة بالمسلمين، بل هي قضية تهم كل أصحاب الديانات في دولة عَلمانية.

وما إن نشرت الصحف اليومية خبر ما اقترحه الأسقف حتى هاج الناس في بريطانيا (بلد الديمقراطية) وماجوا. وكان من أبرز من ردوا عليه رئيسُ الوزراء الذي قال على لسان المتحدث باسمه: «إن القوانين البريطانية ستقوم على أساس القيم البريطانية، وإن قوانين الشريعة ليست مسوِّغاً للخروج على القانون القومي». ثم تابعه زعيم المعارضة في نقده للأسقف، بل إن بعضهم طالب بتنحِّيه، واتهمه بعضهم بعدم الإيمان، وهتف بعضهم في وجهه في أثناء أدائه خطبة الأحد في الكاتدرائية، لكن آخرين أيدوه وأثنوا عليه، وأسِفوا أن يحدث مثل هذا السلوك، وعدُّوه عاراً على بريطانيا.

لكن من أغرب ما حدث هو أن بعض النواب المسلمين في البرلمان البريطاني؛ كانوا ممن احتج على كلام الأسقف بحجة أنهم مواطنون بريطانيون لا يجدون حرجاً من الالتزام بقانون البلاد!

اقترحت في أثناء وجودي في بريطانيا في بعض اللقاءات؛ على إخواننا المسلمين أن ينتهزوا هذه الفرصة ليبينوا للناس أن هذا الذي اقترحه الأسقف في معاملة المسلمين هو جزء من القانون الإسلامي في معاملة أهل الكتاب.



أما الـنـاصـر الـثـانـي للإسـلام فهو جرام فولر Graham Fuller الذي قالت عنه مجلة السياسة الخارجية Foreign Policy التي نشرت مقاله: إنه كان في السابق نائب رئيس المجلس الأمني القومي في وكالة السي آي إيه C I A، وهو الآن أستاذ تاريخ غير متفرغ في جامعة كندية. وهو مؤلف عدة كتب عن الشرق الأوسط، منها كتاب: مستقبل الإسلام السياسي.

أحصى الكاتب في هذا المقال أهم التهم التي يوجهها الغرب ضد الإسلام: أن الإسلام هو سبب العلاقة العدائية بين الغرب والشرق الأوسط، وأنه هو سبب عدم الوصول إلى حل المشكلة الفلسطينية، وأنه سبب الدكتاتوريات في بلاد الشرق الأوسط، وأنه سبب الإرهاب. وقال: إنها كلها تُهَم باطلة. وليبرهن على بطلانها؛ طَلَبَ من القارئ في بداية المقال أن يتصور عالماً لا إسلام فيه، فسيكون هنالك شرق أوسط مكون من: عرب، وفرس، وترك، وأكراد، ويهود، وبربر، وباشتون. ولو لم يكن هؤلاء مسلمين؛ لكانت المسيحية هي الدين السائد بينهم كما كانت قبل الإسلام؛ هل كان هذا سيجعل الشرق الأوسط في توافق مع أوروبا؟

كلا؛ فإن أوروبا لها مطامع (جيوسياسية واقتصادية) في الشرق الأوسط ما كانت لتتنازل عنها؛ لأن سكانه من المسيحيين؛ فحروبها الصليبية لم تكن في حقيقتها حروباً دينـية، وإنما كانـت لمـآرب دنـيـوية استُغِل الدين لتسويغها. وما كان مسيحيو الشرق الأوسط سيرحبون بمسيحيين يأتون من الغرب ليحتلوا بلادهم، ولينهبوا خيراتها، وليقسموها تقسيماً يتوافق مع مصالحهم. وإذاً؛ فإن موقفهم من الغرب كان سيكون كموقف المسلمين اليوم، كما فعلت شعوب غير إسلامية في أمريكا اللاتينية وفي الهند.

ماذا عن الدكتاتورية؟ وهل كان الشرق الأوسط سيكون أكثر ديمقراطية لو لم يكن مسلماً؟

لكن أوروبا غير المسلمة نشأت فيها دكتاتوريات بشعة؛ فإسبانيا والبرتغال لم تنتهِ دكتاتوريتاهما إلا في أواسط السبعينيات، واليونان خرجت من دكتاتورية مرتبطة بالكنيسة قبل عهود قليلة. وروسيا المسيحية ما تزال في قبضة الدكتاتورية، وأمريكا اللاتينية عانت من دكتاتوريات كانت تحكم بمباركة الولايات المتحدة وبمشاركة من الكنيسة الكاثوليكية. والدول الإفريقية المسيحية ليست بأحسن حالاً؛ فلماذا إذاً الشرق الأوسط غير الإسلامي سيكون أحسن؟ وفلسطين هل كانت ستختفي مشكلتها لو لم يكن سكانها مسلمين؟

كلا؛ ذلك لأن المعاملة المسيحية الأوروبية السيئة لليهود التي انتهت بالمحرقة؛ كانت ستحدث، وكانت ستدفع اليهود لأن يبحثوا عن أرض لهم خارج أوروبا، وكانوا سيعتدون على الفلسطينيين ويستولون على أرضهم. والعرب النصارى ما كانوا سيرضون بهذا الاستيلاء على بلادهم، والعراقيون حتى لو لم يكونوا مسلمين ما كانوا سيرضون بأن تُحتَل بلدهم. والغرب لم يخلع صَدَّاماً لأنه مسلم؛ فقد كان في الحقيقة رجلاً قومياً عَلمانياً.

ولكن مما لا شك فيه أنه لولا الإسلام الذي وحَّد شعوب هذه المنطقة وأعطاها قيماً تعتز بها؛ لكان من الأسهل على الاستعمار الغربي في عالم لا إسلام فيه؛ أن يقسِّم ويحتل ويسيطر على بلاد الشرق الأوسط وآسيا. وهذا هو السبب الذي يجعل الولايات المتحدة اليوم تهيج غضباً على الإسلام.



ما بال الإرهاب؟

يقول الكاتب: إن ذاكرة الغرب بالنسبة للإرهاب قصيرة. ثم يذكِّرهم بأنواع من الإرهاب لم يكن للمسلمين به علاقة: اليهود لجؤوا للإرهاب في حرب العصابات ضد البريطانيين في فلسطين، والتاميل الهندوس هم الذين لجؤوا لاستعمال القنابل الانتحارية في قتلهم رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي، والإرهابيون اليونان قاموا بعمليات اغتيالات للموظفين الأمريكان في أثينا، والإرهابيون السيخ المنظمون قتلوا أنديرا غاندي وأشاعوا الذعر في الهند، وجعلوا لهم قاعدة في كندا، وأسقطوا طائرة هندية على الأطلسي. والإرهابيون المقدونيون كان الناس يخشونهم في بلاد البلقان عامة قبل الحرب العالمية الأولى. والفوضويون من الأمريكان والأوروبيين قاموا بعمليات اغتيالات كثيرة وكبيرة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أشاعت الرعب الجماعي. والجيش الإيرلندي الجمهوري ظل سنين يستعمل وسائل إرهابية مؤثِّرة ضد الجنود البريطانيين؛ كما فعل الإرهابيون وجنود العصابات ضد الأمريكان في فيتنام، وكما فعل الشيوعيون الماليزيون ضد البريطانيين في الخمسينيات، وكما فعل الإرهابيون الماوماو ضد البريطانيين في كينيا، والقائمة تستمر...

إنه ليس من شرط مرتكب الإرهاب أن يكون مسلماً.

وحتى النشاط الحديث للإرهاب لا يبدو مختلفاً كثيراً؛ فالإحصاءات الأوروبية تقول إنه ارتكب في الاتحاد الأوروبي ٤٩٨ حادثة إرهاب في عام ٢٠٠٦م، ارتكبت منها الجماعات الانفصالية ٤٢٤، وارتكب اليساريون المتطرفون ٥٥، وارتكبت جماعات متطرفة أخرى ١٨؛ ولم يرتكب المسلمون منها إلا واحدة.

وإذا كان الدافع للمسلمين هو كراهة الغرب وحداثته؛ فلماذا انتظروا حتى ١١/ ٩ ليشنوا هجومهم؟ ألم يكن كثير من المسلمين يدعون في بداية القرن العشرين إلى التحديث مع البقاء على القيم الإسلامية؟ حتى أسامة بن لادن لم يقل إن دوافعه لشن الهجوم هي كراهيته للتحديث؛ وإنما ذكر أسباباً أخرى.

إن كراهية المسلمين للغرب سببُها السياسات الغربية ضدهم، التي استمرت مدة من الزمان. وبناءً على ذلك؛ فإنه إذا لم تحدث ١١/ ٩ فقد كان سيحدث شيء مثلها.

ويذكِّرهم أن كل الدواهي العظيمة التي حدثت في القرن العشرين، إنما أحدثتها أنظمة عَلمانية: ليوبولد الثاني في الكونغو، وهتلر، وموسوليني، ولينين، وإستالين، وماون، وألبوت بوت. لقد كان الأوروبيون هم من أصابوا بقية العالم مرتين بدواهي «حروبهم العالمية»: نزاعين عالميين مدمرَين ليس لهما ما يشبه المثيل في التاريخ الإسلامي.

وجدتُ في برنامج تلفازي فرصة قصيرة لمناقشة الكاتب في مقاله؛ فذكرت له أنه أحسن في ردِّه على التهم الموجَّهة من الغرب ضد الإسلام، لكنَّ ما أسماه بالخيال التاريخي فيه نوع من التناقض؛ وذلك لأنه بينما افترض عالماً لا إسلام فيه، افترض أوروبا كما هي الآن. لكن الواقع أن الإسلام كان من بين العوامل التي صنعت أوروبا الحديثة، ولا سيما بما أخذته منه من منهج علمي واكتشافات أخرى ما يزال كثير من العلماء في الغرب يعترفون بها.

أقول: إننا نشكر لكل من يعترف بالحق اعترافه به ودفاعه عنه، لكننا في الوقت نفسه لا نغتر فنقول: إنه يؤمن بالإسلام أو يعترف به؛ ففي كلام هذين الرجلين كثير مما لا يوافق عليه المسلم ولا يرضاه.

أمُدَّعٍ جناياتٍ هو، أم مرتكب جناية؟

(البيان ٢٥٣ - رمضان ١٤٢٩هـ - سبتمبر ٢٠٠٨م)

إن كثيراً من المسلمين المعتزِّين بدينهم يعلمون - والأسى يملأ قلوبهم - أن الحضارات التي تسيطر على العالم اليوم - بما في ذلك عالمهم الإسلامي - حضاراتٌ لا تعترف بما جاء به رُسُل الله ولا تجعل له اعتباراً في فكرها وتصرُّفاتها.

لكن بعض هؤلاء المؤمنين الصادقين المستبصرين - دعك من غيرهم من الغافلين ومن ضعفاء الإيمان - كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة في حياتهم اليومية؛ فيتصرفون مع مؤسسات تلك الحضارات وكأنه أمر طبيعي أو كأنه من لوازم العصر التي لا يعترض عليها إلا من يتوهَّم أنه يمكن أن يعيش خارج التاريخ؛ كما يقولون.

إننا ننسى - مثلاً - أن ما يُسمَّى بـ (وثيقة حقوق الإنسان) هي من تأليف محامٍ فرنسي، لكنها صارت كأنها مما جاءت به رُسُل الله أو أجمع عليه عباد الله؛ فلا يجوز لأحد أن يخرج على إجماعهم. وقُلْ مثل ذلك عن قوانين هيئة الأمم أو مجلس الأمن، أو القانون الدولي، أو محكمة العدل الدولية.

وإذا كان الغافلون أو الضعفاء منَّا ينظرون إليها هذه النظرة؛ فما هكذا ينظر إليها أهلها الذين يعلمون حقيقتها؛ فهم أكثر جرأة على نقدها وعلى اقتراح البدائل لها. أما المقلِّدون لهم فيعتقدون أن ما يراه الغربيون هو من لوازم العصر ومن مقتضيات الحضارة؛ فلا يستطيعون فعل شيء من هذا؛ إنهم لا يريدون الاعتراف بأنها من صنع أفرادٍ من البشر، وحتى إن اعترفوا بذلك فإنما يعدُّون هؤلاء الأفراد ناطقين باسم العصر ومعبِّرين عن إرادته.

جالت في ذهني هذه الخواطر وأنا أتفكَّر في الموضوع الذي أصبح الشغل الشاغل لأهل السودان في هذه الأيام، إنه موضوع الاتهامات التي وجَّهها مدَّعي ما يسمى بـ (محكمة الجنايات الدولية) ومطالبته بإيقاف رئيس البلاد وتسليمه إلى المحكمة لمحاكمته.

إن المدَّعي الذي طالب بتوقيف رئيس بلد إسلامي يدَّعي أنه إنما فعل ذلك لتأخذ العدالة مجراها، ولأن هذا الرئيس متَّهم بارتكاب جرائم فظيعة؛ منها: ما يسمى بالإبادة الجماعية، وما سُمِّي بالتطهير العِرْقي وبجرائم الحرب.

أقول: هل يعترض إنسان سويٌّ على أن تأخذ العدالة مجراها؟ وهل يعترض إنسان سويٌّ على معاقبة من تثبت ضده مثل تلك الجرائم الفظيعة؟

أمَّا نحن - المسلمينَ - فلا اعتراض لنا على ذلك؛ لأننا أهل دين قائم كله على العدل، وأهل دين يقوم على الاعتراف لله - تعالى - بحقه؛ وحقُّه أن يُعبَد وحده فلا يُشرَك به، وهذا هو معنى قولنا: (لا إله إلا الله)، ولهذا كان الشرك بالله - تعالى - أكبر ظلم، كما قال لقمان واعظاً ابنَهُ: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وإذا كان هذا التوحيد أساس العدل؛ فإن كل تفاصيل العدل إنما تقوم عليه. قال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

فنحن لا اعتراض لنا من حيث المبدأ على إقامة العدل ومعاقبة المجرمين، لكن الذي ينساه الناس وينساه حتى بعض أولئك المسلمين الصادقين هو: مَن المؤهَّل لإقامة العدل بين الناس؟ وبأيِّ قانون وقِيَم يقيم مثل هذا العدل؟

فَلْنأخذ هذه المحكمة مثالاً لنرى كيف أنها قامت منذ بدايتها على الظلم؛ لأن هذه المحكمة نشأت في بدايتها باتفاق بين الدول الأوروبية على ما يسمى بـ (نظام روما). اقتضى هذا النظام أن تتنازل كل دولة من الدول المنشئة للمحكمة عن سيادتها فيما يتعلق بتلك الجرائم وتعطي هذا الحق لتلك المحكمة حتى لو كان المتَّهم أحد مواطنيها.

قد تقول: هذا من حقِّهم. حسناً! لكنهم بعد ذلك أعلنوا عن محكمتهم ودعوا غيرهم إلى أن يشاركهم في الاعتراف بها، وأن يوقِّع على ذلك، فاستجابت بعض الدول ووقَّعوا. قد تقول أيضاً: وهذا أيضاً من حقِّهم. ونقول: حسناً! لكن الشيء الغريب الذي حدث بعد ذلك أنهم استصدروا قراراً من مجلس الأمن يقضي بأنه يحقُّ لكل دولة موقِّعة على ميثاق المحكمة أن تقدِّم شكوى ضدَّ أيِّ دولة لم توقِّع على الميثاق بارتكاب تلك الجرائم. وكانت الدولة التي تقدَّمت بالشكوى ضد السودان هي فرنسا.

وهذا أمر مجافٍ للعدالة للأسباب التالية:

أولاً: لأنه يجعل الموافقة على التحاكم إلى المحكمة والتوقيع على ذلك عبثاً؛ فهو بذلك يساوي بين الموقِّعين وغير الموقِّعين!

ثانياً: أنه لما كان من بين الدول التي لم توقِّع دول كبيرة، بل أكبر الدول وأقواها؛ وهي: الولايات المتحدة والصين وروسيا؛ فإن القرار بأن للمحكمة ولاية قانونية على كل الدول لا معنى له ولا عدل فيه؛ لأنه من المعلوم أنه لن يستطيع أحد أن يُخْضِع هذه الدول لأمر لا توافق عليه.

إن دستور الولايات المتحدة - مثلاً - لا يُلزِمها إلا بقرارات مجلسها التشريعي (الكونغرس)؛ فهي ليست مُلْزَمة بقرارات مجلس الأمن، ولا هيئة الأمم المتحدة، ولا غيرها من المنظمات الدولية؛ ما لم يوافق (الكونغرس) عليها، ويكون التزامها بها حينئذٍ مبنيّاً على أنها قرارات مجلسها التشريعي لا قرارات الجهة التي أصدرتها أولاً.

ثالثاً: السؤال الذي تبادر إلى أذهان كثير من الناس أنه إذا كان رئيس الدولة السودانية مسؤولاً عن كل الجرائم التي حدثت في دارفور - إن كان ثمَّة جرائم كتلك التي ذكرها المدَّعي - فلماذا لا يكون (بوش) و (بلير) مسؤولَيْن أيضاً عمَّا حدث في أفغانستان والعراق؟ يبدو مما يقوله المدَّعي أن (البشير) مسؤول؛ لأنه حاكم دكتاتور لا يحدث شيء إلا بإذنه وموافقته. لكن الزعم بأن رئيس الدولة السودانية دكتاتور هو دعوى كاذبة حتى بالمقاييس الغربية؛ لأن الحكومة في السودان تسمى حكومة وحدة يشارك فيها حزبان كبيران، فإذا كان البشير (وهو من حزب المؤتمر) رئيساً للجمهورية؛ فإن نائبه (سلفاكير) من حزب الحركة الشعبية.

ثم كيف يكون الوضع في السودان دكتاتورياً مع وجود أحزاب كبيرة معارضة، مثل: حزب الأمة القومي، والحزب الاتِّحادي، وقد عبَّر كلاهما عن معارضتهما لقرار المدَّعي من منطلق وطني لا بإملاءٍ من الحكومة. بل إن حزباً صغيراً لا يُؤْبَهُ له

صرَّح زعيمه بموافقة (أوكامبو) ودعا إلى تسليم الرئيس إلى المحكمة، وهو مع ذلك يعيش آمناً في بيته؟ أيُّ دكتاتورية هذه؟

رابعاً: إن من مقتضيات العدالة أن لا تؤلِّب الرأي العام على المتَّهم تأليباً قد يؤثِّر على القضاة كما يؤثِّر على الرأي العام فيجعله مهيّاً لأيِّ حكمٍ قاسٍ يصدر ضده، وهذا ما فعله المدَّعي.

خامساً: إن من مقتضيات العدالة التي تعلَّمناها من ديننا أن العقوبات لا تكون في فراغ، وإنما يراعى فيها زيادة الخير أو تقليل الشر، ولذلك لما قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

أردف ذلك بقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤].

وقد نبَّه كثير من الناس في العالم كله إلى أن مطالبة المدَّعي بتسليم الرئيس (البشير) ومحاكمته في وقت تستعر فيه الحرب بين حكومته والخارجين عليها في دارفور؛ لن يزيد الأمر إلا سوءاً، ولن تكون نتائجه إلا التقليل من فرص السلام وإخماد نار الفتنة.

سادساً: إنك حين تستمع إلى ما يقوله بعض من عرف المدَّعي العام وما اتُّهم به من تحرُّش بنساء كُنَّ يعملن معه، وما اتُّهم به من سوء استعماله لسلطته؛ لا تدري أأنت أمام مدَّعي جنايات أم أمام مرتكب جناية؟ كيف يصلح رجل كهذا أن يكون مدَّعياً في قضايا كبيرة كهذه، وضد أناس كبار كالرئيس السوداني؟

نعود إلى المحكمة: يقال لنا: إنها محكمة مستقلة. كيف تكون مستقلة وقد أنشأتها - كما رأينا - دول أوروبية معينة هي التي وضعت نُظمها وقوانينها، واختارت قُضاتها وموظفيها، وهي التي تؤويها وتموِّلها، وتعطيها من القوة ما يجعلها قادرة على البحث عن متَّهميها أينما كانوا وإحضارهم قسراً إلى مقرِّ إقامتها؟ إذا لم يكن هذا استعماراً؛ فماذا تعني كلمة الاستعمار؟ لماذا نُخدع بتغيير صور الاستعمار وأشكاله ونحن نرى حقيقته متضمنة في طيَّات هذه الصور والأشكال؟

والذي يدعونا إلى أن نكون على حذرٍ من كيد الغربيين أنهم دأبوا على تغيير مبادئهم وما يسمونه بقيمهم تغييراً لا يجعلك تثق بها أو تطمئنُّ إلى وعودهم.

لقد كانت السيادة الوطنية - مثلاً - من المبادئ التي نشروها في العالم وعدُّوها من أهمِّ سِمَات الدولة الحديثة، لكنهم يخرجون عليها في محكمة الجنايات الدولية. وكانوا يعدُّون القانون الدولي من أهمِّ منجزاتهم الحديثة، ولكنَّ جماعة من كبار الساسة الأمريكان يدعون الآن إلى إلغاء هذا القانون بحجة أنه إنما صُنع في ظروف خاصة عندما كانت هناك قوتان كبيرتان. أما الآن والعالم يعيش في ظلِّ قوة كبيرة واحدة؛ فلا شيء يُلزم هذه القوة بقانون لا تراه في مصلحتها في ظروفها الجديدة.

أقول: إذا كان الأمر كذلك؛ فما الذي يمنع هذه الدول من أن تأتي بقوانين أو مبادئ أخرى تقول: إنها عالمية، وأنها لازمة للبشرية، وأن كل من يخرج عليها فهو مستحقٌّ للعقاب؟! ما الذي يمنعها - مثلاً - من أن تقول: إنه ما دامت الديمقراطية قيمة إنسانية - كما يقولون الآن - فإن كل دولة لا تلتزم بها، ولا يكون فيها أحزاب كأحزابهم وانتخابات كانتخاباتهم، وصحف كصحفهم، ورأسمالية كرأسماليتهم، فهي

دولة دكتاتورية ورأس الدولة فيها غير شرعي، ولذلك فإنها تستحق أن تُغزى وأن تغيَّر الأوضاع فيها بقوة الجيوش الغربية؛ كما حدث في العراق؟

أقول بعد هذا: إذا كان الأمر بالصورة التي ذكرناها أفلا يكون من حقِّ السودان ممثَّلاً في رئيسه أن يرفض مقدَّماً التحاكم إلى هذه المحكمة أو المثول أمامها؟ بلى! وقد فعل؛ فنسأل الله - تعالى - له العون والتوفيق والسداد.

الإيمان الشامل

(البيان ٢٥٤ - شوال ١٤٢٩هـ - أكتوبر ٢٠٠٨م)

في بريطانيا عالِم أحياء مشهور ظل منذ سنين يدعو إلى الإلحاد، وهو من المؤمنين بالدارونية ومن الفئة التي ترى أن الإلحاد نتيجة حتمية لها، وكتب مؤخراً كتاباً كان من أكثر الكتب ذيوعاً في بريطانيا وأمريكا وربما في أوروبا.

وفي جامعة أسكس (Essex) ببريطانيا طلاب مسلمون ينظمون لقاء سنوياً يسمونه (أسبوع الإسلام) يدعون إليه غير المسلمين مع المسلمين لتعريفهم بالإسلام . طلب مني هؤلاء الطلاب مشكورين أن أشارك بورقة في لقائهم الأخير الذي عقد في فبراير من هذا العام الميلادي ٢٠٠٨م؛ فاستأذنتهم في أن تكون كلمتي نقداً لبعض ما جاء في ذلك الكتاب؛ فوافقوا.

من المسائل التي علَّقت عليها، نَقْده للذين يقولون بضرورة الدين للأخلاق، واستدلاله على ذلك بدراسة أُجريت في أمريكا جمع فيها الباحثون عدداً من الناس من المؤمنين والملحدين وسألوهم عن رأيهم في بعض القضايا التي تحتاج إلى تقويم خُلقي؛ فكانت النتيجة أنه لم يكن هناك فرق بين الطائفتين في تقويمهما. قلت في تعليقي: إن هذا



ليس بمستغرب؛ لأن الله - تعالى - فطر العباد على معرفة الخير وحبه، وأن الدين يأتي موافقاً لهذه الفطرة ومكمِّلاً لها؛ فليس بمستغرب إذن أن تجد إنساناً ملحداً يرحم بعض الناس ويساعدهم، أو يكره الظلم، أو يحب الصدق، وهكذا. ولولا هذا الميل الفطري إلى الخير لما استطاع إنسان أن يميز بين النبي الصادق ومدَّعي النبوة، ولا بين خصال الخير التي يدعو إليها النبي وخصال الشر التي ينهى عنها.

ما علاقة الدين بالأخلاق إذن؟ قلت: إن الإيمان بالله يقوي الفطرة التي هي سبب ذلك الخير ويكمِّلها، فيكون حبها للخير أقوى والتزامها به أشد. ثم إن رسالات السماء التي يأتي بها الأنبياء تفصِّل للناس كل أنواع الخير التي تتوافق مع فطرتهم والتي تسعد حياتهم، ثم هناك الجزاء الأخروي؛ فالمؤمن يعمل الخير؛ لأنه يحبه بفطرته، ولأن الله - تعالى - بفضله يجزيه على الخير خيراً: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ [**الرحمن: ٦٠**].

ذلك بعض ما قلت في المؤتمر، لكنني ظللت أفكر في الأمر بعد انتهاء المؤتمر؛ فقلت في نفسي: إن كثيراً من الناس لا يميزون بين التصديق بوجود الخالق والإيمان به مع أنهما أمران مختلفان. الإيمان أمر زائد على التصديق؛ الإيمان يعني: الثقة بمن تؤمن به والاطمئنان إليه؛ ولذلك فإننا - معاشر المسلمين - نصدق بوجود الشياطين لكننا لا نؤمن بهم، بل إن الذين يؤمنون بهم هم الكفار الذين قال الله - تعالى - فيهم على لسان ملائكته: ﴿**بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ**﴾ [**سبأ: ٤١**].

والشيطان من أكثر المخلوقات تصديقاً بوجود الخالق، لكنه ليس مؤمناً به بدليل اعتراضه على أمر ربه له بالسجود لآدم.

التصديق بوجود الخالق هو الخطوة الأولى، لكنها خطوة تقتضي خطوات أخرى لا يخطوها كثير من الناس ولا يلتزمون بلوازمها، وهذا هو السر في كونهم معدودين في كتاب الله من الكفار رغم تصديقهم بوجود الخالق.

إن التصديق بوجود الخالق يقتضي من المصدِّق أن يعبده ولا يعبد أحداً سواه؛ لأن العبادة إنما هي في جوهرها تعبير عن الشكر، فإذا أقرَّ الإنسان بأن الله هو الخالق لكل شيء لزمه أن يعتقد بأنه هو وحده المستحق لأن يُعبَد، قال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

هذا الإيمان بالله يقتضي الإيمان برسالاته؛ لأن الذي آمن بربه وعرفه يعرف أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً عبثاً؛ فلا يمكن إذن أن يخلق عباداً ثم لا يهديهم إلى ما هو خير لهم. كيف يمدُّهم الله - تعالى - بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم البدنية ثم لا يمدُّهم بما يحتاجون إليه في حياتهم الروحية؟ ولذلك قال - تعالى -: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

والإيمان بالرسالات يقتضي الإيمان بالرسل كلهم؛ لأنه لا تكون رسالة إلا برسول، كما يقتضي الإيمان بالملائكة الذين يحملون هذه الرسالات إلى الرسل. والإيمان برسالات الله وكتبه وملائكته، وبأنه هو خالق السماوات والأرض، وبأنه - تعالى - منزَّه عن العبث؛ يقتضي الإيمان بالدار الآخرة التي يجد فيها المحسن جزاء إحسانه والمسيء جزاء سيئاته. قال - تعالى -: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقال - سبحانه -: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقال - سبحانه -:﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦].

والتصديق بكون الله - تعالى - هو الخالق يقتضي الإيمان بأنه هو الذي يقدِّر المقادير ويعلم ما سيكون وهذا هو معنى الإيمان بالقدر.

فما نسميه أركان الإيمان ليس هو إذن حقائق منفصل بعضها عن بعض، وإنما هي كلها من مقتضيات التصديق بأن الله - تعالى - هو الرب الخالق الذي لا رب سواه؛ فهي إذن جزء من الإيمان به تعالى؛ فلا يكون الإنسان مؤمناً به - سبحانه - إذا هو أنكر شيئاً منها، ولا تكون الثمرات العملية للإيمان بالله كاملة إلا لمن آمن بهذه الأركان كلها التي هي من لوازم الإيمان بالله تعالى. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أن بعض هذه الأركان يقتضي بعضاً، وأن ثمراتها إنما تكون بالإيمان بها كلها.

من ذلك قوله - سبحانه - في الآية المشهورة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فذكر في أولها أركان الإيمان: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ثم بيَّن بعد ذلك الثمرات العملية لهذا الإيمان فقال - سبحانه -: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكما أن هذه الحقائق هي أركان الإيمان ولازمة عنه، وكما أن تلك الأعمال الصالحة هي من ثمراتها؛ فإن بعضها يقتضي الإيمان ببعض ويقتضي فعل بعض الحسنات؛ فالإيمان بالدار الآخرة يلزم عنه الإيمان بالرسالة كما قال - تعالى -: ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ٩٢].

هذه الحقائق التي ذكرناها مهمة جداً في عصر تكاثر فيه - بحمد الله - الدعاة إلى الإسلام، واشتدت فيه الرغبة في معرفته من غير المؤمنين به بدوافع حَسَنة أحياناً وسيئة أحياناً أخرى. إن واجبنا هو أن نبيِّن هذا التصور الإسلامي للإيمان؛ وإلا فلا نكون قد بلغنا رسالة ربنا. يجب أن لا ننساق وراء مخالفينا في هذه القضية الأساس فنُظْهِر لهم أن ما يسمونه إيماناً بالله هو بعينه الذي نسميه نحن إيماناً، وأننا لذلك نكون جبهة واحدة ضد الملحدين؛ لأن كثيراً مما يسمونه إيماناً لا يكاد يوجد فرق عملي بينه وبين الإلحاد. لكننا نقول مع ذلك: إنه ما دام التصديق بوجود الخالق شرطاً ضرورياً للإيمان الذي ذكرناه؛ فإن المصدِّق يكون أقرب إليه من الملحد المكذب.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الأزمة المالية... ومبادئ الاقتصاد الإسلامي

(البيان ٢٥٥ - ذو القعدة ١٤٢٩هـ - نوفمبر ٢٠٠٨م)

من النتائج العجيبة للأزمة المالية التي بدأت في الولايات المتحدة ثم أخذت تجتاح أوروبا والعالم من ورائها؛ أنها لفتت أنظار كثيرين من رجال الاقتصاد والسياسيين في أوروبا إلى مبادئ الاقتصاد الإسلامي وإمكانية أن يكون بديلاً للنظام السائد وعلاجاً لما تسبَّب فيه من مشكلات.

وقصة الدعوة إلى بناء المؤسسات الاقتصادية الحديثة على أسس من مبادئ الاقتصاد الإسلامي؛ قصة فيها كثير من الروعة، قصة جمعت بين الدعوة بالأدلة العلمية والأمثلة العملية؛ فكتب الله لها نجاحاً كبيراً. بدأت هذه القصة في الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي فيما أذكر؛ فقد دعا خبراء اقتصاديون إسلاميون في مصر وباكستان - وربما في أماكن أخرى لم أطَّلع عليها - إلى ما أسموه بـ (المصارف غير الربوية). وكان من أبرزهم: الاقتصادي الباكستاني نجاتي صديقي. ولم تكن دعوتهم دعوة مجردة إلى الأخذ بالمبادئ الإسلامية، بل إنهم استفادوا من خبرتهم في مجال المصارف ليبيِّنوا أن هذا أمر ممكن، بل ليقترحوا الطرائق العملية لتنفيذه. وكان من الطبيعي أن

يسخر منهم المقلِّدون لكل ما هو غربي؛ الذين يظنون أن كل مؤسسة غربية سياسية كانت أو اقتصادية أو تربوية أو غير ذلك هي من لوازم العصر، وأن كل بديل لها إنما هو خرافة أو شيء قد عفى عليه الزمن، لكن هؤلاء الرواد كانوا على يقين من صحة ما يقولون، ولذلك استمروا في كتاباتهم عن البنوك غير الربوية غير عابئين بأقوال هؤلاء العميان.

ثم تطوَّر الأمر إلى أن صارت المؤتمرات تُعقد عن الاقتصاد الإسلامي، ربما كان أولها المؤتمر الذي عُقد في مكة المكرمة في عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) تحت عنوان «المؤتمر الأول للاقتصاد الإسلامي» الذي تشرَّفتُ بحضوره.

ثم إن بعض رجال المال الذين اقتنعوا بالفكرة أقدموا على وضعها موضع التنفيذ، وربما كان بنك دبي الإسلامي أولها، ثم تبعه أو زامنه بنك فيصل الإسلامي. وقد اعترض على الفكرة في صورتها العملية أصحابُ البنوك الربوية التقليدية، وحاولوا أن يحاربوها، كما اعترض عليها بعض المتدينين الذين يظنون أنه لا يكون الشيء إسلامياً إلا إذا كان أمراً لا نقص فيه، فبدؤوا لذلك يتتبَّعون مواطن الخلل فيها، ويجعلون ذلك وسيلة لمحاربتها. ولا زلت أذكر كيف أن بعضهم ذكر لشيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز بعض مواطن الخلل هذه في ندوة عامة عُقدت في الرياض لمناقشة قضية البنوك الإسلامية؛ فكان ردُّ الشيخ الفقيه كلاماً فحواه أنها مع عيوبها خير من المصارف الربوية البحتة.

ثم تعددت هذه المصارف الإسلامية وانتشرت - بحمد الله تعالى - في كثير من بلدان العالم الإسلامي، ثم في سائر بلاد العالم، ومن بينها: أوروبا وأمريكا، فعرفها بعضٌ من خبراء الاقتصاد ومن عامة الناس.

واستمرت فكرة المصارف غير الربوية تتطور على الصعيد العلمي النظري وعلى الصعيد العملي. وأعرف شباباً مسلمين اختصوا بعلم الاقتصاد في الجامعات الأمريكية

كانت رسائلهم عن الربا وفوائد إلغائه من المعاملات المالية الحديثة؛ بل إن بعض الجامعات بدأت تهتم بمبادئ الاقتصاد الإسلامي وظلت تعقد عنه منتديات سنوية كان آخرها المنتدى الثامن الذي عُقد في أبريل من هذا العام الميلادي والذي يحدثنا عنه الأستاذ المسلم علي خان (أستاذ القانون في إحدى الجامعات في ولاية كنساس في الولايات المتحدة)، فيقول: إن التمويل الإسلامي بدأ يجذب أنظار كثير من الأكاديميين، وإن كثيراً من الذين شاركوا في المنتدى كانوا يتساءلون عما إذا كان الأخذ بمبادئ التمويل الإسلامي سينقذ المصارف الأمريكية من التصدُّع الذي تعانيه الآن؟[1]

ثم جاء الحدث الذي روته وكالة الأخبار الإسلامية والذي تقول فيه:

دعا مجلس الشيوخ الفرنسي إلى ضمِّ النظام المصرفي الإسلامي إلى النظام المصرفي في فرنسا، وقال المجلس في تقرير أعدَّته لجنة تُعنَى بالشؤون المالية في المجلس: إن النظام المصرفي الذي يعتمد على قواعد مستمدة من الشريعة الإسلامية مريح للجميع؛ مسلمين وغير مسلمين. وسيزعج هذا الخبر كثيراً من العَلْمانيين في بلادنا، وحق للعَلْمانيين أن ينزعجوا؛ لأن الثناء على مبادئ الاقتصاد الإسلامي لن يقف عند حدود الاقتصاد، بل لا بد أن يقول بعض العقلاء لأنفسهم: إذا كان هذا الدين صحيحاً في نظرته إلى الاقتصاد، وإذا كان الأخذ بمبادئه سينجينا من هذه الكوارث الاقتصادية؛ فربما كان حقاً في جوانبه الأخرى أيضاً. ربما قال بعض العقلاء منهم هذا؛ لا سيما إذا رأوا كيف أن ما حدث لبنوكهم هو صورة حسية للمَحْق الذي ذكره الله - تعالى - في قوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وهل رأيت من مَحْق أكثر من أن تفلس مؤسسات جمعت البلايين من الأموال بالربا ثم صارت تحتاج إلى إنقاذ؟

(1) http://www.counterpunch.org/khan09272008.html.

ولذلك فإنهم قد يدخلون في دين الله من هذا الباب، وهذا ليس بالأمر المستغرب؛ فإن أبواب الدخول في الدين متعددة، لكن كل داخل من باب يجد نفسه مع الداخلين من الأبواب الأخرى في باحة الحق الواسعة.

أقول بشيء من الأسى: إذا كانت هذه الأمثلة القليلة لمؤسسات اقتصادية إسلامية قد جذبت هذا الانتباه الكبير؛ فكيف لو أن البلاد الإسلامية جميعاً كانت قد بنت حياتها الاقتصادية كلها على أسس من شرع الله، تعالى؛ فضربت للناس مثلاً عملياً على تفوُّق التعاليم الإسلامية في مجال الاقتصاد على مبادئ الرأسمالية والاشتراكية، وأفلحت في إسعاد البشرية كما لم يفلح أيٌّ من تلك الأيديولوجيات الغربية. ولكن إذا لم تفعل في الماضي، فلعلها تدرك الآن خطأها وتعود إلى هدى ربها.

وإخواننا العلماء الذين كانوا قد أجازوا لإخوانهم المسلمين في بلاد الغرب أن يقترضوا قروضاً ربوية لشراء البيوت؛ لعلهم الآن يراجعون موقفهم، ويربؤون بإخوانهم المسلمين أن يشاركوا في معاملات تؤدي إلى مثل هذا الفساد في الأرض الذي كان نتيجة المعاملات الربوية في المصارف الغربية.

هل تستعيد أمريكا مركزها؟

(البيان ٢٥٦ - ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م)

وهكذا يُنتخب (أوباما) رئيساً للولايات المتحدة، أول رئيس أسود لأب إفريقي كيني مسلم. وكان من أقوى أسباب انتخابه وَعْدُه الأمريكيين بأنه سيُحدِث تغييراً بعد سِنيِّ (بوش) العجاف؛ فهل يستطيع (أوباما) أن يصلح ما أفسده (بوش)؟ يعلِّق كثير من الأمريكيين آمالهم على رئيسهم الجديد، غير أن بعض كتّابهم ومفكريهم يرون أن عهد القيادة والسيطرة الأمريكية قد انتهى إلى غير رجعة، ويستدلون على ذلك بأدلة تبدو مقنعة.

من ذلك: قولهم: إن القيادة الأمريكية بدأت في نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م؛ حيث كانت أمريكا بالإضافة إلى كندا وأستراليا هي الدول الوحيدة التي خرجت سالمة من ويلات الحرب العالمية الثانية. أما الدول الأخرى: بريطانيا وألمانيا وفرنسا وروسيا واليابان والصين؛ فقد خرجت من الحرب منهكة على درجات متفاوتة. وكان نتيجة ذلك أن بلغت قوة الاقتصاد الأمريكي مبلغاً لم تبلغه بعد ذلك أبداً (نصف إنتاج العالم تقريباً)، وهذا هو الذي أهّلها إلى أن تكون الدولة القائدة. أما الآن فإن الأمر

مختلف؛ فقد ظهرت دول كثيرة في أوروبا وآسيا تنافس أمريكا في الإنتاج؛ فالصين والهند تنموان بمعدل ٨٪، وتسيران بخطى سريعة نحو التحديث؛ فشركة (China Mobile) الصينية - مثلاً - هي الآن أكبر شركة جوالات في العالم، وتضيف إلى شبكتها الملايين من المشتركين في كل شهر.

ويقولون: إن النمو الذي حدث في مثل الهند والصين صاحَبَه شيء آخر، هو الشعور بالعزة واستحقاق الاحترام، وصاحَبَه أيضاً الاقتناع بأن الطريق إلى التحديث والتقدُّم لا يلزم أن يكون سيراً في خطوات أمريكا؛ فالصين - مثلاً - يحدث فيها تحديث حتى من غير حاجة إلى نظام ديمقراطي.

ثم جاءت الأزمة، وإن شئت فقل: الكارثة المالية، فزادت من ضعف أمريكا الاقتصادي بالنسبة للدول التي أخذت في طريق النمو، لكن هذا الضعف (وهو أمر نسبي) لم يكن وحده الذي أدَّى إلى فقدان أمريكا مركزها القيادي، كما يرى هذا كثير من الكتَّاب الأمريكان والأوربيين الذين لا يُشك في إخلاصهم لبلدهم وحضارتهم ولا في معرفتهم بما يحدث في بلادهم؛ فهذا (فوكوياما) الكاتب الذي اشتهر بنظريته في نهاية التاريخ يكتب مقالاً في مجلة (نيوزويك) بعنوان: سقوط أمريكا، يرى فيه أن الضرر الأكبر الذي أحدثته الأزمة المالية هو الضرر الذي أصاب النموذج الأمريكي الاقتصادي والسياسي. يقول (فوكوياما): إن النمو الكبير الذي شهدته أمريكا جعلها تتجاهل منتقديها من الاشتراكيين ومن دول أمريكا اللاتينية، لكن تلك القاطرة التي أحدثت ذلك النمو قد خرجت عن قضيبيها وتنذر بأن تهوي جارَّة بقية العالم وراءها.

وما أسماه (فوكوياما) بـ (النموذج الأمريكي) هو في الحقيقة (النموذج الرأسمالي). والضرر الذي حدث له ضرر بالغ؛ إذ إن الولايات المتحدة التي كانت تتفاخر بالتمسك - أكثر من غيرها - بالفلسفة الرأسمالية التي تدعو إلى عدم التدخل في النشاط الاقتصادي، اضطرت إلى أن تفعل شيئاً كان يعدُّ أمراً منكراً بحسب تلك الفلسفة، لكنها فعلته ولم تسمِّه باسمه. لقد اضطرت الدولة إلى أن تتدخل تدخُّلاً مباشراً يسميه الناس في الدول الأخرى بـ (التأميم)؛ حيث إنها اضطرت إلى أن تشتري بعض البنوك وأن تنقذ أخرى بأموال الضرائب.

أقول: لقد أثبتت الأزمة فشل النظرية التي قام عليها النظام الرأسمالي؛ لذلك ترى الأصوات ترتفع الآن منادية بإدخال تعديلات عليه، وهي تعديلات يغيِّر بعضها من جوهره وإن كان أصحابها ما يزالون يطلقون كلمة الرأسمالية عليه حتى بعد هذه التعديلات الجوهرية؛ لأنهم يعتقدون - كما قلت في مقال آخر - أن سبب هذا هو اعتقادهم الغالط بأن كل نظام سوق يُباح فيه البيع والشراء والامتلاك وغير ذلك؛ هو نظام رأسمالي، مع أن الحقيقة أن النظام الرأسمالي إنما هو نوع خاص من أنظمة السوق، وهناك أنظمة سوق أخرى غير رأسمالية، منها: نظام الاقتصاد الإسلامي.

من ضمن ما يذكره (فوكوياما) وغيره من أسبابٍ في تدهور الولايات المتحدة: أن العجز الهائل في الميزان التجاري الذي بلغ ٧٠٠ بليون دولار في العام بحلول عام ٢٠٠٧م؛ أَمْرٌ لا يمكن استمراره. إن الدول الأخرى ستكتشف - كما يقول - عاجلاً أو آجلاً أن أمريكا ليست المكان المناسب الذي تودع فيه أموالها.

ومما يذكرونه أيضاً: أن أمريكا في عهدها الأول للقيادة كانت تسعى إلى أن تكون القرارات بالتعاون مع الدول الديمقراطية الصديقة. أما في عهد (بوش) فقد جنحت إلى الفردية والعزلة؛ فحربها على العراق - مثلاً - لم يكن بقرار من مجلس الأمن يبيح لها فيه استعمال القوة. هذا أمر يعترف به الآن كلٌّ من (أوباما) و (مكين). يقول (مكين) في إحدى خُطَبه: «في عالم كهذا تتوزع فيه القوى بكل أنواعها توزعاً واسعاً ومتوازياً؛ فإن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تقود اعتماداً على قوَّتها وحدها».

وحرب العراق لم تؤدِّ إلى إضعاف أمريكا اقتصادياً فحسب، لكنها أفقدت الناس الثقة بها، والدولة لا تكون قائدة بغير أتباع يثقون بها. لم يعد الناس يثقون بمصداقية أمريكا بعدما ظهر لهم أنَّ تسويغها لحرب العراق كان مبنياً على كذبة (بلقاء)، هي: امتلاك (صدام حسين) لأسلحة الدمار الشامل، وبعد أن رأوها تشن على هذا البلد حرباً فاجرة تستعمل فيها كل وسائل القتل والتعذيب والتدمير، ولم يعودوا يثقون بقِيَمها الخُلقية بعدما رأوا ما حدث في سجن أبي غريب، ولم يعودوا يثقون بعدالة نظامها القانوني وهم يرون ما يحدث للأبرياء في غوانتنامو.

والمعجبون بنظام أمريكا الديمقراطي - لا سيما بعد رؤيتهم إياه يؤدي إلى انتخاب رجل أسود - لم يعودوا يعتقدون بأن أمريكا تريد لهم ما تريد لنفسها بعد أن رأوها تسوِّغ غزوها للعراق بدعوتها إلى الديمقراطية.

بعد أن ذكرنا أدلة بعض الكتَّاب والمفكرين نذكر الآن آراءهم مجردة.

(فوكوياما) كما رأينا يجعل سقوط أمريكا عنواناً لمقاله في مجلة (نيوزويك).

(مايكل إليوت) يكتب مقالاً في مجلة (تايم) بعنوان: (أمريكا القائد المفقود) ويقول فيه: إن استطلاعات الرأي لا تكذب. إن أمريكا يُنظَر إليها - حتى بين حلفائها - على أنها خطرة، ولا يوثق بها.

وينقل (إليوت) عن وزير خارجية فرنسا (الذي وصفه بأنه صديق لأمريكا) قوله: (عندما ينظر بقية العالم اليوم إلى أمريكا «لقد بطل السحر»)، وعندما سئل عما إذا كان بإمكان الولايات المتحدة أن تُصلح الضرر الذي لحق بسمعتها في السنين القليلة الماضية كان جوابه: (لن تكون أبداً كما كانت من قبل).

وهذا الكاتب والمحلل السياسي (بوكانن) (Pat Buchanan)، والذي كان من المرشحين للرئاسة الأمريكية بعد نهاية فترة (بوش) الأب الأولى، يكتب مقالاً بعنوان: (لقد انتهى حفل السمر)، يقول فيه: (إن الأزمة المالية قد تكون بداية عهد جديد تكون فيه أمريكا أكثر ضموراً مما كانت عليه. إن القول: إن أمريكا هي (القوة الوحيدة) وإنها (الأمة التي لا غنى عنها) قد أصبح تاريخاً. إن مستوانا المعيشي سينخفض لا محالة. إن ما نشهده اليوم هو كيف تنتهي الإمبراطوريات).

وهذا الكاتب البريطاني (جون جراي) (John Gray) يقول في مقال كتبه في جريدة (الأوبزيرفر) البريطانية: «إن الأزمة المالية ستترك الولايات المتحدة تترنَّح كما ترنَّح الاتحاد السوفييتي بعد سقوط حائط برلين». «إن هذا الثوران الذي نشاهده هو أكثر من أزمة اقتصادية مهما عظمت. إنه تحوُّل جغرافي سياسي يتغير فيه ميزان القوة في العالم تغيُّراً نهائياً. لقد انتهى عهد القيادة الأمريكية العالمية التي بدأت منذ الحرب العالمية الثانية».

إذا كان كل هذا صحيحاً، فإن السؤال لا يكون: هل ستستطيع أمريكا استعادة مركزها؟ وإنما سيصبح: هل تستطيع أمريكا أن تحافظ على مركزها الحالي المتدني أم أنها ستتدهور أكثر فأكثر؟ الذي يبدو أنها ستتدهور ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

[آل عمران: ١٤٠].

فتنة اجتماع الكفر والقوة المادية

(البيان ٢٥٧ - محرم ١٤٣٠هـ - يناير ٢٠٠٩م)

شاءت حكمة الله - تعالى - أن يعطي نِعَمه للكافرين به كما يعطيها للمؤمنين. قال - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله - تعالى -: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يفيد أنها ليست خالصة لهم في هذه الدنيا.

وعندما دعا أبو الأنبياء ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، أجابه - تعالى - بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ونحن نرى في واقعنا تصديقاً لقول الله هذا؛ فالكفار كانوا وما يزالون يستمتعون بخيرات الدنيا في كل زمان ومكان، لكن الكفار ضلوا في استمتاعهم بهذه النِّعَم من عدة جهات:

فهم لا يشكرون الله - تعالى - عليها بل يجحدون فضله.

وهم يرون أنهم إنما أُعطوها بسبب اجتهادهم أو علمهم أو ذكائهم.

ومنهم من يرى أن الله - تعالى - إنما أعطاه إياها؛ لأنه يستحقها؛ فهذا قارون يقول: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

قال الإمام ابن كثير مفسراً هذه الآية الكريمة: (أي: إن الله - تعالى - إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي؛ فتقديره: إنما أُعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له).

وهذا صاحب الجنتين يقول عنه - سبحانه -: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦].

فأمثال هؤلاء الكفار لا يرون أنهم متفوِّقون على غيرهم من حيث المال فقط، بل يعدُّون تفوُّقهم المادي دليلاً على تفوُّقهم الإنساني.

وهم يعدُّون القوة المادية دليلاً على صحة ما عندهم من معتقدات وطرق حياة، وبطلان معتقدات مَنْ هم أقل منهم حظاً من هذه القوة. قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ [مريم: ٧٣ - ٧٤].

إن الإنسان العاقل ينظر في الكلام الذي يقال له؛ فإن رأى عليه أدلة دالة على صوابه قَبلَه، وإن لم يدل على صوابه دليل رفضه. أما هؤلاء الذين لا يعقلون؛ فإنهم يستدلون على خطأ الكلام بالحال المادي لقائله؛ فإن كان مثلهم أو أكثر منهم

قَبلوه، وإن كان أقل منهم رفضوه. فهؤلاء لَـمَّا كانوا يرون أنفسهم في دور خير من دور المؤمنين ولهم نوادٍ ليست للمؤمنين؛ استدلوا بـذلك عـلى أن مـا هم عليه من الشرك لا بد أن يكون أصدق من التوحيد الذي يدعوهم إليه النبي ﷺ، لكن الله - تعالى - يذكِّرهـم بأن المتع المادية لا يمكن أن تكون برهاناً على الحق؛ إذ لـو كـانت كذلـك لما أهلـك الله - تعالى - من كانوا «أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً»[1].

وإذا كان الربط بين الحق والقوة المادية - في أصله - اعتقاداً كفرياً؛ فإن لبعض المسلمين نصيباً منه؛ لا سيما في عصرنا هذا الذي تفوّق فيه الكفار على المسلمين تفوُّقاً مادياً كبيراً. لقد صارت الدول الأضعف تُسمَّى بالدول المتخلِّفة، وهو ليس وصفاً لها بالضعف المادي فحسب، ولكنه وصف يتضمن نوعاً من الإدانة الخلقية أو الإنسانية. وينسى المسلمون الذين يصفون بـلادهم بهـذا الوصـف أنه لم يكـن للبلاد الإسلامية في زمان النبي ﷺ من عمـارة الأرض ما كـان لفارس والروم. انظـر إلى مسجـد الرسول ﷺ، أعظـم مؤسـسة كانت في زمانه، لقـد كانت أعمـدته من جـذوع النخل، وكـان سقفه مـن الجريد، وكـانت أرضـيته تـراباً؛ فكان المطر إذا نزل صار المسجد كالوحل، وكانت الكلاب تدخل فيه وتخرج. قارن هذا بما كانت عليه كنائس أهل الكتاب وبِيَعِهم في أوروبا. وقد علم الله - تعالى - هذه الحقيقة عن بلاد العرب، لكنه - سبحانه - اختارها مع ذلـك لتكـون محـلاً لرسالته، و ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [**الأنعام**: ١٢٤]. وهـذا لا يعنـي أن القـوة المـادية ليست مهمة، بل هي مهمة؛ لأن التمكين في الأرض لا يكون إلا بها، لكنها في الدرجة الثانية

(١) تفسير ابن كثير.

بعد الدين الحق؛ ولذلك فإن الله - تعالى - أكرم أصحاب هذا الدين فأعطاهم من القوة ما استطاعوا به أن يغلبوا تلك الدول ويخضعوها لسيطرتهم. لقد أكرمهم الله - تعالى - هذا الإكرام لـمَّا علم صدق إيمانهم بالحق الذي جاءهم به رسوله، وتفضيلهم إياه على كل ما عند تلك البلاد من عقائد وقيم وسلوك ومتع. وهكذا يفعل - سبحانه - مع كل أمة تسلك منهجهم وتقتفي طريقهم. لقد حذَّرنا الله - سبحانه - في آيات كثيرة من كتابه العزيز من الاغترار بما يُنعِم به - سبحانه - على الكفار من النِّعَم المادية، من ذلك: قوله - سبحانه -: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤].

قال الإمام الطبري معلِّقاً على هذه الآية الكريمة في تفسيره:

يقول - جل ثناؤه -: فلا يخدعك يا محمد! تصرُّفهم في البلاد وبقاؤهم ومكثهم فيها، مع كفرهم بربهم؛ فتحسب أنهم إنما أمهلوا وتقلبوا، فتصرفوا في البلاد مع كفرهم بالله، ولم يُعاجَلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم؛ لأنهم على شيء من الحق، وقال - تعالى -: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾. [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨]

إن الذين يشكِّكهم التقدم المادي للكفار في دينهم، ويُضعِف إيمانهم به؛ فإنهم يظلون متخلفين مادياً كما هم ضعفاء دينياً. كنت قبل بضع سنين في مؤتمر إسلامي التقيتُ فيه بأحد الدعاة القادمين من أوروبا، وعجبت لكلمة قالها، قال: إن الديمقراطية خير نظام توصلت إليه البشرية! ثم رأيت هذه العبارة شائعة على ألسنة كثير من الناس حتى من كان منهم من المصلين. والعبارة ليست خطأً من حيث مخالفتها للشرع فحسب

إذ معناها - إذا أُخذت على ظاهرها - أن الحكم الديمقراطي خير من الحكم بما أنزل الله - تعالى - فهي بذلك خير من حكم النبي ﷺ وحكم خلفائه الراشدين، ولكنها خطأ من حيث تصورها للحكم الديمقراطي. إن الديمقراطية لا تقول كما يقول الشرع: احكم في المسألة الفلانية بالحكم الفلاني، بل تترك الحكم للشعب بحسب مفهوم كل دولة؛ ولذلك فإن الحكم في المسألة الواحدة قد يكون متعدداً بل متناقضاً بحسب ما يحكم به كل شعب ويكون مع ذلك كله ديمقراطياً لا شك في ديمقراطيته. انظر إلى الفتنة التي أثارها - حتى بين بعض الإسلاميين - اختيارُ أمريكا لرجل أسود أن يكون حاكماً لها. لقد استغربت - والله - من عدِّ بعض الإسلاميين هذا الأمر دليلاً على حُسْن الحكم الديمقراطي. لقد نسي هؤلاء أن الديمقراطية لم تمنع، بل أباحت للأمريكان أن يذهبوا إلى إفريقيا ويصطادوا الأفارقة كما تُصطاد الوحوش، وحشرهم في سفن كما تُحشر البضائع، ثم بيعهم بمزادات علنية كما تُباع البهائم؛ فالديمقراطية ليست هي التي ألزمت الناخبين الأمريكان بانتخاب أوباما الأسود، لكنها لم تمنعهم من انتخابه. فما الشيء الرائع في هذا؟ إن الرائع هو أن تحكم كما يحكم الإسلام بأن أكرم الناس أتقاهم، وأنه لا فضلَ لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

العدوان أصل أصيل في الحروب الغربية

(البيان ٢٥٨ - صفر ١٤٣٠هـ - فبراير ٢٠٠٩م)

في الثقافة الغربية نظريات كثيرة عن الحرب ومدى ضرورة التزامها أو عدم التزامها بالقيم الخُلُقية. وهناك أيضاً مواثيق عالمية تحدِّد مدى هذا الالتزام وتتضمَّن أشياء كثيرة حَسَنة وافقت عليها كثير من الدول في العالم. لكن بما أن الدعاوى عن الحرب كثيراً ما تكون - لا سيما في الغرب - مخالفة للواقع؛ فقد رأيت أن لا أجعل هذه الزاوية اليوم عن تلك النظريات والمواثيق، بل عن المبادئ التي يسير عليها الغرب في حربه الفعلية؛ فأقول:

إن المبدأ الأول والأعظم الذي يلجأ إليه القادة الغربيون الآن لتسويغ ما يشنون من حروب على غيرهم هو ما صار يُعرف بـ (المصلحة القومية). والمقصود بالمصلحة القومية هو: مصلحة دولة قومية كالولايات المتحدة أو مجموع الدول التي تسمَّى بالدول الغربية التي تنتمي إلى حضارة واحدة. وعلى هذا المبدأ عدة اعتراضات:

فهو - أولاً - لا يتضمَّن قيماً خُلقية، أعني: أنه إذا قالت دولةٌ ما أو قوم ما: إنهم يحاربون غيرهم من أجل تحقيق ما يرونه في مصلحتهم؛ فإنهم لن يلقوا بالاً لأيِّ أمر يرونه عائقاً لهم عن سعيهم لتحقيق ما يعدونه مصلحة لوطنهم؛ سواء كان خُلُقاً أو ديناً أو مواثيق، وهذه هي العنصرية الجاهلية عينها. إن الأمة التي تؤمن بمكارم الأخلاق تنظر إلى مصلحتها من خلال تلك القيم؛ فلا ترى في الظلم أو الاعتداء أو اختلاق الأكاذيب مصلحة لها، بل تراه ضاراً بمصالحها؛ ولذلك لما قال الرسول ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فسَّر نصره بردِّه عن الظلم.

ثانياً: إن مفهوم المصلحة القومية عندهم مفهوم فضفاض يكاد يشمل كل شيء من اقتصاد وسياسة وقوى عسكرية وقوى ثقافية ومواقع استراتيجية وغير ذلك؛ فكل من يحس الغرب بأنه يمكن أن تكون له شوكة في أيٍّ من تلك المجالات عُدَّ هدفاً مشروعاً لا بد من كسر شوكته بشتى أنواع الضغوط السياسية والاقتصادية والدعائية وغيرها، وإلا فبالحرب.

هذا المفهوم للحرب التي لا مراعاة فيها لمكارم الأخلاق كان واضحاً في كل الحروب التي شنَّها الغرب على الدول الأخرى. فقد شنَّت كل الدول الغربية - الصغير منها والكبير - حروباً على دول ضعيفة في إفريقيا، وآسيا، وفي منطقة الكاريبي، وفي ما يسمى الآن أستراليا ونيوزيلاندا، وكانت كل تلك الحروب حروباً عدوانية، الغرض منها استغلال ما في تلك البلاد من ثروات؛ بما في ذلك الثروات البشرية، ولكن بما أن المجال لا يسمح هنا بالدخول في تفاصيل هذا الأمر، فلْنكتف ببعض الأمثلة الظاهرة، ولْنقصر حديثنا على بريطانيا وأمريكا، فنقول:

أولاً: لقد كانت نهاية القرن الميلادي الثامن عشر وبداية القرن العشرين هي فترة الاحتلال الغربي لبلاد العالم. ولم يكن لذلك الاحتلال ما يسوِّغه غير كون البلاد الغربية كانت أشد قوة من البلاد التي احتلَّتها وكانت بحاجة إلى خيراتها، أي: أنها إنما شنَّت حروب الاحتلال تلك تحقيقاً لما عدَّته مصلحة وطنية. ولكن كما أن بعض الناس يشربون الخمر ويسمونها بغير اسمها كما قال الرسول ﷺ؛ فإن بعضهم يسمون الاعتداء والظلم بغير اسمه.

سوَّغت الدول الغربية لشعوبها اعتداءها على الشعوب المستضعفة بأنها شعوب متوحشة أو همجية لا تعــرف ديناً ولا حضارة، وأنها ذاهبة لنقل رسالة السيد المسيح إليها، وذاهبة لإنقاذها من حضيض التوحش إلى الحضارة. لكن الحقائق التي ذكرها الغربيون أنفسهم في تأريخهم لتلك الحروب تؤكد أن دوافعهم الحقيقية إنما كانت اقتصادية، أي: أنها كانت لجَلْب المواد الخام اللازمة للتطور الاقتصادي في الغرب.

ثانياً: إذا كان ذلك حال أوروبا فإن عدوان الولايات المتحدة كان أظهر وأبشع، إذ إنها رأت أن من مصلحتها القومية أن يذهب من استطاع من مواطنيها إلى إفريقيا ليصطادوا البشر كما تُصطاد الحيوانات، ثم يُحشَرون في سفن للبضائع، ثم يبيعونهم بالمزاد العلني في أمريكا؛ لكي يسترقهم ويعاملهم معاملة الحيوان كلُّ من استطاع أن يمتلك واحداً منهم. ومن أراد شيئاً من تفاصيل ذلك فليقرأ كتاب (الجذور).

ثالثاً: فلسطين.. وما أدراك ما فلسطين؛ لقد قايض بها الإنجليز بعض اليهود في سبيل وعدهم لهم بأن يجرُّوا الولايات المتحدة إلى ساحة الحرب؛ كما يقول بعض المعمِّرين من اليهود الخارجين على قومهم في مقال له حديث. دخلت الولايات المتحدة الحرب

وساعدت في هزيمة ألمانيا، ثم اتفقت مع بريطانيا على إنشاء دولة إسرائيل، وكانت الولايات المتحدة هي أول من اعترف بها بعد ساعات من إنشائها، ثم عدَّتها بمنزلة ذراع لها في المنطقة العربية تزودها بكل ما تحتاج إليه من مال ورجال وتقنية، وتحول دون إصدار أي قرار من مجلس الأمن يشير مجرد إشارة إلى إدانتها؛ فالأرض التي تقوم عليها دولة إسرائيل الحالية أرض مغتصبة بكل المعايير الخُلُقية والإنسانية، لكن الدعاية الغربية والمؤازرة الغربية لها جعلتها دولة شرعية وجعلت كل من يحاول مقاومتها هو المعتدي وهو الإرهابي. وهي تسعى اليوم جاهدة للضغط على الدول العربية والإسلامية كلها للاعتراف بها؛ لكي تُعَدَّ دولة شرعية لا يجوز لأحد أن يقاومها. هذه مسألة من أهمِّ المسائل التي ينبغي لنا أن لا نملَّ من تذكير الناس بها تذكيراً يتضمن شيئاً من التفاصيل ولا يُكتفى بوصف فلسطين بأنها دولة محتلة.

رابعاً: إذا كان احتلال فلسطين عملاً مبنياً على ظلم تواطأت عليه بريطانيا وأمريكا وغيرهما؛ فكذلك كان الشأن بالنسبة لغزو أفغانستان؛ فقد كان المسوغ له في البداية كون حركة طالبان كانت وراء أحداث سبتمبر التي مات فيها بضعة آلاف من الأمريكيين، لكن الحرب على أفغانستان قتلت من الأفغان أضعاف أضعاف ذلك العدد. أذكر أن أحد الأساتذة بجامعة شيكاغو قال: إنه كان يحصي ما تصرِّح به المصادر الرسمية الأمريكية ممن تقول: إنهم قُتلوا خطأ؛ فكان العدد بعد بضعة أشهر أكثر من عدد الذين قُتلوا في سبتمبر.

وقد حاولت إدارة (بوش) أن توهم الأمريكيين والعالم من ورائهم بأن حربها في أفغانستان إنما هي حرب لتحقيق هدف إنساني هو إزالة نظام طالبان الاستبدادي وأن

يُستبدل به نظام ديمقراطي يعطي الناس الحرية في اختيار من يحكمهم؛ لكن تبيَّن أن ذلك الحاكم المنتخب إنما كان عميلاً للولايات المتحدة. وإذا كانت الولايات المتحدة قد سوَّغت احتلالها لبلد ضعيف مثل أفغانستان بهذه الأسباب الواهية؛ فلماذا يا تُرى هرعت الدول الغربية الأخرى (الصغير منها والكبير) لتأييدها ولإرسال ما تستطيع من جنودها للمشاركة في احتلال أفغانستان؟

خامساً: كما كان احتلال أفغانستان مبنياً على فرية السعي لتحقيق الديمقراطية والدفاع عن المصالح القومية الأمريكية والغربية؛ فكذلك كان الأمر بالنسبة للحرب التي شُنَّت على العراق. والعالم كله يعلم الآن أن تلك الحرب سُوِّغت بكذبة بَلْقاء افتراها (بوش) وكلَّف وزير خارجيته آنذاك (باول) لحملها إلى الأمم المتحدة (ثم تبيَّن له أنه هو نفسه كان مخدوعاً) وحملها (بلير) إلى روسيا لكنها لم تصدِّقه. كانت الكذبة البَلْقاء هي امتلاك (صدام) لأسلحة دمار شامل تجعله خطراً على مصلحة أمريكا القومية. وأضيف إلى هذه الكذبة كذبة أخرى هي أنهم ذاهبون إلى هناك لتخليص العراقيين من حكم دكتاتوري ومَنْحهم حكماً ديمقراطياً.

ماذا تفعل مع قوم لا يرقبون في أحد إلاً ولا ذمة يرضونهم بأفواههم وتلعنهم قلوبهم وأعمالهم؟ إنه لا جدوى من استجدائهم وتذكيرهم بمكارم الأخلاق وبما يسمى بالقوانين الدولية. ألم يقل (كيسنجر) في أحد مقالاته في (الواشنطن بوست) قبل غزو أفغانستان: إن القوانين الدولية الحالية وُضعت في ظروف كانت فيها قوتان كبيرتان، وبما أن الولايات المتحدة صارت الآن هي القوة الكبرى الوحيدة فينبغي أن لا تُلقي بالاً لتلك القوانين؟

إن الغرب لم يستكبر ولم يتجبر؛ إلا لأنه رأى أن عنده من القوة ما ليس عند غيره، فكان مَثَلُه في ذلك كمثل عاد الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فكانت الإجابة الإلهية عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. [**فصلت**: ١٥]

فالحل - إذن - أن تأخذ الأمة الإسلامية بأسباب القوة المادية كما أمرها بذلك ربها، ثم تستعمل هذه القوة في إحقاق الحق ومحاربة الباطل ونَشْر الخير بين الناس.

نسبية الزمان في القرآن

(البيان ٢٥٩ - ربيع الأول ١٤٣٠هـ - مارس ٢٠٠٩م)

إذا حسبنا الزمـــان بمقـدار حركة معينـــة - كحركة عقارب الســاعة مثلاً - فإنه حقيقة موضوعية لا تتغير. لكن الذي يتغير هو مقدار هذه الحقيقة الزمانية بالنسبة لغيرها من الأزمان؛ فخمس دقائق شيء كثير بالنسبة لبضع ثوانٍ، وقليل جداً بالنسبة لساعة كاملة. وكما يتغير مقدار كل زمان بالنسبة لزمان آخر فكذلك يتغير إدراك النـــاس له أو شعورهم به بحسب الحال التي هم فيها؛ فالذي ينام ثم يستيقظ يكون تقديره للمدة التي نامها أقل بكثير من الزمن الحقيقي الموضوعي الذي قضاه في نومه؛ فهؤلاء أصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاثة مئة سنين وازدادوا تسعاً، لكنهم عندما تساءلوا بعد أن استيقظوا: كم لبثتم؟ قـــال قائل منهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم.

وكذلك الحال بالنسبة للذي يموت ثم يحيا. قال - تعالى -: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

لكن الفارق الأكبر في التقدير النسبي للزمان هو زمان الدنيا المحدود الذي لا يكاد يساوي شيئاً بالنسبة لزمن الآخرة الأبدي غير المحدود. هذه حقيقة يدركها الناس في الآخرة ولا سيما الذين يتعرَّضون لعذابها. إنهم جميعاً يرون أن المدة التي لبثوها في الدنيا كانت قليلة وإن اختلفت تقديراتهم لمدى قلَّتها. وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهذه التقديرات؛ فمنهم من يقول: إن لبثهم في الدنيا إنما كان عشرة أيام، ومنهم من يقول: إنه كان يوماً واحداً: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]. قالوا في التفسير: أمثلهم طريقة أي: أوفرهم عقلاً.

ومنهم من يراه يوماً أو بعض يوم: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

ومنهم من يعتقد اعتقاداً جازماً بأن لبثهم في الدنيا لم يتجاوز الساعة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]. وقال - سبحانه - واصفاً شعورهم بالنسبة للمدة التي قضوها في الدنيا حين يرون عذاب الآخرة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وإذا كانت المدة التي يقضيها الناس في هذه الحياة لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة؛ فإن ما يتنعمون به فيها هو أيضاً لا يكاد يساوي شيئاً بالنسبة لنعيم الآخرة، وما يقاسونه فيها من تعب ونصب لا يكاد يساوي شيئاً بالنسبة لتعب الآخرة

ونَصَبها. قال - سبحانه وتعالى - عن الكفار المغرورين بمتاع الحياة الدنيا: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

يعني: أفرأيت إن متعناهم عدة سنين من سنين هذه الدنيا المحدودة، فإنه لن يغني عنهم شيئاً في تجنُّب العذاب الأبدي الذي سيصادفهم في الآخرة؛ ولذلك فإن الإنسان العاقل لا يغترُّ بهذه المتعة الفانية، لكنه يستمتع بها استمتاعاً لا تضاد بينه وبين متعة الآخرة الأبدية كما قال قوم قارون ناصحين له: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٧].

وجاء في صحيح مسلم أنه: يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ صبغةً في النار، ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيتَ خيراً قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ويُؤتى بأشدِّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤساً قطُّ؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله ما مرَّ بي بؤس ولا رأيتُ شدة!

والإنسان العاقل لا يضحي بالحَسَن الكثير الآجل من أجل القليل العاجل، ولا يفضل المتاع القليل العاجل الذي يسبب له التعب العظيم الآجل، لكن هذا هو عين ما يفعله كثيرون ممن لا عقل لهم.

وكما تختلف مقادير الأزمان بالنسبة لبعضها، فإنها تختلف أيضاً بالنسبة لما يحدث فيها من أحداثٍ كثرةً وقِلَّةً. فهذا الذي عنده علم من الكتاب أتى بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام في أقل من ارتداد الطرف من غير أن يتغير فيه شيء.

وأعظم من هذا إسراء النبي ﷺ إلى بيت المقدس ثم عروجه إلى السماوات، وما رأى في كل ذلك من مشاهد وما حدث له من أحداث، وقع كل ذلك في زمن قصير؛ لأنه ﷺ عاد من تلك الرحلة (التي ربما كانت أطول رحلة يقوم بها بشر) في الليلة نفسها التي أُسري به فيها.

هذا مع أن المختصين يقولون: إن الضوء المنبعث من بعض النجوم البعيدة يستغرق ملايين من السنين الضوئية ليصلنا. هذا مع أن سرعة الضوء هي ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متراً في الثانية الواحدة في الفضاء. ونبينا ﷺ خرج من نطاق كل هذا الكون الدنيوي إلى سماوات رأى فيها من العجائب ما لا يوجد شيء منه في كوننا هذا.

لعلَّ الذي يعطينا فكرة عن هذه المعجزة النبوية هو الرؤيا الصادقة؛ فالإنسان قد يرى في منامه وقائع يستغرق حدوثها في الزمان المعهود بضع ساعات أو أيام أو أشهر، لكنه يراها في بضع ثوانٍ هي المدة التي يقول المختصون: إن الرؤيا مهما طالت لا تتجاوزها.

وإذا كان الناس يقيسون ما يعِدُهم الله به بمقياس أيامهم المعهودة؛ فإن الله - تعالى - يذكِّرهم بأنه - تعالى - يقيس الأمور بأيام هي أطول من أيامهم بكثير. قال - تعالى -: ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ [الحج: ٤٧].

قال الإمام ابن كثير: أي: هو - تعالى - لا يعجل؛ فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه؛ لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أَجَّلَ وأَنْظَرَ وأَمْلَى.

وإذا كان اليوم من أيام الدنيا إنما يساوي أربعاً وعشرين ساعة؛ فإن يوم القيامة يساوي خمسين ألف سنة.

هل نشهد نهاية الليبرالية السياسية؟

(البيان ٢٦٠ - ربيع الآخر ١٤٣٠هـ - إبريل ٢٠٠٩م)

تقتضي الليبرالية السياسية حَسْب تعريف منظريها أن يكون النظام السياسي القائم عليها نظاماً ديمقراطياً يقبل التعددية ويتيح للمواطنين المختلفين في العقائد الدينية، والقيم الخلقية، والتصورات الفلسفية؛ فرصاً سياسية متساوية. وهذا أمر لا يمكن حدوثه في الواقع؛ كما كنت قد ذكرت في مقال سابق، وقلت: إن أكبر فلاسفة السياسة المعاصرين الأمريكي (جون رولز) لم يفلح في حل هذه المشكلة حتى على الصعيد النظري في كتابه المسمى: (الليبرالية السياسية).

لكنَّ أنصار الليبرالية الذين كانوا يرونها أمراً ضرورياً لنظامهم السياسي؛ كانوا يركِّزون دائماً على قضية التعددية وإعطاء الحرية للمخالفين، واعتبار المواطنة هي الأساس الذي يقوم عليه النظام السياسي بغضِّ النظر عن الاختلافات بين المواطنين.

ثم بدأ الأمر يتحول منذ بعض الوقت إلى التركيز على «المجتمع المتماسك» أي: المجتمع الذي لا تكون فيه خلافات جوهرية بين المواطنين. وقد كان هذا الرأي هو الذي عُرف به أنصار الديمقراطية غير الليبرالية، وكان من أهمِّ مفكريه قانوني وفيلسوف ألماني اسمه (كارل شميث).

وإذا كانت الليبرالية السياسية لم تفلح في إعطاء المواطنين المختلفين فرصاً سياسية متساوية، فقد كانت على الأقل تعطيهم فرصاً لنشر آرائهم والدفاع عنها.

أما الآن وبعد التحول إلى فكرة المجتمع المتماسك؛ فإن التضييق بدأ يزداد على المخالفين ولا سيما إذا كانوا مسلمين، بل بسبب كونهم مسلمين. أقول هذا بمناسبة خبر نشرته كل من (البي بي سي) وجريدة (الجارديان) البريطانية مفادُه أنهم حصلوا على مسوَّدة لقانون جديد تحت الدراسة. ويعيد هذا القانون البريطاني تعريف التطرف ليجعله يشمل كثيراً من المعتقدات الإسلامية.

وخبر جريدة (الجارديان) اللندنية جاء في مقال نُشر في يوم الثلاثاء ١٧ فبراير من عام ٢٠٠٩م. ويقول كاتب المقال الذي يبدو أنه من أسرة الجريدة: إن الجريدة علمت أن الحكومة تفكر في خطط سيكون من شأنها أن تؤدي إلى وصم عدد أكبر من المسلمين البريطانيين بالتطرف. وهذه المقترحات هي جزء من استراتيجية لمكافحة الإرهاب يقوم برسمها وزراء وضباط أمن، ويتوقع أن تُعلن الشهر القادم.

ويقول بعضهم: إن الحكومة ستصنِّف بموجب هذه الخطط وجهات نظر يؤمن بها معظم المسلمين في بريطانيا؛ على أنها تطرُّف. وسيُعدُّ بموجب هذه الاستراتيجية متطرفاً كلُّ من: يدعو إلى الخلافة أو إلى تحكيم الشريعة، وكل من يؤمن بالجهاد أو المقاومة المسلحة في أي مكان في الدنيا. وهذا يشمل المقاومة الفلسطينية ضد الجيش الصهيوني.

كما يشمل الذين يعتقدون أن الإسلام ينهى عن الشذوذ ويقول: إنه ذنب ومخالف لأمر الله، والذين لا يُدينون قتل الجنود البريطانيين في العراق وأفغانستان.

ويقول المقال: إن الحكومة ستوسِّع تعريف التطرف؛ بحيث يشمل أولئك الذين يرون آراء تتصادم مع ما تعرفه الحكومة بأنه القيم البريطانية المشتركة.

ويقول المقال أيضاً: إن الذين يدعون إلى التعريف الموسَّع يقولون: إن تأويل المتشددين للقرآن هو الذي يؤدي إلى معتقدات هي السبب الجذري للإرهاب الذي تواجهه بريطانيا. لكن المخالفين يقولون: إن الاستراتيجية ستصِم معظم المسلمين البريطانيين بالتطرف وتؤدي بذلك إلى عزلهم أكثر فأكثر.

ويقول الكاتب: لكن من يُعتبَرون متطرفين لن يكونوا هدفاً لقانون الجنايات، غير أنهم سيعزلون ويحرمون من الأموال العامة.

ونقل الكاتب عن وزير الداخلية أنه قال في شهر ديسمبر الماضي: إن استراتيجية الحكومة لمكافحة الإرهاب يجب أن تتضمن تحدياً للجماعات المتطرفة غير العنفية التي تتحاشى حدود القانون؛ لتدعو إلى أيديولجيات مليئة بالكراهية.

ويقول في النهاية: إنه لما سئلت وزارة الداخلية عن الوثيقة كان ردُّها أنها لا تتعامل مع وثائق مسرَّبة.

أقول: وهذا يدل على أن الوثيقة صحيحة، بل إن بعضهم يتهم الحكومة بأنها هي التي سرَّبتها، وأن الحكومات كثيراً ما تفعل هذا لترى ماذا يكون ردُّ الفعل الشعبي على القوانين التي تُزمع إصدارها.

ونعيد النظر في هذه القوانين المزمع صدورها لنلاحظ عليها ما يلي:

أولاً: أنها تريد أن تقيس ما يجوز وما لا يجوز بمعيار فضفاض متغير هو ما أسموه بالقيم البريطانية المشتركة. إن الليبرالية تقتضي أن يترك للناس التعبير عن آرائهم حتى لو كانت مخالفة لرأي الأغلبية؛ لأن ما هو رأي للأقلية اليوم قد يكون رأي الأغلبية غداً. وهذا هو الذي قد حدث فعلاً في مسائل مثل الشذوذ.

ثانياً: هل الإلحاد وسائر الفلسفات المادية التي تدعو إليها الماركسية وغيرها من الفلسفات والتي يدعو إليها كثير من المواطنين البريطانيين، والتي تمتلئ بها المكتبات البريطانية؛ هي من القيم المشتركة بين المواطنين؟ لماذا لا تكون إذن داخلة في مفهوم التطرف؟ لماذا يقتصر التطرف على المعتقدات الإسلامية المخالفة لما يسمى بالقيم البريطانية؟

ثالثاً: كيف تكون المقاومة المسلحة تطرفاً؟ هل يعني هذا أنه على كل شعب أن يستكين ويستسلم لكل من يريد غزوه واحتلال بلده؟ ألم يكن من الأجدر أن يقال: إن الغزو والاحتلال هو التطرف وهو الظلم وهو الإرهاب، وإذا كان كذلك كانت مقاومته بالسلاح أمراً مشروعاً بل واجباً؟

هل استغربتَ أن تفكر حكومة غربية في إصدار قانون كهذا؟ لماذا؟ أليس هذا هو الأمر الطبيعي الذي يُتوقع من كل قوم لا يؤمنون برسالات السماء، بل يحاربونها كما يحاربون الأنبياء؟ ألم يقل الله - تعالى -: ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ**

اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩]؟

ألم يقرر قوم لوط طَرْدَه ومن معه من قريتهم وعلَّلوا ذلك بسبب كونهم قوماً يتطهرون؟ قال - تعالى -: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

[الأعراف: ٨٢]

لقد كان تسامح الليبرالية وحريتها إنما هو مع قوم ينتمون إلى ملة واحدة من المعتقدات. وكان من غرائب هذه المعتقدات أنها لا ترى بأساً في الإساءة إلى رُسل الله استناداً إلى مبدأ حرية التعبير، لكن هذه الحرية لم تكن تشمل المشككين في حدوث المحرقة، بل إن التشكيك فيها يُعدُّ جريمة يعاقب عليها القانون!

قد يقال: لماذا إذن كانت هذه الدول تتسامح مع المسلمين؟ والجواب: لأنهم كانوا قلة لا تأثير لها على المجتمع، ولأنهم لم يكونوا متفاعلين معه ويتخرجون في مؤسساته العلمية ويتقنون لغته، وينتقدون فِكْره. أما حين صاروا قوة لها بعض الشأن، وحين بدأ دينهم ينتشر؛ كان الخوف منهم، وكان هذا التشدد معهم والذي يتوقع أن يزيد مع مرور الأيام إذا ما استمر بقاء المسلمين في تلك البلاد وازداد تأثيرهم.

وهل تستبعدون أن يصدر قانون في المستقبل يجعل التطرف شاملاً لكل من يقول: إن عقيدة التوحيد هي وحدها العقيدة الصحيحة، وأن الشرك والإلحاد عقائد باطلة؟ أما أنا فلا أستغرب هذا. وقد كنا نقول لإخواننا بالولايات المتحدة منذ زمن طويل: إن حرية الدعوة التي كانوا يستمتعون بها آنذاك لن تطول؛ فمن الخير لهم أن يستغلوها إلى أكبر حد ما دامت مستمرة.

وما أرى الدول الغربية الآن ستقف عند حدود من معهم من مواطنيهم المسلمين، بل إن الأمر سيتعدى ذلك إلى محاربة المسلمين المستمسكين بدينهم في كل مكان بحسب قوة موقفهم في وجه الحضارة الغربية، وهذا هو الأمر الذي تدل عليه مئات الكتب التي يصدرونها ومئات البحوث التي تصدر عن مراكز البحث عندهم. نعم! إنهم سيكررون للمسلمين القول: إنهم ليسوا ضد الدين الإسلامي وليسوا أعداء للمسلمين وإنما هم ضد التطرف الذي يؤدي إلى الإرهاب. ثم يعرِّفون التطرف كما يعرِّفه هذا القانون المزمع إصداره تعريفاً مفادُه أن كل ما يخالف قيم الحضارة الغربية وموروثاتها بل عاداتها، هو من التطرف الذي يحول دون التعايش والتعاون.

هل سيستنكر هذا كل من ينتسبون إلى الإسلام اليوم في بقية أنحاء العالم؟ كلا! فإن من هؤلاء من هو أخ لأمثال هؤلاء الغربيين بقلبه وإن كان مخالفاً لهم في لغته وسحنته وداره، وسيسرُّه أن يتغلب إخوانه أولئك على من يعدُّهم أعداء له من مواطنيه، كما فعلت ذلك أقوام الرسل الكافرة بهم على مرِّ التاريخ. والسبب في هذا هو أن كل أمة تحب ما هي عليه من معتقدات وأنواع سلوك، وترى أن في زعزعتها خطراً عليها، كما قرر الله - تعالى - هذه القاعدة العامة بقوله: **﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [**الأنعام**: ١٠٨].

وهم لا يرون أن أعمالهم حَسَنة فقط بل يريدون من كل الناس أن يكونوا مثلهم: **﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾** [**النساء**: ٨٩]. **﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾** [**البقرة**: ١٢٠].

ولكن إذا كان التضييق على إخواننا المستمسكين بدينهم في الغرب أو في أي مكان

سواه يسوؤنا؛ فإننا نرى فيه بشرى بأن هؤلاء المؤمنين صارت لهم قوة يحسب لها الأعداء ألف حساب، وهذا يدعونا ويدعوهم إلى الاستمرار في الاستمساك بهذا الدين والدعوة إليه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؛ لأنه إذا كان بعض الملأ من الذين كفروا يحاربون المؤمنين فإن في أقوامهم من سيرى فيه الحق حين يُعرَض عليه في صفائه؛ فيجعله ينضم إلى صفوف المؤمنين المجاهدين: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر

(البيان ٢٦١ - جمادى الأولى ١٤٣٠هـ - مايو ٢٠٠٩م)

المعروف: هو الخير الذي فطر الله العباد على معرفته، وأما المنكر: فإنما هو نقيض المعروف؛ فالمعروف إذن هو الأساس؛ فلا يكون نهي عن منكر إلا استناداً إلى خير قد عُرف. ولَـمَّا كان الإسلام فطرة الله التي فطر الناس عليها فقد جاء بالأمر بهذا الخير الذي تعرفه الفطرة وإشاعتِه؛ والنهي عن الشر الذي تنكره الفطرة وتقليصِه.

وقد يقول قائل: إذا كان المعروف هو الأساس وكان المنكر نقيضه؛ أفلا يكفي الإنسان أن يكون عارفاً بالمعروف؛ لأنه إذا عرف المعروف أنكر المنكر؟ ثم ألا يكفي أن تكون الدعوة دعوة إلى المعروف من غير تعرُّض للمنكر؛ لأن مجرد الدعوة إلى المعروف هي نهي عن المنكر الذي يضاده؟ وقد يقال أيضاً: إذا أمرت إنساناً بالمعروف وامتثله تكون قد حصَّنته من الوقوع في المنكر؛ فلا تحتاج إلى أن تنهاه عنه. أقول: كلاَّ؛ لأن النهي عن المنكر هو من مقتضيات الأمر بالمعروف، فإذا أمرت بمعروف ولم تنهَ عن المنكر الذي يضاده ويقابله لا تكون قد أعطيت الأمر بالمعروف حقه، ولا تكون قد حصَّنت مَنْ أمرته بالمعروف تحصيناً كاملاً.

ولأن النهي عن المنكر هو من مقتضيات الأمر بالمعروف صارا كالشيء الواحد في الهدي القرآني: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي القرآن وفي سُنة النبي ﷺ نصوص كثيرة ترى فيها كيف أن الأمر بالمعروف مقرون بالنهي عن المنكر.

من ذلك في باب الإيمان: قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، هذا أمر بمعروف. ﴿وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وهذا نهي عن منكر يناقض ذلك المعروف.

ومنها: قوله - تعالى -: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وهذا أمر بمعروف. ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ﴾، وهذا نهي عن منكر يناقضه.

والإيمان بالله يقتضي الكفر بالطاغوت.

ومن أمثلة ذلك في باب الأخلاق: قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾، هذا أمر بمعروف. ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، وهذا نهي عن منكر.

ومن أمثلته في باب الحياة الاجتماعية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، أمر بمعروف. ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، نهي عن منكر.

ومن أمثلته: أنه - تعالى - قال في الآية الثامنة والثمانين من سورة المائدة: ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٨]، ثم قال - تعالى - في الآية التسعين منها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

قلنا: إن الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر، وذلك لأسباب منها:

أولاً: أن المأمور بالمعروف قد لا يكون مدركاً لكل ما يناقضه من أنواع المنكرات فيقع في بعضها مع ظنه أنه عامل بالمعروف. ولهذا كان من اللازم أن تُبيِّن له أنواع المنكرات التي تناقض المعروف. خذ لذلك مثلاً لأكبر معروف وهو عبادة الله؛ فإنك تجد أن كثيراً من الناس مع تسليمهم بأن الله - تعالى - هو وحده المستحق للعبادة يقعون في كثير من أنواع الشرك التي بيَّن القرآن والسُّنة أنها شرك، وفصَّلا في ذلك، وبيَّنا لهم فيها بيَّنا أن من الشرك أن يحب الإنسان شيئاً كحبه لله، أو أن يحكم بغير ما أنزل الله، أو أن يستغيث بغير الله، أو يذبح لغير الله... وهكذا.

ثانياً: إن الإنسان قد يكون محباً للخير كارهاً للمنكر، لكن تناله حالات ضعف وجهل تجعله يقع فيه، فهو محتاج إلى من يعينه على الإقلاع عنه، والنهي عن المنكر هو من أحسن وسائل هذا العون؛ لأنه يذكره بقبح المنكر وتنافيه مع المعروف المحبوب له.

ثالثاً: النهي عن المنكر وجَعْلِه أمراً مستقبحاً أمر مهم؛ لأن في الناس من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف كما يبيِّن لنا القرآن الكريم. فإذا اكتفى الصالحون بالأمر بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر خلا الميدان للدعاة إلى المنكر، ولم يجدوا فيه من يصارعهم ويدفعهم، وربما صار صوتهم لذلك هو الصوت العالي، ولا سيما إذا كانوا من المشاهير في

المجتمع، ولذلك تجد الناس في البلاد الغربية أكثر ما يقتدون بأهواء الممثلين والمغنين والرياضيين في كثير مما يرتكبون من منكرات.

رابعاً: كلما علا صوت الداعين إلى المنكر كان من الصعب على بعض الناس أن ينتهوا عنه؛ لأن للمجتمع ضغطاً عجيباً على الإنسان. وهذه هي الآن المشكلة التي بدأتها الحضارة الغربية ثم جعلت تنتشر في العالم كله باسم الحرية.

خامساً: في نصوص الكتاب والسُّنة آيات تبيِّن الآثار السيئة لعدم إنكار المنكر: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [**المائدة**: ٧٨ - ٧٩].
وفي الآية الكريمة دليل على أن عدم تناهي هؤلاء القوم عن المنكر كان أحد أسبابٍ ثلاثة للعنهم على ألسنة هؤلاء الرسل الكرام.

والنهي عن المنكر واجب مهما شاع واستفحل. قال - تعالى -: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [**الأعراف**: ١٦٤].

سادساً: قال الرسول ﷺ في الحديث المشهور: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

في هذا الحديث دليل على أننا مأمورون ليس فقط بأن ننهى عن المنكر نهياً باللسان، وإنما بمحاولة إزالته ومحوه بقدر الإمكان؛ لأن في الناس من يجرؤ على أن يسنَّ للناس

---

(١) أخرجه مسلم.



سنن المنكرات التي لم تكن معروفة في المجتمع. وقد يكون هؤلاء المتجاسرون على سنِّ المنكرات في البداية قلة لا تُذكر، فإذا لم يأخذ الناس على أيديهم ويأطروهم على الحق أطراً؛ فربما تبعهم فيما سنُّوا غيرهم ثم ينتشر المنكر فيصبح من الصعب على الناس أن يأمروا بالمعروف الذي يناقضه.

بقي أن نقول: إن بعض الناس قد ينهى عن المنكر بطريقة فيها غلظة وخشونة تُحرِج المنهي وتُغضِبه؛ فربما أساء إلى من ينهاه، وربما أصرَّ بسبب ذلك على المضيِّ في ارتكابه لما نُهي عنه. ويرى بعض الناس هذا فيخيَّل إليه أن كل نهي عن المنكر يؤدي إلى هذه النتيجة فيحجم لذلك عن إنكار المنكر ويكتفي بالأمر بالمعروف. لكنَّ في هذا خلطاً بين قاعدة النهي عن المنكر وطريقة النهي عنه؛ فالذي ينهى عن المنكر بطريقة تؤدي إلى زيادته يكون هو نفسه قد ارتكب نوعاً من المنكر؛ فلا يكون سوء طريقته سبباً لترك النهي عن المنكر. ومثل هذه الطريقة غير اللائقة قد تحدث أيضاً في الأمر بالمعروف، ولذلك قيل: فليكن أمرك بالمعروف أمراً بمعروف.

القراءة والثقافة

(البيان ٢٦٢ - جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ - يونيو ٢٠٠٩م)

يقرأ بعضنا الإحصاءات التي تنشرها بعض المؤسسات العالمية كالأمم المتحدة عن متوسط ما يقرؤه الفرد في البلاد المختلفة، فيربط بين القراءة والثقافة فيعتقد أن الأمة الأكثر قراءة هي بالضرورة الأكثر ثقافة. وهذا استنتاج غالط. وغلطه في كونه لا يميز بين المعاني المختلفة للثقافة وصلة كل منها بالقراءة، كما أنه لا يميز بين أنواع القراءات، وأنواع القراء. وسنبيِّن شيئاً من ذلك في هذا المقال القصير، فنقول:

كلمة الثقافة بحسب الاستعمال الحديث الذي جعلها ترجمة لكلمة (culture)، لا بمعناها العربي الأصلي؛ لها ثلاثة معانٍ:

- فعلماء الإنثروبولوجيا يستعملونها بمعنى ما تمتاز به كل أمة أو كل مجموعة من الناس من معتقدات، وقيم خلقية، وعادات وتقاليد، وأنماط سلوك، بل أغانٍ وموسيقى ورقص، وطريقة أكل وشرب.

فبهذا المعنى يكون لكل أمة بالضرورة ثقافة (قارئة كانت أم غير قارئة)؛ فلا علاقة للقراءة بهذا النوع من الثقافة. لكن ثقافة أمة من الأمم قد تؤثر في أمة أخرى بوسائل

كثيرة لعل أهمها في عصرنا هو التليفزيون والسينما وبعض المجلات، وأما المادة المقروءة فربما تأتي في المرتبة الدنيا. والأمريكان يسمون هذا النوع من الثقافة بالقوة الناعمة في مقابل القوة الخشنة التي هي قوة السلاح. ويعتقدون أن هذه القوة الناعمة لها تأثير حتى ما كان منها مثل: انتشار مطاعم (ماكدولاندز) ومقاهي (ستار بكس)، ومثل انتشار أفلامهم وسائر عاداتهم. وهم محقُّون في ذلك؛ لأن التشابه الخارجي - كما كان يقول علماء مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية - يورث تشابهاً داخلياً، وهذه هي الحكمة في مخالفة الكفار في هديهم الظاهر. والغربيون يعلمون شيئاً من هذا، ولذلك يسرُّهم أن يجدوا ثقافتهم تنتشر في بلاد العالم ولا سيما العالم الإسلامي. ولقد انتشر هذا النوع من الثقافة الغربية حتى صار بعض الناس - لا سيما بعض النساء - يستمسكون به كأنه من ضرورات العصر التي لا يكون الإنسان عائشاً فيه إلا إذا كان ملتزماً بها.

- أما الاستعمال الثاني للثقافة فهو الثقافة بمعنى كثرة المعلومات في مواضيع متعددة؛ فالمثقف بهذا المعنى هو الذي يُلمُّ من كل علم بطرف، فيكون ذا إلمام بالتاريخ؛ تاريخ قومه الخاص وتاريخ العالم، وذا إلمام بما يدور في العالم من أحداث، وذا إلمام بالعلوم المنتشرة في عصره، وغير ذلك.

وعامة الغربيين ليس لهم اهتمام بهذا النوع من الثقافة، بل إن الكثيرين منهم ولا سيما في أمريكا لا يكادون يعرفون شيئاً عن العالم. لكن هذه الثقافة متوفرة في خواصهم أكثر مما هي متوفرة في خواصنا.

وأكثر ما يقرؤه عامة الناس في البلاد الغربية إنما هو الروايات والقصص والمقالات التي تتحدث عن الرياضة والأفلام، لكن الذين يُجْرون الإحصاءات لا يفرقون بين هذا

النوع الذي هو أكثر انتشاراً وبين النوع الأول، وقد يكون هو السبب الأساس في ارتفاع متوسط القراءة عندهم. سمعت بعضهم يذكر إحصائية تقول: إن متوسط ما يقرؤه العربي هو ربع صفحة، ثم تساءل: كيف نتقدم بربع صفحة؟ وربع الصفحة شيء قليل ما في ذلك شك لكن فائدته كانت ستكون أكثر ثقافياً؛ لو كان من النوع المفيد.

ثم إنه ليس هناك علاقة اطِّراد بين التقدم وبين ارتفاع معدل القراءة. أذكر أنني قرأت قبل عدة سنين إحصائية تقول: إن أكثر الناس قراءة هم الروس، مع أن الروس لم يكونوا في ذلك الوقت وليسوا هم الآن بأكثر تقدُّماً من الأمريكان بل هم وراءهم بسنين. وعَزَت الإحصائية كثرة قراءتهم إلى شدة البرد عندهم، وهو ما يضطرهم لأن يجلسوا في بيوتهم. وأذكر أنني قلت في نفسي آنذاك: هل يفسر الحر قلة قراءتنا، ولست أدري ماذا حدث للروس الآن بعد انتشار القنوات الفضائية.

ومِن أحسن ما في الثقافة بهذا المعنى الثاني هو ما يسمى بالثقافة العلمية، وهو الأمر الذي يجدر بنا أن نهتم به على المستوى العام وعلى المستوى الخاص. كنت أيام حادثة السونامي في زيارة إلى الهند فقرأت مقالات علمية في بعض الجرائد اليومية مكتوبة بلغة إنجليزية ميسرة يفهمها طالب الجامعة، فاستفدت منها كثيراً في فهم حادثة السونامي، وتمنيت لو أن صحفنا تنشر مقالات كهذه بلغة عربية علمية ميسرة حتى ينتشر هذا النوع من الثقافة بين الناس. هذا ما رأيته في الهند. أما في البلاد الغربية فإن الاهتمام بهذا النوع من الثقافة أكبر؛ فهناك المجلات العلمية التي تصلح لعامة المثقفين، وهناك القنوات العلمية مثل قناة (ديسكفري discovery) بل هناك الروايات التي تبنى على الخيال العلمي. لكن العلم الذي هو أساس التقدُّم التقني وما يبنى عليه من تقدُّم اقتصادي وعسكري وغير ذلك، إنما هو العلوم التجريبية المتخصصة: علوم

الفيزياء والرياضيات والكيمياء وغيرها. وهذه بالطبع لا يقرأ مراجعها إلا قلة من الناس، لكن هذه القلة هي التي تعتمد عليها البلاد في تقدُّمها العلمي والتقني.

- المعنى الثالث للثقافة هو الثقافة بمعنى ما يهذب النفوس، فيكون المثقف بهذا المعنى إنساناً صالحاً يلتزم بمكارم الأخلاق: من صدق في الحديث، ووفاء بالعهد، وإحسان إلى الخلق، وغير ذلك. وليس هناك من علاقة اطِّراد بين هذا النوع من الثقافة وبين كثـرة القــراءة؛ فالإنســان قــد يقــرأ أو يسمع آية من كتاب الله أو حديثاً لرسول الله ﷺ يذكِّره بربه وبالدار الآخرة فيصلح قلبه ويصلح بصلاحه كثير من أعماله وتصرفاته. وكلما ازدادت صلته بكتاب الله وبسُنة رسول الله ازداد هدى وصلاحاً. وكما تؤثِّر في الإنسان آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ تؤثِّر في صلاحه أيضاً سِيَرُ الصالحين من عباد الله. ولذلك قالوا: إن الإمام أحمد كان ينصح بقراءة سيرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز. فرُبَّ قراءة كتاب واحد في سيرة أحد هؤلاء الصالحين تؤثِّر في صلاح الإنسان أكثر من تأثير عشرات الكتب الأخرى، بل إن بعض هذه الكتب الأخرى ولا سيما الروايات منها، قد يكون لها أثر عكسي على القارئ يفسده ولا يصلحه ولا سيما إذا كان في مرحلة الشباب.

ليست هذه دعوة إلى التقليل من فائدة القراءة، ولكنها محاولة لوضع الأمور في نصابها؛ فحبذا لو اهتممنا بكل قراءة مفيدة لنا في صلاح قلوبنا وفي معرفة دنيانا، وحبذا لو يسَّرنا لعامة الناس الوصول إلى الكتب والمجلات والدوريات التي تعينهم على ذلك. ومن الأشياء المفيدة التي كانت تقوم بها الحكومة في الاتحاد السوفييتي هو تيسير مثل هذه القراءة. لقد كنا نستفيد كثيراً من كتبهم العلمية الميسرة التي كانت تترجم إلى اللغة الإنجليزية؛ فحبذا لو جعلت حكوماتنا مثل هذا التيسير والنشر هدفاً مهماً من أهدافها، وحبذا لو اهتممنا بإنشاء المكتبات التي يؤمها الناس للاطلاع وللإعارة.

وهناك مسألة أخرى هي سرعة القراءة. إننا بصورة عامة أكثر بطئاً في القراءة من الغربيين. وفي أول ذهاب لي إلى بريطانيا سجلت في برنامج لتعليم سرعة القراءة، كانت جامعة لندن قد أعدَّته خدمة لكل الطلاب. وهالني أنني كنت في مؤخرة قائمة أولئك البطيئين في القراءة، لكن عزائي كان أنني كنت متقدماً في مهارات أخرى لا علاقة لها بسرعة القراءة. وذكر لنا الأستاذ الذي كان يدرسنا أمثلة لأفراد متفوقين في سرعة القراءة منهم الرئيس السابق (جون كينيدي) الذي قال الأستاذ عنه: إنه كان يقرأ ألفي صفحة في الدقيقة الواحدة! وأنه كان من أكثر الناس استعارة للكتب من مكتبة الكونغرس. لكن هذا الرجل لم يكن مثقفاً بالمعنى الثالث للثقافة بل اشتهر بأنه كان رجلاً فاجراً، حتى قال عنه رئيس وزراء بريطانيا السابق في مذكـــراته (التي أوصى بأن لا تُنشر إلا بعد موته) كلاماً فحواه أنه لا يدري كيف يجد هذا الرجل الوقت لحكم بلاده لكثرة ما رأى من انشغاله بالنساء ومعاشرته لهن. وقصة (كلينتون) الذي يُعد من أكثر الرؤساء الأمريكيين ثقافة معروفةٌ.

وقد اشتهر بكثرة القراءة المفيدة وسرعتها عدد من علمائنا في الماضي؛ فحبذا لو أحيينا سنَّتهم ودرَّبنا أولادنا على أن يستنُّوا بسنَّتهم. والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

عندما تؤيد الدراسات العلمية الحقائقَ الإسلامية

(البيان ٢٦٤ - شعبان ١٤٣٠هـ - أغسطس ٢٠٠٩م)

كنت قد قرأت منذ بعض الوقت مقالاً لرجل أمريكي وصف نفسه بأنه ملحد، وأنه مختص بدراسة علم النفس والأنثروبولوجيا، ثم قال كلاماً فحواه أنه وجد أن الإيمـــان بالله - تعالى - أمر مشترك بين كل الشعوب وكل الثقافات، وأنه لا بد لذلك من أن يكون له أصل في النفس البشرية، لكنه قال: إنه ظل مع ذلك مصرّاً على إلحاده؛ لأنه لم يجد لهذا الإيمان من فائدة!

وفي (١٦ يونيو ٢٠٠٩م) نشرت جريدة الديلي تلغراف البريطانية مقالاً ذكرت فيه أن الدكتور بارت (ما أظنه ملحداً) أحد الباحثين الكبار بمركز الأنثروبولوجيا والعقل بجامعة أكسفورد ببريطانيا، يقول: إن الأطفال يولدون مؤمنين بالله ولا يكتسبون هذا الإيمان عن طريق التلقين، وسبب إيمانهم أن أدمغتهم صُمِّمَت بطريقة تجعلهم يؤمنون. ويرى لذلك أنه لو استطاعت قِلَّة منهم أن تعيش في جزيرة منعزلة؛ فإنها ستنشأ مؤمنة بالله.

ويقول: «إن أكثرية الأدلة العلمية في السنوات العشر الأخيرة - تقريباً - أوضحت أن ما هو مبني في التطور الطبيعي للأطفال أكثر بكثير مما كنا نظن».

ونشرت جريدة (سَبَق) الإلكترونية ملخَّصاً لهذا الخبر وطلبت من القراء التعليق عليه. فجاءت معظم التعليقات مقللة من أهمية اكتشاف العالم البريطاني، وقائلةً له: إنك لم تأت بجديد؛ لأن رسولنا ﷺ قد أخبرنا بذلك. واستدلوا على ذلك بالحديث الصحيح الشهير: «ما من مولود إلا يـولد على الفطرة؛ فأبـواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاء؟»[1].

نعم! إن الرجل لم يأت بحقيقة لم يكن يعرفها قراء الحديث النبـوي الشريف، لكنه - إن صَحَّت نظريته - أتى بجديد في الطريقة التي توصَّل بها إلى تلك الحقيقة التي قررها الرسول ﷺ. وهذا أمر يَسُرُّ المؤمن؛ لأن فيه دليلاً على صدق الرسول ﷺ. والمؤمن المصدِّق بالرسول يَسُرُّه أن تتضافر الأدلة على صِدْقه، وصِدْق الحق الذي جاء به؛ ألم يقل الله - تعالى -: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [**فصلت**: ٥٣]؟

قال ابن كثير: «أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية... ودلائل في أنفسهم... ويُحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الخالق - سبحانه وتعالى - وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة...».

---

(١) رواه مسلم.

تأمل قوله (بدلائل خارجية) يعني: ليست دلائل نقلية؛ لأن هنالك مصدرين للحقيقة، هما: كلام الله وخَلْق الله؛ فإذا ما وجدنا في خلق الله ما يؤيد كلام الله الموحى إلى رسول الله زادنا هذا إيماناً؛ لأن الإيمان يزيد بزيادة الأدلة الدالة على صدق الرسول ﷺ. وهذا هو الذي يُسمى الآن بالإعجاز العلمي الذي كان سبباً في دخول بعض الناس في الإسلام.

وقصة إبراهيم - عليه السلام - مع الطير هي من نوع هذه الأدلة الخارجية. قال الله - تعالى -: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فإبراهيم - عليه السلام - لم يكن شاكّاً في قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى وإنما كان يريد دليلاً يقوِّي إيمانه ويطمئن به قلبه. روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال: رب أرني كيف تحي الموتى. قال: أَوَ لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي».

قال ابن كثير: «معناه نحن أحق بطلب اليقين». ونزيد كلام ابن كثير بياناً فنقول: إن معنى الحديث أنه لا يمكن أن يكون إبراهيم قد شك؛ إذ لو كان هو يشك لكنا نحن أيضا نشك. وفي الآية دليل على أنه لا بأس على المؤمن من أن يبحث عن دليل يقوِّي به إيمانه.

في الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: التَقَى النبي ﷺ هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذَّة ولا فاذَّة إلا

اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان! فقال الرسول ﷺ: أما إنه من أهل النار! فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال: فَخَرَج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فَجُرِح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذُبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه. فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرتَ آنفاً أنه من أهل النار، فأعظمَ الناسُ ذلك، فقلت: أنا لكم به فخرجت في طلبه، ثم جُرِح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذُبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه، فقتل نفسه.

تأمَّلوا قول الصحابي: «أشهد أنك رسول الله» ألم يكن يشهد بذلك قبل هذا؟ بلى! ولكنه رأى في الواقع ما يدل على صدق الرسول، فدعاه هذا لأن يؤكد إيمانه به رسولاً. وفي هذه القصة دليل على ما ذكرنا قبل قليل من أنه لا بأس على المؤمن أن يبحث عن أدلة يؤيد بها إيمانه بكلام الله أو كلام رسوله ولا سيما إذا كان الكلام مما يبدو غريباً، كما في هذه القصة، ولا بأس عليه من أن يَسُرَّه وِجْدَان مثل هذا الدليل، ولا بأس عليه من أن يستعمل مثل هذه الأدلة الخارجية الكونية في الدعوة إلى سبيل الله. لكن ينبغي أن نتذكر بأنه ما كل إنسان يذعن للدليل مهما كان كونياً ومادياً ناصعاً، بل إن بعض الناس يصرون على كفرهم مهما رأوا مثل هذه الأدلة، ولن يعدموا حجة باطلة يتعللون بها في إصرارهم. ألم يقل الله - تعالى - عن أمثال هؤلاء: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فَهُم لا ينكرون أنهم رأوا الكتاب في القرطاس ولمسوه بأيديهم، لكنهم يُعللون إنكارهم بأن لمسه له ليس لمساً حقيقياً؛ لأنهم قوم مسحورون.

ومثل هذا قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: ١٤].

بل إن هنالك ما هو أعجب من هذا، وهو: أن المنكرين للحق الكارهين له لو ماتوا وأُدْخِلوا النار وذاقوا آلامها، ثم أُعْطُوا فرصة ثانية للعودة إلى الدنيا لكفروا، كما كفروا من قبل.

فعلى المسلم مهما سرَّته الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسول ﷺ أن لا يظن أنها ستُقْنع كل كافر بالله، تعالى.

نذكر في ختام المقال أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان قد قال مثل كلام هذا العالم البريطاني، لكنه أضاف حقيقة لا يعرفها هذا الأكاديمي، هي: أن الطفل حتى لو عُزِل من تأثير الوالدين؛ فإن الشياطين لا تتركه؛ لأن الله - تعالى - قال في الحديث القدسي في صحيح مسلم:

«إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

شهر للجهاد بالقرآن

(البيان ٢٦٥ - رمضان ١٤٣٠هـ - سبتمبر ٢٠٠٩م)

رمضان الكريم هو الشهر الذي أنزل الله - تعالى - فيه كتابه الحكيم؛ هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان.

والقرآن الكريم هو أساس الجهاد الكبير المستمر؛ الجهاد بالكلمة؛ حيث أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ والمؤمنين معه بأن يجاهدوا الكفار بالقرآن الكريم جهاداً كبيراً؛ أمرهم بذلك وهم مضطهَدون بمكة منهيون عن القتال بالسيف، مأمورون بأن يكفُّوا أيديهم ويقيموا الصلاة.

أنزل الله - تعالى - على رسوله قوله: ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً**﴾ [**الفرقان**: ٢٥] فأمره بأمرين مهمين؛ علينا أن نتذكرهما ونعمل بهما ولا سيما في هذا الشهر العظيم:

أمَره أولاً: بأن لا يطيع الكافرين؛ لا يطيعهم في أي أمر فيه مخالفة لما أنزل الله - تعالى - عليه في أمور الإيمان والعبادات والأخلاق والدعوة ومحاولتهم توهين أمره .

وأمره ثانياً: بأن لا يقف عند حدود هذا الموقف السلبي مع عِظَم أهميته، بل أن يخطو خطوة أخرى: هي جهاد الكفار بالقرآن الكريم جهاداً كبيراً. والجهاد الكبير كما تقول كتب التفسير: هو الجهاد الجامع لكل مجاهَدة.

ونحن؛ إذ نتحدث في هذا المقال عن الجهاد بالقرآن لا نعني نفي الجهاد بالسيف؛ فقد كانت معركة الإسلام الكبرى في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في رمضان، وإنما الذي نريد تأكيده هو أنه: إذا كان الجهاد بالسيف قد ينقطع لبعض الوقت ولبعض الأسباب؛ فإن الجهاد بالكلمة؛ كلمة الله - تعالى - جهاد مستمر وقد يكون شاقاً، لكنه جهاد لا بد منه؛ كان قبل القتال ويكون أثناءه وبعده. إنه جهاد لا بد منه؛ لأنه جهاد لا تعلوا كلمة الله - تعالى - إلا به.

أريد في هذا المقال أن أُذكّر الإخوة الصائمين بأمور تتعلق بالجهاد بالقرآن:

أريد أولاً: أن أدعو من كان منهم قادراً على تدبُّر القرآن الكريم وهو يتلوه في هذا الشهر، أن ينظر في الآيات الكريمة التي يرى فيها إبطالاً لما يراه جديداً من شبهات الكفار والمنافقين وسائر أهل الزيغ والضلال، ولما يراه فيها من كشفٍ لدوافعهم الخبيثة، وبيانٍ لطُرُقهم في نشر باطلهم، وتحذير للمؤمنين من التأثر بها؛ أريد لهذا القارئ الكريم أن ينظر في مثل هذه الآيات، ثم يتسلح بها في مواجهته لأولئك الضالين، مستعيناً بما كتبه عنها من سبقه من علماء الأمة الفضلاء، ثم يخوض معركته بالوسائل المهيأة له؛ فإن كان من أهل الكتابة كتب، وإن كان من أهل الحديث تحدَّث، وإن كان من أصحاب الحوار حاور وإن أكرمه الله؛ فكان من أهل ذلك كله فليجعله كله طريقاً لإعلاء كلمة الله

وقمعاً لمن يسعون لإطفاء نور الله، وليحرص ما أمكنه الحرص على أن ينتشر هذا الحق بكل الوسائل الحديثة المشروعة حتى يطَّلع عليه الناس؛ فإذا لم يطلع عليه اطلاعاً مباشراً من كان الكلام رداً عليه، فربما اطلع غيره فبلَّغه إليه.

وأريد ثانياً: أن أُذكِّر من لم يكن مؤهَّلاً لشيء من ذلك أنه ما زالت أمامه أبواب أخرى للجهاد بالقرآن الكريم؛ من ذلك أن بعض الجماعات والمؤسسات في البلاد الغربية قررت أن تقوم بحملات لتوزيع ترجمات القرآن الكريم، وهي تطلب المساعدة على ذلك؛ فإن استطاع أن يساعدها مساعدة مباشرة، فلْيفعل، وإلا فلْيحُثَّ على مساعدتها من يراه قادراً على ذلك. وإذا كانت هذه الحملات قد حدثت في البلاد الغربية فربما كانت أمثالها حادثة في غيرها من البلاد؛ في الصين واليابان والهند وإفريقيا وغيرها من أرض اللـه التي لا يستطيع أهلها الاطلاع المباشر على كتاب الله في لغته العربية التي أنزله الله – تعالى – بها.

هذا عمل جليل؛ لأن ما يسمى بالمعركة الثقافية؛ لكسب قلوب الناس ما تزال تزداد احتداماً في عصرنا؛ فالغرب يستعمل كل ما لديه من وسائل إعلامية؛ لنشر ثقافته وما يسميه بـ: قِيَمِه، والمسلمون يتأثرون بهذه الثقافات في معتقداتهم وأفكارهم وأزيائهم وسائر أنواع سلوكهم، لكن المسلمين أيضاً يؤثِّرون في الغرب وسائر البلاد غير الإسلامية تأثيراً عميقاً مرتكِزاً أساساً على دينهم، وآية ذلك أن الكثيرين منهم إذا عرفوا الحق لم يأبهوا لما يرونه من دعايات رسمية وغير رسمية ضد الإسلام، بل آمنوا به كله؛ فصاروا يُصلُّون ويصومون ويزكُّون ويحجون؛ فعلى المسلم أن يدخل هذه المعركة إن لم يكن قد دخلها من قَبْل، وعليه أن يزيد من جهده في شهر الصيام إن كان ممن شرَّفهم الله – تعالى – بدخولها.

إن المسلم الصادق العارف بما يدور في عالمه لا يمكنه أن يقف متفرجاً في هذه المعركة الثقافية التي تدور رحاها بين المسلمين وخصومهم وأعدائهم؛ لا يمكنه أن يظل متفرجاً وهو يرى أولئك الخصوم لا يكتفون بنشر أباطيلهم؛ بل يتعدون ذلك إلى تشويه الإسلام تشويهاً نرى آثاره على كثير من الناس في بلادنا وبلادهم.

خذ على سبيل المثال ما قاله صاحب كتاب نُشر حديثاً بعنوان: (سوء الفهم القاتل) ألَّفه عضو في الكونغرس الأمريكي وقدَّم له (بان كي مون) الأمين العام للأمم المتحدة، يقول مؤلف الكتاب: إنه دخل عالم واشنطن قبل خمسة وعشرين عاماً (الكتاب صدر في عام ٢٠٠٨م) باعتباره جمهورياً محافظاً ونصرانياً إنجيلياً، ويقول: كنت في ذلك الوقت أعتقد أن الإسلام دين عنف، وأن القرآن يدعو إلى إبادة كل من ليس مسلماً، وأن القرآن والإسلام أمور شريرة، وأنها أمور إلحادية؛ مثلها في ذلك مثل الشيوعية التي كان العمل على هزيمتها هو هدف السياسة الخارجية الأمريكية.

إن ما يطلبه الكفار الآن من المسلمين هو عكس ما يأمرهم به دينهم؛ إنهم يطلبون منهم أن لا يدافعوا عن أراضيهم حتى لو غُزوا في عِقر دارهم، وإلا كانوا إرهابيين مجرمين، بل صاروا يقرنون بين الجهاد والإرهاب؛ فيُسمُّون الكثيرين ممن يصفونهم بالإرهابيين جهاديين، وصاروا يطلبون من المسلمين أن لا يدافعوا عن دينهم أو يردوا على الكافرين به حتى بالكلمة، وإلا كانوا متطرفين مفرِّقين للناس غير راضين بالتعايش السلمي معهم، لكن ديننا يعلِّمنا أن هنالك فَرقاً بين أن تسالم أعداء دينك، وأن تعترف لهم بباطلهم؛ فالمطلوب من المسلمين أن يعيشوا في سلام مع من كل من يريد أن يعيش معهم في سلام، لكن المطلوب منهم في الوقت نفسه أن يقوموا بتبليغ رسالة نبيهم، وأن يبلِّغوها بالتي هي أحسن. ولا تَضَاد بين هذا وذاك؛ إذ إن هنالك فَرْقاً بين المسالمة والمداهنة.

ثم لنتذكر أن هذا الجهاد بالقرآن الكريم هو نفسه عبادة من أعظم العبادات، وأنه ربما كان أبلغ في شهر الصيام والقرآن؛ حين تصفو النفوس - بإذن الله - وتكون أكثر إخلاصاً، وأشدَّ حباً للحق، وأكثر كراهية للباطل، وأقدر على تدبُّر القرآن الكريم؛ إنه جهاد يبتغي به المؤمن المخلص إعلاء كلمة الله، ويعمله ابتغاء رضوانه - سبحانه - إن العمل الجهادي لا يذهب هباءً أبداً، بل إما أن يهتدي به بعض الضالين؛ فيكون قد زاد من الخير، ويكون ذلك خيراً له من حُمْر النَّعَم، وإما أن يكون فيه قمع لأهل الباطل وتقليل من شرِّهم، وإما أن يجتمع الأمران كلاهما؛ فيكون خيراً على خير. والمؤمن وإن كان يعلم هذا، لا يُعلِّق عمله على رؤية هذه النتائج، بل يكِل أمرها إلى الله - تعالى - كما قال - سبحانه - لنبيه ﷺ: ﴿ **وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [يونس: ٤٦].

لسنا ضد الإسلام... ولكن

(البيان ٢٦٦ - شوال ١٤٣٠هـ - أكتوبر ٢٠٠٩م)

قال السياسي الغربي للداعية المسلم: إننا نأخذ عليكم أنكم لستم أمناء في نقل صورتنا لجماهيركم؛ لأنكم دأبتم على تصويرنا لهم بأننا ضد الإسلام، مع أن الحقيقة أننا لسنا ضده.

قال الداعية: ما الإسلام الذي لستم أنتم ضده؟ إن جوهر الإسلام هو الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله؛ فهل أنتم لستم ضد شيء من هذا؟

قال الغربي: لو كنا نؤمن بكل هذا لكنا مسلمين! وأنا لم أقل: إننا مسلمون، وإنما قلت: إننا لسنا ضد الإسلام؛ بمعنى أننا لسنا ضد من يؤمن بما ذكرت؛ لأننا باعتبارنا لبراليين نؤمن بأن من حق كل إنسان أن يؤمن بما شاء من دين ويدعو إليه ويعمل به.

قال الداعية: هل أفهم من هذا أنكم تسمحون بكل هذا للمسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيكم؟

قال الغربي: نعم! ما دام ذلك لا يتعارض مع شيء من قوانيننا أو قيمنا؛ فنحن لا نسمح للمسلم - مثلاً - أن يتزوج بأكثر من امرأة، وإن كنا نسمح له - بحسب قوانيننا وأعرافنا - بأن يعاشر من شاء من النساء أو الرجال ويفعل معهم ما تسمونه أنتم (فاحشة) ما دام ذلك عن تراضٍ منهم. وربما ذهبنا الآن إلى أكثر من هذا، فاعتبرنا أشياء مثل الحجاب مخالفة لقيمنا.

قال الداعية: إذن فالإسلام الذي أنتم لستم ضده في بلادكم هو إسلام في حدود نظامكم العلماني؛ فإذا تجاوزه كنتم ضده ونسيتم ليبراليتكم! دعني أسألك سؤالاً آخر: ما موقفكم من المسلمين الذين ليسوا مواطنين في بلادكم والذين يريدون أن ينظموا حياتهم بحسب تعاليم دينهم؟

الغربي: نحن باعتبارنا ليبراليين نؤمن بأن من حق كل شعب أن ينظم حياته وَفْق مبادئه، لكننا نؤمن بأن مبادئنا اللبرالية وقيمنا كالديمقراطية وحقوق الإنسان لم تعد قيماً غربية بحتة وإنما هي قيم إنسانية، ولهذا فنحن نسعى بكل الطرق السلمية لأن تكون قيمنا هذه هي القيم السائدة في العالم، بما في ذلك العالم الإسلامي.

الداعية: إذن فأنتم ضد كل شيء في العالم الإسلامي يتعارض مع ما تسمونه: (قيمكم اللبرالية) حتى لو كان مما يأمر الإسلام به، وتسعون لتغييره.

الغربي: أجل! ولكننا نفعل ذلك بالطرق السلمية ومنها الضغوط السياسية والاقتصادية والإعلامية؛ لأننا نرى أن من مصلحة الشعوب المسلمة أن تتبنى مبادئ اللبرالية التي صارت - كما قلت لك - مبادئ إنسانية لا غربية.

الداعية: لكن الواقع أنكم لا تقفون عند هذه الحدود - مع ما فيها من عدوان - بل تتعدون ذلك إلى استعمال السلاح.

الغربي: نعم! نفعل ذلك لمساعدة الشعب في دولة تكون ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها ضد المعتدين عليها من حكامها، كما فعلنا ذلك في العراق.

الداعية: هل تعني أن الدول الغربية كلها: كندا وأوربا وأستراليا ونيوزيلندا... وغيرها اجتمعت على غزو العراق وقتل الألوف من أبنائه وتدميره وتخريبه؛ لتخلِّصه من حكم رجل واحد؟

الغربي: إنكم تبالغون في هذا الأمر؛ فالعراق الآن دولة ديمقراطية يحكمها رئيس منتخب وبها من الحريات ما لم تكن تنعم بها أيام الحكم الدكتاتوري.

الداعية: دعك من دعاوانا نحن واستمع إلى شهادة مؤسسات غربية.

الغربي: ما هي، وماذا تقول؟

الداعية: هذه مجلة السياسات الخارجية (Foreign Policy) تقول في عددها الإلكتروني الصادر في يونيو من هذا العام: إن العراق كان بلداً سكانه من الطبقة المتوسطة يملكون منازل وسيارات ومدارس خاصة، لكنه دُمِّر، وتقول: إنه مات في الحرب ٤٣٠٠ من قوات التحالف و٢٠٠٠٠ من الجنود ورجال الأمن العراقيين، ومات ٩٠٠٠٠ من المدنيين بسبب القتال و٥٠٠٠٠ لأسباب غير مباشرة، ومات ١٦٣ صحفي، وفُقدت ١٥٠٠ قطعة من قطع المتاحف التي نُهبت.

هذا ما ذكرته الصحيفة في عددها الصادر في ٢٢ يونيو ٢٠٠٩، لكن التخريب والموت ما زال مستمراً؛ فهل تقول لي: إن كل هذا الموت والتخريب إنما كان من أجل تخليص بلد مسلم من دكتاتور من بني جنسهم؟ هل هذا كلام يقبله من كان فيه ذرة من عقل؟

الغربي: لا تنس أنه وإن كان تخليص العراق من حاكم دكتاتور من دوافعنا لخوض تلك الحرب؛ إلا أنه كان هنالك دافع ثانٍ أقوى، هو الدفاع عن مصالحنا التي كان يهددها امتلاك صدام لأسلحة دمار شامل.

الداعية: اسمح لي أن أقول لك: إن ذلك لم يكن دافعاً وإنما كان ذريعة لتسويغ الاعتداء، والدليل على ذلك أن الحرب استمرت، وأن جزءاً كبيراً من ذلك التخريب والقتل حدث حتى بعد أن عرف العالم كله وحتى بعد اعتراف الحكومة الأمريكية أن صدَّاماً لم يكن يملك من أسلحة الدمار الشامل شيئاً.

الغربي: لماذا لا تعترف بأن الرئيس الجديد للولايات المتحدة فاز بشعار التغيير، وأنه وعد ببداية صفحة جديدة مع العالم الإسلامي؟

الداعية: نعم! إن الرئيس الجديد وعد بذلك، لكن ثبت أن تغييره إنما هو في اللغة التي يخاطب بها المسلمين وغيرهم؛ إنه يلجأ إلى الكلام المعسول، ولسنا ممن تخدعه الكلمات المعسولة.

نعم! إنه وعد بالخروج من العراق، لكن هذا أمر كان قد وعد به الرئيس السابق، لأنهم يرون أن مهمتهم هنالك قد انتهت، لكن الرئيس الجديد خرج من العراق ليركز على بلد مسلم آخر هو أفغانستان، بل وحتى باكستان؛ تروي المجلة التي ذكرتُ لك سابقاً في العدد نفسه عن كرزاي الذي نصبه الأمريكان حاكماً على أفغانستان: «إذا كنت دمية لأنني أعترف بالفضل لأمريكا، فليكن ذلك لقبي» وتقول: إنه مات في الحرب ١١٦٠ من قوات التحالف و١٠٠٠٠ - على الأقل - من الجنود وقوات الأمن الأفغانية، ومات - على الأقل - ١١,٠٠٠ من المدنيين بسبب الحرب و ٢٠٠٠٠ لأسباب غير

مباشرة، ومات ستة صحفيين، ونُهبت من المصنوعات الأثرية حتى قال وزير الثقافة: إن أفغانستان متحف كبير يُسلب رويداً رويداً.

أقول: هـذا ما حـدث حتـى صدور ذلك العدد، لكن الحرب مستمرة، والله وحده يعلم ماذا ستكون خسائرها النهائية.

خَلْق اللَّه... وشَـرعْ اللَّه

(البيان ٢٦٧ - ذو القعدة ١٤٣٠هـ - نوفمبر ٢٠٠٩م)

خلق الله الخلق وأنزل الشرع وجعل بينهما علاقة وثيقة؛ إذ جعل الخلق مناسباً لتحقيق أهداف الشرع:

أولاً: من حيث أن خَلْق الله هو سبب العبادة التي هي الغاية التي من أجلها خَلَق الإنسان: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْـجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] فنحن نعبد الله - تعالى - لأنه هو خالقنا وخالق كل شيء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١].

ومناسبة الخلق للعبادة هي أن الخلق يدل:

أولاً: على قدرة الخالق؛ لأنه إذا كان خالقاً لكل شيء، فهو القادر على كل شيء؛ فيكون بهذا مستحقاً لأن يُحَب ويُدعى ويُخشى ويُرجى؛ لأن أمر الإنسان كلَّه بيده، سبحانه.

ويدل ثانياً: على أن كل ما ننعم به هو من خلق الله؛ فيستحق - سبحانه - أن يُشكر، والشكر لب العبادة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فإذا كان الله - تعالى - إنما يُعبد؛ لأنه هو الذي يخلق، فإن من لا يخلق لا يستحق أن يُعبَد: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]. ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧]. ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]. ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وثانياً: من حيث أن مخلوقات الله - تعالى - آيات وعلامات دالّة على وجوده وعلى صفاته، بل وعلى وجود حياة بعد الموت. ولذلك كان التفكر في الخلق من أجلِّ العبادات: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] فالإنسان المؤمن كلما ازدادت معرفته بخَلْق الله وتفكُّره فيه ازداد إيمانه به - سبحانه - وأنه سيبعث عباده ويحاسبهم.

وثالثاً: ومن حيث إنه إذا كان الخلق بصفة عامة هو سبب عبادتنا لله - تعالى - فإن المخلوقات المعينة إنما صممت لتكون وسيلة لتحقيق تفاصيل العبادات: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ

اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ [طه: ١٣٠].

ورابعاً: من حيث كونه وسيلة لِـمَا شرع الله من عادات تستقيم بها حياة الناس: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] ففي هذا دليل على أنها خُلقت منذ البداية للذين آمنوا، وأن مشاركة الكفار لهـم فيهـا أمر مؤقت ينتهـي بانتهاء الحياة الدنيويـة ثم تكـون الزينـة خالصـة للذين آمنـوا لا يشركهم فيهـا كافـر.

والرجال والنساء خُلقوا لتكون هنالك صلة بينهم تؤدي إلى الإنجاب: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

والشذوذ محرم؛ لأنه تَرْكٌ للأمر الطبيعي، ووضع للشهوة في غير موضعها الذي خلقه الله لها: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦].

وخامساً: من حيث مناسبة الخلق لِـمَا شرع الله - تعالى - للناس من معاملات وأخلاق تنتظم بها حياتهم؛ فأصل الإحسان إلى الناس الذي أمر الله - تعالى - به مبناه على الإيمان بالدين الحق؛ والدين الحق مركوز في فطرة الإنسان: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وداعي الإحسان إلى الخلق يزداد قوة بما خلق الله - تعالى - بين الناس من صِلات الأخوة الإيمانية، وصِلات القربى الطبيعية: ﴿إِنَّمَا الْـمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْـمَسَاكِينِ وَالْـجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْـجَارِ الْـجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْـجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقد جعل الله - تعالى - الإنفاق إلى الأقرب فالأقرب من الناس قرباً طبيعياً؛ لأن هذا أمر سهل على النفس البشرية؛ لأنه أمر تدعوالناسَ إليه فطرتُهم التي فطرهم الله - تعالى - عليها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْـمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

هذه الطريقة الطبيعية إلى الإحسان إلى الناس ومساعدتهم، أحسن وأجدى من اعتبار الناس جميعاً أفراداً مشتتين وإيكال أمرهم إلى رعاية الدولة وحدها؛ فالشرع الإسلامي يقسم الناس إلى مجموعات يتكون منها المجتمع لا أفراد، ويقسم المسؤوليات بينهم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

في كل هذا دليل على أن الخلق لم يُخلق في البداية مستقلاً عن الشرع، ثم جاء الشرع ليختار منه ما يكون مناسباً له كـ (أوقات الصلوات والصيام والحج)، بل إن الخلق بطبيعته وأماكنه وأزمانه صُمّم منذ البداية؛ ليكون مناسباً لشرع الله، ثم جاء الشرع موافقاً لما صُمّم له وقُصِد به.

---

(١) أخرجه البخاري.

وسادساً: من حيث أن من المعجزات التي يؤيد الله - تعالى - بها رسله إنما هي خوارق لعادات طبيعية مطَّردة في الكون؛ فخرقها تأييداً للأنبياء يدل على صدقهم وعلى أن الأمر كله بيد الله - تعالى - فعندما رأى السحرة عصا موسى تنقلب إلى حية حقيقية آمنوا؛ لأنهم رأوا الفرق بينها وبين الحيات المصطنعة التي موهوا بها على الناس: ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ١١٥ - ١٢٢].

وخَرْقُها يدل أيضاً على أنها لا تسير وَفْقَ قوانين طبيعية مستقلة عن خالقها، بل إن قوانينها نفسها هي من خلق الله - تعالى - ولذلك؛ فإنه يخرقها متى شاء تأييداً لصدق أنبيائه.

وسابعاً: من حيث إن المؤمن يعيش في عالم صديق تربطه به صلة الإيمان بالله وعبادته؛ فكل ما في الكون يصلي لله - تعالى - كما يصلي المؤمن: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [**النور**: ٤١] وكل ما في الكون يُسبِّح الله - تعالى - كما يُسبِّحه المؤمن: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [**الحديد**: ١] وكل ما فيه يسجد له كما يسجد المؤمن: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [**الحج**: ١٨] وكل ما فيه يقنت له ويطيع كما يفعل المؤمنون: ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ [**الروم**: ٢٦].

ثامناً: أن معارفنا البشرية تُتلقى من مصدرين لا ثالث لهما هما: (وحي الله، وخَلْق الله) وهما مصدران يصدِّق بعضهما بعضاً؛ فلا تجد في كتاب الله ما يخالــف واقــعاً خلقــه الله، ولا تجد في ما خلقه ما يكذب كلاماً ذكره الله - تعالى -: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

لكن غلبة الفكر الغربي الذي صار منذ القرن الثامن عشر الميلادي فكراً شبه إلحادي، حصرت مصادر المعرفة في الكون وحده، وصارت كل إشارة في مصدر أمراً غير علمي؛ وبهذا عرَّف العلــمَ تعريفاً جعله - حتى من حيث المبدأ - مخالفاً بالضرورة للدين حقاً كان أو باطلاً. وقد كان هذا هو السبب في الفكرة التي سميت بإسلامية العلوم؛ إذ إن جوهرها هو أن لا يُقتَصر في معرفة الحقائق في أي علم من العلوم على المصدر الكوني، بل يضاف إليه ما أوحاه الله - تعالى - من كتاب وسُنَّة.

لمن الحكم؟ للخالق أم للمخلوق(*)؟

(البيان ٢٦٨ - محرم ١٤٣١هـ - يناير ٢٠١٠م)

من أقوى الأدلة على أن الحكم لا يكون إلا لله أن البشر الذين يعطون أنفسهم حق الحكم أو يعطيهم إياه غيرهم يضطرون لِأَن ينسبوا لأنفسهم صفات إلهية لا يكون الحاكم حاكماً إلا بها. ويكون هذا أحياناً بادعاء صريح للألوهية كما كان فرعون يقول لقومه: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [**القصص**: ٣٨] أو ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [**النازعات**: ٢٤]. ولكن حتى عندما لا يكون هذا الادِّعاء صريحاً؛ فإن الحاكم الدكتاتور المستبد يضطر لِأَن يعطي نفسه بعض صفات الخالق؛ كأن يطلب من المحكومين أن يطيعوه طاعة مطلقة، وأن يدَّعي أن كل ما يأمرهم به إنما هو لمصلحتهم التي هو أعلم بها. ومما لا شك فيه أن كل هذه دعاوى باطلة؛ فلا أحد من البشر (فرداً كان أو مجموعة أفراد أو حتى الناس جميعاً) يمكن أن يعرف مصالح الناس كلها، وإنما الذي يعرف هذا هو خالقهم.

(*) تفضَّلَ بقراءة نسخة أُولَى من هذا المقال ابننا الشيخ الفاضل ماجد الجوير وعلَّق على الجزء الثاني منه تعليقات مفيدة جعلتني أعيد النظر فيما كتبت؛ لأضمنه كثيراً من تعليقاته واستدراكاته. فجزاه الله خيراً.

هذا عن الدكتاتوريات؛ فماذا عن الديمقراطيات؟

تقول الديمقراطية: إن الحكم للشعب. لماذا؟

هنا أيضاً يضطر منظرو الديمقراطية وفلاسفتها أن ينسبوا إلى من يسمونه بالشعب صفات لا تكون إلا لله، تعالى؛ فهم يقولون - مثلاً -: إن الشعب يجب أن يكون حاكم نفسه؛ لأن الذي يرضى بأن يحكمه غيره كما هو الحال في الحكم الدكتاتوري أو الحكم الذي يسمونه بالثيوقراطي، يكون عبداً لذلك الحاكم، وهذا صحيح. ولكن بما أن الله - تعالى - هو خالق الناس، فهو المالك لهم وهم عبيده حقيقة؛ فهم حين يقبَلون تشريعه يُقرُّون بأمر حقيقي، لا كما يرضون بأن يكونوا عبيداً لبشر مثلهم لا يملكونهم حقيقة.

ثم ما معنى أن يقال: إن الشعب حاكم نفسه؟ إن الشعب ليس شيئاً واحداً، وإنما هو مكوَّن من عدد من الأفراد؛ فهل يمكن أن يكون كل فرد في المجتمع حاكماً لنفسه مشرِّعاً لها؟ إذن لا يكون هنالك مجتمع، وإنما تكون فوضى.

الذي يحدث في الواقع هو أن بعض الأفراد يحكمون غيرهم؛ فإذا قلنا: إن الذي يرضى بحكم غيره من البشر يكون قد جعل من نفسه عبداً له؛ فإن هذه نتيجة لا مفر منها حتى في أحسن البلاد تطبيقاً للديمقراطية!

لماذا؟ لأن التشريع في النظام الديمقراطي يكون: إما باستفتاء الشعب كله، أو بقوانين يُصدرُها نوابه في الهيئات التشريعية، أو بقرارات يتخذها حكامه التنفيذيون.

أما في الاستفتاء؛ فإن القرار الذي يحكم به الشعب هو قرار الأغلبية. ماذا عن الأقلية؟ هل يكونون معبودين للأغلبية؟ ثم هب أن القرار كان بإجماع

المستفتين لا بأغلبيتهم. هنا أيضاً يقول بعضهم: إن المشكلة لم تُحَل؛ لأن كل فرد من الذين صوتوا للقرار كان معتمداً على غيره في جعل ذلك القرار قانوناً للبلاد؛ وإذن؛ فهو لم يكن حاكماً لنفسه، بل أشرك معه غيره في ذلك الحكم.

أما في قرارات المجالس، فالأمر واضح؛ فممثلوا الشعب ليسوا هم الشعب، ثم إنهم لا يستشيرون الشعب في كل مسألة تُعرَض عليهم، وإن كانوا في بعض الأحيان يراعون أثر تصويتهم على الدوائر التي انتخبتهم. والقرارات سواء كانت بالإجماع (وهو أمر نادر جداً) أو كانت بالأغلبية؛ فإنه يقال عنها ما قيل عن الاستفتاء. وفي كلا الحالين لا يكون الشعب حاكم نفسه وإنما حكامه بعض أفراده.

الصفة الثانية التي يذكرونها هي صفة العلم: فهم يقولون كلاماً صحيحاً، هو: أن الذي يحكم يجب أن يكون عالماً بمصلحة من يحكم قاصداً لتحقيقها، ثم يقولون في الدفاع عن حكم الشعب: إن كل إنسان أدرى بمصلحته؛ فيجب أن يكون الحكم له، لكن المعترضين على هذه الحجة يقولون: إن القرارات الديمقراطية ليست قرارات فردية، وإنما هي قرارات تتعلق بالجماعة؛ فهل كل فرد في المجتمع هو الأدرى بمصلحة المجتمع في مسائل السياسة الداخلية والخارجية ومسائل الاقتصاد والقانون والتقنية وغير ذلك مما تتخذ فيه الدولة من قرارات؟ نزيد: وهل صحيح أن كل إنسان أعلم بكل مصالحه؟ أما كون الإنسان يعلم بعض مصالحه فأمر لا شك فيه، وأما كونه يعلم كل مصالحه فأمر يكذِّبه الواقع؛ إذ لو أن كل إنسان عالم بمصلحته لما احتاج أن يتعلم، ولا أن يشاور، ولَـمَا غير رأيه في بعض ما كان يرى، لكن الواقع أن الإنسان يفعل كل هذا. إن العالم عِلماً محيطاً بكل ما يصلح الإنسان وما يفسده لا يكون إلا خالقه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ

الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. أما البشر، فليس لهم مثل هذا العلم: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن أقوى الأدلة على أن الشعب لا يحكم نفسه حتى في الدول الديمقراطية، بل يحكمه أفراد منه، أن القوانين والدساتير التي يحكم بها الجيل الراهن كثيراً ما تكون قد وضعها أفراد في أجيال ماضية. من أبْيَن الأمثلة على ذلك أن الدستور الذي يُحكَم به الشعب الأمريكي الآن وضعه في القرن الثامن عشر بعض من يسميهم الأمريكان بالآباء.

لكنَّ المعترضين على حكم الله - تعالى - يثيرون شبهات، منها:

قولهم: أين نجد هذا الحكم؟ هذه مشكلة خاصة بالغربيين الذين ليس لهم كتاب هم موقنون بأنه من عند الله، تعالى. أما المسلمون، فعندهم كتاب لا يشك حتى من درس الإسلام من الغربيين في ثبوت نسبته التاريخية إلى الرسول الذي أُنزِل عليه.

الشبهة المهمة الثانية التي يثيرونها، هي: أنه على فرض أن حكم الله - تعالى - مسجَّل في كتاب معروف؛ فإنه يكون شيئاً محدوداً مع أن ما يحدث للبشر من حوادث ونوازل شيء غير محدود؛ فكيف يكون حكم الله شاملاً لها؟ يكون شاملاً لها؛ لأن هنالك فَرْقاً بين النصوص والأحكام:

أولاً: لأن النص الواحد قد يدل على عدة أحكام؛ فالنص - كما يقول الشيخ في تعليقه ملخِّصاً لكلام لابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين -: «له سياق، وله إشارة وتنبيه، وإيماء، واعتبار، واقتضاء، وكل تلك دلالات نصية تؤخذ من النص الشرعي، وتشمل بعمومها أحكاماً كثيرة، مبيَّنة في كتب أصول الفقه».

ثانياً: إنه يمكن استخراج حكم جديد بضم نص إلى نص من نصوص أخرى، كما فَهِم الشافعي أن أقل الحمل ستة أشهر من ضم قوله - تعالى-: ﴿وَالْوالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] إلى قوله ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ثالثاً: هنالك قواعد فقهية عامة. قال العلماء: إنها قطعية الثبوت، مثل قاعدة: لا ضرر ولا ضِرار، وقاعدة: رفع الحرج، وقاعدة: اليقين لا يزول بالشك.

فيمكن للفقيه أن يستدل على تحريم الدخان - مثلاً - بقاعدة: لا ضرر ولا ضرار بعد أن ثبتت علاقته بالسرطان.

رابعاً: هنالك أحكام قياسية، وهي - باختصار -: أننا إذا وجدنا الشرع قد حكم على شيء ما بالتحريم - مثلاً - وعرفنا العلة التي من أجْلِها حُرِّم، ثم وجدنا هذه العلة نفسها في شيء جديد؛ فإننا نعطيه حكم الأصل الذي دلت عليه النصوص؛ فالعلة في تحريم الخمر - مثلاً - هي كونها مسكرة، فإذا وجدنا شيئاً جديداً فيه هذه العلة؛ فإننا نُحرِّمه بِغضِّ النظر عن اسمه أو لونه أو كونه سائلاً أو جامداً. هذا؛ لأن الشريعة متَّسِقة لا تناقض فيها: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال ابن قيم الجوزية: (شَرْع اللهِ ووحيُه وثوابُه وعقابه قائم على إلحاق النظير بالنظير، واعتبار المِثْل بالمِثْل) وهذا أيضاً باب واسع يشمل ما لا يكاد يحصى من الحوادث.

خامساً: ثم هنالك الإباحة؛ فإنها تشمل كلَّ أمر لم يذكر الله حكمَه، ولم يدل عليه القياس، ولا النصوص العامة؛ فهو باقٍ على أصل الإباحة، كما قال ﷺ: «وما سكت عنه، فهو عفو». وهذا أيضاً باب واسع جداً.

هذا الذي أوجزناه هنا، إنما هو قطرة من بحر ما كتب الفقهاء في هذا الأمر مثبتين أن الشريعة تفي بمصالح العباد كلها في دنياهم وأخراهم.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

القرار السويسري بمنع المآذن قرار ديمقراطي!

(البيان ٢٧٠ - صفر ١٤٣١هـ - فبراير ٢٠١٠م)

استطاع حزبان سويسريان يوصفان بكونهما متطرفَين أن يجمعا التوقيعات اللازمة لإجراء استفتاء عام يقضي بمنع المسلمين من تشييد مآذن جديدة بالإضافة إلى المآذن الأربعة القائمة - فعلاً - في البلاد. وكانت نتيجة الاستفتاء الذي أُجري في التاسع والعشرين من شهر نوفمبر ٢٠٠٩م، أن وافق ٥٧٪ من المواطنين على المنع.

هذا قرار ظالم ومجحف بالمسلمين، بل قد قال المعارضون له في داخل سويسرا وخارجها أنه كانت في الدعاية له روح عنصرية إلى جانب التعصب الديني، لكن القرار مع ذلك قرار ديمقراطي لا ريب في ديمقراطيته؛ وذلك أن القرار يكون ديمقراطياً إذا صدر عن الشعب في استفتاء عام، أو صدر عن أغلبية ممثليه في المجالس التشريعية، أو عن أحد من المسؤولين التنفيذيين إذا كان ضمن السلطات المخوَّلة له. والقرار الذي يأتي عن طريق الاستفتاء العام، هو أقوى القرارات ديمقراطية. وقرار منع المآذن في سويسرا جاء بهذه الطريقة؛ فهو إذن قرار ديمقراطي لا ريب في ديمقراطيته؛ فكونه ظالماً أو خاطئاً لا ينفي كونه ديمقراطياً، لكن كثيراً من الناس ولا سيما المعجبين بالديمقراطية

في بلادنا يخلِطون بين هذين الأمرين؛ فيصفون كل قرار أو سياسة أو سلوك يرونه جائراً بأنه غير ديمقراطي. وطالما حاولتُ أن أطلب من هؤلاء المعجبين أن يتذكروا بأن غزو أفغانستان جاء نتيجة قرار ديمقراطي، وأن غزو العراق كذلك، بل وأن قرارات الدول الأوربية باحتلال كثير من الدول ولا سيما الدول الإسلامية واستعمارها، كانت قرارات ديمقراطية.

ليس في الديمقراطية معيار يحدَّد به نوع القرار: حسناً كان أم سيئاً، وإنما الذي يقرر ذلك هو الجهة التي تتخذ القرار. والجهة تفعل ذلك بحسب ثقافتها ومعتقداتها وتصوراتها لمصالحها أو مصالح بلدها؛ ولذلك فإن قرارات ديمقراطية في مسألة واحدة في بُلدان متعدد، أو في بلد واحد في أزمان مختلفة قد تكون متناقضة.

لا تقل لي: وكذلك يكون الأمر بالنسبة للمسلمين؟ نعم! قد يكون كذلك بالنسبة للمسلمين في المسائل الاجتهادية، لكنه لا يكون كذلك بالنسبة للإسلام.

في الديمقراطية يكون القرار ظالماً وخاطئاً حتى لو توفرت فيه كل شروط الديمقراطية. أما في الإسلام فلا يكون القرار خاطئاً وجائراً إذا توفرت فيه الشروط الإسلامية، بل لا بد أن تكون فيه مخالفة لهذه الشروط. ولذلك قال صاحب الموافقات كلمته الرائعة: (الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك، ولا يصلح فيها غير ذلك)[1].

قد تقول: لكن القرار السويسري مخالف لحرية العقيدة التي تُقررها اللبرالية؛ فهو بهذا قرار غير ديمقراطي.

---

(١) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، المسألة الثالثة من كتاب الاجتهاد.

ونقول: أما كونه مخالفاً لحرية العقيدة، فأمر لا شك فيه. ولكن: هل من شأن هذا أن يجعله قراراً غير ديمقراطي؟

هذا يثير مشكلة قديمة في الفكر الغربي في العلاقة بين الديمقراطية واللبرالية: أيهما الأساس. يقول بعضهم: إن اللبرالية هي الأساس وأنه مستعد لأن يضحي بالديمقراطية من أَجْلها، ومن هؤلاء من يؤيد وقوف حكومته مع حكومات غير ديمقراطية، لكنها أكثر لبرالية من معارضيها المطالبين بالديمقراطية ولا سيما في قضايا المرأة؛ فهؤلاء يؤمنون بديمقراطية تكون مقيَّدة بقيود لبرالية، ويرون أن الديمقراطية المطلقة إنما هي حكم الرُّعاع mobocracy، وأنها من أسوأ أنواع الحكم الذي يصفه بعضهم بدكتاتورية الأغلبية، ومنهم من يقول: بل إن الديمقراطية هي الأساس. ومنهم من يرى أن أحسن نظام يحقق اللبرالية هو الديمقراطية.

لكن: ماذا يقول أمثال هؤلاء في قضية مثل هذه القضية السويسرية التي لا شك في منافاتها لمبدأ الحرية الدينية الذي تنادي به اللبرالية؟ هل يقال للأغلبية السويسرية: إنكم قد تعدَّيتم على حقوق دينية لبعض مواطنيكم؟ قد ينكرون أنهم فعلوا ذلك. لكن هب أنهم قالوا: نعم؛ لأننا رأينا أن هذا من مصلحة بلدنا، ورأينا في الرموز الإسلامية ومنها المآذن خطراً علينا؛ فبأي حق تطالبون أغلبيتنا بأن تلتزم بأمر لا تراه في مصلحة بلادها؟

هذه هي مشكلة اللبرالية: إنها مجموعة من المبادئ التي يقال عنها أنها حقوق للإنسان باعتباره إنساناً ولذلك لا يجوز لأحد أن يتغول عليها. لكن ما الأساس الذي تستند عليه هذه المبادئ؟ فاللبراليون لا يدَّعون أنها شيء أَمَر الله - تعالى - به،

ولا يدَّعون الآن - كما كان بعضهم يقول في الماضي - أنها حقوق مستندها طبيعة الإنسان. لا يقولون ذاك ولا هذا؛ لأنهم عَلمانيون (على الأقل في فكرهم السياسي) لا يرجعون إلى تشريع خالق، ولأنهم ليس لهم دليل على ماهية الطبيعة البشرية وما تقتضيه.

ماذا بقي؟ هل يقال: إنها حقوق رأت الأغلبية في بلد ما أو في الجمعية العامة للأمم المتحدة أنها حقوق؟ إذا كان الأمر كذلك؛ فإنها لا تكون حقوقاً إنسانية كما هو الادعاء الآن، وإنما تكون حقوقاً أعطتها دولة لمواطنيها، أو رأت أغلبية الدول أنها يجب أن تُعطى للمواطنين. وإذن؛ فإنها تكون مستندة في النهاية إلى الديمقراطية ورأي الأغلبية وهو رأي يمكن أن يتغير، ويكون السويسريون محقِّين في ما قررته أغلبيتهم: من منع تشييد المساجد، بل قد تُقرِّر الأغلبية في بلدهم أو في أي بلد آخر منع بناء المساجد لا مجرد المآذن، بل قد تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في المستقبل، كما أتوقع.

وإذا لم تكن اللبرالية مستندة إلى شرع إلهي، ولا إلى حق طبيعي، ولا إلى ديمقراطية، فماذا يكون مستندها؟ لا يكون لها مستند؛ إلا كونها مبادئ رأت قلةٌ من الناس أنه يجب على البشرية كلها الالتزام بها وتضمينها في دساتير بلادها. وهذا هو الواقع.

لكننا مع ذلك لا نعترض على كل ما يقال عنه في الغرب: إنه حق إنساني. وقد كتب في هذا كثير من المفكرين المسلمين، جزاهم الله خيراً؛ وبينوا كيف أن الحقوق التي هي حقوق للإنسان فعلاً، هي تلك التي بيَّنها خالق الإنسان في رسالته إلى عباده.

السودان: اتصال أم انفصال؟

(البيان ٢٧٢ - ربيع الآخر ١٤٣١هـ - أبريل ٢٠١٠م)

في العاشر من شهر يناير من عام ٢٠١١م سيقرر المواطنون بجنوب السودان في استفتاء عام إذا ما كانوا سيبقون متصلين بالمواطنين في شمال السودان في وطن واحد أم سينفصلون عنهم؛ ليكونوا دولة جديدة مستقلة.

المشكلة في مثل هذه الاستفتاءات أن القرار فيها كثيراً ما يكون قرار أقلية؛ ذلك لأن الذين يشاركون في التصويت هم بعضُ لا كلُّ الذين سجلوا أسماءهم؛ فحتى لو افترضنا أن الذين سجلوا أصواتهم كُثُرٌ، وأن نسبة من صوَّتوا منهم كانت نسبة كبيرة، فإن الحقيقة ستبقى أن نسبتهم لن تكون نصف المواطنين بالجنوب.

ومشكلة أخرى في مثل هذه الاستفتاءات أن أكثر من يشارك فيها هم من عوامِّ المواطنين الذين لا علم لهم بعواقب قراراتهم؛ ولذلك فإن رأيهم سيكون في الغالب تبعاً لرأي قادتهم من السياسيين وغير السياسيين.

حجة الداعين إلى الانفصال من هؤلاء القادة، هي أن للجنوبيين ثقافة تختلف عن ثقافة المواطنين بالشمال. ولا زلت أذكر أن أوَّل من قال بهذه الحجة في الخمسينيات

الميلادية من القرن الماضي كان الحزب الشيوعي، وهو حزب شمالي لم يكن فيه - إن وجد فيه - إلا أفراد من الجنوبيين.

الرادُّون على هذه الحجة يقولون: إنه إذا كان المقصود بالثقافة الإسلام واللغة العربية، فإن هذه الثقافة ليست بغريبة على الجنوب؛ لأن الإسلام كان بالجنوب قبل مجيء الإنجليز، وأما اللغة العربية فما تزال - في شكل عامِّي منها - هي اللغة الوحيدة المشتركة بين القبائل الجنوبية ذات الألسن المختلفة، ثم إن كثيراً من المثقفين الجنوبيين صاروا يتحدثون هذه اللغة في شكلها الفصيح.

ويقولون أيضاً: إنه إذا كان الجنوب قد قَبِل المسيحية ولم تكن ديناً جنوبياً، بل حتى إفريقياً، فلماذا لا يقبل ديناً له فيه وفي إفريقيا تاريخ عريق؟

من حجج الانفصاليين أيضاً: أن النفط الذي تنتجه أرضهم سيكون خالصاً لهم لا يَشْرُكهم فيه أحد. لكنَّ المخالفين لهم يقولون: نعم! إن هذا شيء مغرٍ فعلاً، لكن تذكروا أن أرضنا أرض مغلقة لا موانئ لها؛ ولذلك فسنضطر إلى أن نلجأ: إما إلى ميناء بورتسودان أو ميناء مومباسا، وأن هذه الموانئ لن تقدِّم خدماتها لنا مجاناً. ويقولون أيضاً: إنه حتى لو كان للانفصال بعض الفوائد، فإن هذا ليس الوقت المناسب له؛ لأننا لا نستطيع الآن أن نكون دولة مستقلة؛ لأسباب، منها: عدم اكتمال البنية التحتية، ومنها أن الولاء عندنا ما يزال للقبيلة لا لشيء اسمه: الوطن، وأنه يُخشى أن يؤدي هذا الانقسام القبَلي إلى مزيد من القتال وإزهاق الأرواح بعد قرار الانفصال الذي قد لا تكون بعض القبائل موافقة عليه؛ فقبائل النوير والشلك - مثلاً - يرفضون هيمنة قبيلة الدينكا ويفضِّلون عليها - لو خُيِّروا - هيمنة حكومة بالخرطوم، ومنها أن اتفاقية نيفاشا

أعطتهم كل ما يريدونه وربما أكثر منه؛ فإذا كانوا يخشون على ما يسمونه: ثقافتهم فإن الاتفاقية قد أقرَّت بمبدأ: (وطن واحد ونظامان مختلفان): نظام عَلماني بالجنوب، ونظام (إسلامي) بالشمال. وللجنوب الآن ما يشبه الدولة المستقلة التي لها رئيسها وحكومتها وممثلوها في بعض الدول، والتي تعقد اتفاقات مع بعض الشركات... وهكذا، بل إن الغريب في أمر اتفاقية نيفاشا أنها أعطت المواطنين بالجنوب حق المشاركة في حكم الوطن كله بما في ذلك الشمال؛ فمنهم نائب الرئيس ومنهم وزراء ومنهم أعضاء بالبرلمان الذي يسُنُّ القوانين؛ فما الذي يريدونه أكثر من ذلك؟ هكذا يتساءل المعارضون للانفصال.

كنا نتحدث حتى الآن على افتراض أن أمر الوحدة أو الانفصال سيقرره الجنوبيون وحدهم، لكن الحقيقة غير ذلك؛ فكثير من الزعماء الجنوبيين لهم علاقات وثيقة بالولايات المتحدة، وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون البتَّ في أمر لها فيه مصلحة من غير موافقتها؛ فماذا تريد الولايات المتحدة؟

أما من حيث المصالح المادية فإن همَّها مركَّز الآن في النفط الذي لا تريد للصين أن تستأثر به، بل حتى أن تنافسها فيه. لكن الاستفادة من النفط تحتاج إلى دولة مستقرة؛ فإذا ما قررت أمريكا أن الدولة الجنوبية لن تكون دولة مستقرة بسبب الحروب بين القبائل، فسوف تميل إلى خيار الوحدة وتفرضه على الزعماء الجنوبيين ليتولَّوا هم إقناع المواطنين به.

وأما من حيث المصالح الثقافية، فمما لا شك فيه أن الغرب كله لا يريد للثقافة العربية الإسلامية أن تنتشر بالجنوب، ولا يريد لها أن تنتشر عبر الجنوب إلى بلاد إفريقية أخرى؛ فما الذي سيفعله إذن؟



الخِيار صعب؛ فقد يرى بعضهم أن الانفصال هو الذي يحصِّن الجنوب من هذه الثقافة، لكن هذا لن يحدث إلا إذا بُتِرت الصلة بين الشمال والجنوب بتراً كاملاً بعد الانفصال، بَيْد أن هذا أمر متعذر، ولا سيما من حيث اللغة؛ فإن اللغة الإنجليزية فشلت في أن تكون هي البديل عن اللغة العربية العامية والمرجَّح أن يظل الأمر كذلك.

وأما بالنسبة للإسلام فإنه - كما قلنا - ظل ديناً لآلاف من الجنوبيين؛ فلا يستطيع أحد أن يمنعهم من ممارسته ولا سيما إذا أريد لدولتهم أن تكون دولة عَلْمانية ديمقراطية.

ولكن يبدو أن آخرين يرون أن الوحدة هي التي ستحقق هذا الهدف؛ لأن نسبة الإنجاب بين الجنوبيين أكثر منها بين الشماليين؛ لأنهم لا يضعون حداً لما يُسمَح به للرجل أن يتزوج من النساء؛ فإذا استمرت الزيادة على هذه الوتيرة فإن السودان يوشك أن يكون بلداً غير عربي وغير مسلم، كما يرون.

هنالك فكر غربي يقول: إن الدولة الضعيفة التي لا تستطيع السيطرة على ما يجري في أراضيها دولة خطيرة على الغرب؛ لأنها ستكون مرتعاً خصباً لما يسمونه بالارهاب، ويضربون مثلاً على ذلك بالصومال؛ ولذلك فإنهم لا يريدون للانفصال أن يكون حقاً لكل جماعة تختلف هويتها عن بقية المواطنين فيه. والدول نفسها - لا سيما الإفريقية منها - لا تريد لمسألة تقرير المصير في السودان أن تكون مثالاً يحتذى في أقطارها. وربما كان هذا هو السبب في أن الأمين العام للأمم المتحدة الذي حضر اجتماع القمة الإفريقي، حث القادة المشاركين قبل بدء الاجتماع على أن يعملوا لوحدة السودان وأن يجنِّبوه انفصال الجنوب.

قلنا: إن اتفاقية نيفاشا تقرُّ بدولة واحدة ونظامين، لكن بعض الزعماء الجنوبيين يرون أنهم لن يكونوا مواطنين على قدم المساواة مع الشماليين؛ إلا إذا كان الحكم في

السودان حكماً عَلْمانياً يستوي فيه الجنوبي مع الشمالي، لكن هذا معناه: أنه لن تكون وحدة حقيقية إلا إذا تنازل الشماليون عن دينهم واعتنقوا دين المثقفين الجنوبيين القائلين بالعَلمانية؛ لأنه: إذا كان الإسلام منهج حياة، فإن العَلمانية أيضاً منهج حياة؛ فينبغي للشماليين أن لا يغتروا بالألفاظ، أو بأن العَلمانية نظام سياسي محايد بين الأديان كما هو الشائع عنها زوراً.

ياعباد الله فاثبتوا!

(البيان ٢٧٣ - جمادى الأولى ١٤٣١هـ - مايو ٢٠١٠م)

إنه لأمرٌ فطريٌّ محمودٌ أن يفرح المؤمن بنصر الله، وبرؤيته للناس يدخلون في دين الله، وبرؤيته لشرع الله يطبَّق في شتى مجالات الحياة في بلد من البلاد أو زمن من الأزمان. إنه لفرح محمود؛ لأن كل هذا الذي يفرح به نِعَم ينعم الله - تعالى - بها على عباده؛ فالفرح بها نوع من الشكر لله عليها: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ١ - ٥].

هل يلزم من هذا أن يحزن المؤمن حين يرى في الناس في بعض الأماكن أو بعض الأزمان إعراضاً عن دين الله أو ضعفاً في الاستمساك به أو زيادة في الجهل به، أو حين يرى فيهم زيادة في الاتِّباع لسنن الكفار؟ كلاَّ؛ فالله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [لقمان: ٢٣]، ويقول - سبحانه -: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

بل قال العلماء: إن الحزن لم يرد في كتاب الله - تعالى - مأموراً به، بل ورد: إما منهياً عنه كما في الآيات السابقة، وإما تقريراً لواقع كما في قوله - تعالى -: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ٣٣].

لماذا لا يحزن الإنسان حين يرى ذلك الإعراض عن دين الله؟ السبب - والله أعلم -:

أولاً: أن الإعراض عن دين الله - تعالى - هو ذنب يرتكبه المعرِضون بإرادتهم؛ فلماذا نحزن على ارتكابهم له؟

وثانياً: أنه إذا كان الفرح بالنعم نوعاً من الشكر عليها، فإن مجرد الحزن على الكفر وتغيُّر الأحوال لا يغير من واقعها شيئاً، وإنما يضر المحزون ويضيع وقته وفكره فيما لا فائدة فيه.

وثالثاً: لأن الإنسان العاقل لا يترك ما عرف من الحق أو يشكُّ فيه؛ لأن بعض الناس كذب به: ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** ﴾ [**طه**: ١٥ - ١٦].

ورابعاً: لأنه ليس من شرط الحق أن يكثر المؤمنون المستمسكون به: ﴿ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**هود**: ١٧].

وإذا استوحش المؤمن بكثرة المفتونين المغيِّرين لشرع الله فَلْيتذكر أنه ليس وحده في طريق الحق الذي ثبَّته الله - تعالى - عليه؛ فهو طريق سلكه أفضل البشر: من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين على مدى التاريخ البشري، وأنه إذا مات وهو مستمسك بالحق فسيسعد بصحبتهم جميعاً في دار الخلد.

لكن المؤمن ينبغي أن يستمر - مع ذلك - في مقاومة الباطل بقدر ما يستطيع راجياً ثواب الله، تعالى؛ والله مثيبه على كل ما يبذل من جهد لإعلاء كلمته وقمع أعدائه.

إن لشيخ الإسلام ابن تيمية كلاماً نفيساً في تعليقه على الحديث النبوي الشريف: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ؛ فطوبى للغرباء»[1]. ننقل بعض ما جاء فيه:

١ - لا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً أن المتمسك به يكون في شر، بل هو أسعد الناس، كما قال في تمام الحديث: «فطوبى للغرباء». و«طوبى» من الطيب. قال - تعالى -: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]؛ فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لَـمَّا كان غريباً، وهم أسعد الناس. أما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

٢ - وكما أن الله نهى نبيَّه أن يصيبه حزن أو ضيق ممن لم يدخل في الإسلام في أول الأمر، فكذلك في آخره؛ فالمؤمن منهي أن يحزن عليهم، أو يكون في ضَيْق من مكرهم. وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغيُّر كثيرٍ من أحوال الإسلام جَزع وكَلَّ ونَاحَ، كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى.

٣ - وقوله ﷺ: «ثم يعود غريباً كما بدأ» يحتمل شيئين:

أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريباً بينهم ثم يظهر، كما كان في أول الأمر غريباً ثم ظهر؛ ولهذا قال: «سيعود غريباً كما بدأ». وهو لَـمَّا بدأ كان غريباً لا يُعرَف ثم ظهر وعُرِف؛ فكذلك يعود حتى لا يُعرَف ثم يظهر ويُعرَف. فَيَقِل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولاً.

---

(١) رواه مسلم.

ويُحتَمَل أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلم إلا قليل. وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة؛ وحينئذٍ يبعث الله ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ثم تقوم القيامة.

وأما قبل ذلك فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق، أعزاء، لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل. فأما بقاء الإسلام غريباً ذليلاً في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا.

٤ - وقوله ﷺ: ثم يعود غريباً كما بدأ أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال - تعالى -: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك.

وكذلك بدأ غريباً ولم يزل يقوى حتى انتشر؛ فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة، ثم يظهر، حتى يقيمَه الله - عز وجل - كما كان الأمر لما وُلِّي عمر بن عبد العزيز، قد تَغَرَّبَ كثير من الإسلام على كثير من الناس، حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر؛ فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريباً.

٥ - وكذلك قوله - تعالى -: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]؛ وكلاهما وقع، ويقع كما أخبر الله - عز وجل - فإنه ما ارتد عن الإسلام طائفة إلا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه، وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة.

٦ - يبيِّن ذلك أنه ذكر هذا في سياق النهي عن موالاة الكفار، فقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٤]؛ فالمخاطَبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطَبون بآية الردة؛ ومعلوم أن هذا يتناول جميع قرون الأمة.

٧ - وهو لما نهى عن موالاة الكفار وبيَّن أن من تولاهم من المخاطَبين فإنه منهم، بَيَّن أن من تولاهم وارتد عن دين الإسلام لا يضر الإسلام شيئاً، بل سيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، فيتولون المؤمنين دون الكفار، ويجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، كما قال - تعالى - في أول الأمر: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فهؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، وأولئك الذين خرجوا منه بعد الدخول فيه لا يضرون الإسلام شيئاً، بل يقيم الله من يؤمن بما جاء به رسوله، وينصر دينه إلى قيام الساعة.

التدين الفردي والتدين الجماعي

(البيان ٢٧٤ - جمادى الآخرة ١٤٣١هـ - مايو/يونيو ٢٠١٠م)

يتكون المجتمع المسلم كما تتكون سائر المجتمعات البشرية من أفرادٍ: هم فلانٌ وفلانٌ وفلان. لكن الله - تعالى - يريد لهؤلاء الأفراد أن يأتلفوا؛ لتتكون منهم جماعة، وأن يكونوا «أمة من دون الأمم»؛ ولهذا فإنه - سبحانه - كما شرع لهم شرائع يعملون بها باعتبارهم أفراداً، شرع لهم شرائع تجعل منهم جماعة ويعملون بها باعتبارهم أمة متميزة.

من الشرائع الفردية ما يلتزم به الإنسان حتى لو وجد نفسه وحيداً في جزيرة نائية؛ فهو يظل يؤمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، ويعمل بما استطاع من أركان الإسلام؛ فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة، ويصوم رمضان، بَيْدَ أنه لا يستطيع أن يؤتي زكاةً ولا أن يحج.

لكنَّ المسلم إذا وجد نفسه في جماعةٍ ازدادت واجباته الفردية؛ فهو يزكِّي مالَه، ويحج البيتَ إن استطاع إليه سبيلاً، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويفعل كلَّ ما شرع الله له بقدر استطاعته؛ فالله - تعالى - شرع للمسلمين شرائع جماعية يعملون بها كما يعملون بتلك الشرائع الفردية بقدر استطاعتهم.

وإن كثيراً من المتدينين في عصرنا - ولا سيما من تأثَّر منهم بالثقافة الغربية - صاروا يحصرون الدين في الشرائع الفردية ولا يهتمون كثيراً بالشرائع الجماعية؛ فترى الواحد منهم حريصاً على أداء الصلاة وحج بيت الله، بل تراه يسأل - مثلاً - عن تفاصيل نوافل الحج والعمرة ومكروهاتها، ثم تراه بعد ذلك غافلاً كل الغفلة عن كثير من الشرائع التي لا يكون المسلمون جماعة مسلمة إلا بها؛ فتراه غير مهتم بمدى إسلامية الحكم الذي تُحكَم به بلاده، ولا بمدى إسلامية الجماعة أو الحزب الذي ينتمي إليه، وترى كثيراً ممن يسكن منهم في ديار الغرب الديمقراطية فرحاً بجعلها له مواطناً كسائر المواطنين؛ يمكن أن ينافس فيها حتى على رئاسة الدولة، غافلاً عن أنه لا يكون رئيساً إلا باعتباره مسلماً يحصر دينه في حياته الخاصة. وأما الشرائع الجماعية فإنه لا يستطيع الالتزام بها؛ لأنها تتعارض مع دساتير الدولة العَلمانية وقوانينها وأعرافها وقيمها.

إن الواجب على المسلمين أن يكونوا جماعة وهم لا يكونون جماعة مسلمة إلا إذا عملوا بتلك الشرائع الجماعية.

وأول ما يجب على المسلمين ليكونوا جماعة مسلمة أن يكون لهم رأس يبايعونه على كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ. وقد عرف الصحابة الكرام خطورة هذا الأمر فاجتمعوا لاختيار خليفة يكون لهم رأساً ينتظم به أمرُهم حتى قبل أن يدفنوا رسولهم ﷺ؛ لقد عرفوا خطورة هذا الأمر بما علموا من أحاديث رسول الله ﷺ التي منها حديث ابن عمر - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قوله: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية»[1]، والمقصود بالميتة الجاهلية أنها كميتة الجاهليين؛ (فإنهم لم يكن لهم إمام

---

(١) رواه مسلم.

يجمعهم ولا جماعة تعصمهم؛ والله - تعالى - بعث محمداً ﷺ وهداهم به إلى الطاعة والجماعة)[1].

إذن فمن البدهي أنَّ رأس المسلمين يجب أن يكون واحداً منهم، وإذا حدث أن تأمَّر عليهم ثم طرأ عليه الكفر وكانوا قادرين على إزالته بالقوة وجب عليهم أن يزيلوه؛ فعن عبادة ابن الصامت - رضي الله عنه - قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشَط والمكرَه، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله - تعالى - فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[2]. فإذا لم يجز للمسلمين أن يستمروا تحت إمرة حاكم كان في بداية أمره مسلماً ثم طرأ عليه الكفر بعد مبايعته؛ فمن باب أَوْلَى أن لا يجوز لهم أن يُحكِّموا فيهم من كان في أصله كافراً.

لكننا نسمع في أيامنا هذه من يقول (باسم الإسلام): إن رأس الدولة المسلمة يمكن أن يكون شخصاً غير مسلم؛ ولذلك فلا بأس من أن يترشح للحصول على هذا المنصب.

إن من أغرب الحجج التي سمعتها لتسويغ هذه الدعوى أن هذا في الحقيقة لن يكون. لقد سمعت مثل هذا الكلام من سنين طويلة. وكنت أقول لإخواننا في الرد على مثل هذا التحايل: أإذا ظننت بإنسان ظناً حسناً وأنه لن يشرب الخمر مهما أُغري بشربها؛ فهل يجوز لك أن تقول: إنه يجوز له أن يشربها؟ إنك تكون بهذا القول كافراً؛ لأنك أبحت شيئاً حرَّمه الله، سواء علمت أنه سيقع أو لم تعلم. وكنت أقول لهم: لِمَ تظنون أن المسلمين لن ينتخبوا شخصاً غير مسلم؟ إنهم لا يفعلون ذلك لأنهم يعتقدون

---

(١) ابن تيمية: منهاج السُّنة النبوية.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

أنه أمر غير جائز، بل ربما عرف بعضهم أنه كفر؛ فإذا ما قلنا لهم باسم الإسلام: إن هذا الأمر جائز فما الذي يمنعهم من أن ينتخبوه، ولا سيما إذا زين لهم أنه ستكون في انتخابه مصالحُ دنيوية كرضا الدول الغربية عن بلدهم واستعدادها لمساعدتهم؟

إذا قلتَ للذين يدَّعون مثل هذه الدعاوى: إن رئيس جماعة سلفية يمكن أن يكون صوفياً مبتدعاً أو العكس، أو أن داعية إلى الشيوعية يمكن أن يكون رئيس حزب ديمقراطي سخروا من كلامك هذا وأنكروه، لكنهم لا ينكرون أن يكون رأس المسلمين غيرَ مسلم. أتدرون لماذا؟ لأنهم لا ينظرون إلى المسلمين باعتبارهم جماعة، بل يرونهم كوماً من الأفراد الذين لا رابطة تجمعهم إلا رابطة الوطن التي تجمع بينهم وبين سائر المواطنين من أصحاب العقائد الأخرى. لكنَّ هذا هو عين العَلمانية؛ فالذي ينكر العَلمانية ثم يقول: إن رأس المسلمين يمكن أن يكون غير مسلم يناقض نفسه.

إن الذي ينساه كثير من الناس هو أن العَلمانية لا تمنع مجالسها التشريعية من الأخذ ببعض التشريعات الدينية، إنما تمنع أن تُسَنَّ باعتبارها ديناً؛ فحتى لو سنَّت الدولة قوانين، مثل منع الربا أو شرائع الأحوال الشخصية فإن هذا وحده لا يخرجها عن عَلمانيتها؛ كما أنه لا يجعلها دولة مسلمة ما دام هذا الأخذ ليس مبنياً على مبدأ يُلْزِم الدولة بالإسلام وأن لا تخالف شيئاً من أحكامه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ثم إذا جاز أن يكون رأس الدولة غير مسلم، فمن باب أَوْلَى أن يجوز انتخاب غير المسلمين للمجالس التشريعية. لكن هذا سيؤكد كونَ الدولة دولة عَلمانية. إنه لا يمكن أن تكون الدولة إسلامية ويكون المشاركون في إصدار قوانينها غير مسلمين.

كيف يكون الأمر إذا كان في البلد مواطنون من غير المسلمين؟

إذا كان هؤلاء المواطنون أقليات ضئيلة موزعة في الوطن كله، فإنهم يعامَلون معامَلة الأقليات الإسلامية في البلاد الغربية العَلمانية؛ أعني: أنهم لا يُكرَهون على اعتناق الإسلام، لكنهم يخضعون للقانون العام لا بصفته ديناً، بل بصفته قانون البلاد.

وأما إذا كان عددهم كبيراً وكانت لهم أرض خاصة بهم، وكانوا ينتمون إلى معتقدات مختلفة كما هو الحال في السودان، فلا مانع من أن يخيَّروا بين أن يكون لهم حكمٌ ذاتيٌّ في نطاق الدولة الواحدة وبين أن ينفصلوا ويكوِّنوا دولتهم الخاصة بهم[1]؛ فإن الأمر معهم يكون بالتشاور والتخيير. فإذا أرادو الانفصال والعيش في بلدهم المستقل فلهم ذلك، وإن أرادوا أن يعيشوا مع المسلمين في وطن واحد ويكون لهم نوع من الحكم الذاتي فلهم ذلك إذا رأى المسلمون أنه لا يتضارب مع مصالحهم الدينية والدنيوية.

---

(١) من الأخطاء التي شاعت في وسائل الإعلام (الإسلامي منها وغير الإسلامي): أن غالبية المواطنين في جنوب السودان هم من النصارى، لكن الحقيقة أن غالبيتهم تنتمي إلى أديان محلية، وأن نسبة النصارى فيهم لا تزيد على نسبة المسلمين.

الاتِّبَاع العلمي والتبعيَّة الجاهلية

(البيان ٢٣٦ - رجب ١٤٣١هـ - يونيو/يوليو ٢٠١٠م)

يتحدث القرآن الكريم عن نوعين لا ثالث لهما من أنواع الاتباع، ويمكن تسمية أحدهما بالاتباع العلمي، والآخر بالتبعية الجاهلية:

أما الاتباع العلمي: فهو أن يتَّبع الإنسان طريق مَنْ عَلِم بالدليل القطعي أن طريقه هو الطريق الموصل إلى الله، تعالى؛ وهؤلاء هم أنبياء الله، تعالى. وأن يتبع بعد ذلك من أَمَرَه الله - تعالى - ورسوله باتباعه؛ ممن سار على طريق هؤلاء الأنبياء.

وأما التبعية الجاهلية: فهي أن يُسلِم الإنسان قياده لإنسان يقوده بمجرد هواه؛ وهو إنما يُسلِم قياده له لمجرد الهوى؛ كأن يكون معجباً به، أو لكونه من أجداده، أو يكون مقلداً لغيره في قبوله لزعامته والسير خلفه، أو لغير ذلك من الأسباب التي لا علاقة لها بالعلم. يقول - سبحانه -: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٠].

إن الاتباع العلمي ليس اتباعاً لشخص لمجرد كونه الشخص الفلاني كما هو الحال في التبعية الجاهلية، وإنما هو اتباع له في الهدى الذي جاء به، والذي يعمل به ويدعو إليه؛ ولذلك كانت الدعوة إلى اتباع الرسل هي في الوقت نفسه دعوة إلى اتباع هذا الهدى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٨].

والاتباع العلمي بهذا المعنى الذي ذكرناه هو ركن لا يقوم الدين الحق إلا به؛ وذلك أنه لما كان عامة الناس لا يتلقون الدين من عند الله - تعالى - مباشرة، وإنما يتلقونه عن طريق رُسُلٍ يرسلهم الله إليهم، كان الدين الحق هو الدين المبني على اتباع هؤلاء الرسل؛ اتباعِهم في تلقّي الدين عنهم، واتباعِهم في فهم هذا الدين، واتباعِهم في طريقة العمل به، واتباعِهم في اتباع من يأمرون باتباعه. يقول - سبحانه -: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٠]، ويقول أيضاً: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥].

ولأن هذا الاتباع اتباع علميٌّ، فإن الرسل ومَنْ أمر الله باتباعهم، يذكِّرون الناس بهذه الحقيقة حين يطلبون منهم اتباعهم؛ فهذا أبو الأنبياء إبراهيم يقول في دعوته لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣]. وهذا مؤمن آل فرعون يقول لقومه: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ

حسَابِ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٨ - ٤٤].

قد يقال: لكنَّ فرعون أيضاً ادَّعى هذه الدعوى في طلبه من قومه أن يتبعوه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

نعم! هكذا ادَّعى فرعون، لكن انظر إلى الفرق بين حُجَّة فرعون وحُجَّة هذا المؤمن؛ ففرعون يطلب من قومه أن يتبعوه معلِّلاً ذلك بقوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. [الزخرف: ٥١ - ٥٤].

فهو إذن لا يحتجُّ في طلبه من الناس أن يتبعوه بهدى يهديهم إليه وينفعهم الله - تعالى - به، وإنما يعلِّل طلب اتِّباعه بِنِعَمٍ أعطاها الله إياه. نعم! لا علاقة لها بكونه على حق أو أنه يستحق أن يُتَّبَع.

وعندما قال يوسف - عليه السلام - لقومه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٣٨] لم يعلِّل اتباعه لهم بمجرد كونهم آباءه؛ كما فعل أصحاب التبعية الجاهلية، الذين قال الله - تعالى - عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]

وإنما علل هذا الاتباع بعلل علمية: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨].

إن من أقوى الأدلة على أن هذا الاتباع اتباع علمي وأنه ركن لا يقوم الدين الحق إلا به، قول الله - تعالى -: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

ففي هذا الدعاء الذي هو أعظم دعاء يدعو به الإنسان في حياته، فإننا لا نسأل الله - تعالى - أن يهدينا إلى الصراط المستقيم وحسب، وإنما نَصِفُ هذا الصراط الذي نريد الهداية إليه بأنه صراطُ الذين أنعمَ الله عليهم لا الذين غضب الله عليهم من الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به، ولا الذين عملوا بغير علم. إن الصراط المستقيم ليس صراطاً نظرياً، وليس صراطاً يُعرَف بمجرد النصوص، وإنما هو صراط واقعيٌّ سار عليه أناس معيَّنون، لا يكون الإنسان سائراً عليه إلا إذا كان متبعاً لطريقهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وبما أن صاحب الاتباع العلمي إنما يتبع الهدى الذي جاء به مَنْ يتبعه، فإن اتباعه له لا يكون تقليداً أعمى، ولا يكون مجرد حفظٍ لا فقه فيه، وإنما يكون اتباعاً على بصيرة؛ ولذلك فإن صاحبه يُعمِل عقله، ويتدبر في الحق الذي هداه الله إليه، وكلما كان اتباعه أقرب إلى العلمية كان تدبُّره أكثر؛ انظر إلى حال أئمة أهل السُّنة كيف ملؤوا الدنيا علماً بتدبُّرهم لكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، واستنباطِهم من نصوصهما من العلم ما هداهم الله به إلى حل مشكلات الناس الواقعية، وما هداهم به إلى الرد

علـى الشـبهات التي يثيرها المنافقون، وما هداهم به إلى حُسْنِ الكلام الذي يذكِّر الناس بربهم، ويحبِّب إليهم نبيَّهم، ويرقق قلوبهم.

إن الصراع بين الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية، صراع مستمر. فإذا كان أصحاب الاتباع العلمي يظلون مستمسكين بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ وهدي الصالحين من عباد الله، فإن أصحاب التبعية الجاهلية تتفرق بهم السبل فيتبعون في كل عصر، بل في العصر الواحد أنواعاً ممن يتخذونهم سادة يصدرون عن رأيهم ويقتدون بهم. ومن أوضح الأمثلة على ذلك في عصرنا، اتخاذُ بعض الناس المفكرين الغربيين سادة لهم، واتخاذ طريقِهم مثلاً أعلى في المعتقدات والأخلاق وسائر أنواع السلوك. ولكن بما أن اتباعهم لهم إنما هو تبعية جاهلية فإنهم يسيرون خلفهم سَيْرَ الحيوانات التي لا تعقل. يقول الغربيون - مثلاً - إنهم نظروا في دينهم نظراً متحرراً (لبرالياً) فوجدوا فيه من الأخطاء والتناقضات ما جعلهم يشكُّون فيه، وما دعاهم لأن يستبدلوا به آراءهم البشرية ويجعلونها هي الحاكمة في مسائل السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، وغيرها، فيأتي هؤلاء المقلِّدون العميان ليقولوا مثل قولهم عن ديـــن لا يحسنون حتى مجرد قراءة نصوصه، ودعك من فهمها أو المقدرة على نقدها.

اضطراب الملحدين (١)

(البيان ٢٧٩ - ذو القعدة ١٤٣١هـ - أكتوبر/ نوفمبر ٢٠١٠م)

جماهير الناس منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا تؤمن بأن لهم وللكون حولهم خالقاً، وإن كان أكثرهم مع هذا الإقرار بوجود الخالق يشركون معه غيره في العبادة، فهم يؤمنون برب واحد وآلهة متعددة. لكن وجدت على مر العصور فئة قليلة من الناس تنكر حتى وجود هذا الخالق. وقد كثرت في عصورنا هذه نسبة هؤلاء الملحدين في البلاد الغربية، وكان لهم بعض التأثير على غيرهم من أصحاب الثقافات الأخرى؛ لأن الملحدين منهم لم يقصروا إلحادهم على أنفسهم بل صاروا دعاة له يحاولون نشره بوسائل النشر الحديثة كلها من كتب ومقالات ومحاضرات وبرامج إذاعية وتلفازية وغير ذلك.

ماذا يقول الملحد للناس حين يدعوهم إلى الإلحاد أو حين يحاول أن يحتج لإلحاده؟ ليس لدعاة الإلحاد برغم دعوى العقلانية حجة واحدة هم متفقون عليها ولا سبب واحد يسوغون به إلحادهم وإنما هم في قول مضطرب وفي تناقضات ومغالطات يؤفك عنها من أفك.

أكثر ما يلجأ إليه الملحدون في الاحتجاج لإلحادهم هو أن المؤمنين بوجود الخالق لم يعطوهم على وجوده حجة مقنعة. لكنهم حين يفعلون ذلك يفترضون أن الأمر الطبيعي هو عدم وجود الخالق، وأن الذي يدعي وجوده هو المطالب بإعطاء الدليل على وجوده. لماذا لا يكون العكس؟ لماذا لا يكون الأمر الطبيعي هو الأمر الذي يؤمن به جماهير الناس والذي يجدون له أصلاً في نفوسهم، وأن الذي يشذ عن هذا هو المطالب بالدليل؟ إن المؤمنين بوجود الخالق يعتقدون كما سنرى أنه لا تفسير لوجود الكون إلا بوجود الخالق. فهل يرى الملحد أن مسألة وجود الكون هذه مسألة لا تهمه وأن المطالبين بتفسيرها هم المؤمنون وحدهم؟ الواقع أن هذه مسألة تهم كل إنسان عاقل، فإذا لم يرَ في وجود الخالق حلاً لها فعليه هو أن يفسرها بشيء آخر يقول للمؤمنين إنه البديل عن وجود الخالق. وقد حاول بعضهم شيئاً من هذا لكنها محاولة بائسة كما سنرى.

من أغرب ما قرأت من حجج الملحدين ما ذكره بعضهم من أنه رجل مختص بعلم النفس وله اطلاع على علم الأجناس (الانثروبولوجيا) وأنه نظر في ثقافات الشعوب فوجدها كلها بغض النظر عن مواقعها الجغرافية واختلافاتها تتضمن القول بوجود الخالق، وأنه استنتج من هذا أنه لا بد أن يكون لهذا الإيمان إذن أصل في النفس البشرية. قال لكنه ظل مع هذا ملحداً. أتدرون لماذا؟ قال إنه لم يجد لهذا الإيمان من فائدة! إذا كان يعني بالإيمان الإيمان الذي يقف صاحبه عند توحيد الربوبية ولا يتعداها؛ فربما كان قوله صحيحاً فقد قال الله - تعالى - عن إيمان بعض الناس: ﴿**بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [**البقرة**: ٩٣]. لكن أهم نتيجة وأكبر فائدة - الفائدة التي تنتج عنها فوائد لا حصر لها - هي الإيمان بأن هذا الرب الواحد يلزم أن يكون هو وحده الإله الذي يستحق أن يُعبد. إذا توصل الإنسان إلى هذه الحقيقة وعرف ربه وأحبه

وعبده كان هذا مصدر سعادة روحية له لا تعادلها سعادة؛ لأنه سيكون سبباً لرضى الله عنه. فهذه هي الفائدة الكبرى للإيمان بوجود الخالق. أما الذين لم يجربوا هذه السعادة فيقال لهم: هناك فوائد أخرى لعبادة الله بإمكانكم معرفتها. من هذه الفوائد البدهية أن الإيمان بالله - تعالى - يجعل للحياة معنى لأنه يجعل لها غاية كما يجعل لما بعد الموت غاية. إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة من غير غاية ولذلك تجد كل إنسان في هذه الحياة مشغولاً بتحقيق غاية، لكنها غايات متكاثرة ومتضاربة ومؤقتة. فهذا طالب غايته أن يجتاز الاختبار، وهذا موظف غايته أن يرتقي في سلمه الوظيفي، وهذا رجل أعمال غايته أن يحصل على أرباح، وهذا باحث غايته أن يصل إلى نتائج باهرة في مجال تخصصه لعلها تنشر وتذاع وتكون سبب شهرة له واحترام، وهذا زعيم سياسي غايته أن يتبوأ منصباً عالياً في دولته، وهكذا. لكن كل واحد من هؤلاء إذا كان ممن يخلو إلى نفسه ويتفكر في مستقبله الحقيقي، قال لنفسه: ثم ماذا؟ ماذا بعد هذا؟ وماذا بعد الموت؟ وكيف الاستعداد له؟ حين تلح هذه الأسئلة على بعض الناس فإنهم يحاولون التهرب منها بالانشغال ببعض الملهيات وبتحقيق بعض الغايات القريبة.

وإذا كان ذلك الملحد قد ادعى بأنه لم يجد للإيمان من فائدة فإن آخرين من شكله قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فادعوا أن الدين سبب لمعظم الشرور الموجودة في العالم. فهذا دوكنز الذي أشرنا إليه سابقاً والذي سنكرر الإشارة إليه، يعدد من ضمن الشرور الناتجة عن الدين وجود الحروب؛ الحرب العربية الإسرائيلية، وحرب أفغانستان وحروب أيرلندا وغيرها، ويذكر من ضمن هذه الشرور وجود الإرهاب والتعصب ويعقد فصلاً خاصاً يعدد فيه ما أثاره المسلمون في العالم كله من أنواع الاحتجاج على الرسومات الدنماركية. يكرر دوكنز في هذا كما يكرر في غيره من اعتراضاته على الدين ما سبقه إليه غيره من الملحدين.

يجب أن يذكر أمثال هؤلاء كما ذكرهم غيري بأن أكبر حربين عالميتين أزهق فيهما من الأرواح ما لم يسبق أن أزهق في حروب قبلهما في تاريخ البشرية لم يكن لهما علاقة بأي دين، بل كانا بين دول علمانية غربية، بل إن الاتحاد السوفيتي كان تحت حكم حزب شيوعي إلحادي.

وأن يذكروا ثانياً بأن غزو الدول الغربية لكثير من دول العالم واستعمارها لها إنما كان بسبب أطماع اقتصادية وتوسعية استغل فيها الدين استغلالاً بشعاً.

وأن يذكروا ثالثاً بأن مثل هذه الحروب ذات الدوافع غير الدينية كانت معروفة في تاريخ البشرية كله. ألم تكن القبائل العربية مثلاً تتقاتل قبل الإسلام قتالاً عنيفاً بغير دوافع دينية؟

وأن ينبهوا رابعاً إلى أن الأديان وإن كانت تشترك في القول بوجود الخالق، إلا أنها لا تقوم جميعاً على هذا الإيمان. إن أول ثمرات الإيمان بالخالق الإيمان بأنه هو وحده الذي ينبغي أن يعبد، لكن معظم الأديان المعروفة في العالم هي أديان شركية لا تجعل الله - تعالى - مصدراً لشرعها. ولذلك فإن جعل تصرفاتها معياراً يحكم به على وجوده - سبحانه - منطق خاطئ. كيف وهي أديان مختلفة في هذه الشرائع، بل في أمور عقيدتها اختلافات تجعلها تتحارب وتتناحر؟ لكننا مع هذا نؤكد القول الذي سبق أن ذكرناه بأن الإيمان بوجود الخالق هو أساس الدين الصحيح، ولذلك فإنه لما كان العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ من أكثر الأمم إيماناً بالله خالقاً رازقاً محيياً مميتاً؛ جعلت الرسالة المحمدية هذا الإيمان منطلقها في دعوتهم إلى عبادة الله وحده. هذه المكانة العظيمة للإيمان بوجود الخالق هي سبب اهتمامنا به.

ونقول خامساً للمتعللين في إنكارهم لوجود الخالق بأن الأديان هي سبب معظم الشرور في العالمك هل تعنون أنه إذا ما صار الناس في العالم كله منكرين لوجود الخالق ولوجود دار آخرة يلقى فيها المحسن جزاء إحسانه ويعاقب فيها المسيء على إساءته؛ أن السلام سيعم العالم كله، وأن الناس سيعيشون إخوة متحابين متآزرين متسامحين لا يعتدي أحد منهم على أحد، ولا يطمع أحد منهم فيما عند أحد؟ أليس هذا من السذاجة البالغة والمغالطة الواضحة؟ أليس العكس هو ما يتوقعه كل عاقل متفكر؟

كان ما كتبناه حتى الآن في هذا الموضوع بمنزلة طرق لبابه نرجو أن تتبعه مقالات أخرى نلج فيها شيئاً من جوهره فنتعرض لمسائل أخرى من دعاوى الملحدين مثل: استدلالهم ببطلان أدلة وجوده التي وجدوها في ثقافتهم على أنه غير موجود، ومثل: ادعاء بعض الدارونيين بأن نظرية دارون تغني عن وجود الخالق، ومثل: دعواهم بأن مكارم الأخلاق لا علاقة لها بالإيمان بالله تعالى.

اضطراب الملحدين (٢)

(البيان ٢٨١ - محرم ١٤٣٢هـ - ديسمبر ٢٠١٠م)

اضطرابهم في نقدهم لأدلة وجود الخالق:

علَّل بعض الغربيين إنكارهم لوجود الخالق بنقدهم لما سُمي ببراهين وجود الخالق كما وجدوها عند بعض فلاسفتهم وعلماء دينهم. وأكثر هذه البراهين شهرة عندهم هي البراهين المنسوبة إلى قديسهم توما الأكويني Thomas Aquinas الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، والذي كان قد تأثر كثيراً بكتابات علماء المسلمين وفلاسفتهم؛ ولا سيما الفقيه الفيلسوف ابن رشد، عليه رحمة الله. والبراهين المنسوبة إليه كانت في جوهرها؛ بل أحياناً في ألفاظها مأخوذة من كتابات المسلمين.

ومن آخر مَنْ انتقد هذه البراهين الأكوينية وزعم أنها باطلة وجعل بطلانها دليلاً على عدم وجود الخالق: الداروني المشهور ريتشارد دوكنز Richard Dawking في كتابٍ له حديثٍ نال شهرة واسعة. حشد دوكنز في هذا الكتاب كلَّ ما عرف الغربيون من شبهاتٍ تشكِّك في وجود الخالق، وكان من هذه الشبهات: الزعم بأن الأدلة العقلية على وجوده أدلَّة باطلة.

اختار دوكنز ثلاثة براهين لكنني سأختار واحداً منها فقط؛ لأنه انتقدها كلها نقداً واحداً.

يقول دوكنز مقرراً هذا البرهان الذي أسموه بالسبب الذي لا مسبب له: (لا شيء يكون سبباً لنفسه. كل أثر له سبب سابق، وهكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى تسلسلٍ قَبْلي يجب أن يوقف بسببٍ أوَّل، وهو الذي نسميه الله)[1].

ويقول دوكنز: (كل هذه الحجج تعتمد على فكرة التسلسل القَبْلي وتلجأ إلى الخالق لينهيه. إنها تفترض افتراضاً لا مسوغ له، هو أن الخالق نفسَه غير خاضع لهذا التسلسل. حتى لو سمحنا بالترف المشكوك في فائدته، ترفِ استحضار قاطعٍ للتسلسل بطريقة تحكُّمية، وإعطائه اسماً لا لسبب إلا لأننا بحاجة إليه، فليس هنالك سبب على الإطلاق لإضفاء أيٍّ من الصفات عليه التي يوصف بها الله في العادة)[2].

أقول: إن نقد دوكنز هذا يدل على أنه لم يفهم الدليل؛ ربما لأن تشبثَه بالإلحاد، واعتقادَه أنه لا يمكن أن يقوم دليل على وجود الخالق منعه من أن يتأمله، فتعجَّل في نقده له نقداً جائراً. إن جوهر الدليل، هو إثبات أن الكون حادث. وهذا ما كان ليوجد لولا وجود موجِدٍ غير حادث؛ فالدليل يقول: إن الحادث لا بد له من محدِث؛ فإذا كان سبب الحادث حادثاً فلا بد لهذا الثاني من محدِث وهكذا في الثالث والرابع وإلى ما شئت. لكن هذا معناه: أن وجود الحادث معلَّق على عدد لا ينتهي من الأسباب المحدَثة، وهذا معناه: أنه لن يحدث. لا بد لوجود الحوادث إذن من سبب أزلي غير حادث.

---

(1) Richard Dawkins, The God Delusion, Bantam Press, 2006, p.77

(2) Ibid, p77.

لماذا لا يكون الخالق خاضعاً للتسلسل؟ أي لماذا لا نقول عنه كما نقول عن الحوادث: ما سبب وجوده، وما سبب وجود ما أوجده؟ وهكذا. هذا سؤال أراه في غاية الغباء؛ لكنه سؤال يكرره بعض عِلْيَة القوم المتخصصين بالفيزياء، كما فعل الفيزيائي المعاصر المشهور هوكنج. إنه سؤال في غاية الغباء؛ لأنه ما دام الخالق أزلياً غير حادث، فلا مجال للسؤال عن موجد له. فإذا قيل: من أوجده قلنا: لا شيء أوجده؛ لأنه ظل موجوداً منذ الأزل.

يقول بعضهم: ما الدليل على أنه أزلي؟ ونقول كما قال من سبقنا من العلماء: إن الدليل على أزليته هو وجود الأشياء الحادثة التي ما كانت لتحدث - كما قدمنا - لو أنها كانت معتمدة في وجودها على حوادث مثلها. فوجود الحوادث هو الدليل على موجدٍ غير حادث.

وقول دوكنز: إنه لا سبب على الإطلاق لإضفاء شيء من الصفات التي يوصف بها الله - تعالى - على السبب الذي يقطع التسلسل، هو من أعظم الأدلة على أن الكفر يُعمِي قلب الإنسان ويَذهَب بعقله. كيف لا يتصف بشيء من صفات الله، تعالى؟ ألا تدل الحجة على أنه أزلي غير حادث؟ وأليست هذه من أول صفات الخالق التي يعرفها كل مؤمن به؟ ثم إذا كان أزلياً فلا بد أن يكون أبدياً لا يزول، وهذه صفة ثانيةٌ من صفات الخالق، وهما الصفتان المعبَّر عنهما في القرآن بوصف الله - تعالى - بكونه: هو الأول والآخر. وإذا لم يكن حادثاً فإنه لا يُحدِث آثاره كما تُحدِث الأسباب الحادثة آثارها بطريقة طبيعية لا إرادة فيها، بل لا بد أن يكون فاعلاً مريداً. وإذا كان مريداً فلا بد أن يكون حيّاً.

وهكذا نستطيع أن ندلل على كثير من صفات الخالق الواردة في الشرع بأدلة عقلية. وهذا أمر قد عرفه كثير من أئمة أهل السُّنة؛ حتى إن بعضهم قال: إن صفة العلو يمكن أن تُعرَف بالعقل؟

إن حجة التسلسل التي كنا ننصرها حتى الآن حجة صحيحة، لكن الحجة العقلية القرآنية على وجوده - سبحانه - أحسن منها، وأخصر، وأبين، وأبسط. يقول الله - تعالى -: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

تقول هذه الآيات للمنكرين لوجود الخالق: إذا لم يكن هنالك خالق؛ فكيف وُجِدتُّم؟ هل جئتم من العدم، أم أنكم أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟ ومن الذي خلق هذا الكون؟ هل كنتم أنتم الذين خلقتموه؟

فلا بد أن يكون الذي خلقه هو الله - تعالى - لأنه يستحيل أن يأتي من العدم ويستحيل أن يخلق نفسه.

هذا الذي قلنا: إنه مستحيل عقلاً، كان أمراً مسلَّماً به عند كل العقلاء؛ من آمن منهم ومن كفر، لكن بعض علماء الفيزياء في عصرنا صاروا يقولون بإمكانه، أتدرون لماذا؟ لأن نظرية الانفجار العظيم أحرجتهم فصاروا مضطرين لأن يختاروا بين القول بوجود خالق للكون أو القول بكونه أوجد نفسه من العدم، فاختاروا هذا المستحيل هرباً من الاعتراف بوجود الخالق.

يقول الفيزيائي هوكنج في كتاب له حديثٍ، كما روى عنه مستعرضو كتابه: (لأن هنالك قانوناً مثل قانون الجاذبية؛ فإن الكون يستطيع أن يوجِد نفسه من

العدم، بل إنه سيفعل ذلك... إن الخلق التلقائي هو السبب في أن هنالك شيئاً، وليس لا شيء، وهو السبب في وجود الكون وفي وجودنا. وبناءً عليه فلا داعي للُّجوء إلى الله لجعل الكون يسير)[1].

هذا كلام لو قاله شخص عادي لظن الناس أن في عقله خللاً. أليس قانون الجاذبية قانوناً في داخل الكون؟ كيف يكون إذن سبباً في وجوده؟ ثم ما معنى أن يُخلَق شيء من العدم؟ إن العدم ليس بشيء؛ فكيف يُخلَق منه أو به شيء؟

ومن الغرائب أنه قبل ظهور نظرية الانفجار العظيم، كان أكثر ما يأخذه علماء الطبيعة والفلاسفة الملحِدون على الدين كونَه يقول: إن الله - تعالى - خلق الإنسان أو الكون من العدم. هذا مع أن فكرة الخلق من العدم - رغم ذيوعها - ليست مما جاء به الدين؛ فلا يوجد في الإسلام نص على خلق شيء من العدم. وكذلك الأمر بالنسبة للكتب (المقدسة) عند النصارى واليهود؛ كما تقول دائرة المعارف الدينية.

اعترض كثير من الفيزيائيين، بل حتى من الملحدين منهم على كلام هوكنز ذاك فقال بعضهم: إنه حشره حشراً في الموضوع، وقال بعضهم: إنه إذا كانت هنالك مشكلة في وجود الخالق، فإن المشكلات الموجودة في نظرية الانفجار أعظم منها.

---

(1) http://ca.news.yahoo.com/s/reuters/100902/science/science_us_britain_hawking.

اضطراب الملحدين (٣)

(البيان ٢٨٢ - صفر ١٤٣٢هـ - يناير ٢٠١١م)

بدأنا هذه السلسلة من المقالات القصيرة بمقدمة ثم ثنَّينا بالتعليق على نقد دوكنز للبراهين العقلية على وجود الخالق، وعلَّقنا على دعوى الفيزيائي الشهير هوكنز في كتابٍ له حديثٍ بأنه ليس هنالك من حاجة لوجود الخالق سبحانه، ونواصل اليوم تعليقنا على هوكنز، ثم نعود إلى دوكنز ودعواه بأن الدارونية تُغْنِي عن وجود الخالق، ثم نتناول في المقال الأخير اضطرابَه وغيرَه من الملحدين في العلاقة بين الإيمان والأخلاق.

مما قاله هوكنز في الدليل على عدم الحاجة إلى الخالق - سبحانه -: أن القوانين الفيزيائية - ولا سيما قانون الجاذبية - كافية وحدَها لإخراج الكون من العدم إلى الوجود.

ونقول: إن قانون الجاذبية نفسه يفترض وجود موجودات؛ لأن الجاذبية إنما تكون بين أشياء موجودة؛ فكيف يكون هذا القانون هو الذي يوجد الكون من العدم؟

ثم نقول: إن القوانين الطبيعية ليست بالشيء الأزلي، وإنما محدَثَة شأنها في ذلك شأن المخلوقات التي تحكمها؛ فكيف تكون هي التي تُحدِثها من العدم؟

إن مشكلة هؤلاء الملحدين هي أن تصوُّرَهم للخالق تصوُّر في غاية القصور، حتى يمكن للمرء أن يقول: إنه لا داعي لإنكار وجوده؛ لأنه أصلاً شيء لا يمكن أن يوجَد.

لـَـمَّا كانت مهمة الإله في تصوُّر كثير ممن يسمَّون بالمفكرين الغربيين محصورة في أن يبدأ الخلقَ، ثم يتركه بعد ذلك يسير وحدَه بالقوانين الطبيعية، كما يحرك إنسان عجلةً من مكان عالٍ متدحرِج، كان من السهل على رجال من أمثال هوكنز أن يقولوا: إن الكون مستغنٍ عن خالق كهذا؛ لأنه يمكن أن يبدأ سَيرَه مستقلاً عنه.

هذا مع أن الخالق الحق هو خالق لا يكون شيء في الوجود إلا بإذنه وعلمه وقدرته، كما قال - تعالى -: ﴿ **ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ [**الأنعام**: ١٠٢]. وكما قال - سبحانه -: ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [**الأنعام**: ٥٩].

مِنْ فَهْمِهِم القاصر للخالق - سبحانه وتعالى - أن الكثيرين منهم ما زالوا يخلطون بين المخلوقية والسببية؛ وهي قضية ناقشها مناقشة مفصَّلة وفرغ منها علماء المسلمين منذ قرون. إنهم يظنون أنه إذا اكتُشف سبب حدوث شيء فذاك يعني أنه ليس مخلوقاً، وأن السبب النهائي لحدوثه هو هذا السبب المشاهَد، وكان كثير من المؤمنين بوجود الخالق يستدلُّون على وجوده بالحوادث التي لم يصل العلم التجريبي إلى اكتشاف أسباب لها؛ لذلك كان الملحدون يسخرون منهم ويسمون خالقهم إلهَ الفجوات، ولا سيما أن العلم الطبيعي كان يسد بعض هذه الفجوات باكتشافه لأسباب الحوادث التي قيل: إنه لا يحدثها إلا الله تعالى.

الداروينية والإلحاد:

ذكرنا تعليقات بعض الفيزيائيين على كتاب هوكنز. ونذكر الآن تعليق داعية الإلحاد البيولوجي الداروني دوكنز. لقد استقبل دوكنز الكتاب بفرح شديد، كما هو متوقع، وقال معلقاً عليه في صفاقة: (إن الداروينية ركلت الخالق فأخرجته من الأحياء، لكن الفيزياء ظلت مترددة إلى أن جاء هوكنز فضربه الضربة القاضية)[1].

لقد رأينا حجة هوكنز وما فيها فَلْنُعد النظر الآن في حجة دوكنز التي زعم أنَّ داروينيته أخرجت بها الخالق من نطاق الأحياء، وأقول داروينيته؛ لأنه ما كل أحيائي، بل ما كل داروني يوافقه على ما ذهب إليه، كما أنه ما كل فيزيائي يتفق مع هوكنز كما رأينا.

ويزعم دوكنز أن لديه بديلاً أحسن من القول بوجود خالقٍ خلقَ الخلقَ بإرادته وعلمه. ما هذا البديل؟ يقول: (إن أي خلاَّق ذي وعي يكون من التعقيد بحيث يستطيع أن يصمم أي شيء، لا يأتي إلى الوجود إلا نتيجة لعملية تطوُّرية طويلة.

بما أن الوعي الخلاَّق يأتي عن طريق التطور فإنه يكون بالضرورة في آخر الكون، فلا يمكن لذلك أن يكون مسؤولاً عن تصميمه)[2]

---

(1) "Another ungodly squabble".The Economist.2010-09-05.http://www.economist.com/blogs/babbage/2010/09/science_and_religion.Retrieved 2010-09-06.

(٢) (ص ٣١) من كتابه، حاولت أن أترجم كلام دوكنز ترجمة يسهل على القارئ العربي فهمها، لكن ها أنذا أضع النص الإنجليزي بين يدي القارئ الذي يعرف الإنجليزية؛ لئلا يتقيد بفهمي:

Any creative intelligence of sufficient complexity to design anything comes into existence only as the end product of an extended process of gradual evolution. Creative intelligences, being evolved, necessarily arrive late in the universe and therefore cannot being responsible for designing it.

إن حجة دوكنز هذه من النوع الذي يسمى بالمصادرة على المطلوب، وهي أن يجعل الإنسان ما يُطلَب منه برهانُه من مقدمات ذلك البرهان. لقد بدأ حجته بدعوى أنه سيأتي ببديل عن وجود الخالق. والذي يزعم أن بديله هو الأحسن لا بد أن يأتيَ بأدلة مستقلة عن دليله تبرهن أفضليته. لا يمكن أن يدَّعي إنسان - مثلاً - أن الدكتاتورية خير من الديمقراطية، ثم يدلل على ذلك بحجج مبنيَّة على أفضلية الدكتاتوري. لكن هذا بالضبط هو الذي فعله دوكنز. لقد افترض أنه لا يوجد موجود ذو وعي إلا إذا كان مثل الكائنات الحية التي يتعامل معها علم الأحياء، والتي تنطبق عليها قوانين الدارونية. هذا مع أن خصمه يزعم أن هذه الأحياء التي تتحدث عنها الدارونية ما كانت لتوجد لولا وجود خالق ليس هو من نوعها، خالقٍ لا يصدق عليه وصفُه بأنه لا يأتي إلى الوجود إلا نتيجة عملية تطورية طويلة.

إن نظرية دوكنز التي جعلها بديلاً عن القول بوجود الخالق لا تحل أهم إشكال يحله القول بوجوده - سبحانه - وهو أن النظر في طبيعة هذه الكائنات يدل كما قلنا من قبل على أنها ليست أزلية، وأنها لا يمكن أن تكون قد جاءت من العدم، ولا يمكن أن تكون هي الخالقة لنفسها؛ فلا بد لها لذلك من خالق. وكما أن هذا يقال عن الكائنات الكبيرة المشهودة، فإنه يَصْدُق أيضاً على الكائنات الصغيرة التي زعم دوكنز أن كائنه الواعي الخلاَّق تكون منها.

إن العلماء الطبيعيين من أمثال هوكنز ودوكنز بدؤوا يفتنون الناس في بلادهم وفي غيرها من البلاد التي يُتَأَثَّر فيها بفكرهم، وما أكثرها! بدؤوا يصوِّرون لهم الإلحاد على أنه هو المعتقد الصحيح الذي يدل عليه علمهم ويدعمه.

إن ثقة الناس الشديدة بالعلوم الطبيعية هي التي تجعلهم يعتقدون صحة كل ما يقال لهم: إن هذا العلم يدل عليه. وقد علمت علماً مباشراً بتأثُّر بعض شباب العالم الإسلامي، بل العربي منه بهذه الفتنة. ولعل من أسباب ذلك أن الدارسين منهم لفروع هذه العلوم لا يعرف - حتى المتدين منهم - ما يتعلق بهذه القضايا في دينه، فيكون مثله في ما يتعلق بها كمثل زميله الغربي، ولعل من أسباب ذلك أيضاً قلة ما يسمى بالثقافة العلمية بين المتخصصين بما يسمى بالعلوم الشرعية. لا أحد بالطبع يتوقع أن يكون كل من جعل همه دراسة التفسير أو الحديث أو الفروع الفقهية أو اللغة العربية متبحراً في العلوم التجريبية، كما أنه لا يُتوقَّع من كل متخصص بفرع من العلوم التجريبية أن يكون إلى جانب ذلك متبحراً في الدراسات الشرعية. بل إنه لا يُتوقَّع ممن تخصص بفرع من العلوم التجريبية أن يكون عالماً بها كلها؛ فمن تخصص بالفيزياء لا يكون عالماً بالأحياء كعلم المتخصص بها... وهكذا؛ فكيف يُطلَب ذلك من المتخصص بفرع من العلوم الشرعية؟

ولذلك فإننا إنما نتحدث عن الثقافة العلمية التي تؤهل كلَّ مثقف أن يكون ملمّاً بنتائج تلك العلوم، عارفاً بالقضايا العامة التي تثيرها، أعني القضايا التي يسميها القوم بالفلسفية.

وكذلك صاحب العلوم الطبيعية بالنسبة للعلوم الشرعية. إن المطلوب منه أن يعرف أمور دينه معرفة عامة وأن يكون ذا صلة مستمرة بكتاب الله - تعالى - حتى يبني تصوُّره العام عليه، بل لا بد له من أن يعرف بقدر من التفصيل بعض ما يتعلق بقضايا علمه من مسائل العقيدة؛ لا بد له من معرفة التصور الصحيح لصفات الخالق، تصوُّرِ أئمة أهل السُّنة الذي ربما كان هو السبب الأساس في إنقاذ المسلمين من الإلحاد.

كيف ذلك؟

لقد انقسم خصوم أهل السُّنة في هذه المسألة إلى فريقين فريق الجهمية الذين لا يكادون يُثبتُون لله صفة، وفريق المجسِّمة الذين يشبهون الخالق بمخلوقاته مع فارق واحد هو كونه أكبر منها. ولذلك لخص أئمة أهل السُّنة هذين المذهبين بقولهم: الجهمية يعبدون عدماً والمجسمة يعبدون صنماً.

واضح أن الانتقال من إله الجهمية إلى الإلحاد أمر في غاية الاحتمال. إن المفكر الذي يأخذ اعتقاد الجهمية مأخذ الجد يوشك أن يقول لنفسه: ما الفرق بين أن أقول: إنني مؤمن بشيء لا يوصف بصفة من الصفات، وأن أقول: إنني لا أؤمن بشيء؟ كذلك الانتقال من التجسيم إلى إنكار وجود الخالق؛ فقد يقول الإنسان لنفسه: إذا كان الدليل على وجود الخالق هو كون هذه المخلوقات تحتاج بطبيعتها إلى من يخلقها، وكان هذا الذي يقال إنه خالق هو مثلها مع فارق الحجم، فإنه أيضاً يحتاج إلى خالق؛ لأن الحجم لا تأثير له في كونه محتاجاً إلى خالق.

إن اهتمام بعض المسلمين بهذه القضايا سيكون فيه بإذن الله - تعالى - هداية للناس المعرَّضين للتأثُّر بمثل هذا النوع من الدعاوى التي تربط بين العلم الطبيعي والإلحاد.

ذلك أن التصور الصحيح لصفات الخالق هو الذي يثبت لله - تعالى - كل صفات الكمال وينفي عنه كل صفات النقص ويقول مع ذلك: إنه ليس كمثله شيء. هذا التصور - وهو تصور أهل السُّنة المبني على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - هو الذي سيعصم الناس - بإذن الله تعالى - من الوقوع في شَرَك الإلحاد مهما كانت أنواعها.

اضطراب الملحدين (٤)

(البيان ٢٨٣ - ربيع الأول ١٤٣٢هـ - فبراير ٢٠١١م)

اضطرابهم في العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق:

أودُّ قبل الدخول في هذا الموضوع أن أقول كلمة قصيرة عن المفهوم العربي الإسلامي للأخلاق: الخلق (بضم الخاء واللام) في الاستعمال العربي هو الطريقة التي يعامِل بها الواحد غيرَه. وبما أنه لا بد لكل أحد من التعامل مع غيره، فلا بد إذن أن يكون لكل أحد خُلُق. وهذا أمر يشمل حتى بعض الحيوانات؛ فعندما بركت ناقة رسول الله ﷺ وهم في طريقهم إلى مكة في غزوة الحديبية، قال بعض أصحابه: «خلأت القصواء»، فأجابهم الرسول ﷺ بقوله كما في صحيح البخاري: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق».

وبما أن المعاملة لا تكون إلا حسنة أو سيئة، فإن الخُلُق لا يكون إلا حسناً أو سيئاً؛ ولذلك تجد الخُلُق في التعبير العربي وفي الشرع الإسلامي لا يكون إلا موصوفاً بالحُسْن أو السوء. من ذلك وَصْفُه - تعالى - رسولَه الكريم بأنه على خُلُق عظيم، وقوله ﷺ



في الحديث الذى رواه مالك في الموطأ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ومَدْحه في أحاديث كثيرة لحُسْن الخلق، وذمُّه لسوئها. لكننا صرنا الآن نقول للسلوك الذميم: إنه سلوك لا أخلاقي؛ ترجمة للكلمة الغربية immoral، وهو تعبير لا معنى له في اللسان العربي؛ لأنه ما من سلوك - حسناً كان أم سيئاً - إلا وهو خُلُقي كما رأينا.

نعود إلى موضوعنا: ما العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق: كالصدق والأمانة والوفاء؟

هنالك طرفان ووسط في الإجابة عن هذا السؤال:

طرف يقول: إن من لا يؤمن بالله لا يلتزم بشيء من مكارم الأخلاق، بل ربما قال: إنه لا يعرف لها معنى.

وطرف مقابل يقول: إنه لا علاقة ألبتة بين الإيمان بالله ومكارم الأخلاق.

أما الوسط - وهو الصواب - فيقول: إن مكارم الأخلاق لها أصل في فطرة الإنسان؛ ولهذا يقول ردّاً على الطرف الأول: إن معرفة هذه المكارم واعتبارها شيئاً حسناً أمر يبني عليه الدين مخاطبتَه للإنسان. فكما يفترض الدين أن من يخاطبه مخلوق له عقل، فهو يفترض أيضاً أنه مخلوق يعرف معنى المكارم والمساوئ الخُلُقية؛ فالدين يدعو الإنسان إلى عبادة الله - سبحانه وتعالى - ويعلل هذا الطلب بأن الله - سبحانه وتعالى - هو المنعم على الإنسان بكل أنواع النعم. وجوهر العبادة هو الشكر. فإذا كان المرء لا يعرف للشكر معنى، فإنه لن يعقل لخطاب الوحي معنى؛ فالله - تعالى - يقول مثلاً: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [**البقرة**: ٢١ - ٢٢]. إذا كان المخاطَب لا يعرف للشكر معنىً، فربما قال: إنني معترف بأن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي أنعم عليَّ بكل هذه النعم ولكن ما معنى كوني أشكره وأعبده؟

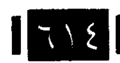
وإذا قال الله - تعالى - في أول آيات من وحيه يخاطب بها الإنسان: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [**العلق**: ١ - ٥] فربما قال - إذا لم يكن لمكارم الأخلاق أصل في قلبه -: إنني معترف بأن الله - تعالى - هو الذي خلق الإنسان من علق، ولكن ما معنى كونه الأكرم، ولماذا يكون خَلْقُه لي سبباً لعبادتي له؟

ولكن إذا كان لمكارم الأخلاق هذا الأصل الثابت في الفطرة البشرية، فإنه لا يعني أنه ليس بينها وبين الإيمان بالله - تعالى - صلة كما يدَّعي الملحدون من أمثال دوكنز؛ وذلك أنه:

أولاً: إذا كانت مكارم الأخلاق في أصل الفطرة، فإن الإيمان بالله - تعالى - هو الآخر في أصلها، بل في أصل أصلها؛ ولهذا فإنه مما يقويها ويثبِّتها؛ فكلما قوي الإيمان بالله - تعالى - كانت هذه المكارم أحيا في قلب الإنسان وكانت مراعاته لها أشد.

ثانياً: المؤمن بالله تعالى يعلم أنه - سبحانه - يحب هذه المكارم فهو يحبها بحبه لله، تعالى.

ثالثاً: كما أنه يحبها بحب الله - سبحانه وتعالى - لها، فإنه يحبها ويحاول الاستمساك بها بحب رسل الله لها واستمساكهم بها كما قال الله - سبحانه وتعالى - عن رسوله الكريم: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** [**القلم**: ٤].



رابعاً: إذا كان الإنسان يعلم بفطرته مبادئ الأخلاق الفاضلة، فإنه لا يعلم كلَّ مقتضياتها، الوحي هو الذي يهديه إلى كثير من هذه المقتضيات. إن الإنسان يعلم بفطرته - مثلاً - أن العدل شيء حَسَن، ولكن هل يصل علمه به إلى ما وصفه الوحي بمثل قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]؟

وإذا كان الإنسان يعلم أنه من الخير للناس أن يعيشوا متحابين؛ فهل يعلم كل ما يتنافى مع هذا الهدف، وهل هو مستعد لأن يخالف داعية هواه ليحققه؟ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١].

ينقل دوكنز في إعجاب عن آينشتاين قوله: «إذا كان الناس إنما يكونون خيِّرين لأنهم يخشون العقاب ويرجون الثواب فإننا أمة يرثى لها»[١].

فهل تدرون كيف كانت الحياة الشخصية لهذا الفيزيائي الشهير قائل هذا القول؟ أنجب أوَّل طفل له من امرأة قبل أن يتزوجها! ثم لـمَّا تزوجها وأنجب منها طفلين طلقته بسبب الخيانة الزوجية![٢]. أما زوجته الثانية التي كان عمرها اثنتين وأربعين سنة، فقد رضيت بالأمر الواقع وعاشت معه، رغم اعترافه لها بأن له علاقة بست نساء غيرها!

---

(١) ص ٢٢٦.

(٢) تجد هذه المعلومات في شريط فيديو عن حياة آينشتاين الشخصية هو:

Einstein Revealed, WGBH, Educational Foundation, Boston 2004.

كما تجدها في مواقع كثيرة منها:

http://seedmagazine.com/content/article/einstein_in_lust/

خامساً: يكاد المفكرون الغربيون يُجمِعون على أن طلب الجزاء على عمل الخير مما يتنافى مع القيم الخُلُقية، ويرون لذلك أن من شرط العمل الخُلُقي أن لا يكون عليه جزاء. لكن الدين الحق يقرر أن جزاء الإحسان بالإحسان هو نفسه أمر يقتضيه الإحسان: ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [**الرحمن**: ٦٠].

نعم إن طلب الجزاء الدنيوي على الإحسان أمر يتنافى مع مكارم الأخلاق، لكن هذا لا يعني أن كل جزاء على الإحسان يتنافى معها وإلا كان عمل الخير عبثاً، وكان مَثَله كمثل من يلقي بماله في البحر أو يحرقه؛ لأنه لا معنى للعبث إلا أن يعمل الإنسان عملاً لا يحقق له أي نوع من النفع؛ ولذلك كان من الأدلة على وجود الخالق ضرورةً وجود دار آخرى يثاب فيها المحسِن ويعاقب المسيء، وإلا كان المحسن هو الخاسر؛ ولذلك قال - تعالى -: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾.

[**القلم**: ٣٥ - ٣٦].

هل معنى ذلك أن الملحد لا يمكن أن يُحسِن أبداً؟ كلا. لكنه إذا أحسن فإن إحسانه لا يكون مبنياً على إلحاده وإنما على دوافع أخرى؛ فقد يصدق لأن من مصلحته أن يفعل ذلك في موقف معيَّن؛ ولذلك فإن أبا سفيان - رضي الله عنه - علل صدقه لهرقل بقوله كما في صحيح البخاري: «فو الله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت». فأبو سفيان الذي لم يكن ملحداً ولكنه كان مشركاً لم يعلل امتناعه عن الصدق اعتماداً على شركه، وإنما اعتماداً على مصلحته؛ لأنه كان يعيش في مجتمع يرى رغم شركه أنه من العيب أن يكذب رجل من سادة قومه. وكذلك الملحد قد يصدق؛ لأن الصدق في مصلحته الدنيوية، ولأن الكذب أو السرقة أو الخيانة تعرِّضه لإشانة السمعة أو للعقوبة أو لأي نوع من أنواع

الخسارة المادية. ألا يمكن أن يصدق الملحد لأنه بشر يجد حُسْن الصدق في فطرته؟ نعم قد يصدق إذا لم يكن الصدق ضاراً به كما قلنا. أمَّا أن يصدق رغم أن الصدق يكلفه نوعاً من التضحية، فإنه إن صدق يكون قد فعل فعلاً يتنافي مع معتقده. إن فطرته قد تقول له: اصدق رغم أنك إذا صدقت تخسر ألف دولار مثلاً، لكن فكره الإلحادي - إذا كان واعياً به ومنطلقاً منه - يقول له: إنك تكون حينئذٍ مغفَّلاً لا عقل لك. إنك تؤمن بأن هذه الحياة هي فرصتك الوحيدة للاستمتاع بما فيها من لذات؛ فلماذا تضحي بها إذن؟ إن مشكلة الذي لا يؤمن بالله ولا بالدار الآخرة أنه يجد في نفسه نزاعاً بين فطرته (إذا كان ما يزال محتفظاً بشيء من نقائها) وبين معتقداته؛ ففطرته تدعوه لفعل الخير وإن كان يقتضي شيئاً من تضحية، لكن معتقده يجعل هذا الفعل فعلاً غير عقلاني. وإذن فلا يغرنك عمل خير يصدر عن ملحد أو عن منكر لوجود الآخرة؛ فتظن أن عمله دليل على صحة معتقده أو على أنه لا منافاة بين هذا المعتقد وبين فعل الخير.

قد يقال: إذا كان الملحد لا يلتزم دائماً بمكارم الأخلاق، فإن المؤمن أيضاً قد يرتكب ما يتنافى معها؟ الفرق بين الاثنين أن الملحد حين يفعل فعلاً يتنافى مع مكارم الأخلاق لا يكون قد فعل فعلاً يتنافى مع معتقده، بل ربما كان معتقده هو الذي يسوغ له هذا الفعل. أما المؤمن فإنه إذا ما وقع في مثل هذا الفعل، فإنه يعلم أنه أذنب؛ ولذلك فإنه - إذا كان صادق الإيمان - يحزن ويستغفر ويتوب، ويعزم على أن لا يعود.

سادساً: إذا كانت مكارم الأخلاق من الفطرة، فما كل ما في الفطرة مما يظل الإنسان له ذاكراً، وإذا كان الإنسان محتاجاً إلى أن يُذكَّر بالله، فمن باب أَوْلى أن يكون محتاجاً إلى أن يذكَّر بمكارم الأخلاق ويُحَثَّ على الاستمساك بها. وهذا الذي يفعله الدين الحق؛ إذ يذكِّره بالعلاقة القوية بينه وبين دينه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [**التوبة**: ١٩٩].

«البر حُسْن الخُلُق»[1].

«إن من أحبِّكم إليَّ وأقربكـم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»[2].

«إياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذاباً. وعليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[3].

ومما استدل به دوكنز على عدم الفرق بين المؤمن بالله والمنكر لوجوده في مسألة الأخلاق تجربةٌ قال: إنه أجراها شخصان: أحدهما عالم أحياء، والآخر فيلسوف أخلاق، ملخصها: أنهما جمعا عدداً من المواطنين من المؤمنين بوجود الله والمنكرين لوجوده وسألاهم أسئلة افتراضية، وطلبا منهم أن يجيبوا عنها بمعايير خُلُقية فيختاروا ما إذا كان العمل المفترض واجباً فعله، أم مباحاً، أم ممنوعاً. وهذا ملخص الأسئلة ونتائجها:

• قطار إذا تُرِك يسير في خطه المعتاد قتل خمسة أشخاص، وإذا ما حُوِّل قتل شخصاً واحداً؟ أجاب تسعون بالمئة بأنه يجوز تحويله لإنقاذ الخمسة والتضحية بالواحد.

• ترى طفلاً يكاد يغرق في بركة لكنك إذا أنقذته خسرت بنطالك؟ أجاب سبعة وتسعون بالمئة بأن إنقاذه واجب.

• خمسة أشخاص في مستشفى يحتاج كلٌّ منهم لعضو لإنقاذ حياته، وهنالك شخص سليم في حجرة الانتظار؛ فهل يُقتَل وتؤخذ أعضاؤه لإنقاذ الخمسة؟ أجاب سبعة وتسعون بالمئة بأنه يُمنَع قتله.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

قال اللذان أجريا هذه التجربة: إنهما لم يجدا فرقاً كبيراً في الأجوبة بين المؤمنين وغير المؤمنين؛ فاستنتجا من ذلك: أنه لا علاقة للإيمان بمسألة الأخلاق.

لكن على هذه التجربة وما استنتجه اللذان أجرياها ملاحظات، منها:

أن كون غير المؤمن له معرفة ببعض مكارم الأخلاق وتطبيقه لها أمر لا يحتاج إلى تجربة كما قررنا من قَبْل.

ومنها: أنه من السهل على الإنسان مؤمناً كان أم غير مؤمن أن يلتزم بالمعيار الخُلُقي الكريم إذا لم يقتض منه تضحية. والأسئلة التي سألها أصحاب التجربة كلها من هذا النوع ما عدا قصة البنطال الذي كان يمكن أن تضحي به حتى بعض الحيوانات. ماذا لو تضمَّنت الأسئلة سؤالاً، مثل:

إذا اتُّهم شخصان بسرقة شيء وكان أحدهما بريئاً وكنتَ تعلم أن المجرم هو ابنك؛ فهل تشهد بأنه هو السارق؟

إذا ارتكبت جرماً يعرضك للحبس أو الغرامة الكبيرة وقال لك محاميك: إنه لا مخرج لك إلا أن تكذب؛ فهل يجوز لك ذلك، أم يجب، أم يمنع؟

ومنها: أن الآثار السلوكية والخلقية الحسنة للإيمان بالله لا تكون بمجرد الإيمان بوجوده. لقد كان العرب في جاهليتهم يؤمنون بوجود الخالق، بل بكونه هو الذي يحي ويميت ويرزق وينجي لكن بعضهم كان مع ذلك يئد البنات. إن الإيمان الحق هو الإيمان بخالق متصف بصفات الكمال، وبأنه يبعث الناس ويحاسبهم، وبأنه يرسل رسلاً وينزل كتباً لهدايتهم.

وانفصل الجنوب

(البيان ٢٨٥ - جمادى الأول ١٤٣٢هـ - أبريل ٢٠١١م)

انفصل جنوب السودان عن شماله وتحقق للإنجليز ثم لخلفائهم الأمريكان وأنصارهم وأذنابهم ما أرادوا. كان الإنجليز حريصين (منذ أن وطئت أقدامهم أرض السودان غُزاةً مستعمرين) على أن لا يتأثر جنوب السودان بثقافة شماله العربية الإسلامية، لكنهم كانوا مع ذلك حريصين على أن يبقى جزءاً من السودان ما دام ذلك خادماً لمصالحهم الإستراتيجية. لذلك جعلوا الجنوب إقليماً شبه مستقل عن الشمال، لا يستطيع جنوبي أن يتخطى حدوده إلى الشمال ولا شمالي أن يتخطى حدود الشمال إلى الجنوب إلا بإذن يشبه التأشيرة. ثم إنهم اجتهدوا في أن يرسموا للشماليّين في مناهجهم التعليمية صورة منفرة، صورة العربي الذي يخطف الأفارقة ويبيعهم ويسترقُّهم، بل وصل الأمر إلى حد المبالغة حين عوقب أحد الخياطين لصنعه ثوباً عربياً لأحد الجنوبيين كما تحكي كتب التاريخ. لكنهم في المقابل شجعوا جماعاتهم الدينية بكل أطيافها لتجتهد في تنصير الجنوبيين، وجعلوا التنصر سبيلاً للدراسة الثانوية والجامعية وما فوقها، فكان أن تنصر كثير من أبناء الجنوبيين بمن فيهم المسلمون بغية الحصول على فرصة للتعليم،

فصرتَ تسمع أسماء مثل جون إبراهيم، وتيريزا إدريس مثلاً. ثم كانت نتيجة ذلك أن أصبحت الفئةَ المتعلمةَ المثقفةَ ومن ثَمَّ القائدة هي فئة المتنصرين، مع أن النصارى ما يزالون رغم كل تلك الجهود أقلية، بل يقال: إن عددهم ما يزال أقل من عدد المسلمين في الجنوب. ولكن وسائل الإعلام الغربية، ومقلديها في وسائل الإعلام الأخرى حتى العربية والإسلامية، كثيراً ما تذكر الأمر بطريقة مضلِّلة توحي بأن الجنوب إقليم نصراني. إنها توحي بذلك إذ تقول دائماً حين تتحدث عن الجنوب: الجنوب الذى أغلبيته من غير المسلمين، وهو كلام صحيح، لكن الصحيح أيضاً أن أغلبيته من غير النصارى.

وإذا كان الإنجليز قد تحمَّلوا ذلك الوِزْر فإننا في الشمال نتحمل جزءاً منه أيضاً؛ وذلك لأننا لم نفعل كلَّ ما في وسعنا بعد استقلال السودان في دعوة الجنوبيين إلى الإسلام، لم نبذل هذا الجهد حتى مع الذين كانوا معنا في الشمال وفي المدارس والجامعات؛ حتى إن أحد زملائنا الفضلاء من أساتذة جامعة الخرطوم قال لي: إن زميلاً جنوبياً بالجامعة قال له بعد حديث دار بينهما: أتدري يا فلان أن هذه أول مرة يدعوني فيها أحد إلى الإسلام؟ أقول لم نفعل كلَّ ما في وسعنا ولا أقول: إننا لم نفعل شيئاً؛ فقد كان هنالك دعاةٌ وهبوا أنفسهم للتبشير بالإسلام في البيئات الجنوبية كان من أشهرهم الشيخ محمد الأمين القرشي. وكانت هنالك منظمات أَبْلَت بلاءً حسناً في هذا السبيل، مثل منظمة الدعوة الإسلامية التي كان على رأسها أخونا الفاضل (مبارك قسم الله) عليه رحمة الله. أقول: إنه بالرغم من تقصيرنا فإن الكثيرين من الجنوبيين تأثروا تأثيراً كبيراً بالثقافة العربية؛ فصاروا يتكلمون العربية ويقرؤونها، بل صار بعضهم يكتب بها، كما أن كثيرين منهم دخلوا في دين الله تعالى. ومع أن ما يسمى بالحركة الشعبية التي تحكم الجنوب الآن ستحرص على إحلال الإنجليزية محل العربية فإن ذلك سيكون أمراً عسيراً إنْ لم

يكن متعذراً؛ لأن العربية صارت الآن هي اللغة المشتركة بين كل الجنوبيين من العوام والمثقفين.

وإذا كنا قد قصَّرنا في دعوة الجنوبيين إلى الإسلام، فإن بعضنا قد ذهب إلى أكثر من هذا فاتخذهم ذريعة إلى تحقيق مآربه العَلمانية. لقد كان الحزب الشيوعي السوداني أول من أشاع (بعد الاستقلال) فكرة أن للجنوبيين ثقافةً غير ثقافة الشمال، وشايعهم في هذا غيرهم من رجال الأحزاب العَلمانيين متعللين بوجود الجنوبيين في معارضتهم لفكرة الدستور الإسلامي.

وكان الموقف الغربي قد اضطرب بعض الشيء في موقفه من الانفصال؛ فقد كان بعضهم يرى أن الجنوبيين يتزايدون بمعدلات أكبر من الشماليين (وهي حقيقة)، وأنهم يوشكون أن يكونوا أغلبية في أقل من ثلاثين عاماً؛ فلماذا لا نصبر حتى يكون السودان كله حينئذٍ دولة إفريقية ذات أقلية إسلامية؟

فما الذي جعلهم الآن يغيِّرون رأيهم؟ يرى بعض المحللين أنهم يريدون الآن أن يصطادوا عصفورين بحجر واحد: يريدون للجنوب أن ينفصل، لكنهم يريدون للجنوبيين الذين يسكنون الشمال أن يبقوا فيه. فيكون الشمال قد خسر الأرض والبترول، لكنه يتحمل عبء البشر؛ أكلَهم وشربَهم وتعليمَهم وحريَّتهم الدينية، وأكثر من ذلك إمكانية اتخاذهم ذريعة لرفض أي حكم إسلامي. ليس هذا فحسب، بل إن هنالك أصواتاً شمالية وجنوبية تنادي بما يسمى بالجنسية المزدوجة للجنوبيين، وبما أسموه بالحريات الأربع: حريات التملُّك والتنقل والعمل والإقامة.

من الآثار الضارة للانفصال إلى جانب ما أشرنا إليه: أن البترول الذي كان السودان يعتمد عليه في نموِّه في السنوات الأخيرة سيكون معظمه من حظ دولة

الجنوب الجديدة. يقول بعض المختصين: نعم؛ لكن مخزون الشمال من البترول هو أكبر من مخزون الجنوب. ويقال لهم: إنه حتى لو كان الأمر كذلك فإن استخراج هذا المخزون ربما استغرق مدة من الزمن، وأن السودان الموحد كان سيكون أغنى بإضافة الجديد من المكتشفات البترولية إلى القديم.

وهنالك مشكلة مياه النيل التي ستكون قسمتها الجديدة ضارة بمصر أكثر من ضررها بالسودان.

ما الذي سيحدث لإخواننا المسلمين الجنوبيين؟ إنهم يخشون أن يجدوا أنفسهم في دولة عَلمانية معادية للإسلام تضيِّق عليهم وإن كانت لا تستطيع أن تمنعهم من ممارسة دينهم؛ ولذلك فإنهم - خوفاً من هذا المصير - صوتوا لانفصال لا يريدونه، لكنهم خشوا من أن يُعتبَروا بمثابة المعادين أو الخائنين لدولة الجنوب الجديدة.

إن دولة الجنوب الجديدة لن تكون إذن دولة عَلمانية لا شأن لها بالدين سلباً أو إيجاباً؛ لكنها ستكون دولة معادية للدين الإسلامي في سياساتها الداخلية والخارجية؛ فقد أعلن بعضهم أنهم سيعترفون بإسرائيل، وبمحكمة الجنايات التي تطالب بتوقيف الرئيس عمر البشير، وأنهم - كيداً في إخوانهم السُّنيين - سيفتحون الباب للدعوة الشيعية.

ولن يقف الأمر عند هذا الحد فإنهم والأمريكيين يصرِّحون الآن بأنهم سيهدفون إلى إحداث تغيير جذري في بِنيَة الدولة الشمالية؛ يعنون تغييراً في توجهها الإسلامي.

إذا كان الأمريكيون قد خططوا لفصل الجنوب عن الشمال بهدف تغيير جذري في بنية الدولة الشمالية، فإنهم لم يقفوا عند حد التخطيط؛ بل أتْبَعوا ذلك بمساعدات هائلة قدَّموها للجنوبيين جعلت منهم قوة عسكرية تضاهي القوات السودانية المسلَّحة أو تزيد عليها. وهذا هو الذي أطال أمد الحرب وضاعف تكاليفها المالية والبشرية.

إن انفصال الجنوب من أقوى الشواهد على أضرار حال التمزق الذي تعيشه الأمة العربية؛ ذلك لو أنها كانت أمة واحدة، بل لو كان بينها من الائتلاف ما بين الدول الأوروبية لما جَرُؤ أحد على اقتطاع جزء منها.

تلك مضار الانفصال؛ فهل له من منافع؟

أول منافعه التي يعترف بها بعض إخواننا السودانيين المحللين - بغضِّ النظر عن رأيهم في الانفصال -: أن السودان سيكون بعده أكثر انسجاماً؛ إذ إن نسبة المتسببين إلى الإسلام فيه ستقارب ثمانية وتسعين بالمئة. وبهذا ستنهار كل الذرائع التي كان يتعلل بها العَلمانيون وأشباههم في رفضهم للدولة الإسلامية.

إن السودان ما كان يمكن أن يكون دولة إسلامية مع اتحاد بين شماله وجنوبه. كيف يكون كذلك مع وجود أناس غير مسلمين في المناصب التشريعية والقضائية والتنفيذية كما هو الحال الآن؟ وإذا لم يَجُزْ التخلي عن الأرض كما يقول بعض إخواننا ولا سيما مَنْ هم خارج السودان؛ فهل يجوز شراء الأرض بالدين؟

الانتفاضات التى حيَّرت الغرب

(البيان ٢٨٦ - جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ - مايو ٢٠١١م)

تُرى كيف ستكون سياسة الغرب مع العالم العربي بعد هذه الانتفاضات التي عمَّت كثيراً من بلاده، والتي أيَّد أهدافَها آخرون لم تحدث انتفاضات مثلها في بلادهم؟

إن الهدف الأعلى للغرب واضح، وهو: تحقيق كل ما يدخل تحت مسمى المصالح القومية: من اقتصاد، وسياسة، وإستراتيجيات، وأمن، وقوى مادية وناعمة للغرب ولا سيما الولايات المتحدة وإسرائيل. هذا الهدف لن يتغير وستسعى الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة كما سعت من قبل لتحقيق ما تستطيع منه بحسب الوسائل المتاحة في كل مرحلة تاريخية. كانت الوسيلة المفضَّلة هي التعامل مع حكام أفراد مستبدين يمكن إغراؤهم وكسبهم بكل أنواع الإغراءات. هذا النوع من الحكام كان مفضَّلاً لأن التعامل معه سهل لا تعقيد فيه، ولأنه يمكن أن تُبرَم معه كل أنواع الاتفاقات السرية التي يعلم الغرب ويعلم الحكام أن الشعوب سترفضها لو أنها اطلعت عليها. إنَّ كل هذا يتنافى مع الديمقراطية التي يفضلها الغرب لحكم نفسه. ولكن من قال: إن في الديمقراطية مبدأً خُلُقياً يُلزِم البلد الديمقراطي بأن يحب لغيره ما أحب لنفسه؟ إن الديمقراطية

هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم أكثرية نوابه في المجالس التشريعية، أو هي حكم المسؤولين الذين أعطاهم الدستور سلطات يقضون فيها بما يرونه في مصلحة شعوبهم. لكن النواب والمسؤولين - وربما كثير من أفراد الشعب - قد يقولون: نعم، إن الديمقراطية هي النظام المفضَّل لنا في بلادنا، ولكنها ليست هي التي تحقق مصالحنا إذا ما تبنَّاها غيرنا ولا سيما في العالم العربي. هكذا كان يقول بعض قادة الفكر السياسي الغربي في تسويغ ما يعدُّه العرب كيلاً بمكيالين.

لكن مشكلة الغرب أن هذه الحجة لم تعد - حتى بين الغربيين - حجة مقبولة يمكن التصريح بها والدفاع عنها. بل إن مساندة الحكام الدكتاتوريين صارت أمراً محرجاً للساسة الغربيين حتى في داخل بلادهم؛ ولذلك أرادوا أن يخرجوا من هذا الحرج باللجوء إلى وسائل، منها: كثرة الحديث عن الديمقراطية، والقول بأنها ليست مسألة خاصة بالثقافة الغربية؛ وإنما هي حاجة إنسانية صالحة لكل أمة في كل مكان. ومنها إقناع أبواقهم بأن يقوموا بإصلاحات تأخذ شكل الديمقراطية الغربية: انتخابات، مجالس تشريعية، أحزاب، صحف، وغير ذلك. لكن سرعان ما تبيَّن للناس في داخل البلاد التي يحكمها المتعاونون مع الغرب، وفي الغرب نفسه أن كل هذه أشكال زائفة للديمقراطية المعروفة في الغرب.

ثم تبيَّن للغرب كما تبيَّن للمواطنين في البلاد العربية أن النُّظم التي كانت تحكمهم ليست ديمقارطيات زائفة فحسب؛ وإنما هي نظم فاسدة أيضاً. والناس قد يصبرون على الحاكم المستبد أكثر من صبرهم على الحاكم الذي يرونه ينهب أموالهم ويظلمهم، وأكثرَ من صبرهم على الحاكم الكذاب الذي يخون الأمانة ويعقد اتفاقات سرية مع الأعداء.

إن معرفة الغرب بهذه الحقائق هي التي جعلته يسارع إلى تأييد ثورات الشباب واعتبار أهدافها من الأمور التي كان يدعو إليها، بل التي يعدُّها جزءاً من حضارته وثقافته ونُظُمه السياسية. كيف يعترض الغرب على ثورات تطالب بالحرية والديمقراطية والشفافية والمساءلة وتكوين الأحزاب وغير ذلك؟

لكن الغرب رغم هذا التأييد الظاهر الذي كان لا بد منه يظل حائراً إزاء هذه الأوضاع الجديدة في العالم العربي: ما السياسات الجديدة التي ستؤدي إليها الحريات التي طالب بها المتظاهرون إذا صارت أمراً واقعاً؟ كيف يمكننا أن نتعاون مع برلمانات مكونة من أحزاب شتى لكل منها تأثير مهما كان ضئيلاً على سياسة البلاد؟ كيف سنتعامل مع حكومات قد لا تستطيع أن تجعل اتفاقاتنا معها باقية في حيز الكتمان في ظل المطالبة بالشفافية؟

ثم السؤال الأكبر: كيف ستتصرف وكيف ستتصرف إسرائيل مع أوضاع سيكون للتيارات الإسلامية فيها قوة وتأثير لا ريب فيه؟ لقد أظهرت هذه التظاهرات أن التيارات الإسلامية تزحف على كثير من الأراضي التي كانت تحتلها التيارات العَلمانية. إننا في الغرب لا نتصور أن تنطلق تظاهرات سياسية في القرن العشرين من أماكن للعبادة. لا نتصور - مثلاً - أن تنطلق تظهارات سياسية من الكنائس بعد أداء القداس يوم الأحد. لكن هذا هو الذي حدث في العالم العربي في كل التظاهرات. لقد انطلقت كلها من المساجد وعقب صلاة الجمعة، بل إن أعداداً هائلة من المتظاهرين كانت تؤدي صلاة الجماعة في الميادين التي يطالبون فيها بالتغيير السياسي. والسلفيون الذين كانوا بعيدين عن السياسية قرروا الآن الدخول في حلبتها بشكل أو آخر. وهو أمر مقلق؛ لأنه سيزيد من قوة ما نسميه بالإسلام السياسي.

ماذا يفعل الغرب؟

هل يؤيد ما تطالب به ثورات الشباب من انتقال إلى نُظُم سياسية ديمقراطية؟ لكن هذا يثير مشكلات:

أوَّلها: أن الديمقراطية - كما يفهمها الغرب - مرتبطة ارتباطاً لا فكاك له بالعلمانية. إن الديمقراطية نظام يعطي السلطة التشريعية العليا للبشر؛ سواء كانوا أكثرية المواطنين أو أكثرية ممثليهم. لكن هذا في ما يبدو ليس هو الذي سيحدث في العالم العربي. كيف تكون السلطة العليا للبشر في بلد كمصر ينص دستورها على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام؟ إنه نص أقل ما يعنيه أن كل قانون مخالف لدين الإسلام سيكون قانوناً غير دستوري.

ثانيتها: أنه حتى لو افترضنا أن الديمقراطية صارت كما هو الحال في الغرب ديمقراطية عَلمانية، فإن أغلبية الشعب العربي الذى سيكون القرار في يده ليس شعباً متعاطفاً مع إسرائيل، كما أن أغلبية الشعب الإسرائيلي ليست متعاطفة مع العرب. وهذا يعني أن الدولة العربية الديمقراطية لن يكون من السهل عليها أن تنتهج السياسات التي يفضلها الغرب في العلاقة بين العرب وإسرائيل.

ثالثتها: أن الغرب حضارة وثقافة، وإن مما يخدم مصالحه أن تنتشر هذه الحضارة وأن تتبناها أكثر شعوب العالم؛ ولذلك تراهم يكثرون في هذه الأيام من الحديث عن كسب العقول والقلوب، ويحاولون جاهدين أن يُبرزوا كل مكوِّن من مكونات ثقافتهم على أنه ليس أمراً ثقافياً خاصاً بالغرب؛ وإنما هو قيمة إنسانية صالحة، بل لازمة للبشر كلهم. وهم يرون أنه بالرغم من أن الشعوب الإسلامية قد تأثرت تأثراً كبيراً كما تأثر

غيرها بالثقافة والقيم الغربية؛ إلا أنها ظلت أكثر أمة مستعصية على الانفتاح الكامل لكل قيم لا تتناسب مع دينهم، ويستشهدون على ذلك بصمود المسلمين في وجه الزحف الأيديولوجي الشيوعي.

لكن إذا كانت الانتفاضات الشبابية قد أخذت بعض السمات الدينية، فهذا يعني أنه سيكون للصوت الديني أثر قوي في الدولة الديمقراطية.

نكرر السؤال إذن:

ماذا يفعل الغرب؟

أولاً: سيستمر في دعوته إلى الديمقراطية وتأييدها لكنه سيحاول سَوق حكوماتها ما أمكن إلى الطرق التي تؤيد مصالحه. فهم الآن يؤيدون رحيل القذافي؛ لأن هذا أصبح مطلباً شعبياً عامّاً لا قِبَل لأحد بمعارضته، لكن هذا لا يعني الوقوف مع الثوار بمعنى تمكينهم من أن يكونوا هم الحكام الذين يخلُفُون القذافي. وقد حذر بعضهم فعلاً من عدم التعجل في تأييد الثوار قبل معرفة حقيقتهم. هذا بالرغم من أن قادة الثورة المعترف بهم حتى الآن يصرحون بأن الدولة التي يريدونها هي دولة مدنية (أي غير دينية)، وأنها ستكون دولة تعددية، إلى آخر الأوصاف التي يرضى عنها الغرب.

وسيفعلون الشيء نفسه بالنسبة لتونس. ومما يساعدهم على ذلك: أنه رغم قوة التيار الإسلامي هنالك؛ إلا أنه ليس في قوة التيارات الإسلامية المصرية، وأن التيارات العَلمانية لها تاريخ طويل في البلاد.

ثانياً: سيستمرون في سياستهم المؤيدة للجماعات والأحزاب والاتجاهات العَلمانية أو الأبعد فالأبعد منها عن التوجه الإسلامي، ودعمها بالمال والدعاية والتدخل لتمكينها من التأثير السياسي والثقافي.

ثالثاً: سيلجؤون إلى الضغوط الاقتصادية والسياسية لفرض السياسات التي يريدونها كما يفعلون ذلك الآن مع بعض البلاد التي لم تخضع لهم الخضوع الذي يريدونه.

رابعاً: ماذا سيحدث إذا لم ينجح هذا كله؟ إن الغرب لن يتنازل بالطبع عن أهدافه الكبرى. وإذا رأى أنه لاخيار له إلا بين ديمقراطية لا تحقق أهدافه، ونظم استبدادية يأمل أن تحققها فلن يتردد في اللجوء إلى الخيار الثاني. وسيجد أن لديه وسائل كثيرة لإفشال الديمقراطيات التي لا يريدها وتيئيس المواطنين منها وجعلهم يقبلون غيرها؟

ولكن: ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [**الأنفال**: ٣٠].

الدولة الدينية والدولة المدنية

(البيان ٢٨٧ - رجب ١٤٣٢هـ - يونيو ٢٠١١م)

طبيعة الدولة الدينية تعتمد على نوع الدين التي هي منسوبة إليه، وعلى هذا تعتمد الإجابة عن كونها يمكن أن تكون إسلامية أو غير إسلامية. وأنواع الدين الذي يمكن أن تُنْسَب إليه الدولة هي أربعة على الأقل.

الدين بالمعنى العربي الواسع:

الدين بهذا المعنى هو كل ما يكون عادة مستمرة، وبهذا المعنى جاء قول الشاعر عن نفسه وعن ناقته:

تقولُ إذا دَرأْتُ لها وَضِيني:
أهذا دينهُ أبداً وديني؟
أكُلَّ الدَّهرِ حلٌّ وارتحالٌ
أما يُبقِي عليَّ ولا يقيني؟

وكما تكون العادة المستمرة لفرد - كما في هذا المثال - فإنها تكون أيضاً لجماعة. قال - تعالى - عن نبي الله يوسف - عليه السلام -: ﴿**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ**﴾ [**يوسف**: ٧٦]. ودين الملك هنا: هو نظامه والقوانين التي تسير عليها دولته، والتي لم يكن ليوسف أن يأخذ أخاه بمقتضاها. ولكن بما أن كلَّ دولة بل كلَّ جماعة متعايشة لا بد لها من قوانين أو تقاليد أو أعراف تسير عليها، فكل دولة هي بالضرورة دينية بهذا المعنى العربي الواسع للكلمة. فالدولة الديمقراطية دينية، والدكتاتورية دينية، وكذلك الشيوعية أو العَلمانية، وهكذا.

المفهوم العلماني للدين:

الدين بهذا المعنى هو أمر محصور في الشؤون الخاصة ولا سيما العبادات، وعليه فلا يمكن أن تكون الدولة دينية بهذا المعنى. لكن بعض العَلمانيين في البلاد العربية يفترضون أن هذا المفهوم العَلماني للدين هو المفهوم الوحيد له. ولذلك ترى بعضَهم يعترض على مادة الدستور المصري التي تقرر بأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام بحجة أن الدولة ليس لها دين لأن الدين إنما يكون للأفراد.

المعنى الثيوقراطي للدولة الدينية:

تكون الدولة دينية بهذا المعنى الغربي إذا كان حاكمها أو حكامها يزعمون أنهم يصدرون في كل ما يقولون ويفعلون عن وحي من الله - تعالى - إليهم مباشرة. ولذلك لا يمكن مناقشتهم أو محاسبتهم. والذي يدَّعي مثل هذه الدعوى لا يُشتَرَط فيه أن يكون رَجُلَ دين بالمعنى المعروف في الغرب؛ فقد ثبت عن الرئيس بوش - مثلاً - أنه كان يدَّعي مثل هذه الدعاوى. وبالرغم من أنه كان يتصرف على أساس هذه الدعاوى في

حدود السلطات التي يتيحها له الدستور الأمريكي؛ إلا أن بعض المفكرين الغربيين وصفوا حكمه بالثيوقراطي وأطلقوا عليه اسم الثيوقراطية الأمريكية.

هذا هو المعنى الأساس للحكم الثيوقراطي؛ لكن بعض الناس في بلادنا صاروا يعرِّفونه بأنه حكم رجال الدين ويجعلون رجل الدين هو الذي تخرَّج في مؤسسات تعليمية دينية، وهذا ليس بصحيح؛ لأن الشخص يمكن أن يدرس مثل هذه الدراسة ثم يكون مع هذا رجلاً عَلمانياً، ولأن آخرَ يمكن أن يتخرج في جامعات غير دينية لكنه يكون مع ذلك مؤمناً بالثيوقرطية كما كان بوش.

وإذا كان بعض الناس قد عرفوا الدولة الدينية بنوع الدراسة التي يتلقاها الحاكم، فقد صار الساسة الغربيون الآن يوسعون معناها لتشمل كل دولة تنتسب إلى الدين حتى لو لم تكن ثيوقراطية.

المفهوم الإسلامي للدولة الدينية.

الإسلام دين بالمعنى العربي العام وبالمعنى الشائع الآن. وفيه أمر بالحكم بما أنزل الله - تعالى - في كل شؤون الحياة؛ بما في ذلك في الأمور المتعلقة بالدولة من نظام حكم وقضاء وسياسات وغير ذلك. فالدولة الإسلامية هي إذن بالضرورة دولة دينية؛ لكنها ليست دولة ثيوقراطية لأن الحاكم فيها لا يحكم فيها بأوامر أو أخبار يتلقَّاها من الله - تعالى - مباشرة؛ وإنما يحكم بنصوص مكتوبة يستوي هو وغيره في إمكان معرفتها؛ ولذلك يمكن أن يحاسَب ويمكن للناس أن يختلفوا معه. وهو في هذا يشبه الحاكم في الدولة التي تسمى بالمدنية؛ لأن هذا الأخير إنما يحكم في إطار قوانين يستوي هو وغيره في معرفتها، وفي إطار صلاحيات حُدِّدَت له.

ربما كان هذا الذي ذكرناه هو السبب في قول بعض الإسلاميين في أيامنا هذه بأن الدولة الإسلامية ليست دولة دينية بمعنى؛ وإنما هي دولة مدنية. لكن الكلام بهذا الإطلاق ليس صحيحاً؛ بل ربما كان فيه عدم بيان لمعنى الدولة المسلمة. لذلك كان من الأحسن أن يوضَّح هذا الأمر حتى لا يكون مثار خلاف لا داعي له بين الإسلاميين؛ يجب أن يوضَّح بأن الدولة الإسلامية ليست دينية بالمعنى الثيوقراطي للدولة الدينية، بل ربما كان من الأحسن أن تُستعمَل هذه الكلمة الغربية التي لا مقابل لها في ما أعلم في اللغة العربية. وربما كان من الأحسن أيضاً أن يبيِّن معنى كونها دولة مدنية.

إن إطلاق القول بأن الدولة الإسلامية ليست دينية جعل بعض الإسلاميين المصريين يتناقضون؛ لأنهم في الوقت الذي يؤكدون هذا يستمسكون استمساكاً شديداً بالمادة التي تقول: إن دين الدولة الرسمي هو الإسلام.

ألبراليون هؤلاء؟

(البيان ٢٨٨ - شعبان ١٤٣٢هـ - يوليو ٢٠١١م)

اللبرالية صنفان: صنف أصلي مصنوع في الغرب، وصنف مغشوش يباع في العالم العربي باسم الصنف الأصلي. أصحاب الصنف الأول يبيعون بضاعة هي من صنع أيديهم فتستطيع لذلك أن تتحاور معهم وتدلُّهم على مواطن الخلل في بضاعتهم، وهي كثيرة. وقد يستمعون إليك، وقد يعترفون لك بما في بضاعتهم من عيوب ثم يحاولون تغييرها كما ظلوا يفعلون على مرِّ السنين. لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع مروجي البضاعة المغشوشة؛ لأن بائعيها ليسوا أصلاء؛ وإنما هم مقلدون مزيفون لا يستطيعون ترويج بضاعتهم إلا بتسميتها بالاسم الذي اختاره المصنعون الأصلاء ودافعوا عنه وأعطوا أنفسهم حرية إعادة النظر في بضاعتهم وتعديلها وتبديلها. كيف تتجادل مع إنسان يعترف لك بأن مَثَلَه الأعلى أن يتحول إلى أوروبي يأخذ من أوروبا كل شيء حتى الديدان التي في بطون أبنائها كما كان أتاتورك يقول، أو يقول لك: (لكي نكون مثل الأوروبيين، يجب أن نسير في الدرب نفسه الذي ساروا عليه. ونأخذ حضارتهم بما فيها من حلو ومُرٍّ، وخير وشر). كما كان طه حسين يصر، أو يردد ما كان يقوله الدكتور زكي

نجيب محمود قبل أن يمنَّ الله عليه بالهداية: (إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارة، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، بل إني تمنيت عندئذٍ أن نأكل كما يأكلون، ونجدَّ كما يجدُّون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون). كيف يمكن أن تتحاور مع إنسان مثل هؤلاء غمس نفسه في بؤرة التقليد والتبعية فلم يعد يرى إلا ما رآه له مَن اتبعه؟

رأى اللبراليون الزائفون كما رأى الشيوعيون مِن قبلهم أن أكبر عائق يسد على الأمة طريق التبعية هذا هو الإسلام، فأصيبوا كما أصيب الشيوعيون من قبلهم بداء عضال يسميه بعض الغربيين (الإسلامفوبيا). تحولت دعوة الشيوعيين بسبب هذا المرض من دعوة ذات أساس اقتصادي إلى دعوة همُّها الترويج لثقافة الشارع الغربي الرأسمالي، ثقافة الرقص والغناء والسفور ومعاقرة الخمور، حتى أصبحوا - كما كنا نقول لهم - مجرد وكلاء لثقافة ذلك الشارع الرأسمالي. والذي حملهم على هذا هو أنهم وجدوا أن القيم الإسلامية المعادية لذلك الفجور هي التي كانت من أهم أسباب ابتعاد الشباب عنهم، فأرادوا أن يقولوا للشباب كونوا معنا نحرركم من تلك القيود ولا تكونوا مع الإسلاميين الذين أثقلوا كواهلكم بتكاليف المعتقدات والعبادات والحلال والحرام. وما علم المساكين كما لا يعلم إخوانهم المسمَّون اليوم باللبراليين: أنهم إنما يتبعون بذلك طريقاً خطَّه لهم العدو منذ زمان بعيد وحذرهم ربهم منه: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾ [**الأعراف**: ٢٧].

﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ**﴾ [**البقرة**: ١٦٩].

إذا كان الشيوعيون في بلادنا كانوا قد صاروا مجرد عملاء لثقافة الشارع الغربي الرأسمالي، فما هكذا كان إخوانهم في البلاد الغربية. لقد كان أولئك يحاربون تلك

الثقافة؛ حتى إن ابنة ستالين قالت في كتاب لها: إن والدها كان ينهاها من ارتداء التنانير القصيرة! وكانت تسجيلات بعض الأغاني والموسيقى الغربية كموسيقى الروك آند رول لا تدخل البلاد الشيوعية إلا مهربة. وعندما هيأ الله - سبحانه وتعالى - لنا زيارة موسكو بعد سقوط الاتحاد السوفييتى مباشرة، وجدنا نساءهم يرتدين ثياباً هي أكثر حشمة مما رأينا النساء في البلاد الأوروبية والأمريكية يرتدينه. لكننا علمنا بَعْدُ أن الأمر تغير بعد أن فُتِح باب الاتصال بالغرب على مصراعيه.

واللبراليون المزيفون في بلادنا يكررون الآن مأساة مرض الإسلاموفوبيا مع فارق كبير: هو أن الشيوعيين كانوا بسبب تبعيتهم للاتحاد السوفييتي أعداء للاستعمار الغربي. لكن أصحاب اللبرالية المغشوشة في بلادنا يشيدون بهذا الاستعمار ويرون فيه المنقذ الوحيد لهم من آثار القيم الإسلامية، والقادر وحدَه على تحقيق لبراليتهم المعادية للإسلام. لقد سمعت - والله - بأذني رجلاً في إحدى دول الخليج كان يتمنى أن تزحف القوات الأمريكية على بلده بعد أن تنهي مهمتها في العراق. ثم عرفت بَعْدُ أن ذلك لم يكن موقفاً شاذاً؛ وإنما كان أمراً يجاهر به أصحاب اللبرالية المغشوشة من العرب الساكنين في البلاد الغربية، بل ينظمون مظاهرات تؤيد بوش وتصفِّق له.

المقلدون من أمثال من يسمُّون أنفسهم باللبراليين في بلادنا يأخذون عن الغرب مذاهب باطلة لجأ إليها الغرب لظنه أنها تحل مشكلات يواجهها، فيتبنون تلك الفلسفات والمذاهب الباطلة ثم يزيدون الأمر ضِغثاً على إبَّالة بمحاولتهم فرضها على بيئة ليس فيها أمثال تلك المشكلات. بعض منتقديهم في بلادنا - بما فيهم بعض الإسلاميين - يأخذون عليهم هذا الجانب الأخير، أعني جانب محاولتهم لفرض الأفكار والقيم والفلسفات الغربية على بيئة لا تشبه البيئة الغربية التي نشأت فيها تلك الأفكار، لكنهم يهملون

بهذا جانباً مهماً: هو أن تلك الأفكار والمعتقدات بها أنها في نفسها باطلة فإنها لا تصلح لا للشرق ولا للغرب. نعم! إنها قد تكون قد أدت من الناحية العملية إلى وضع هو أخف ضرراً من الوضع الذي حلَّت محلَّه في البلاد الغربية؛ لكن هذا لا يجعلها حقاً أو صواباً.

ثم إنهم لا يكتفون بأخذ المذهب الباطل، بل يحاولون أن يتقمصوا الشخصية الغربية وأن ينظروا إلى الأمور بنظرتها حتى لو لم يكن لتلك النظرة علاقة بالفلسفة أو بالمذهب الذي أخذوه منهم وتبنَّوه.

البليَّة الثالثة التي أصابت هؤلاء المقلدين العمين: أنهم يستوردون بعض المذاهب والأفكار الغربية لحل مشكلات لا وجود لها في العالم الإسلامي. من أحسن الأمثلة على ذلك دعوتهم جميعاً إلى العَلمانية التي يسوِّغ الغربيون لجوءهم إليها بكثرة الحروب التي حدثت عندهم بسبب الحكم الديني. كانوا إذا حكمت طائفة منهم (كاثوليكية أو برتستانتية) لا تكتفي بسيطرتها السياسية، بل تحاول أن تُكْره أصحاب الطوائف الأخرى على تغيير معتقداتهم والدخول معهم في طائفتهم. وهذا شيء لم يحدث في العالم الإسلامي؛ بل إن أهل السُّنة الذين كانوا مسيطرين سياسياً على معظم العالم الإسلامي لم يجبروا المعتزلة - مثلاً - على تغيير عقائدهم، بل لم يجبروا اليهود والنصارى على تغيير أديانهم. لقد أعطوا خصومهم من حرية العبادة وحرية التصرف في شؤونهم الخاصة ما لا تعطيه العلمانية. ثم إن العَلمانية حدثت في أوروبا بموافقة رجال الدين وربما مساعدتهم؛ فلماذا يحاول هؤلاء العمون فرضها على أناس يرونها مضادة لدينهم؟

هذا ما كان من أمر اللبراليين المقلدين؛ فما بال اللبراليين الأصليين؟

نظرات نقدية في أُسُس الأيديولوجية اللبرالية الغربية (١)

(البيان ٢٨٩ - رمضان ١٤٣٢هـ - أغسطس ٢٠١١م)

نحاول في هذا المقال أن نلقي نظرات نقدية على الأسس التي تقوم عليها الأيديولوجية اللبرالية الغربية وهي أسس لا يكاد المقلدون للفكر الغربي في بلادنا ينظرون فيها أو يناقشونها. لكن نقدنا للأسس لا يعني رفضنا لكل ما أضيف إليها أو زعم أنه منبثق عنها كما سيتبين.

فكرة العقد الاجتماعي:

كلمة اللبرالية تعني الحرية. ولذلك فإن المبدأ الذي لا يكاد اللبراليون الغربيون يُجمِعون على مبدأ سواه: هو الدعوة إلى الحرية الفردية. لكن من حق كل عاقل يُدْعى إلى الإيمان بمبدأ جديد أو العمل به أن يسأل: ما الدليل على صحته؟ يعتمد مشاهير اللبراليين من أمثال جون لوك في القرن السابع عشر الميلادي إلى جان جاك روسو في القرن الثامن عشر إلى جون رولز في عصرنا على ما يسمى بنظرية العقد الاجتماعي

ليؤسسوا عليها القول بأسبقية الفرد على الجماعة، ومن ثَمَّ على أن الأصل فيه أن يكون حراً يفعل ما يشاء.

ونظرية العقد الاجتماعي - كما يقول أحد الكتاب - قديمة قِدَم الفلسفة الغربية، وكان لها تأثير عظيم في مجال الفلسفة الخُلُقية والسياسية طوال التاريخ الحديث للغرب[1].

أول من فصَّل في هذه النظرية في العصر الحديث ثم تبعه آخرون - وإن لم يوافقوه في كل ما ذهب إليه - هو الفيلسوف الإنجليزي ثومس هوبز Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩م). رأي هوبز هو - باختصار -: أن الناس كانوا في حال يسميها بحال الطبيعة state of nature قبل أن يكون لهم مجتمع مدني. كان الناس في الحال الطبيعة تلك أنانيين، وكانوا متساوين، ولم تكن هنالك قوة قادرة على أن تجبرهم على أن يتعاونوا.

الحياة في تلك الحال كانت حياة لا تطاق؛ لأن كل فرد فيها لم يكن يأمن على نفسه، ولم يكن يستطيع أن يحقق رغباته. فالحياة في حال الطبيعة تلك أسوأ حياة يمكن أن يحياها إنسان. لكن بما أن الناس عقلاء وأنهم حريصون على مصالحهم فإن المخرَج من تلك الحال البائسة كان ممكناً؛ خرج الناس منها بأن عقدوا بينهم عقداً يتيح لهم حياة أفضل. يتكون هذا العقد من عقدين متميزين:

في العقد الأول اتفق الناس في ما بينهم على التنازل عن كل حق لأحدهم على الآخر.

وفي العقد الثاني خولوا أحدهم أو مجموعة منهم سلطة وقوة تمكِّنهم من تنفيذ العقد الأول؛ أي أنهم اتفقوا على أن يعيشوا سوياً تحت قوانين مشتركة، وأن ينشئوا آلية لتنفيذ

(1) Social Contract, Internet Encyclopedia Philosophy, http://www.iep.utm.edu/soc-cont/

بنود العقد الاجتماعي. وبالرغم من أن الحياة تحت الحاكم الذي يُعطَى تلك السلطات قد تكون شاقة، فإنه يجب أن يُعطَى سلطة مطلقة؛ لأن العيش تحت سلطانه خير من حال الطبيعة؛ ولذلك فإنه لا يكون لنا مسوغ في الخروج عليه لأنه الأمر الوحيد الذي يقينا من أكثر شيء نريد أن نتحاشاه؛ ألا وهو حال الطبيعة.

أما جون لوك John Lock (١٦٣٢ - ١٧٠٤٩) الفيلسوف الإنجليزي الذي كان له تأثير كبير على واضعي الدستور الأمريكي فقد كان له تصور مختلف عن تصور هوبز لحال الطبيعة ومن ثَمَّ لطبيعة العقد الاجتماعي. رأى لوك أن حال الطبيعة - وهي الحال الطبيعية للبشر - هي الحال التي يكون فيها الإنسان حراً حرية كاملة ليتصرف في نفسه كيف يشاء ومن غير تدخُّل من الآخرين، لكنها ليست حال إباحية يفعل فيها الفرد ما يريد. وبالرغم من أنه لا توجد في حال الطبيعة سلطة مدنية أو حكومة تعاقب المعتدين؛ إلا أنها ليست حالاً تنعدم فيها القيم الخُلُقية؛ لأن الناس فيها ملتزمون بالقانون الطبيعي الذي هو أساس القيم الخلقية الذي منحه الله - تعالى - لنا، وهو قانون ينهانا عن أن نعتدي على غيرنا في حياتهم أو صحتهم أو حريتهم أو ممتلكاتهم. وعليه فإن حال الطبيعة هي حال سلام. إنها ليست في أصلها حال حرب كما تصوَّرها هوبز؛ لكنها يمكن أن تكون كذلك حين يعتدي فرد على آخر ولا سيما بالنسبة لممتلكاته: كأن يسرق منه، أو يلجأ إلى القوة ليسلبه حقه. وبما أن القانون الطبيعي يسمح للإنسان بأن يدافع عن نفسه؛ فإنه قد يقتل من يعتدي على ممتلكاته وبهذا تبدأ الحرب. وهذا من أقوى الأسباب التي تجعل الناس يتركون حال الطبيعة ويتعاقدون على إنشاء حكومة مدنية.

حال الطبيعة ليست حال أفراد كما تصوَّرها هوبز؛ وإنما هي حال أُسَر تتعاهد في ما بينها لتكون المجتمع المدني. فإذا فعلوا ذلك أصبحوا خاضعين لإرادة الأغلبية.

أما في عصرنا فإن جون رولز John Rawls (١٩٢١ - ٢٠٠٢م) الفيلسوف الأمريكي الذي يعدونه أكبر فلاسفة الأخلاق والسياسة الغربيين المعاصرين، والذي يعتبر فيلسوف اللبرالية السياسية؛ فإنه يعتمد أيضاً على فكرة قريبة من فكرة العقد الاجتماعي في نظريته عن العدل، لكن رولز يصرح منذ البداية بأن ما يقوله هو مجرد (تجربة ذهنية) thought experiment الغرض منها الوصول إلى تصور للعدل يقوم عليه النظام السياسي اللبرالي. تطلب منا هذه النظرية أن نتصور الناس يعيشون في حالة أولية، في هذه الحال يكون الإنسان جاهلاً بكل ما يمكن أن يجعلَه متحيزاً؛ فهو لا يعرف جنسه (أذكراً هو أم أنثى؟) ولا عنصره ولا مواهبه الشخصية ولا معوقاته ولا عمره ولا مكانته الاجتماعية، ولا تصوُّره الخاص للحياة الطيبة ولا حال المجتمع الذي يعيش فيه. هذه في رأي رولز هي الحال التي يستطيع فيها الإنسان أن يختار مبادئ المجتمع العادل التي هي في نفسها مختارة من ظروف أولية يكمن فيها عدم الانحياز. الإنسان في هذه الحال هو إنسان مجرد عن الجسد، عاقل، وعالمي.

إذا سأل سائل: متى حدث هذا العقد؟ قيل له:

إن القائلين بنظرية العقد الاجتماعي لا يلزمهم أن يفترضوا صحة هذا الاتفاق من الناحية التاريخية؛ لأنهم - في الغالب - معنيون بالكشف عن حدود الالتزام السياسي بالرجوع إلى ما يمكن أن يكون الفاعل العاقل مستعداً لأن يوافق عليه مع وجود تلك المنافع والمضار[1].

(1) Social contract, Oxford Dictionary of Politics, edited by Iain McLean and Alistair McMillan, Oxford University Press, 2003.

ما هذا المنطق؟ إذا سألنا عن الدليل على أن الفرد هو الأساس قيل لنا: إنه العقد الاجتماعي. وإذا سألنا عن نظرية العقد الاجتماعي قيل لنا: إنه ليس حدثاً تاريخياً؛ إنما هي نظرية أُتِي بها للتدليل على أن الفرد هو الأساس.

إن نظرية العقد الاجتماعي تثير في ذهن الإنسان المتفكر عدة تساؤلات:

فأولاً: كيف تقوم مبادئ نظام سياسي واقعي على دعوى هي من نسج خيال فلسفي؟

ثانياً: إن الذي يقوم بالتجربة إنما يقوم بها ليعرف النتائج التي تؤدي إليها أو ليتأكد منها. لكن تجربة رولز إنما أجريت لتؤدي إلى نتيجة كان يريدها ويعرفها. لقد كان يعرف - كما يعرف غيره - أن الإنسان يمكن أن ينحاز لجنسه أو عنصره أو سائر ما ذكر ولذلك جعله جاهلاً بأسباب الانحياز هذه ليكون عادلاً. لكن الحقيقة أن الجهل الذي ذكره وإن عصم الإنسان من أن يكون متحيزاً فلن يجعله عادلاً لأن عدم التحيز قد لا يعني أكثر من معاملة الطرفين معاملة واحدة. وهذا يعني أن غير المتحيز هذا إذا وضع قانوناً فإنه سيسوي فيه بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير والغني والفقير. وهذا قد لا يكون عدلاً. وعليه فَلِكَي يكون الإنسان عادلاً فإنه لا يكفي أن يكون جاهلاً بأسباب التحيز، بل لا بد أن يكون عالماً بالحقائق المتعلقة بالطرفين التي قد تقتضي معاملة أحدهما معاملة مختلفة عن الآخر، معاملة قد تبدو للجاهل بتلك الفروق بينهما أنها ليست عادلة بل متحيزة.

ثالثاً: إن أصحاب نظرية العقد الاجتماعي يحاولون أن يجعلوا الإنسان قادراً على أن يشرع تشريعاً مناسباً لكل الناس؛ ولذلك تراهم يتحدثون عن الإنسان ذي النظرة

العالمية، لكن هذا شيء مستحيل؛ لأن هذه النظرة تقتضي أن يكون للإنسان علم بكل الحقائق المتعلقة بالناس، وهو أمر لا يعرفه إلا خالقهم.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

نظرات نقدية في أُسُس الأيديولوجية اللبرالية الغربية (٢)

حرية التعبير... فوائدها وقيودها

(البيان ٢٨٩ - شوال ١٤٣٢هـ - سبتمبر ٢٠١١م)

قلنا: إن الدعوة إلى الحرية هي الأمر الذي لا يكاد يُجمِع دعاة اللبرالية الغربيون على أمر سواه؛ وذلك لأنهم يكادون يختلفون بعد ذلك في كل شيء له علاقة بهذه الحرية. عندما يقول أحدٌ: إن الأصل في الإنسان أنه حر، فماذا يعني بذلك؟

الحريات التي يتحدث الناس عنها ثلاثة أنواع: حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وحرية العمل.

أما حرية الاعتقاد: فهي حاصلة لكل إنسان بحكم الفطرة فلا داعي للدعوة إليها؛ أعني أن كل إنسان يستطيع أن يعتقد ما شاء ولا أحد غير الله - تعالى - يمكن أن يطَّلع اطلاعاً مباشراً على معتقده أو يمكن أن يجبره على اعتقاد ما لا يريد اعتقاده. فعندما يتحدث بعضهم عن معاقبة المرتد ويرى أنها اعتداء على حرية الفرد يخطئ في التصور أو في التعبير؛ لأن العقوبة ليست على المعتقَد - إذ ما أكثر المنافقين الذين يظهرون ما لا يضمرون - وإنما هي على التعبير عن المعتقَد الدال على الردة. لكن حتى حرية الاعتقاد

هذه محدودة بمدى علم الإنسان، ولـمَّا كان علم الإنسان محدوداً كانت حرية اعتقاده بالضرورة محدودة لأن المرء لا يستطيع أن يعتقد ما لا علم له به.

وأما حرية التعبير وحرية العمل: فلا شك أنهما محدودتان، فالإنسان لا يستطيع أن يقول أو يفعـل كل ما يريد. إن اللـه - تعالى - هو وحدَه الفعَّال لما يريد أما الإنسان فإنه يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد. وكل الناس متفقون على أن حرية الإنسان محدودة بعوامل كثيرة، منها: تركيبه الجسماني؛ فهو لا يستطيع - مثلاً - أن يجري أو يمشي إلا في حدود، وهو يمرض ويموت، وهو في ما بين ذلك مقيد بقوانين وضعها الله في الكون تحد من حريته وتقيدها. ونظرية العقد الاجتماعي نفسها تعترف بأن الإنسان إنما انتقل من الحياة الفردية إلى الجماعية لأنه وجد أن هنالك أشياء كثيرة يحتاج إليها في حياته لكنه لا يستطيع أن يحققها إلا بمعاونة غيره.

فالحديث عن الحرية هو إذن حديث عما يستطيع الإنسان اعتقاده أو قوله أو فعله؛ فهل نستطيع أن نقول: إن من مصلحة كلِّ فرد أن يعتقد أو يقول أو يفعل كل ما يريد؟ يقول بعض اللبراليين أن نعم! وحجتهم في ذلك أن الإنسان الفرد هو وحدَه الذي يعرف مصلحته، فلا ينبغي لغيـره أن يفـرض عليه اختياراً لا يريده. ولكن: أصحيح أن كل إنسان يعرف كل ما ينفعه أو يضره؟ إن حال الإنسان يكذِّب هذا الزعم؛ إذ لو كان الإنسان عارفاً بكل ما ينفعه ويضره لكان مفطوراً على هذه المعرفة، ولظلت معرفةً مصاحبةً له طول حياته. لكن الذي نراه في الواقع أن رأي الإنسان في كثير مما ينفعه أو يضره يظل يتغير بتغير ما يكتسب من علوم ويخوض من تجارب. ما أكثر ما يفعل الإنسان في يومه فعلاً ثم يندم عليه في غده؛ ولذلك قال الله - تعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإذا لم يكن من مصلحة الفرد أن يقول أو يفعل كلَّ ما يستطيع قوله أو فعله، فهل من مصلحة المجتمع أن يتيح لأفراده مثل هذه الحرية؟ وإذا أراد أن يضع عليها قيوداً فبأي حق وعلى أي أساس يضعها؟

في عام ١٨٩٥م كتب المفكر البريطاني جون استيورت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣م) كتيباً عن الحرية حاول أن يجيب فيه عن مثل هذه الأسئلة. تقول المراجع: إن الحجج التي ذكرها في هذا الكتيب لدعم الحرية ما تزال هي أكثر الحجج التي يلجأ إليها اللبراليون للدفاع عن حرية التعبير والمناقشة[1]. ولن نستطيع بالطبع أن نبسط الكلام في تقويمنا لآراء (مل) في مقال قصير كهذا؛ ولذلك سنكتفي بتعليقات جزئية نرجو أن تكون مفيدة.

يبني مل دفاعه عن حرية المناقشة على غاية صحيحة هي الدفاع عن الحقيقة. فيقول: إن الحقيقة إما أن تكون مع الأغلبية في المجتمع أو تكون مع الأقلية، أو يكون مع هؤلاء جزء منها ومع أولئل جزء آخر، ويرى أن فتح باب حرية المناقشة وعدم كبت المعارِض، فيه انتصار للحقيقة في كل هذه الحالات الثلاث. أما في الحالة الأولى: فإنه من مصلحة الأغلبية أن تتيح المجال لمخالفيها لكي تستمر في الدفاع عن الحقيقة التي آمنت بها؛ وإلا فستنسى الأسباب التي دعتها للتمسك بها، ولا خير في اعتقاد لا يعرف الإنسان أدلته.

(1) Mill on Freedom of Discussion Richmond Journal of Philosophy 5 (Autumn 2003) Will Cartwright.

وأما في الحالة الثانية التي يكون فيها الحق مع الأقلية: فإنه من مصلحة الأغلبية نفسها أن تتيح لها حرية التعبير عن رأيها والدفاع عنه لأن هذا من مصلحة الأغلبية نفسها؛ إذ إنه هو الطريق الوحيد الذي يمكِّنها من معرفة الحقيقة.

وأما في الحالة الثالثة: فالحجة واضحة لأن كلَّ طرف سيستفيد من الآخر فيعرف الحقَّ الذي غاب عنه. لكنَّ (مل) يبني دفاعه عن حرية التعبير أو المناقشة على دعوى أخرى لم يوافقه عليها كثير من المفكرين الغربيين؛ وإن كانت ما تزال مؤثرة في الفكر الغربي. هذه الدعوى هي: أن الإنسان لا يمكن أن يكون على يقين من صحة أي اعتقاد يعتقده. لكن معارضيه من أمثال صاحب المقال المذكور آنفاً يذكرون أمثلة مثل الحقائق الرياضية والحقائق الحسية المشاهدة في الرد عليه.

يعترف (مل) بأن الحرية لا يمكن أن تكون مُطْلقة، وأنه ما من جماعة بشرية وإلا ووضعت قيوداً على حرية التعبير. أما هو فيرى أن القيد الوحيد الذي يجب وضعه على الحرية هو قيد الضرر؛ أي أن كل تعبير يؤدي إلى ضرر فيجب منعه. ومفهوم التعبير يشمل عند الغربيين كل أنواع الفنون: من رسم ونحت وشعر وأغانٍ وموسيقى وغير ذلك. لكنَّ ناقدي (مل) وجَّهوا إلى رأيه - ونوجِّه معهم - سؤالين: هل يكفي الضرر وحدَه قيداً؟ وما الضرر الذي يُعَد قيداً؟ نقول: إن الأضرار أنواع منها أضرار حسية يجمع الناس كلُّهم على كونها ضرراً، لكن حتى هذه قد لا يعرف الواحد من الناس ضررها بل قد لا يعرف حتى المجتمع هذا الضرر إلا بعد أن يتبين، وهو قد لا يتبين إلا بعد حين. وأما الأضرار الأخرى فإنها تعتمد على المعيار الذي يقيس به الناس النفع والضرر، والمعايير تابعة للمعتقدات أو ما يسمى الآن بالأيديولوجيات. ففي الإسلام

- مثلاً - أنواع من التعابير تمنع لكونها تدعو إلى الباطل أو الفجور أو لكونها تلهي الناس عن ذكر الله فتكون ضارة بهم في أخراهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

ذكر كاتب المقال الذي أشرنا إليه من قبل أن الحكومة البريطانية كونت في عام ١٩٧٧م لجنة لتنظر في نشر صور الجنس والعنف في وسائل الإعلام المختلفة، وأن هذه اللجنة انتهت إلى أنها لم تجد دليلاً على وجود أي ضرر في التعبير عن الفحش (الذي يسمونه بورنوجرفي)، كما أنها لم تجد دليلاً على عدم الضرر. لكنها اعتمدت معياراً آخر لم يذكره (مل) هو استفزار مشاعر الناس فوجدت دليلاً على أن هذا النوع من التعبير هو - فعلاً - مثير لاشمئزار كثير من الناس ومع أنها لم توص بمنعه إلا أنها أوصت بتقييده؛ بحيث إن الكتب والمجلات التي فيها مثل هذا الفحش لا تعرَض في أماكن عامة كسائر الكتب والمجلات؛ وإنما تُعرَض في أماكن خاصة. مما لا شك فيه أن قراراً كهذا مبنيٌّ على معتقدات أصحاب اللجنة وقيمهم الخلقية؛ فمن التقليد الأعمى والبليد أن يظن إنسان أنه ما دام لبرالياً فيجب أن يرى ما رأوا حتى لو كانت قيمه الخُلُقية ومعتقداته مختلفة عن قيم أصحاب تلك اللجنة ومعتقداتها. قارن ذاك الذي انتهت إليه اللجنة البريطانية بقول الله - تعالى -: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

إن قبول أيِّ قيد على حرية التعبير يدل على أن التعبير ليس غاية في نفسه وإنما هو وسيلة؛ إذا أدى إلى خير وحق فهو خير، وإذا إلى أدى إلى ضرر وشر وباطل فهو شر. والقيد على حرية التعبير كما يعترف (مل) نفسه ليس دائماً قيداً قانونياً؛ بحيث إن مخالف التعبير الفلاني يعاقب؛ وإنما يمكن أن يكون قيداً اجتماعياً والقيود الاجتماعية تخطئ

وتصيب. ولذلك نجد في الإسلام دعوة قوية للناس إلى استعمال التعبير لنصرة الحق وإزهاق الباطل بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولأن التعبير إنما هو وسيلة جاء الأمر للناس بأن يقول أحدهم خيراً أو ليصمت.

نخلص من كل ما ذكرنا إلى أنه ليس هنالك شيء اسمه الحرية المطلقة - سواء في التعبير أو في غيره - وأن التعبير يجب أن تكون عليه قيود تبيح ما كان منه في صالح الناس وتمنع ما كان منه في ضررهم، وأن هذه القيود لا يلزم أن تكون كلها قيوداً يعاقب القانون على مخالفتها؛ وإنما هي في أكثرها قيود اجتماعية يقوم بها بعض الناس نيابة عن الآخرين، وكلما كثر عدد هؤلاء وكانوا على الحق والخير كان ذلك في مصلحة المجتمع. ونخلص مما ذكرنا إلى الحقيقة الكبرى التي تقول: إنه لا بد للناس من هدى إلهي يهديهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

في سبيل الدعاية لأنفسهم ليكونوا رؤساء لبعض البلاد أو ليكونوا أعضاء في مجالس تشريعية يقول بعض الناس على سبيل التزكية لأنفسهم إنهم «لا ينتمون إلى جماعة أو فكرة» وإنهم إذا ما انتخبوا فسيكونون حريصين على مصلحة البلد لا غير..

وهذه الدعاية مبنية على افتراض أن هنالك تناقضاً بين الانتماء إلى الوطن أو الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة أياً كانت وهذا افتراض غير صحيح.

أولاً: لأن الانتماء إلى الوطن يلزم عنه الانتماء إلى عقيدة قد لا يشعر بها صاحبها، فإنه إن عرضت عليه مشكلة فأراد حلّها لمصلحة وطنه فكيف سيفكر فيها؟

ثانياً: لأن الانتماء إلى فكرة أوعقيدة معينة لا يلزم عنه أن يكون الشخص متعصباً غير عاقل ولا متجرد؛ بل إن الفكرة التي ينتمي إليها قد تكون هي نفسها مبنية على

(*) هذه المقالة هي أول مقالة يتيسر لفضيلة الشيخ جعفر شيخ إدريس كتابتها بعد الوعكة الصحية التي ألـمَّت به، نسأل الله - تعالى - له تمام الصحة والعافية.

الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي من بينها الصدق والأمانة والتجرد، وقد كان هذا في الإسلام فحين سرق أحد المنتمين إلى هذا الدين درعاً وخبَّأها عند يهودي فوُجدت عنده فحلف أنه ما سرقها فسأل قومه النبي ﷺ أن يجادل عنه ويبرِّئه أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] فبَرَّأ القرآن الكريم اليهودي.

لست أدري ماذا كان سيكون موقف الذين يجعلون الوطن هو الأساس فيقدمونه على مكارم الأخلاق في مثل هذه الحال؟

ثالثاً: من أقوى الأدلة على أن الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة لا يلزم عنه التنكر للوطن؛ بل إن الإنسان قد ينتمي إلى عقيدة معينة ويظل مستمسكاً بالحنين إلى وطنه، قول رسول الله ﷺ حين أجبره الكفار على الهجرة من مكة:

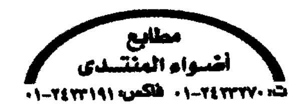
«مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِي مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ». قال الحاكم في المستدرك حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وكذلك كان أصحابه يعبرون عن هذا الحنين إلى الوطن ومن ذلك قول بلال بن رباح - رضي الله عنه -:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة
بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أردْنَ يوماً مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل

رابعاً: أن تحول الوطن إلى عقيدة تعلو على كلِّ العقائد والأفكار الأخرى فإن هذا قد يؤدي بالمؤمن بهذا الاعتقاد إلى أن يجعله كارهاً لكلِّ المعتقدات والأفكار التي يراها متناقضة مع فكرته هذه فيصير كما كان هتلر عدواً لكلِّ من يراه معتقداً لغير ما يعتقد، ومحارباً له بكلِّ الوسائل.

فهرس المحتويات

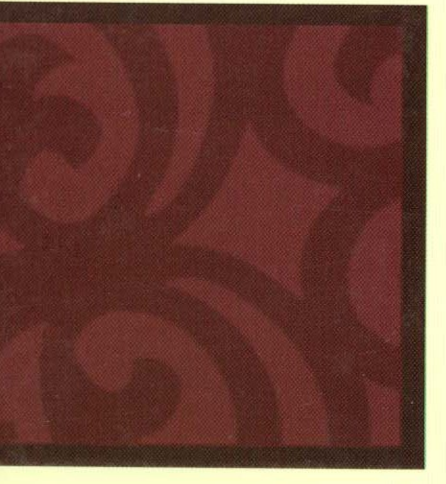

مطابع
أضواء المنتدى
ت: ٠١-٢٤٣٣٢٧٠ فاكس: ٠١-٢٤٣٣١٩١

الإسلام لعصرنا

حظيت سلسلة المقالات الشهرية التي يكتبها فضيلة الشيخ د. جعفر شيخ إدريس - حفظه الله - في زاوية (الإسلام لعصرنا) باهتمام كبير ومتابعة دقيقة من جانب القراء الكرام، حيث استمر الشيخ بالكتابة فيها لمدة تزيد على إحدى عشرة سنة تقريبًا، كان محصلتها (١٠٧) مقالات.

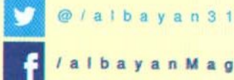
ويميز هذه المقالات أنها ثمرة علم راسخ، وأفق واسع، وصفاء منهجي، وتجربة خصبة.

وقد شرفت مجلة البيان بنشر أربعة أجزاء متفرقة من مقالات الشيخ، وها نحن نجمعها في إصدار واحد ليسهل الوصول إليها والاستفادة منها، ونضيف عليها (15) مقالة أخرى نشرت في المجلة ولم تُنشر في الأجزاء الأربعة السابقة.





مركز البحوث والدراسات



مكتب مجلة البيان
ص.ب 26970 - الرياض - 11496
www.albayan.co.uk
sales@albayan.co.uk
هاتف : 00966114546868

